

البيان

تقرير ارتيادي (استراتيجي)
محكم يصدر سنوياً عن مجلة



التحولات الكبرى

مستقبل العالم الإسلامي
بعد مائة عام من الحرب العالمية الأولى

الإصدار الحادي عشر ١٤٢٥ هـ

الجمعية الخيرية للحفاظ على القرآن الكريم ونشره في العالمين
هنا نستقبل دعمكم

الحواسيب: ٥٥٧٧٤٧٧٤١
رقم حساب الزكاة / ٥٥٧٧٤٧٧٤١
جميع الحسابات بمصرف الراجحي

٥٥٧٧٤٧٧٤١
٥٥٧٧٤٧٧٤١

تقرير ارتيادي (استراتيجي)
يصدر عن مجلة

البيان

التحوّلات الكبرى

مستقبل العالم الإسلامي

بعد مائة عام من الحرب العالمية الأولى

رئيس التحرير

أحمد بن عبد الرحمن الصويان

alsowayan@albayan.co.uk

نائب رئيس التحرير

حسن الرشيدى

هيئة التحرير

د. يوسف بن صالح الصغير

د. ضيف الله بن محمد الضعيفان

أحمد فهمي

سكرتير التحرير

أحمد عمرو

تدقيق لغوي

عبد العزيز مصطفى الشامي

الإخراج الفني

أحمد أبو الفتوح حسين

مجدي الطويل

أعد هذا التقرير بالتعاون بين مجلة البيان والمركز العربي للدراسات الإنسانية بالقاهرة

التقرير الحادي عشر

١٤٣٥هـ

ردمدم: (ISSN : 1658 - 127X)

جميع الحقوق محفوظة

مجلة البيان

١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م

مجلة البيان : الرياض ١١٤٩٦ - ص . ب : ٢٦٩٧٠
هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - ٠٠٩٦٦١ - فاكس : ٤٥٣٢١٢١ - ٠٠٩٦٦١
www.albayan.co.uk

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التحويلات الكبرى

مستقبل العالم الإسلامي بعد مائة عام من الحرب العالمية الأولى

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: فإن الأمة تعيش لحظات مفصلية من تاريخها؛ تسطرها بدماء ثورات تدفقت لكي تعيد هذه الأمة مرة أخرى إلى مسار التاريخ حتى لا تكون مجرد مرثية للبقاء على الأوطان التي ضاعت، أو الفكرة التي تاهت في غياهب عقول قد نسيت ما قد كانت.

والعودة لمسار التاريخ يقتضي البدء بدراسته ..

قد يقول قائل: إن دراسة التاريخ هي دراسة الماضي. ولكن التاريخ ليس هو الماضي، إنه قاعدة الحاضر، كما أنه انعكاس كليهما على المستقبل؛ لأن «من لا يملك نصيباً وافراً من تجربة البشرية فهو يبدأ من الطفولة البشرية.. إنه يبدأ من الصفر».

وتمثل الحرب العالمية الأولى مرحلة تاريخية ومنعطفاً عاصفاً في العلاقات الدولية والصراع بين القوى العالمية على تقاسم النفوذ.

ففي تلك المحطات تنهار دول وتبدأ أخرى بالارتقاء إلى مصاف القوى العظام لتضع بصمتها على النظام الدولي؛ لذلك عندما نتفهم تلك المفاصل التاريخية، وندرك أبعادها الجيوسراتيجية، وأحوال وسنن صعود القوى وهبوطها؛ فإن أمتنا الإسلامية تكون قد وضعت أول قدمها في طريق الرفعة والخيرية بين الأمم.

بدأت الحرب العالمية الأولى في ٢٨ يونيو ١٩١٤م عندما اغتيل الأرشيدوق فرانسيس فرديناند ولي عهد النمسا-المجر في سراييفو، وكان للقائد جافريلو برنسيب ارتباط مع تنظيم إرهابي في الصرب، فاعتقدت النمسا-المجر أن حكومة الصرب وراء هذا الاغتيال، وانتهزت الفرصة لتعلن الحرب على الصرب.

وعندما بدأت الحرب ساندت كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا -وهي التي عُرفت بدول التحالف- الصرب ضد قوى المحور المكونة من النمسا والمجر وألمانيا، ثم انضمت لها الدولة العثمانية، وفي البداية أحرزت ألمانيا انتصارات سريعة على الجبهات الأوروبية الرئيسية، وفي الجبهة الغربية أوقفت فرنسا وبريطانيا التقدم الألماني، وفي الجبهة الشرقية تقاطلت روسيا مع ألمانيا والنمسا والمجر، وتأرجح القتال ما بين كَرٍّْ وفَرٍّْ حتى سنة ١٩١٧م عندما اندلعت ثورة في روسيا، وسرعان ما طلبت روسيا عقد هدنة، وفي سنة ١٩١٧م انضمت الولايات المتحدة إلى الحلفاء، وأمدت الحلفاء بقوى بشرية كانوا في حاجة إليها لكسب الحرب، واستسلمت قوى المحور في خريف ١٩١٨م.

وأعقبت هذه الحرب بالنسبة للأمة الإسلامية عدة انتكاسات خطيرة، وتحولات كبرى، لا تزال تداعياتها تعاني منها أمتنا حتى هذه اللحظة، ومنها:

١- تداعي الخلافة الإسلامية بعد خروج آل عثمان مهزومين في هذه الحرب، وما لبثت أن انهارت تماماً بعد انتهاء الحرب بسنوات قليلة عام ١٩٢٤م.

٢- ترتب على سقوط الخلافة تقسيم الوطن العربي كفتائم حرب للمنتصرين الأوروبيين فيما أطلق عليه اتفاقية سايكس بيكو.

٣- وعدت بريطانيا (قائدة الجيوش المنتصرة) اليهود بوطن قومي لهم في فلسطين، وبدأت إجراءات تنفيذه في أعقاب الحرب مباشرة.

٤- ظهور مصطلح الدولة القومية لأول مرة في تاريخ وفكر المسلمين كبديل عن مصطلح الأمة الذي تعايش معه المسلمون طوال تاريخهم كوطن يحمل عقيدة لا يحده حدود.

لذلك وفي إطار هدف التقرير الذي سطرناه من أول عدد للتقرير نحاول أن نرجع لتاريخ هذه الحرب، ودراسة انعكاساتها على أمتنا، والتي لا تزال تداعياتها مستمرة حتى يومنا هذا، ونستشرف من خلال هذا التقرير مستقبل هذه الأمة، ورحلة صعودها وتبوؤها للحظة الهيمنة.

ولذلك تم تقسيم التقرير إلى خمسة أبواب؛ جاءت على النحو التالي:

في الباب الأول وهو الذي يتعلق بالتحولات الفكرية: بدأنا بموضوع (من الغزو الفكري إلى حرب الأفكار.. قراءة في أساليب الغارة على العالم الإسلامي)، والذي يهدف إلى كشف وتقييم هجمات الغزو الفكري، وحرب الأفكار على العالم الإسلامي خلال مائة عام منذ الحرب العالمية الأولى، إضافة إلى استشراف مستقبل المواجهة الفكرية القادمة.

ويأتي بحث (إسقاط الدولة العثمانية بين الأسباب الداخلية والخارجية) ليجمع أسباب انهيار الدولة العثمانية، وأن من الأهمية أن يعلم المسلمون أنهم ليسوا خارج حركة التاريخ، وأنهم ليسوا فوق السنن الإلهية في تغيير الأقاليم والأمم، صعوداً وهبوطاً. وتأتي دراسة (الصعود العلماني في العالم الإسلامي .. جذوره وثماره) لتوضح معالم جذور وأصول الفكر العلماني، وكذلك مخرجاته السياسية، وكيف صارت فكراً مسيطرًا في مجتمعات المسلمين عبر مؤسسات رسمية وغير رسمية.

وسلطت دراسة (الجمعيات والمنظمات القومية العربية تاريخها وآثارها) الضوء على أهداف تلك الجمعيات، ومنها: الانفصال عن الدولة العثمانية، واستقلال البلاد العربية، وقيام خلافة عربية بدلاً عن الدولة العثمانية، وفصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، وتحكيم الدستور. وتشير دراسة (الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي.. الماضي والحاضر والمستقبل) إلى المراحل التي مرت بها تلك الأحزاب منذ نشأتها، مروراً بفقدان قاعدتها الأيديولوجية وصولاً لمرحلة الربيع العربي.

وتركز دراسة (ظهور الحركات النسوية في العالم العربي، ومشروع تحرير المرأة) على ثمرات الأفكار النسوية التحررية التغريبية على المجتمعات الإسلامية.

أما الباب الثاني من أبواب التقرير فقد خصصناه للتحولات السياسية في العالم الإسلامي:

وأول موضوعاته (مسألة الأقليات في العالم الإسلامي .. استراتيجيات التعامل) وقد خلصت إلى أن التعاطي مع مسألة الأقليات وفقاً لتعاليم الدين الإسلامي هي معالجة موضوعية وواعية وسبّاقة لا تتال من حقوق الأقليات وواجباتهم في البلد المسلم.

بينما ترى الدراسة الثانية (الطموح التركي.. مسارات الصعود وتحديات الهيمنة) أن الصعود التركي، سيضع تركيا في قلب سياسات المنطقة، وهو ما سيسبب صراعات على النفوذ والقوة، وسيؤدي كذلك إلى تمحور قوى إقليمية ودولية سواء مع أو ضد ذلك الصعود التركي.

والدراسة الثالثة، والتي تأتي بعنوان (وعد بلفور وتكوين دولة الكيان الصهيوني من النكبة إلى النكسة ثم السلام) تشير إلى أن وعد بلفور هو ذروة الصراع العربي الصهيوني في فلسطين، بعد إنجاز هدفه بإقامة الوطن القومي اليهودي، وقد مهد الوعد لتنامي قوة الصهاينة، وضعف العرب؛ نتيجة لواقع التجزئة وتركة الاستعمار.

وتتناول الدراسة الرابعة: (تصاعد وتراجع العداء بين الغرب والإسلام في ضوء قرن من الزمان) الصراع بين الإسلام والغرب الذي يرى الباحث أنه صراع قديم وعميق.

وتسلط الدراسة الخامسة (الصراع المذهبي والعرق في العالم الإسلامي: الجذور والمستقبل) الضوء على جذور الصراع العرقي والمذهبي في العالم الإسلامي، ودور الاستعمار والفكر العلماني في تعميق هذا الصراع.

وفي الباب الثالث التحولات السياسية الدولية:

خلصت أولى دراسات هذا الباب (دور المؤسسات الدولية في تعزيز الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي) إلى أن وجود ما أطلق عليه منظمات دولية كان ولا يزال وبالاً على العالم ودوله وشعبه. خاصة الإسلامية منه. لذا يكمن الحل في تكتل قوي يعتمد على عنصر القوة، عسكرياً أو اقتصادياً أو توافقاً سياسياً، أو على هذه الأصعدة معاً. إضافة إلى اعتماد أنظمة

ومعاهدات لتحقيق «شرعية» إقليمية مرجعية للدول الأعضاء في التكتل، بديلة عن «شرعية» دولية مفتقدة في الأمم المتحدة. وركزت الدراسة الثانية (قرن من الصعود الأمريكي وأثره على النظام الدولي) على الأهمية التي تتمتع بها الولايات المتحدة في هيكل النظام الدولي، وطبيعة الدور الذي تمارسه ليس فقط في بناء هذا الهيكل، وإنما كذلك في تحديد قضاياها وأولوياتها، من ناحية، وتعدد القضايا العربية والإسلامية التي لا تؤثر الولايات المتحدة فقط في إدارتها، بل في بروزها والتأسيس لها. أما الدراسة الثالثة: (تغيير موازين القوى في أوروبا ونشوء الاتحاد الأوروبي) فتري أن النظام الدولي يتجه إلى التعددية القطبية مع تراجع الولايات المتحدة وصعود قوى دولية -الصين كقوة صاعدة وروسيا الاتحادية-، و بروز دول من الجنوب، مثل البريكس.

وسلطت الدراسة الرابعة (الاتحاد السوفييتي بين الصعود والسقوط وأثره على العالم الإسلامي) الضوء على التغييرات العميقة في السياسة الخارجية الروسية بعد تفكك الاتحاد السوفييتي في ديسمبر ١٩٩١م، واختلال التوازن الاستراتيجي في المنطقة.

تليها الدراسة الخامسة: (المعاهدات الدولية بعد الحرب العالمية الأولى .. وآثارها على العالم العربي والإسلامي) التي خلصت إلى أن الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى تعاملت مع العالم العربي -الإسلامي من خلال طرح «المسألة الشرقية»، و«مسألة الرجل المريض»، واهتمت بشكل أساس بوضع الإمبراطورية العثمانية التي كانت من بين المهزومين، وارتبطت هذه السياسة بإعادة ترسيم توازنات القوة بين الإمبراطورية العثمانية والقوى الكبرى في العالم. أما الدراسة السادسة: (الصراع المذهبي المسيحي وأثره على الصراع الدولي) فتستعرض تاريخ هذه الصراعات، والدور الذي لعبته في تكوين العقلية السياسية الغربية.

أما الباب الرابع وعنوانه التحولات في مجال العمل الإسلامي:

فقد تضمنت دراستين: الأولى عن (الحركات الإسلامية والحفاظ على هوية الأمة)، وأشارت إلى بروز خطاب الهوية في الفكر الإسلامي بعد التهديدات الخارجية والداخلية .. كالغزو الاستعماري، وتبعاته الثقافية والأخلاقية والاجتماعية؛ حيث إن الاستعمار الغربي لم يقف عند السيطرة على الأرض ونهب الثروات، بل إنه سعى إلى طمس الهوية الدينية والثقافية والحضارية واللغوية للشعوب الإسلامية.

أما الدراسة الثانية (الحركة الإسلامية في القارة الهندية .. نشأتها وتطورها) فخلصت إلى أنه لا يمكن إغفال العلاقة غير السوية غالباً بين الدعوة والسلطة عبر القرون، ولا طبيعة الدعوة نفسها، والتي غلبت عليها النزعة الصوفية إلى القرن السابع عشر الميلادي عندما نشأت اتجاهات إصلاحية من داخل تلك الجماعات نفسها.

وفي الباب الاقتصادي وهو الباب الخامس والأخير:

أشارت الدراسة الأولى: (العرب ومائة عام من التبعية .. قراءة في معدلات التنمية في العالم العربي) إلى أن معالجة قضية التبعية في العالم العربي، تقتضي السعي الحقيقي لتفعيل مشروع التكامل الاقتصادي العربي الذي تمت الدعوة له منذ أكثر من ستة عقود، إبان حصول العديد من الأقطار العربية على استقلالها السياسي.

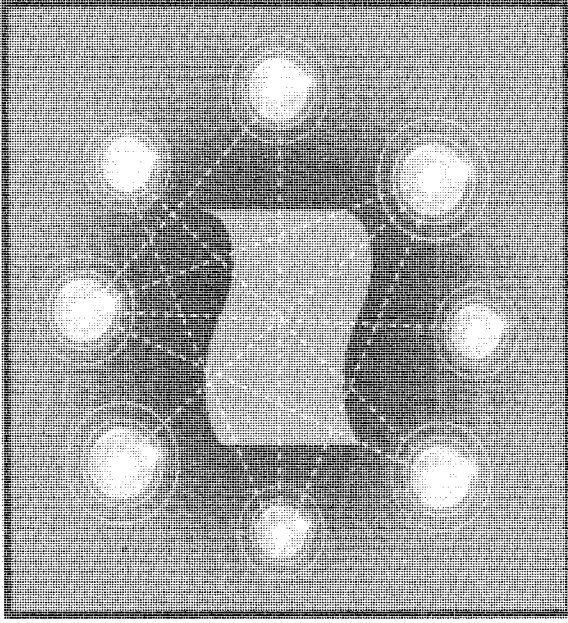
بينما في الدراسة الأخيرة (التحولات الاقتصادية عقب الحرب العالمية الأولى وأثرها على العالم الإسلامي) فقد ناقش الباحث مستقبل اقتصاديات دول الربيع العربي في ضوء ما آلت إليه تطورات النظام الاقتصادي العالمي منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن، وأن المخرج الرئيس لاقتصاديات هذه الدول، هو النظام الإسلامي، وعلى تلك الدول أن تحسن ترتيب أولوياتها وتستفيد من تجارب الآخرين.

والله نسأل التوفيق والسداد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

الصفحة	الباحث	اسم الدراسة
٥		المقدمة
٩		الفهرس
١١		الباب الأول: التحولات الفكرية:
١٣	د. أحمد محمود السيد	من الغزو الفكري إلى حرب الأفكار.. قراءة في أساليب الفارة على العالم الإسلامي
٣٥	محمد غل	إسقاط الدولة العثمانية بين الأسباب الداخلية والخارجية
٥٥	بهاء الدين الزهري	الصعود العلماني في العالم الإسلامي .. جذوره وثماره
٨١	د. خالد الديبان	الجمعيات والمنظمات القومية العربية.. تاريخها وآثارها
٩٧	د. أحمد ماجد	الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي.. الماضي والحاضر والمستقبل
١١٩	الهيثم زعفان	ظهور الحركات النسوية في العالم العربي ومشروع تحرير المرأة
١٣٩		الباب الثاني: التحولات السياسية في العالم الإسلامي
١٤١	د. السيد أبو فرحة	مسألة الأقليات في العالم الإسلامي .. استراتيجيات التعامل
١٥٩	محمد سليمان الزواوي	الطموح التركي .. مسارات الصعود وتحديات الهيمنة
١٧٩	د. عدنان أبو عامر	وعد بلفور وتكوين دولة الكيان الصهيوني من النكبة إلى النكسة ثم السلام
٢٠١	محمد إبراهيم مبروك	تصاعد وتراجع العداء بين الغرب والإسلام في ضوء قرن من الزمان
٢١٩	د. تامر بكر	الصراع المذهبي والعربي في العالم الإسلامي.. الجذور والمستقبل
٢٤١		الباب الثالث: التحولات السياسية الدولية:
٢٤٣	أحمد عمرو	دور المؤسسات الدولية في تعزيز الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي
٢٦٣	د. عصام عبد الشافي	قرن من الصعود الأمريكي وأثره على النظام الدولي
٢٨٧	د. أحمد البرصان	تغيير موازين القوى في أوروبا ونشوء الاتحاد الأوروبي
٣١٥	د. نورهان الشيخ	الاتحاد السوفييتي بين الصعود والسقوط وأثره على العالم الإسلامي
٣٣٩	د. مروة نظير هويدي	المعاهدات الدولية بعد الحرب العالمية الأولى.. وآثارها على العالم العربي والإسلامي
٣٥٩	فيصل بن علي الكاملي	الصراع المذهبي المسيحي وأثره على الصراع الدولي
٣٨١		الباب الرابع: التحولات في مجال العمل الإسلامي
٣٨٣	علي عبد العال ومحمود طرشوبي	الحركات الإسلامية والحفاظ على هوية الأمة
٤٠١	هشام عليوان	الحركة الإسلامية في القارة الهندية.. نشأتها وتطورها
٤٢١		الباب الخامس: التحولات الاقتصادية:
٤٢٣	حنفي عوض	الغرب ومائة عام من التبعية .. قراءة في معدلات التنمية في العالم العربي
٤٤١	عبد الحافظ الصاوي	التحولات الاقتصادية عقب الحرب العالمية الأولى، وأثرها على العالم الإسلامي.



أولاً: التحويلات الفكرية

- من الغزو الفكري إلى حرب الأفكار .. قراءة في أساليب الغارة على العالم الإسلامي
- أسباب سقوط الدول .. الخلافة العثمانية أنموذجاً
- الصعود العلماني في العالم الإسلامي .. جذوره وثماره
- الجمعيات والمنظمات القومية العربية .. تاريخها وأثارها
- الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي .. الماضي والحاضر والمستقبل
- ظهور الحركات النسوية في العالم العربي، ومشروع تحرير المرأة

■ د. أحمد محمود السيد

■ محمد غل

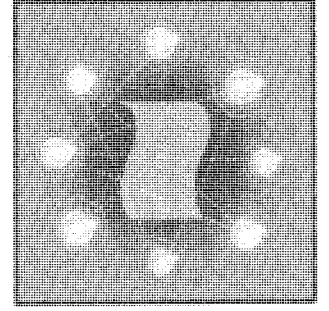
■ بهاء الدين الزهري

■ د. خالد الدبيان

■ د. أحمد ماجد

■ الهيثم زعفان

من الغزو الفكري إلى حرب الأفكار..



قراءة في أساليب الغارة على العالم الإسلامي

د. أحمد محمود السيد

مدير وحدة بحوث العالم الإسلامي بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

ملخص الدراسة

يهدف البحث إلى كشف وتقييم هجمات الغزو الفكري وحرب الأفكار على العالم الإسلامي خلال مائة عام منذ الحرب العالمية الأولى، واستشراف مستقبل المواجهة الفكرية القادمة.

لقد أخذ الغزو الفكري (الغربي) على العالم الإسلامي ثلاث مراحل؛ الأولى ما قبل إسقاط دولة الخلافة (من بعد نهاية الحروب الصليبية وحتى الحرب العالمية الأولى)، والمرحلة الثانية حال الإجهاد على دولة الخلافة، والمرحلة الثالثة بعد سقوط دولة الخلافة العثمانية.

بدأت حرب الأفكار الموجهة للعالم الإسلامي منذ سقوط الاتحاد السوفياتي، وتفرقت ولاياته إلى دول مستقلة عام ١٩٩١م، ومنذ هذا التاريخ انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بما سُمي بالنظام العالمي الجديد ذي القطب الواحد؛ حيث بدأت الحقبة الأمريكية في شن حروب الأفكار على العالم الإسلامي.

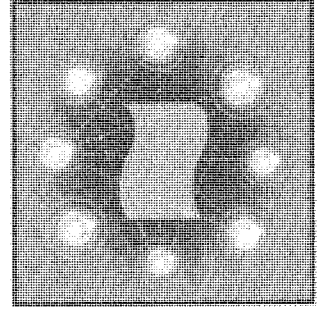
وفي ١١ سبتمبر ٢٠٠١م تغيرت خريطة الحرب الفكرية الأمريكية إلى لب العالم الإسلامي، وإلى مضمون الدين الإسلامي ذاته وبأيدي أبناء الإسلام لتحويله إلى منظومة تتوافق مع النظام الجديد.

النقطة الرئيسية في حرب الأفكار هي محاولة تغيير فكر الخصم من داخل منظومته الفكرية، وبأيدي فقهاء الخصم ومنظريه؛ فأمريكا تحاول تغيير الثوابت الإسلامية، وجعلها تتوافق مع ما تنطلق منه باستخدام وسائل الهجوم والدفاع التي تنتصر في النهاية لما تريده من الهجمة العسكرية وما بعدها من مواءمات.

ومنذ بداية مرحلة ثورات الشعوب العربية ٢٠١١م في تونس وليبيا، ومصر وسوريا، واليمن جاءت مرحلة الربيع العربي لتُسقط أنظمة، وتُقصي طغاة، وتبشّر بحكم يتوافق ومطالب الشعوب في الحرية والعدالة الاجتماعية والعيش الكريم، وكانت التيارات الإسلامية هي المكون الكبير القائد لهذه الثورات، وهذه التيارات الإسلامية دخلت في العملية السياسية وحققت نجاحًا كبيرًا في أول الأمر.

دخلت الحروب الفكرية منطقة مختلفة في أساليبها ومناهجها بعد صعود الإسلاميين لسدة الحكم في هذه الدول؛ فاهتمت أمريكا بمسألة تجديد الخطاب الإسلامي ليحقق أهداف المرحلة الثورية التي غطت المنطقة من تونس إلى ليبيا إلى مصر إلى اليمن إلى سوريا، فضلاً عن رياح التغيير التي بدأت تهب على المغرب العربي في الجزائر والمغرب وموريتانيا.. فبدأت في توظيف مجموعات من الدعاة الجدد جنباً إلى جنب مع دعاة قدامى من أصحاب الميول الانهزامية ومن دعاة التغريب والانصياع للقوى الغربية وللأنظمة لنشر أفكارها وتحقيق أغراضها.

من الغزو الفكري إلى حرب الأفكار..



قراءة في أساليب الغارة على العالم الإسلامي

د. أحمد محمود السيد

مدير وحدة بحوث العالم الإسلامي بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

مقدمة:

تمثل الحرب العالمية الأولى خطأ فاصلاً بين عهدين؛ عهد القوة والهيمنة لدولة الخلافة الإسلامية (العثمانية) وبين عصر سقوط تلك الدولة المهيبة، وانهزام قوتها العسكرية أمام القوة الغربية، وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا وروسيا.

وقد بدأت حملات الغزو الفكري للعالم الإسلامي عقب نهاية الحروب الصليبية، وفشلها في تحقيق مآربها ويزوغ قوة دولة الخلافة، وسيطرتها على مساحات شاسعة من قارات العالم في إفريقيا وآسيا وأوروبا؛ حيث ظلت أكثر من ستة قرون (٦٠٠ عام) من يوليو ١٢٩٩م - ١٩٢٣م، كانت لها السيادة والهيمنة والغلبة على قوى الغرب الأوروبي إلى أن بدأ يدبّ في أوصالها الضعف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وتمكن الاستعمار الإنجليزي والفرنسي من التغلغل والسيطرة على قطاعات كبيرة من أملاك الدولة العثمانية، وبدأ يخطط لإسقاطها، وكانت الضربة القاصمة في الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة الدولة العثمانية، وإلغاء دولة الخلافة، وتقسيم أملاكها بين المنتصرين من القوى الأوروبية.

وأخذ الغزو الفكري (الغربي) للعالم الإسلامي ثلاث مراحل؛ الأولى ما قبل إسقاط دولة الخلافة (من بعد نهاية الحروب الصليبية وحتى الحرب العالمية الأولى)، والمرحلة الثانية حال الإجهاز على دولة الخلافة، والمرحلة الثالثة بعد سقوط دولة الخلافة العثمانية.

وكانت إنجلترا وفرنسا على رأس الدول التي اقتسمت كعكة دولة الخلافة؛ حيث امتد الصراع بينهما للهيمنة الكبيرة على العالم الإسلامي، وبعد الحرب العالمية الثانية بدأت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي في اقتسام السيطرة والهيمنة على أملاك الدولة العلية، ثم انهار الاتحاد السوفييتي، وتفرقت ولاياته إلى دول مستقلة عام ١٩٩١م.

ومنذ هذا التاريخ انفردت الولايات المتحدة الأمريكية بما سُمي بالنظام العالمي الجديد ذي القطب الواحد؛ حيث بدأت أمريكا في شن حروب الأفكار على العالم الإسلامي، وفي ١١ سبتمبر ٢٠٠١م تغيرت خريطة الحرب الفكرية الأمريكية إلى لبّ العالم الإسلامي، وإلى مضمون الدين الإسلامي ذاته، وبأيدي أبناء الإسلام؛ لتحويله إلى منظومة تتوافق مع النظام الجديد، وترد الهجوم على برجي التجارة بحرب أفغانستان والعراق فيما سُمي بالحرب على الإرهاب. وتجفيف منابعه.

ومنذ بداية مرحلة ثورات الشعوب العربية ٢٠١١م في تونس وليبيا ومصر وسوريا واليمن دخلت الحروب الفكرية منطقة مختلفة في أساليبها ومناهجها بعد صعود الإسلاميين لسدة الحكم في هذه الدول.

الهدف من الدراسة:

يهدف البحث إلى كشف وتقييم هجمات الغزو الفكري وحرب الأفكار على العالم الإسلامي خلال مائة عام منذ الحرب العالمية الأولى وحتى ٢٠١٣م - ٢٠١٤م، واستشراف مستقبل مواجهة الفكرية القادمة.

المشكلة البحثية:

تكمن المشكلة البحثية في الإجابة على السؤال التالي: كيف يمكن مواجهة الهجمات والحروب الفكرية على العالم الإسلامي، وكيفية إعادة توجيهها إلى العدو مرة أخرى؟ أو كيف يمكن صدّها والاستفادة منها دون خسائر؟

الأسئلة البحثية:

السؤال الأول: ما الفرق بين الغزو الفكري وحرب الأفكار؟

السؤال الثاني: ما وسائل التصدي للغزو الفكري وحرب الأفكار؟

السؤال الثالث: كيف يمكن التخطيط لمواجهة السيناريوهات المختلفة للحروب الفكرية؟

منهج البحث:

المنهج الوصفي التحليلي - منهج تحليل المضمون - اقترب المنظور الثقافي.

مصطلحات البحث:

الغزو الفكري - العالم الإسلامي - حرب الأفكار - الغارة - الخلافة الإسلامية.

المحور الأول: الغزو الفكري.. مفهومه ومراحله واستراتيجيته

المبحث الأول: التعريف والمفهوم

التعريف اللغوي:

غزا العدو: سار إلى قتالهم وانتهاهم في ديارهم، فهو غاز، والجمع غزاة.^(١)

فكر: فكّر في الأمر: أعمل العقل فيه، ورتب بعض ما يعلم ليصل به إلى المجهول. فكّر في المشكلة: أعمل العقل فيها ليتوصل إلى حل، فهو مفكّر. ويقال: لي في الأمر فكر، أي: نظر ورؤية. والجمع أفكار. والفكرة: الصورة الذهنية لأمر ما.^(٢)

التعريف الاصطلاحي:

الغزو الفكري: الإغارة على أمة من الأمم إغارة ثقافية بأسلحة فكرية؛ للهيمنة على عقول أفرادها وزعزعة الثوابت التي ينطلقون منها، والتشويش على أفهامهم، مما يدمر قواها الداخلية ويحطّم مقوماتها.^(٣)

المبحث الثاني: الدوافع والاستراتيجية

١- أسباب الغزو الفكري:

للغزو الفكري من قبل الغرب نحو العالم الإسلامي مجموعة أسباب يمكن تركيزها في الآتي:

أولاً: كراهية الإسلام والمسلمين:

قال تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَدُوًّا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾، يذكر أهل السير أن الجيوش الأوروبية الصليبية لما هاجمت بلاد الإسلام كانت مدفوعة إلى ذلك بدافعين:

١- دافع الدين، والعصية العمياء، التي أثارها رجال

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ٢٠٠٤، ط٤، مادة غزا، ص ٦٥٢.

(٢) المعجم الوسيط، مادة فكر، ص ٦٩٨.

(٣) د. محمد محمد حسين، حصوننا مهددة من الداخل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ص ٢٣.

ج - الادعاء بأن الفِرَق الإسلامية عندما اختلفت في الآراء أخذ كل منها يضع لنفسه الأحاديث التي يؤيد بها رأيه.

٤- محاولة تشويه شخصية الرسول صلى الله عليه

وسلم، والطعن في رسالته، ومثال ذلك ما أشاعوه عنه عليه السلام بأنه رجل عنف وحرب، ورجل شهواني.. إلخ.

٥- محاولة تشويه التاريخ الإسلامي؛ فقد صور هؤلاء الفتوحات الإسلامية على أنها غزو واستعمار واحتلال وبطش، وأن الخلافة الإسلامية خلافة تآمر وسفك دماء.

٦- محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية بالادعاء بأنه لا يوجد نظام للحياة معروف في الإسلام، واتهام قوانين الشريعة بالرجعية والقسوة، وعدم القدرة على مواكبة ركب التحضر والتقدم، واتهامهم للنظم الإسلامية بالمحلية والقصور والإقليمية والوحشية والهمجية في التطبيق^(٢).

المبحث الرابع: مراحل الغزو الفكري

للعالم الإسلامي

تنقسم مراحل الغزو الفكري للعالم الإسلامي إلى ثلاث مراحل؛ على النحو التالي:

١- المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل سقوط الخلافة العثمانية، وينتظم هذه المرحلة محوران «الاستشراق - التبشير»؛
أ- الاستشراق:

أنتجت الحروب الصليبية على العالم الإسلامي إنتاجاً فكرياً تمثل في التبشير والاستشراق؛ وقد بدأ الاستشراق عندما نفر قوم من الغربيين يدفعهم التعصب الصليبي إلى الكتابة عن الإسلام، فأفقدتهم التعصب أمانة العلم، وعمدوا إلى تشويه الإسلام من عدة نواح:

الكنيسة، في شعوب أوروبا مفتريين على المسلمين أبشع الافتراءات، محرّضين النصارى أشد تحريض على ما زعموه تخليص مهد المسيح من أيدي الكفار «المسلمين».

٢- دافع سياسي استعماري:

حيث سمع ملوك أوروبا بما تتمتع به بلاد المسلمين من حضارة وثروات فجاءوا يقودون جيوشهم باسم المسيح، وما في نفوسهم إلا الرغبة في الاستعمار ونهب ثروات المسلمين.

ثانياً: الأثر التاريخي لانتصارات المسلمين وفتوحاتهم لأوروبا وهيمنتهم على جانب كبير منها وإذلال الباقي بدفع الجزية.

ثالثاً: استغلال فرصة تخلف العالم الإسلامي عن ركب الحضارة وحالة الضعف الفكري لشعوبها نتيجة بُعدهم عن هدي الوحيين المعصومين (الكتاب والسنة) وفرصة الانبهار بحضارة الغرب، وركون شعوبها إلى التخاذل والتكاسل^(١).

المبحث الثالث: مظاهر الغزو الفكري

١- محاولة تشويه عقائد المسلمين بغير سند ولا دليل.

٢- محاولة تشويه القرآن الكريم. يقول المستشرق هاملتون جيب: «إن محمداً قد تأثر بالبيئة التي عاش فيها، وشق طريقه بين الأفكار والعقائد السائدة في بيئته، فالقرآن من صنع محمد، ومن ملائمات هذه البيئة التي عاش فيها».

٣- محاولة تشويه السنة النبوية؛ ومن هذه المحاولات:

أ- الادعاء بأن هناك بعض الأحاديث لا يمكن أن تكون قد صدرت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ب- الادعاء باستحالة القطع بصحة النسبة إلى الرسول عليه السلام في أحاديثه تاريخياً.

(١) د. علي جريشة، أساليب الغزو الفكري، دار الاعتصام للنشر، القاهرة.

١٩٧٩ م، ص ٧٤.

(٢) د. علي جريشة المرجع السابق ص ٧٧.

الإسلام، وعقيدته حيّة في قلوب المسلمين، إذ ظل التبشير فاشلاً في أداء مهمته حتى نهاية الحروب الصليبية، وهو ما يصرح به «ملخص تاريخ التبشير».

واتخذ التبشير لدعوة المسلمين أساليب عديدة، أظهرها لنا:

أ- المدارس المختلفة التي فتحت في أرجاء العالم

الإسلامي، ولم تتج منها حتى

عاصمة الخلافة الإسلامية

نفسها، وبأشرت تلك المدارس

التأثير على الطفولة البريئة

والشبيبة الغضة من أبناء

المسلمين، وكانت لها نتائج إيجابية

محدودة، لكنها وإن لم تمح في

المجموع عقائد التلاميذ، فيكفي

أنها بذرت فيها بذور الشك أو

الانحراف، ولا تزال من آثار تلك

المدارس: الجامعة الأمريكية في مصر، والجامعة

الأمريكية في بيروت، الأمر الذي لا ينكره رجالات

المدارس المختلفة التي فتحت في أرجاء العالم الإسلامي، ولم تنج منها حتى عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها، بأشرت تلك المدارس التأثير على الطفولة البريئة والشبيبة الغضة من أبناء المسلمين، وبذرت فيها بذور الشك أو الانحراف ولا تزال من آثار تلك المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

المدارس الأمريكية بمصر.

- ردّدوا أن القرآن من وضع محمد - عليه الصلاة والسلام-، وأن سذاجة الصحابة وإيمانهم دفعهم إلى نقله على أنه من عند الله.

- خلطوا في مصادر الأحكام الإسلامية بين المصادر

الإلهية: القرآن والسنة، وبين الاجتهاد، ونظروا إلى

الجميع على أنها من صنع البشر،

فسووا بينها في المنزلة!

- دعوا إلى التصوف الإسلامي؛

لما يؤدي إليه في أكثر الأحيان من

صرف أصحابه عن الجهاد، وهو

أكثر ما يثير الصليبيين ويفزعهم،

وذلك عن طريق تحويل التفكير

الإسلامي وترويض المسلمين عن

طريق الغزو الفكري، بأن يقوم

العلماء الأوروبيون بدراسة الحضارة

الإسلامية، وهكذا تحولت المعركة من ميدان السلاح

إلى معركة في ميدان العقيدة والفكر؛ بهدف تزييف

عقيدة المسلمين الراسخة التي تحمل طابع الجهاد،

وتدفع المؤمنين إلى الاستشهاد.

وقد تبع المستشرقين في فكرهم: طه حسين،

سلامة موسى، وحسين فوزي، وزكي نجيب محمود،

ومحمود عزمي، وعلي عبد الرازق، وغيرهم.

أهداف المستشرقين:

أولاً: الحيلولة بين الشعوب النصرانية وبين الإسلام

عن طريق ترجمة القرآن لتزييف مفاهيمه وانتقاصها.

ثانياً: تأييد الغزو الاستعماري لبلاد المسلمين،

والعمل على تحطيم المقاومة الإسلامية، بتأويل

الجهاد، وصرف أنظار المسلمين إلى الدعة، والقعود

عن الجهاد في سبيل الله.

ثالثاً: فصل المسلمين عن جذورهم الثابتة الأصيلة،

بتشويه تلك الأصول، وعزلها عن مصادرها^(١).

ب- التبشير:

أيقن أعداء الإسلام أنه لا سبيل إلى القضاء على

(١) نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢ م، ص ١٤١.

ب- ومن أخطر هذه الوسائل: البعثات إلى الدول

المسيحية الغربية، وأول مثل لأثر البعثات هو ما حدث

لرفاعة الطهطاوي الذي أقام في باريس من سنة

١٢٤٢هـ - ١٨٢٦م، إلى سنة ١٢٤٧هـ - ١٨٣١م، فقد

عاد ذلك الشيخ بغير العقل الذي ذهب به.

وتحدّث عن المشاعر الوطنية ليحلها محل المشاعر

الدينية، وراح يثير الجاهلية القديمة؛ فيتحدّث عن

مصر الفرعونية، وينسى مصر الإسلامية، وأعجب

الطهطاوي بالحرية، لكنه لم يفهمها الفهم الإسلامي

الذي تحقق به عبودية المسلم لله وحده، ويتحقق

تحرره من كل عبودية لغير الله، لكنه فهمها الفهم

الغربي الذي قد يؤدي إلى التحرر من الأخلاق ومن

الدين نفسه..!

ثم تأتي سائر وسائل التبشير الأخرى مثل: فتح

ب- نشر القومية في مواجهة الخلافة:

كانت اليد الخفية التي تعمل على تقويض الخلافة
بيث فكرة فصل الدين عن الدولة، تعمل من ناحية
أخرى عن طريق القومية، وذلك عن طريق: إثارة
القومية الطورانية داخل دولة الخلافة - تركيا.

بالإضافة إلى إثارة القومية العربية داخل الولايات
العربية التابعة للخلافة.

والأولى: تعهدها حزب الاتحاد والترقي، وحزب
تركيا للفتاة.

والثانية: انزلق إليها الشريف حسين؛ ظناً منه أنها
الوجه الآخر للإسلام، واعتقاداً منه في حسن نوايا
الجاسوس «لورانس»، ومن ورائه ماكماهون، حتى انتهى
الأمر إلى أن تحارب جيوش القومية العربية جيوش
الخلافة الإسلامية، تعضدها الجيوش الإنجليزية التي
سارت تحت راية فيصل بن الشريف الحسين؛ لتخرج
سوريا لاستقبالها استقبال الفاتحين. ثم بدأت الدعوة
للقومية العربية تنظيراً وفكراً في النصف الثاني من
القرن التاسع عشر، وتألّفت في بيروت جمعية سرية
لهذا الغرض، في سنة ١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م.

وقبل ذلك تم نشر القومية العربية على يد لورانس،
الجاسوس الإنجليزي، ومن جرهم من أذقانهم وراء
قدمه!!

وكان من ضمن شروط كيرزون الأربعة لاستقلال
تركيا، وتسليمها للكَماليين، ما يلي:

١- قطع كل صلة بالإسلام.

٢- إلغاء الخلافة.

٣- إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد.

٤- اتخاذ دستور علماني بدلاً من الدستور القديم.^(٢)

٣- المرحلة الثالثة: مرحلة ما بعد سقوط دولة الخلافة
العثمانية:

١- التغيير السياسي:

منذ أُتيح للغرب الصليبي أن يتسلط على الشرق

المستشفيات، وبعث الإرساليات الطبية التي يقرر كثير
من المبشرين في مؤتمراتهم وكتاباتهم أنها أدت إلى
نتائج أسرع وأفضل من عمل القسس التبشيرية.

د- ثم المحاضرات والندوات، والكتب والمجلات،
والصحف والنشرات.

٢- المرحلة الثانية: الإجهاز على دولة الخلافة العثمانية

١- إلغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة:

لقد كان إسقاط دولة الخلافة هدفاً لليهود قبل أن
يكون هدفاً للصليبية الغربية عندما أدركوا أن قيام
دولة إسرائيل لن يتأتى إلا بعد سقوط الخلافة، وذلك
يؤكدّه طلب «قرصو» زعيم اليهود في سالونيك، إلى
السلطان عبد الحميد، إعطاء فلسطين لهم ليتخذوها
وطناً قومياً، فلما رفض الخليفة توعدّه الزعيم
اليهودي، وكان من بين مَنْ سلّمه قرار العزل بعد ذلك
إثنان من زعماء اليهود.

«ولا بد أن يقطع الشجرة أحد أعضائها»، كما
أوصى بذلك أحد مؤتمرات التبشير، لكن قبل أن
تُقطع الشجرة التي أظلت بلاد الإسلام منذ عهد
النبوّة، وقبل أن يُقضى على البطل الإسلامي السلطان
عبد الحميد، كان ثمة تمهيد تمثل في بثّ فكرة فصل
الدين عن الدولة.

وقد أشار الكاتب الأمريكي «وليام غاي كار» إلى أن
فكرة فصل الدين عن الدولة، كانت من عمل اليهود،
وبصرف النظر عما قاله «وليام غاي كار»؛ فإن
الواضح في الشرق الإسلامي أن الفكرة كانت غريبة
عنه، ومن ثمّ، فإن الأيدي الأجنبية كانت وراءها، سواء
كانت أيدي الصليبية المتعصبة، أو اليهودية الحاقدة.

ذلك أن فقهاءنا الإسلامي، ومن بعده فكرنا الإسلامي،
لم يعرف مثل هذه الفكرة ولم يتصورها، بل إنه على
العكس من ذلك يعرف أن قرآنه يحرم تجزئة الكتاب،
ويعتبر ذلك كفرًا وفتنة وجاهلية.

ويعرف أن الوظيفة الأولى لهذا القرآن أن يحكم، لا
أن يُوضع على الأرفف والمناضد، أو تُحشى به الجيوب
والتمائم، أو تتغنى به وتتسلى بعض العمائم^(١).

(٢) د. محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار للنشر،

١٩٨٢، ص ٥١.

(١) د. علي جريشة، أساليب الغزو الفكري ص ١٨٠.

وواضح أن التغريب، أو التغيير الاجتماعي الذي كان يجري على أيدي المحتلين والمستعمرين، صار يجري اليوم - في أكثر الأحوال - على أيدي النخب الوطنية التي هي في أكثر الأحيان عسكرية.

والهدف الحقيقي من التغيير الاجتماعي: إبعاد الأمة عن دينها في شتى نواحي الدين التي تشمل شتى نواحي الدنيا^(٢).

ج- التغيير الفكري:

عمل الاستعمار الغربي الصليبي متعاوناً مع القوى اليهودية - الساعية لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين - على نشر الفكر العلماني (العلمانية)، والفكر الليبرالي (الليبرالية)، والفكر الشيوعي (الشيوعية) والاشتراكية، على الرغم من التناقض بينهما. وذلك من أجل إغراق العالم الإسلامي في بحر هذه النظم، وبلبلة فكر المسلمين بعد سقوط دولة الخلافة في أيدي أعدائها، فقد عمقت العلمانية مسألة فصل الدين عن الدولة، وفصل الدين عن مناحي الحياة، وحصره في المساجد وفي قلوب المؤمنين، وجاءت الشيوعية لتبعث البلبلة والشك في عقيدة المسلمين، وكانت الليبرالية هي الابنة الوحيدة للعلمانية التي حاولت أن تجمل من دعوتها، وتخفف من غلواء العلمانية بالحديث عن الحريات، وعن حرية الناس في اختيار عقيدتهم، والعمل بها دون المساس بنظم الدولة^(٣).

المحور الثاني

الحقبة الأمريكية وحرب الأفكار

سبق انفراد الولايات المتحدة الأمريكية بالقيادة العالمية فترة الحرب الباردة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، والتي كان الصراع فيها بين القطبين اللذين انتصرا في الحرب العالمية الثانية، وطوراً من قدراتهما النووية بشكل متسارع ومتوازٍ؛ فالحرب

الإسلامي، أخذ يحدث التغيير السياسي اللازم لبقاء سيطرته أولاً، ثم لتحقيق الهدف من هذه السيطرة ثانياً، فحدث أن تم:

- احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م.
- ثم احتلال تونس سنة ١٢٩٩هـ - ١٨٨١م.
- تلاها احتلال مراكش سنة ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م.
- ثم احتلال الشام سنة ١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م.
- وكان احتلال بريطانيا للهند سنة ١٢٧٤هـ - ١٨٥٧م إيذاناً بزوال إحدى الدول الإسلامية الكبرى التي قامت في مستهل القرن السادس عشر.
- إضافة إلى احتلالها لمصر سنة ١٣٠٠هـ - ١٨٨٢م.
- ثم احتلال العراق سنة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م.
- ثم احتلال فلسطين سنة ١٣٣٧هـ - ١٨١٩م.
- ولم يكن ذلك التوزيع وليد الصدفة، فلقد كشف الاتفاق المنعقد بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م عن جانب من سياسة تقطيع أوصال العالم الإسلامي.

وصحب ذلك التقسيم إثارة القوميات المختلفة؛ كالقومية الطورانية في تركيا، والقومية العربية في البلاد العربية، حتى اقتتل المسلمون تحت قيادة النصارى باسم القومية والتحرير^(١).

ب- التغيير الاجتماعي:

التغيير الاجتماعي يعني: تغيير قيم الأمة ومثلها؛ وتغيير ثقافتها، وأخلاقها، وعقيدتها، وبعبارة واضحة: إبعاد المسلمين عن دينهم.

والتغيير الاجتماعي قد يسمى التغريب، وقد يسمونه المدنية، أو التطوير، أو التقدم، وأياً ما كانت الحال، فلم يكن هناك سبيل إلى التراجع.

إن العمل يسير بجدٍ ونشاطٍ في إدخال المدنية الغربية إلى مصر، وهو يأخذ طريقه بتقدم ونجاح حسب خطة مرسومة ووضعت خطوطها بعد دراسة الموقف، تقوم على التطور والتدرج.

(٢) المرجع السابق، د محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية.
(٣) د. محمد جابر الأنصاري، تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٠ م، ص ٤٧.

(١) د. محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة الغربية، دار للنشر، ١٩٨٢، ص ٥١.

ريجان إلى السلطة؛ حيث ضاعفت الولايات المتحدة ضغوطها السياسية والعسكرية والاقتصادية على الاتحاد السوفييتي. وفي النصف الثاني من الثمانينيات، قدّم القائد الجديد للاتحاد السوفييتي ميخائيل غورباتشوف مبادرتي (بيرستوريكا) وتعنى بإصلاحات اقتصادية (وجلاسنوت) وهي مبادرة اتباع سياسات

أكثر شفافية وصراحة، ثم انهار الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١م تاركاً الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة في عالم أحادي القطب.

في تلك الحقبة التي انفردت فيها أمريكا بزعامة العالم بعد تفكك الاتحاد السوفييتي وسقوطه وتقرمه في دولة روسيا، تغير العدو التقليدي للولايات المتحدة

الأمريكية، وتحول إلى الإسلام في فكر من يتعاملون معه؛ باعتباره نظاماً متكاملًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ودوليًا، وركزت أمريكا حربيها على أنصار الإسلام السياسي ودعاة نظام الخلافة والجهاد في سبيل الله، والذين يعادون الغرب ويسعون إلى عودة الإمبراطورية الإسلامية مرة أخرى.

تلازمت الحرب العسكرية مع الحرب الفكرية لمواجهة حملة هذا الفكر والمدافعين عنه في العالم، وكان مسار حرب الأفكار مساراً موازياً لمسار الحرب العسكرية، أو قل متجاوزاً له، ويعمل كظهير للحرب العسكرية في التمهيد وعلاج ما بعد الحروب.

المبحث الأول: الماهية والمفهوم

التعريف اللغوي لحرب الأفكار:

– الحَرْبُ: القتالُ بين فِئَتَيْنِ (مؤنثة)، وقد تُدَكَّرُ على معنى القتال.

والحَرْبُ الباردة: أن يكيد كلُّ من الطرفين المتعادين لخصمه دون أن يؤدي ذلك إلى حرب سافرة. والجمع: حُرُوبٌ.

يُقَالُ: قامت الحَرْبُ على ساقٍ: اشتدَّ الأمرُ وصُغِبَ

الباردة هي مصطلح^(١) يُستخدم لوصف حالة الصراع والتوتر والتنافس التي كانت توجد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وحلفائهم بداية من منتصف الأربعينيات حتى أوائل التسعينيات.

خلال هذه الفترة، ظهرت النُدبة بين القوتين العظيمنتين خلال التحالفات العسكرية والدعاية وتطوير الأسلحة، والتقدم الصناعي، وتطوير التكنولوجيا، والتسابق الفضائي.

لقد اشتركت القوتان في إنفاق مالي كبير على الدفاع العسكري، والترسانات النووية، وفي حروب غير مباشرة عبر استخدام وسيط.

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي كانا

حلفاء ضد قوات المحور، إلا أن القوتين اختلفتا في كيفية إدارة ما بعد الحرب وإعادة بناء العالم. ففي خلال السنوات التالية للحرب، انتشرت الحرب الباردة خارج أوروبا إلى كل مكان في العالم. حيث سعت الولايات المتحدة إلى سياسات المحاصرة والاستئصال للشيوعية، وحشد الحلفاء خاصة في أوروبا الغربية والشرق الأوسط. خلال هذه الأثناء، دعم الاتحاد السوفييتي الحركات الشيوعية حول العالم خاصة في أوروبا وأمريكا اللاتينية ودول جنوب شرق آسيا.

وصاحبت فترة الحرب الباردة عدة أزمات دولية؛ مثل: الحرب الكورية (١٩٤٨-١٩٤٩م)، وحرب فيتنام ١٩٦١م، والغزو السوفييتي لأفغانستان ١٩٧٥م، وأزمة الصواريخ الكوبية ١٩٦٢م، عندها شعر العالم أنه على حافة الانجراف إلى الحرب العالمية الثالثة.^(٢)

اقتربت الحرب الباردة من نهايتها أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات. بوصول الرئيس الأمريكي رونالد

(١) عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤، ٢٠٠١م، ج ٢، ص ١٩٥.

(٢) عبد الوهاب الكيالي وآخرون، موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٤، ٢٠٠١م، ج ٢، ص ١٩٥.

الخلاص منه^(١).

ويأيدي فقهاء الخصم ومنظريه؛ فأمرىكا تحاول تغيير الثوابت الإسلامية وجعلها تتوافق مع ما تنطلق منه؛ باستخدام وسائل الهجوم والدفاع التي تنتصر في النهاية لما تريده من الهجمة العسكرية وما بعدها من مواءمات.

الفرق بين حرب الأفكار والغزو العسكري:

إذا كان الغزو العسكري يحقق أهدافه بالقهر والجبر دون رغبة الشعوب المغزوة، فإن حرب الأفكار تجعل الشعوب المغزوة تنتهج فكر العدو الغازي طواعية، وعن اقتناع بأنها لا تخالف دينها ولا فكرها!!

وتستخدم في حرب الأفكار وسائل الهجوم والدفاع وطرق الاستطلاع والتمويه والانسحاب التكتيكي وغيرها من الوسائل المستخدمة في الغزو العسكري.

المبحث الثاني: الحرب على الإرهاب

تعريف الحرب على الإرهاب:

الحرب على الإرهاب -وتسمى أيضًا الحرب العالمية على الإرهاب، ويطلق عليه البعض تسمية الحرب الطويلة- هي عبارة عن حملة عسكرية واقتصادية وإعلامية تقودها الولايات المتحدة، وبمشاركة بعض الدول المتحالفة معها.

وتهدف هذه الحملة -بحسب تصريحات رئيس الولايات

المتحدة السابق جورج دبليو بوش- إلى القضاء على الإرهاب والدول التي تدعم الإرهاب.

بدأت هذه الحملة عقب هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م؛ التي كان لتنظيم القاعدة دور فيها، وأصبحت محورًا مركزيًا في سياسة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش على الصعيدين الداخلي والعالمي، وشكّلت هذه الحرب انعطافة وصفها كثير من المفكرين بالخطيرة وغير المسبوقة في التاريخ؛ لكونها حربًا غير واضحة المعالم، وتختلف عن الحروب التقليدية؛ بكونها متعددة الأبعاد والأهداف.

-الأفكار: فكر: فكر في الأمر: أعمل العقل فيه ورتب بعض ما يعلمه ليصل به إلى مجهول. والفكر: إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول. ويقال: لي في الأمر فكر أي: نظر ورؤية. والجمع أفكار. والفكرة: الصورة الذهنية لأمر ما^(٢).

التعريف الاصطلاحي لحرب الأفكار:

بعد سقوط الشيوعية، واحتياج أمريكا لاصطناع عدوٍ بديل، توجهت أنظار تجار الحرب الغربيين نحو الإسلام ليكون هو النذ الجديد في صراعات القرن الجديد.

وأطلق وزير الحرب الأمريكي في عهد بوش الابن (دونالد رامسفيلد) موجة جديدة من (حرب الأفكار) عندما قال في حديث لصحيفة الواشنطن بوست في (٢٧/٣/٢٠٠٣م) إبان غزو العراق: «نخوض حرب أفكار مثلما نخوض حربًا عسكرية، ونؤمن إيمانًا قويًا بأن أفكارنا لا مثل لها».

وأضاف: «إن تلك الحرب تستهدف تغيير المدارك، وإن من المحتم الفوز فيها، وعدم الاعتماد على القوة العسكرية وحدها».

وقد نصت الورقة الرئيسية لاستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية في ذلك الوقت على أن أحد أهم

أدوات أمريكا في نشر مبادئها في الشرق الأوسط هو (شن حرب أفكار) مع اللجوء للخيارات العسكرية عند الحاجة^(٣).

النقطة الرئيسية في حرب الأفكار هي محاولة تغيير فكر الخصم من داخل منظومته الفكرية،

(١) (المعجم الوسيط، مادة حرب، ص ٣٨٠).

(٢) (المعجم الوسيط، مادة فكر، ص ٦٩٨).

(٣) روبرت ستيلوف، معركة حرب الأفكار ضد الإرهاب، الدار المتوسطية للنشر، تونس، ٢٠١٢م، ص ٨٤.

ولا تعريباً ولا تحديثاً، لكنها دعوة للبحث في أعماق الإسلام لمواكبة العصر بما لا يتصادم مع المبادئ والأسس التي بُنيَ عليها.

قامت هذه النخبة بتلميع المشروع الحضاري، وإلقاء الضوء عليه، وعرضه في المحافل المحلية والدولية، بل وقياسه على المشكلات والمعضلات التي طُرحت في ذلك الوقت لحلها، وقياسها وتقييمها بهذا المعيار.

دعوة الإسلام الحضاري

يعرّف أحد باحثي المعهد العالمي للفكر الإسلامي (الإسلام الحضاري) قائلاً: «هو رؤية موحدة للكون والوجود والإنسان، يحتمل أعلى درجات الصحة واليقين والشمول لتفسير الوجود بكل موجوداته لتقوم عليها نهضة حضارية للأمة».

وتساءل بعض المعارضين على هذا النهج، هل هذا التعريف مختلف عن تعريف الإسلام كدين ومنهج حياة؟ وماذا أضاف مصطلح (الحضاري) لمسمى الإسلام؟ وماذا أفادنا تعقيد التعريف وطرحه في إطار فلسفي معقد ومائع وغير محدد سوى البلبلة والضبابية؟

يوضح الباحث السابق أن قاعدة الإسلام الحضاري تركز على (القرآن والسنة)، ولكن مع ضرورة الاجتهاد والتتظير، والتطبيق الجديد المعاصر لمبادئ القرآن والسنة. فضلاً عن توسيع حركة الاجتهاد بإشراك خبراء في العلوم المعاصرة المختلفة (السياسة- الاجتماع - الاقتصاد علم النفس - البيئة... الخ) إلى جانب فقهاء الشريعة لإصدار الفتاوى والأحكام الإسلامية المتوافقة مع الحاضر^(٢). والإسلام الحضاري عنده يبرز دوراً كبيراً للعقل من خلال فهم الوحي.. هنا وبالتحديد نفهم المقصود بالحضاري!!

أهم نتائج دعوة الإسلام الحضاري:

١- تفضيل الإسلام الحضاري على الإسلام السياسي:

أول من وضع هذه التقسيمات والتعريفات للإسلام هم علماء الغرب ومستشرقوه؛ بهدف تفتيت الإسلام

وفي مايو ٢٠١٠م قررت إدارة الرئيس الأميركي باراك أوباما، التخلي عن مصطلح «الحرب على الإرهاب»، والتركيز على ما يُوصف بـ«الإرهاب الداخلي»، وذلك في استراتيجيتها الجديدة للأمن القومي. ونصت الوثيقة على أن الولايات المتحدة ليست في حالة حرب عالمية على «الإرهاب» أو على «الإسلام»، بل هي حرب على شبكة محددة هي تنظيم القاعدة و«الإرهابيين» المرتبطين به^(١).

المبحث الثالث: المشروع الحضاري وحواراته

«المشروع الحضاري» أمريكي بامتياز:

بدأت حرب الأفكار الموجهة للعدو «الإسلامي» «الإرهاب» بعد سقوط الاتحاد السوفييتي في التسعينيات، وازداد زخمها بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

ومع بداية الهجمات الأمريكية الغربية -قوات حلف الأطلسي، الناتو- كان لزاماً أن تتوازي الغارة العسكرية مع غارة فكرية دينية وثقافية، وهو ما سُمي بعد ذلك باسم (المشروع الحضاري) الذي كانت تدشن له أمريكا منذ سقوط الاتحاد السوفييتي، أو قبل ذلك بقليل، فخرج من هذا المشروع ثلاث دعوات تمثل التكييف الشرعي (الإسلامي) له، وتمثل تصوراً للإسلام السياسي كما تراه أمريكا، وكما تدعو له النخبة الجديدة من الإسلاميين الذين صُنِعُوا على أعينها من خلال المحاور التالية:

(الإسلام الحضاري -النموذج الحضاري في العلاقات الدولية- الحوارات الحضارية الثلاث «حوار الحضارات، حوار الأديان، حوار الثقافات»).

ثم أصبح مصطلح «الحضاري» هو المفتاح لقبول أمريكا وأوروبا لأيّ تنظير حول الإسلام وفكره ونظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية؛ من منطلق أنها نظرية خرجت من أصول الدين الإسلامي؛ الكتاب والسنة والتاريخ الإسلامي على يد علماء دين ونخبة المثقفين المتدينين، وأنها ليست تجديدًا في الدين

(١) أحمد البديوي، شعار الحرب على الإرهاب، دار التوفيق للنشر، عمان، ٢٠٠٧، ص ٩٤.

(٢) د. جمال الدين عطية، المشروع الحضاري الوطني، مقال بمجلة المسلم المعاصر، العدد ٨٦، يناير ١٩٩٨، ص ٨.

المشروع الحضاري وحواراته:



وذلك ليضمن هيمنته السياسية والاقتصادية وسيادته على العالم أجمع والعالم الإسلامي خاصة.

ج - يريد الغرب من العالم الإسلامي أن ينسى مصطلح الجهاد إلى الأبد؛ حتى ينزع سلاح الإسلام والمسلمين في الدفاع عن دينهم وأمتهم، فيسهل غزوهم وإخضاعهم.^(١)

٣- المنظور الحضاري في العلاقات الدولية:

تقول دكتورة نادية مصطفى^(٢): إن المنظور الحضاري هو مشروع تبنته كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة، وبدأ عام ١٩٨٦م، واستمر عشر سنوات حتى عام ١٩٩٦م، بعدها بدأ الإنتاج الفكري والسياسي يتدفق، وتتلخص أهدافه في النقاط التالية:

أ- إنشاء جسور بين العلوم الإنسانية وعلوم الدين الإسلامي؛ وذلك بقصد إحداث تغيير في العلوم الإسلامية، وجعلها تتوافق مع منطلقات تلك العلوم الغربية الأصل في إطار من استخراج الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.

ب - التحلل من المنطق السببي إلى المنطق الارتباطي

(١) د. أحمد محمود السيد، الإسلام الحضاري.. قراءة في تحليل المضمون، مقال بموقع مجلة البيان على الرابط التالي:

<http://albayan.co.uk/article.aspx?id=533>

(٢) لقاء مع د. نادية مصطفى على موقع الجماعة الإسلامية على

الرابط التالي: <http://egyig.com/public/articles/inter-view/11/11579594.shtml>

وتجزئته، وتفكيكه، ومحاربة كل قسم على حدة، فضلاً عن ضرب التميز الخاص بالدين الإسلامي، وتذويبه في الأيديولوجيات الغربية الأخرى، وإبعاده عن مجالات التأثير سياسياً واقتصادياً اجتماعياً.

وبناء على ما تقدم نجد أنهم يميزون بين الإسلام السياسي والإسلام الحضاري؛ فيعرفون الأخير بأنه الخروج من السياسة إلى الحضارة، والإفاقة من نوبة جهاد يريد البعض لها أن تطول إلى الأبد إلى نوبة حضارة، وإلى تحول إلى إسلام حضاري يعي قيم الروح، وينبذ العنف».

٢- نزع سلاح الإسلام في معارك الصراع الحضاري:

بعد أن دشّن الغرب مصطلح الصراع الحضاري فكرياً متمثلاً في أطروحة هنتجتون، ومن خلال تطبيقها عملياً عبر الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق، ووضحت الأسباب التي من أجلها دفع بالمصطلح أمام ما يقابله وهو (الإسلام الحضاري)، فقد أراد الغرب من المسلمين في صراع الحضارات المزعوم عدة أهداف، من أهمها:

أ- أن يتخلى المسلمون عن عقيدتهم، ويدخلوا في النصرانية أو ينتموا فكرياً وثقافياً إلى المنظومة الفكرية الغربية. وأن يُحال بين المسلمين وبين تحكيم شريعتهم.

ب - يحافظ الغرب على تفوقه العسكري المطلق؛

عن النصارى واليهود، إلى جانب استحداث مفاهيم (حضارية) للإسلام كمصطلح «الإسلام الحضاري» الذي يركز على العلاقات الإنسانية والقيم المجردة للمساواة، والعدالة والحرية، والعلم إلخ، بعيداً عن مبادئ وأحكام الدين للوصول إلى تمييع قضية الانتماء إلى الدين الإسلامي، وتذويب الهوية تمهيداً لقبول الطابع الغربي (الأمريكي) بلا حساسية.

(ب) حوار الأديان:

الهدف الأساس من هذه الدعوة: تغيير الدين الإسلامي تحت دعوات «التجديد»؛ من أجل مواكبة مرحلة الحوار بين الأديان، وحتى لا نقع في محذور صراع الأديان وصراع الحضارات الذي بشر به «هنتجتون»، هذا الحوار يستتبع تغييراً في بعض الأحكام الرئيسية التي تعوق عملية التحاور، مثل أحكام الإسلام على النصارى واليهود بالكفر، وحد «الردة» لمن يخرج من الإسلام؛ فالإنسان في عصر حوار الأديان حرّ في أن يخرج من دينه ليدخل في آخر، أو حتى ليظل بلا دين نهائياً.. وهناك منطلق واحد تدور حوله فلسفة الحوار بين الأديان ألا وهو (الدين الإبراهيمي) أو الدعوة الإبراهيمية باعتبار أنها أصل الأديان، فنتحده ونتجمع كلنا تحت هذا الدين... فكان التجمع العالمي للأديان تحت رعاية الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو، وأقيمت مؤتمرات للحوار بين الأديان نذكر منها الآتي:

- أبريل ٢٠٠٣م (قراءة مشتركة للكتب المقدسة: القرآن والإنجيل والتوراة).

- مايو ٢٠٠٤م (تفاعل الأديان في ظل القيم الدينية الحضارية المشتركة).

- مارس ٢٠١٠م، (التعاون بين الأديان لتحقيق السلام والتنمية).

(ج) حوار الثقافات:

وضع الدين في دائرة أكبر بقصد تذويبه وطرحه بين منظومة مغايرة للوصول إلى عدة أهداف؛ من أهمها: اعتبار الدين جزءاً من الثقافة، وتفريغه من

في السنن كخطوة للتحلل من وجوبية تطبيق السنة في ظل هذا التفسير.

ج - استدعاء مفهوم الأمة كوحدة للتحليل بديلاً عن مفهوم الدولة الإسلامية ومفهوم الخلافة الإسلامية؛ لأن مفهوم الأمة في الوقت الحاضر هو مفهوم هلامي يصعب تحديده والسيطرة عليه، ودعوة الناس للانصياع لما تحتمه مطالب الأمة.

د- تفعيل مفهوم جهاد النفس، ورفعته على مفهوم الجهاد في سبيل الله عن طريق القتال لرفع راية لا إله إلا الله، وحصر الجهاد في نطاق الدفاع عن النفس.

هـ- إحلال مفهوم السلام بديلاً عن مفهوم الحرب في العلاقات الدولية بين دول العالم الإسلامي والعالم الغربي، وذلك خلافاً لما تأسست عليه علوم السياسة وعلم العلاقات الدولية، فتغل يد المسلمين عن الحرب بينما تطلق يد الغرب.

الحوارات الحضارية الثلاث

لقد قامت خطة الاختراق الغربي للإسلام على أربعة محاور^(١)؛ أولها تأسيس ما يسمى الإسلام الحضاري، وتجهيزه للدخول في ثلاثة أنواع من الحوارات، وذلك بقصد تغيير وهز المنظومة الإسلامية المتكاملة في فهم المسلمين واختراق الدين من الداخل واختراق الحصون التي يتذرع بها:

أ- حوار الحضارات:

لقد كان الهدف الأساس من حوار الحضارات هو قبول المسلمين للحضارة الغربية بكل ما تحمله من محاسن ومفاسد، وقبول التعامل معها والأخذ منها، والانطباع بطابعها، وقبول طغيانها العلمي والتكنولوجي الذي لا يتم إلا بالرضوخ لنسقتها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والحكم عليها من منطلق «التصور الحضاري»، بعيداً عن أحكام الإسلام

(١) د. أحمد محمود السيد، ٤ محاور لخطة الاختراق الغربي للإسلام، مقال بموقع أنا المسلم على الرابط التالي:

<http://www.muslim.org/vb/showthread.php?391702-4>

«التطرف الديني» وجرائم «العنف».

وهو يقصد بالتطرف الديني كل مَنْ يتبنى الدعوة إلى إقامة دولة الخلافة الإسلامية، وتفعيل المنظومة السياسية الإسلامية القائمة على الإمامة والشورى والبيعة وأهل الحل والعقد، فضلاً عن حتمية تطبيق الشريعة الإسلامية بكل ثوابتها من الحدود والأحكام، وطبع الصبغة الإسلامية على كل مناحي الحياة.

أما ما يقصده بالعنف فتبذ كل الأفكار المتعلقة بالدعوة للجهاد في سبيل الله من أجل مقاومة الاحتلال الإسرائيلي والهيمنة الأمريكية والغربية، ومجابهة كل أعداء الأمة الإسلامية الآخرين كالهندوس والشيوعيين، وغيرهم باستخدام السلاح.

٢- تفعيل القواسم المشتركة بين الأديان والمذاهب، وعدم مجابهة المخالفين بكفرهم، بل مد جسور التعاون معهم، وغض الطرف عن بطشهم واعتداءاتهم على المسلمين.

٣- تقديم صورة إيجابية عالمية للإسلام تتفق والمبادئ الإنسانية الحضارية العامة.

وهذا معناه أن هذه الصورة سوف تكون بعيدة عن التمييز والخصوصية التي ينطلق منها الإسلام، وأنها ستتفق في الرؤية مع المنطلقات العامة للأديان والحضارات مثل العدالة والحرية، والكرامة الإنسانية والمساواة.. إلخ هذه العموميات.

وتجديد الخطاب ليس حكراً على الدعوات الغربية، فقد دعا الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين إلى تجديد الخطاب الإسلامي، ووضع له ضوابط شرعية من خلال تقسيمه للخطابات إلى ثلاثة أنواع؛ الوسطي، والنصوصي الحرفي «السلفي»، والصوفي. وينتصر الاتحاد للخطاب الوسطي المطمئن بأجزاء من الخطاب الصوفي في مجال الزهد وعلاج أمراض القلوب والتربية الروحية.

ويؤكد دكتور جمال نصار على ضرورة تبني الخطاب الوسطي الذي يعتمد العقل والنقل، ويتعامل مع الواقع المحلي والدولي بالمرونة والاستيعاب، مع تطعيمه

مضمونه الروحي، ونزع القدسية عنه، وذلك من خلال التعامل مع الإسلام كتراث ثقافي لا يختلف عن العادات والتقاليد والأساطير والأديان والمذاهب الأخرى، واعتباره نتاجاً بشرياً قابلاً للنقد والتعديل والتغيير والتطور.

المحور الثالث

الربيع العربي وسيناريوهات الهجمة القادمة

المبحث الأول: الدعاة الجدد وتجديد الخطاب الإسلامي

جاءت مرحلة الربيع العربي لتُسقط أنظمة وتُقصي طغاة، وتبشر بحكم يتوافق ومطالب الشعوب في الحرية والعدالة الاجتماعية والعيش الكريم، وكانت التيارات الإسلامية هي المكوّن الكبير القائد لهذه الثورات، فبرز الإخوان المسلمون والجماعات السلفية والحركات الجهادية. وغيرها من التيارات الإسلامية التي دخلت في العملية السياسية، وحققت نجاحاً كبيراً في أول الأمر، مما جعل أمريكا والغرب تسعى حثيثاً إلى محاربة هذا التوجه؛ عن طريق إشاعة الفتن ونشر أسباب الاختلاف بين هذه التيارات، وتشويه صورتهم وإفشالهم، وإقناع الشعوب بأنهم لا يصلحون للحكم والسياسة، ووصمهم بالنفاق وحب الدنيا والمناصب على نشر الدين والرغبة في ثواب الله.

اهتمت أمريكا بمسألة تجديد الخطاب الإسلامي ليحقق أهداف المرحلة الثورية التي غطت المنطقة من تونس إلى ليبيا، إلى مصر إلى اليمن إلى سوريا، فضلاً عن رياح التغيير التي بدأت تهب على المغرب العربي في الجزائر والمغرب وموريتانيا.. فبدأت في توظيف مجموعات من الدعاة الجدد جنباً إلى جنب مع دعاة قدامى من أصحاب الميول الانهزامية ومن دعاة التغريب والانصياع للقوى الغربية وللأنظمة الاستبدادية.

يحصّر الشيخ جمال محمد بواطنة مشكلة الخطاب الديني الراهن في عجزه عن تحقيق ثلاث مهام أساسية^(١):

١- تحصين المجتمعات الإسلامية ضد أمراض

(١) جمال محمد بواطنة، تجديد الخطاب الديني المعاصر ضرورة ملحة، بحث مقدم لمؤتمر تجديد الخطاب الإسلامي، القاهرة، ٢٠١٢م، على الرابط التالي: www.alazhar.com

الدعوة الإسلامية الوسطية من خلال المراكز الإسلامية في جميع أنحاء العالم، وكذلك من خلال وسائل الإعلام والبرامج الفضائية والإذاعية^(١).

المبحث الثاني: التعايش

أولاً: التعايش بين الأديان:

دعوتان ظاهرهما الرحمة وباطنهما العذاب، الدعوة الأولى خرجت من الدب الروسي أحد طرفي القوى العظمى قديماً، وهي ما

يسمى «بالتعايش السلمي».

والثانية أطلقتها أمريكا حين انفردت بالهيمنة على العالم، وهي ما أطلق عليه «التعايش بين الأديان».. والعجيب أن النموذجين ضرباً أشع مثالاً للتعايش!! فالنظام الشيوعي قام على عدا الأديان، واعتبر الدين أفيون الشعوب، وقضى على كل من آمن أو فكّر في الإيمان بأي دين، وشرد علماء الأديان وأتباعهم، وأعمل فيهم قوته قتلاً وسجناً وتعذيباً ونفيّاً، فلا مكان على أرضه إلا لمن آمن بالشيوعية وكفر بما سواها.

تذهب الموسوعة السياسية إلى أن أول من أطلق شعار التعايش السلمي «نيكيتا خروتشوف» زعيم الاتحاد السوفييتي السابق، وتعني قيام تعاون بين دول العالم على أساس من التفاهم وتبادل المصالح الاقتصادية، وذلك بعد انقسام العالم إلى معسكرين يتاحران على أساس عقائدي.

ومما ساعد على قيام هذه الدعوة الفزع الذري بعد أن أصبحت القنبلة النووية مشاعة بين دول المعسكرين.

النموذج الثاني تمثله أمريكا، فبعد أن صدرت لنا حوار الحضارات، وحوار الأديان، وحوار الثقافات، وصلت إلى منتهاها ألا وهو جعل المسلمين يتعايشون مع من يبطن بهم، ويستولي

(٢) موقع أكاديمية الداعية المعاصر على الفيس بوك على الرابط التالي:

<https://ar-ar.facebook.com/AkadymytAldaytAlmoasr>

من الخطاب الصوفي بما يغطي الناحية الوجدانية والقلبية والتربية الروحية^(١).

أكاديمية الداعية المعاصر والدعاة الجدد:

تركز أمريكا، ومن خلفها أوروبا، على التواصل مع نوعية جديدة من الدعاة تستطيع أن تتفد المشروع الحضاري المزعوم في الدعوة، وتكرس لانصياع الإسلاميين للإرادة الغربية في التعامل مع الرؤية الإسلامية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ونشر الفكر الانهزامي الذي يقبل بالاحتلال والهيمنة الغربية، ولا يتحرك إلا في الإطار الذي تنتشده وتنتظر له، وخير مثال لهذه النوعية من الدعاة مشروع أكاديمية الداعية المعاصر الذي يعرفه أصحابه بأنه مشروع لتدشين أكاديمية تعليمية لتوفير نماذج دعوية تمزج علوم الشرع بعلوم الاجتماع البشري؛ بغية

تكوين عقل قادر على تقديم حلول شرعية لمشاكل الأفراد والمجتمعات. ويعتبرون هذا المشروع لبنة حضارية إيمانية تجدد وظيفة العالم في المجتمع.

أهداف إنشاء الأكاديمية:

١- إمداد مصر والعالم الإسلامي بالدعاة ذوي الإدراك الواعي بالواقع المعيش بإدراك حالته الراهنة وأصول الحضارة الحديثة وعلومها، والقدرة على التنمية الحضارية الإيمانية.

٢- نشر علم وفن الإفتاء، وتخريج العقول القادرة على تقديم حلول إسلامية حضارية مبتكرة للقضايا والمشاكل الأساسية التي تواجه المجتمعات الإسلامية.

٣- تدريب رجال الأزهر المتفوقين ليقوموا بنشر

(١) د. جمال فتحي نصار، رؤية معاصرة في تجديد الخطاب الإسلامي، بحث مقدم إلى مؤتمر الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، بيروت، ٢٠١١ م، على الرابط التالي:

file:///C:/Documents%20and%20Settings/a/Desktop

على مواردهم وثرواتهم ويحتل أراضهم، ويفرض رأيته، ويمنعهم من تطبيق رؤية دينهم^(١)

ثانياً: دعوة للتعايش:

أصدر الدعوية د. عمرو خالد كتاباً بعنوان دعوة للتعايش، وكذلك جعله عنواناً لبرنامج تليفزيوني أذاع حلقاته في شهر رمضان الماضي، وقد منح

عمرو خالد درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بتقدير ممتاز من جامعة ويلز البريطانية عام ٢٠١٠م لأطروحته «الإسلام وتعايش الآخر»، وقد انطلق من مضمون هذه الرسالة في عمل البرنامج، وكذلك في إصدار كتابه، واعتبر دراسته التطبيقية على المجتمع البريطاني نموذجاً لتعايش المسلمين مع الغرب.^(٢)

عرض د. عمرو خالد في كتابه لنماذج من حياة الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، واستخرج منها السمات التي تدعم هدفه من الكتاب، والتي يمكن تركيزها في النقاط التالية:

- نبذ الفرقة والدعوة للتألف، وقبول الآخر المخالف في العقيدة.

- المرونة في التعامل مع الحضارة والثقافة الغربية.

- فتح باب الاجتهاد، وتدريب كوادر إسلامية تكون قادرة على التفاعل مع الحضارة الغربية انطلاقاً من ثوابت الشريعة الإسلامية.

- التحاور مع المخالفين في العقيدة حسب المنطق العقلي دون المنطلقات الخاصة بهم.

- الحياد وعدم التصادم مع الحكام المستبدين.

- البحث عن المناطق المشتركة مع المخالفين

(١) د. أحمد محمود السيد، ٤ محاور للاختراق الغربي للإسلام، مرجع سابق.

(٢) Nation: www.yemennation.net

والانطلاق منها.

- الاندماج مع المجتمع والتبسط مع الناس.

- التكيف الفقهي حسب الظروف المستجدة.

- قبول الخلاف الفقهي والفكري وعدم التعصب للرأي.

- التسامح والتحاور في حق من يؤذيك.^(٣)

المبحث الثالث: البديل الصوفي

يعجب الفكر الغربي كثيراً بالفكر الصوفي، ويدعو ويشجع على تأييده وتقديمه على أنه الصورة المثلى الروحية والأخلاقية التي تمثل الإسلام، ولذلك أسباب كثيرة نجملها في ثلاثة:

أولها: إقصاء ما أسموه تيار

الإسلام السياسي الذي ينادي بتطبيق الشق السياسي في الإسلام (الشريعة الإسلامية، والخلافة والإمامة، والبيعة والشورى، وأهل الحل والعقد.. إلخ)، والذي يعلي من شأن الجهاد في سبيل الله للوقوف أمام الأعداء، ومقاومة الاستعمار وطرده الاحتلال، والتحذير من التغييب السياسي للإسلام ونظمه الأساسية في قيادة أمور المجتمعات والدول من خلال اتباع المنظومة الغربية للممارسة السياسية التي تفصل الدين عن السياسة، وتحول ولاء المواطن من الدين إلى الدولة.

ثانيها: اتسام الصوفية بطابع الإغراق في الذكر والإطار التعبدي، والبعد عن المشاركة الإيجابية والفاعلة في معتركات الحياة السياسية والاجتماعية، وهو من مظاهر إعجاب القوى الغربية والأنظمة الاستبدادية حتى يتسنى لها إحكام السيطرة وفرض التصورات الخاصة بهم، وتهميش الإسلام وإبعاده عن ساحة المواجهة، ونزع سلاحه الأساس، وضرب التميز الخاص به.

(٣) د. عمرو خالد، دعوة للتعايش، الدار العربية للعلوم، بيروت، ٢٠١٢م.

الإسلامية عن طريق الجهاد أو الكفاح المسلح!! وحاولت جعل هذا العدو مشتركاً بين الأنظمة السياسية العربية والإسلامية، ثم بدأت في نشر فكرها الموجه متمثلاً في (دعوة الإسلام الحضاري، والمشروع الحضاري في العلاقات الدولية، والحوارات الثلاث بين الحضارات والأديان والثقافات).

٥- فرضت فترة الربيع العربي ضرورة تعديل مسار حرب الأفكار الغربية لتتجه إلى تجديد الخطاب الإسلامي، وتدريب كوادر في مجال الدعوة تستطيع توجيه المسلمين بشكل ناعم إلى ما تريده العقلية الأمريكية؛ من خلال ما أسمته الإسلام الوسطي، ثم أصّلت لدعوة التعايش السلمي بين الأديان والتعايش مع الاحتلال والتعايش مع الأنظمة الموالية لها، وعظّمت من شأن الصوفية كبديل عن ذلك الإسلام السياسي «العنيف» حسب رأيها.

أهم التوصيات:

١- تحتاج الأمة الإسلامية - بعد الهجمة الغربية على الربيع العربي وإسقاطه في متاهات الفتن والانقلابات والتشاحنات المختلفة - إلى تدعيم فكر المقاومة للحرب الفكرية عن طريق تدريب كوادر من الدعاة يتصدون لتلك الهجمة بالدفاع والتفنيد وكشف أغراضها، ورد الهجوم بهجوم فكري مضاد يكشف زيفهم، ويضرب قواعدهم الفكرية.

٢- نقتراح تأسيس «أكاديمية المقاومين الجدد»، على غرار (الدعاة الجدد)، يكون هدفها تخريج كوادر دعوية وجنود في معارك الحروب الفكرية الحالية والقادمة. على أن يؤسس لهذه الأكاديمية كيان إعلامي متمثل في فضائية، موقع على الإنترنت، مجلة أو جريدة ورقية وإلكترونية، محطة إذاعية. وكيان بحثي يحتوي على مركز للأبحاث، وينشر سلسلة فكرية دورية لمجابهة هذه الحرب.

ثالثها: رغبة قوى التصير العالمية في بلبله العقيدة لدى المسلمين، وتدويب العقيدة الإسلامية في العقائد الأخرى، وطرحها في إطار شببيه بعقائد النصاري؛ ليسهل إدماج المسلمين في دعوات التقريب بين الأديان، حتى يسهل سوقهم خلف الماسونية العالمية بلا هوية؛ فيتحول المسلمون إلى مسخ يسهل قياده وتشكيله على هواهم^(١).

خاتمة الدراسة

يمكن استخلاص مجموعة نتائج من الدراسة، أهمها:

١- الغزو الفكري سلاح مهم وخطير لا يقل أهمية عن الغزو العسكري، بل قد يتعداه، وهو يسير بشكل متوازٍ كظهير للغزو العسكري، أو تمهيد وتدعيم له.

٢- نجح الغزو الفكري الغربي في إسقاط دولة الخلافة الإسلامية العثمانية بعد الانتصار في الحرب العالمية الأولى، وعمل على نزع القداسة الدينية عنها؛ بفصل الدين عن الدولة، ووضع القومية في مواجهة الخلافة، وتمكين الصهيونية من احتلال فلسطين وإنشاء الكيان الإسرائيلي، مستعيناً بالاستشراق والتبشير.

٣- أعمل العقل الغربي بعد سقوط دولة الخلافة معاول التغيير في المجتمعات الإسلامية، فبدأ بالتغيير السياسي بتقسيم العالم الإسلامي إلى دويلات وتقسيمها بين إنجلترا وفرنسا، ثم التغيير الاجتماعي «التغريب»، ثم التغيير الفكري بإغراق الأمة الإسلامية المحتلة بالفكر العلماني والليبرالي والشيوعي.

٤- تحول الغزو الفكري في الحقبة الأمريكية إلى ما سُمّي بحرب الأفكار، وأخذ مسارات وأطراً مغايرة للأساليب السابقة؛ حيث جعلت شعار المرحلة «الحرب على الإرهاب»، فجعلت العدو هو الإسلام «المتطرف» الذي يحاول إعادة دولة الخلافة، وتطبيق الشريعة

(١) التصوف والدور القادم في خدمة الغرب، مركز الجزيرة العربية للدراسات على الرابط التالي:

<http://www.aljazeera-online.net/index.php?t=9&id=30>

- وانظر أيضا: د. عمار على حسن، الحركات الصوفية تعيش في ركاب السلطة، موقع إيلاف ت ١٣ أبريل ٢٠١٠ م.

معلومات إضافية

خطورة الغزو الفكري وآلياته:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقِنُّونَكُمْ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

فمن المنطلق الذي تؤصله هذه الآية القرآنية قاطعة الثبوت قاطعة الدلالة، بخطورة الغزو الفكري الذي انتهجه أعداء الإسلام، دون الغزو العسكري في الحرب الأبديّة مع الإسلام.

الصور والمظاهر والمسالك التي يجري من خلالها الغزو الفكري:

١- التستّر تحت دعاوى الإنسانيّة، والمحبة، والإخاء، والتعاون، والمستقبل المشترك، والتقدّم الحضاري، واللحاق بركب الرقيّ العالمي، في نوعٍ من تضليل الأفراد والمجتمعات، وقلب الحقائق، وتشويه المعارف بالزخرفة الخداعة.

٢- التّأثير على وسائل الإعلام المقروء والمسموع والمرئي، الرّسمي والخاصّ، الديني والدينيوي، من خلال إيجاد تأثير قنوات التّالوث الاحتلالي: العلمانية، والاستشراق، والتتصير.

وكذلك جعل المراجع الاستشراقية والإلحادية والعلمانية - التي رفضتها الطبقات المتديّنة من نصارى أوروبا - هي المرجع للدارسين بالمدارس والجامعات.

بالإضافة إلى القضاء على اللغة العربية التي تربط الخالف بالسالف، وإحلال اللغات الأجنبية محلّها؛ ليعكّر الاطلاع على العلوم الغربيّة، والثّقافات التي تُعين على فصل المسلمين عن الإسلام.

٣- إطلاق المسمّيات التي ينفر منه السّمع، وتُحدث أثراً سلبياً على نفسيّة السّامع، وإسقاط هذه الإطلاقات على المجتمعات الإسلاميّة والحكومات والشّعوب؛ مثل: دول العالم الثالث - الدول النّامية - الرّجعيّة والتّأخّر - السّير في مؤخّرة الركب الحضاري والثّقافي والاقتصادي، وربطها بالتديّن والتمسك بالتعاليم الإسلاميّة.

ونحو هذه المسمّيات التي يكون لها الأثر السّلب على المجتمع الإسلامي، وعرقلة تقدّمه، وتعميته عن رؤية أمجاده وقدراته الحقيقية، التي تستطيع نشر الخير وبثّه في كل أرجاء البسيطة.

٤- العمل على بثّ الفرقة والتنازع بين أبناء المجتمع المسلم، من خلال إنشاء الأحزاب السياسيّة، وخصوصاً ذات المرجعيّة العلمانيّة المتأثرة بالسياسات الأوروبيّة والأمريكيّة، والتي يكون بينها نوعٌ من التّشاحر والمعارك على إثر محاولة فرض النّقاط التي يتبناها كلُّ حزب، من أجل تحصيل أكبر قدر من المؤيدين، وأكبر قدر من المصالح، والتي يعتبر منازعة الحكومات والسلطات الحاكمة أهمّ مقاصدها تحت مسمّيات مختلفة، وما هي في الحقيقة إلاّ نوعٌ من بثّ الاضطرابات في المجتمع الإسلامي، وإحياء الدّعاوى والانتماءات العصبية الجاهلية، تحت مسمّى القوميّة والوطنيّة ونحو ذلك.

٥- الهيئات والمؤسّسات الاجتماعية التي تتستّر بالأعمال الخيرية؛ مثل: نوادي الليونز، والروتاري، اللّذين ينتميان إلى الماسونيّة العالمية، مما يكون له كبير الاتّصال بالطبقات الفقيرة والجاهلة من المجتمع الإسلامي.

٦- الدّعوة إلى التحرّر بمفهوم يشمل التحرّر من التّعاليم الدينيّة، والثّقافات الإسلاميّة، والعادات والثّقاليد الشرقيّة المحافظة، وللحوق بركب الإباحيّة، والفجور الفكري والثّقافي والجنسي، تحت مسمّى الحرّيّة، والمدنيّة، والإرادات الحرّة، وتقرير المصير، وغير ذلك من الدّعاوى العفنة.

- ٧- تتحية الإصلاحيين والإسلاميين عن مراكز السيطرة والسلطة في أغلب المجالات غير الدينية، وتقليص دور المؤسسة الدينية؛ حتى لا يكون لها دورٌ في صنع القرار، ويكون وجودها كعدمه في حياة الناس.
- ٨- السعي الحثيث في الحصول على الامتيازات والحصانات السياسية والاقتصادية، واستغلال القنوات المتعددة؛ لبث الأفكار الغربية، والعمل على تكوين كوادر التنفيذ العملي.
- ٩- استغلال الحركات الخارجية عن نظام المجتمع العام من الحركات السياسية، والأقليات غير المسلمة المتطلعة، ودعمها سياسياً واقتصادياً، وتدويل مشكلاتها - إن فرض وجودها - من باب عمل نوع من الضغط الدولي والمحلي لإحداث حالة من حالات عدم الاتزان، وتشثيت الجهود، والذي يشكّل بيئة خصبة لنمو النشاط التخريبي للغزو الفكري.
- ١٠- التعليم بجميع مراحل وأنواعه الثقافية والدينية، من خلال فرض المناهج التي تعمل على مصادمة الحقائق الدينية، فضلاً عن تحية الدين من المناهج الدراسية، وتهميش دراسته من خلال إخراجها عن مجموع الدرجات التي تؤثر في التقدير العام للدارس، وكذلك جعل مدرّسي الدين أفقر الطوائف التعليمية اقتصادياً، وتقديماً من دونهم كمدرّسي اللغات، والعلوم الإنسانية.

من أهم المدارس العالية التي أنشئت في هذا المضمار:

- أ- مدرسة الطب، وقد أنشأها محمد علي بناءً على مشورة من الطبيب الفرنسي كلوت بك الذي استقدمه محمد علي؛ ليكون طبيباً ورئيساً لجراحي الجيش المصري، فأشار على محمد علي بإنشاء مدرسة للطب يلتحق بها الطلبة المصريون، فتم إنشاؤها في عام ١٨٢٧م في أبي زعبل، كما أنشئت مدرسة ملحقة بها لتعليم اللغة الفرنسية؛ حيث كانت هيئة التدريس في مدرسة الطب تتكون من أساتذة فرنسيين وقلّة من الإيطاليين.
- ب- مدرسة الطب البيطري، بدأت في رشيد عام ١٨٢٨م، ثم ألحقت بعد سنتين بمدرسة الطب البشري في أبي زعبل، وكان مديرها فرنسياً.
- ج- المدارس الفنية؛ وتشمل المدارس الزراعية والهندسية؛ أما المدارس الزراعية فكان أهمها مدرسة الزراعة بشبرا الخيمة، التي بدأت الدراسة بها عام ١٨٢٣م والمدرسة الزراعية بنبروه التي أنشئت عام ١٨٣٦م. وكانت هيئة التدريس في هذه المدارس من أعضاء البعثة الزراعية الذين عادوا من أوروبا، ومنهم يوسف أفندي الذي تولى إدارة مدرسة نبروه الزراعية.
- وأما المدارس الهندسية؛ فقد عُني بها محمد علي عناية خاصة، وكانت آخر مدرسة للهندسة أنشئت في عهد محمد علي هي: مدرسة بولاق عام ١٨٣٤م التي نظمت على نسق مدرسة الهندسة بباريس، ثم انضمت إليها مدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية ومدرسة المعادن بمصر القديمة.
- د- المدارس الصناعية؛ وكان أهم هذه المدارس: مدرسة العمليات، أو الفنون والصناعات التي أنشئت عام ١٨٢٧م بهدف تخريج الصناع المهرة. ومدرسة الكيمياء التي أنشئت في مصر القديمة لدراسة الصناعات الكيميائية. ومدرسة المعادن التي أنشئت في عام ١٨٣٤م لدراسة كل ما يتعلق بالصناعات المعدنية.
- أما مدرسة الألسن فقد أمر محمد علي بإنشائها عام ١٨٣٥م باسم مدرسة الترجمة، ثم تغير اسمها إلى «مدرسة الألسن»، ويعود إنشاؤها إلى اقتراح من رفاة الطهطاوي الذي تولى إدارتها، واختار للدراسة بها ثمانين طالباً، وعُني فيها بتدريس اللغتين العربية والفرنسية، تليهما اللغة التركية والإنجليزية.

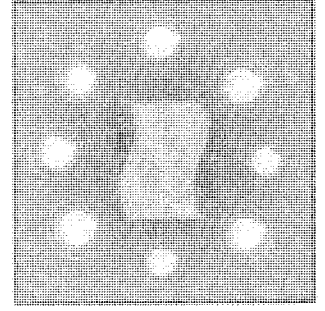
وقد أوجد هذا التعليم المدني ازدواجية في الثقافة والفكر في مصر، خاصة وأن محمد علي اختص خريجي المدارس الحديثة بالوظائف الحكومية والمناصب الرفيعة، في حين اقتصر دور خريجي الأزهر على الوظائف التعليمية التي صار يُنظر إليها نظرة دونية، ولا تكفل لصاحبها ما تكفله الوظائف الحكومية من دخل. وفي العصر الحديث الجامعة الأمريكية في القاهرة وفي بيروت تقوم بدورها كمؤسسات تغريبية.

المصادر:

١- مصطفى مهدي، التذكير بخطورة الغزو الفكري وآلياته، موقع الألوكة، على الرابط التالي:
<http://www.alukah.net/culture/0/42052/>

٢- محمد الغياشي، تغريب التعليم.. خط الهجوم الأول ضد الإسلام (٣/١) موقع صيد الفوائد، على الرابط التالي:
<http://www.saaaid.net/arabic/276.htm>.

إسقاط الدولة العثمانية بين الأسباب الداخلية والخارجية



محمد غل

باحث في الشؤون التركية

ملخص الدراسة

تعتبر الدولة العثمانية واحدة من الدول التي وُلدت فتية في جسمها وعقلها، وكبرت بقبيلتها وأنصارها وشعبها، وتمسكها بدينها الصافي الذي كان يمثل عقلها الفعّال، فكبرت قوتها وتوسعت جغرافيتها وامتدت أطرافها، حتى تحولت من إمارة صغيرة إلى إمبراطورية تهابها الدول العظمى، ثم بدأ الضعف يدب في جسمها، ويتعطل عقلها عن الفعل، أو يتم الضغط عليه من الدول الأوروبية لتعطيله أو استبداله بعقل أوروبي وحدائة مقلدة للغرب، فكان التدخل الخارجي أحد أسباب ضعف الجسم والعقل معاً، فانهارت الدولة العثمانية بسبب ضعفها، وعدم قدرتها على علاج ذاتها، وبسبب الضغوط الأوروبية المتواصلة لإرهاق الدولة ثم الانقراض عليها عسكرياً في الحرب العالمية الأولى والقضاء عليها، ومواصلة العمل الدؤوب للحيلولة دون عودتها جسماً واحداً ولا عقلاً موحدًا.

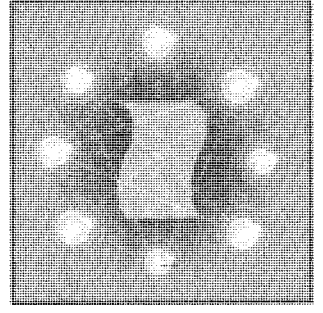
ويمكن القول بأن الخلافة العثمانية على عظمها كدولة عظمى واكبت الحدث الدولي بكل مقوماته وأبعاده السياسية والعسكرية، وحققت النجاحات المتوالية في هذا المجال، وفرضت قوتها ودورها على المسرح الدولي، ولكنها لم تكن تواكب ذلك بالتجديد الرسالي الذي يصاحب حركة الفتوحات، على النمط الرسالي الذي واكب الفتوحات الإسلامية في القرون الأولى، وربما تكون هذه المسألة من القضايا التي تحتاج إلى دراسة واسعة ومعقدة في معرفة مكانة الرسالة الإسلامية من الفتوحات العثمانية.

إن نسبة دخول الأوروبيين الذين دخلوا الإسلام في ظل الفتوحات العثمانية قليلة جداً بالنظر إلى الجهود العسكرية التي بذلتها الخلافة العثمانية في عملية فتح تلك البلدان، وكأن الجهود الفكرية والاجتهادات الدينية لم تكن بنفس القدر أو التناسب مع الجهد العسكري المبذول، وقد يكون ذلك من أسباب ضعف الدولة في العصور التالية؛ لأنه أثار على ثبات الدولة في تلك البلدان فكرياً، فوق إرهاقها في الفتوحات المتكررة لتلك البلدان؛ لأنها كانت ترتد على سلطان الدولة كلما سنحت لها الفرصة بذلك.

إن أهمية دراسة انهيار الدول تكمن في القدرة على النجاة من هذا الوقوع الدنيوي والأخروي، فلا تسقط دولة ولا يتم تداول حالها بين الناس، إلا بعد أن تكون قد دخلت في المخالفات الأخلاقية والمظالم الاجتماعية والاستبداد السياسي، بحيث يصبح استمرارها ثقیلاً على أهلها، فالعبرة هنا أن لا تقع الأمم فيما وقع فيه غيرها من أمراض السقوط والانهيار، ولنتذكر جيداً أن (مَن لا يجدد لا يتجدد).

وعلى صعيد الدولة العثمانية خصوصاً؛ فإن من الأهمية أن يعلم المسلمون أنهم ليسوا خارج حركة التاريخ، وأنهم ليسوا فوق السنن الإلهية في تغيير الأقسام والأمم، صعوداً هبوطاً، فالقضاء على الدولة العثمانية درس ماثل أمام المسلمين، بأنهم والدول البشرية سواء، فلا دوام لمن يوقف التفاعل مع مستجدات عصره، ولا بقاء لمن يسبقه عدوه إلى مكان القوة المادية وأسبابها المعرفية والعلمية والصناعية والتكنولوجية والعسكرية.

إسقاط الدولة العثمانية بين الأسباب الداخلية والخارجية



محمد غل

باحث في الشؤون التركية

تمهيد:

اعترفت الدولة العثمانية لأول مرة في تاريخها بشكل رسمي بهزيمتها أمام أوروبا المسيحية، عقب الاتفاقية الشهيرة التي عُقدت بين الإمبراطوريتين الألمانية والنمساوية في مدينة كارلويتز Karlowitz، فقد شكّلت هذه الاتفاقية منعطفًا حاسمًا في التاريخ السياسي للدولة العثمانية التي كانت تمثل العالم الإسلامي آنذاك، ونتيجة لذلك أنهت المعاهدة -التي عُقدت سنة ١٦٩٩م- فترةً طويلة من الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية مع الإمبراطورية النمساوية، وقد تسببت هذه الاتفاقية في إحداث صدمة كبيرة لقادة الدولة العثمانية وشيوخها ومفكرها وسائر أفراد المجتمع.^(١)

فقد ربط بعض أبناء المجتمع العثماني في ذلك العهد بين هذه الهزيمة وبين ابتعاد الدولة العثمانية عن تطبيق الشريعة الإسلامية، بينما ربط بعض المفكرين والتثويريين وبعض رجال الدولة هذه الهزيمة بطبيعة النظام التقليدي الذي عجز عن مواكبة التطور، الذي اتصفت به الدولة العثمانية، فقد أفضى ذلك إلى التفكير بضرورة متابعة التطورات والإصلاحات الحاصلة في الغرب.^(٢)

لم يتأخر المصلحون والمفكرون في إدراك هذه التطورات، ولو أن هذا الإدراك قد اقتصر في بداية الأمر على فئة ضئيلة من الإداريين العثمانيين الذين تنبهوا في وقت مبكر من القرن السابع عشر إلى أمرين مترابطين، وهما: تدهور أوضاع الإدارة والاقتصاد في الدولة العثمانية، وهو ما أشار إليه اثنان من العاملين في الإدارة السلطانية، كاتب شلبي (حاجي خليفة) ١٦٠٩-١٦٥٧م وقوجي بيك، في النصف الأول من القرن السابع عشر، وذلك من خلال رسائل موجهة إلى السلطان^(٣)، كما أن المتثورين العثمانيين أدركوا أن الدول والممالك الأوروبية المختلفة، وبالرغم مما تبديه من ضعف عسكري نسبي أمام الجيش والأسطول العثمانيين، فإن هذه الدول بدأت تطور فنونها وإدارتها وبحريتها وتجارتها، بحيث إن الوقت سيمضي سريعًا، وستتمكن من ارتياد البحار البعيدة، وتحيط بدول الإسلام.

«إن ما نجم عن اتفاقية (وستفاليا) عام ١٦٤٨م من نظام للعلاقات الدولية على المستوى الداخلي لأوروبا، والذي أسس النظام الدولي الحالي، كان يستند إلى أسس مختلفة عن الأسس التي اعتمد عليها النظام العثماني متعدد القوميات، ويحكم أجزاء كبيرة من أوروبا الشرقية، وبذلك أصبحت الدولة العثمانية في موقع مجابهة

(1) SHAW, Stanford: Between old and new. The ottoman empire under sultan selim III (1789-1807) Harvard 1971. Vol. 1. p.224.

(2) KARAL, E.Z: La transformation de la turquie d'un empire oriental en un état moderne. J.W.H. (1958). P.430.

(3) Canon de sultan suleiman 11 représenté sultan murad IV pour son instruction, Paris MOCCXXV Paris pp. 163-218.

أراضي الدولة العثمانية، وبالأخص منطقة البلقان وشمال إفريقيا وبلاد الشام والأناضول، فقد استفلت أوروبا، وبالذات بريطانيا وفرنسا، الاضطرابات الداخلية في الدولة العثمانية وضعفها الخارجي في السيطرة على أراضيها السابقة، لعزل هذه الأقطار عن قيادتها المركزية في اسطنبول، وقسمت بريطانيا وفرنسا هذه الأراضي تحت مسميات الاستعمار والوصاية الخارجية^(١)، أو الاتفاقيات الجانبية التي صنعت الأقطار أو الدول الإسلامية

الحديثة، والتي جعلت ضمن مشاريع التجزئة تخلياً عن الدولة العثمانية، بل إن بعضها ثار على الدولة العثمانية باسم الثورات القومية، وهم في الأصل من المسلمين الذين يؤمنون بشرعية الخلافة.

ومنذ الحرب العالمية الأولى وحتى

الآن قام في البلاد الإسلامية التي

كانت تحكمها الدولة العثمانية عشرات

الدول السياسية التي تمثل جزءاً من مخلفات الحرب

العالمية الأولى، ومن ضمن هذه الدول الجمهورية

التركية الحديثة ومعظم الدول العربية، وهذه الدول

تعاني من أزمت داخلية وخارجية هي من نتاج

إسقاط الدولة العثمانية بطرق غير شرعية وغير

مقنعة لتلك الشعوب المسلمة، فقد قامت بدلاً عن

الدولة العثمانية الواحدة دول أو كتونات سياسية أو

دول طوائف تحمل عقولاً غير عقل شعبيها المسلم،

مما فرض على تلك الشعوب أن تثور على الأنظمة

السياسية لتلك الدول باحثه عن حريتها وكرامتها،

واستقلالها ووحدتها، وتطبيق القانون والدستور

الذي تؤمن به وتختاره بقناعاتها وإرادتها الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية.

(٢) محسن، شفيق، المسألة الشرقية: الامتيازات الأجنبية وتأثيرها في

الإمبراطورية العثمانية، مجلة الاجتهاد، العدد (٤٤)، خريف ١٩٩٩م -

١٤٢٠هـ، ص ١٧٤.

مع هذا الحوض الحضاري المختلف، وقد نتج عن هذه المواجهة عدة قوى أثرت على علاقة الإرث السياسي العثماني - التركي مع النظام الأوروبي^(١).

والحق أن العثمانيين الذين كانوا يمثلون الدولة العثمانية الكبرى في ذلك العصر، لم يشعروا بأن العالم قد تغير حقيقة إلا بعد الهزيمة المنكرة في السنة الأخيرة من القرن السابع عشر ١٦٩٩م، حين

انكسرت الجيوش العثمانية

أمام النمسا وروسيا، «ولقد

اكتسبت اتفاقية كارلوفتر

عام ١٦٩٩م خصائص جديدة

للعلاقة القائمة بين الجانبين

(العثماني والأوروبي)؛ إذ

اتجهت الدولة العثمانية،

التي بدأت تفقد أراضيها في

أوروبا لأول مرة في تاريخها،

بعد هذه الاتفاقية، إلى

استراتيجية الدفاع لاسترجاع الأراضي التي خسرتها،

بدلاً من استراتيجية التقدم إلى داخل أوروبا، وأصبح

حصار (فيينا) نقطة تحول في تاريخ أوروبا، ولعب

دورًا مهمًا في تكوين الفكر والوعي الأوروبي من خلال

الائتلاف الذي تم تشكيله ضد الدولة العثمانية في

هذه المرحلة^(٢).

ولم تتوقف الهزائم السياسية والعسكرية عند هذا

الحد الزمني، وإنما تواصلت حتى السنوات الأخيرة

من عمر الدولة العثمانية التي صاحبت أيام الحرب

العالمية الأولى، التي استغلتها أوروبا في احتلال معظم

(١) أغلو، الدكتور أحمد داود، العمق الاستراتيجي، موقع تركيا ودورها

في الساحة الدولية، ترجمة: محمد جابر ثلجي وطارق عبدالجليل،

ومراجعة: بشير نافع، وبرهان كوروغلو، مركز دراسات الجزيرة، قطر،

والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ -

٢٠١١م، ص ٨٨.

(٢) أغلو، الدكتور أحمد داود، العمق الاستراتيجي، مصدر سابق، ص

٨٨.

مقدمة:

والكسل والعطب، فلا يقوى بعدها على علاج ناجع، وهو ما يحل به من ضعف ومرض في هذا الجهاز أو ذلك، أو هذا النسيج الاجتماعي أو ذلك، وهكذا، فالدولة تضعف إما بتفكك أطراف جسمها، أو بتعطيل عقلها عن قيادة جسمها.

ومحاولات تجديد الدول تتم بنفس الطريقة التي تعالج أمراض هذا النسيج أو العضو أو الجهاز أو ذلك، ومن أصعبها علاجاً إذا ما حل المرض بالجهاز العصبي مباشرة، أو فقد القدرة على العمل أو تم تعطيله عن العمل لسبب أو لآخر، وكما يتم تحريم تناول الخمر الذي يعطل عقل الإنسان عن العمل، فكذلك ينبغي تحريم كل مسكر ومعطل لعقل الدولة عن العمل، ومن أكثر ما يعطل عقول الدول عن العمل: افتقارها إلى العلم والتفكير والاجتهاد، وركونها إلى التقليد والتراث، والأشد ضرراً أن يتحول عقل الدولة التراثي إلى معارض للعقلانية والتجديد الفكري والسياسي، وكان خلايا الجسم قد فقدت قدرتها على المناعة الذاتية، فيسهل مهاجمتها بكل فيروس غريب، فيأخذ نخرًا وتخريبًا في الجسم، دون أن يجد قدرة ذاتية على مقاومة المرض أو الشفاء، فيؤول أمره إلى الموت في أول فرصة ينخر السوس الخشبة التي يتكأ عليها، فتسقط الدول بفعل ثورة داخلية أو عدوان خارجي لا تقوى الدولة المريضة على مقاومته.

والدولة العثمانية واحدة من الدول التي وُلدت فتية في جسمها وعقلها، وكبرت بقيبيتها وأنصارها وشعبها^(٢)، وتمسكها بدينها الصافي الذي كان يمثل عقلها الفعّال، فكبرت قوتها وتوسعت جغرافيتها وامتدت أطرافها، حتى تحولت من إمارة صغيرة إلى إمبراطورية تهابها الدول العظمى، ثم بدأ الضعف يدب في جسمها، ويتعطل عقلها عن الفعل، أو يتم الضغط عليه من الدول الأوروبية لتعطيله أو

قامت بعض الدراسات الاجتماعية بتشبيه الدول بالكائنات البشرية وبالأخص بالإنسان، ولادة ونموًا، وقوة وفتوة وشبابًا، ورجولة وكهولة، وهرمًا وموتًا^(١)، فإذا صح هذا التشبيه، أو قبل افتراضه على أقل تقدير، فإن قياس الدول على الإنسان صحةً ومرضًا، صعودًا وهبوطًا، يقارب الصواب في تفسير أسباب انهيار الدول وسقوطها بدرجة كبيرة، وعليه فإن لحظة الولادة تتم عن خلق جديد للدولة، بخلايا وأنسجة وأعضاء وأجهزة تتمتع بالقابلية القوية للنمو، والنشاط والفاعلية من ناحية، وترتبط في عملها بالجهاز العصبي المنظم لأعمالها جميعًا من ناحية أخرى، ويتعبّر آخر عمل الجسم والعقل، وكلاهما له دور في قوة الإنسان إن كان في الجانب المادي أو الجانب المعنوي، فلا تغني قوة أحدهما عن قوة الآخر، بل كلاهما مكمل للآخر، في التأسيس والوظيفة، والتمكين والتطوير، والبناء والتنمية المستدامة إلى أبعد مدى ممكن.

في هذا القياس فإن الدول تتكون من شقين؛ أحدهما جسمها المادي، والآخر عقلها المعنوي، جسمها متعدد المكونات في خلاياها وأنسجته وأعضائه وأجهزته من الأفراد والأسر والمجتمع وهيكل مؤسساته التي تتظم المكونات الاجتماعية والمدنية وغيرها، وعقلها هو هويتها الفكرية والثقافية والأيدولوجية والعقدية والتي تعمل جماعيًا عن طريق هيئات أو مجالس اجتماعية، واقتصادية، وسياسية وغيرها، والتكامل بينهما، أي بين جسم الدولة وعقلها يوجب أن يواصل الأفراد مد مجتمهم بالأفكار النابضة بالحياة، وأن تقوم المؤسسات المعرفية والعلمية فيه بواجبها مثل أجهزة الجسم، بتفعيل كافة وظائفها المعرفية والعلمية والاجتهادية لتأمين الدولة بالعقل السياسي الفعّال، وإلا تحوّل عقل الدولة السياسي إلى حالة من السكون

(٢) انظر: كفادار، جمال، تكيون الدولة العثمانية، ترجمة عبداللطيف

الحارس، مجلة الاجتهاد، عدد رقم (٤١، ٤٢)، موضوع العدد: الدولة العثمانية في الدراسات الحديثة من الإمارة إلى الإمبراطورية، السنة الحادية عشرة، شتاء وربيع العام ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص ٥٧.

(١) عويس، عبدالحليم، التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، سلسلة كتاب الأمة، قطر، العدد (٥٠)، ذو القعدة ١٤١٦هـ، ص ٩٢.

دولتها، ولا توجهاتها الفكرية العلمانية التي كانت تنتمي إلى عقل أجنبي وهوية حضارية مغايرة في كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية.

لقد كان من أسباب انهيار هذه الدول أنها كانت تحمل عقلاً مغايراً للعقل الجمعي لعقول مواطنيها، وبالتالي فإن إقامة الدول الناجحة ينبغي أن يكون بالتوجه إلى بناء عقل الدولة التي تحترم عقل الأغلبية من مكونات تلك الدولة، وإلا سارت على طريق الانهيار مرة أخرى، وهكذا فإن أهمية دراسة أسباب انهيار الدول هدفه إرشاد الشعوب إلى كيفية بناء الدول القوية والناجحة، وكيفية الحفاظ على الصالح منها من الأمراض الداخلية أو الاعتداءات الخارجية، وتأمينها بوسائل الوقاية الداخلية والحماية من الاعتداءات الخارجية، ما أمكنها القيام بذلك من وسائل وسبل وقدرات، فهل كانت الدولة العثمانية عند نشأتها تحمل هوية الأمة وعقلها، وتمثل قيادة إسلامية ترضى عنها شعوب الأمة الإسلامية.

أسئلة بحثية:

الأسئلة البحثية في مثل هذه الدراسة كثيرة ومتنوعة ومتفاوتة في أهميتها وصعوبتها وجرأتها وما يمكن أن يكون قابلاً طرحه كسؤال، فضلاً عن الجرأة والحرية في الإجابة عليه، ولو كان من باب الفرضية والاحتمال دون أن يكون من باب ما هو موضع اعتقاد أو التصديق به أو مجرد قبوله فقط، وحتى لا تذهب الأذهان بعيداً فإن ما ليس محل سؤال إطلاقاً هو ثبات الإيمان بمصادقية الإسلام وثبات نصوصه الأصلية، فهي ليست محل نقاش بذاتها، وإنما ما هو محل نقاش وسؤال هو ما أنتجه المسلمون من مادة فكرية واجتهادية ومذهبية وأحكام سياسية هي ثمرة اجتهاد بشري، سواء في مادتها الفقهية في كتب الأحكام السلطانية كما هي عند الماوردي وأبو يعلى الفراء وابن أبي الدنيا أو غيرهم.

استبداله بعقل أوروبي وحادثة مقلدة للغرب، فكان التدخل الخارجي أحد أسباب ضعف الجسم والعقل معاً، فانهارت الدولة العثمانية بسبب ضعفها، وعدم قدرتها على علاج ذاتها، وبسبب الضغوط الأوروبية المتواصلة لإرهاق الدولة ثم الانتقاض عليها عسكرياً في الحرب العالمية الأولى والقضاء عليها، ومواصلة العمل الدؤوب للحيلولة دون عودتها جسماً واحداً ولا عقلاً موحداً، ومنذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن نجح الغرب الأوروبي في إدامة شروط الهزيمة على الأمة الإسلامية، وما تملم الأمة المسلمة من خلال صحواتها الإسلامية التركية والعربية في سبعينيات القرن العشرين الماضي، ومن بعده انطلاق ربيعها في تركيا عام ٢٠٠٢م، وفي العالم العربي عام ٢٠١١م إلا بواد فجر جديد إن شاء الله.

أهمية بحث سقوط الدول (الدولة العثمانية نموذجاً):

لا تعيش الكائنات البشرية اليوم خارج نطاق الدول وحدودها القانونية، وتابعيتها في المواطنة والجنسية وجواز السفر، والانتماء الوطني أو القومي أو الديني، وعليه فلا يمكن لإنسان عاقل أن يبتعد عن حقوقه في الانتماء إلى أي بلد، ولا التخلي عن واجباته تجاه وطنه ودولته، وكذلك فإن مبعث راحته وسعادته أن يكون راضياً عن مجتمعه، ومنتظماً إلى دولته، عن قناعة عقلية وإرادة حرة، وإلا فإنه يوهم نفسه بالسعادة الجسمية دون السعادة العقلية، فالانتماء الحقيقي للدول لا يكون إلا بالانتماء إلى الوطن وأرضه وشعبه أولاً، وفي نفس الدرجة والأهمية بل ربما أشد أن يكون الانتماء إلى عقل الوطن وحضارته وهويته الثقافية أو الدينية، وإلا وقع الانفصام بين عقل الدولة ومن ينتسبون إليها من أبناء الشعب وهم غير راضين عن عقلها ولا هويتها الفكرية ولا السياسية، كما وقع في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى وقبل عهد حزب العدالة والتنمية، وبشيء مشابه حال مواطني الدول في بلاد الربيع العربي، التي لم تكن راضية عن عقل



دون تجديد، فكيف أثر ضعف التجديد على ضعف الحياة السياسية للمسلمين؟

السؤال الثاني: ما هو دور العقل السياسي القتالي على قيام الخلافة العثمانية وتوسعها؟ وكيف أثر على ضعفها؟ وهل كان يستند على رؤية دينية شرعية أم غير ذلك؟

السؤال الثالث: هل كانت الدولة العثمانية مدركة للتغيرات الدولية في كل عصورها، وبالأخص عصر حركات الإصلاح الديني في أوروبا؟ ومرحلة توجه أوروبا إلى تجديد نفسها وتحالفها ضد الدولة العثمانية؟

السؤال الرابع: هل ظهر من داخل الدولة العثمانية من يحذرُها من أمراضها الداخلية قبل أن يصفها الغرب بالرجل المريض؟ ولماذا كانت الدولة العثمانية بطيئة التغيير والإصلاح الدستوري؟

منهجية البحث:

يتمزج في هذا البحث المنهجية التاريخية مع المنهجية التحليلية؛ لأن البحث في أحد أبعاده تاريخي

أو كانت في تجاربها العملية في الخلافة الأموية والعباسية والعثمانية، فقد تطورت أشكال الدولة في هذه العهود، مما يثبت أنها محل اجتهاد علمي وعملي هو محل تقدير واحترام بوصفه تراثاً إسلامياً، ولكنه ليس ملزماً في الاتباع من قبل المسلمين في القرن الخامس عشر الهجري ولا بعده، فهو ليس من أصول الدين، وإنما من الخبرات التاريخية للمسلمين في عصورهم الماضية، كل بحسب ظروفه التاريخية المكانية والزمانية، وتحديات عصره، وتفاعلاته الخارجية، وقد نثير أسئلة بحثية في هذا البحث لا يتسع المجال لدراستها، أو لا تتسع القدرة لبحثها، ولكن إثارتها هدف بحد ذاته، فإثارة السؤال الصحيح والجريء لا يقل أهمية عن الإجابة ولو أتت متأخرة أولاً، ومن أكثر من باحث ثانياً، ولا يخفى على أهل العلم أن السؤال نصف العلم، وهو كل الفلسفة، ومن الأسئلة التي نثيرها ونقارب الإجابة على بعضها:

السؤال الأول: دعا الإسلام إلى التجديد ولم يدع إلى التقليد، بينما التاريخ السياسي للمسلمين قائم على التقليد أكثر من قيامه على التجديد، وبالأخص في النظام السياسي (الخلافة) الذي امتد لقرون طويلة

الدولة العثمانية قيادة الأمة الإسلامية، وامتلاكها للرؤية الحضارية التي توظف الأمة في حمل رسالتها الحضارية الإسلامية، وتوفر دواعي تنظيم العثمانيين للدولة داخلياً، وإدارياً وعسكرياً، وأسباب قوتها الذاتية، وأسباب ضعف الدولة الداخلي، ودور ممانعة التجديد في القضاء عليها، والإصلاحات الداخلية، والتنظيمات والمؤامرات الخارجية، وهل كان للعرب دور بارز في الدولة العثمانية، والتوأمة المستقبلية بين الربيع التركي والعربي تجديداً للأمة الإسلامية ونهضتها المنشودة.

نشأة الدولة العثمانية:

لم تكن الدولة العثمانية الدولة الإسلامية الأولى التي تقوم على أساس إيمانها بعقيدة الإسلام وتطبيقها لشريعته وحملها لرسالته، فمنذ أن بعث النبي عليه الصلاة والسلام قامت الأمة المسلمة بتأسيس دولة المدينة المنورة في العهد النبوي أولاً لمدة عشر سنوات، ثم إقامة دولة الخلافة الراشدة لمدة أربعين عاماً، من عام (١١ - ٤٠ هـ / ٦٢٢ - ٦٦١ م)، وقد كانت مشروعية الخلافة الراشدة

امتداداً لمشروعية الدولة الإسلامية في العهد النبوي أولاً، وعلى أساس اجتماعات الشورى في سقيفة بني ساعدة، وما جرى فيها من مباحثات سياسية ضمن شروطها التاريخية في ذلك العصر، وخروج الاجتماع في إقرار خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، إلى نهاية عهد الخليفة الراشد الخامس الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهما.

وبعد الخلافة الراشدة قامت الخلافة الأموية، واستمرت نحو تسعة عقود من عام (٤٠ - ١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م)، وقد قامت الخلافة الأموية مستمدة مشروعيتها من معاهدة الصلح التي تمت بين الخليفة

في تناوله لأمر قد وقع فعلاً، ولكنه أيضاً يتناوله من أجل العبرة والفائدة الفكرية والسياسية، ولذلك لا بد أن يصاحب المنهجية التاريخية مناهج أخرى، منها المنهجية الوصفية، التي تصف الواقع أيضاً وكيف وقع، وإضافة لذلك لا بد من المنهجية التحليلية التي تحلل وتفسر الأحداث علمياً، ولكن من خلال وجهة نظر لا تقوم على التحيز الذي يلغي الموضوعية ولا يتمادى في تجريخ ذاته في نفس الوقت.

إن الدراسات التي تناولت الدولة العثمانية من وجهة نظر قومية متعصبة قد ابتعدت كثيراً عن الأمانة العلمية، سواء كانت تركية أو عربية أو أوروبية^(١)؛ لأنها كتبت بدافع تشويه الدولة العلية العثمانية، والإساءة إلى تاريخها وخلفائها، وقوانينها ودستورها، ولكن هذه الصورة آخذة بالتصحيح والزوال، فقد أخذت البحوث

حول العثمانيين وإمبراطوريتهم تقدم جديداً كثيراً في التفاصيل بعد شيوع استعمال وثائق الدولة العثمانية وسجلاتها، والتي أظهرت حرصاً شديداً لدى الدولة العثمانية على تسجيل وضبط دواوينها الرسمية، فهذه الدراسات الحديثة عن الدولة العثمانية تضيف منهجاً

مهماً في تتبع تاريخ الدولة العثمانية بمراحلها التاريخية المهمة.^(٢)

وحيث إن الحديث عن أسباب انهيار الدولة العثمانية هو المحور الرئيس في هذه الدراسة فإنه سوف يتم تناول أسباب سقوط الدول، والدولة العثمانية نموذجاً في عدة نقاط أساسية، منها الحديث عن دوافع التأسيس التاريخي للإمارة، وعوامل تكوين الدولة العثمانية، وأثر الإسلام في نهضة الدولة وتحمل

(١) الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية،

مصدر سابق، ص ١٦.

(٢) انظر: السيد، رضوان، العثمانيون والدراسات الحديثة، بحث في مجلة الاجتهاد، العددان: (٤١ و ٤٢)، بيروت، شتاء ربيع العام ١٤١٩هـ -

١٩٩٩م، ص ٦.

قبل هذه المرحلة كان القائد أرطغرل بن سليمان شاه التركي يقود إحدى القبائل التركية النازحة من سهول آسيا الغربية إلى بلاد آسيا الصغرى في معارك عديدة حقق فيها انتصارات كبيرة، منها ما كان في نصرة إحدى إمارات الدولة السلجوقية، وبالأخص إمارة علاء الدين السلجوقي سلطان قونية، فكافأ الأمير علاء الدين القائد أرطغرل التركي بإقطاعه عدة أقاليم، ولما توفي القائد أرطغرل عام ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م عين الأمير علاء الدين أكبر أولاد أرطغرل مكانه وهو «عثمان» الذي يُعتبر مؤسس الدولة العلية العثمانية.

ومنذ تلك السنة حقق القائد عثمان عدة انتصارات مهمة للملك علاء الدين السلجوقي فكافأه بأن أقطعه أراضٍ أكبر وقلاع أكثر، وأجاز له ضرب العملة، وأن يُذكر اسمه في خطبة الجمعة، وبذلك صار عثمان بك ملكاً بالفعل لا ينقصه إلا اللقب^(٢).

وفي سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م هاجم التتار مملكة قونية فوقف الأمير عثمان لصددهم، وفي تلك السنة توفي الملك السلجوقي علاء الدين، مما جعل الأمير العثماني يفرض سيطرته على تلك البلاد، ويعلن نفسه ملكاً على كل الأراضي المقتطعة تحت ملكه، وكان مقر ملكه مدينة يني شهر التي تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة بورصة، وبورصة هي المدينة التي سيكون لها أثر كبير في تقوية سلطان آل عثمان.

وما أن أعلن عثمان نفسه ملكاً حتى أرسل إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخبرهم بين ثلاثة أمور:

- ١- الإسلام.
- ٢- أو الجزية.
- ٣- أو الحرب.

وهذا يثبت أن الملك عثمان الذي لقب نفسه «باد يشاه

الحسن بن علي والخليفة الأموي الأول معاوية بن أبي سفيان في العام الذي أطلق عليه عام الجماعة، أما الدولة العباسية فقد قامت مستمدة مشروعيتها من ثورة شعبية إسلامية قضت على الدولة الأموية، وبدعوى تصحيح مسار الأمة الإسلامية ثانيًا^(١)، واستمر حكم الدولة العباسية من عام (١٢٢ - ٦٥٦هـ حتى عام ٧٥٠ - ١٢٥٨م)، أي حتى قتل التتار - بإمرة هولاءكو خان- آخر خلفاء بني العباس في بغداد؛ حيث قتلوا الخليفة العباسي المستعصم وكل من قبضوا عليه من بني العباس والأمراء والعلماء في ٣٠ محرم سنة ٦٥٦هـ الموافق يوم الأربعاء ٦ شباط ١٢٥٨م، وبعد القضاء على الخلافة العباسية في بغداد وجد للخلفاء العباسيين اسم الخلافة في مصر من عام: (٦٥٩ - ٩٢٢هـ / ١٢٦١ - ١٥١٦م)، شريطة أن يبقى الحكم لسلاطين المماليك الذين كانوا يحكمون مصر في تلك المرحلة، فبايع الملك الظاهر المملوكي بايع الخليفة العباسي الإمام أحمد بن أبي بكر بن المسترشد بن المستظهر سنة ٦٦٠هـ وصارت القاهرة مقر الخلفاء العباسيين إلى أن انتقلت إلى العثمانيين في سنة ٩٢٣هـ.

هذا المشهد في إحياء الخلافة العباسية ربما كان يمكن أن يتحقق مرة أخرى بعد ضعف دولة المماليك، وبالأخص إذا كانت القوة الناشئة الساعية لتحمل مسئوليات الأمة الإسلامية من غير العرب ومن غير قريش؛ لأن أحد شروط الخلافة أن يكون الخليفة من قريش، وهذا رأي جمهور الفقهاء باستثناء المذهب الحنفي الذي لا يشترط القرشية في الخلفاء، وهذا ما اضطر المماليك لإحياء الخلافة العباسية ومبايعة خلفائها على الخلافة دون السلطنة في مصر، فلما ضعفت دولة المماليك كان لا بد أن يحمل الراية الإسلامية من يؤمن بالإسلام، ويستطيع حفظ بيضته وحماية المسلمين من الضعف الداخلي، ومن العدوان الخارجي مرة أخرى.

(٢) فريد بك، الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: الدكتور إحسان حق، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص ١١٨.

(١) انظر: الخضري، الشيخ محمد الخضري بك، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الدولة العباسية، دار المعرفة، بيروت، دت، ص ٨.

منازق قبلي أو عشائري أو غيره، فاختر في تأسيس الجيش الشباب الصغار ورباهم تربية إسلامية وعسكرية، وأطلق عليهم اسم الجيش الجديد الذي ترجمته بالتركية بـ«الانكشارية»، وميزته أنه جيش عقائدي ديني ولاؤه للخليفة أولاً، ويبقى في معسكراته ثانياً، فلا يفرط عقده بعد المعارك والحروب كما كان حال المقاتلين من قبله، فكان هذا الجيش من أهم العوامل في استقرار ودوام الدولة العلية العثمانية في مراحلها الأولى، وبقيت الجيوش الانكشارية على نظامها القديم حتى ساء دورها في الحياة العثمانية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأمنية، حتى قام السلطان محمود الثاني بحلها بعد أن قتل المسيئين من قادتها، وكان ذلك بتاريخ ١٠ من ذي القعدة ١٢٤١هـ - الموافق ١٦ من يونيو ١٨٢٦م.^(٤)

ومن الأعمال المهمة التي قام بها السلطان أورخان الأول فتوحاته القوية في بلاد آسيا الصغرى وإسقاطه لنفوذ الروم في بلاد آسيا، وكان لحسن معاملته الأهالي ومنحهم الحرية الدينية والاقتصادية أثره البالغ في استقرار ملكه في تلك البلاد، كما ضم عدة ولايات قريبة منه؛ وذلك لما اشتهر عنه من لين وحسن معاملة لغير المسلمين، وعمل على استتباب الأمن وانتشار العمران فأضاف بذلك خيرات السلم إلى فتوحات الحرب.

وكان من المحاولات المهمة في عهده محاولته نجدة أمير القسطنطينية واسمه «جان باليولوج» الذي استجد به سنة ١٣٥٥م ضد ملك الصرب «دوشان» الذي كان يهدد باحتلال القسطنطينية، وقبل وصول الجيوش العثمانية إلى القسطنطينية مات ملك الصرب دوشان، فتوقف تحرك الجيوش العثمانية نحو القسطنطينية، ولكن هذا التحرك العثماني نحو القسطنطينية لم يوقف تحركهم للسيطرة على الشواطئ الأوروبية القريبة من القسطنطينية،

(٤) انظر: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص ١٢٤.

آل عثمان» أنه تحرك منذ إقامة ملكه على أساس رؤية إسلامية في الدعوة إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، وأنه كان لديه شخصية إسلامية قيادية وعالمة بأحكام دينها وسياسته الشرعية، وأنه يسير وفق أحكام الشريعة الإسلامية التي وضع أسسها فقهاء السير والسياسة الدولية من أصولها الشرعية في الكتاب والسنة النبوية وسير الخلفاء المسلمين، منها الإيمان الصادق، والاستقامة، والشجاعة، وحسن القيادة^(١)، إضافة إلى أن الدولة العثمانية وقفت في وجه أعداء المسلمين؛ نظراً لما كان يسود العالم الإسلامي - العثماني - من عداة للمسيحية في أوروبا.^(٢)

وبالنظر إلى الانتصارات التي حققها؛ فإن ذلك يُعتبر دليلاً على أن الأمة قد التفت من حوله، وأنها ساندته في تحقيق الانتصارات وتسليم القيادة له، أي أن انطلاقته كانت انطلاقة إسلامية وشرعية، هذه الانطلاقة الممزوجة بين آل عثمان والدين كان يدركها كل سلاطين وخلفاء آل عثمان، حتى قال الخليفة عبدالحميد قولته المشهورة: «إن الذي رفعنا في الوجود هو حبا لديننا».^(٣)

وكان الجواب على رسالته لأمرء الروم أن أسلم بعضهم، وانضم إليه آخرون، ومن قاتلوه انتصر عليهم، وكان قائد جنده ولده الثاني القائد العسكري أورخان.

وعند وفاة الملك عثمان شاه أوصى بالملك لابنه أورخان الذي أطلق عليه أورخان الأول، وذلك في ٢١ رمضان سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م، وكان من أعماله تولية أخيه الأكبر منه منصب وزارة المملكة التي تُعنى بالشئون الداخلية، وعمل هو على تقوية الجيش العثماني وتجديده؛ ليكون ولاؤه للدولة العثمانية دون

(١) انظر: كفادار، جمال، ظهور الدولة العثمانية في الدراسات التاريخية المعاصرة، ترجمة: عبداللطيف الحارس، بحث في مجلة الاجتهاد، العددان: (٤١ و ٤٢)، مصدر سابق، ص ١٠.

(2) BERKES, Niyazi: art. Ibrahim Muteferriqa EI (2) Vol. 3.p.1021.

(٣) السلطان عبدالحميد، مذكراتي السياسية، إعداد: إصدارات Der-gah، اسطنبول ١٩٩٩م، ص ١٢١.

الناجح لشبكة تحالفاتهم مع القوى السياسية والاجتماعية الأخرى.^(١)

شعور ملوك أوروبا بمخاطر العثمانيين بعد محاصرة القسطنطينية:

بعد أن فتح القائد أفريونوس بك مدينتي «وردار» و«كلجمينا»، باسم سلطان العثمانيين، وصارت مدينة القسطنطينية محاطة من جهة أوروبا بأملآك آل عثمان، وقُصّلت عن باقي الإمارات المسيحية الصغيرة، التي كانت شبه جزيرة البلقان مجزأة بينها وصارت

الدولة العلية العثمانية متاخمة لإمارات الصرب والبلغار وألبانيا المستقلة.

عند ذلك أدرك الملوك المسيحيون المجاورون للدولة العلية العثمانية خطورة الموقف، وطلبوا من البابا (أوربانوس) الخامس أن يتوسط لدى ملوك أوروبا الغربية ليساعدوهم على محاربة المسلمين، وإخراجهم من أوروبا؛ خوفاً من امتداد فتوحاتهم في أوروبا، فاستجاب البابا لهم، وكتب إلى جميع ملوك أوروبا بالتأهب لمحاربة المسلمين، وحرّضهم على محاربتهم دينية؛ حفظاً للدين المسيحي.

وهكذا يظهر الخطر الأكبر على الدولة العثمانية وهو التهديد الأوروبي المسيحي، الذي تنبه منذ وقت مبكر لمخاطر قيام الدولة العلية العثمانية على حدود أوروبا، وسعي العثمانيين في تلبية المساعدات العسكرية لكل من يطلبها من ملوك أوروبا على منافس آخر له، طالما كان في ذلك نصر لضعيف، أو رفع ظلم أو غيره، أي أن الروح العدوانية الأوروبية للدولة العثمانية قد

ومحاصرتها براً وبحراً حتى مجيء اللحظة المناسبة لفتحها.

كانت الدولة العثمانية في مرحلة صعود كبير في السيطرة العسكرية وفي التنظيم الداخلي والفتوحات الخارجية، فكانت مدة حكم أورخان الأول من الفترات المهمة لتأسيس الدولة العلية العثمانية، وكان رجلاً غازياً قوياً وحكيماً حسن المعاملة مع الآخرين، فلما توفي سنة ٧٦١هـ / ١٣٦٠م انتقل الملك إلى ابنه السلطان مراد الأول، وكان من فاتحة أعماله فتحه لمدينة أنقرة.

وقد تم فتح مدينة أدرنة سنة ١٣٦١م، ولأهمية موقعها الجغرافي ووجودها على ملتقى ثلاثة أنهر نقل إليها السلطان تخت المملكة العثمانية، واستمرت عاصمة لها إلى أن فُتحت مدينة القسطنطينية سنة ١٤٥٣م، وفتح أيضاً مدينة «فيلبة» عاصمة الروملي الشرقية، وفتح القائد أفريونوس بك مدينتي «وردار» و«كلجمينا»، باسم سلطان العثمانيين.

أسباب نشأة وتوسع الدولة العثمانية:

لقد كان لظهور ونشوء وتوسع الدولة العثمانية عدة أسباب، منها:

١- موقع ولاية عثمان الذي شكّل ميزة فريدة، فقد عمل العثمانيون المؤسسون على تسخير الظروف التي وُجدوا فيها بطرق معينة ساعدتهم على تحقيق قوتهم وقدرهم.

٢- سياسة المحافظة على وحدة الإمارة، وخاصة عند انتقال السلطة تحت زعامة وريث واحد.

٣- اتباع العثمانيين منطق المركزية.

٤- الطريقة التي اتبعها بناء الدولة في تغييرهم

(١) انظر: كنادار، جمال، تكوين الدولة العثمانية، ترجمة: عبداللطيف الحارس، بحث في مجلة الاجتهاد، العددان: (٤١ و ٤٢)، مصدر سابق، ص ٥٨.

للغزوات التخومية الأولى خاصة، تأثيرها على الوجود التاريخي للدولة، طوال ستة قرون: مسار فتوحاتها الديناميكية، ونظامها العسكري الأساس، وسيطرة الطبقة العسكرية داخل إمبراطورية تعيشت فيها بنجاح عناصر إثنية - ثقافية ودينية متفاوتة - إن المجتمع الذي قام على هذه العناصر اتبع تقاليد الإمبراطورية الإسلامية الأولى، إلا أن بعض مظاهره الأكثر تفرّداً، كانت في الواقع من إنجاز العثمانيين أنفسهم»^(١).

وفي تقديرنا أن مواصلة الدولة العلية العثمانية القتال العسكري، وبالرغم من كونه في أحد أبعاده كان من أسباب قوة الدولة واتساعها جغرافياً، إلا أنه كان في بعده الآخر مرهقاً لجسمها الداخلي، أي مرهقاً لشعبها وجندها واقتصادها، فقد كانت الدولة تُقطع قاداتها العسكريين وجندها قطعاً من الأراضي التي تملكها وتحت أيديهم؛ لتكون لهم معونة على العيش والاستعداد للقتال

مواصلة الدولة العلية العثمانية القتال العسكري، بالرغم من كونه في أحد أبعاده كان من أسباب قوة الدولة واتساعها جغرافياً، إلا أنه كان في بعده الآخر مرهقاً لجسمها الداخلي، واقتصادها.

حين الطلب فيما أطلق عليه نظام التيمار بالتركية، وهكذا تحولت مدخرات الشعب والجند وتيماراتهم رهن خوض الدولة المعارك والحروب وصد الأعداء، وفي ذلك إرهاب اقتصادي للدولة، فضلاً عما قد يحققه من خلل اجتماعي، أو ظلم لقطاعات كبيرة من المواطنين الذين يعملون في هذه التيمارات مقابل ضرورات عيشتهم وحياتهم فقط.^(٢)

وقد استمر حال الدولة العلية العثمانية على هذا الحال في تطبيق أحكام الدين في الداخل، وحماية بيضة الإسلام مع الخارج على نفس الطريقة الجهادية، فحكم السلطان الغازي بايزيد خان الأول،

انطلقت منذ القرن التاسع الهجري الموافق للقرن الرابع عشر الميلادي، حتى إن ملك الصرب الذي جاء بعد دوشان وهو الملك (أوروك) الخامس الذي لم ينتظر مساعدة ملوك أوروبا تلبيةً لنداء البابا السابق ذكره، وهاجم مدينة أدرنة عاصمة الممالك العثمانية، ولكنه رُدّ مدحوراً خاسراً، وكان ذلك سنة ٨٦٦هـ الموافق ١٣٦٣م.

في هذه المرحلة أخذت بعض الدول الأوروبية تمد يد الصداقة للدولة العلية العثمانية، ومنها دولة (راجوزه) التي تعرف اليوم جمهورية دوبرفنيك وتقع على شاطئ البحر الأدرياتيكي، فقد أرسلت إلى السلطان مراد

سفراء وقعوا معه على معاهدة صداقة وحسن علاقات تجارية بينهم وبين العثمانيين، تعهدوا خلالها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكا ذهباً، وكانت هذه المعاهدة أول معاهدة أمضيت بين الدولة العثمانية والدول المسيحية في سنة ١٣٦٥م.

وبقيت الدولة العلية العثمانية في حالة حروب متواصلة مع دول أوروبا المسيحية، وتمكنت من التغلب على دول البلغار والروملي والأناضول والصرب، حتى قتل السلطان مراد خان على يد جندي صربي جريح غدر به، ثم قُتل الجندي على يد العسكر الانكشارية، ثم ما لبث أن مات السلطان مراد خان على أثرها، وكانت وفاته في ١٥ شعبان ٧٩١م الموافق ٨ أكتوبر سنة ١٣٨٩م.

أسباب ضعف الدولة العلية العثمانية:

١- أثر الحروب المتواصلة ضد العثمانيين على ضعفها الاقتصادي:

لقد اعتبر عدد كبير من المؤرخين أن الدولة العثمانية كانت دولة عسكرية بامتياز، «لقد كان

(١) انظر: إينالچك، خليل، الدولة والرعايا، ترجمة: عبداللطيف الحارس، بحث في مجلة الاجتهاد، العددان: (٤١ و ٤٢)، مصدر سابق، ص ٨١.
(٢) انظر: إينالچك، خليل، الدولة والرعايا، مصدر سابق، ص ٩٩.

ولعل فتح القسطنطينية والفتوحات التي تلتها قد مهدت الطريق للدولة العلية العثمانية لدخول الدول العربية، وبالأخص مصر وبلاد الشام، وانتزاع ملكها من المماليك، فدخل العثمانيون مصر يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ - ٢٤ / ٨ / ١٥١٦م، وعندئذ تنازل آخر الخلفاء العباسيين إلى السلطان سليم العثماني عن حقه في الخلافة الإسلامية، وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهي البيرق والسيف والبردة ومفاتيح الحرمين الشريفين، ومن ذلك التاريخ صار كل سلطان عثماني أميراً للمؤمنين وخليفة رسول الله اسمًا وفعالاً، وهذا يثبت مرة أخرى أن الدولة العثمانية كانت تدرك دورها التاريخي في الامتداد الوجودي للأمة الإسلامية، وأنها على خطى مسارها السياسي ومشروعياته الدينية من الخلافة الراشدة إلى الأموية إلى العباسية إلى العثمانية.

في ظل دولة الخلافة واصلت الدولة العلية العثمانية نفس السياسة الخارجية في حروبها العسكرية لأعدائها بل يمكن القول بأنها في عهد السلطان الغازي سليمان خان الأول القانوني قد بلغت أوج قوتها، ولكن دون أن تتوقف عن حروبها الخارجية التي كانت تزيد في إرهاب الدولة سواء كانت نصرًا أو هزيمة، وهذا لغز كبير يحتاج إلى كثير من الدراسات عن أسباب مواصلة الدولة القيام بالحروب، وهي كانت في دور الدفاع المتواصل بما يتطلبه ملاحقة الأعداء في عقر دارهم والقضاء عليهم، أم كانت في مرحلة فتوحات إسلامية متواصلة لا تتوقف بسبب قناعة دينية أم ضرورة سياسية، تفرض الدولة من خلالها هيبتها الدولية، شأن كافة الدول العظمى عبر التاريخ القديم والحديث.

٢- تأثير المتغيرات الدولية على الدولة العثمانية ودواعي التجديد الذاتي:

وفي هذه المرحلة الزمنية ظهر الإصلاح الديني الراهب الألماني الكاثوليكي «لوثر» يريد الإصلاح

وأغلب مدة حكمه بين السلم والحرب مع ملوك أوروبا، إضافة إلى محاولة القضاء على المناوشات الداخلية التي كان يفتعلها بعض الأمراء الداخليين أملاً بالاستقلال عن الدولة العلية العثمانية، دون أن يكون من نصيبهم إلا الخسارة تلو الأخرى، وبعد موت السلطان بايزيد وقعت الفوضى وتجزأت الدولة إلى عدة إمارات صغيرة، وهذه الخلافات الداخلية سواء كانت من داخل أسرة آل عثمان أم من خارجها كانت من أسباب ضعف الدولة وطمع الأعداء بها.

لقد كانت منطقة البلقان الخاضعة المؤلمة للدولة العلية العثمانية، فعلى الرغم من سيطرة الدولة العلية العثمانية على معظم أراضيها إلا أنها كانت منطقة حرب متواصلة باستثناء مناطق معدودة مثل البوسنة التي استقر فيها حكم المسلمين دون اضطراب وقتال وجبهات غلبة أو هزيمة، وذلك أن الدولة العثمانية لم تعمل على إدخال الشعوب البلقانية في نور الإسلام، ولم تجدد في بيان رسالة الإسلام للشعوب الجديدة التي احتكت بها، أو ضمتها إلى مملكتها، واكتفت بالاتفاقيات التصالحية والسلمية، التي لم توقعها تلك الدول المسيحية إلا في لحظات الضعف والهزيمة بينما كانت تتقضاها بفتوى من البابا أو مندوبيه للموك أوروبا في حالة القوة والتمكين، بحجة أن عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تعد حثًا ولا نقضًا^(١).

وجاء السلطان الغازي محمد الثاني الفاتح، وهو فاتح القسطنطينية يوم ٢٠ جماد أول سنة ٨٥٧هـ الموافق ١٤٥٣/٥/٢٩م، فكان فتحه للقسطنطينية نصرًا عظيمًا للمسلمين حتى تم تسمية المدينة إسلامبول، أي تخت الإسلام أو مدينة الإسلام، وبقدر ما كان هذا النصر مبعث عز وفرحة للمسلمين إلا أنه كان مبعث قلق وتفكير وإعادة حسابات للأوروبيين المسيحيين، فأخذ البابا بيوس الثاني يسعى في تحريض الأمم المسيحية على محاربة المسلمين حربًا دينية.

(١) انظر: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص ١٥٦.

الأولى، وربما تكون هذه المسألة من القضايا التي تحتاج إلى دراسة واسعة ومعقدة في معرفة مكانة الرسالة الإسلامية مع الفتوحات العثمانية.

إن نسبة دخول الأوروبيين الذين دخلوا الإسلام في ظل الفتوحات العثمانية قليلة جداً بالنظر إلى الجهود العسكرية التي بذلتها الخلافة العثمانية في عملية فتح تلك البلدان، وكأن الجهود الفكرية والاجتهادات الدينية لم تكن بنفس القدر أو التناسب مع الجهد العسكري المبذول، وقد يكون ذلك من أسباب ضعف الدولة في العصور التالية؛ لأنه أثر على ثبات الدولة في تلك البلدان فكرياً، فوق إرهابها في الفتوحات المتكررة لتلك البلدان؛ لأنها كانت ترتد على سلطان الدولة كلما سنحت لها الفرصة بذلك.

٣- استثمار أوروبا لضعف العثمانيين في اتفاقيات غير متوازنة:

كان من نتيجة الحروب المتواصلة أن ضعفت الدولة، واضطرت إلى عقد معاهدات سلام مع العديد من الدول الأوروبية، وكانت الدولة العثمانية إذا ما انتقلت من حالة الحرب إلى حالة السلم مع إحدى الدول الأوروبية؛ كان انتقالها مشروطاً باتفاقيات هدنة وسلام وامتيازات لرعايا الدولتين، ولكن درجة استفادة رعايا الدولة العثمانية منها كانت أقل، بل كان رعايا الدول الأجنبية يأخذون من هذه الامتيازات أسباباً للتدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية، ولا تتوقف هذه التدخلات حتى تنخر في جسم الدولة الضعف، وتنخر في عقلها الوهن، وهو ما وقع من نتائج معاهدة الدولة العثمانية مع فرنسا في الاتفاقية الموقعة بينهما في أوائل شهر فبراير سنة ١٥٢٦م، الموافق شهر شعبان ٩٤٢هـ، حيث تم الاتفاق بين المسيو «لافوري» سفير فرنسا والباب العالي وصدر به خط شريف، أي مرسوم ملكي أو سلطاني، وفيه يمنح الكثير من المزايا والامتيازات لرعايا ملك فرنسا النازلين بأراضي الممالك المحروسة^(١).

الديني في الكاثوليكية رافضاً النظام الكنسي والرهينة وغيرها من عقائد المذهب الكاثوليكي، مطالباً بالحجة على ذلك، فجادله البابا «ليون العاشر» وخالفه وطرده، ولكن دعوته الإصلاحية في الكنيسة الكاثوليكية نجحت وانتشرت في عدد من الدول الأوروبية، ولكن ما لا يعرف في هذا المجال هو دور علماء المسلمين في الدولة العثمانية من هذه الحركة البروتستانتية في حينها!!

والمعلوم هو أن دخول الدولة العثمانية مستوى الخلافة العظمى لم يتم على تجديد في الأحكام السلطانية الإسلامية التي عرفت في المرحلة العباسية، بل بقيت مراسم الخلافة مشابهة لما كان في الماضي، بينما كانت مرحلة الانقطاع عن الخلافة العباسية في سقوطها على يد التتار وعودتها إلى السلطة العثمانية في القاهرة بحدود ثلاثة قرون، كان من الممكن بل من الواجب أن يتم التجديد في الفقه السياسي الإسلامي الذي يناسب الخلافة الإسلامية العثمانية في القرن العاشر.

بل عند النظر إلى المذاهب الفقهية التي كانت منتشرة عند الشروع بالخلافة الإسلامية العثمانية نجد أنها نفسها المذاهب الفقهية التي كانت منتشرة في البلاد الإسلامية قبل الخلافة العثمانية، وهذا يوحي بأن التجديد في الفقه كان نادراً إن لم يكن معدوماً، وكان الاعتماد على المفتين وكتب الفتوى المذهبية، وبالأخص كتب المذهب الحنفي الذي تبنته الدولة العلية العثمانية، ودون تجديد في مرحلة الخلافة العامة وقيادتها للأمة الإسلامية كافة.

وربما يمكن القول بأن الخلافة العثمانية على عظمتها كدولة عظمى واكبت الحدث الدولي بكل مقوماته وأبعاده السياسية والعسكرية، وحققت النجاحات المتوالية في هذا المجال، وفرضت قوتها ودورها على المسرح الدولي، ولكنها لم تكن تواكب ذلك بالتجديد الرسالي الذي يصاحب حركة الفتوحات، على النمط الرسالي الذي واكب الفتوحات الإسلامية في القرون

(١) انظر: الأستاذ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مصدر سابق، ص (٢٢٣ - ٢٢٩).

٤- الضعف الإداري:

ومن الأخطار الحقيقية التي واجهت الخلافة العثمانية في هذه المرحلة: أن شخص الخليفة كان فوق كل شيء، وأنه كان يستمد قوته من منصبه وليس من ذاته، فليس ما يمنع أن يكون الخليفة صغيراً في السن، بل دون سن البلوغ الجسدي، فضلاً عن أن يكون دون سن البلوغ العقلي، والتغطية على ذلك من قبل المساعدين والصدر العظم والوزراء والقادة العسكريين، فيتحول الخليفة من القائد القوي الأمر الناهي، إلى الخليفة الذي يحتاج إلى من يأخذ القرار عنه، ودوره محصور في توقيع القرارات السلطانية الشكلية، وإشباع المذات الشخصية، وقبول الهدايا الدولية، وتلقي التهاني في الأعياد الدينية.

هذا كان حال العديد من الخلفاء في مرحلة هبوط الخلافة العثمانية منذ القرن العاشر الهجري، فالاضطرابات الداخلية على كرسي الخلافة تتكرر مع كل خليفة، واضطرابات الانكشارية وطمعهم يزداد سلبياً، والحروب الجانبية تهش في أطراف الدولة وتستقل عنها في حروب متوالية لا تهدأ ولا تلين.

ومن أخطرها حروب الدولة العثمانية مع شاه العجم في بغداد وتبريز، ومع الدولة الصفوية بعد ذلك، وحروب الخلافة مع الدول الأوروبية التي كانت تطالب في كل مرة بمزيد من الامتيازات التي تستخدمها في إضعاف الخلافة العثمانية أولاً، وفي تقوية شوكة أنصارها داخل الخلافة ثانياً، سواء كانوا من الرعايا الأوروبيين أو من أخذوا حق الوصاية عليهم من غير المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم.

فما جاءت الحرب العالمية الأولى إلا والخلافة العثمانية منهكة القوى الداخلية، ومتفاوتة في درجة الاستعداد الحربي والعسكري في مقابل الدول الأوروبية التي أعدت لهذا اليوم عدته، فكانت فرصتها

وتحت ضغوط سعة الدولة، واتساع واجباتها نحو مواطنيها، وبالأخص في ضبط الأمور الإدارية والقانونية التي تنظم شؤون دولة مترامية الأطراف، كانت الدولة العثمانية في حاجة إلى التنظيمات الإدارية والقانونية التي تنظم عمل الولايات مع مركز الدولة وغيرها، وتحت ضغوط هذه السعة الجغرافية والحربية توفر للدولة سعة في الثروة لم تعرفها من قبل، كل ذلك تطلب أن تتوزع المهام والمسئوليات الداخلية والخارجية، والتي كانت من قبل بيد الخليفة شخصياً.

لقد عمد السلطان سليمان إلى نقل صلاحيات قيادة الجيوش في الحروب إلى قادته العسكريين دون أن يخرج هو بنفسه، وكذلك نقل صلاحيات إدارة الشؤون الداخلية إلى منصب الصدر الأعظم دون أن يباشر ذلك بنفسه شخصياً أيضاً،

فأصبح ذلك من عادة الخلفاء من بعده، حتى أصبح القصر الملكي هو مقرهم الدائم إلا ما ندر، وترتب على ذلك كسل في دور الخليفة، وربما تبعه انهماك في المذات التي لم يعرفها الآباء، فتحوّلت العديد من النعم إلى نقم على الخلفاء وحاشيتهم، وأصبحت من عوامل ضعف الدولة العلية العثمانية بعد أن كانت من عوامل قوتها وعظمتها.

٥ - اضطراب منصب الخلافة:

في ظل إحساس الأسرة الحاكمة بالعظمة التي هي فيها، تصبح لا تخشى على نفسها أسباب الانهيار؛ لأنها في مرحلة الاستقرار وضعف الأعداء لا تتحسس ولا تتجسس من أين تأتيها الأخطار، وإن أتت فلا تنظر إليها على أنها أخطار حقيقية!!

فلما استفحلت به الأمراض الداخلية، وركن إلى التقليد وعدم التجديد في جسم الدولة وفي عقلها، تمكن العدوان الخارجي من أن يحقق أهدافه بالقضاء على الدولة، فكان من أدوات العدوان الخارجي بعض أبناء جسم الدولة ممن كانوا غير راضين عن عقلها، ومن الذين حاولوا الإصلاح وتجديد البناء، ولكن تم مقاومة جهودهم في التجديد الذاتي.

لقد كانت محاولات الإصلاح في القرن الأخير من عمر الدولة العثمانية أبطأ من حركة التاريخ ومن حركة سُنّة التداول بين الناس، فكانت الغلبة للعدوان الخارجي البريطاني والفرنسي الذي انتصر في الحرب العالمية الأولى على دول المحور التي كانت الدولة العثمانية أحد المشاركين فيه، فتحول الانتصار العسكري إلى هدم لجسم الدولة بعد أن فقدت الدولة العثمانية فاعلية خلاياها وأنسجتها وأعضائها بسبب مرض عضال في جهازها العصبي وعقلها السياسي الذي ركن إلى ثبات الحركة التاريخية، ودون أن يعالج أمراض الأسر الملكية التاريخية.

إن من لا يجدد في فاعليته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والصناعية لا يتجدد في وجوده الداخلي، لا مع شعبه وأمته، ولا في حضوره الخارجي الدولي، ولا في حضارته التي تحاور الحضارات الأخرى أو تصارعها إن لزم الأمر، فمن لا يجدد لا يتجدد.

التي لم تكن تحلم بها بإسقاط الخلافة الإسلامية، التي طالما قارعها في حروب صليبية عديدة بشتى الأسماء والأوصاف والأماكن والأزمنة.

خاتمة: من لا يجدد لا يتجدد:

إن أهمية دراسة انهيار الدول تكمن في القدرة على النجاة من هذا الوقوع الدنيوي والأخروي، فلا تسقط دولة ولا يتم تداول حالها بين الناس، إلا بعد أن تكون قد دخلت في المخالفات الأخلاقية والمظالم الاجتماعية والاستبداد السياسي، بحيث يصبح استمرارها ثقيلًا على أهلها، فالعبرة الأولى: أن لا تقع الأمم فيما وقع فيه غيرها من أمراض السقوط والانهيار.

وعلى صعيد الدولة العثمانية خصوصًا؛ فإن من الأهمية أن يعلم المسلمون أنهم ليسوا خارج حركة التاريخ، وأنهم ليسوا فوق السنن الإلهية في تغيير الأقسام والأمم، صعودًا هبوطًا، فالقضاء

على الدولة العثمانية درس ماثل أمام المسلمين، بأنهم والدول البشرية سواء، فلا دوام لمن يوقف التفاعل مع مستجدات عصره، ولا بقاء لمن يسبقه عدوه إلى مكان القوة المادية وأسبابها المعرفية والعلمية والصناعية والتكنولوجية والعسكرية.

لقد كان سقوط الدولة العثمانية يجمع بين الأسباب الداخلية والخارجية، والاقتضار على أحدهما دون الآخر هو نوع من الابتعاد عن الحقيقة، فالدول القوية داخليًا لا تقوى للاعتداءات الخارجية على القضاء عليها ولو احتلتها عسكريًا؛ لأن جسمها وعقلها في توافق وتكامل يرفضان كل فيروس مرضي خارجي، وهذا ما تحقق للدولة العثمانية في عهدها الأولى، فقد تعرضت للاعتداءات الخارجية، ولكن قوتها الداخلية بين جسمها الشعبي وعقلها السياسي كان أقوى من أن تفتك به الأمراض، فقاومها وتغلب عليها،

معلومات إضافية

السلطان عبد الحميد الثاني ومحاولته تحديث الدولة:

السلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. إذ وُلد في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨هـ (١٨٤٢م).

بيعته للخلافة وإعلان الدستور:

بويع بالخلافة بعد أخيه مراد، يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣هـ ٣١ أغسطس ١٨٧٦م. وكان عمره آنذاك أربعاً وثلاثين سنة.

تمردات وثورات في البلقان :

قام سكان الجبل الأسود والصرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج عن الدولة العثمانية، وكان ذلك في عام (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، واستطاع العثمانيون إخمادها، ورغب السلطان عبد الحميد في منح الدول الأوروبية من التدخل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة في الضرائب بين المسلمين والنصارى.

كما قامت ثورة البلغار في نفس الوقت الذي قام فيه نصارى البوسنة والهرسك بثورتهم بدعم من النمسا والدول الأوروبية وخاصة روسيا والبوسنة والهرسك، وتحرضهم على الثورة ضد العثمانيين. وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية احتج البلغار على ذلك، فقاموا بثورة وساعدتهم روسيا والنمسا بالسلاح والأموال.

وقام الروس والألمان والنمساويون بدفع الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، وكانت روسيا ترغب في توسيع حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم. وشرع الجنود الروس بالتدفق سراً على بلاد الصرب، والجبل الأسود، وتمكنت الدولة العثمانية من الانتصار على الصرب وحلفائهم، فتدخلت الدول الأوروبية وطلبت وقف القتال وإلا فالحرب الواسعة.

الحرب الروسية العثمانية:

كانت روسيا ترغب في الوصول إلى المياه الدافئة؛ بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية، وقد نص (بطرس الأكبر) (١٦٢٧-١٧٢٥م) في وصيته للروس (في الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة) على ضرورة الصراع الحضاري ضد العثمانيين، إلى أن تنتهي الدولة العثمانية من الوجود.

معاهدة سان ستفانو ١٥ فبراير ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ):

عُقدت هذه المعاهدة في ٢ مارس عام ١٨٧٨م. ووقعها «صفوت باشا» عن الدولة العثمانية وهو يبيكي. وكان لا بد بالضرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية.

قدم المندوب الروسي شروطاً مسبقة، وطلب التوقيع عليها مباشرة وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل استانبول، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع.

مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م):

حضر ذلك المؤتمر الدول الكبرى (إنجلترا، فرنسا، ألمانيا والنمسا)، وجرى البحث خلال هذا المؤتمر في تعديل معاهدة سان ستفانو التي عقدت بين روسيا والدولة العثمانية، وذلك لمعارضة الدول المعنية لهذه المعاهدة لأنها لا تتفق مع مصالحها الاستراتيجية.. واتفق المؤتمر على تعديل معاهدة سان استفانو.

وكان المستشار الألماني بسمارك هو الذي دعا إلى عقد المؤتمر خشية أن يؤدي تصدي بريطانيا إلى روسيا إلى نشوب حرب أوروبية عامة وتهديد الاتحاد الألماني الذي جاهد كثيراً من أجل قيامه، فإنه دعا الدول العظمى إلى المؤتمر في برلين لمراجعة صلح سان استفانو وتسوية نتائج الحرب التركية الروسية.

وهكذا فإن مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطورية العثمانية التي أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها.

الجامعة الإسلامية:

لم تظهر فكرة الجامعة الإسلامية، في معترك السياسة الدولية إلا في عهد السلطان عبدالحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبدالحميد عرش الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م.

كانت فكرة الجامعة الإسلامية في نظر السلطان عبدالحميد يمكن بها أن يحقق أهدافاً منها:

- مواجهة أعداء الإسلام المثقفين بالثقافة الغربية.
- محاولة إيقاف الدول الاستعمارية الأوروبية وروسيا، عند حدها.
- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية.
- تأخذ الوحدة الإسلامية الجديدة دورها في التأثير على السياسة العالمية.
- تستعيد الدولة العثمانية، بوصفها دولة الخلافة، قوتها.
- إحياء منصب الخلافة.

مشروع خط سكة حديد الحجاز:

عمل السلطان عبدالحميد على كسب الشعوب الإسلامية عن طريق الاهتمام بكل مؤسساتها، وقد لعب دوراً مهماً في مشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق إلى المدينة المنورة، وهو بهذا المشروع الذي اعتبره السلطان عبدالحميد وسيلة من الوسائل التي أدت لإعلاء شأن الخلافة، ونشر فكرة الجامعة الإسلامية.

وأبدى السلطان عبدالحميد اهتماماً بالغاً بإنشاء الخطوط الحديدية في مختلف أنحاء الدولة العثمانية؛ مستهدفاً من ورائها تحقيق ثلاثة أغراض هي:

- ١- ربط أجزاء الدولة المتباعدة، مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية.
- ٢- إجبار تلك الولايات على الاندماج في الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التي تنص على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة.
- ٣- تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في أية جبهة من الجبهات التي تتعرض للعدوان.

وكانت سكك حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التي أنشئت في عهد السلطان عبدالحميد، ففي سنة ١٩٠٠م بدأ بتشديد خط حديدي من دمشق إلى المدينة؛ إذ نشر السلطان على المسلمين في كافة أنحاء الأرض بياناً يناشدهم فيه المساهمة بالتبرع لإنشاء هذا الخط، وقد افتتح السلطان عبدالحميد قائمة التبرعات بمبلغ (خمسين ألف ذهباً عثمانياً من جيبه الخاص).

وتبرع للمشروع الشخصيات المهمة في الدولة.

وكان مسلمو الهند أكثر مسلمي العالم حماساً وعاطفة وتبرعاً للمشروع. وقد تبرع أمير حيدر أباد بالهند بإنشاء محطة المدينة المنورة في المشروع.

وكان أول قطار قد وصل إلى محطة سكة الحديد في المدينة المنورة من دمشق الشام يوم ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٠٨م، وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنسبة لمئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم كافة.

السلطان عبدالحميد واليهود

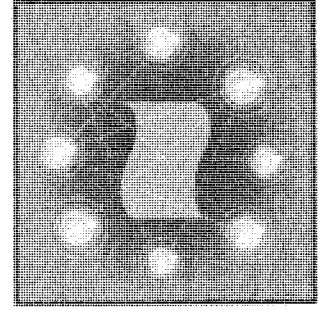
قام هرتزل بزيارة إلى القسطنطينية وذلك في حزيران عام ١٨٩٦م، ورافقه في هذه الزيارة نيولنسكي، الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبدالحميد، ونتيجة لذلك فقد نقل بيولنسكي آراء هرتزل حول فلسطين، وقد دارت محاوره بين نيولنسكي والسلطان عبدالحميد بعدها.

قام السلطان عبدالحميد بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها: (انصح صديقك هرتزل، أن لا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع، لأنني لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة؛ لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي. وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض، ورووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملايينهم. إذا مُرِّقَت دولتي، فمن الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن إن لزم أن يبدأ التمزيق أولاً في جنتنا، فإنني لا أوافق على تشريح جنتي وأنا على قيد الحياة).

المصادر:

- ١- الدولة العثمانية.. عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلامية - الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
- ٢- اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة دار البشير، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٣- السلطان عبدالحميد حياته وأحداث عهده، محمد أورخان دار الأنبار للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

الصعود العلماني في العالم الإسلامي.. جذوره وثماره



بهاء الدين الزهري

باحث في السياسة الشرعية

ملخص الدراسة

كانت الخطوات التي أُتخذت ومهدت للغزو العلماني في بلاد العالم الإسلامي قد بدأت في مراحل مبكرة ترجع إلى قرابة القرنين، وتحديدًا في عهد محمد علي باشا، ويعتبر كثيرون الزمن الذي بدأ فيه دخول هذا المصطلح - العلمانية - مصر أنه حدث خلال ومع الحملة الفرنسية على يد نابليون بونابرت.

ويمكن اعتبار الحرب العالمية الأولى، وما رافقها من اتفاقية سايكس بيكو، بداية مرحلة انتقالية إلى تطبيق تجذير العلمانية في البلدان الإسلامية.

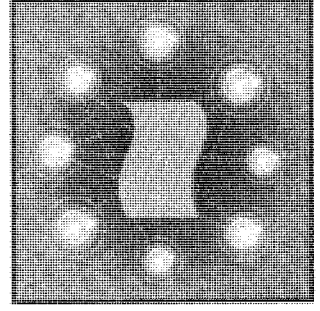
المرحلة التي واكبت ظهور الدول العربية بصورتها الحالية، وذلك بعد اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦م بين بريطانيا وفرنسا ومصادقة من روسيا، التي تم من خلالها تقسيم دولة الخلافة إلى دول مستقلة، وقاموا بترسيم الحدود بين هذه الدول، وبدأت مرحلة انسحاب الاستعمار الشكلي من الدول العربية تباعًا، وتمكين حكومات عميلة بديلة لهذا الاستعمار، ثم قامت هذه الحكومات باستكمال المخطط العلماني من خلال مؤسسات رسمية تعمل من خلال الدولة.

وبالتالي ظهر أثر ذلك تدريجيًا على المجتمع المسلم عبر السنين مرورًا بالحرب العالمية الأولى ثم ثورة ١٩١٩م وتوابعها إلى الحرب الثانية ثم ثورة ١٩٥٢م وتوابعها إلى مرحلة السادات فمرحلة مبارك إلى ثورة ٢٠١١م، وظهر مدى الانقسام بين المجتمع وبين الدين والسياسة جليًا خلال الثورة وبعدها، وقد لاقت الحركات الإسلامية نتيجة لذلك أشد المعاناة، مما يشير أو يدل على نجاح تسلل الكثير من الأفكار العلمانية التي أصابت المجتمع في كثير من الثوابت الإسلامية، إلا أن ذلك كله لم يعطِ المصادقية لأصحاب هذا الفكر بأن يكون لهم ثقل سياسي أو حتى مجتمعي، على حد تعبير ابن خلدون.

وتتجلى أهمية الموضوع في معرفة طرائق العدو في اختراق مجتمعات المسلمين، ودوره في قضية الصراع مع أعدائهم؛ فما يزال المسلمون يعيشون صراعًا مريعًا مع أعدائهم منذ نشأة دولة الإسلام الأولى.

ومن ثم تسعى هذه الدراسة لتبين معالم جذور وأصول الفكر العلماني، وكذلك مخرجاته السياسية، وكيف صارت فكرًا مسيطرًا في مجتمعات المسلمين عبر مؤسسات رسمية وغير رسمية، ثم إلقاء الضوء على مستقبل هذا الفكر العلماني في مرحلة ما بعد الثورات العربية ٢٠١١م.

الصعود العلماني في العالم الإسلامي.. جذوره وثماره



بهاء الدين الزهري

باحث في السياسة الشرعية

مقدمة:

بدأت العلمانية تتجذر في بلادنا الإسلامية عقب الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م-١٩١٨م، وهي المرحلة التي واكبت ظهور الدول العربية بصورتها الحالية^(١)، وذلك بعد اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦م بين بريطانيا وفرنسا ومصادقة من روسيا، التي تم من خلالها تقسيم دولة الخلافة إلى دول مستقلة، وقاموا بترسيم الحدود بين هذه الدول، وبدأت مرحلة انسحاب الاستعمار الشكلي من الدول العربية تبعاً، وتمكين حكومات عميلة بديلة لهذا الاستعمار، ثم قامت هذه الحكومات باستكمال المخطط العلماني من خلال مؤسسات رسمية تعمل من خلال الدولة.

وكانت العلمانية قد بدأت تتسلل إلى بلادنا الإسلامية في أواخر حكم الخلافة العثمانية، أي منذ قرن من الزمان تقريباً؛ حيث ضعفت الخلافة، وهي المرحلة التي استغلها الغربيون وأتباعهم من القوميين العرب لإزاحة المرجعية الإسلامية التي كانت تحكم التصور والفكر والحكم، وبالتالي السلوك والممارسة في أنحاء العالم العربي، ليحل محلها التصور العلماني الذي يزيح الدين عن الحياة بمختلف مجالاتها.

وقد كانت الخطوات التي اتُّخِذَتْ ومهَّدت لهذا التسلل قد بدأت في مراحل مبكرة ترجع إلى قرابة القرنين، وتحديدًا في عهد محمد علي باشا، ويعتبر كثيرون الزمن الذي بدأ فيه دخول هذا المصطلح - العلمانية - مصر أنه حدث خلال ومع الحملة الفرنسية على يد نابليون بونابرت.

وبالتالي يمكن اعتبار الحرب العالمية الأولى، وما رافقها من اتفاقية سايكس بيكو، بداية مرحلة انتقالية إلى تطبيق تجذير العلمانية في البلدان الإسلامية.

وليسست الإشكالية أو مكمّن الخطورة في دخول مفاهيم العلمانية إلى بلادنا، فكم من أفكار هدامة دخلت إلى الديار الإسلامية! بل كم من الأفكار المنحرفة نشأت داخل الديار الإسلامية! ولكن الخطورة أنه مع دخول العلمانية لم نجد من يتصدى لها مثل ما كان يحدث في دولة الإسلام.

فلا السلطة السياسية قامت بواجبها، ولا العلماء قاموا بما يجب عليهم، ولا المجتمع المسلم نفسه، وهذا مؤشّر خطير يدل على مدى الانحراف الذي أصاب الأمة.

وهذا يدل على أنه قد سبق دخول وتسلل هذه الأفكار عملية تمهيد قوية لذلك، أو أن الفرصة صارت سانحة

(١) قبل التقسيم الجديد الذي بدأ سيناريو تنفيذه مع بداية الألفية.

والأجواء ممهدة لدخول هذه الأفكار، من ضعف السلطة السياسية، ويُعدها عن مضمون الواجب الإسلامي، خاصة مع ضعف السلطة المركزية ممثلة في دولة الخلافة، وضعف اتصالها وسيطرتها على الدول التابعة لها، وكذلك الانفصال بين العلماء وبين العملية السياسية والاجتماعية بصورة خطيرة، هذا بالإضافة إلى العديد من الظواهر الاجتماعية السلبية التي تضرب التماسك المجتمعي المسلم في صميمه، بجانب العديد من الآفات الأخرى التي يرجع أكثرها أو جميعها إلى الخلل العقدي والخلل في مفهوم العبادة.

وهكذا وبعد أن فقدت الأمة ذاتها الحضارية - وقد أصابها هذا الضعف العام على مستويات متعددة - استطاع هذا الفكر أن يتسلل ويتمدد وينتشر واستطاع أتباعه أن يؤصلوه ويثبتوه داخل المجتمع عن طريق مؤسسات سياسية واجتماعية، وإعلامية وثقافية، وسينمائية، وغير ذلك.

وبالتالي ظهر أثر ذلك تدريجياً على المجتمع المسلم عبر السنين مروراً بالحرب العالمية الأولى ثم ثورة ١٩١٩م وتوابعها إلى الحرب الثانية ثم ثورة ١٩٥٢م وتوابعها إلى مرحلة السادات فمرحلة مبارك إلى ثورة ٢٠١١م، وظهر مدى الانفصام بين المجتمع وبين الدين والسياسة جلياً خلال الثورة وبعدها، وقد لاقت الحركات الإسلامية نتيجة لذلك أشد المعاناة، مما يشير أو يدل على نجاح تسلل الكثير من الأفكار العلمانية التي أصابت المجتمع في كثير من الثوابت الإسلامية، إلا أن ذلك كله لم يعطِ المصادقية لأصحاب هذا الفكر بأن يكون لهم ثقل سياسي أو حتى مجتمعي، على حد تعبير ابن خلدون.

وتتجلى أهمية الموضوع في معرفة طرائق العدو في اختراق مجتمعات المسلمين، ودوره في قضية الصراع

مع أعدائهم.

فما يزال المسلمون يعيشون صراعاً مريزاً مع أعدائهم منذ نشأة دولة الإسلام الأولى، وما زال النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله عنهم- يدركون أبعاد هذا الصراع، ويعلمون خباياه ووسائله، وأشكاله وتحركاته، ويعرفون عدوهم تمام المعرفة، لا جرم أن صاروا دولة عظمى قوية تقود العالم وقتها.

ومتى غاب هذا المعلم عن المسلمين كانوا عرضة للاختراق من عدوهم، وكان ذلك علامة مرض وضعف في الأمة، وهذا ما حدث.

ومن ثم تسعى هذه الدراسة لتبين معالم جذور وأصول الفكر العلماني، وكذلك مخرجاته السياسية، وكيف صارت فكراً مسيطراً في مجتمعات المسلمين عبر مؤسسات رسمية وغير رسمية، ثم إلقاء الضوء على مستقبل هذا الفكر العلماني في مرحلة ما بعد الثورات العربية ٢٠١١م.

المبحث الأول: جذور الفكر العلماني.. الأصول والمرتكزات:

أولاً تعريف العلمانية:

ورد تعريف كلمة العلمانية في عدد من المعاجم ودوائر المعارف الأجنبية نذكرها مع التعقيب عليها:

- في دائرة المعارف البريطانية مادة (secularism): هي حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها.. ويعني هذا أن العلمانية -في هدفها الرئيس- لا تريد للناس أن تتعلق اهتماماتها بالدين كلية.

**ليست الإشكالية أو مكنن
الخطورة في دخول مثل العلمانية
إلى بلادنا، فكم من أفكار هدامة
دخلت إلى الديار الإسلامية! بل كم
من الأفكار المنحرفة نشأت داخل
الديار الإسلامية! ولكن الخطورة
أنه مع دخول العلمانية لم نجد من
يتصدى لها مثل ما كان يحدث في
دولة الإسلام.**

الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين.

وهذا يضع تعريفاً قريباً للعلمانية:

أنها تعني «إبعاد الدين عن الحياة أو فصل الدين عن الحياة، أو إقامة الحياة على غير الدين؛ سواء بالنسبة للأمة أو للفرد»، ثم تختلف الدول أو الأفراد في موقفها من الدين بمفهومه الضيق المحدود، فبعضها تسمح به، كالمجتمعات الديمقراطية الليبرالية، وتسمي منهجها (العلمانية المعتدلة - Non Religious) أي: أنها مجتمعات لادينية، ولكنها غير معادية للدين، وذلك مقابل ما يسمى (العلمانية المتطرفة - antireligious)، أي: المضادة للدين، ويعنون بها المجتمعات الشيوعية وما شاكلها».

وفي اختصار آخر للتعريف، إنها: اللادينية.^(٢)

نقطة أخيرة:

ليس للعلمانية صلة بالعلم؛ لأن أصل الكلمة باللاتينية ليس له علاقة بالعلم، والذين ابتدعوها لم يريدوا بها العلم من قريب ولا من بعيد. ولو أرادوه لاستخدموا ما يشير إلى النسبة إلى العلم هي (SCI-ENTIFIC)؛ لأن العلم بالإنجليزية (SCIENCE).

وأرى أن استخدام هذه الكلمة العربية كمصطلح لهذه الفكرة فيه تضليل وتعمية، ولو سموها باسمها لانصرف أهل الفطر السوية عنها، ولحاربها أهل الغيرة على الدين؛ فالترجمة الصحيحة للكلمة هي (اللا دينية) أو (الدينية) لا بمعنى ما يقابل الأخوية فحسب، بل بمعنى أخص هو ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد.

قاموس العالم الجديد لوبستر، شرحاً للمادة نفسها:

١- الروح الدنيوية، أو الاتجاهات الدنيوية، ونحو ذلك، وعلى الخصوص: نظام من المبادئ والتطبيقات (Practices) يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة.

٢- الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية لا دخل لها في شئون الدولة، وخاصة التربية العامة.

التعريف الأول يتفق مع تعريف دائرة المعارف البريطانية، أما التعريف الثاني فلا يهمل الدين، ولكنه يجعله شأنًا خاصًا لا صلة له بالحياة العامة.^(١)

أما معجم أكسفورد فذكر شرحاً لكلمة (secular) بمعنى:

١- دنيوي، أو مادي، ليس دينياً ولا روحياً: مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

٢- الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساساً للأخلاق والتربية.

وهذا كسابقه إلا أنه يعتبر موضعاً له، فالنقطة الأولى تتحدث عن السلطة السياسية أو الحكومة وإدارتها لشئون الحياة، والثانية تتحدث عن حرية الأفراد في إدخال الدين في شأنهم الخاص من عدمه.

وفي المعجم الدولي الثالث الجديد مادة: (Secularism):

اتجاه في الحياة أو في أي شأن خاص يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية يجب ألا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات استبعاداً مقصوداً، فهي تعني مثلاً السياسة اللادينية البحتة في الحكومة.

وهي نظام اجتماعي في الأخلاق مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية على اعتبارات

(٢) محمد شاعر الشريف، العلمانية وثمارها الخبيثة، الرياض: دار الوطن، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ص ٨.

(١) وفي رأيي أن الذي قسّم العلمانية إلى جزئية وشمولية أتى من هنا، والله أعلم.

ثانياً: نشأة العلمانية والأصول والمرتكزات للفكر العلماني:

انبثق الفكر العلماني بالأساس من فكرة رئيسية، وهي: رفض أي نوع من السيطرة على استقلالية العقل، وبعبارة أخرى قالوا: إن الإنسان عاقل رشيد، وقادر على الاستقلال بعقله وفكره، والوصول إلى معرفة ما هو صالح له في حياته وإدارة شؤنها، وتحقيق سعادته لنفسه، وكيف أنه هو الذي يخلق قيمه، وأن المعرفة لا تُستمد إلا من المدركات الحسية^(١).

وكانت هذه الأفكار محورية في فكر الفلاسفة القدماء، إلى أن جاءت المسيحية إلى أوروبا، وحصل نوع من التواءم بينهما، بسبب «طبيعة الديانة النصرانية ومبادئها الأساسية التي تقوم على الفصل بين الدين والدنيا، أو بين الكنيسة والدولة ونظم الحياة المختلفة، فهي ديانة روحية شعائرية لا شأن لها بنظم الحياة وشئون الحكم والمجتمع، يعبر عن ذلك القول النصراني: «دع ما لله لله، وما لقيصر لقيصر...» ولهذا فإن النصارى أمماً وشعوباً حين يندفعون للبحث عن تنظيم أمور حياتهم، في العلمانية أو غيرها، لا يشعرون بأي حرج من ناحية دينهم ومعتقداتهم، بل إن طبيعة دينهم تدفعهم لهذا الأمر، ولذلك فإن نشأة العلمانية وانتشارها وسيادتها في المجتمعات الغربية أمر طبيعي»^(٢).

أضف إلى حصر الدين في العبادة بمعناها الضيق فقط، وفي العلاقة الروحية بالخالق، كون هذا الدين الذي اعتنقه هو دين ذو عقيدة منحرفة: أن الله ثالث ثلاثة، وأنه هو المسيح ابن مريم -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-؛ كل هذا «بسبب عبث الكنيسة بدين الله المنزّل، وتحريفه وتشويهه، وتقديمه للناس بصورة

(١) انظر: آرثر والدهورن وأولجا. س. وبيير وآرثر زيجر، دليل القارئ إلى الثقافة الجادة، ترجمة: أحمد عمر شاهين، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، ص ٤٧٧ - فصل الفلسفة. أ. د. علا عبد العزيز أبو زيد، محاضرات في النظرية السياسية، معهد البحوث والدراسات العربية، ٢٠٠٨م، ص ١٩.

(٢) د. عوض بن محمد القرني، العلمانية التاريخ والفكرة.

منفردة دون أن يكون عند الناس مرجع يرجعون إليه لتصحيح هذا العبث، وإرجاعه إلى أصوله الصحيحة المنزلة كما هو الحال مع القرآن المحفوظ بقدر الله ومشيئته من كل عبث أو تحريف خلال القرون»^(٣).

ثم كان الفصام النكد بين المسيحية بصفة خاصة، والدين عمومًا، وبين حياة الإنسان في هذا الكون، بحيث انتهى الأمر إلى ظهور العلمانية كمذهب حياة في أوروبا، وكان من أهم ذلك سيبان رئيسان: الطغيان الكنسي - والصراع بين الكنيسة والعلم.

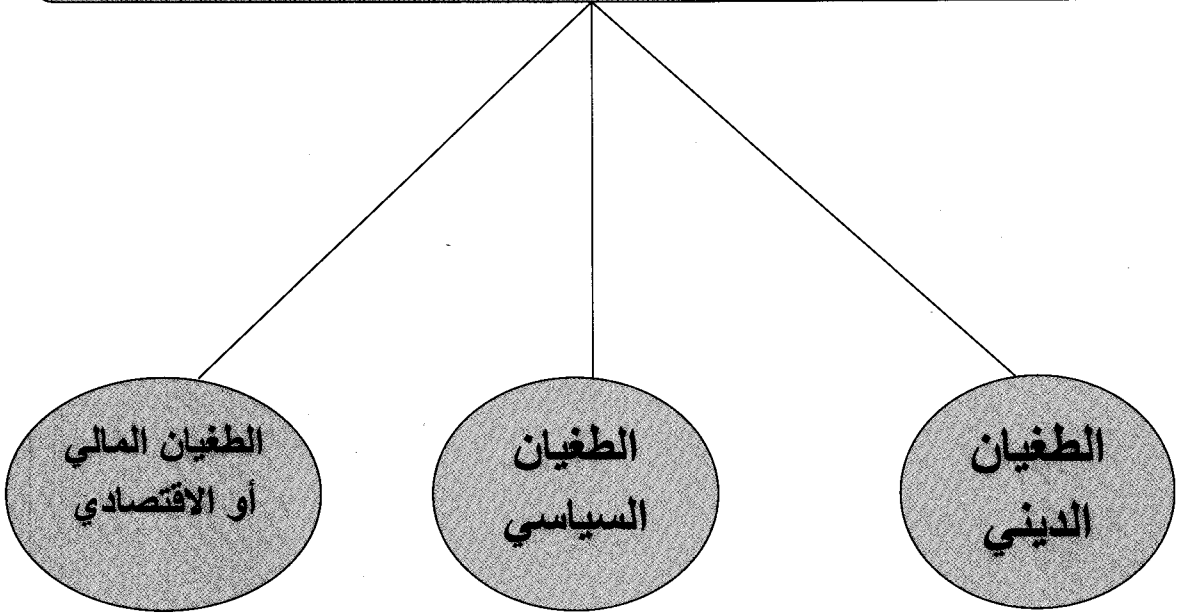
١- الطغيان الكنسي:

يعتبر الطغيان الكنسي هو المقدمة الكبرى للتحويلات التي ضربت أوروبا الحديثة، وأما الصراع بين الكنيسة والعلم فهو المسمار الذي دُقَّ في نعش سيطرة الكنيسة، وهو الشعلة التي أضاءت للعلمانية؛ ذلك أن العلم يتجدد في كل عصر بما يتفق مع مخرجاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والكونية، وفي كافة المجالات، ويتم ترجمة هذه المخرجات إلى نظريات علمية تنقسم إلى يقينيات بالتجربة لا ينكرها العقل، فضلاً عن الدين ما لم تتعارض مع مسلماته، وهذا ليس بالشيء القليل، ومن ثم كانت القاعدة الذهبية الشرعية: أن العقل لا يتعارض مع النقل، وأن الشرع يأتي بمحارات العقول وليس بمحالات العقول.

ويختلف طغيان رجال الدين عن غيرهم من رجال الدنيا؛ فهو أشد مقبلاً ورفضاً؛ ذلك لأنهم يغلفونه بشرعية دينية، وهذا ما حدث من رجال الدين المسيحي، الذين رفعوا شعار المحبة والتسامح، ولكن فقدوا الإيمان والعقيدة الصحيحين، كما فقدوا النية الحسنة والإخلاص المجرد، وزعموا القداسة والعصمة، واحتكروا معرفة الدين وصاروا مصدره الوحيد قراءة وشرحاً وتعليماً وتفهيمًا، وصاروا يفعلون كل شيء باسم الدين، آمنين من المعارضة أو المساءلة، ومن ثم فقد زادوا

(٣) د. إسماعيل محمد حنفي، نبذة عن العلمانية.

مظاهر الطغيان الكنسي:



وكونه الموجه الروحي للمجتمع.. وبيئة هذا حالها، وأمة هذه صفاتها، جديرة بأن توفر للطاغية حماية كافية ومناخاً صالحاً لفرض طغيانه في المجال الذي يريد، وإشباع رغبته التسلطية كما يشاء.

هذه الأوضاع والعوامل مجتمعة، وهي السلطة الكهنوتية المنظمة، والمصادر غير المكشوفة، والبيئة البدائية، جعلت من الكنيسة مارداً جباراً وطاغوتاً جائراً يملك كل مقومات البقاء ولوازم الاستبداد، ويريد أن يسيطر على كل شيء وفق إرادته وهوام.

ولم تدع الكنيسة جانباً من جوانب الحياة دون أن تمسكه بيد من حديد، وتغلّه بقيودها العاتية، فهيمنت على المجتمع من كل نواحيه الدينية والسياسية، والاقتصادية والعلمية، وفرضت على عقول الناس وأموالهم وتصرفاتهم وصاية لا نظير لها ألبتة، وإن التاريخ ليفيض في الحديث عن طغيان الكنيسة، ويقدم نماذج حية له في كل شأن من الشئون⁽¹⁾.

(1) سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية.. نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار الهجرة، ص ١٢٦-١٢٧.

في طغيانهم واشتطوا في سلطانهم الغاشم.

وساعدهم على هذا الطغيان أن الغالبية العظمى من الروم وسكان مستعمراتهم من الأميين السذج الذين ألفوا العبودية، والخضوع المستمر للقوى المسيطرة، وكانوا من الضحالة الفكرية على درجة ليست قليلة، وكان سكان أوروبا قبائل همجية، تعيش أسوأ مراحل التاريخ الأوروبي كله، واعتنق هؤلاء الديانة الرسمية للإمبراطورية، وأحلوا عبادة المسيح محل عبادة الإمبراطور، ولم يتعرضوا ليقظة إيمان حقيقي، كتلك التي هز بها الإسلام نفوس معتنقيه، ورفع مستواهم الروحي والعقلي إلى آفاق عظيمة، بل ظلوا على تلك الحال من الهمجية والانحطاط حتى مطلع العصر الحديث.

لذا كان رجل الدين هو كل شيء بالنسبة لهذه الشعوب، فلم يكن هنالك أي أثر لعالم أو مؤرخ أو باحث، بل كان الظلام المطبق يسيطر على الحياة من كافة نواحيها، ورجل الدين هو الوحيد الذي يملك بصيصاً ضئيلاً، يتمثل في معرفته للقراءة والكتابة،

وقد تجلت مظاهر الطغيان الكنسي في ثلاثة

جوانب:

- الطغيان الديني.
- الطغيان السياسي.
- الطغيان الاقتصادي أو المالي.

٢- الصراع بين الكنيسة والعلم:

كان من أهم أسباب هذا الصراع نشأة وظهور ما يُعرف باسم «الفلسفة المسيحية»: حيث كان الدارسون للعلوم الفلسفية يرجعون إلى ما كُتب في التراث الإغريقي، وتكونت هذه الفلسفة من خليط من نظريات الإغريق وظواهر التوراة والأناجيل، وأقوال القديسين القدامى، وأدمج الفلاسفة المسيحيون في صرح فلسفتهم كل ما وصل إليه العلم البشري في عصرهم من النظريات الكونية والجغرافية والتاريخية، وتبنت المؤسسة الكنسية - على الرغم من أن الديانة النصرانية ديانة روحية صرفة- هذه النظريات

العلمية رسمياً، وأقرتها مجامعها المقدسة حتى أضحت جزءاً من العقيدة المسيحية ذاتها، وامتدت يد التحريف فأدخلت بعض هذه المعلومات في صلب الكتب الدينية المقدسة.

ولم يبدأ عصر النهضة الأوروبية في الظهور حتى كانت آراء الفلاسفة والقديسين القدماء، أصولاً من أصول الدين المسيحي وعقائد مقدسة لا يصح أن يتطرق إليها الشك، ويحكم على كل من يخالفها بالردة والمروق والهرطقة!!

وحين تطورت العلوم الطبيعية تبين أن الكثير من تلك النظريات كانت خاطئة وخلاف الصواب والحقيقة، وتطور الصراع على مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الصدام:

١- بدأت بوضع كوبرنيكوس الذي وضع نظريته (١٥٤٣م) الفلكية، التي تقول بعكس اعتقاد الكنيسة التي هي المصدر الوحيد للمعرفة، فلما خالفها كوبرنيكوس بنظريته وقع في قبضة محكمة التفتيش، ولم ينقذه منها سوى الموت الذي وافاه بعد طبع كتابه بقليل، وقامت الكنيسة بتحريم كتابه «حركات الأجرام السماوية»، ومنعت تداوله، وقالت: إن ما فيه هو وساوس شيطانية مغايرة لروح الإنجيل.

٢- بعد كوبرنيكوس قام العالم برونو بإحياء هذه النظرية، وأثبتها ودعم صحتها، فقبضت عليه محكمة التفتيش وزجت به في السجن

ست سنوات، فلما أصر على رأيه أحرقتة سنة ١٦٠٠م وذرت رماده في الهواء وجعلته عبرة لمن اعتبر.

٣- ظهور العالم جاليليو بعد موت برونو ببضع سنوات، وتوصل جاليليو إلى صنع «التلسكوب»، فأيد تجريبياً ما نادى به أسلافه نظرياً، فكان ذلك مبرراً للقبض

عليه ومحاكمته، وحُكِمَ عليه بالسجن مدة من الزمان، وأمر بتلاوة مزامير الندم السبعة مرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات، ولما خشى على حياته أن تنتهي كسلفه برونو، أعلن ارتداده عن رأيه وهو راعع على قدميه أمام رئيس المحكمة قائلاً: أنا جاليليو وقد بلغت السبعين من عمري سجين راعع أمام فخامتكم، والكتاب المقدس أمامي ألمسه بيدي، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض. وتعهد مع هذا بتبليغ المحكمة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل.

هكذا اهتزت صورة الكنيسة أمام العلم الذي أثبت يوماً بعد يوم فلسفة جديدة في نظرتها إلى البحث العلمي والتجربة، فانتقلت إلى مرحلة جديدة تحاول التوفيق بين الكنيسة والعلم.

لم يبدأ عصر النهضة الأوروبية في الظهور حتى كانت آراء الفلاسفة والقديسين القدماء، أصولاً من أصول الدين المسيحي وعقائد مقدسة لا يصح أن يتطرق إليها الشك، ويحكم على كل من يخالفها بالردة والمروق والهرطقة!!

أنها تراث بشري وليست وحياً إلهياً- وبالفعل حقق سبينوزا نتائج إيجابية تبين تناقضات وأخطاء في الكتاب المقدس.

وجدير بالذكر أن هذا المنهج النقدي الذي جاء به سبينوزا، قد أخذه بتمامه وحذافيره من العالم الجليل ابن حزم الظاهري.

المرحلة الرابعة: مرحلة التنظير العلماني:

أما «جون لوك» فقد خطا خطوة أبعد من ديكارته بأن طالب بإخضاع الوحي للعقل عند التعارض قائلاً: «من استبعد العقل ليفسح للوحي مجالاً، فقد أطفأ نور كليهما، وكان مثله كمثل من يقنع إنساناً بأن يفقأ عينيه ويستعيض عنهما بنور خافت يتلقاه بواسطة المرقب من نجم سحيق».

كما دعا إلى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الأوروبية آنذاك، وهو مبدأ التسامح الديني، وإعطاء الحق لكل إنسان في أن يعتقد ما يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب، وقد رأى لوك أن دولة واحدة + عقائد أو أديان متعددة (مع وجود قيمة التسامح) = مجتمع واحد وحياة مجتمعية هادئة ومستقرة. ومع عدم وجود هذه القيمة فالنتيجة = حروب أهلية. والحل يكمن في «علمنة السياسة»، وفصل الدين عن الدولة، ولا يتخطى الفرد بعقيدته مجاله الشخصي⁽¹⁾.

وإذا كان القرن السابع عشر هو قرن الانتفاضة العارمة على الكنيسة ومبادئها، فإنه كذلك القرن الذهبي لمحاكم التفتيش، فقد قاسى العلماء أنواع الاضطهاد، واستخدمت ضدهم أساليب القمع الوحشية، وظهرت الفهارس أو «القوائم البابوية» التي تحتوي على أسماء الكتب المحرمة، وكان وجود شيء من هذه الكتب في حوزة إنسان ذريعة لسوقه إلى محكمة التفتيش، وتعريضه لأليم عقابها.

(1) أ. د. علا عبد العزيز أبو زيد، محاضرات في النظرية السياسية، ص ٢٥.

المرحلة الثانية: مرحلة التوفيق:

لم يجرؤ دعاة المذهب العقلي أول الأمر على إنكار الوحي بالكلية، بل جعلوا لكل من الطرفين دائرة خاصة يعمل فيها مستقلاً عن الآخر.

وكان مذهب «ديكارت» أبرز المذاهب الفلسفية في هذا العصر، وقد دعا إلى تطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة، واستثنى من ذلك -لسبب ما - الدين والعقائد الكنسية والنصوص المقدسة، وكان يرى «أن ميدان العلم الطبيعية، وموضوعه استغلال القوى الطبيعية، وأدواته الرياضة والتجربة، ويختص الدين بمصائر النفس في العالم الآخر، ويعتمد على الاعتقاد والتسليم، فلا مضايقة بين العلم والدين ولا سلطان لأحدهما على الآخر».

وهذه الازدواجية الديكارتية وجدت لها نظيراً في منهج بيكون التجريبي، الذي قال عنه أندرسن: «إن أعظم مآثر بيكون الفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي»، فعند بيكون يمكن أن تكون أي قضية خاطئة تماماً في نظر العقل، ولكنها صحيحة تماماً؛ لأنها نظر الدين.

والواقع أن المذهب الازدواجي ليس إلا مرحلة طبيعية في سلم التدرج من الإيمان المطلق بالوحي إلى الإنكار المطلق له.

ومع ذلك فقد وُجد فلاسفة آخرون معاصرون لهؤلاء لم ترق لهم هذه الفلسفة، بل أغرتهم تفاهة آراء الكنيسة وحقدهم عليها أن يهاجموا التعاليم الدينية هجوماً مباشراً.

المرحلة الثالثة: مرحلة الإنكار:

وكان «سبينوزا» -بحكم يهوديته- أعنف هؤلاء، فقد طبق المنهج العقلي على الكتاب المقدس، ووضع الأسس التي قامت عليها «مدرسة النقد التاريخي» التي ترى أنه يجب أن تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية -أي: على أساس

ويتميز القرن الثامن عشر بظهور روح الشك العام في كل شيء تقريباً، ومع ذلك فقد ظهرت فلسفات إيجابية متنوعة يدور محورها حول كلمتين، هما في الواقع صنمان استحدثتهما الهاربون من نيران الكنيسة، ليحلا محل إلهها المخيف، وهما: «العقل، والطبيعة».

المرحلة الخامسة: مرحلة الدولة العلمانية:

توفرت بما سبق جميع عناصر قيام الثورة على أنظمة الحكم الفاسدة: سلطة دينية طاغية، تحالفت مع سلطة دنيوية فاسدة، ومجتمعات مقهورة مغلوب على أمرها ترزح تحت نير الفقر والذل والهوان، مع تكون نخب فكرية علمية قيادية تتطلع إلى التغيير للأفضل، مع نهضة صناعية كبرى، وظهور الطبقة الوسطى «البورجوازية» أو طبقة تجار المدن البورجوازيين كمنافس قوي للإقطاعيين، الذين كانوا بمثابة الطلائع للرأسماليين الكبار، ذلك وغيره شكّل بذور الثورة في أوروبا ضد الطغيان الذي تقوده الكنيسة باسم الدين.

وكانت البداية من فرنسا، التي ربما كانت أحوالها الثقافية والاجتماعية أكثر مواتمة لكي تكون المصدر الأول للثورة ضد الكنيسة ودينها.

وانتصرت الثورة الفرنسية بالفعل تحت شعار ميرابو: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس».

«وتمخضت الثورة عن نتائج بالغة الأهمية، فقد ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية، تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب «وليس باسم الله»، وعلى حرية التدين بدلاً من الكتلثة، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية، وعلى دستور وضعي بدلاً من قرارات الكنيسة».

وقامت الثورة بأعمال غريبة على عصرها، فقد حلت الجمعيات الدينية، وسرحت الرهبان والراهبات، وصادرت أموال الكنيسة، وألغت كل امتيازاتها، وحُوربت العقائد الدينية هذه المرة علناً وبشدة، وأصبح

وقاومت الكنيسة كل محاولة للتجديد، وإن كانت نافعة خيرة، فقد كُفرت رئيس بلدية في ألمانيا؛ لأنه اخترع غاز الاستصباح؛ بحجة أن الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً، وهو بمخترعه يريد تغيير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً!!

وقد تعرضت كتب ديكارت وسبينوزا ولوك وأضرابها للحرق والمصادرة، كما تعرضوا شخصياً للإيذاء والمضايقة من قبل الكنيسة، إلا أن تفجر البركان العلمي في كل مكان والخلافات الداخلية بين الطوائف المسيحية شغلتها عن إعطائهم ما يستحقون من الاهتمام.

ومن النظريات الجديدة عن الكون في هذا القرن والتي استأثرت بالاهتمام البالغ من قبل الأوساط الدينية والعلمية على السواء: «نظرية الجاذبية» لإسحاق نيوتن.

ولا شك أن نظرية نيوتن من أعظم النظريات العلمية أثراً في الحياة الأوروبية، فهي وضعت الفكر المادي الغربي، وإليها يُعزى الفضل الأكبر في نجاح كل من المذهب العقلي والمذهب الطبيعي، كما أن مذهب الإيمان بإله مع إنكار الوحي والإلحاد ذاته مدانان لهذه النظرية من قريب أو بعيد، على أن هذه الآثار لم تظهر إلا فيما بعد.

ولكن التأثيرات والايحاءات الفلسفية لنظرية نيوتن أسهمت في إيجاد فكر لا ديني منظم ينتهج طرائق محددة، وإن كان قد ظل مشوباً بالتعصب والسلبية، مندفعاً في مهاجمة الكنيسة ومعتقداتها.

ولعل من الصواب أن نقول: إن نظرية نيوتن لم تمهّد فكرياً للثورة الفرنسية فحسب، بل إنها قطعت نصف الطريق إلى داروين أيضاً.

والكلام عن آثار النيوتونية ينقلنا إلى القرن الثامن عشر الذي كان دخوله إيذاناً بأفول نجم الكنيسة، وولادة آلهة جديدة لا كنائس لها.

هم النواة لنشر الفكر العلماني داخل ربوع مصر، وفي جميع المستويات السياسية والاقتصادية، والثقافية والتعليمية، والقانونية الإعلامية، والفنية.

كما تولت هذه النواة إعداد النخب العلمانية التي تتولى زمام الأمور؛ من أجل ضمان استمرار إمداد المجتمع المصري بهذه النخب يوماً بعد يوم وعماماً بعد عام.

وصار المخطط مكتمل الأركان وضعاً وتنفيذاً خاصة بعد الاحتلال الإنجليزي لمصر ١٨٨٢م، بقيادة اللورد كرومر.

وهكذا وقعت البلاد الإسلامية تحت مخططات التنفيذ والتمكين للفكر العلماني، عن طريق الاستعمار والاحتلال، ثم كان مخطط تقسيم البلدان الإسلامية عقب الحرب العالمية الأولى، الذي عُرف باسم سايكس-بيكو، فسهلت المهمة، واتسع مجال التنفيذ والاختراق عن طريق التقسيم والتفكيك.

وكان من أخطر ما فعله الاستعمار في المرحلة الثالثة من علمنة بلاد المسلمين، من بعد الحرب العالمية الأولى بعد خروجه من بلاد المسلمين، بأي طريقة كانت، أنه وضع على قمة السلطة السياسية والحكومة ثلة من أبناء البلد قد رباها وصنعها على عينه، وضرب بينها وبين دين المجتمع وأخلاقه ولغته وثقافته وتراثه سياجاً، تقوم بعلمنة المجتمع؛ عبر تشييعه بأخلاق المستعمر ولغته؛ حتى لا يبقى فيها محل لشيء آخر.

وكان من دهاء المستعمر أنه مهّد للانسحاب بإقامة مؤسسات إدارية وتشريعية وقضائية يقوم عليها أبناؤه الذين صنعهم، ومع انسحابه تقوم هذه النخب عبر هذه المؤسسات بإدارة المشهد وفق قانون مرسوم من قبله،

رجل الدين موظفاً مدنياً لدى الحكومة»، وظهر الدين الجديد والآلهة الجديدة، وهما العقل والطبيعة. (١)

المبحث الثاني: قرن من الفكر العلماني.. المخرجات السياسية والفكرية:

كانت بداية اختراق العلمانية وتسربها للمجتمع المصري خلال عهد محمد علي، من خلال تنفيذ مخطط نابليون الذي أراد تحقيقه وذهب قبل أن يفعل، فقام محمد علي نيابة عنه بهذا الأمر بدعوى نهضة مصر، وتمثل هذه المرحلة الأولى.

وتعتبر محطات الاحتلال لدول العالم الإسلامي مرحلة ثانية.

أما المرحلة الثالثة فيمكن اعتبار بدايتها من بعد الحرب العالمية الأولى، بداية من حركات الاستقلال الموهوم، واعتلاء حكومات موالية وعميلة للغرب سدة الحكم في بلاد المسلمين، وبالنسبة للوضع المصري فهذه المرحلة تنقسم إلى قسمين زمنيين: من الحرب العالمية إلى انقلاب ١٩٥٢م، والثاني- ما بعدها..

وفيما يلي إلقاء للضوء على مخرجات هذا الفكر العلماني، ونتائج العلمانية ليس في مصر فحسب، ولكن في العالم العربي والإسلامي بعد ما يزيد عن القرن.

محاضن الفكر العلماني ومعامل تضيخ العلمانية.. إنشاء أو إرساء نواة الفكر العلماني:

كانت البعثات التي أرسلت إلى أوروبا ثم الكليات والمدارس التي تم بناؤها داخل مصر تحت أعين الخبراء الأوروبيين، بجانب الذين عادوا من الخارج،

(١) ينظر: محمد قطب، العلمانيون والإسلام، بيروت: دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م. د. سفر الحوالي، العلمانية.. نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار الهجرة، ص ١٢٦-١٢٧. د. عبد العزيز مصطفى كامل، معركة الثوابت بين الليبرالية والإسلام.

في السخرية من أصحاب هذه الدعوة واحتقارهم، وإبعادهم عن تولي الوظائف التي تستلزم الاحتكاك بالشعب والشباب، حتى لا يؤثر فيهم»^(٢).

٢- على مستوى التعليم:

بدأ التغيير في النظام التعليمي من خلال: إنشاء مدارس وكليات على الطراز الأوروبي، وتقسيم التعليم إلى ديني ومدني، وفصل الدين تمامًا عن عملية التعليم، بجانب المدارس الأجنبية التبشيرية المروجة للأهداف الاستعمارية، وشمولها لجميع مراحل التعليم من رياض الأطفال إلى الجامعة، وسحب البساط شيئاً فشيئاً من تحت الأزهر أو التعليم الديني، عبر: إنشاء كليات موازية لبعض ما يدرس في الأزهر مثل دار العلوم، واللغة العربية، وكذلك ما هو ديني عبر فصله عن الأزهر وعن ولاية العلماء، ووسمه بالمدني: مثل مدرسة القضاء الشرعي.

وتعدى الأمر إلى الهيئات: إنشاء دار الإفتاء، وهيئة كبار العلماء، مع دعوات فتح باب الاجتهاد، وإعادة تفسير الإسلام بما يتوافق مع روح العصر.

وشيئاً فشيئاً أنشئ لكل ما تم فصله من الأزهر أولاً ثم ابتداءً، كليات مستقلة تمامًا تضارع الأزهر في وظائفه، بل وتلقى

الدعم الإعلامي المكثف والممنهج من الدولة لرفع هذه الكليات فوق كليات الأزهر، ثم تعمّد تشويه المناهج الدينية الشرعية بالأزهر لتبدو مناهج الكليات الموازية أرقى وأعلى فائدة، فكانت: كليات القانون أو الحقوق، والشرعية والقانون، واللغة العربية، ودار العلوم، والإعلام، والسياسة والاقتصاد، والتجارة، وغيرها، وكلها تدرس مناهج لا تمت إلى الرقابة الشرعية، أو القيم الإسلامية، بل تعتمد أصول المناهج الغربية،

ويشتغل الناس بفرحة الاستقلال الزائف، وبالتدريج تصبح هذه الأنظمة الخالفة للاستعمار بمؤسساتها التي صنعها صورة مصغرة منه، تطبق قوانينه الكفرية على المسلمين، إلا استثناءً في بعض أحكام الأسرة، ويتعود سكان المستعمرات على أنه لا يصلح لها إلا هؤلاء القابعون على حكمهم، ولا يفكرون إلا بعقل المستعمر، ولا ينظرون إلا بعينه، ويتناسون تشريع ربهم ودينهم الذي أكمله ورضيه لهم، ويستعيضون منه قوانين أعدائهم^(١).

وكان أهم وأخطر ما تم تغريبه وعلمنته في بلاد المسلمين: مؤسسات ورجال التعليم والفكر والثقافة، والإعلام والفن، وأهم ذلك الحكم.

١- على مستوى الحكم والقوانين:

بعد خطوات متعددة مثل: التنظيمات الإدارية، والقوانين التجارية، والمحاكم المختلطة، وإنشاء مجلس شورى القوانين، إلى إلغاء المحاكم الشرعية، واستقرار المحاكم الوضعية، كان هذا إعلاناً بالمبدأ العلماني بفصل الحكم والقضاء عن شئون الدنيا والحياة، وبالتالي تبديل حكم الله سبحانه وتعالى بحكم الطاغوت، و«رفض الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى، وإقصاء الشريعة عن كافة مجالات

الحياة، والاستعاضة عن الوحي الإلهي المنزل على سيد البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، بالقوانين الوضعية التي اقتبسوها عن الكفار المحاربين لله ورسوله، واعتبار الدعوة إلى العودة إلى الحكم بما أنزل الله وهجر القوانين الوضعية، اعتبار ذلك تخلفاً ورجعية وردة عن التقدم والحضارة، وسبباً

(١) انظر: محمد الحسن ولد الددو، مخاطبات القضاء في الفقه الإسلامي، جدة: دار الأندلس، ص ٤٣٩، ٤٤٠.

(٢) انظر: محمد شاعر الشريف، العلمانية وثمارها الخبيثة، ص ٢١.

- الفكر العلماني، أو على الأقل أنها لا تعارضه.
- منع تدريس نصوص معينة؛ لأنها واضحة صريحة في كشف باطلهم.
- طمس أمور العقيدة جملةً في المناهج التعليمية، وخاصة عقيدة الولاء البراء.
- انتشار المدارس الأجنبية «التصيرية» في بلاد المسلمين، وقد تجاوز عددها الآن عشرات الآلاف في مصر.^(٢)
- بث الأفكار العلمانية في ثنايا المواد الدراسية بالنسبة للتلاميذ والطلاب في مختلف مراحل التعليم.
- إبعاد الأساتذة المتمسكين بدينهم عن التدريس، ومنعهم من الاختلاط بالطلاب، وذلك عن طريق تحويلهم إلى وظائف إدارية، أو عن طريق إحالتهم إلى المعاش.

ومما أولوه عنايتهم الشديدة داخل دوائر التعليم تشويه وتزييف وتحريف التاريخ الإسلامي، وإثارة الشبهات حوله، بدءاً من عصر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الدولة العثمانية التي صوّرت للمسلمين بكونها دولة فاشية مستبدة، «وتصوير العصور الذهبية لحركة الفتوح الإسلامية، على أنها عصور همجية تسودها الفوضى، والمطامع الشخصية».

٣- على مستوى الفكر:

أفرزت العلمانية مجموعة من الأفكار الأيديولوجية التي تتفرع منها، فالعلمانية كمظلة كبيرة ينضوي تحتها العديد من الأيديولوجيات التي تتبنى هذا الفكر العلماني، وإن اختلف بعضهم عن بعض في بعض الرؤى التنفيذية، ولكن يحكمها الفكر العلماني في مبادئها وأصولها، كما يحكمها على مستويات السياسة والاقتصاد والفكر والثقافة، من

والأفكار والقيم الغربية، ويشرف عليها ذوو الفكر العلماني الذين تم زرعهم في المرحلة الأولى، فصارت هذه الكليات محاضن الفكر العلماني، ومعامل تفريخ للنخب العلمانية، في الداخل مع استمرار «القيام بتربية بعض الناس في محاضن العلمانية في البلاد الغربية، وإعطائهم ألقاباً علمية: مثل الدكتوراه، أو الأستاذية، ثم رجوعهم بعد ذلك ليكونوا أساتذة في الجامعات؛ ليمارسوا تحريف الدين وتزييفه في نفوس الطبقة المثقفة على أوسع نطاق، وإذا علمنا أن الطبقة المثقفة من خريجي الجامعات والمعاهد العلمية، هم في الغالبية الذين بيدهم أزمّة الأمور في بلادهم؛ علمنا مدى الفساد الذي يحدث من جراء وجود هؤلاء العلمانيين في المعاهد العلمية والجامعات».^(١)

وصارت المحصلة إفساد التعليم وفساده، وجعله خادماً لنشر الفكر العلماني، وزعزعة الأسس والقيم الإسلامية، ومن جملة وسائل ذلك ومظاهره^(٢):

- الاختلاط في التعليم بين الرجال والنساء، الذي يبدأ من مرحلة الطفولة لغرس الفكرة في نفوس النشء.
- إخلاء المناهج التعليمية من المواد الشرعية، وتقليص الفترة الزمنية المتاحة للمادة الدينية إلى أقصى حد ممكن.
- جعل مادة الدين مادة هامشية؛ حيث يكون موضعها في آخر اليوم الدراسي، وهي في الوقت نفسه لا تؤثر في تقديرات الطلاب.
- منع تدريس المواد والنصوص التي تتعرض لعداوة اليهود والنصارى، وقصص السيرة والتاريخ المتعلقة بذلك.
- تحريف النصوص الشرعية عن طريق تقديم شروح مقتضبة ومبتورة لها، بحيث تبدو وكأنها تؤيد

(٢) مهيمن عبد الجبار، التعليم الأجنبي مخاطر لا تنتهي، مجلة البيان، السنة: ١٧ - العدد ١٧٤، صفر - ١٤٢٣هـ/مايو - ٢٠٠٢م، ص ١٨.

(١) المرجع السابق، ص ٢١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص ٢٢: ٢٣.

والرأي والفكر والثقافة.

وهذه المؤسسات الفكرية والثقافية تمثل الساحة الحقيقية - الخفية - للصراع مع العلمانية؛ لكونها تعمل على تغيير الهوية المسلمة، وتعبث بالعقل المسلم، وتنتج الأجيال المسلمة المشوهة فكرياً وخلقياً وثقافياً.⁽¹⁾

وكونها خفية؛ لأنها تكون على مستوى النخب، ولا يعلم بها سوى النخب فقط، أما عامة الشعب فلا يدرون حقيقة هذا الصراع، كما أنه لا يشغل المساحة التي تليق به في صراع الحركات الإسلامية مع النظم الفاسدة، ولكن الذي يظهر في الصورة الصراع السياسي وحسب.

٥- على مستوى الإعلام:

وقع الإعلام مبكراً تحت سيطرة التغريبيين لمجتمع المسلمين، لترويج الفكر العلماني الوافد من أوروبا، والداعم لمخطط التغريب الذي يطبق واقعاً على الأرض.

بل إن نشأة الإعلام كانت بأيدي غير المسلمين، وكذلك الفن والمسرح والسينما.

حتى في أيام الاحتلال لعب هذا الإعلام دوره في وأد الروح القومية والوطنية، وهي المصطلحات التي

(1) وجدير بالذكر هنا أن الصراع مع وزير الثقافة المصري يعتبر آخر ساحات الصراع - قبل الانقلاب العسكري الذي حدث في مصر ٢٠١٣م ضد أول رئيس منتخب وهو الرئيس محمد مرسي - قد بلغ أشده بعدما رفض الوزير أن يكون متنفذاً في الصورة دون أن يكون له دور حقيقي، وعندما أراد تطهير الوزارة من النخب الفاسدة المختلفة التوجهات العلمانية، وقضت في وجهه كل مؤسسات الدولة وكل النخب العلمانية، بل وطردوه خارج الوزارة، ولم يحرك له أحد ساكناً. بل من الممكن أن نعتبر أن أحد أهم الأمور التي عجلت بإزاحة الرئيس محمد مرسي أنه خاض صراعاً لاستعادة الهوية المسلمة وتغيير بنية العقل المجتمعي عبر مؤسسات الثقافة والفكر، ومنها كذلك وزارة الأوقاف.

وهذا وغيره يجعلنا نقول - وبكل ثقة - إن القوى الاستعمارية لها مقاييس رقابية في مجتمعات المسلمين، تقيس بها التغيرات التي تحدث على الصعيد الفكري والثقافي والسياسي والمجتمعي وغيره، وما يتجاوز منها ما هو مسموح به، وما يبلغ حد الخطر الذي يرفع وعي المجتمعات المستعمرة، بما يهدد مصالح تلك القوى الاستعمارية.

تلكم الأفكار: (القومية، والديمقراطية، والليبرالية وذراعها الاقتصادي الرأسمالية، والشيوعية وذراعها الاقتصادي الاشتراكية واليسارية)، وتم ترجمة هذه الأفكار إلى مؤسسات وهيئات وأحزاب سياسية.

٤- على مستوى الثقافة:

المؤسسة الثقافية والمجلس الأعلى للثقافة الذي يقبع على قمة هرمه نُخبٌ تغريبية علمانية صرفة، هي التي تسيطر وتهيمن على مؤسسات الدولة الثقافية؛ بحيث صار القائمون على جميع مؤسسات الفكر والثقافة في مصر من ذوي الفكر العلماني: ليبرالياً كان أو يسارياً، أو قومياً، نذكر منها: الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٤٥م، والهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٦١م، والهيئة العامة لدار الكتب ١٩٩٣م، والمركز القومي للترجمة ٢٠٠٦م، وغيرها كثير، وهي تبث سمومها منذ نشأتها في عقول المجتمع المصري، واللافت أنه تشر منتجاتها بأسعار زهيدة رمزية.

ويعمل في نفس الاتجاه كذلك مراكز البحوث والدراسات، ويأتي في مقدمتها: مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.

ولا يفوتنا ذكر معهد البحوث والدراسات العربية، وهو قومي التوجه، ولكنه يرفع شعار العلمانية بوجه عام، كما يُلاحظ من أغلب أعضاء هيئة التدريس والمناهج التي تُدرس، وهذا المعهد وثيق الصلة بالسلطة السياسية ونخبها، بين وزراء ومستشارين للرئاسة أو المجلس العسكري، وكثير منهم يدرس بالمعهد، ومن الأهداف الرئيسية للمعهد إمداد الدولة بالنخب اللازمة في جميع المستويات التي تحمل الفكر العلماني.

وصارت هذه المؤسسات لا تقدم إلا أصحاب الفكر العلماني، ولا ترفع من شأن سواهم، وصاروا هم نخبة المجتمع، في جميع المستويات، أفقياً ورأسياً، من مؤسسة الرئاسة إلى الأحياء والبلديات المحلية، وصاروا هم أهل الشورى والاستشارة والحل والعقد،

الوسائل لنشر مبادئ أيديولوجيا الحداثة في مصر.^(١) والأمثلة على ذلك كثيرة وصارخة، فأفلام مثلاً عقب النكسة ١٩٦٧م، ووفقاً لتحليلات النقاد السينمائيين، سميت بأفلام التجارة بالنكسة، جاء فيها ما هو هادف وجاد ضائعاً تائهاً وسط كم هائل من مشاهد العري والجنس، وتعاطي المخدرات، وألفاظ فاضحة، وعلاقات مشبوهة محرمة، وهذيان، عبر عرض نماذج فاسدة من الرجال والنساء لا تجد للحياة معنى إلا في ذلك السقوط، وكان أهم ما يميز هذه الأفلام زيادة الجرعة الجنسية فيها.

والمشاهد لهذه الأفلام يتصور أن هذا هو حال المجتمع بعد نكسة عظيمة ومصيبة خطيرة نزلت به، ولكن الحقيقة أن صانعي هذه الأفلام هكذا أرادوا لهذا المجتمع أن يكون ضائعاً تائهاً، وتضيع معه الأجيال والشباب، فلا يكتب له نصر ولا ظفر، ولا يكون له هم سوى العبث والهوى، والوقوع في حبالل الجنس والشهوة والهوى واللذة.^(٢)

المحصلة:

١- على المستوى الاجتماعي:

بدءاً من علمنة الأسرة المسلمة، وفصلها عن الدين، وذلك بكسر قبضة الدين من تلك الأسرة الممتدة وتقليص اعتماد الفرد عليها، والقضاء على تكامله معها، وتدمير سلطة الأب على أولاده، وانفلات الأبناء من الأسرة؛ حتى ينفلتوا من الجو الديني العام الذي يحيط بالأسرة، والنظر إلى كل ذلك على أنه ماضٍ

صارت بديلة للمصطلح الإسلامي، وبعد الاحتلال لما صارت بلدان المسلمين يقوم عليها شرذمة من الموالين للغرب صراحة، أو من الحاملين للفكر العلماني بأنواعه؛ اليساري أو القومي أو الليبرالي، أصبحت وسائل الإعلام جمعاء بأيدي الأنظمة الحاكمة، تسبّح بحمدها، وتمجد أقوالها، وتعظم أفعالها !!

٦- على مستوى الفن والسينما:

أما الفن والسينما والمسرح فكان شأنه أعجب؛ فلم تشغل السينما المصرية منذ نشأتها بما ينبغي أن تشغل به، فيكون لها دور في نهضة الدولة وتقدمها على الصعيد القيمي الأخلاقي

والحضاري، بأي صورة، ولكنها لم تفعل ذلك، واختارت لنفسها خطأً واحداً لا تحيد عنه منذ نشأتها، مهما كان يحدث على أرض الوطن، ومهما كان حال الدولة من الانكسار والهزيمة، أو حتى الانتصار، إلا على استحياء لا يستدعي الذكر؛ قياساً بالجانب الآخر.

كان هذا الخط الذي سارت عليه السينما المصرية هو خط الحداثة، في المصطلح الغربي، والتسمية الحقيقية: العلمنة والتغريب، وهذا خط استلها من الحضارة لا الشرقية أو العربية أو الإسلامية، ولكن الحضارة الغربية، وبأليت كان هذا الاستلها في الشق المادي والقيمي الأخلاقي، ولكن كان استلها من الحضارة الغربية في أحط ما فيها، فهي حداثة من جانب أحادي، كما يسميها العالم هرفي «التدمير البناء»، وهذا مصطلح يوضح عملية التحديث في المجتمع الغربي، ويعني: قطع الصلات مع الماضي كوسيلة لتمهيد الطريق أمام أنماط اجتماعية أكثر عقلانية.

وكانت وسائل الإعلام في القرن العشرين من أهم

(١) وولتر أرمبرست، الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م، ص ١٢.

(٢) انظر: محمود قاسم، الفيلم السياسي في مصر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢م. درية شرف الدين، السياسة والسينما في مصر ١٩٦١م-١٩٨١م، القاهرة: دار الشروق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م..

- محاربة الحجاب وفرض السفور والاختلاط في المدارس والجامعات والمصالح والهيئات.

- غياب القيم والثقافة الإسلامية، وأصبحت في

معزل عن حياة الناس وأقوالهم

وأفعالهم وأفكارهم؛ بحيث يحار الناظر في هوية الشعوب.

٢- على مستوى السياسة والاقتصاد:

هيمنة القيم الغربية المدمرة

على مجتمعات المسلمين، البعيدة

كل البعد عن منظومة القيم

الإسلامية، ومبادئ الشريعة ومقاصدها، من ذلك:

- أصبح المبدأ الميكافيلي «الغاية تبرر الوسيلة» غالباً في تصرفات أهل السياسة، مما جرّدها من الأخلاق وأبعد عنها الدين، فأصبح استخدام كل وسيلة حلالاً كانت أو حراماً؛ أمراً عادياً، بل لم يكن سياسياً بارعاً من لم يفعل ذلك!!

- تبنّى الرؤية الديمقراطية الغربية كنظام بديل للحكم، بما يشتمل على ذلك من التعددية الحزبية، والحرية الدستورية، والممارسة البرلمانية، وسلطة الشعب، ومقاومة الاستبداد، ويعنون به الحكم الإسلامي.

- استغلال الناس للوصول إلى الحكم، عن طريق الديمقراطية المزعومة، ثم تسليط السلطة على كبت الناس وظلمهم.

- إبعاد الناس عن الحياة السياسية، واستثناء النهج الإسلامي ذي التوجه الرباني من الوصول للحكم، بل ومحاربهه والتكيل بأنصاره، واتهامهم بالتطرف والإرهاب.

- نشأة التيارات المغالية، سواء كانت أحزاباً ومؤسسات وجمعيات وهيئات، التي كانت ردة فعل للأنظمة العلمانية بظلمها وفسادها.

يجب أن يُرْفَض^(١)، ومن أخطر ذلك دعوة تحرير المرأة، وإضعاف سلطة الرجل وقوامته، بجانب قضايا التعدد، وغيرها مما يُمكّر بالأسرة المسلمة.

ثم علمنة الفرد:

- ضياع الأفراد (الأبناء)، وظهور ما يُعرف بصراع الأجيال، ونشأة أجيال تعيش في عوالمها الخاصة ورؤاها وأفكارها، بعيداً عن المنظومة القيمية للأسرة والمجتمع المسلم.

وكانت المحصلة علمنة المجتمع وظهور الإباحية والفضوح الأخلاقية، ومن مظاهر ذلك^(٢):

- التفكك الأسري وارتفاع نسب الطلاق، والخianات الزوجية، وكثرة أبناء الزنا.

- المخدرات التي انتشرت انتشاراً عجيبياً بين الفتيان والفتيات؛ حتى كثرت المستشفيات والمصحات، ودور النقاهة الخاصة لعلاج متعاطي المخدرات.

- انتشار الجريمة الأخلاقية من زنا واغتصاب، وسرقة، وقتل، والترويج للشذوذ الجنسي.

والأسوأ من ذلك:

- القوانين التي تبيح الرذيلة ولا تعاقب عليها، وتعتبر ممارسة الزنا والشذوذ من باب الحرية الشخصية التي يجب أن تكون مكفولة ومصانة.

- وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات وإذاعة وتلفاز التي لا تكل ولا تمل من محاربة الفضيلة، ونشر الرذيلة بالتلميح مرة، وبالتصريح مرة أخرى ليلاً ونهاراً.

(١) د. أحمد إبراهيم خضر، أقوال منسية حول التعريب، مجلة البيان، السنة: ٩- العدد ٧٨، صفر ١٤١٥هـ/ يوليو ١٩٩٤م، ص ١٨.

(٢) انظر: محمد شاكر الشريف، العلمانية وثمارها الخبيثة، ص ٢٤: ٢٥. د. إسماعيل محمد حنفي، نبذة عن العلمانية.

ونخب إسلامية.

- انكشاف النخب العلمانية، واتضح ضعف تأثيرها على المجتمع، وأنها لا تملك شعبية وفاعلية بين الناس.

- ظهور مسألة التدين الفطري، فالشعوب الإسلامية متدينة بالفطرة تنتمي إلى إسلامها انتماءً عامًا.

ويظهر ذلك عند طرح النخب العلمانية لأي قضية من القضايا التحررية التي تصطدم بالدين اصطدامًا مباشرًا، كما قال أحدهم: بأنه لن يؤثر على ابنه في الدين الذي يعتنقه، ولن يعرض عليه دينًا حتى يبلغ، ثم يعرض عليه الإسلام والمسيحية وغيرها وهو يختار من بينها!!

فمثل هذه القناعات العلمانية القيمة تعتبر صدمة للشعب المسلم، الذي يرفض مثل هذه القيم، وبالتالي يرفض قائلها، ومن ثم يصعب على المجتمع قبول هذه النخب العلمانية، وهو ما حدث بالفعل في الاستحقاقات الانتخابية، سواء البرلمانية أو انتخابات الرئاسة أو استفتاء الدستور؛ حيث انحاز المجتمع المصري بصورة واضحة إلى النخب الإسلامية.

بما يدل على عدم النجاح الذي يراد تحقيقه، ولكن ليس بالدرجة الكافية في نظرهم، فالقوة العلمانية الحقيقية تكمن في:

- مؤسساتها القائمة الحامية والراعية لها.

- كما تكمن في هذه النخب التي تعطي السلطة أو المستترة التي تقوم بإدارة هذه المؤسسات والإشراف عليها.

وهذا هو الجانب الذي نجحت فيه العلمانية في مجتمعاتنا، فأخطر ما يمكن أن تفعله هو عملية إنتاج وتربية أجيال تنتمي للقيم العلمانية بالحال لا بالمقال.

وبالعرض السريع الذي سبق في المبحث الثاني، يتبين أن للعلمانية فعلاً مرتكزات قوية على أرض الواقع، كما أن لها مؤسسات قائمة بالفعل، ولكن

- ولاء الأنظمة السياسية في بلاد المسلمين لدول الكفر، ولاءً كاملاً على حساب الإسلام والمسلمين.

٢- وفي الاقتصاد:

- لم تعد بلاد المسلمين سوى منبع للخامات المادية الأولية، تحصل عليها الدول الغربية بأبخس الأثمان، وفي نفس الوقت هي سوق للسلع الغربية؛ يتم ترويجها في بلاد المسلمين بما يقوّي اقتصاد الغرب ويُضعف المسلمين.

- سيطرة النظريات الاقتصادية ذات البعد الرأسمالي أو الاشتراكي، ونبذ النظام الإسلامي ومعاداته، وارتباط اقتصادات المسلمين بالمنظومة العالمية، وتطبيق اقتصاد السوق الحر.

- استيلاء القيم الاقتصادية على أسواق المسلمين، مثل: (دعه يعمل دعه يمر)؛ فكل إنسان له الحق في أن يفعل ما يشاء من أجل تحقيق مصلحته، وليس لأحد أن يمنعه من ذلك!!

- أسوأ القيم المدمرة التي أصابت مجتمعات المسلمين هي تحويلهم إلى مجتمع مستهلك، ونشر ثقافة الاستهلاك، وسيطرتها على عقول المسلمين.

- أصبحت الثروة دولةً بين عدد محدود من الأغنياء، فلا تستفيد منها بلاد المسلمين كثيرًا.

- أصبح المسلمون عالةً على غيرهم، معتمدين على عدوهم في كل شيء. (١)

المبحث الثالث: مستقبل الفكر العلماني في

مرحلة الربيع العربي:

اصطدمت العلمانية بعد الثورات بمجموعة من الإشكاليات، وإن كانت هذه الإشكاليات في الحقيقة قد ظهرت قبل قيام هذه الثورات بسنوات، منها:

- الصعود الإسلامي ممثلًا في جماعات وتيارات

(١) انظر: د. إسماعيل محمد حنفي، نبذة عن العلمانية.

الإسلامي محرّكاً لعاطفة هذه الجماهير.

هذه في الحقيقة إشكالية النجاح العلماني في المجتمع المسلم، وتكمن في خلق مجتمع مشوه إسلامياً، ينتمي انتماءً عاماً إلى دينه بما يشبه الحمية الدينية، ولكن في التفاصيل والأجزاء تجد قناعاته وقيمه وأفكاره وأفعاله تخالف الإسلام رأساً.

وربما تخرجه منه إذا ما ارتبط ذلك بإيمان منه بالعلمانية، وهذا يمكن التعبير عنه بما يسمى «نظرية التشويش» التي تعرض لها الدين الإسلامي عبر القرنين السابقين بواسطة هذه المؤسسات والنخب العلمانية، فأخرجت أجيالاً مشوشاً عليها في الأحكام الإسلامية والقيمية، التي ربما تصيب ثوابت الدين وأصوله.

وبالنظر في معطيات الواقع فإن القاعدة التحتية للمجتمع المصري تتكون من ثلاث طبقات رئيسة تشكل مجال صراع رئيس (٤):

الأولى: الطبقات الدنيا الكادحة، وتتمثل في العمال والفلاحين، وقد اتضح أن أهم مؤثر على هذه الطبقة هو الطعام والشراب والعمل.

الثانية: الطبقات الوسطى المسماة بالبرجوازية، وهذه في الغالب أهم مؤثر عليها هو الأمن؛ لكونه يشكل حافظاً لمصالحهم الدنيوية.

الثالثة: الطبقات الأرستقراطية التقليدية، من كبار الملاك وكبار الأرستقراطيين وشيوخ القبائل والأغنياء والمنتفعين الجدد، وهذه في الغالب تتشابه مصالحها بصورة مباشرة مع النظام الحاكم.

والطبقة الأولى تستفيد دينها في الغالب من الحركات الإسلامية، بينما الطبقة الأرستقراطية تستفيد دينها من مؤسسات الدولة الرسمية، أو ما يُعرف بالدين الرسمي للدولة، ويتجاذب الطرفان

(٤) انظر: حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة العاشرة ٢٠٠٨م، ص ١٤٨.

مشكلة العلمانية تكمن في النخب الممثلة لها، ويمكن اعتبار النجاح العلماني في:

- تشويه هوية المجتمعات المسلمة؛ بحيث يصعب على الناظر الحكم على هويتها.
- انتشار القيم والثقافة العلمانية.

المحصلة تغريب المجتمع، وهذا ما اصطدم به الإسلاميون أنفسهم؛ حيث كان يتعين عليهم إقناع الناس بالنخبة الإسلامية في العملية السياسية في مقابل النخب العلمانية.

والأخطر هو: أن العلمانية عقيدة كفرية تناقض الإسلام تناقضاً صريحاً واضحاً لا لبس فيه، فهي «مذهب من المذاهب الكفرية، التي ترمي إلى عزل الدين عن التأثير في الدنيا، فهو مذهب يعمل على قيادة الدنيا في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية، والقانونية، وغيرها، بعيداً عن أوامر الدين ونواهيه» (١).

«ولكن نظراً لما أصاب كثيراً من التصورات الإسلامية من انحراف وغيش في أذهان الناس، ولما يثيره أعداء الإسلام -الظاهرون والمتسترون- من شبّهات وأباطيل؛ فإن من الضروري تجلية تلك التصورات وكشف هذه الشبّهات» (٢).

كيف يجوز لمسلم أن يقارن أو يُخيّر بين هاتين الجهتين؟ ثم يختار النخبة العلمانية، فهذا التحول في المجتمع المسلم بحيث «لم يعد الإسلام بحد ذاته قوة كافية لتعبئة الجماهير» (٣)، وقد بدا هذا واضحاً في محركات ثورات الربيع العربي، وكذلك مفردات خطاب الحركات الإسلامية بعدها، وإن ظل الخطاب

(١) انظر: محمد شاکر الشریف، العلمانية وثمارها الخبيثة، ص ٨.

(٢) انظر: سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، دار الهجرة، ص ٦٦٩.

(٣) انظر: بيناز توبراك، الحق الديني، ضمن مجموع «الشرق الأوسط الحديث» الجزء الرابع، دمشق: دار طلاس، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ص ٩٥.

الرئيس المصري محمد مرسي، أول رئيس منتخب بعد الثورة، في صراعه مع مؤسسات القضاء والشرطة، والمخابرات، والإعلام والثقافة، ثم المؤسسة العسكرية التي انقلبت عليه بعد سنة واحدة من الحكم.

وثانيًا: خارجيًا مع القوى العالمية الداعمة لهذه النخب والمؤسسات العلمانية بالداخل:

فإن كانت مرحلة ما بعد الثورات تمثل صراعًا حتميًا من أجل استعادة الدولة الإسلامية، أو الخلافة الإسلامية، فإن الصدام على هذه المستويات حتمي، وإن مستقبل الفكر العلماني متعلق بمدى قدرة الحركات الإسلامية على إدارة هذا الصراع، ومدى استفادتها من الحراك الشعبي القوي المتصاعد - المتسم للحرية

الرافض للاستبداد والديكتاتورية-، واستخدامه في مواجهة هذه المؤسسات العلمانية التي يأتي على رأسها المؤسسة العسكرية، بحيث يكون الهدف الرئيس هو بناء دولة قوية على أسس الاستقلال والخروج من التبعية الغربية.

وعلى قدر إدارة الحركات الإسلامية لهذا الصراع بحكمة واقتدار، سيكون التعجيل بانهيار الفكر العلماني وإعلان وفاته رسميًا، كما سبق هو وأعلن سقوط الخلافة ١٩٢٤م.

إن الفكر العلماني بعد فشله على مدار قرنين من الزمان في تحقيق مسعاه بعلمنة العقل المسلم، فكل ما استطاع تحقيقه هو الوصول إلى السلطة على ظهور الدبابات والانقلابات العسكرية، وتشويه هوية المجتمعات، والتشويش على أنماط التفكير العقلي لها،

الطبقة الوسطى، وهذا في الحقيقة يمكن أن يمثل عامل قوة للحركات الإسلامية.

وبالرغم من هذا النجاح العلماني؛ فإن الدراسات الميدانية تثبت أن النظام الإسلامي يأتي على قائمة تفضيلات المصريين بنسبة ٤٨٪، كما أنهم يتحمسون لغرس القيم الإسلامية في المجتمع بنسبة ٨٥٪^(١).

مما يؤكد مسألة التدين الفطري، أو كون الدين هو المحرك العاطفي للجماهير.

تحديات المواجهة:

ومن ناحية أخرى يمثل هذا الأمر التحدي الكبير للحركات الإسلامية في مواجهة الفكر العلماني في مرحلة ما بعد الثورات داخليًا وخارجيًا.

أولاً: داخليًا على الأضعدة التحتية والفوقية:

التي تتجلى في القطاع الشعبي المشوّهة عليه أفكاره وقيمه ومفاهيمه، وكيفية تصحيحها. والفوقية تتمثل في:

- النخب العلمانية، وهذه لا ضرر منها عند الاحتكام إلى الشعب المسلم كما حصل ذلك مرارًا، فيسهل فضحهم وإظهار الحقيقة الشرعية.

- المؤسسات العلمانية التي تدير الدولة بالفعل: وهذه المؤسسات تمثل الخطر الرئيس على الحركات الإسلامية، وأخطرها المؤسسة العسكرية، فالتحدي الأكبر بالنسبة للحركات الإسلامية يتعلق في المواجهة مع المؤسسات العلمانية.

وقد تبدت قوة هذا الصراع وضراوته في عهد

(١) علي الدين هلال ونيفين مسعد، النظم السياسية العربية، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الرابعة ٢٠٠٨م، ص ١٢٩-١٣٠.

والشرطية والأمنية في الداخل، وأيضاً مدعومة من خلال القوى الاستعمارية الخارجية المعروفة بالقوى العظمى، على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية راعية الفكر العلماني في العالم، باعتباره الفكر الجدير بأن يسود، وفقاً لاستراتيجيتهم في بناء الإمبراطورية الأمريكية العالمية.

وهكذا كانت العلمانية تتحرك من خلال مسارين:

الأول: صناعة النخب العلمانية.

الثاني: بناء المؤسسات العلمانية الحاكمة والمسيطر. وجعل هذه النخب على رأس هذه المؤسسات، وكذلك في جميع أركان الدولة، بحيث تصبح هذه النخب العلمانية قابضة على أزمّة الأمور في جميع المؤسسات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والتعليمية، والفكرية والثقافية.

وما نتج عن هذه المؤسسات من تشويه للمجتمعات المسلمة من جهة القيم والمبادئ، والفكر والثقافة، أو بتعبير آخر تشويه للهوية المسلمة، هو مجال الصراع الحقيقي، والتحدي بين الحركات الإسلامية وبين العلمانية عقب الربيع العربي، وهذا المجال من الصراع يمثل في الحقيقة ما يخفى من جبل الجليد، وأما قمة جبل الجليد وما يظهر منه فهو الصراع السياسي أو الصراع مع المؤسسات العلمانية على مستوى الدولة.

إن الفكر العلماني بعد فشله على مدار قرنين من الزمان في تحقيق مسعاه بعلمنة العقل المسلم، فكل ما استطاع تحقيقه هو الوصول إلى السلطة على ظهور الدبابات والانقلابات العسكرية، وتشويه هوية المجتمعات، والتشويش على أنماط التفكير العقلي لها، ومع ذلك فإن سقوطه أمر حتمي وقادم لا محالة.

التوصيات:

تبني استراتيجية للصراع عبر ما يمكن تسميته «علم إدارة الصراع»، ويشمل محاور أساسية رئيسة منها:

- تعريف المسلمين بحقيقة هوية المسلم، ودوره في الحياة ووظيفته في الوجود.

ومع ذلك فإن سقوطه أمر حتمي وقادم لا محالة؛ لأن ثورة الشعوب الآن تقوم على أرضية مماثلة لثورتها على الاحتلال الاستعماري، بعد إدراك الشعوب الآن أن الذي يحرك هذه المؤسسات هو العدو الخارجي الاستعماري بالفعل، وازدياد الوعي بذلك يوماً بعد يوم، فهي ثورة يقودها الإسلاميون، ولن تهدأ أبداً حتى تذهب بالمحتلين وأذئابهم، وهذه مسلمة تاريخية.

خاتمة:

يواجه الفكر العلماني عقب قرنين من الزمان أزمة حقيقية في مجتمعات المسلمين اليوم، بدأت مع تزايد الوعي السياسي لدى الحركة الإسلامية، تم تتويجها بثورات ما عُرف بالربيع العربي، وما أعقب ذلك من وصول الإسلاميين للحكم في بلاد الثورات العربية.

هذا الوضع الحالي يستدعي بالضرورة الوقوف للنظر في هذا الفكر العلماني وتاريخه في بلاد المسلمين، وتقييم هذه الحالة، وأيضاً يستدعي في المقابل تقييم الحركات الإسلامية التي استطاعت الصمود خلال هذه السنوات الطويلة حتى تمكنت من هزيمة هذا الفكر في مجتمعات المسلمين، وتحقيق نجاحات فعلية، والوصول إلى سُدّة الحكم ومواقع السلطة.

ويُعتبر ما حدث من صعود إسلامي في بلدان المنطقة العربية هو المحدد لعناصر النجاح والفشل في الحركة العلمانية في البلاد الإسلامية، فعلى صعيد النخبة العلمانية تعتبر العلمانية فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق أيّ ثقل على أرض الواقع بين الناس، والنجاح الذي حققته جاء بسياسة السوط والعصا، عبر مؤسسات حكومية رسمية مدعومة بالقوة العسكرية

- بيان أن بلاد المسلمين حقيقةً تزرع تحت إرادة القوى الاستعمارية الغربية.

- فضح جماعات المصالح المتشابكة مع القوى الخارجية المسيطرة على مقاليد الأمور.

وفي النهاية تحقيق الاستقلال التام والحقيقي لبلاد المسلمين، الذي لن يتحقق حتى يصير فكر الصراع - من أجل تحقيق هذا الاستقلال وإقامة دولة الإسلام - ثقافة في وعي جميع أفراد الأمة الإسلامية.

- تعريف أفراد المسلمين بحقيقة الصراع بين الإسلام والعلمانية وتاريخه.

- فضح نظرية المؤامرة التي تمت على بلاد المسلمين. - فضح أدوات هذه المؤامرة العلمانية، ووسائلها وطرقها.

- فضح العملاء التابعين الموالين لقوى الاستعمار الغربي الخارجي، وهم أدوات التنفيذ لمخططاته.

معلومات إضافية

وسائل وطرائق العلمانية من الغرب للشرق:

١- من خلال الاحتلال العسكري الاستعماري:

فقد وفدت العلمانية إلى الشرق في ظلال الحرب العسكرية، وعبر فوهات مدافع البوارج البحرية، ولئن كانت العلمانية في الغرب نتائج ظروف ومعطيات محلية متدرجة عبر أزمنة متطاولة، فقد ظهرت في الشرق وافداً أجنبيًا متكامل الرؤى والأيدولوجيات والبرامج، يطبق تحت تهديد السلاح وبالقسر والإكراه، كمن يصز على استنبات نباتات القطب الجليدي في المناطق الاستوائية، وفي هذا من المصادمة لسنن الله في الحياة ما يقطع بفشل التجربة قبل تطبيقها؛ لأن الظروف التي نشأت فيها العلمانية وتكامل مفهومها عبر السنين تختلف اختلافًا جذريًا عن ظروف البلدان التي جُلِبَتْ إليها جاهزة متكاملة في الجوانب الدينية والأخلاقية والاجتماعية والتاريخية والحضارية، فالشرط الحضاري الاجتماعي التاريخي الذي أدى إلى نجاح العلمانية في الغرب مفقود في الشرق بل في الشرق نقيضه تمامًا -وأعني بالشرق هنا الشرق الإسلامي-.

وحيث نشأت الدولة العربية الحديثة كانت عالة على الغربيين الذين كانوا حاضرين خلال الهيمنة الغربية في المنطقة ومن خلال المستشارين الغربيين أو من درسوا في الغرب واعتنقوا العلمانية، فكانت العلمانية في أحسن الأحوال أحد المكونات الرئيسة للإدارة في مرحلة تأسيسها، وهكذا بُذرت بذور العلمانية على المستوى الرسمي قبل جلاء جيوش الاستعمار عن البلاد التي ابتليت بها .

٢- البعثات التي ذهبت من الشرق إلى الغرب لطلب العلم والتقدم:

ذهبوا لدراسة الفيزياء والأحياء، والكيمياء والجيولوجيا، والفلك والرياضيات، والاقتصاد والسياسة، والعلوم الاجتماعية والنفسية، بل ولدراسة الأديان وبالذات الدين الإسلامي في الجامعات الغربية، فعادوا بالأدب واللغات، فعاد الكثير منها بالعلمانية لا بالعلم، فالشباب المراهق ذهب يحمل الشهادة الثانوية، ويُلقي به بين أساطين الفكر العلماني الغربي على اختلاف مدارسها؛ ليعود بعد عقد من السنين بأعلى الألقاب الأكاديمية، وفي أهم المراكز العلمية بل والقيادية في وسط أمة أصبح ينظر إليها بازدراء، وإلى تاريخها بريية واحتقار، وإلى قيمها ومعتقداتها وأخلاقها - في أحسن الأحوال - بشفقة ورتاء.

إنه لن يكون بالضرورة إلا وكيلًا تجاريًا لمن علموه وثقفوه ومدنوه، وهو لا يملك غير ذلك، ولئن كان هذا التوصيف للبعثات الدراسية ليس عامًا، فإنه الأغلب وبالذات في أوائل عصر البعثات، وما طه حسين ورفاعة الطهطاوي إلا أمثلة خجلى أمام غيرهم من الأمثلة الصارخة الفاقعة اللون مثل زكي نجيب محمود ومحمود أمين العالم وهؤاد زكريا وعبدالرحمن بدوي وغيرهم الكثير ..

ولئن كان هذا الدور للبعثات العلمية تم ابتداء من خلال الابتعاث لعواصم الغرب؛ فإن الحواضر العربية الكبرى مثل القاهرة - بغداد - دمشق أصبحت بعد ذلك من مراكز التصدير العلماني للبلاد العربية الأخرى، من خلال

جامعاتها وتنظيماتها وأحزابها وبالذات لدول الجزيرة العربية، وقُلّ من يسلم من تلك اللوثات الفكرية العلمانية، حتى أصبح في داخل الأمة طابور خامس، وجهته غير وجهتها، وقبيلته غير قبيلتها، وإنهم لأكبر مشكلة تواجه الأمة لفترة من الزمن ليست بالقليلة .

٣- من خلال البعثات التبشيرية:

فالمنظمات التبشيرية النصرانية التي جابت العالم الإسلامي شرقًا وغربًا من شتى الفرق والمذاهب النصرانية جعلت هدفها الأول زعزعة ثقة المسلمين في دينهم، وإخراجهم منه، وتشكيكهم فيه، حتى وإن لم يعتنقوا النصرانية، وليس أجدى من العلمانية وسيلة لهذا الغرض، والأمر ليس من باب التخمين والافتراض، بل نطقت بهذا أفواههم وخطته أقلامهم.

وهؤلاء المبشرون : إما من الغربيين مثل زويمر ودنلوب، وإما من نصارى العرب مثل أديب إسحاق وشبلي شميل وسلامة موسى وجرجي زيدان وأضرابهم .. ومنهم من كان يعلن هويته التبشيرية ويمارس علمنة أبناء المسلمين كزويمر، ومنهم من كان يعلن علمانيته فقط، ويبدل جهده في ذلك كسلامة موسى وشبلي شميل.

٤- من خلال المدارس والجامعات الأجنبية:

ففي أواخر الدولة العثمانية وحين سيطر الماسونيون العلمانيون على مقاليد الأمر سُمح للبعثات التبشيرية والسفارات الغربية بإنشاء المدارس والكليات، وانتشرت في بلاد الشام والأناضول انتشار النار في الهشيم، وخرجت أجيال من أبناء وبنات المسلمين أصبحوا بعد ذلك قادة الفكر والثقافة ودعاة التحرير والانحلال.

ومن الأمثلة على ذلك الجامعة الأمريكية في بيروت، والتي في أحضانها نشأت العديد من الحركات والجمعيات العلمانية، وقد سرت العدوى بعد ذلك إلى الكثير من الجامعات والمؤسسات التعليمية الرسمية في العديد من البلاد العربية والإسلامية، وقد قام خريجو هذه المدارس والجامعات بممارسة الدور نفسه حين عادوا لبلدانهم أو ابتعثوا للتدريس في بعض البلدان الأخرى.

٥- من خلال الجمعيات والمنظمات والأحزاب العلمانية:

التي انتشرت في الأقطار العربية والإسلامية، ما بين يسارية وليبرالية، وقومية وأممية، وسياسية واجتماعية، وثقافية وأدبية، بجميع الألوان والأطياف، وفي جميع البلدان؛ حيث إن النخب الثقافية في غالب الأحيان كانوا إما من خريجي الجامعات الغربية أو الجامعات السائرة على النهج ذاته في الشرق، وبعد أن تكاثروا في المجتمع عمدوا إلى إنشاء الأحزاب القومية أو الشيوعية أو الليبرالية، وجميعها تتفق في الطرح العلماني، وكذلك أقاموا الجمعيات الأدبية والمنظمات الإقليمية أو المهنية، وقد تختلف هذه التجمعات في أي شيء إلا في تبني العلمانية، والسعي لعلمنة الأمة كلُّ من زاوية اهتمامه، والجانب الذي يعمل من خلاله.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن أشهر الأحزاب العلمانية القومية العربية إنما أسسها نصارى؛ بعضهم ليسوا من أصول عربية، أمثال ميشيل عفلق وجورج حبش، والكثرة الساحقة من الأحزاب الشيوعية العلمانية إنما أسسها

يهود مليونيرات أمثال كوريل.

٦- من خلال البعثات الدبلوماسية :

سواء كانت بعثات للدول الغربية في الشرق، أو للدول الشرقية في الغرب، فقد أصبحت في الأعم الأغلب جسورًا تمر خلالها علمانية الغرب الأقوى إلى الشرق الأضعف من خلال الإيفاد، ومن خلال المنح الدراسية، وحلقات البحث العلمي، والتواصل الاجتماعي، والمناسبات والحفلات، ومن خلال الضغوط الدبلوماسية والابتزاز الاقتصادي، وليس بسراً أن بعض الدول الكبرى أكثر أهمية وسلطة من القصر الرئاسي أو مجلس الوزراء في تلك الدول الضعيفة التابعة.

٧- من خلال وسائل الإعلام المختلفة :

من مسموعة أو مرئية أو مقروءة؛ لأن هذه الوسائل كانت من الناحية الشكلية من منتجات الحضارة الغربية- صحافة أو إذاعة أو تلفزة - فاستقبلها الشرق واستقبل معها فلسفتها ومضمون رسالتها، وكان الرواد في تسويق هذه الرسائل وتشغيلها والاستفادة منها إما من النصارى أو من العلمانيين من أبناء المسلمين، فكان لها الدور الأكبر في الوصول لجميع طبقات الأمة، ونشر مبادئ وأفكار وقيم العلمانية، وبالذات من خلال الفن، وفي الجانب الاجتماعي بصورة أكبر.

٨- من خلال التأليف والنشر في فنون شتى من العلوم وبالأخص في الفكر والأدب :

فقد جاءت العلمانية وافدة في كثير من الأحيان تحت شعارات المدارس الأدبية المختلفة، متدثرة بدعوى رداء التجديد والحداثة، معلنة الإقصاء والإلغاء والنبذ والإبعاد لكل قديم في الشكل والمضمون وفي الأسلوب والمحتوى، ومثل ذلك في الدراسات الفكرية المختلفة في علوم الاجتماع والنفس والعلوم الإنسانية المختلفة؛ حيث قدمت لنا نتائج كبار ملاحدة الغرب وعلمانييه على أنه الحق المطلق، بل العلم الأوحد ولا علم سواه في هذه الفنون!!

وتجاوز الأمر التأليف والنشر إلى الكثير من الكليات والجامعات والأقسام العلمية التي تنتسب لأمتنا اسمًا ولغيرها حقيقة، وإن كان الأمر في أقسام العلوم الأخرى من طب وهندسة، ورياضيات وفيزياء، وكيمياء وأمثالها يختلف كثيرًا ولله الحمد والمنة، وهي الأقسام التي وجهها أبناء الأمة الأصلاء ممن لم يتلوثوا بلونات العلمانية، فحاولوا أن ينقلوا للأمة ما يمكن أن تستفيد منه من منجزات التقدم الغربي مع الحفاظ على هويتها وأصالتها وقيمتها.

٩- من خلال الشركات الغربية الكبرى التي وفدت لبلاد المسلمين مستثمرة في الجانب الاقتصادي :

لكنها لم تستطع أن تتخلى عن توجهاتها الفكرية، وقيمتها وأنماط حياتها الاجتماعية، وهذا أمر طبيعي، فكانت من خلال ما جلبته من قيادات إدارية وعمالة فنية احتكت بالشعوب الإسلامية سببًا مهمًا في نشر الفكر العلماني وقيمه الاجتماعية وانعكاساته الأخلاقية والسلوكية.

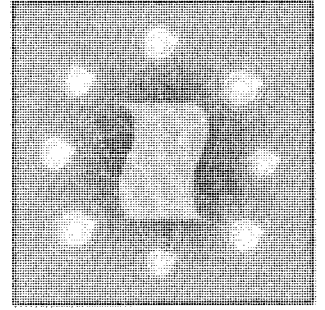
ولعل من المفارقات الجديدة بالتأمل: أن بعض البلدان التي كانت تعمل فيها بعض الشركات الغربية الكبرى من أمريكية وبريطانية لم تُبتَلْ بالتنظيمات اليسارية، ولم تنشأ إلا في هذه الشركات في أوج اشتعال الصراع بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الغربي.

المصدر:

العلمانية.. التاريخ والفكرة، د. عوض بن محمد القرني ، متاح على الرابط التالي:

<http://www.saaaid.net/mktarat/almani/0.htm>.

الجمعيات والمنظمات القومية العربية.. تاريخها وآثارها



د. خالد الديبان

أستاذ مشارك في كلية التربية قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود
ملخص الدراسة

يقسم عهد الجمعيات عمومًا في الدولة العثمانية إلى قسمين: المشروطية الأولى وهي إعلان دستور السلطان عبدالحميد الثاني، وتبدأ من تاريخ ١٨٧٦م، وتم تعطيله بتاريخ ١٨٧٨م. والمشروطية الثانية: هي المرسوم الذي أصدره السلطان عبدالحميد من تاريخ ١٩٠٨م بإعادة الدستور. وفي خلال هذه المرحلة أُسقط السلطان عبدالحميد، وانتقل الحكم إلى جمعية الاتحاد والترقي. وقامت الحرب العالمية الأولى، وتمزقت الدولة العثمانية حتى سقطت كسمى دولة، وتحولت إلى جمهورية علمانية، على يد مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٤م.

إن الجمعيات القومية العربية التي تأسست في هذين العهدين هي: الجمعية العلمية السورية، جمعية بيروت السرية (الجمعية السرية)، جمعية رابطة الوطن العربي، جمعية الإخاء العربي، جمعية المنتدى الأدبي، الجمعية اللامركزية، جمعية العهد، جمعية الفتاة العربية السرية.

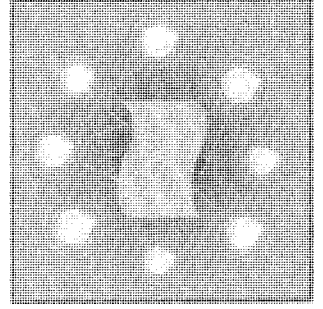
ويعتقد أعضاء الجمعيات القومية أن أكثر الجمعيات شمولاً للفكر القومي، وأشدها تأثيراً في الحركة العربية ونهضة العرب، هي جمعية الفتاة العربية السرية.

إن غاية الجمعيات هي: إبراز فكرة القومية العربية في إطار عام. ولنشر الفكر القومي في المجتمع أصدرت صحيفة أسبوعية باسم (نفير سوريا)، وهي أول صحيفة سياسية نذرت جهودها من أجل الدعوة إلى الوحدة والتكاتف، ونبذ التعصب، وفصل الدين عن الدولة.

ومما يلاحظ على مبادئ الجمعيات أنها دائمة التغيير والتبديل في المناهج، وهذا قد يكون من أسبابه طبيعة التعامل مع الواقع، وهذه الملاحظة ظاهرة على جمعية الفتاة، فإن مبدأ الجمعية وتنظيمها أثناء التأسيس يختلف عنها في وقت إقامة الدولة العربية، ومناصرة فيصل بن الحسين، وكذلك اختلف مبدؤها بعد معركة ميسلون وتفرق أعضاء الجمعيات القومية واحتلال سورية. ولكن هذا الاختلاف لا يمنع من معرفة مبادئ الجمعية بصفة عامة.

وهذه الجمعيات لها أهداف عامة تسعى إلى تحقيقها أهمها: الانفصال عن الدولة العثمانية، واستقلال البلاد العربية، وقيام خلافة عربية بدلاً عن الدولة العثمانية، وفصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية، وتحكيم الدستور، وأن الولاء القومي مقدم على الولاء الديني، وتقرير مبدأ الولاء للقومية العربية، ونشر الأفكار الغربية النصرانية، وتطبيق الحكم الديمقراطي في البلاد العربية.

الجمعيات والمنظمات القومية العربية.. تاريخها وآثارها



د. خالد الديبان

أستاذ مشارك في كلية التربية قسم الدراسات الإسلامية بجامعة الملك سعود

يقسم عهد الجمعيات عمومًا في الدولة العثمانية إلى قسمين: المشروطية الأولى وهي إعلان دستور السلطان عبدالحميد الثاني، وتبدأ من تاريخ ١٨٧٦م، وتم تعطيله بتاريخ ١٨٧٨م.

والمشروطية الثانية: هي المرسوم الذي أصدره السلطان عبدالحميد من تاريخ ١٩٠٨م بإعادة الدستور. وفي خلال هذه المرحلة أسقط السلطان عبدالحميد، وانتقل الحكم إلى جمعية الاتحاد والترقي. وقامت الحرب العالمية الأولى، وتمزقت الدولة العثمانية حتى سقطت كمسمى دولة، وتحولت إلى جمهورية علمانية، على يد مصطفى كمال أتاتورك ١٩٢٤م.

وحديثنا عن الجمعيات القومية العربية سيكون عن الجمعيات التي تأسست في هذين العهدين^(١).

تعريف بالجمعيات القومية العربية:

أولاً: الجمعية العلمية السورية:

أنشئت الجمعية العلمية السورية في سنة ١٨٥٧م (١٢٧٣هـ)، وبلغ أعضاؤها ١٥٠ عضواً، وكان جميع أعضائها عرباً^(٢). وقد اشترك فيها زعماء عرب من مختلف العقائد، وكان من أعضاء مجلس إدارتها: الدرزي الأمير محمد أرسلان الذي بقي عدة سنوات رئيساً لها، ونصاري من جميع الطوائف. فكانت الجمعية العلمية أول جمعية يشترك فيها أعضاء من أهل الدينين^(٣).

أهداف الجمعية:

إن غاية الجمعية هي: إبراز فكرة القومية العربية في إطار عام، أساسه أن للعرب عامة، مسيحيين ومسلمين، تراثاً مشتركاً، وحضارة عريقة، تمتد جذورها إلى ما قبل الإسلام، ولا بد من التنقيب عنها، والكشف عن جذورها التاريخية، والعمل على تطويرها لتساير روح العصر^(٤).

ولنشر الفكر القومي في المجتمع أصدرت صحيفة أسبوعية باسم (نفير سوريا)، وهي أول صحيفة سياسية نذرت جهودها من أجل الدعوة إلى الوحدة والتكاتف ونبذ التعصب، وفصل الدين عن الدولة^(٥).

(١) انظر: الأوضاع الثقافية في تركيا في القرن الرابع عشر الهجري، رسالة دكتوراه، سهيل صابان، جامعة الإمام محمد بن سعود، ص ٨.

(٢) القومية العربية تاريخها وقومها ومراميتها، مصطفى الشهابي، ٤٥.

(٣) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١١٩.

(٤) تاريخ العرب الحديث، عبدالوهاب أحمد عبدالوهاب، ٣٥٥، دار القلم، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

(٥) سليم البستاني، ميشال جحا، ٢٣، سلسلة الأعمال المجهولة، رياض الريس للكتب والنشر.

ومما نظمتها الجمعية من قصائد لتهييج الأمة الإسلامية على الخلافة الإسلامية:

لا دولة لكم يشد أزركم

بها ولا ناصر للخطب ينتدب

أقداركم في عيون الترك نازلة

وحقكم بين أيدي الترك مفتصب^(١)

ثانياً: جمعية بيروت السرية (الجمعية السرية):

أنشئت جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥م (١٢٩٢هـ)، ويُعزى إنشاء هذه الجمعية إلى بعض الطلاب العرب في الكلية الأمريكية السورية؛ وكانوا جميعاً نصارى، ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم، فاستطاعوا أن يضموا إلى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصاً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية.^(٤)

أهداف الجمعية:

يؤكد فارس نمر النصراني، أحد مؤسسي هذه الجمعية، على أن فكرة (القومية) لم تكن بعد قد وجدت طريقها إلى وجدان العامة من الناس في الشرق الأدنى؛ إذ كان ولاء الناس، كما كانت جميع الروابط والعلاقات الاجتماعية، تقوم على أساس ديني طائفي^(٥).

مبادئ وتنظيم الجمعية:

لقد كان الهدف من إنشاء الجمعية قد طبع بطابع سياسي صرف، وهو المطالبة بالانفصال عن الحكم التركي، وإعطاء سورية استقلالاً ذاتياً خاصاً بالعرب^(٦).

وقد برز أعضاء الجمعية أن هذا الهدف كان نتيجة للشعور الذي وجد عند مؤسسي الجمعية، وجُلهم من

وبعد ثلاث سنوات أنشأت مجلة (الجنان): وهي مجلة أدبية سياسية نصف شهرية، كان هدفها، كنفير سوريا، محاربة ما يسميه القوميون (التعصب) والدعوة إلى التفاهم والوحدة من أجل خير الوطن، وكان شعارها: الوطنية من الإيمان^(١).

ومن المبادئ التي دعت إليها الجمعية العلمية -ونقلتها إلى المجتمع الإسلامي مجلة الجنان- (أن أمس الأمة العربية هو أمس أمة لم تفتن كل زمان حياتها. ولذلك لا بد لها من غدٍ تعوض فيه ما خسرت من الحياة

في الأمس. وهذا إنما يتم بالاتحاد بواسطة العصبية الجنسية الموافقة للعصبية الوطنية. ولا أمل لنا بالعصبية الدينية لأن زمان النبوة قد مضى وقد تركنا الدين)^(٢).

وانطلاقاً من مبدأ التسامح الديني، ووجوب الولاء على أساس وطني قومي، أكدت الجمعية عن طريق صحيفتها (الجنان) بأنه لا بد من أن تضم معابدنا مسلمين وأرمن ودروزاً وموارنة، وروماً

وكاثوليكاً، ونصيرية وسرياناً، وغير ذلك، وفي ميادين الأعمال لنا راية واحدة، استبداد الحال لنا إنما يكون بالاجتماع حولها بالغيرة والحمية والصدقة)^(٣).

وقد انطلقت القصائد الوطنية الثورية التي تشيد بمجد العرب وحضارتهم، وسُمّو لغتهم وتراثهم الأدبي، وتحذّر العرب من أضرار التفرق والتخاضم الديني، وتتدد بحكم الترك. ومما جاء من القصائد:

أي النعيم لمن يبيت على بساط الذل جالس؛
ولن تراه بائساً أبداً لذيّل الترك (بائس)؛
ولن أزمته بكفّ عداه يُظلم وهو آيس؛

(١) حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، محمود منسي، ٦٥، دار الفكر العربي، ١٩٧٨م.

(٢) مجلة الجنان ١٨٧٠، ص ٦٧٢، ٦٧٧، نقلاً عن كتاب سليم البستاني، ١١٦.

(٣) افتتاحية ج، مجلة الجنان ١٨٧٤، ص ١٨١، ١٨٢، نقلاً عن كتاب سليم البستاني، ١٢٢، بتصريف يسير.

(٤) المصدر السابق نفسه، ١٤٩. وانظر: نشأة الحركة الحديثة، محمد دروزة، ٩٤.

(٥) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠.

(٦) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٥٨.

لنطلبين بحد السيف مأربنا
فلن يخيب لنا في جنبه أرب

والذي ينبغي أن يُسطر في سجل هذه الجمعية: أنها فكرة نصرانية وُلدت في محافل الماسونية، وصنعتها أيدٍ نصرانية، ولذا يذهب بعض القوميين أن غاية الجمعية قد جاءت مبكرة جداً^(٤)، فكان تأثيرها على المجتمع الإسلامي ضعيفاً جداً^(٥).

ثالثاً: جمعية رابطة الوطن العربي:

تُعتبر جمعية رابطة الوطن العربي من أوائل الجمعيات التي نادى بالانفصال عن الدولة العثمانية، ومؤسسها نجيب عازوري، وهو عربي نصراني، تولى منصب نائب متصرف القدس بين عامي ١٨٩٩، ١٩٠٤ م / ١٣١٧، ١٣٢٢هـ، وبعد استقالته من منصبه قام بجولة في مدن الشام داعياً إلى إنشاء حزب سياسي جديد أسماه رابطة الوطن العربي^(٦).

وبسبب أن دعوته إلى القومية العربية، قد خرجت في وقت مبكر، وكان المجتمع على ولائه للخليفة، لم يجد مناصراً لدعوته، فهاجر إلى فرنسا وأسس عام ١٩٠٤م جمعية رابطة الوطن العربي في باريس بالاشتراك مع (يوجين يونج)، أحد موظفي مصلحة الاستعمار الفرنسي السابقين^(٧).

وقد ذهب بعض الكُتّاب إلى أن الجمعية قد أثارت شيئاً من الاهتمام في أوروبا في ذلك الحين، ولكن أثرها في الحركة العربية نفسها كان ضئيلاً^(٨). وكان السبب في ذلك أن المبدأ الذي دعت إليه كان غريباً على المجتمع المسلم، وأيضاً: ظهورها في عاصمة أجنبية، باريس، وبلغة أجنبية كان أمراً في ذاته يدعو إلى شلّها والحد منها^(٩).

النصارى، وهو احتقار الأتراك لهم، واعتبارهم أدنى شأنًا منهم، مما جعلهم يشعرون بالإهانة.

غير أن العربي المسلم عندما كان يتكلم عن الإمبراطورية العثمانية كان يستطيع أن يقول: إنها إمبراطوريته؛ لأنها كانت إمبراطورية إسلامية^(١). لذا أدرك النصارى العرب لزوم رفع شعار لا يختلف عليه المسلم والكافر، فلم يكن هنالك من قاسم، -كما يقول فارس نمر- مشترك بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب سوى (العروبة)، فالعروبة كشعار، كان في وسعها أن تثير في نفوس العرب شعوراً بالقومية، وأن توحد أيضاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقمين على الأتراك^(٢)، فاللواء المرفوع للوحدة والتكاتف والتناصر والتآخي، على أساس قومي عربي. وقد لخصت الجمعية مطالبها بالنقاط التالية:

(بعد التشاور مع زملائنا في جميع أنحاء البلاد، فقد تم وضع برنامج سننّفه، ولو بحد السيف إذا اقتضى الأمر)، وأهم النقاط في ذلك البرنامج هي:

- (١) منح سورية الاستقلال مُتحدةً مع جبل لبنان.
- (٢) الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد.
- (٣) رفع الرقابة والقيود الأخرى التي تُحد من حرية التعبير ونشر التعليم.

(٤) استخدام القوات المجنّدة من أهل تلك البلاد في المهام العسكرية الداخلية فيها فقط^(٣).

كما كان للشعر دور في نشر مبادئ الجمعية، فقد انتشرت قصائدها ومما انتشرت:

تبهوا واستفيقوا أيها العرب

فقد طما الخُطْب حتى غاصت الرُكْب

أقداركم في عيون الترك نازلة

وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

صبراً هيا أمة الترك التي ظلمت

دهراً فعمّا قليل تُرفع الحُجْب

(١) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦٠.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ٦١، ١٥٠.

(٣) المصدر السابق، ١٥٥.

(٤) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٥٦.

(٥) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٦١.

(٦) حركة اليقظة العربية، محمود منسي، ١٠٠.

(٧) المصدر السابق، ١٠٠.

(٨) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٧٣.

(٩) المصدر نفسه، ١٧٣. وانظر: القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٥٩.

نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ١٠٢.

(٢) دعوة فرنسا لاستعمار البلاد العربية: (لا يملك أحد الحق في حكمنا غير فرنسا، ولن يُهتف بحرارة لأي دولة غيرها إذا نزلت في البلدان العربية، يوم يتقرر تجزئة الإمبراطورية التركية)^(٤).

(٤) الثناء على الأفكار والمبادئ النصرانية: لقد أكثر عازوري من الإطراء على المبادئ الكافرة، فمما قال: (تعتبر فرنسا مشعل الحضارة والحرية الأسطع إشعاعاً، إلى جانب كونها حامية المقهور، والمأوى السخي للفكر والقيم الإنسانية. وعندما يخمد هذا المشعل سيعاني العالم إلى مدى طويل قلقاً عاماً)^(٥).

(٥) الدعوة إلى توحيد الأديان: إن مبدأ توحيد الأديان قد تنبأه من منطلق عقائدي وليس من منطلق الاتحاد من أجل استقلال البلاد العربية، ومن أقواله في هذه القضية: (إن قاطني هذه البلدان، العربية، الشاسعة لا يتميز بعضهم عن البعض الآخر إلا بالأديان والطوائف والمذاهب التي لا تُحصى، أرجوك أن تحصي: مسلمون سنيون، مسلمون شيعة، ونصيريون، ودروز، وموارنة... وكاثوليك؛ إنها حقيقة شائنة... التعصب الديني ليس سوى تطوّر في المصلحة الشخصية...)^(٦).

رابعاً: جمعية الإخاء العربي:

لقد أجمع^(٧) الذين دوّنوا تاريخ القضية العربية على أن جمعية الإخاء العربي هي أول جمعية عربية تأسست بعد إعلان الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨م، وأنشأت نادياً لها، وقد افتتحت الجمعية رسمياً وسط مظاهر الحماسة في اجتماع كبير عقدته الجالية العربية في القسطنطينية، وحضره أعضاء من جمعية الاتحاد والترقي^(٨)، بل إن من أبرز المنشئين لجمعية الإخاء العربي هم من كبار موظفي العرب في العهد الحميدي، خافوا على مناصبهم في الدور الجديد، فاستعانوا ببعض الشبان المتحمسين، وأسسوا هذه الجمعية للدفاع

ومن أجل نشر مبادئ جمعية رابطة الوطن العربي؛ فإن نجيب عازوري ألف كتاباً لمناصرة فكرته، والتي أوجزها بعبارة (الاستقلال الذاتي للبلاد العربية)، وسمى الكتاب [يقظة الأمة العربية]. كتبه باللغة الفرنسية. وقد تُرجم إلى اللغة العربية^(١)، إلا أن أعضاء الجمعيات القومية العربية - مثلما انتقدوا الجمعية - لم يهتموا بالكتاب.

وقد أصدر نجيب عازوري في سنة ١٩٠٧م (١٣٢٥هـ) وجماعة من الكتاب الفرنسيين في باريس مجلة شهرية عنوانها [الاستقلال العربي] لم تعش أكثر من سنة وبعض السنة، هدفها تعريف الغرب بالقضية العربية. وفيها ذكر عازوري أن جميع ما يسعى إليه العرب سوف يتم تحقيقه.

مبادئ وتنظيم الجمعية:

إن كتاب (يقظة الأمة العربية) لنجيب عازوري قد احتوى مبادئ الجمعية، ومن خلال دراسة الكتاب المذكور لبيان مبادئ الجمعية نستنتج ما يلي:

(١) القدح بالسلطان عبد الحميد: لقد شغل كتاب يقظة الأمة العربية صفحات كثيرة بقدح السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية.. وتعبير مختصر عرف الدولة العثمانية بأنها (جماعة من قطاع الطرق يقودهم مجرم، فهي لا تكتفي فقط بألا تعمل شيئاً لتحسين وضع الفلاح، ولكنها تعمل بانتظام لتخريب هذا البلد التعيس تدريجياً. لا أمن ولا سلام ولا عدالة في تركيا)^(٢).

(٢) فصل الدين عن الدولة: لقد نادى بوجوب فصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية، وإقامة إمبراطورية عربية تمتد من الفرات ودجلة إلى خليج السويس، ومن المتوسط حتى بحر عمان^(٣). وقد علل عازوري ذلك بأمر ذكرها في كتابه.

(٤) المصدر نفسه، ١٢٤.

(٥) المصدر السابق نفسه، ١١٦.

(٦) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ١٦٧.

(٧) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٧/١، مطابع عيسى البابي الحلبي، مصر.

(٨) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٧٧.

(١) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، تعريب أحمد بو ملحم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

(٢) يقظة الأمة العربية، نجيب عازوري، ٢٢٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ٢١٩.

(٧) السعي في تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الأمة العثمانية، وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم^(٧).

ومما يلاحظ على مبادئ الجمعية أنها تعلن مبدأ وفاق العرب والترك جميعاً، وبخاصة أنها تأسست في بداية حكم جمعية الاتحاد والترقي^(٨).

ويرى بعض القوميون أن الجمعية رغم عدم قيامها بنشاط مؤثر في مجال المنهج الذي رسمته، عدا بعض حفلاتٍ لاستقبال نواب العرب؛ فإنها سجلت من دون ريب حقيقة بدء بروز الفكرة القومية بمعالمها الواضحة في هذا الدور، وتحفز العرب للانتفاع بالأفق الذي فتحه إعلان الدستور أمامهم، والنهوض بكيانهم القومي^(٩).

ويرى القوميون أن هذه الجمعية لم تستطع أن تحقق شيئاً من ذلك، حيث قُصد التجانس واختلاف التفكير وتفاوت العقيدة الوطنية فيهم، فهي لم تكد تولد ١٩٠٨م حتى أغلقت الحكومة أبوابها سنة ١٩٠٩م^(١٠)، وألغوا جريدتها (الإخاء العثماني)، بدعوى وقوع بعض ما لا يناسب في سورية، وظهور الأفكار الرجعية في تشكيلاتها وأعضائها^(١١).

خامساً: جمعية المنتدى الأدبي:

جمعية المنتدى الأدبي هي من الجمعيات العلنية، وكان تاريخ نشأة المنتدى في سنة ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ)^(١٢).

(٧) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٧.

(٨) انظر: الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ١٨.

(٩) حول الحركة العربية الحديثة، محمد دروزة، ٢٦/١.

(١٠) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٦٨. وانظر: حول نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٢.

(١١) إيضاحات عن المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه، جمال باشا، ١٠.

(١٢) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٨/١.

عن مناصبهم^(١).

وأُسِّس لجمعية الإخاء العربي فروعاً خارج إستانبول في سورية والعراق، وأخذت الإعانات تتوارد للجمعية من أنحاء شتى.

مبادئ وتنظيم الجمعية:

أصدرت جمعية الإخاء العربي، مجلة باسمها، فكانت إحدى الوسائل التي بيّنت فيها الجمعية مبادئها وقوانينها، والتي يمكن إيراد بعضها بما يلي:

(١) نص المادة الأولى: جمعية الإخاء العربي العثماني نشأت في دار الخلافة، مؤلفة من أبناء العرب العثمانيين على اختلاف مللهم ونحلهم.

(٢) يحق لكل فرد من أبناء العرب -والعربي كل من ينتسب إلى العرب مولداً وموطناً- أن يكون عضواً في جمعية الإخاء العربي العثماني.

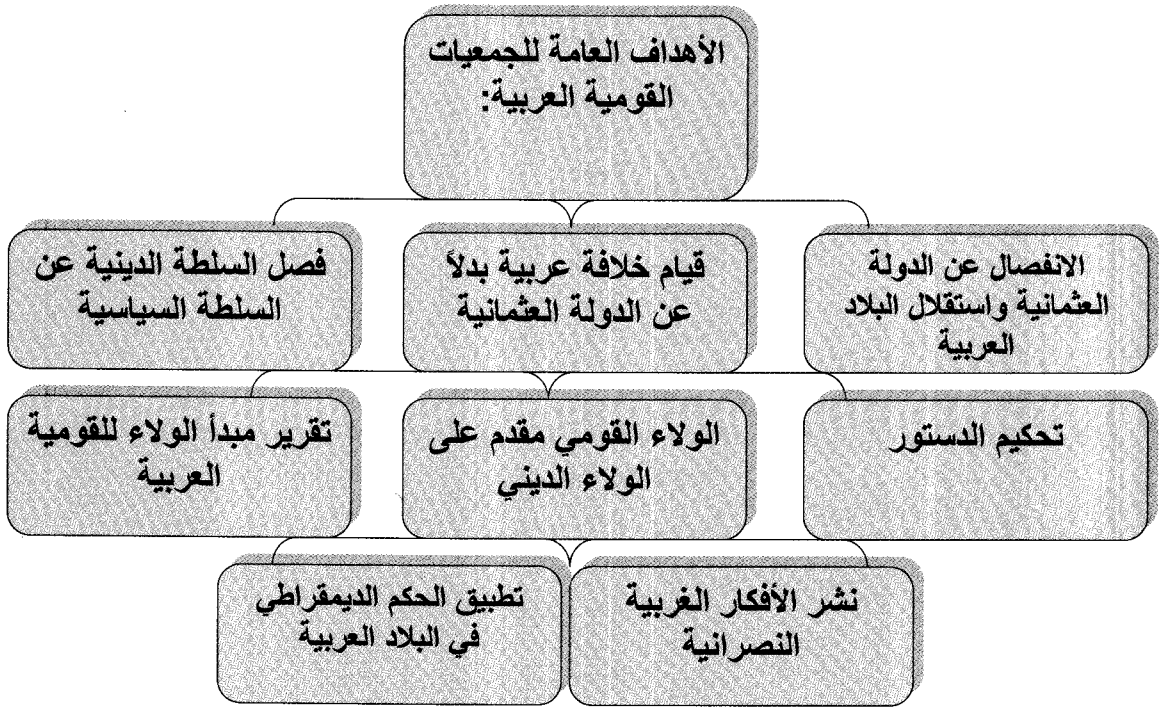
(٣) مقصد جمعية الإخاء العربي العثماني هو: معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسي (الدستور)، وجمع كلمة الملل المختلفة العثمانية بدون تفریق في الجنس والمذهب.

(٤) السعي لإعلاء شأن الأمة العربية، واتخاذ جميع الوسائل والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها؛ كتأسيس مدارس، وطبع جرائد..

(٥) إقناع أهل البداوة بالإقلاع عن عاداتهم المستهجنة وعداوتهم المستعرة بينهم، وإسكانهم في محلات ثابتة، وتعويدهم على مزاوله العوائد والجرف الحضري، وتنوير عقولهم بالعلم.

(٦) صيانة حقوق أبناء العرب جميعاً من الغدر والاعتساف، وتبليغ شكاياتهم، ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية.

(١) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٧/١.



دائرة الفكرة والتكتل حولها^(٢)، فكان في المنتدى الأدبي أبرز الشخصيات التي قامت على جماجمهم النهضة العربية^(٣).

والمهجع الذي سار عليه المنتدى الأدبي هو إعلان الولاء والوفاق العربي التركي، وقد سمح به الاتحاديون؛ حيث صدر قانون يحظر قيام الجمعيات والأحزاب ذات الأهداف القومية السياسية،^(٤) فوضعه زمنًا تحت رعايتهم؛ لأن أهدافه لم تكن سياسية علنيًا^(٥)، فكانت تُقام فيه حفلات يُدعى إليها رجال مشهورون من الترك رسميون وغير رسميين، ويخطب فيها بصدد ذلك، بل كان يعقد في المنتدى ندوات يشهدها شباب من الترك مع شباب من العرب فتجري فيها الأحاديث والمناظرات حول الأمجاد القومية التركية والعربية، وينبّه على عدم التعارض بين اهتمام كل فريق بمجد قوميته ونمو عواطفه القومية تحت لواء (العثمانية)^(٦).

ومؤسسوه خليطٌ من الشيعة والمنتسبين إلى أهل السنة، ونصارى العرب^(١). وهذا الخلط العقائدي يُده بعض القوميين من مفاخر المنتدى الأدبي، فقد كان طابع العروبة هو الطابع المميز له.

ويظهر هذا المنتدى يُلاحظ اختلاف طرح الجمعيات القومية لمبادئها، فكان المنتدى يمثل أحد الأساليب الجديدة والمناسبة للحال والواقع الذي أنشئ فيه لإحياء وبعث القومية العربية، واستقطاب أبناء العرب ممن يظهر عليهم النبوغ.

مبادئ وتنظيم الجمعية:

من خلال تتبع آراء أعضاء الجمعيات القومية العربية، نجدها تتفق على أن حركة المنتدى الأدبي قد نجحت إلى حدٍ كبير، وقد ظل المنتدى مزدهرًا نشيطًا في سبيل الفكرة والحركة العربية وأهدافها إلى سنة ١٩١٥م.

فيرى أكثر أعضاء الجمعيات أن المنتدى كان من أهم مظاهر نشاط الحركة العربية الحديثة بعد الدستور ومغذياتها. ومن أهم عوامل ازدياد ذلك النشاط، واتساع

(١) ذكرياتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٣٥.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزه، ٣٥٥.

(٣) مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٣٥.

(٤) الحركة العربية الكبرى، سليمان موسى، ٣٢.

(٥) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٨٤.

(٦) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزه، ٣٥٥.

والترك^(٤) - انحرف المسار الفكري والمنهجي للمنتدى الأدبي، فتحول إلى مركز سياسي؛ فأصبح يبت الدعوة إلى الانفصال عن الترك، وإعلان الاستقلال العربي، ويلقى فيه خطابات موضوعها تلقين التاريخ للطلبة بشكل يبعث على فكرة الاستقلال.

وقد صرح بعض مؤسسيه بأن للمنتدى تعليمات خفية لا يعلمها سوى أعضائه المؤسسين الذين كانوا يسعون وراء تلك التعليمات، منها: إن الأتراك يحكموننا مع أنهم أقل نضراً.

والغاية من تأسيسه: أن يجمع كل الطلاب العرب وبيث فيهم فكرة القومية ونهضة العرب بأية واسطة كانت، ولو بمساعدة الدول الأجنبية التي تؤدي إلى احتلال أو حماية.

وكان هؤلاء كلما انتهى فريق منهم بدروسه حمل هذه الأفكار وبيثا حيث يتعين من البلاد العربية. وأصدرت جمعية الاتحاد والترقي قرارها في المنتدى الأدبي، وأمرت بإغلاقه وإعدام المنتسبين له.^(٥)

سادساً: الجمعية اللامركزية:

أُنشئت الجمعية اللامركزية في العام ١٩١٢م (١٣٣٠هـ)^(٦)، وقد أسس جماعة من السوريين - كان بينهم لبنانيون وفلسطينيون هاجروا إلى القاهرة - حزباً سياسياً بمعرفة الحكومة التركية، أطلقوا عليه اسم (حزب اللامركزية الإدارية العثمانية)^(٧).

وتولى رئاسة الحزب والهيكل الإداري له من الشاميين المقيمين في مصر، ومع هذا لم يكن عملهم مقتصرًا على الشام، فقد أسسوا أيضاً فروعاً للحزب في العراق، ولكنهم لم يتجاوزوا الولايات العربية إلى غير العربية.^(٨)

لقد كانت السمة الظاهرة في نشاط المنتدى الأدبي، هي المناشط الأدبية والتعليمية، فقد كان أعضاء المنتدى يمثلون بعض الروايات العربية التاريخية.

وقد قدّم رئيس المنتدى الأدبي للنواب العرب خطة تتعلق بإصلاح المدارس الابتدائية في دوائريهم، وأبرز فيها الجانب القومي، واقترح عليهم برنامجاً يرمي إلى إنهاء البلاد العربية على دعامتين:

١- توثيق عرى الإخاء بين العرب على اختلاف أديانهم وطوائفهم حتى لا يذكر الواحد منهم في السياسة والوطنية غير عروبه الشريفه.

٢- توحيد طرق التعليم في البلاد العربية؛ حتى تتربى النفوس تربية واحدة ليسير جميع العرب في طريق واحدة وإلى غرض واحد^(٩).

لم يكن للمنتدى الأدبي صحيفة تخدم أغراضه في الفترة الأولى من تأسيسه، إنما كان الأعضاء يكتبون في الجرائد العربية التي كانت تصدر في الآستانة، كجريدة الحضارة والجرائد التي تصدر في سورية والقاهرة، وأراد مع ذلك أن ينشئ مجلة خاصة به، غير أنه قد صدرت مجلة باسم (لسان العرب)، فأراد رئيس المنتدى أن تكون هذه المجلة ناطقة باسم المنتدى، وأن يكون اسمها (المنتدى الأدبي)^(١٠).

لقد كان المنتدى الأدبي حينئذ مرتعاً للأفكار القومية، وبيث الولاء للقومية، ومما جاء في إحدى المناظرات الثقافية في المنتدى: إننا عرب قبل كل شيء، المسلم عربي، والمسيحي عربي... و.. و.. أجل إننا عرب قبل أن نكون مسلمين، والمسيحي عربي قبل أن يكون مسيحياً... و... و.... وقد تركنا مسألة الديانات والعبادات إلى الجوامع والكنائس^(١١).

ولأسباب كثيرة - من أبرزها التصادم بين العرب

(٤) الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسميه، ١٨.

(٥) الإيضاحات عن المسائل السياسية، جمال باشا، ١٦ (بتصرف).

(٦) نشوء القومية العربية، زين نور الدين زين، ٩٢.

(٧) المصدر السابق.

(٨) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨١.

(١) العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٦.

(٢) نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٣٥٦ وانظر: العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٣.

(٣) جريدة الأهرام، عدد ١٠٦٨٢، بتاريخ ٢٢/٤/١٩١٣. انظر كتاب: العرب والترك، توفيق برو، ٢٦٥.

مفهوم الحكم اللامركزي:

في الدولة العثمانية، وذلك باتباع النظام اللامركزي^(٦).

إن تبني جمعية اللامركزية مقررات المؤتمر العربي الأول، قد كان له الأثر في نشر أهداف الجمعية، إلا أن موقف الدولة العثمانية من الاستجابة لقرارات المؤتمر، ومحاولة استمالة رئيس المؤتمر^(٧)، كان من أبرز انهيارات الجمعية اللامركزية.

وللتوافق المنهجي بين جمعية الحرية والائتلاف التركية تأسيساً، وبين جمعية اللامركزية العربية تأسيساً، فإن الجمعيتين تدعوان إلى الحكم اللامركزي، وكان هذا من أكبر الدوافع التي جعلت جمعية الاتحاد والترقي تبتطش بأعضاء الجمعية اللامركزية. فعمدت جمعية الاتحاد والترقي إلى مراقبة نشاط أعضاء جمعية اللامركزية.

ومن الأمور التي أُدِينت بها جمعية اللامركزية: اتصال الإنكليز، سنة ١٩١٤م - ١٣٣٢هـ، وقبل نشوب الحرب العالمية الأولى، بالجمعية اللامركزية من أجل أن تقوم الجمعية اللامركزية باستطلاع مواقف زعماء العرب، والكشف عن الخطة التي يسيرون عليها. وأنشأ الإنكليز اتصالات محدودة مع قادة حزب اللامركزية بمصر^(٨).

وبناء على هذه القضايا نفذت جمعية الاتحاد والترقي حكم القتل في بعض أعضاء اللامركزية، وذلك في سنة ١٩١٥م (١٣٣٣هـ)، وعدّوه من الأحزاب الثائرة على الدولة^(٩)، وانضرت عقد الجمعية اللامركزية سنة ١٩١٦م (١٣٣٤هـ)^(١٠).

ومن خلال تتبع آراء مؤسسي الجمعية اللامركزية نجد التناقض في منهجية الحكم والسياسة، فمن المؤسسين من يتبنى المبدأ الاشتراكي في الحكم^(١١).

قدمت الجمعية اللامركزية تعريفاً لمفهوم الحكم اللامركزي، هو: توزيع السلطة الإدارية على المراكز المختلفة المؤلف منها الجسم السياسي الاجتماعي، عوضاً عن حصرها في جزء واحد مركزي، ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شئونه الخاصة بنفسه عن علم، مع حفظ الصلة بالمركز؛ حرصاً على مصلحة الكل^(١).

مبادئ وتنظيم الجمعية:

من خلال دوافع إنشاء جمعية حزب اللامركزية، نجد أن أهدافها ذات شقين، الأول: أن تُبَيِّنَ للحكام في تركيا مدى الحاجة إلى اللامركزية الإدارية في الدولة، والثاني: أن تعبئ الرأي العام العربي لتأييد اللامركزية^(٢).

وبعد أن صرحت الحكومة الاتحادية للجمعية، قدمت الجمعية اللامركزية برنامجاً لا يخرج عن تحقيق هذا الهدف. وكانت مواد النظام الأساسي للجمعية تكفل قيام جهاز حزبي محكم^(٣).

وأخذت جريدة المنار^(٤) - وصاحبها عضو من أعضاء هذا الحزب - على عاتقها أمر الدفاع عن مبادئه، ونشر بياناته، وشرح مبادئه، والظعن في مبدأ مركزية الحكم الذي اتخذته الاتحاديون خطة لهم^(٥).

إن برنامج جمعية اللامركزية يلتقي مع مبادئ جمعية الحرية والائتلاف، ولكن يزيد عليها بكونه أكثر وضوحاً ودقة في تحديد حقوق العناصر.

ويعتقد أعضاء الجمعيات القومية أن الجمعية اللامركزية من الجمعيات التي ساهمت في يقظة الأمة العربية، ونادت بطرح قوي في المطالبة بحقوق العرب

(٦) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨٠.

(٧) انظر: مذكراتي على هامش القضية العربية، أسعد داغر، ٦٥.

(٨) وكان من نتائج قرارات المؤتمر: عدم قبول المناصب في الدولة

العثمانية، وقد قبل عبد الحميد الزهراوي عضوية في مجلس الأعيان.

(٩) أسرار الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٣٧، ٣٨، دار الكتاب العربي.

(١٠) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨٢.

(١١) مجلة دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر،

١٩٨٤.

(١٢) العرب والعثمانيون ١٥١٦، ١٩١٦، عبد الكريم رافق، ٥١٨، أطلس،

دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م.

(١) جريدة المحروسة، مقالة بقلم شبلي شميل بتاريخ ١٩١٣/٢٥م بعنوان اللامركزية والعمران.

(٢) يقظة العرب، جورج أنطونيوس، ١٨٥.

(٣) ثورة العرب مقدماتها أسبابها نتائجها، أحد أعضاء الجمعيات، ٥٧،

٦٢، مطبعة المقطم، مصر، ١٩١٦م.

(٤) جريدة المنار، محمد رشيد رضا، المجلد ١٦، الجزء ٨، ص ٦٣٤، ٦٤٠.

وفي صفحات متعددة من المجلة.

(٥) العرب والترك، توفيق برو، ٣٥٩.

وكان لوجود أعضاء نصارى في الهيئة الإدارية للجمعية تأثيراً على منهج فكرة اللامركزية في الحكم، وقد بين رئيس الجمعية أن الأعضاء المسيحيين يستدرجوننا إلى الرضا بالاحتلال الفرنسي والعمل له^(١).

تختلف مبررات المؤسسين للجمعية اللامركزية في دوافعهم للمطالبة بالحكم المركزي، فمنهم من يرى أن اللامركزية داخل الحكم العثماني، الذي هم أصحاب الملك^(٢)، بينما هناك رأي آخر يرى بأن الدولة ليست علاقتها بنا -العرب- حتى اليوم علاقة غاصب، سالب، ناهب، طامس^(٣). وحينما تختلف مبررات المطالبة بالحكم اللامركزي يختلف المنهج والأسلوب في تحقيقه وتنفيذه.

إن الخطوة التي سعى إليها أعضاء الجمعيات القومية عند تأسيس جمعية خاصة بالقطاع العسكري تنبئ بأن مرحلة الوفاق بين العرب والترك قد انتهت. فقد جرى تأسيس هذه الجمعية السرية التي أقسم أعضاؤها على أن لا يبوحوا بشيء عنها، وأن يعملوا لإدراك أغراضها.

ويرى أعضاء الجمعيات أن إنشاء هذا الحزب قد أحدث ضجة شديدة في دوائر الآستانة، لما عُرف عن مؤسسه من الصلابة والقوة، ولأنه تأسس في ظرف توترت فيه الصلات بين الاتحاديين والشبيبة العربية، وأنه لقي تأييداً من الشبان الضباط العرب الذين التقوا حوله^(٥).

مبادئ وتنظيم الجمعية:

ظهر لدى القوميين فكرة تخصيص الجانب العسكري من قادة أركان حرب وضباط الجيش بنشاط قومي ذي صبغة سرية، فكانت جمعية العهد تقوم بهذا الدور، ولذلك أنشئت جمعية العهد في سنة ١٩١٣م، فكان ظهورها والعلاقات بين الترك والعرب متأزمة، وأيضاً كان البرنامج الإصلاحية المقدم من جمعية اللامركزية لم يرق للمتطرفين من شبان العرب وضباطهم الذين رأوا أن يكون الإصلاح تاماً، وأن ينجز لا بالتدرج بل فوراً، وأن يسير على نظام اللامركزية التامة^(٤).

وقد تولى تنظيم وإنشاء جمعية العهد عزيز بن علي المصري، الذي عُين في هيئة أركان حرب الجيش الثالث في مقدونيه. وهناك انضم إلى جمعية الاتحاد والترقي، وكان أحد الضباط الذين قادوا الثورة العسكرية سنة

(١) تأييد ثورة الشريف حسين على الدولة العثمانية:

بلغ عدد الأعضاء المشاركين ٣١٥ ضابطاً من جملة ٤٩٠ ضابطاً^(٨)، وبلقاء سري تم بين أبرز المؤسسين

(٥) الثورة العربية الكبرى، أمين سعيد، ٤٧.

(٦) المصدر السابق.

(٧) انظر القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨٠.

(٨) الحركة العربية، سليمان موسى، ٣٤.

(١) مجلة دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، ١٩٨٤م، مقال سهيلة الريماوي.

(٢) مجلة دراسات تاريخية، العددان الخامس عشر والسادس عشر، ١٩٨٤م، مقال سهيلة الريماوي.

(٣) جريدة الأهرام، ١٠٥٧٨ في ١٧/١٢/١٩١٢م (نقلًا من كتاب العرب والترك ٣٦٢).

(٤) العرب والترك، توفيق برو، ٤٥٢.

٤) مناصرة بعضهم لبعض في العمل القومي:

شُكِّلت في العراق حكومةً انتقالية برئاسة عبدالرحمن النقيب^(٥)، تضمنت وزارة للدفاع أُسندت إلى الفريق جعفر العسكري، الذي أخذ على عاتقه استدعاء زملائه المشتتين في سوريا والحجاز. وأولئك الذين انسحبوا مع الجيش العثماني من العراق أمام الحملة البريطانية، أو أولئك الذين تركوا الجيش العثماني وبقوا في العراق^(٦). وبسبب هذا التجمع القومي في الجيش العراقي ظهرت كتلة من الضباط أطلقت على نفسها كتلة الضباط القوميين سنة ١٩٢٧م - ١٣٤٦هـ^(٧).

٥) الوصول إلى رئاسة الدولة:

ومن أخطر آثار جمعية العهد أن بعض أعضاء الجمعية، والجمعيات القومية العربية الأخرى، قد وصل إلى رئاسة بعض الدول العربية^(٨). أمثال فيصل ابن الحسين، نوري السعيد، وتوفيق السويدي، جميل المدفعي، وهاشم الأتاسي، وشكري القوتلي^(٩).

ومنذ سنة ١٩١٤م قبيل الحرب العالمية الأولى، شعرت حكومة الاتحاد والترقي بتكتل ضباط من العرب في حزب سياسي، فعقد اجتماع خاص في دار وزارة الحربية، فدرسوا التدابير الواجب اتخاذها لمقاومة

(٥) وُلد سنة ١٨٤١م من أسرة تنسب إلى الطائفة القادرية، وتوفي سنة

١٩٢٧م، انظر: وجوه عراقية، توفيق السويدي، ٣٤.

(٦) تأسيس الجيش العراقي، رجاء حسين الخطاب، ٢٥.

(٧) المصدر نفسه، ٥١.

(٨) يُنظر عن تولي بعض أعضاء جمعية العهد رئاسة بعض الدول: العراق وقضايا الشرق العربي القومية، ممدوح الروسان، ١١. وخبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٧، ٢٧، ومجلة الشريعة، عمان، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ. وتأسيس الجيش العراقي وتطوره السياسي من ١٩٢١، ١٩٤١م، رجاء الخطاب، ١١٩، والحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ١٨٨. ومذكراتي نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، توفيق السويدي، ٢٣، دار الكتاب العربي.

(٩) خبراتي في الحكم، دولة حسن الحكيم رئيس مجلس وزراء سوريا سابقاً، ٩، ١٩.

لجمعية العهد مع الشريف فيصل بن الحسين قدموا للشريف فيصل بن الحسين قراراً اتخذته الجمعية، وهو إعلان الثورة ضد الدولة العثمانية، وإن غاية العرب هو الاستقلال؛ حفاظاً على كيان البلاد العربية^(١).

٢) تقديم مشروع حدود البلاد العربية خلال الحرب العالمية الأولى:

قدمت جمعيتا (العهد) و(الفتاة) لفيصل بن الحسين خطة عمل اتفقتا عليها. ووضعوا ميثاقاً يتضمن الشروط التي يطالب الزعماء العرب بتحقيقها لكي يؤازروا بريطانيا العظمى على تركيا، واتفقوا على أن

يحمل فيصل هذا الميثاق إلى مكة، ويطلب من والده أن يعرف من الحكومة البريطانية هل تقبل هذه الشروط أساساً للعمل المشترك.. وقد استخدم الشريف حسين نصوص الميثاق حينما استؤنفت مباحثاته مع بريطانيا العظمى^(٢).

٣) مناصرة أعضاء جمعية العهد لحكومة الشريف فيصل:

ومن آثار جمعية العهد خلال الثورة ضد الدولة العثمانية: أن عزيز علي المصري عُهد إليه بالمسئولية المترتبة على الشؤون العسكرية والسيطرة الفعلية على العمليات الحربية، وبدأ بتكوين جيش نظامي مدرب^(٣).

وقد كان لأعضاء جمعية العهد دور في تنظير السياسة العسكرية لبعض البلاد العربية، ويُحَصُّ من أعضاء جمعية العهد الضباط العرب العراقيون، فقد شكّلوا نسبة كبيرة في الجيش العربي، وكان على رأسهم الفريق جعفر العسكري الذي عُين قائداً عاماً لجيش الحجاز. وكان معظم هؤلاء الضباط في جيش فيصل بن الحسين الذي دخل سوريا، وحررها أثناء الحرب، وأقام حكومة عربية^(٤).

(١) مذكراتي عن الثورة العربية، أحمد قدرى، ٣٨، دمشق، ١٩٥٦.

(٢) المصدر السابق نفسه، ٢٤٢، ٢٤٤.

(٣) الحكومة العربية في دمشق، خيرية قاسمية، ٣١.

(٤) تأسيس الجيش العراقي، رجاء حسين الخطاب، ٢٣، الدار العربية، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

يختلف عنها في وقت إقامة الدولة العربية ومناصرة فيصل بن الحسين، وكذلك اختلف مبدؤها بعد معركة ميسلون، وتفرق أعضاء الجمعيات القومية واحتلال سورية الطبيعية.

ولكن هذا الاختلاف لا يمنع من معرفة مبادئ الجمعية بصفة عامة، فقد عرضت الجمعية مبادئها عن طريق منشور يعرف (بالصرخات الثلاث).^(١)

ويتحدث عوني عبد الهادي، وهو أحد المؤسسين للجمعية، عن الوضع المريب الذي اتخذته فرنسا أثناء إعلان الحرب الأولى ضد مواطني الدولة العثمانية، فيقول: لبثنا ننتظر مصيرنا الذي لن يكون أقل من أن نُزجَّ مع أمثالنا التابعين للبلاد المعادية للحلفاء بالمعتقلات. ولكن لم يمضِ كثير وقت حتى وافانا الخبر العجيب غير المنتظر، بأن الحكومة الفرنسية قررت زج الأتراك بالمعتقلات، والسماح للسوريين بالإقامة أحراراً في باريس.^(٢)

نهاية مسمى جمعية الفتاة العربية:

من أبرز أسباب نهاية مسمى جمعية الفتاة العربية، سببان اثنان، هما:

السبب الأول: من منطلق التطور والتنظيم الذي اتخذته الجمعية، فقد نصت المادة (١٧) من الفصل الرابع في أعمال الهيئة المركزية العامة على أن: (يكون للجمعية حزب سياسي علني واسع، تُدار بواسطته حركة الانتخابات العمومية وتطبق سياستها).^(٣)

وتم اتخاذ حزب علني للجمعية من أجل محاولة التوفيق بين سرية الجمعية والتطورات الحديثة التي مرت بها، وأهم تلك التطورات: القيام بمهام الحكومة العربية الأولى.

فأنشأت الجمعية في أوائل عام ١٩٢٠ - ١٣٢٨ هـ حزباً رسمياً باسم (حزب الاستقلال العربي) ببرنامج قومي

(٦) انظر: نشأة الحركة الحديثة، محمد عزة دروزه، ٤٨٥.

(٧) عوني عبد الهادي، أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسميه، ١٤.

(٨) انظر: القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٧٨.

الحركة العربية خاصة، وجمعية العهد عامة، وقرروا المواد الآتية:

١- إقصاء الضباط العرب المقيمين في الأستانة إلى المناطق التركية، كالأناضول؛ حتى لا يتمكنوا من القيام بأي عمل يساعد على زيادة الجفاء بين العرب والترك.

٢- تولية القيادة في البلاد العربية إلى الضباط الترك، وإقصاء الضباط العرب عنها، والاستغناء عن خدمتهم بقدر الإمكان.

٣- الإسراع في تنفيذ سياسة تترك العناصر.. إلخ^(١)، فبعثت جمعية الاتحاد والترقي كبار الضباط في الولايات التركية، وسلبتهم قيادة الجند في الولايات العربية، وفي سنة ١٩١٦م (١٣٣٤هـ) قتلت بعض أعضاء جمعية العهد^(٢)، وانحلت عرى الجمعية بعد زوال الحكومة العربية الفيصلية من الشام، فقد لبث كثير من ضباطها يعملون فرادى في الحركات القومية^(٣).

ثامناً: جمعية الفتاة العربية السرية:

يعتبر أعضاء الجمعيات القومية أن أكثر الجمعيات شمولاً للفكر القومي، وأشدّها تأثيراً في الحركة العربية ونهضة العرب، هي جمعية الفتاة العربية السرية.

ولقوة تأثير السرية في منهج الجمعية اختلف في تاريخ نشأتها، فقيل: أنشئت بتاريخ ١٩٠٨م^(٤)، أو بتاريخ ١٩١١م^(٥).

مبادئ وتنظيم الجمعية:

مما يلاحظ على مبادئ الجمعيات أنها دائمة التغيير والتبديل في المناهج، وهذا قد يكون من أسبابه طبيعة التعامل مع الواقع، وهذه الملاحظة ظاهرة على جمعية الفتاة، فإن مبدأ الجمعية وتنظيمها أثناء التأسيس

(١) الثورة العربية الكبرى، أمين السعيد، ٤٧/١.

(٢) القومية العربية، مصطفى الشهابي، ٨٠.

(٣) انظر عن أبرز أسماء أعضاء جمعية العهد: نشأة الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزه، ٤٧٨.

(٤) ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى، أحمد قدرى، ١١.

(٥) عوني عبد الهادي، أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسميه، ١٧.

يستهدف الوحدة العربية والاستقلال التام الشامل^(١).

ومن لوائح ونظام الحزب:

(١) إن غاية الحزب المسمى بحزب الاستقلال العربي المؤسس في دمشق سنة ١٩١٩م هي تأمين استقلال البلاد العربية المحررة استقلالاً سياسياً تاماً من جميع وجهاته.

(٢) يتألف الحزب من أعضاء عاملين وأعضاء فخرين. ليس للحزب رئيس، إدارته معلقة بقرارات اللجنة المركزية المؤلفة من خمسة عشر عضواً^(٢).

لقد أصبح هذا الحزب العمود الفقري للحياة الحزبية في سورية، والمسيطر على البلاد بحيث لا يقرر عمل ولا تؤلف وزارة ولا توضع خطة إلا بالاتفاق معه^(٣).

وبهذه الطريقة أصبح حزب الاستقلال الممثل العلني والرسمي لجمعية الفتاة العربية، حتى اختلط الأمر على الناس فلم يعودوا يفرقون بين الجمعية والحزب^(٤). فكانت نهاية مسمى (جمعية الفتاة العربية السرية).

السبب الثاني: وسبب آخر أدى إلى نهاية مسمى جمعية الفتاة العربية، هو إعدام أبرز مؤسسي جمعية الفتاة السرية؛ وذلك لإدانتهم بأعمال تخلّ بأمن الدولة، كالمطالبة باستقلال البلاد العربية، والدعوة للاحتلال الفرنسي.. وذلك بموجب اعترافات بعضهم، والحصول على وثائق ومكاتبات في القنصلية الفرنسية في دمشق تدينهم^(٥).

أهم أسباب نشأة الجمعيات القومية العربية:

١- الجمعيات الماسونية في البلاد العثمانية.

٢- الدعوة إلى القومية التركية.

٣- تأمر الدول الغربية على الدولة العثمانية.

٤- الاستعمار العسكري.

٥- التنظيمات الجاهلية في الدولة العثمانية.

٦- دور البعثات العلمية في نشأة الجمعيات.

٧- دور كتابات بعض دعاة الفكر القومي.

٨- دور الصحافة في نشأة الجمعيات.

٩- دور نصارى العرب في نشأة الجمعيات.

الأهداف العامة للجمعيات القومية العربية:

الهدف الأول: الانفصال عن الدولة العثمانية واستقلال البلاد العربية.

الهدف الثاني: قيام خلافة عربية بدلاً عن الدولة العثمانية.

الهدف الثالث: فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية.

الهدف الرابع: تحكيم الدستور.

الهدف الخامس: الولاء القومي مقدم على الولاء الديني.

الهدف السادس: تقرير مبدأ الولاء للقومية العربية.

الهدف السابع: نشر الأفكار الغربية النصرانية.

الهدف الثامن: تطبيق الحكم الديمقراطي في البلاد العربية.

(١) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٨٧/١

(٢) الرعييل العربي الأول، خيرية قاسميه، ١٧١، رياض الريس للكتب والنشر.

(٣) خبراتي في الحكم، حسن الحكيم، ٤٦.

(٤) حول الحركة العربية الحديثة، محمد عزة دروزة، ٨٨/١.

(٥) عن هذه القضية ينظر: مذكرات جمال باشا، ٢١٢.

معلومات إضافية

القومية:

تعبير سياسي يعني شعور الناس بالانتماء جميعاً إلى أمة واحدة، ويشمل هذا الشعور كذلك الإحساس بالولاء للأمة، والاعتزاز بثقافتها وتاريخها - وفي العديد من الحالات - الرغبة في الاستقلال الوطني.

فمنذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، أصبحت القومية قوة مهمة في العلاقات الدولية. وقد ساعد الشعور بالقومية - لاسيما رغبة كل دولة في تسيير شئونها ذاتياً - على تغيير خريطة أوروبا عدة مرات منذ القرن التاسع عشر الميلادي. ومنذ أواخر أربعينيات القرن العشرين الميلادي، حولت القومية آسيا وإفريقيا كذلك.

لم يكن الناس يشعرون دائماً بالانتماء إلى الأمة. وكانوا في القرون الوسطى مواليين لعدد من الفرق أو الحكام. فمثلاً، كان المواطنون الفرنسيون يكتنون ولاءً لدوق برغنديا، وملك فرنسا، والإمبراطور الكاثوليكي المقدس، والبابا.

نشأة القومية:

. ظهرت القومية مع تطور وحدة سياسية تدعى الدولة القومية (الدولة - الأمة)، فالأمة مجموعة من الناس يتقاسمون ثقافة وتاريخاً ولغة مشتركة، ولهم شعور بالوحدة القومية. أما الدولة فهي قطعة من الأرض لسكانها حكومة مستقلة. وتوجد الدولة القومية إذا كانت للأمة والدولة الحدود نفسها.

بدأت الدولة القومية في التطور أواخر العصور الوسطى. وتحسنت الرحلات والاتصالات خلال تلك الفترة، وكانت النتيجة أن اطلع الناس على أجزاء بلدهم الممتدة خارج بقعة مجتمعهم المحلي. وبدأ الولاء للزعماء المحليين والدينيين يضعف، في حين تعاظم الاتجاه للملوك بصورة أكبر.

وبحلول القرن الثامن عشر الميلادي، أصبحت إنجلترا وفرنسا وإسبانيا والعديد من البلدان الأخرى أمماً - دولاً. نمت شعوب أخرى الشعور بالقومية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أن معظمها لم يصبح دولاً قومية. ويعتقد كثير من الناس أن المجموعة القومية لها الحق في تكوين دولتها الخاصة. وقد سبب هذا الاعتقاد المعروف بمذهب (حق تقرير المصير القومي) العديد من الثورات القومية في أوروبا. فمثلاً، نالت اليونان استقلالها عن تركيا عام ١٨٢٩م، وأصبحت بلجيكا مستقلة عن هولندا عام ١٨٣٠م.

ومنذ بداية القرن العشرين الميلادي نشطت الحركة القومية العربية في بلاد الشام، وقد شارك العرب إلى جانب الحلفاء ضد الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى؛ أملاً منهم في أن ينجزوا استقلال بلادهم السياسي، إلا أن الحلفاء نكثوا وعودهم للعرب. وقُسم المشرق العربي ما بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي بموجب اتفاقية سايكس - بيكو.

وفي الخمسينيات من القرن العشرين الميلادي نشطت حركة القومية العربية من جديد؛ حيث حاولت مصر بقيادة جمال عبدالناصر العمل على تحقيق الوحدة العربية، اعتماداً على التاريخ المشترك بين الدول العربية واللغة والدين والثقافة، إلا أنها باءت بالفشل.

مختلف أشكال القومية:

تطورت الأفكار القومية فيما بعد في مختلف أرجاء العالم. ففي الولايات المتحدة مثلاً، عبّرت روح القومية عن

نفسها في توسعها السريع نحو الغرب خلال القرن التاسع عشر الميلادي. واقتنع العديد من الأمريكيين أن لأمتهم مصيرًا ظاهرًا، يستوجب تولي أمريكا الشمالية بأكملها.

أما في أوروبا الغربية، فقد وُجِدَ الشعور الجديد بالقومية الإيطالية وألمانيا بعد ذلك، بعد أن كانتا منقسمتين إلى عدة دويلات. اندمج كل من هذين الشعبين لتكوين دولة واحدة من تلك الدويلات. تم توحيد إيطاليا عام ١٨٧٠م، وأصبحت ألمانيا دولة قومية عام ١٨٧١م.

من جهة أخرى، حاولت مجموعات قومية في أوروبا الشرقية إنشاء دويلات صغيرة من إمبراطورية النمسا - المجر والإمبراطورية الروسية والدولة العثمانية. عملت مطالب تقرير المصير القومي على قيام الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٨م)، وقسمت الإمبراطوريات بعد الحرب.

وخلال ثلاثينيات القرن العشرين الميلادي، استعمل طاغيتان -هما أدولف هتلر الألماني، وبنيتو موسوليني الإيطالي- القومية في طلب الولاء المفرط من شعبيهما. لقد عزّزا القومية المطلقة، وهي الاعتقاد بأن عددًا من الجنسيات أرقى من جميع الجنسيات الأخرى. كما وضعت هذه الفكرة حدودًا صارمة على كل من يدعي تلك الجنسية. ودعمًا للقومية المطلقة، قتل النازيون الملايين من الأجناس الأخرى؛ حيث اعتبروهم بشرًا من الرتبة الدنيا. كما شرعت ألمانيا وإيطاليا في غزو العالم. وقد ساعدت أعمالهما على اندلاع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م - ١٩٤٥م).

بعد الحرب العالمية الثانية، أدت القومية بالعديد من المستعمرات الإفريقية والآسيوية إلى المطالبة بالاستقلال وحق تقرير المصير. فنالت الهند والباكستان استقلالهما عن بريطانيا عام ١٩٤٧م.

وخلال السبعينيات من القرن العشرين الميلادي، استقلت أكثر من ثمانين دولة أخرى، إلا أن أكثرها كانت تفتقر إلى تاريخ التجارب المشتركة الطويل الذي وُلد القومية في أوروبا، لكن زعماءها شجّعوا القومية من أجل مساعدة تنمية الوحدة القومية.

الانتشار ومواقع النفوذ في العالم العربي:

يوجد من الشباب العربي ومن المفكرين العرب الذين يحملون هذا الفكر، كما توجد عدة أحزاب قومية منتشرة في البلاد العربية، مثل حركة الوحدة الشعبية في تونس، وحزب البعث بشقيه في العراق وسوريا، وبقايا الناصريين في مصر وبلاد الشام، وفي ليبيا يُلاحظ أن الفكر القومي الآن في حالة تراجع وانحسار.

المصادر:

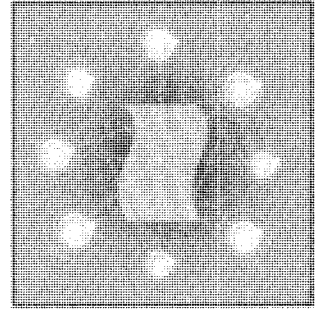
١- القومية العربية، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، موقع صيد الفوائد:

<http://www.saaaid.net/feraq/mthahb/45.htm>

<http://www.intaaj.net/>

٢- الموسوعة العربية العالمية:

الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي.. (الماضي والحاضر والمستقبل)



د. أحمد ماجد

باحث في الشؤون السياسية

ملخص الدراسة

انهيار الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وإلغاء الخلافة عام ١٩٢٤م، سرّع في ولادة تيارات فكرية جذرية عملت على استيراد الأفكار الغربية، مستفيدة من عامل الإحباط الذي أصاب الأمة الإسلامية من جهة، ووجود جالية أجنبية كبيرة من جهة ثانية، وتردي الأوضاع الاقتصادية والثقافية والسياسية من جهة ثالثة.

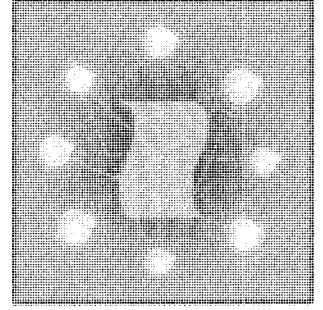
ظهرت هذه الأفكار على شكل منظومات علمانية تستسخ التجربة الغربية بنموذجيها الشرقي والغربي كحلّ وبديل عن المنظومة الإسلامية التي لم تستطع أن تحافظ على وحدتها، وهذا الأمر وإن قدّم نفسه باعتباره نموذجاً فكرياً إلا أنه سرعان ما تحوّل إلى مورد صراع بين المنظومتين للاستئثار بالعالم الإسلامي.

إن اللبنة الأولى للأحزاب الشيوعية واليسارية مؤلفة من الأجانب والأقليات الدينية؛ ولذلك نلاحظ أنّ هذه الأحزاب سلكت طريقاً مختلفاً عن السياق العام للأحزاب والتوجهات السياسية العربية التي ظهرت بعد سقوط الدولة العثمانية، فهذه الأحزاب كانت منشدة منذ بدايتها إلى قاعدة أيديولوجية غريبة عن المجتمع إلى حدّ فقدت معه القدرة على استيلاء برامج سياسية تعبّر عن المصلحة الحقيقية للمجتمعات.

بعد النكبة أخذت الأحزاب الشيوعية العربية تُمنّي النفس بالتمدد داخل مجتمعاتها؛ من خلال التركيز على حقّ تقرير المصير للشعوب، ومالت للعمل على حيازة الشرعية لعملها من خلال الحصول على التراخيص. بدءاً من خمسينيات القرن العشرين، بدأ الشيوعيون يتمددون إلى المؤسسات العسكرية في بلدانهم، فأسس الحزب الشيوعي العراقي رابطة العسكريين الوطنيين الأحرار، وتعاون مع منظمة الضباط الأحرار، موفراً العامل الذاتي للثورة التي نجحت في الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٥٨م في القضاء على الحكم الملكي الذي دخل بسياسة الأحلاف، وكان جزءاً من حلف بغداد، وأقيم من أجل مواجهة التمدد الشيوعي. شهدت ستينيات القرن العشرين مدخلاً لمراجعة الذات وإنجازاتها لاسيما عند الأحزاب القومية؛ حيث مالت مجموعات من البعث إلى أيديولوجية اليسار، وتابعهم على هذا المنوال حركة القوميين العرب، فحملت المرحلة نمواً للييسار، جلب معه جملة من الإشكاليات.

وجدت الأحزاب الشيوعية نفسها بعد انهيار المنظومة الاشتراكية وحيدة، إذ فقدت قاعدتها الأيديولوجية التي اتكأت عليها منذ التأسيس، ولم تكن بوضعية تسمح لها بإعادة النظر بمقولاتها، فدخلت في سبات عميق، وخسرت مواقعها، فلم تعد مؤثرة كتطبيقات سياسية، كما أنّ هذه الأحزاب قد تعرضت إلى نكسة كبيرة في ظل ثورات الربيع العربي.

الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي.. (الماضي والحاضر والمستقبل)



د. أحمد ماجد

باحث في الشؤون السياسية

مقدمة:

مع الضعف والوهن الذي أصاب الدولة العثمانية، أخذت تتسلل إلى المجتمعات الإسلامية الأفكار الغربية؛ التي فتنت المثقف المسلم، وجعلته يفكر باستلهاهم النموذج الغربي باعتباره الأتم؛ لأنه استطاع أن يُخرج الدول الأوروبية من مرحلة الضعف إلى القوة، وإن كانت هذه الأصوات بدأت خافتة في البداية، واكتفت بالجانب الإصلاحي، ولكنَّ انهيار الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى وإلغاء الخلافة عام ١٩٢٤م، سرَّع في ولادة تيارات فكرية عملت على استيراد الأفكار الغربية، مستفيدة من عامل الإحباط الذي أصاب الأمة الإسلامية من جهة، ووجود جالية أجنبية كبيرة من جهة ثانية، وتردي الأوضاع الاقتصادية والثقافية والسياسية من جهة ثالثة.

وقد ظهرت هذه الأفكار على شكل منظومات علمانية تستسخ التجربة الغربية بنموذجيها الشرقي والغربي كحلٍ وبديل عن المنظومة الإسلامية التي لم تستطع أن تحافظ على وحدتها، وهذا الأمر وإن قدّم نفسه باعتباره نموذجًا فكريًا إلا أنه سرعان ما تحوّل إلى مورد صراع بين المنظومتين للاستئثار بالعالم الإسلامي.

من هنا تتأتى أهمية هذا البحث العلمية؛ إذ إنه يكشف الأرضية التي تحركت من خلالها هذه الأفكار الغربية البعيدة عن روح الأمة، وكيفية استفادتها من واقع الانقسام والشرذمة، وغياب المشروع النهضوي الإسلامي الفاعل.

ومن خلال هذه البحث سيتم إظهار الانطلاقة الملتبسة لهذه الحركات السياسية؛ حيث يمتزج فيها السياسي بالأيديولوجي، والمشروع النهضوي بالاستراتيجيات الدولية، لذلك تحضر مصالح الدول الفاعلة مع أحلام الشعوب وآمالها بالتححرر والتقدم، مستفيدة من واقع الأقليات وقلقها، ومن الحالة المزرية التي وصلت إليها المجتمعات الإسلامية على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي.

بالتالي، سيحاول هذا البحث أن يُعيد رسم مشهدية ولادة الحركات الشيوعية في العالم العربي، كما سيُلقي الضوء على الأحزاب والحركات الشيوعية واليسارية، مُظهرًا تركيبها التنظيمي وآلية عملها، والاتصال والانفصال بينها وبين السلطة السياسية الحاكمة، سواء أكانت سلطة وصاية في البداية أو دولة وطنية في مرحلة لاحقة، مبرزًا دورهم في الحياة الثقافية والسياسية والاقتصادية، وآليات قبولهم أو رفضهم المشاركة في الحياة العامة، وأثر ذلك عليهم من خلال الانشقاقات والتفرعات فيهم.

واعتمد هذا البحث على البنائية الوظيفية التي تعتبر، بحسب إيستون، النظام نسقًا أو مجموعة من المتغيرات المعتمدة على بعضها البعض والمتفاعلة فيما بينها، وأثر ذلك على البيئة المحيطة بالنظام، وقال: إن الحياة السياسية على أيّ مستوى يمكن النظر إليها كنظام للنشاط والسلوك السياسي الذي يمكن فصله للدراسة عن غيره من الأنظمة على الأقل للتحليل.

وشدد على الوحدة الاجتماعية، وضرورة المساواة في الأجور، وهدم المؤسسات الرجعية، ووصل إلى القول بضرورة: «وضع نظام يكبح جماح الجبايرة الظالمين، ويخفف عن الضعفاء المظلومين»^(١).

ومن بعده أخذت تكثر السُّبحة فظهر فرح أنطون وسلامة موسى، ومصطفى حسين المنصوري.

ولم يبق التأثير في إطار التنظير الثقافي إنما تعدها إلى المجتمعات العربية الإسلامية خاصة في أوساط الطبقة العمالية الفنية، التي تشكلت بمعظمها من عناصر أجنبية، وفدت إلى هذه البلاد، ولكنها لم تنقطع عن الجو الثقافي في مجتمعاتها الأوروبية.

من هنا نلاحظ أنّ عام ١٨٩٩م شهد ولادة أول نقابة لعمال السجاير على يد جوزيف روزنتال^(٢)، فالأجانب تحكموا بالوظائف الإدارية، وهذا ما أشار إليه تقرير «لجنة بلنر» عام ١٩٢٠م حين أورد أنّ المصريين لا يشغلون إلا أقلّ من ربع الوظائف الكبيرة^(٣).

وبعد ذلك ظهر في بيروت معالم حراك شعبيّ فريد من نوعه في ظلّ الدولة العثمانية؛ إذ قامت مجموعة من الشباب عام ١٩٠٧م^(٤) بالاحتفال بعيد العمال، وهذا الأمر ليس غريباً؛ فالإرساليات الأجنبية ونظام الامتيازات ساهما في بروز طبقة جديدة من المثقفين

من هنا، لم يتم الاستغراق بالبعد التاريخي، فمساحة البحث غير واسعة، والاستغراق في التاريخ قد يؤدي للدخول في تفاصيل لا يمكن لبحث بهذا الحجم أن يُلبّي احتياجاته، لذلك سيتم التركيز على الوظائف النظامية التي هي ضرورية لإظهار النظام الكليّ، الذي يتحكم بهذه الأحزاب والحركات، أي: النظام العام الحاكم، وهذا ما يسمح للبحث بعرض ما يريد الحديث عنه دون إخلال بالمحتوى.

وهذا الاستخدام المنهجي لا يلغي اعتمادنا على أدوات المنهج التاريخي، لا سيما فيما يتعلق بالعودة إلى المصادر والأدبيات الأصلية لهذه الحركات؛ من أجل إعطاء صورة حقيقية لها، وبالتالي عدم التحكم بالمعطيات بشكل يحرف البحث عن هدفه المتمثل بعرض وجهة نظر هذا الاتجاه الفكري، ولعلّ هذا ما سيدفعنا إلى استخدام المنهج الوصفي التحليلي في قراءة الرؤى الفكرية والسياسية لهذه الحركات.

المحور الأول: الأحزاب الشيوعية العربية.. الإرهاصات والولادة:

لا يمكن عزل ولادة التيار اليساريّ عن السياق العام للحدثة الغربية، فهو قراءة خاصة للواقع الغربيّ مع الالتزام بالنظرة الحاكمة. وإن اليسار الذي انطلق في نموه الأخير مع كارل ماركس، أقام نظريته حول التشكيلات الاجتماعية وتعاقبها التاريخي، فاعتبر آليات التطور الرأسماليّ صورة جديدة من الحياة البشرية، لكنّه لم يقرّها ككمال نهائيّ، فهي بنظره عملية صيرورة مفتوحة، يستطيع من خلالها الإنسان أن يتجاوز الرأسمالية ويصل إلى أكمل وأتمّ وأعمق ما في الحدثة وهو تحرير الحياة البشرية وقيام مجتمع اللاتطبقات واللدولة.

وهذه النظرة أخذت تتسلل إلى العالم العربيّ -الإسلاميّ؛ إذ مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، نادى شبلي الشميل بالاشتراكية، وأخذ يُنظّر لها عبر الدعوة لتبني المنهج العلميّ كبديل للفكر الغيبيّ، فرفض التعصب الطائفيّ والقوميّ،

(١) راجع: حلیم بركات، المجتمع العربي المعاصر، الطبعة ٦، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨م)، الصفحة ٣٠٦.

(٢) عبد العظيم محمد رمضان، تطور الحركة الوطنية في مصر، الطبعة ٢، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٨٣م)، الصفحة ٥٠٩.

(٣) رفعت السعيد، تاريخ المنظمات اليسارية، الطبعة ١، (القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٦م)، من الصفحة ٩٨ إلى الصفحة ١٠٢.

(٤) قيل: إنّ المحتفلين كانوا يعلقون شرائط حمراء على صدورهم. وقيل: إنهم غرسوا شتلة شجرة أطلقوا عليها اسم شجرة الحرية. ويورد الأستاذ يوسف إبراهيم يزبك في كتابه «حكاية أول نوار» القصة التالية: «في سنة ١٩٠٧م، والبلدان العثمانية بأسرها رازحة تحت نير الحكم الأوتوقراطي، تنن من جور عمال السلطان عبد الحميد، كان يعيش في بيروت قبضة من الشبان المستتيرين، يرون ما يراه مواطنوهم، ويشكون شكواهم، ولكنهم كانوا من القلائل الذين يفكرون بعمل شيء.. أما قصة احتفالهم أول نوار فسمعتها من ثلاثة منهم، في مناسبات متباعدة. وجرى ذلك في عام ١٩٠٧م في محلة الروشة ببيروت»، انظر: محمد دكروب، جذور السنديانة الحمراء، (بيروت، دار الفاربي)، الصفحة ١٠١.

١- تحكمت بها المصالح الاستراتيجية للدولة السوفييتية^(٢):
فالثورة الروسية فتتت النُخب التي انجذبت باتجاهها
بمعزل عن وجود بنية فكرية أيديولوجية مؤسّسة،
بالتالي كان هناك ميول وولاء للمركز
بعيداً عن النظرية، فالنخبة الأولى لم
تتعرف على ماركس وانجلز ولينين،
إنّما تواصلت مع نصوص تفسيرية
تُهيمن عليها الروح الستالينية،
وعبر وصاية الكومنترن^(٣)، وهكذا
بات معيار الأهمية الوفاء للدولة
السوفييتية، والدفاع عن مواقفها
حتى التكتيكية، ورفعها إلى مرتبة
النظرية، وتكييف النظرية وفقاً لها،
ورسم السياسات القومية على أساسها^(٤).

وهذا الانقياد لدولة القاعدة، جعل اليسار لا يتبته
إلى خصوصية الموقف السوفييتي من القضايا التي
تعامل معها. فعندما تحوّلت الشيوعية إلى دولة بعدما
وصلت إلى الحكم، أخذت تعمل على تعميم تجربتها
الأيديولوجية، وكانت ترى في الهجرة اليهودية أملاً
في إقامة مجتمع اشتراكيّ يكون نواة لمجتمع أكبر
قد يشمل الشرق العربيّ بجممله، بالتالي توجه إلى
المجموعة القادرة على تنفيذ رؤيته.

وهذا الأمر لا يمكن أن يتوفر إلا بالنخب اليهودية
التي تتبنى نفس الرؤى الأيديولوجية من جهة،
والتركيبة القومية الملائمة على أخذ المعلومات
وتعميمها من جهة أخرى. ومن خلال هذا الأمر،

(٢) انظر: محمد سيد رصاص، السوفييت والأحزاب الشيوعية العربية،
ضمن كتاب الأحزاب والحركات اليسارية، تحرير: فيصل دراج ومحمد
جمال باروت، (دمشق، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دون
تاريخ)، الصفحة ٤٠.

(٣) الشيوعية الدولية أو الكومنترن منظمة دولية شيوعية بدأت
في موسكو خلال شهر مارس ١٩١٩م. ويقصد بالأهمية المحاربة
بكل الوسائل المتاحة، بما في ذلك القوة المسلحة، من أجل
إسقاط البرجوازية الدولية وإنشاء الجمهورية السوفييتية الدولية
كمرحلة انتقالية إلى الإلغاء الكامل للدولة.

(٤) شمس الدين الكيلاني، الأحزاب الشيوعية والقضايا القومية، ضمن
كتاب الأحزاب والحركات اليسارية، المصدر نفسه، الصفحة ٥٢.

[المسيحيين] تبنت العلوم الغربية، ومالت إلى اعتبار
نفسها جزءاً من هذه الحضارة^(١).

يُضاف إلى هذين السببين: حضور الأفكار
الاشتراكية في الهجرة اليهودية،
التي بدأت تتوافد باتجاه فلسطين
بعد مؤتمر بازال الذي عُقد عام
١٨٩٧م، فبعض هؤلاء المهاجرين
كان مرتبطاً بالحركة الاشتراكية
الديمقراطية الأوروبية. ولكن
هذه الإرهاصات لم تعرف
طريقها لتتحول إلى تيار سياسي
إلا بعد انهيار الدولة العثمانية؛
حيث أخذنا نلمح ولادة تيار جديد

في الواقع العربي استفاد من العناصر التي أشرنا
إليها لبث الدعوة إلى إقامة مجتمع شيوعي، مستفيداً
من ظروف العالم العربي بعد انفصاله عن الدولة
العثمانية؛ حيث طمحت الأقليات في التساوي مع
الأكثرية؛ بعدما عانت من الضياع والإحباط بالإضافة
إلى القهر الاجتماعي والسياسي والاقتصادي.

المحور الثاني: نشأة الأحزاب الشيوعية.. من البدايات حتى النكبة:

بعد أن رأينا اللبنة الأولى للأحزاب الشيوعية
واليسارية المؤلفة من الأجانب والأقليات الدينية،
نلاحظ أنّ هذه الأحزاب سلكت طريقاً مختلفاً
عن السياق العام للأحزاب والتوجهات السياسية
العربية التي ظهرت بعد سقوط الدولة العثمانية،
فهذه الأحزاب كانت منشدة منذ بدايتها إلى قاعدة
أيديولوجية غريبة عن المجتمع إلى حدّ فقدت معه
القدرة على استيلاء برامج سياسية تعبّر عن المصلحة
الحقيقية للمجتمعات، فهي في أطروحاتها وقعت في
أفخاخ متعددة:

(١) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩م، ترجمة
كريم عرقول، الطبعة ٣، (بيروت، دار النهار، ١٩٧٧م)، الصفحة ٦٤.

٢- تميّزت لغة الأحزاب الشيوعية بجمودها العقائدي، فالصراع بالنسبة للشيوعيين يجب أن يركز في إطار البعد الطبقي، ومواجهة الرأسمالية والدول الاستعمارية، بالتالي: «لا مصلحة في الحرب للكادحين العرب واليهود، بل للبورجوازية العربية العفنة»^(٥).

ووصلت الأمور إلى حدّ رفض الأحزاب الشيوعية للحرب في فلسطين، واعتبارها مؤامرة تسعى للقضاء على واحة الديمقراطية، وجاء على لسان الحزب الشيوعي المصري: «إنّ اليهود يكوّنون اليوم شعبًا ديمقراطيًا، وتزداد سيطرته على حكومتهم يومًا بعد يوم، في حين أنّ الحكومة العربية في فلسطين حكومة فاشية، تعمل خادمة للاستعمار.. والقضاء على الدولة اليهودية، وإخضاع اليهود لهذه الحكومة العربية، معناه

القضاء على جزيرة الديمقراطية التي يمكن أن تكون ذات تأثير حسن على الجزء العربي في فلسطين، وتلعب دورًا إيجابيًا في الشرق الأوسط»^(٦).

فهذه الأحزاب اعتمدت على لغة مصطنعة بُنيت على أرضية الاستقطاب لدولة القاعدة الأيديولوجية، فكانت غريبة عن المصالح الحقيقية للشعوب، ولنلمح هذا بشكل واضح في المغرب العربي، فالأحزاب الشيوعية هناك بقيت مستتعبة للحزب الشيوعي الفرنسي بتوجيه من الكومنترن، فركزت على المطالب الفئوية النابعة من صراع الطبقات، وضرورة تحقيق المطالب الفورية للكادحين على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي، مع العلم أنّ التحدي الحقيقي كان يتمثل في الخوف على ضياع الهوية، فالأحزاب الشيوعية العربية المغربية غلبت الأيديولوجي على الواقعي المعاش فسعت إلى تحقيق استقطابين، فمن جهة إلى

حؤول الحزب الشيوعي الفلسطيني المهيمّن عليه من قبل اليهود إلى قائدٍ وموجهٍ ومؤسسٍ للأحزاب اليسارية العربية^(١)؛ إذ وبتوجيه من الكومنترن جاء إلى بيروت في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٤م جوزيف بيرغر، وأخذ يعمل على تنظيم العناصر الشيوعية. وفي مصر استغل الكومنترن الأزمة التي تعرّض لها الحزب الشيوعي بعد محاربة السلطات المصرية له، وانفضاض معظم القيادات عنه، فقام في صيف العام

١٩٢٧م بإخضاع الحزب لسلطة الحزب الشيوعي الفلسطيني عبر إيفاد شيوعي يهودي متمكن إلى مصر للتعرف إلى الوضع وتجميع قوى الحزب المفكك^(٢).

فتبنى اليسار العربي لمقولات الاتحاد السوفييتي وتأثير اليهود والأجانب فيه، جعلته يقبل بالهجرة اليهودية التي تستوطن فلسطين،

واعتبروها من العناصر الإيجابية التي تدفع الأمة إلى الإمام، وهذا ما جعل الصراع بين مستعمر وشعب يعيش على أرض فلسطين، فغيّبت الحضور الاستيطاني اليهودي، فالحزب الشيوعي السوري اللبناني يقول: «إنّ العالم أجمع يجب أن يعرف ويقتنع بأن نضال العرب لأجل فلسطين هو قبل كلّ شيء نضال وطني ضد الاستعمار والاحتلال وفي سبيل الجلاء والديمقراطية»^(٣). وقال الحزب الشيوعي العراقي: «إنّ الشعب العراقي يرفض بإباء أن يحارب الشعب الإسرائيلي الشقيق»^(٤).

(١) بدأت الأفكار اليسارية تطلّ برأسها باكراً في لبنان، وقد تمثلت في بداية الأمر من خلال حديث بعض الصحف عن الثورة البولشفية كصحيفة الحقيقة والمعرض، اللتين نشرتا مقالات شرحت فيها أهداف الثورة، وتلا ذلك عمل بعض الشخصيات من أجل هذه الغاية. انظر: مسعود ضاهر، تاريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤-١٩٢٦م، (بيروت، دار الفارابي، ١٩٧٤م)، الصفحة ٢٨٩.

(٢) المصدر نفسه، من الصفحة ١٧٣ إلى الصفحة ١٧٦.

(٣) قدرى قلعجي، التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية، (بيروت، دار الكاتب العربي، ١٩٦٩م)، الصفحة ١٦٨.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ١٧٤.

(٥) المصدر السابق.

(٦) قدرى قلعجي، تجربة عربي في الحزب الشيوعي، المصدر السابق، الصفحة ١٥٠.

تحلّ قضية فلسطين، وتلبّي مطالب العرب الذين لا يطلبون سوى إلغاء الانتداب، ومنح فلسطين إمكان إنشاء حكومة وطنية دستورية ديمقراطية.. وهو حلّ لصالح العرب واليهود على السواء؛ لأنّه يضع أساساً صالحاً لزوال التناحر والتباغض بين العنصرين، وحلول التعاون والتفاهم»^(٣).

وعندما تغيّر موقف الاتحاد السوفياتي بدلت هذه الأحزاب موقفها، وأصبحت تنادي بتقسيم فلسطين إلى دولتين، يقول الحزب الشيوعي المصري حول هذا الموضوع: «فلندرس حالة الشعب اليهودي: لقد عانى الشعب اليهودي في فلسطين اضطهاداً لمدة طويلة. إنّ الشعب اليهودي الفلسطيني يريد أن يحصل على استقلاله الذاتي، وإن فرض الوحدة مع العرب، تلك الوحدة التي يرفضها الشعب اليهودي، معناه أولاً أننا نناقض مبدأ حق تقرير المصير، وهو يعني ثانياً تحطيم هذه الوحدة، فهو سيؤدي حتماً إلى استمرار روح العداء بين الشعبين، وذلك يجعل من كلا الشعبين مضاداً للآخر»^(٤).

بالإضافة إلى المطالب الطبقيّة والسياسية التي رفعتها الأحزاب الشيوعية العربية، عملت هذه الأحزاب على تعميم التحررية الاجتماعية، فدعت إلى تحرير المرأة وضرورة خروجها إلى العمل، وفي هذا المجال كانت أمينة رحال الشيوعية أول من رفعت الحجاب في بغداد^(٥).

٢ - خضعت هذه الأحزاب لمشكلة في بنيتها الأساسية، تتمثل في خضوعها لسلطة كلية تسيطر على مركز القرار لديها، مما أفقدها المرونة في اتخاذ القرارات، فكانت شبيهة بالحزب الأم الذي غلب عليه حضور شخصية ستالين، لذلك نلاحظ مركزية الأمين العام في الأحزاب الشيوعية العربية، مثل خالد بكداش في

الاتحاد السوفياتي كنموذج لمجتمع نجح في تحرير الشغّالين، وكمدافع عن الشعوب المضطهدة، ومن جهة أخرى، نحو فرنسا، إلى الحدّ الذي تهدف فيه المطالب الفورية أساساً إلى المساواة في الحقوق مع الشغّالين الفرنسيين (إلغاء التبعية الأهلية، الانتخاب العام، ولوج النقابات)، ومدّ الترتيبات ذات الطابع الاجتماعيّ السارية في الوطن الأصليّ إلى المستعمرة (ظروف العمل، التعليم المجاني والإجباري)^(١).

وهذا الإسقاط للغة العقائدية، لم يتوقف عند حدود استعارة الكلام السوفياتي عن صراع الطبقات، إنّما تناول الموقف من الهجرة اليهودية والقضية الفلسطينية ورؤية المستعمر معه، فعلى الرغم من الحملات الأيديولوجية التي شنت على الدول المنتدبة إلا أنّ تصاعد الفاشية في أوروبا دفع هذه الأحزاب إلى تأسيس جمعيات لمقاومة الفاشية، حتى إنّ لم يبق دولة لم تقم فيها جمعية من هذا النوع.

وهذه التبعية انعكست على مواقف هذه الأحزاب من القضايا التي تعاملت معها، فالحزب الشيوعي العراقي وقف إثر أحداث مايو (أيار) من عام ١٩٤١م إلى جانب ثورة الجيش العراقي بقيادة رشيد عالي الكيلاني على السلطة البريطانية، وأيد الألمان وعقد عليهم آمالاً كبيرة، وعندما عدلت موسكو موقفها انقلبت نظرة الحزب إلى الثورة العراقية من ثورة وطنية إلى ثورة تخدم مصالح الفاشيست الألمان، وتهدف للقضاء على مطامح الناس في الحرية والاستقلال^(٢).

كما يظهر هذا الأمر أيضاً في موقف الأحزاب الشيوعية من موضوع تقسيم فلسطين، فهم أعلنوا في أدبياتهم السياسية عن ضرورة إقامة دولة واحدة متعددة الأعراق والديانات، وفي هذا قالت صوت الشعب: «والحكومة البريطانية تستطيع إن شاءت أن

(٣) المصدر السابق، الصفحة ١٢٨.

(٤) المصدر نفسه، الصفحة ١٤٤.

(٥) نبيل عبد الأمير ربيعي، حسين رحال رائد الفكر الماركسي في العراق، على الرابط:

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=301186>

(١) جورج أوفيد، اليسار الفرنسي والحركة الوطنية المغربية ١٩٠٥-

١٩٥٥م، ترجمة محمد الشركي وعبد الجليل ناظم، الطبعة ١، (الدار

البيضاء، دار توبقال، ١٩٨٨)، الصفحة ١٢.

(٢) المصدر السابق، الصفحة ٢٢٠.

سوريا، ويوسف سلمان يوسف في العراق.

٤- مالت معظم الأحزاب الشيوعية إلى العمل السري في بدايتها، وتعزز هذا الأمر مع رفض السلطات السياسية ترخيص هذه الأحزاب، وهذا الأمر جعل السرية جزءاً من الأيديولوجية الحزبية، مما أوجد أشبه ما يكون بعقدة اضطهاد لدى الشيوعيين، جعلهم يتوجسون من الإعلان عن أنفسهم، وفي هذا المجال يروي ريمون أجيون أسباب انفصاله عن اتحاد أنصار السلام، فيقول: «بدأت أشعر أنهم حذرون أكثر من اللازم، خائفون دوماً من أي حركة؛ كانوا يتحدثون دوماً بحذر شديد وخوف شديد، وقلت في نفسي إذا كانت هذه الشيوعية فأنا لست شيوعياً»^(١).

المحور الثالث: الأحزاب الشيوعية من النكبة إلى النكسة:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتراجع دور الدول الاستعمارية (فرنسا وبريطانيا)، أخذت الأحزاب الشيوعية العربية تُمنّي النفس بالتمدد داخل مجتمعاتها؛ من خلال التركيز على حق تقرير المصير للشعوب^(٢)، وهذا الأمر ترافق مع هجوم معاكس للولايات المتحدة التي عملت على ملء فراغ القوى الأوروبية التي أنهكت في الحرب العالمية الثانية، فبدأت بمواجهة المد الشيوعي كما أسمته، وحاولت أن تحاصره وتمنعه من التحرك، وعلى أساس هذه الرؤية، يمكننا أن نرى:

١- ميل الأحزاب الشيوعية العربية، وبتوجيه من الكومنترن، للعمل على حيافة الشرعية لعملها؛ من خلال الحصول على التراخيص، كما نادى بقيام جبهات عريضة لتحقيق المصالح الوطنية للأمم

(١) رفعت السعيد، تاريخ المنظمات اليسارية، مصدر سابق، الصفحة ١٦٩.
(٢) بدأ العمل بهذه السياسة في أعقاب المؤتمر السابع للأمم المتحدة الشيوعية «الكومنترن» المنعقد عام ١٩٣٥م، والذي طالب من الأحزاب الشيوعية الدخول في جبهات وطنية موحدة ضد الإمبريالية، أي: الدعوة إلى قيام أوسع التحالفات السياسية والشعبية ضد الفاشية والإمبريالية في هذه البلدان. انظر: خيري سعادة، فهد والنهج اللينيني، (دار الرواد)، الصفحة ١٢١.

المستعمرة، وهذا ما فعله الحزب الشيوعي العراقي حين تقدم بطلب تأسيس حزب باسم «حزب التحرر الوطني»^(٣)، وأقر في مؤتمره الوطني الأول عام ١٩٤٥م قيام جبهة وطنية عريضة. وفي سوريا حصل الأمر نفسه، وتمدد هذا التوجه إلى مصر، فسعت الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني «حدثو»^(٤) إلى قيام جبهة وطنية مع حزب الوفد لاستعادة حريات الشعب المسلوبة، والكفاح المشترك لتحطيم القيود التي تخنق المجتمع المصري^(٥)، وفي مرحلة لاحقة دخلت «حدثو» منذ عام ١٩٥١م في تحالف مع الإخوان المسلمين لا سيما مع التيار الراديكالي للإخوان الذي يمثله صالح العشماوي والشيخ محمد الغزالي.

لكن هذه المحاولات اصطدمت بضغط أمريكي، تمثل بقيام السلطات العراقية بقمع الشيوعيين، ثم استغلت معارضة الحزب الشيوعي لاتفاقية بورتسموث، ومشاركته بالوثبة العراقية ١٩٤٨م فاتهمته بتحريض الجماهير على الثورة؛ مستفيدة من نكبة فلسطين، ووجود مشاركة يهودية فاعلة في الحزب، فأصدرت حكماً بإعدام يوسف سلمان يوسف (فهد) وعضوي المكتب السياسي زكي نسيم وحسين الشبيبي، مما أصاب الحزب بضربة عميقة.

وفي سوريا طلبت الولايات المتحدة من الحكومات السورية المتعاقبة تضيق الخناق على الشيوعيين، ووصل الأمر إلى ذروته عندما قام حسني الزعيم بانقلابه العسكري، فشدد رقابته على الحزب ومنعه من العمل، وللإمعان في كسب ود الولايات المتحدة

(٣) رياض رشيد ناجي، الحركة الوطنية في العراق ١٩٤٨-١٩٥٨م، (أطروحة دكتوراه، جامعة عين شمس، ١٩٧٧م)، الصفحة ٢٤.

(٤) أكبر الأحزاب الشيوعية المصرية، تشكل في يونيو/ يوليو ١٩٤٦م من تحالف: الحزب الشيوعي المصري وايسكرا ومنظمة الطلبة، وتآلف أول مجلس مركزي من هنري كوربيل، سيد سليمان رفاعي، محمد شطا، كمال شعبان، عبده ذهب (ح.م) هليل شوارتز، شهدي عطية الشافعي، عبد المعبود الجبيلي، عبد الرحمن الناصر، إيمي ستون (ايسكرا) ولطفي (الطلبة)، رفعت السعيد، تاريخ المنظمات اليسارية، مصدر سابق، من الصفحة ٢٤٤ إلى الصفحة ٢٩٢.

(٥) المصدر نفسه، الصفحة ٢٩٤.

الضباط الأحرار، موفراً العامل الذاتي للثورة التي نجحت في الرابع عشر من تموز (يوليو) ١٩٥٨م في القضاء على الحكم الملكي الذي دخل بسياسة الأحلاف، وكان جزءاً من حلف بغداد، وأقيم من أجل مواجهة التمدد الشيوعي.

هذه الثورة أوصلت عبد الكريم قاسم إلى السلطة، ووضعت اليسار في موضع ملتبس؛ إذ تحول إلى عصا غليظة للسلطة من أجل مواجهة التيارات القومية، وأتُّهم بالمذابح التي وقعت في الموصل وكركوك.

وإن كان الحزب حاول أن يتبرأ من هذا الأمر عبر الحديث عن استخدام قاسم لبعض الرموز الموالية له، فهو منح ترخيصاً للحزب الشيوعي الجديد الموالي له برئاسة داود الصائغ وحرمه عن القديم برئاسة زكي خيري^(١).

مالت السياسة السورية نحو اليسار بعد العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦م، ومحاولة الانقلاب الأمريكية الفاشلة سنة ١٩٥٧م، وهذا أفسح المجال أمام المجموعات اليسارية للتمدد باتجاه الجيش، فوصل اللواء الشيوعي عفيف البرزة إلى رئاسة الأركان، بالتالي سيطرت القوى اليسارية على المؤسسة العسكرية بالتحالف مع البعثيين والشيخكليين.

وبدأت هذه المؤسسة بخوض نقاش الوحدة مع مصر، فأثمرت جهودها ١٩٥٨م بإعلانها، ولكن هذه الوحدة لم تأتِ بإيجابيات على الحزب؛ إذ عُزل البرزة بعد شهر من الوحدة^(٢)، وحُظرت الأحزاب، الأمر الذي أدى إلى تهميش دور الحزب وملاحقة أعضائه، فتعرض إلى حملات قاسية أدت إلى مقتل فرج الله الحلو في السجون السورية، ولم يشفع لهذا الحزب تحالف الجمهورية المتحدة مع الاتحاد السوفييتي،

جميع الأحزاب الشيوعية جعلت همها الأول المطالب السياسية والاقتصادية، والثقافية الداخلية، ولذلك دعت إلى جبهات وطنية، وعندما كانت مؤثرة في الحكم كما في العراق أخذت موقفاً معادياً للقومية؛ حيث قَدّم الشيوعي العراقي عبد الكريم قاسم، وهم أرادوا من ذلك إظهار أنفسهم كحزب وطني مستقيم^(٣).

٢- رفعت هذه الأحزاب شعارات وطنية، فحلّت الخصوصية مكان الأممية، فجميع الأحزاب الشيوعية جعلت همها الأول المطالب السياسية والاقتصادية، والثقافية الداخلية، ولذلك دعت

إلى جبهات وطنية، وعندما كانت مؤثرة في الحكم كما في العراق أخذت موقفاً معادياً للقومية؛ حيث قَدّم الشيوعي العراقي الداعم والمساندة لحكومة عبد الكريم قاسم، وهم أرادوا من ذلك إظهار أنفسهم كحزب وطني مستقيم^(٣).

وفي سوريا رفض خالد بكداش

الوحدة مع مصر وترك سوريا، وفي البحرين انهار التحالف القومي الشيوعي عندما اختلفوا على تسمية الجبهة؛ حيث أراد القوميون تسميتها بـ «جبهة القوى القومية»، وأرادت «جبهة التحرير الوطني البحرانية» أن يطلق عليها «جبهة القوى التقدمية»؛ نظراً لمعارضتها المفهوم القومي من منظور أممي^(٤).

٣- بدءاً من خمسينيات القرن العشرين، بدأ الشيوعيون يتمددون إلى المؤسسات العسكرية في بلدانهم، فأسس الحزب الشيوعي العراقي رابطة العسكريين الوطنيين الأحرار^(٥)، وتعاون مع منظمة

(١) NARA. G. 59: Joint WEEKA, 20/19 MAY 1950.

(٢) انظر: عبد الفتاح رشدان، التطور الديمقراطي في الأردن بين عامي ١٩٥٢-١٩٨٩م، مجلة قراءات سياسية، السنة ٤، العدد ٢، ١٩٩٤م، الصفحة ٩٠.

(٣) جريدة اتحاد الشعب، بغداد، العدد ٤، ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٩م.

(٤) روزماري سعيد زحلان، الخليج العربي والمشكلة الفلسطينية، مصدر سابق، من الصفحة ٢٠ إلى الصفحة ٢١.

(٥) مجيد خدوري، العراق الجمهوري، الطبعة ١، (إيران، منشورات الشريف الرضي، ١٣٧٦ هـ)، من الصفحة ٤٥ إلى الصفحة ٤٦.

(٦) الصفحة ١٥٧.

(٧) أكرم الحوراني، مذكرات أكرم الحوراني، (القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠م)، الجزء ٤، الصفحة ٢٦٠١.

الاشتراكي العربي (التنظيم الطليعي)^(٤).

٤- حضرت هذه الأحزاب في صفوف الأقليات الدينية والقومية، مما جعلها تأخذ مواقف منحازة لها، فالحزب الشيوعي العراقي أولى مسألة تقرير مصير الأكراد أولوية في مشروعه السياسي، فهو دعا الى الاعتراف الكامل بالحقوق القومية للشعب الكردي^(٥)، وفي مصر شغلت مسألة الأقليات الأحزاب الشيوعية، وفي كنفها وُلدت التيارات المطالبة بحق تقرير المصير؛ حيث نرى اهتمامًا بالمشكلة السودانية والنوبية، وذهب الشيوعيون المصريون والسودانيون إلى القول بوجوب حق تقرير المصير للشعب السوداني. وأكدوا في كتاباتهم على ذلك^(٦).

٥- بقيت الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربي، تعاني من إشكالية الانقسام والوحدة، فهذه الأحزاب التي وُلدت في أوساط ثقافية محددة، ضمت في بنيتها الأساسية مجموعات نخبوية

تتنمي بمعظمها إلى المثقفين، مما جعلها تميل إلى التنظير العقائدي بعيدًا عن دراسة الواقع المعاش، وهذا ما أوجد هوة بين هذه التنظيمات والمجتمع، بل حتى داخل الإطار التنظيمي نفسه، فعندما كانت القيادات تتحاور حول الوحدة كانت تُبعد الجماهير عن هذا النقاش، وعندما تنجز هذه الوحدة تبقى هشة قابلة للانكسار في كل لحظة.

٦- انخرطت هذه الأحزاب ضمن المشروع السوفييتي في الحرب الباردة، وكانت المعبر عن موقف موسكو ضمن بلدانها، لذلك كانت مواقفها تنطلق من الرؤية

حتى إذا تم الانفصال وسيطر البعث بعد ذلك على الحكم تحوّل الحزب إلى حزب غير فاعل في الحياة السياسية، يقتصر حضوره في بعض الأوساط الكردية ونحوها.

وفي مصر، حاول الشيوعيون منذ عام ١٩٤٦م تثبيت وجودهم في المؤسسة العسكرية، فقامت القلعة وهي جماعة مقربة من ايسكرا بجذب عدد من فنيي صيانة الطائرات، وأنشأت حدتو الجناح العسكري الذي ضمّ ٦٠ إلى ٧٠ ضابطاً^(٧)، وعند اندلاع ثورة ٢٣ يوليو كان

من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة عضوان من حدتو أو مقربان منها، وهما خالد محيي الدين ويوسف منصور صديق، كما كان هناك عدد آخر من الضباط الأحرار المقربين لحدتو أشهرهم القاضي العسكري أحمد فؤاد، وضابط الدفاع الجوي أحمد حمروش^(٨)، لذلك سارعت حدتو إلى دعم الثورة، بينما وقفت المنظمة الديمقراطية الشعبية

والحزب الشيوعي المصري موقفًا سلبيًا من الثورة، واعتبرتها تمثل المصلحة الأمريكية التي تريد أن تُخرج بريطانيا من المنطقة.

وهذا الموقف عبّر عن وجهة نظر موسكو التي رأت في الثورة مؤامرة أمريكية^(٩)، واستمر حتى عام ١٩٥٦م الذي شهد تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي، واقترب الثورة من المنظومة الشرقية، الأمر الذي أدى إلى تعديل مواقف التيارات اليسارية مع استمرار الخلاف حول بعض القضايا الوطنية، واستمرت العلاقة بين الشيوعيين والنظام في مدّ وجزر إلى أن اندمجت الأحزاب الشيوعية في ١٩٦٥م بالاتحاد

(٤) أحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو: البحث عن الديمقراطية، مصدر سابق، الصفحة ١٥١.

(٥) عبد الستار طاهر شريف، تاريخ الحزب الثوري الكردستاني، الطبعة الثانية، (بغداد، منشورات شور ششكير، ١٩٧٨م)، الصفحة ١٢١.

(٦) محمد عمر البشير، تاريخ الحركة الوطنية السودانية ١٩٠٩-١٩٦٩م، ترجمة: هنري رياض، الجنيد عمر، وليم رياض، (الخرطوم، دار الكتب السودانية، ١٩٨٠م)، الصفحة ٢٤٣.

(١) أحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو: البحث عن الديمقراطية، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢م)، الصفحة ٢٨٩.

(٢) أحمد حمروش، قصة ثورة ٢٣ يوليو: الجيش في السلطة، (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢م)، من الصفحة ١١٥ إلى الصفحة ١١٦.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ١١٦.

المحور الرابع: الأحزاب الشيوعية من النكسة إلى انهيار المنظومة الاشتراكية:

تتقسم هذه المرحلة إلى قسمين؛ تمثلت الأولى في الفترة التي تلت نكسة عام ١٩٦٧م، والمرحلة الثانية، التي ظهرت نتيجة الصحوة الإسلامية التي بدأت مع انتصار الثورة في إيران، وتصاعدت بعد الاجتياح السوفييتي لأفغانستان، واغتيال الرئيس المصري أنور السادات.

المرحلة الأولى: النكسة والمراجعات:

شهدت ستينيات القرن العشرين مدخلاً لمراجعة الذات وإنجازاتها لاسيما عند الأحزاب القومية؛ حيث مالت مجموعات من البعث إلى أيديولوجية اليسار، وتابعهم على هذا المنوال حركة القوميين العرب، فحملت المرحلة نموًا لليسار، جلب معه جملة من الإشكاليات، يمكن أن نصنّفها ضمن خانتي اليسار الجديد واليسار التقليدي:

١- اليسار الجديد:

وهو اليسار الناشئ عن تحوّل بعض القوميين إلى الماركسية، وتميّز هذا التيار بالخصائص التالية:

أ- تحوّل بعض التنظيمات القومية (بعض البعث، حركة القوميين العرب) إلى تبني الماركسية اللينينية، فالمنشقون عن هذه الأحزاب رأوا أنّ الأزمة التي تمرّ بها الأمة، ليست ناشئة عن مؤامرة الإمبريالية فحسب، بل تتحمل مسؤوليتها الأنظمة العربية التقدمية التي أخفقت في تعبئة الجماهير وتنظيمها وإعدادها وقيادتها على درب حرب التحرير الطويلة^(٥).

ب- مال اليسار الجديد إلى الصدام مع الأحزاب الشيوعية التقليدية، واعتبروها غير فاعلة مثلها مثل الأنظمة التقدمية البورجوازية الصغيرة، فبالنسبة لهم: «لقد نفذ الشيوعيون برنامجًا يمينيًا متخلفًا.. إنّ البرنامج الذي خاض الشيوعيون تحت رايته نضالهم

الاستراتيجية للدولة القاعدة، فالحزب الشيوعي العراقي وعلى الرغم من القمع الذي تعرض له على يد عبد الكريم قاسم إلا أنه بقي موالياً له. وفي هذا المجال، كان زكي خيري شديد الوضوح حين قال: «إنّ حجب الاعتراف القانوني عن أقدم وأكثر أحزاب العراق السياسية نذير سوء للديمقراطية.. ومع ذلك فإننا لم نعارض النظام الوطني القائم، بل سندافع عنه حتى النهاية، ونحن ننتقد كل مظهر سلبي في سياساته»^(١).

٧- بالإضافة إلى أماكن انتشار التيار اليساري التقليدي، أخذت تطفو على الوجه أحزاب شيوعية في قلب الجزيرة العربية، وكانت البذور الأولى في النصف الأول من الأربعينيات عبر حزب تودة^(٢)، ولكن الحزب تعرض للملاحقة، وأتتهم بالانقلاب على الشيخ سليمان فتمّ ملاحقة أنصاره، فانكفأ عن الحياة السياسية ليعود للنشاط بعد الثورة الأمريكية على حكومة مصدق في إيران، التي دفعت عددًا كبيرًا من المهاجرين إلى البحرين، الذين أضيفوا إلى الملاحقين العراقيين بعد إعدام فهد في العراق^(٣)؛ حيث نشط هؤلاء بالتبشير للأفكار الماركسية.

وفي ديسمبر عام ١٩٦٢م أعلنت جبهة التحرير الوطنية البحرانية عن برنامجها المعنون «برنامج الحرية والاستقلال الوطني والديمقراطية والسلام»، وجعلت مهمتها الدفاع عن مصالح العمال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية ضد تعسف الشركات وأصحاب الأعمال والسلطات^(٤)، ودعت إلى قيام دولة ديمقراطية متحررة من الجهاز الإداري الإنكليزي.

(١) انظر: حنا بطاطو، العراق، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الكتاب ٢، الصفحة ٢٥٨.

(٢) حسين موسى، البحرين النضال الوطني والديمقراطي ١٩٢٠-١٩٨١م، (قبرص، الحقيقة برس، ١٩٨٧م)، الصفحة ٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ١٥٨.

(٤) روزماري سعيد زحلان، الخليج العربي والمشكلة الفلسطينية، مجلة المستقبل العربي، أبريل ١٩٨١م، العدد ٢٦، بيروت، الصفحة ١٦.

(٥) اللجنة التنفيذية لحركة القوميين العرب، التقرير السياسي لاجتماع اللجنة التنفيذية الموسع في تموز ١٩٦٧م، مجلة الحرية البيروتية، العدد ٢٧٧، ٤ أيلول ١٩٦٧م.

٢- اليسار القديم:

خرجت الأحزاب بعد مغامراتها السياسية والعسكرية منهكة وضعيفة، لذلك أخذنا نرى هذه الأحزاب تلعب أدوارًا جانبية غير فاعلة، يُضاف إلى هذا الأمر خضوع هذه الأحزاب لسياسة الاتحاد السوفييتي، وهذا ما أدى إلى:

أ- تخلي الأحزاب الشيوعية عن دورها، وانخراطها في النظم السياسية المتحالفة مع الاتحاد السوفييتي، وفي هذا المجال ضغطت موسكو عام ١٩٧٣م على الحزب الشيوعي العراقي لأخذ مواقف إيجابية من النظام، فاستجاب للأمر وفرض علاقته بالحزب الديمقراطي الكردستاني وتحالف مع البعث. وفي سوريا انضم الحزب إلى الجبهة الوطنية وشارك في الحياة السياسية من خلالها.

ب- استمرت هذه الأحزاب في الانقسام على نفسها، وفي معظم الأحيان لم تتحكم المبررات السياسية والفكرية في هذا الانقسام، وإنما لعبت المصالح الفئوية والسلطوية الدور الأكبر؛ حيث انشق الحزب الشيوعي، وانضم الحزبان إلى الجبهة الوطنية التقدمية.

ج- تحملت الأحزاب الشيوعية وزر الماضي، فهي عندما وافقت على الاندماج داخل البنية السلطوية -إن مباشرة كما حدث في مصر، أو بالواسطة كما حصل في سوريا والعراق- قضت على إمكانية لعب دور في مجتمعاتها أو جعلته محدودًا، فعندما فتحت السلطة المصرية المنابر، شارك الشيوعيون واليساريون في الحياة السياسية، لكن ضمن أطر محدودة، ومحسوبة من السلطة.

المرحلة الثانية: الصحو الإسلامية:

شهد عام ١٩٧٩م الثورة في إيران تلاها بعد عامين اغتيال السادات على يد عناصر إسلامية، وتالت الأحداث بعد ذلك، وكان الفاعل فيها التيار

الوطني قد انبثق من فهم خاطئ لطبيعة القوى الطبقية، وللدور السياسي والوطني الذي قد تلعبه البورجوازية الكبيرة والإقطاعيون السياسيون في هذه المرحلة. فالستالينية ما زالت مسيطرة على برنامج الحزب الشيوعي^(١)، ووصل الأمر بمنظمة العمل الشيوعي في لبنان إلى حد إنكار شيوعية الحزب الشيوعي اللبناني، واعتبرته غير جدير بهذا الاسم^(٢).

ج- وقفت هذه الأحزاب الجديدة مواقف حادة من البورجوازية العربية، واعتبروا أنّ هذه الطبقة من أصحاب الملايين العرب من تجار وصيارفة وإقطاعيين وملاك كبار وأمراء وشيوخ، يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بالإمبريالية العالمية: «ومعنى هذا أنّ الرجعية العربية [...] لا يمكن أن تكون إلا في جانب مصالحها المتوقف استمرارها على بقاء الإمبريالية، وبالتالي لا يمكن أن تكون في صف الجماهير»^(٣).

د- دعت هذه الأحزاب إلى حرب تحرير شعبية ثورية، تعتمد السياقات التي اعتمدها الثورة الكوبية والفيثامية؛ حيث استطاعت «أنظمة وطنية ثورية ذات تكوين طبقي بروتيتاري وفلاحي فقير، أن تضع طاقات البلاد المادية والثقافية والمعنوية في خدمة معضلات التحرر الوطني والثورة الوطنية الديمقراطية بتصفية كافة الامتيازات الطبقية المادية والمعنوية وبناء القاعدة المادية الصلبة للاستقلال الاقتصادي والسياسي بالتصنيع الثقيل والزراعة الثقيلة الميكنة وكهربة البلاد»^(٤).

و- عملت هذه الأحزاب على إنتاج أحزاب لها خصوصية وطنية، فأنشأت في كل دولة حزبًا خاصًا بها، يقود العملية السياسية.

(١) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حول أزمة حركة المقاومة الفلسطينية، الطبعة ٢، (بيروت، دار الطليعة، ١٩٧٠م)، من الصفحة ١٠٩ إلى الصفحة ١١٠.

(٢) مجلة الحرية، بيروت، العدد ٥٧٤، الصفحتان ٥ و٦.

(٣) الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، استراتيجية تحرير فلسطين، عمان، ١٩٦٩م، الصفحة ١٤.

(٤) طارق إسماعيل، اليسار العربي، ترجمة محمود فلاح، (دمشق، دار قتيبة، لا.ت)، الصفحة ١٩٣.

مع الإسلاميين لاسيما في الجامعات، وهذا الأمر تكرر في مصر؛ حيث استفادت السلطات الحاكمة من التناقض بين هذين الطرفين، فأخذت تدعم طرفاً ضد الآخر بحسب مصالحها السلطوية.

وفي سوريا مال الحزب الشيوعي والحزب الشيوعي الموحد إلى التحالف مع السلطة، وخاصة بعد أحداث عام ١٩٨٠م؛ حيث وجدت هذه الأحزاب نفسها بين خيار السلطة التي تشترك معها في رؤيتها للعلمانية أو الجماعات الإسلامية التي تريد دولة دينية، فأخذت خيارها بالتحالف مع الدولة، خاصة أن هذه الأحزاب بنت تحليلها على التمييز بين الرؤية

الداخلية للسلطة والرؤية الخارجية، فغلبت الثاني بما يحمله في طياته من معاداة للصهيونية والأمبريالية^(٢).

د- انخرط العديد من الشخصيات الثورية اليسارية في الدولة، وظهر هذا الأمر بشكل خاص في البحرين والخليج العربي؛ حيث لم تقم هذه الأحزاب على قاعدة عمالية، إنما نبعت من موقف سياسي يعبر عن هوية مغايرة لهوية السلطة، ويمكن أن تلتحم بها عندما تتعرض مصالحها للتهديد، خاصة أنها أصبحت ميسورة ومكتفية بذاتها وضمن الهيكل العام للدولة.

المحور الخامس: الأحزاب الشيوعية من انهيار المنظومة إلى الربيع العربي:

وجدت الأحزاب الشيوعية نفسها بعد انهيار المنظومة الاشتراكية وحيدة، إذ فقدت قاعدتها الأيديولوجية التي اتكأت عليها منذ التأسيس، ولم تكن بوضعية تسمح لها بإعادة النظر بمقولاتها، فدخلت في سبات

الإسلامي، الذي أخذ يتحوّل لأول مرة منذ سقوط الدولة العثمانية إلى بديل حضاري، يحمل في طياته إمكانية تحرير الأمة من سطوة الاستعمار والتبعية للغرب والشرق، في هذه الأجواء، بدأ التيار اليساري تراجعاً، ويمكننا أن نلاحظ:

أ- بدأت مرحلة من المراجعات للمرحلة السابقة، وانسحاب عدد من المناضلين اليساريين وتحوّلهم إلى سياسيين أصحاب رأي وموقف أو مثقف أو مدافع عن حقوق الإنسان، فالشيوعيون أدركوا عدم قدرتهم على إحداث تغيير في الواقع السياسي، فحاولوا أن يجدوا مكاناً لهم في إطار جديد، وفي هذا المجال

نلاحظ أنّ نور الدين بن خضر، وهو من مؤسسي حركة أفاق (برسبكتيف)، أصبح، بعد تجربة السجن، مفكراً صاحب رأي شخصي، ومن ثمّ سينتقل إلى تأسيس منظمة العفو الدولية في تونس، واستقر بالعمل الثقافي كناشر^(١).

ب- مالت بعض الأحزاب الشيوعية إلى اتجاهات ذات طبيعة قومية، فدخلت في صراعات مع السلطة، فبعد خروج الحزب الشيوعي العراقي من تحالفه مع السلطة انتقل إلى الكفاح المسلح في شمال العراق، وهناك انقسم الحزب إلى حزبين عام ١٩٩٢م؛ أحدهما بقيادة عربية، وآخر بقيادة كردية^(٢).

ج- تحوّلت العديد من القوى اليسارية إلى أدوات بيد السلطات الحاكمة لمواجهة التيار الإسلامي بشكل اختياري، أو بحكم التناقض العقائدي بين هذين الطرفين، وفي هذا المجال تصادم اليسار التونسي

(١) عبد الجليل التميمي، الدور السياسي والثقافي لبرسبكتيف والبرسبكتيفيين في تونس المستقلة، (تونس، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ٢٠٠٨م).

(٢) Michael .M. Gunter , The Kurdish Predicament in Iraq , (London, 1999), pp.67-126.

(٢) وهي فكرة تعزى إلى خالد بكداش قالها قبل ثلاثة عقود، وتشير إلى أنه لو نظر إلى السلطة من منظور الوضع الداخلي لكان في المعارضة، لكنه ينظر إليها من منظور العلاقات الدولية الذي يضعها في خانة الدول المعادية للإمبريالية، ولهذا يستوجب التحالف معها.

لها، ففي عام ١٩٨٩م ظهر حزب العمال الشيوعي الموحد، والذي كان نتاج توحيد حزبيّ العمال الشيوعي والحزب الشيوعي المصري، ولكن السلطة سارعت إلى ضربه عقب الوحدة مباشرة، مما أفقده فاعليته، بالتالي أصبح اليسار ضعيفاً غير قادر على التأثير في الحياة السياسية، ينتج دائماً تنظيمات صغيرة سرعان ما تزول.

٤- وفي تونس وعلى الرغم من إفساح المجال للحياة الحزبية^(١)، إلا أن السلطة كانت تمنع من توسيع القاعدة الجماهيرية لهذه الأحزاب، ولاحقت الأحزاب التي لم تقبل العمل تحت وصايتها كحزب العمال الشيوعي التونسي بقيادة حمة الهمامي، وهذا الأمر أدى إلى ضعف التيارات اليسارية.

وهكذا، يمكن أن نمدد الحكم على جميع الأحزاب الشيوعية واليسارية في العالم العربيّ؛ حيث تراجع دور هذه الأحزاب، ولم يعد لها من صوت إلا في الأوساط النقابية، أو في مؤسسات المجتمع المدنيّ، أو عبر مواقف وآراء شخصية لا تبني سياسات عليا للدول، فكانت كفصيل في الحياة السياسية لا يُلحظ بسبب خفوته، حتى إذا ما تحرك الشارع العربي في ثوراته التي انطلقت من تونس، وجد نفسه أمام استحقاق لا طاقة له على المشاركة فيه بفاعلية، ويعود سبب ذلك إلى:

١- إن هذه الأحزاب لم تكن مهياًة للعب دور مؤثر في الحراك الثوري، فعلى الرغم من أن هذه الثورات حملت تعابير من قاموس اليسار إلا أن اليسار لم يكن فاعلاً في ساحتها بسبب الوجع من نتائجها،

(٢) حزب التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات، وهو عضو في الائتلاف الحاكم اليوم، وحركة التجديد وريث الحزب الشيوعي التي تحولت إلى حركة ديمقراطية ذات أصول شيوعية، والحزب الديمقراطي التقدمي الاشتراكي العلماني.

عميق، وخسرت مواقعها، فلم تعد مؤثرة كتطبيقات سياسية، كما أن هذه الأحزاب قد تعرضت إلى نكسة كبيرة بعد سلسلة من الأحداث منها:

١- انهيار اليمن الجنوبي ودخول الأجنحة المتعددة في صراعات دموية حول السلطة^(١)، أدت إلى هروبا نحو الوحدة مع اليمن الشماليّ، فهذه الوحدة أفقدت اليسار شعاراته، خاصة أن الاتفاق الذي وقّع مع

الشمال جاء مختلاً، ومن دون الرجوع إلى الهيئات الحزبية؛ مما أدى إلى انقسام داخل الحزب الاشتراكيّ. وزاد الأمر تعقيداً تملّص اليمن من نصوص الاتفاقية المجحفة عام ١٩٩٤م وملاحقته للحزب، مما دفع بعض قيادات الاشتراكيّ للمطالبة بالعودة إلى الوضع الذي كان قائماً قبل العام ١٩٩٠م دون العودة إلى هيئات الحزب وقواعده، مما أدى إلى توجيه حملة عسكرية باتجاه

الجنوب، والقضاء على الانفصال، وحدوث انقسام في صفوف الحزب.

٢- هُمّش الشيوعيون واليساريون في لبنان بعد انتهاء الحرب اللبنانية، فعلى الرغم من مشاركتهم إلى جانب القوى الوطنية والإسلامية في لبنان، ولعبهم لدور فاعل في إطار جبهة المقاومة الوطنية، إلا أن الدول الراعية لاتفاق الطائف لم تُدخل الحزب الشيوعي في الحياة السياسية، وحولته إلى حزب هامشيّ يلعب أدواراً مضبوطة في العمل النقابي دون تأثير سياسيّ فاعل.

٣- في مصر، انفضت العناصر الشيوعية عن حزب التجمع، وحاولت أن توجد لنفسها إطاراً جديداً

(١) شهدت اليمن الجنوبي في ١٢ يناير/كانون الثاني ١٩٨٦م صراعاً بين أجنحة الحزب الاشتراكي، فتم تصفية عبد الفتاح إسماعيل وعلي عنتر وعلي شائع وصالح مصلح في مقر اللجنة، ثم تصاعدت بعدها أعمال العنف وأسفرت عن سقوط آلاف من القتلى والجرحى والمفقودين. انظر: علي الصراف، اليمن الجنوبي- الحياة السياسية من الاستعمار إلى الوحدة، (بيروت، دار رياض الريس، ١٩٩٢م).

بنيته، حتى إذا ما اندلعت الأحداث في الشارع مال قسم نحو الاستفادة منها من أجل الضغط على السلطة لكي تقبل الحوار وتقبل تحقيق مرحلة انتقالية نحو الديمقراطية.

ووفق ذلك ظل يركّز على سلمية الثورة، ويرفض الانتقال إلى العمل المسلح. وأصبحت مواقفه تظهر من خلال هيئة التنسيق لقوى التغيير الوطني الديمقراطي دون تمييز أو اختلاف.

بينما اتجه طرف آخر إلى مفاوضة السلطة، ودخل في تفاوض معها، وشارك بعد الانتخابات البرلمانية بالحكومة، هذا وذهب طرف ثالث مؤلف من حزب الشعب الديمقراطي وحزب العمال الثوري نحو الانخراط بالثورة وانضم إلى الائتلاف المعارض في اسطنبول^(٤)، وقد تطرف هذا التيار، وأيد التدخل العسكري الأجنبي في سوريا.

٢- انشداد اليسار إلى اللغة الأيديولوجية بينما السياق العام للحراك الثوري، كان يميل إلى المطالب المباشرة التي تتعلق بنمط العيش، فهذه الثورات وإن استخدمت مفردات من القاموس اليساري إلا أنها أفرغته من محتواه القديم.

٣- انتماء المنتمين للتيارات اليسارية إلى الفئة العمرية المتقدمة بالسن، فالأحزاب الشيوعية واليسارية العربية، لم تجدد دماءها منذ انهيار الاتحاد السوفييتي، فبقيت تعيش على ما ادخرته أثناء مسيرتها السياسية، وتحولت في كثير من الأحيان إلى انتماء وراثي تتناقله العائلات بحكم العادة والاطمئنان.

خاتمة واستخلاصات:

بعد العرض السابق يمكننا أن نصل إلى جملة من الخلاصات تقوّم أداء الأحزاب اليسارية من خلال اختبار قدرتها على التكيف، واستقلالها، وتجانسها:

فالأحزاب اليسارية التونسية خافت من الثورة ونتائجها، فحاولت أن تدخل في تسويات تحفظ لها موقعاً سلطوياً، ولم يخرج عن هذا الأمر إلا شكري بالعيد وحمة الهامي^(١)؛ اللذان عملا من أجل تغيير بنية الدولة، والسير بالثورة إلى أقصى مدى لها، ولكن هذا الأمر لم يصل إلى هدفه؛ بسبب انقسام اليسار على نفسه، وعدم توحيده خلف مشروع سياسي واضح المعالم.

وفي مصر وعلى الرغم من انخراط اليسار في الحراك الثوري، إلا أنه أخفق في تكوين إطار جامع للتيارات اليسارية، فبقي اليسار مشتتاً على أحزاب صغيرة غير فاعلة، وهذه الأحزاب إذا اجتمعت عادت واختلفت لأسباب متعددة، فبعد الاتفاق على إنشاء «التحالف الشعبي الاشتراكي»، خرجت مجموعة منه، وأسست الحزب المصري الديمقراطي الاجتماعي وأصفة التحالف الشعبي أنه أكثر يسارية من المفترض، ورفضت منظمة الاشتراكيين الثوريين الاستمرار في التأسيس رفضاً لحل التنظيم والاندماج، وهكذا بدأ التحالف بالتآكل^(٢).

وفي البحرين شارك اليسار في الحراك الثوري، وأقام له خيماً في فعاليات الاعتصام المقام في دوار اللؤلؤة، وتم افتتاح خيمة خاصة لجمعية العمل الديمقراطي (وعد)، وبقرار تنظيمي، وذلك بهدف خلق التواصل مع قوى الشباب في الميدان، والتنسيق مع الأطراف الفاعلة فيه، ولكن بقي اليسار ضعيفاً بالقياس إلى التيارات الأخرى^(٣).

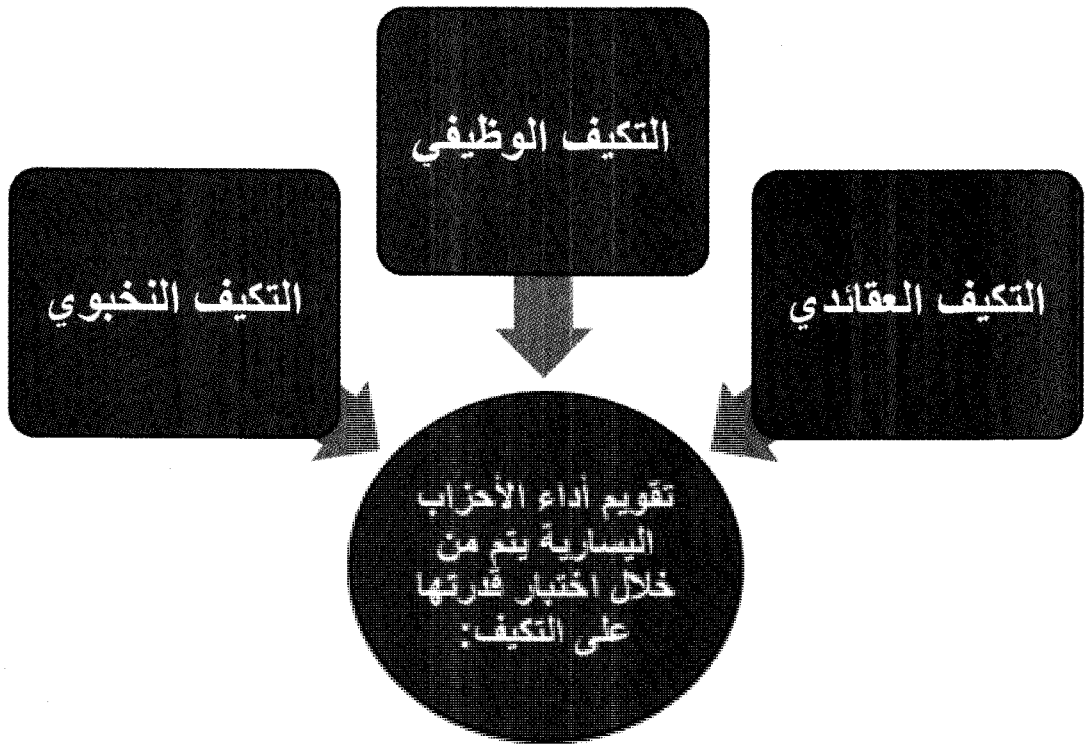
وفي سوريا كان وضع اليسار صعباً قبيل الحراك، نتيجة تشتته، ومشاركة أطراف محسوبة عليه في السلطة، فهو كان يمحور كل نشاطه حول الديمقراطية والحريات بعد مواجهة طويلة مع السلطة أضعفت

(١) سونيا التميمي، مآزق اليسار التونسي، (القاهرة، منتدى البدائل العربي للدراسات، ٢٠١٣م)، الصفحة ٦.

(٢) أيمن عبد المعطي، الثورة المصرية ودور اليسار، (القاهرة، منتدى البدائل العربي للدراسات، ٢٠١٣م)، الصفحة ٦.

(٣) المصدر نفسه، الصفحة ٩.

(٤) انظر الروابط التالية:



أولاً: القدرة على التكيف:

يقصد بذلك قدرة الأحزاب الشيوعية واليسارية في ظل الظروف المتغيرة التي مرت بها، وستقوم بذلك من خلال ثلاثة أبعاد:

١- التكيف العقائدي:

أظهر البحث تحولات في النسق العقائدي للأحزاب الشيوعية العربية، ولكنها لم تكن ذاتية ناتجة عن علاقة جدلية بين العقيدة والواقع، فالبنية العامة للرؤية بقيت جامدة لم تطلها يد التغيير، فهي خضعت لنصوص ماركس ولينين أضيفت إليها رؤية الاتحاد السوفييتي بحسب التحولات التي تحصل في دولة القاعدة الأيديولوجية.

فالأحزاب العربية لم تحاول أن تنتج يساراً ينطلق من خصوصية الذات، ونظرتها إلى العالم، وحتى المحاولات التي جرت بهذا الخصوص لم تكن في المسار العام للحزب، وهي تعرضت للنقض وأتهمت بالتحريفية، وحتى اليسار الجديد لم يستطع أن يجدد في الأطر العقائدية، فاعتبر المشكلة في الأحزاب

الشيوعية واليسارية يتمثل في انحرافها عن أصول العقيدة، فكانت أكثر راديكالية من الأحزاب التقليدية.

٢- التكيف الوظيفي:

لم تستطع الأحزاب والتيارات اليسارية -بحكم تعبيرها عن سياسات دولية ناتجة عن ميلها لمعسكر دون آخر - القيام بتكيف وظيفي، فهذه الأحزاب عندما كانت تصل إلى مرحلة القوة كانت تتصرف بطريقة سلطوية، كما فعل الحزب الشيوعي العراقي عندما مارس العنف ودخل في صراعات عندما تحالف مع عبد الكريم قاسم، كما أنّ الحزب الاشتراكي اليمني عندما وصل إلى الحكم لم يتكيف مع الدور الوظيفي الجديد، فدخل في صراعات متواترة دفعته في نهاية الأمر إلى القيام بوحدة عشوائية وغير مقصودة.

٣- التكيف النخبوي:

يقصد بذلك قدرة الحزب على تجديد نخبه وقيادته، وفي هذا المجال يلاحظ أنّ الأحزاب اليسارية لم تستطع أن توجد هذا الأمر، فقيادتها المؤسسة بقيت على رأس أحزابها حتى وفاتها، فالحزب الشيوعي

والجماعات، فهي على الرغم من نجاحها الجزئي في هذا المجال، إلا أنها ارتكبت أخطاء عبر تعبيرها عن مصلحة محدودة.

فالحزب الشيوعي السوري كان صوت الأكراد والأقلية المسيحية في كثير من الأحيان، والحزب الشيوعي العراقي انقسم على نفسه بعد عام ١٩٨٠م على أسس قومية عربية/ كردية، وقُسمت القيادة بحسب المناطق مما أشعر الأقلية الوافدة من الشمال بالتهميش وعدم الفاعلية، وهذا ما يظهر بوضوح من خلال الموقف من عبد الفتاح إسماعيل.

ثالثاً: تجانس التنظيم الحزبي:

وهو يقوم انطلاقاً من وجود آليات تنظيمية داخل الأحزاب السياسية تحافظ على تجانس التنظيم ووحدته، وهنا نلاحظ أنّ الأحزاب الشيوعية العربية التي لم تشهد ولادة طبيعية وبقي جزء كبير منها يعتمد على السرية، حافظت على تجانسها الداخلي بسبب عدم توسع هذه التنظيمات، ولكنها عندما كانت تتوحد تفقد هذه الميزة، ويصبح كل خلاف في وجهات النظر مورداً لصراع كما حصل في حدتو التي تألفت من إيسكرا والطليبة والحزب الشيوعي المصري، لكنها ما لبثت أن انقسمت على نفسها بسبب الخلاف وعدم الثقة بين أعضائها، وحتى الأحزاب التي أخذت الترخيص من دولها عانت من عدم وجود تجانس فيها نتج عنه انقسامات متعددة.

السوري بقي خاضعاً لسلطة خالد بكداش حتى وفاته، ثم انتقلت القيادة إلى وصلة رحمة بكداش، وبعد ذلك إلى عمار بكداش، والحزب الشيوعي اللبناني حافظ على قيادته منذ الاستقلال إلى أن استلم الأمانة جورج حاوي، واستمر فيها حتى قرر الخروج منها؛ لعدم تلبية الحزب لطموحاته السياسية بعد انفراط عقد المنظومة الاشتراكية، فجميع أعمال التجديد لم تكن ضمن الأطر الحزبية، وهي عادة ما أدت إلى انقسام الأحزاب اليسارية أو دخولها في صراعات دموية كما حصل في الحزب الاشتراكي اليمني.

ثانياً: الاستقلال:

لم تستطع الأحزاب اليسارية والشيوعية التخلص من تابعيتها للحزب الشيوعي السوفييتي، مما دفع هذه الأحزاب للخضوع إلى تابعيات داخلية، كما حصل في العراق عندما فُرض على الحزب الشيوعي العراقي التبعية لعبد الكريم قاسم، والدفاع عنه على الرغم من الاضطهاد الذي تعرض له، والذي تجلى بشكل واضح بمنع الترخيص عنه، كما نلاحظ هذا الأمر في مصر عندما فُرض على حركة حدتو الاندماج بالاتحاد الاشتراكي العربي على الرغم من وجود قياداتها في السجون المصرية.

ولم تستطع الأحزاب الشيوعية واليسارية العربية أن تعزل نفسها عن الطوائف الاجتماعية والجماعات الخاصة، لتتحول إلى أحزاب عابرة للطوائف

معلومات إضافية

الشيوعيون العرب وقضية فلسطين:

تعتبر كارثة فلسطين من أكبر كوارث التاريخ بوجه عام، والتاريخ العربي والإسلامي بوجه خاص؛ لأنها أفضع خطب حلّ بالعرب والمسلمين في تاريخهم الحديث، وأعنف صدمة تلقوها منذ قرون، وهذه الكارثة عميقة الجذور.. بعيدة الآثار.. دائمة الأخطار.

ومع ذلك كان الشيوعيون العرب يرون في الحرب التي كان يخوضها أبناء فلسطين، ومن معهم من شرفاء العرب والمسلمين.. حرباً عنصرية دينية يجب إيقافها حالاً.. وأن الجيوش العربية جيوش عدوانية محتلة يجب تسريحها فوراً، وكل من يتطوع في الحرب لقتال اليهود إنما يخون الحركة التقدمية الإنسانية.

لقد أعطى الشيوعيون العرب في موقفهم من حرب (سنة ١٩٤٨ م) صورة صارخة للخزي والخيانة، وذلك في الحقائق التالية:

١- في كانون الأول سنة ١٩٤٧م، نظّم (الحزب الشيوعي العراقي) مظاهرة حشد فيها كل قواه وطاقاته في الشوارع؛ تأييداً لقرار التقسيم، ومطالباً بإقامة دولة لليهود في فلسطين، وتصدّر المظاهرات شيوعيان: أحدهما عربي اللسان، والآخر يهودي.. رفعا أيديهما متشابكتين عالياً.. كرمز للصداقة والمحبة العربية اليهودية.

٢- في (١٥ أيار سنة ١٩٤٨م) دخلت جيوش الحكومات العربية فلسطين ل تمنع بالقوة تنفيذ جريمة اغتصاب فلسطين، وإقامة دولة يهودية، ومهما قيل في الحكومات العربية التي قادت تلك الحرب آنذاك.. فمما لا شك فيه أن دخول جيوش الحكومات العربية إلى فلسطين كان تعبيراً عن السخط العربي الجارف الذي عمل في نفوس الشعب العربي في كافة أنحاء الوطن العربي، ضد تمزيق فلسطين، وإقامة دولة لليهود فيها. وفي تلك الفترة الحاسمة، وفي هذا الجو الملهب عقد (الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان) اجتماعاً مشتركاً في مدينة بيروت، ثم أصدر بياناً مشتركاً تحت عنوان: (بيان إلى الشعوب العربية)، حدد فيه موقفه من الحرب بقوله:

أ- إنها حرب دينية عنصرية.

ب- إن على الجيوش العربية أن تتسحب من فلسطين فوراً.

٣- وفي هذه الفترة كذلك أصدر الحزب الشيوعي العراقي نشرة داخلية لأعضاء الحزب تحت عنوان: (توجيهات بشأن الحرب الفلسطينية القذرة) جاء فيها:

أ- على الديمقراطي العربي أن يحارب، ويشجب الحرب الفلسطينية القذرة.

ب- على الديمقراطي العربي أن يتعاون مع القوى الديمقراطية في إسرائيل لمنع هذه الحرب. (وقد نشر نصوص هذه الوثائق والنشرات الأستاذ عبد الهادي الفكيكي في كتابه: ثورة ١٤ تموز بين الانقلاب الشيوعي وثورة الموصل).

الحرب الفلسطينية القذرة هذا هو الوصف الذي أطلقه الشيوعيون العراقيون على الكفاح الذي كان يخوضه الشعب الفلسطيني العربي المسلم للحفاظ على وطنه.

ثم هل القوى الديمقراطية في إسرائيل التي يجب على المواطن العربي أن يتعاون معها هي عصابة الأرغون، شتيرن، أو الهاغاناه؟ أم لعله الحزب الشيوعي اليهودي الذي وجد أن أفضل طريقة يدلل بها على ديمقراطيته هي أن يخوض الحرب جنباً إلى جنب مع عصابات اليهود ضد العرب؟

٤- أما الشيوعيون الفلسطينيون رفاق الشيوعيين اليهود القدامى؛ فقد كانوا ينظرون بعين الإكبار إلى إخوانهم الشيوعيين اليهود الذين يقاتلون ببسالة (الجيش العربية المحتلة لوطنهم)، وهكذا بينما قضت الخنادق الواحدة -التي كان الشيوعيون يحاربون فيها جنباً إلى جنب مع كافة اليهود والمنظمات اليهودية الأخرى- على آخر أثر من خرافة التفريق بين اليهودية والصهيونية في فلسطين. وبينما وجد المقاتلون العرب أنه لم يكن هناك فرق بين رصاصة صهيونية ورصاصة يهودية، كان الشيوعيون الفلسطينيون مشغولين بكتابة المنشورات التي تطالب بوقف الحرب ضد اليهود.. وفعلاً قاموا في ١١/٧/١٩٤٨م، أي: بعد يومين من انتهاء الهدنة الأولى واستئناف القتال بتوزيع منشورات على السكان والجنود يهاجمون فيها استمرار القتال، ويطالبون بوقف الحرب حالاً.. والاعتراف لليهود بحق إقامة دولة في فلسطين، وفيما كانت الصحف العربية تضج بأخبار القتال الدائر.. ظهرت صحيفة (الاتحاد) لسان حال (عصبة التحرر الوطني) تقول:

(إننا ندعو إلى مفاوضات مباشرة مع حكومة إسرائيل والحكومات العربية، ولكن على أي أساس؟ على أساس سحب الجيوش وتسريحها.. إننا ندعو إلى مفاوضات مباشرة تستهدف إنقاذ عرب فلسطين من الاحتلال الأجنبي).

ملاحظة: أليس هذا ما حصل في أواسلوا؟ وتحدد الصحيفة ما تقصده بالاحتلال الأجنبي فتقول: (إن احتلال جيوش الحكومات العربية الممثلة للاستعمار هو احتلال أيضاً!!)، ونشرت هذه المقتطفات في صحيفة الاتحاد. الصحيفة الرسمية للحزب الشيوعي الفلسطيني (عصبة التحرر الوطني) في العدد الصادر بتاريخ ٢٢/١١/١٩٤٨م.

الحزب الشيوعي الفلسطيني:

هو أول حزب شيوعي تأسس في المنطقة عام (١٩١٩م)، وكان جميع عناصره من اليهود الروس الذين حملوا بذور الفكرة الأولى إلى فلسطين. وفي عام ١٩٢٤م تأسس الحزب الشيوعي في لبنان؛ حيث ساهمت بعض العناصر اليهودية الوافدة من فلسطين في إنشائه، وهي التي أوكلت إليه مهمة نشر الفكرة الشيوعية، والإشراف على تنظيم خلاياها في منطقة الشرق الأوسط.

وفي نهاية عام ١٩٢٥م كانون الأول (ديسمبر) انعقد المؤتمر الوطني الأول للحزب الشيوعي، وانتُخب لجنته المركزية من سبعة أعضاء، وظل تيبير اليهودي الروسي محتفظاً بأمانة الحزب العامة، وكان يعرف عادة باسم شامي؛ حيث درج معظم الأعضاء القياديين في الحركات الشيوعية على

استعارة أسماء أخرى، وهو تقليد يهودي، وقد ظل الصراع محتدماً في الحزب منذ عام ١٩٢٨م حتى عام ١٩٣٢م، حين تمكن خالد بكداش من أن يبلغ مركز زعامة الحزب بترشيح جاكوب تيبير المبعد إلى فلسطين وتزكيته، وتقدم معه وجوه ثلاثة جديدة، هم: نقولا شاوي، وفرج الله الحلو، ورفيق رضا الذي قُدِّر له أن يلعب بعد ثلاثين عاماً دوراً كبيراً في فضح أسرار الحزب واتصالاته.

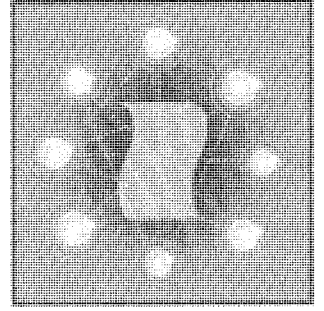
المصادر:

١- مقال/ د. سامي عطا الجيتاوي، متاح على موقع صيد الفوائد على الرابط التالي:

<http://www.saaaid.net/mktarat/flasteen/263.htm>

٢- مجلة البيان، العدد ٩٢ صفحة ٨٩.

ظهور الحركات النسوية في العالم العربي.. ومشروع تحرير المرأة



الهيثم زعفان

رئيس مركز الاستقامة للدراسات الاستراتيجية

ملخص الدراسة

إن المتأمل لواقع العالم الإسلامي لا يمكنه إنكار التغيرات التي حدثت لعدد غير قليل من نساء المسلمين، سواء على مستوى المظهر والملبس، أو على مستوى الأفكار والمكونات العقديّة والقيميّة المشكّلة لعقول بعضهن.

وقد تم ذلك عبر شخصيات تم تغريبها، ومؤسسات وجمعيات نسوية تم زرعها في بلدان العالم الإسلامي، وأموال محرّكة تم توفيرها تدور حول هدف رئيس هو تغريب المرأة المسلمة وتحريرها بنظرهم من أية ضوابط عقديّة أو قيميّة.

لقد شهد العالم العربي والإسلامي نشاطاً بارزاً في مقام تغريب المرأة المسلمة، فكان للبعثات الأجنبية الدور الأول في وضع لبّات التغريب في العالم العربي والإسلامي.

وقد أخذت نشيطات الحركة النسوية ودعاة الأفكار التحريرية بعد ذلك في تأسيس الاتحادات النسائية المروّجة لتلك الأفكار مثل الاتحاد النسائي الذي أسسته هدى شعراوي، وانتشرت كذلك الصحافة النسائية.

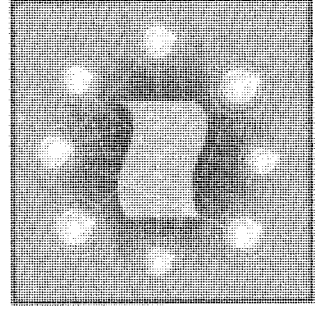
وقد أثمرت الأفكار النسوية التحريرية التغريبية ثمرات فاسدة كثيرة في المجتمعات الإسلامية؛ حيث انتشر السفور والاختلاط، واندثرت كثير من معالم مصطلح الخلوة والأجنبي، وماتت الفيرة لدى الكثير من رجال الأمة، وتم رفع سن الزواج وتجرّيم الزواج المبكر، ونشر ثقافة الطلاق في المجتمعات الإسلامية بديلاً عن المصالحة.

واستطاع أصحاب هذه الأفكار التحريرية النسوية السيطرة على لجنة المرأة بالأمم المتحدة، وهي اللجنة الراعية لكافة أنشطة الحركة النسوية العولمية، فصرن بذلك المتحكّمات في المؤتمرات العالمية.

وقامت بالضغط المتتابع على نظم البلدان العربية والإسلامية؛ كي تمكّن المرأة من اقتحام سلك القضاء، وتمكّنها سياسياً لكي تصل المرأة إلى مراكز صنع القرار.

وفي ظل ثورات الربيع العربي، وبسقوط الأنظمة البائدة في بلدان ثورات الربيع العربي، فقدت الحركة النسوية سيطرتها على كثير من مواضع صنع القرار الرئيسية، والتي كان من أهمها موقع حرم رئيس الجمهورية، فكنا نرى تمكين النساء - وخاصة من أهل الثقة لدى «السيدة الأولى» وعصبتها - في مناصب استراتيجية بالنسبة للحركة النسوية، وبخاصة في الإعلام، التعليم، التشريعات، السياسات التخطيطية، وتحديد النسل، وجاءت الثورات العربية لتغير من هذا الواقع الضارب في عمق التاريخ لأكثر من خمسين سنة.

ظهور الحركات النسوية في العالم العربي.. ومشروع تحرير المرأة



الهيثم زعفان

رئيس مركز الاستقامة للدراسات الاستراتيجية

مقدمة:

إن المتأمل لواقع العالم الإسلامي لا يمكنه إنكار حجم التغيرات التي حدثت لعدد غير قليل من نساء المسلمين، سواء على مستوى المظهر والملبس أو على مستوى السلوكيات، أو حتى على مستوى الأفكار والمكونات العقدية والقيمية المشكّلة لعقول بعضهن والموجّهة لمسار حياتهن العملية والاجتماعية بصفة خاصة.

أرقام وإحصائيات مرعبة تعكس واقعًا مؤلمًا وشديد البعد عن المنهج الإسلامي، على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع. تغيرات لها مسبباتها المتعددة؛ فالاحتلال الأجنبي، ثم الحكم العلماني لهما الدور الأبرز في تكريسها، البعثات والتغريب لعبا دورًا مهمًا في تعميقها، والحركات النسوية والتحركات الأممية عملا على تثبيت أركانها، وتوسيع درجات تغريبها وانحلالها وسلخ المرأة المسلمة عن دينها وقيمتها.

وقد كان لسقوط دولة الخلافة الإسلامية -«الدولة العثمانية» على إثر الحرب العالمية الأولى- الدور الأبرز في ضعف مدافعة إفرازات الحركة النسوية التغريبية في العالم الإسلامي؛ فنتائج الحرب العالمية الأولى لم تقف عند الحدود العسكرية أو الجغرافية أو السياسية أو الاقتصادية، بل امتد انعكاسها على العالم الإسلامي ليشمل الحدود الاجتماعية والدينية؛ حيث وجدت الحركات النسوية التغريبية المناخ المجتمعي والسياسي الملائم لترجمة أفكارها التغريبية، وبخاصة المخالفة للشريعة الإسلامية، في صورة تطبيقات عملية وجدت لها الدعم السياسي والتمكيني من الساسة الجدد ورثة التركة العثمانية، بدءًا من تركيا عاصمة الخلافة العثمانية، مرورًا بمصر بلد الأزهر الشريف، انتهاءً بباقي الدول الإسلامية التي كانت تشملها مظلة دولة الخلافة العثمانية المنكسرة في الحرب العالمية الأولى.

مائة عام أو يزيد من أنشطة الحركات النسوية في العالم الإسلامي عبر شخصيات تم تغريبها، ومؤسسات وجمعيات نسوية تم زرعها في بلدان العالم الإسلامي، وأموال محرّكة تم توفيرها، ضغوط على الحكومات وصناع القرار تم توظيفها وترجمتها في صورة تشريعات وتعيينات ومناهج تعليم، جميعها تدور وتدندن حول ذات الهدف الرئيس، وهو «تغريب المرأة المسلمة، وتحريرها بنظرهم من أية ضوابط عقدية أو قيمية تضبط مسارها، وتحول بينها وبين إشباع رغباتها واحتياجاتها دون ضوابط أو مراقبة».

وسائل إعلام أنشئت خصيصًا للعب الدور الأهم في سلخ المرأة المسلمة من قيمها وعقيدتها عبر جملة من البرامج والمسلسلات والأفلام التي ضربت مصطلحات من قبيل الخلوة والأجنبي والمحرم في العمق، فزئنت للمرأة الضعيفة والمغيبية فعل كل شيء تبغاه تحت مسمى الحرية، ودون الالتفات إلى قيم الإسلام وضوابطه الشرعية.

الصناعية، وما أعقبها من حروب دولية خلقت ضحايا بملايين الرجال، مما فرض على المرأة الغربية الخروج لميدان العمل لتدبير احتياجاتها الاقتصادية والأسرية.

وفي ظل العداء التاريخي مع الكنيسة، واتخاذ العلمانية منهجاً للحياة في الغرب، وغياب القيم التربوية الدينية، فقد صاحب خروج المرأة الغربية للعمل كثير من التدايعات غير الأخلاقية، فمناخ الاختلاط بين الجنسين وفقدان الزوج في الحروب جعل مفهوم الحرية لدى المرأة يأخذ منحى انحرافياً تطورت أدواته بمرور الزمن، واتسعت رقعته لتشمل منظومة الأسرة الغربية المستقرة في ذلك الوقت؛

وكما تقول «فاليري ساندرز»: «فقد تولد لديهم

إحساس بالاستياء المعاصر من

حياة البيت التقليدية في ظل

الزواج والأمومة، الأمر الذي

ظهرت معه فكرة المرأة الجديدة

والمنحدرة من فكرة فتاة العصر

المتمردة التي ابتدعتها «ليزا لين

لينتون» في عام 1868م⁽¹⁾.

وقد أخذت تلك الأفكار في

البلورة العالمية، واستقطبت أجيالاً

من النساء في الغرب اعتنقنها وبشّرن بها، ونُقلت

للشرق الإسلامي عن طريق المبتعثين، المستشرقين،

والمستعمرين بحُلّتها التحررية كاملة، وكانت البداية

من مصر ثم انتشرت في أرجاء البلاد العربية

والإسلامية.

المرأة المسلمة بين واقع أليم وتغريب مهين:

لا شك أن واقع المرأة المسلمة في هذا التوقيت كان

فيه بعض الظلم المجتمعي المرتبط بالأوضاع السياسية

والاجتماعية للبلدان الإسلامية في هذه الأثناء، من

(1) فاليري ساندرز: الموجة النسوية الأولى: أبحاث كتاب النسوية وما بعد النسوية، تحرير سارة جامبل، ترجمة: أحمد الشامي، المشروع القومي لترجمة - المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

في العقود الأربعة المنصرمة بدأت قضية المرأة تأخذ بُعداً أكثر عمقاً بسعي الحركات النسوية إلى عولمة النموذج النسوي الغربي على مستوى العالم، فكانت ابتداءً المؤتمرات الدولية للاتفاق على وثيقة دولية موحدة تجمع النموذج النسوي الغربي المراد تعميمه بين دفتيها، ثم كانت اللعبة الأممية باستثمار «الأمم المتحدة» في جعل الإطار النسوي المتحرر من كافة الاعتبارات العقيدية والشرعية وحتى القيمية ملزماً لكافة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة. لتعمل المؤسسات النسوية محلياً والمدعومة مالياً وسياسياً بالتوازي مع الضغوطات الدولية.

لتأتي الثورات العربية في لحظة باغثة فتربك

الحسابات النسوية، وتتهي أساطير

داعمة مثل أسطورة السيدة الأولى.

في هذا الإطار التاريخي للحركة

النسوية في العالم العربي وما يحويه

من أهداف وآليات وتحولات سعت

عبر مائة عام أو يزيد إلى «تغريب

المرأة» كأحد أهم مكونات الصراع

القيمي بين الغرب والإسلام، في

هذا الإطار تدور الدراسة الراهنة

الساعية عبر المنهج الوصفي التحليلي إلى استقراء

واقع الحركة النسوية في العالم العربي من حيث

النشأة والتكوين، مروراً بالأهداف والآليات والأدوات،

انتهاءً بالآثار والمستقبل.

مشروع تحرير المرأة .. النشأة والمنطلقات:

لعبت الثورة الفرنسية دورها الأبرز في وضع بذور

الأفكار التحررية للمرأة الغربية، والتي ركزت في

نشأتها على مساواة المرأة بالرجل في كافة القطاعات،

واستقلالها عنه في تصرفاتها وبخاصة فيما يتعلق

بالاستقلال المالي.

وقد ساهم في تعزيز فكرة الاستقلال المالي؛ الثورة

المتغربة التي شكّلت حلقة وصل ثلاثية ما بين الاحتلال البريطاني، والأسرة الحاكمة في دولة الخلافة، ودعاة التغريب في مصر والعالم العربي- الدور الأبرز في فتح الثغرات لهذه الأفكار التحررية الغربية داخل المجتمع المصري، وعقول متعلميه ومتقفيه. لتنتشر بعد ذلك الكتابات النسوية الصادمة لقيم المجتمعات العربية والإسلامية، وبخاصة كتاب مرقص فهمي (المرأة في الشرق)، وكتابا قاسم أمين (تحرير المرأة، والمرأة الجديدة)، والتي دارت في معظمها حول مطالبات بقضايا صادمة لقيم المجتمعات الإسلامية تمثلت أبرزها فيما يلي:

(السفور وخلع الحجاب- الاختلاط بين الجنسين في كل القطاعات- تحرر المرأة من ملابسها في المصايف- منع تعدد الزوجات- رفع سن الزواج- إباحة زواج المسلمة من النصراني- سفر المرأة داخلياً وخارجياً بدون محرم- ارتياد المرأة لقطاعات التمثيل والفناء بالسينما والمسرح- والسعي لتقليد المرأة الغربية في تحررها من القيود المجتمعية حتى لو كانت شرعية). وغيرها من القضايا الصادمة التي أخذت في البلورة العملية بصورة شديدة السرعة.

التطبيقات العملية للأفكار التحررية في دول الخلافة الإسلامية:

أخذت الأفكار التحررية التغريبية المتعلقة بالمرأة في البلورة العملية بصورة شديدة السرعة داخل المجتمعات العربية والإسلامية؛ فنزعت زوجات من عُرفن بالزعماء والوجهاء حجابهن؛ حيث دعا «سعد زغلول» النساء اللاتي يحضرن خطبه، أن يُزحَن النقاب عن وجوههن «فهو الذي نزع الحجاب عن وجه نور الهدى محمد سلطان، والتي اشتهرت باسم هدى شعراوي، وذلك عند استقبال حشد كبير من النساء له في الإسكندرية بعد عودته من المنفى، ثم أُلقت بحجابها في مياه البحر»^(١)، ويمجد أدعياء التحرر

ضعف لتعليم المرأة وما أعقب ذلك من جهل بكثير من العلوم، وبخاصة تعاليم الشريعة الإسلامية، وما يتعلق بها من تكاليف شرعية، وضوابط عقديّة خاصة فيما يرتبط بالسحر، والاستغاثة بالأضرحة، والتعامل الجاهل مع المرض، أيضاً ظلّمها أحياناً في قضايا المواريث.

لكن ذلك لم يكن أبداً ليوافقه بسلخ المرأة كلية عن دينها وحياتها بذريعة الحفاظ على حقوقها؛ لأنه على الرغم من هذا الواقع الأليم فإن المرأة في هذا التوقيت كانت شديدة التمسك بما يصل إلى علمها من صحيح الدين، وما ورثته عن آبائها ومجتمعها من الحفاظ على عفتها وحياتها في اللبس والسلوك، والتزامها بضوابط الخروج من المنزل والاختلاط بالرجال.

ومن ثمّ كان يمكن لدعوات معالجة القضايا المهدر فيها حق المرأة المسلمة أن تكون وفق الضوابط الشرعية المنظمة لحياة المرأة المسلمة، دون الإخلال بالمنظومة القيمية للمجتمعات الإسلامية آنذاك.

بدايات التغريب وطرح الأفكار التحررية:

هذا وقد شهد العالم العربي والإسلامي نشاطاً بارزاً في مقام تغريب المرأة المسلمة، فكان للبعثات الأجنبية الدور الأول في وضع لبنات التغريب في العالم العربي والإسلامي، وغير خفي أنهار الطهطاوي وغيره من المبتعثين بانحلال وتحرر المرأة الفرنسية من أية قيود تضبط مسارها، وأمنيته أن يرى بنات قومه مثلهن.

ثم جاءت الصالونات الثقافية المدعومة من الاحتلال البريطاني ليتجمع فيها دعاة التغريب من المبتعثين وغيرهم من المنبهرين بالحضارة الغربية، لينظروا كيف يمكن لهم نقل كافة مكونات هذه الحضارة الغربية إلى الشرق المسلم، قافزين فوق أية اعتبارات عقديّة أو شرعية تضبط مسار هذه المكونات الغربية، أو تصطدم معها في أحيان كثيرة.

فكان لصالون الأميرة نازلي فاضل- تلك المرأة

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: إشراف وتخطيط ومراجعة د. مانع بن حماد الجهني، ج ١، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط٤، ١٤٢٠هـ، ص٤٥٢ - ٤٥٧.

وانتشرت كذلك الصحافة النسائية المروّجة للأفكار التحريرية مثل (الفتاة، مجلة السيدات، مجلة فتاة الشرق، مجلة ترقية المرأة، مجلة الجنس اللطيف، وغيرها).

وكرّثت فيها المقالات الهوائية والانحلالية المتحررة من أية ضوابط شرعية تضبط مسارها الفكري والعملية.

وتحددت أهم أهداف هذه الصحف والمجلات النسائية فيما يلي:^(٤)

١- إمداد المرأة الشرقية بالوسائل الأدبية كي تكون في يوم ما في مستوى واحد مع المرأة الغربية.

٢- تهيئها حالة الوسط الناشئة فيه، ومركزها بالنسبة للرجل.

٣- السعي لتحرير المرأة المصرية من قيود العادات والتقاليد الضارة بنظرهم.

٤- السعي لنشر السفور «المحتشم» وتعضيده.

٥- السعي لتقرير تمتع المرأة باستقلالها الشخصي وحريتها كالرجل.

٦- السعي لاستصدار قانون بتعديل شروط الزواج والطلاق، ثم قانون آخر لمنع تعدد الزوجات.

٧- السعي لإشراك المرأة في جميع المجتمعات والحفلات العامة الرسمية وغير الرسمية.

ثمرات الأفكار النسوية التحريرية التغريبية:

على الرغم من تعلم المرأة المسلمة في هذه الأثناء لبعض العلوم النافعة، وعملها في بعض القطاعات طيبة المطعم -وهو أمر معقد لا يمكن أن ينسب الفضل فيه كلية للحركة النسوية كما يدعون- إلا أنه قد كان للجهود التحريرية التغريبية ثمرات فاسدة

(٤) إجلال خليفة: الحركة النسائية الحديثة، سلسلة العلوم الاجتماعية، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

في العالم الإسلامي هذه الحادثة، ويعتبرونها «إيداناً بدخول المرأة عصر النور».^(١)

وخرج علينا «كمال أتاتورك» بعد إعلانه سقوط الخلافة الإسلامية ليحجر نساء أنقرة على نبد الحجاب، وخرجت زوجته سافرة ترتدي مثل ثياب الرجال، وتحرض نساء أنقرة على المطالبة بمساواتهن بالجنس الآخر.

كما أمرت حكومة «كمال أتاتورك» بإزالة الحواجز الفاصلة بين مقاعد الرجال والنساء في الترامات والسفن، وسائر المراكب فأزيلت!! ثم جاء مشروعه النهائي عن تعدد الأزواج، وقد أحله الله في كتابه (مثنى وثلاث ورباع)!! ومشروعه النهائي عن الزواج لأقل من سبع عشرة أو ثماني عشرة حتى اقتضت الحكومة المصرية أثر هذه السنة السيئة.^(٢)

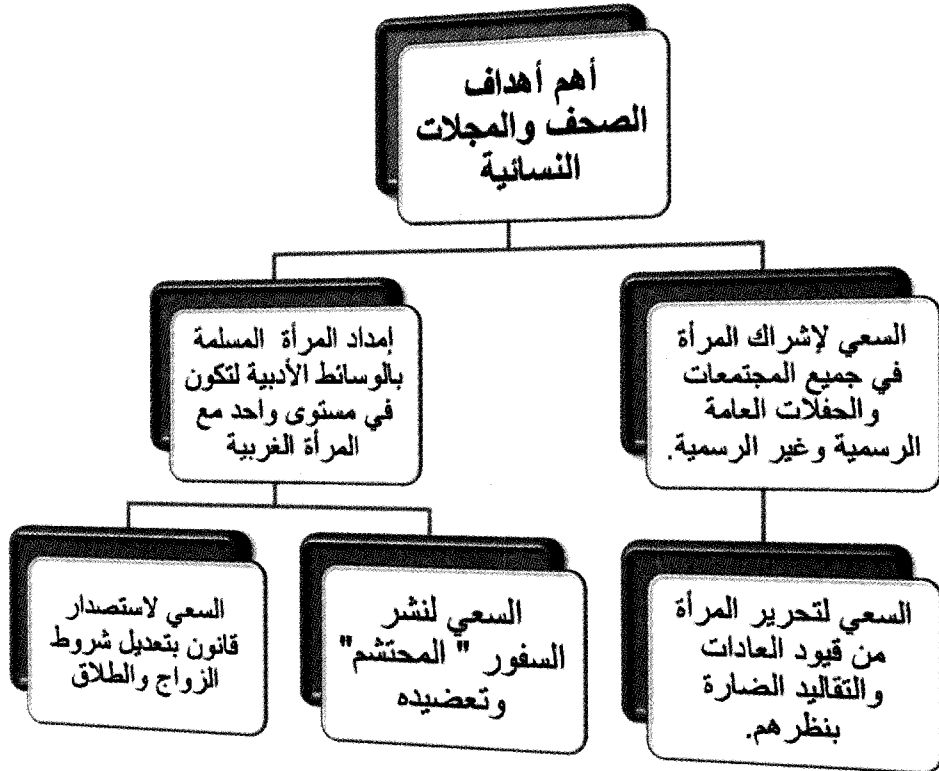
أدوات نشيطات الحركة النسوية:

أخذت نشيطات الحركة النسوية ودعاة الأفكار التحريرية بعد ذلك في تأسيس الاتحادات النسائية المروّجة لتلك الأفكار مثل (الاتحاد النسائي الذي أسسته هدى شعراوي، واتحاد بنت النيل لمؤسسته درية شفيق، وغيرها من المؤسسات النسوية)، وسعين عبر القوافل والأنشطة المجتمعية في نشر قضاياهن التحريرية -الهادفة إلى تغريب المرأة المسلمة- في ربوع مدن وقرى المجتمعات الإسلامية.^(٣)

(١) مقدمة مترجم كتاب النساء في الفكر السياسي الغربي: سوزان مولر أوكين: النساء في الفكر السياسي الغربي، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، بالتعاون مع المشروع القومي للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، مشروع القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٥.

(٢) الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية- دراسة حول كتاب النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة الأمة، للدكتور مصطفى حلمي - دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان -الطبعة الأولى ٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ.

(٣) لمزيد من التفاصيل حول هذا التطور التاريخي يمكن مراجعة (مصطفى صبري، قولي في المرأة، دار ابن حزم)، (محمد إسماعيل المقدم، عودة الحجاب، دار طيبة للنشر).



عشر وبدايات القرن العشرين هو بمثابة الموجة الأولى للأفكار التحررية النسوية في العالم العربي والإسلامي، فإنه وبمرور العقود التحررية للمرأة في الغرب والشرق ظهرت الموجة الثانية للأفكار التحررية النسوية، وذلك حينما أعاد الغرب مرة أخرى صياغة مصطلح تحرير المرأة، ليُصاغ بمضامين أكثر تحررية عن بداياته.

دائرة تحررية تجعل المرأة متحررة من أية ضوابط شرعية أو مجتمعية تضبط هواها ورغباتها وبصفة خاصة فيما يتعلق بكل من «الدين»، و«الاحتياجات الجسدية للمرأة». ففي فبراير ١٩٧٠م انعقد أول مؤتمر وطني لتحرير المرأة في كلية راسكن بأكسفورد وحضره أكثر من ٥٠٠ مشارك، وشدد هذا المؤتمر على الحرية في استخدام وسائل منع الحمل، واللجوء إلى الإجهاض حسب الطلب. بالإضافة إلى مطلب ذاع صيته وتوسع مداه امتد إلى دائرة الدعوة إلى

كثيرة في المجتمعات الإسلامية، وكان هناك الكثير والكثير من المفاصد المصاحبة لدعوات تحرير المرأة؛ حيث انتشر السفور والاختلاط، واندثرت كثير من معالم مصطلح الخلوة والأجنبي، وماتت الغيرة لدى الكثير من رجال الأمة، ودخلت المرأة قطاع السينما والمسرح والمراقص، وما صاحبه من مفاصد انعكست على الواقع المجتمعي والأخلاقي بين الرجال والنساء والشباب والفتيات.

واختل ميزان المساواة الشرعية بين الرجل والمرأة، فعدلت القوانين التي تضبط إيقاع الأسرة، فجُرم الحلال وزُيّنت الشهوات، فاهتزت قوامه الرجل، واعوجَّ على أثرها البنيان الأسري لكثير من الأسر المسلمة.

الحركة النسوية الحديثة وإعادة صياغة أفكارها:

إذا اعتبرنا أن ما حدث في نهايات القرن التاسع

تقنين الشذوذ، وخاصة المثلية الأنثوية منه.^(١)

الإشكالية هنا تكمن في أن أصحاب هذا الاتجاه الجديد نجحوا في السيطرة على لجنة المرأة بالأمم المتحدة، وهي اللجنة الراعية لكافة أنشطة الحركة النسوية العولمية، فصرن بذلك المتحكّمات في المؤتمرات العالمية التي أحدثت جدلاً عالمياً واسعاً بأفكارها وأطروحاتها التحررية، مثل مؤتمر القاهرة للسكان ومؤتمر بكين. وصارت حكومات الدول المؤيدة لتلك المؤتمرات مطالبة بتطبيق مقرراتها في بلدانها.

وفي ذلك تقول البروفيسورة «كاثرين بالم فورث»: «إن لجنة المرأة في الأمم المتحدة شكلتها امرأة اسكندنافية كانت تؤمن بالزواج المفتوح، ورفض الأسرة، وكانت تعتبر الزواج قيئاً، وأن الحرية الشخصية لا بد أن تكون مطلقة، وأن المواثيق والاتفاقيات الدولية التي تخص المرأة والأسرة والسكان تُصاغ الآن في وكالات ولجان تسيطر عليها فئات ثلاث (الأنثوية المتطرفة)، و(أعداء الإنجاب والسكان)، و(الشاذين والشاذات جنسياً)».^(٢)

عولمة الأفكار التحررية للحركات النسوية:

تم تضمين محتويات أفكار تحرير المرأة في ثوبها الانحلالي الجديد في بنود ومقررات الاتفاقيات والمؤتمرات الدولية الصادرة عن الأمم المتحدة، ويأتي على رأس تلك المقررات اتفاقية القضاء على جميع

(١) سوثيرنام: الموجة النسوية الثانية، أبحاث كتاب النسوية وما بعد النسوية، تحرير سارة جاميل، ترجمة: أحمد الشامي، المشروع القومي للترجمة - المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

(٢) كاثرين بالم فورث: ندوة حول اتفاقية سيداو؛ ٤ يناير ٢٠٠٠م، على هامش مؤتمر المرأة والعولمة الذي عقد بالخرطوم، في: مُثْنِي أمين الكردستاني: حركات تحرير المرأة من المساواة إلى الجندر دراسة إسلامية نقدية، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٢٩٢.

أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو)، والتي تعمل على إلغاء كافة الفوارق -حتى البيولوجية منها- بين الجنسين، وما يترتب عليها من أدوار داخل الأسرة، وكذلك وثيقة المؤتمر الرابع للمرأة والذي عُقد في العاصمة الصينية بكين العام ١٩٩٥م، والذي يعد المرجعية الرئيسية الآن في معظم ما يتعلق بتحرير المرأة. ويعقد له كل خمس سنوات في نيويورك مؤتمر تقيمي يعرف بـ (بكين+٥، بكين+١٠، بكين+١٥).

وهذه المقررات التحررية تشمل جميع ما يرتبط

بالمرأة، ولكن ما لفت نظرنا في هذه المقررات التحررية المطلوب عولمتها جزئيتان شديدتا الخطورة، هما:

١- التحرر من الدين:

فقد نصت المادة الثانية عشرة من «إعلان منهاج العمل» الصادر عن مؤتمر بكين؛ على «تمكين المرأة والنهوض بها، بما في ذلك الحق في حرية الفكر والضمير والدين والمعتقد على نحو يساهم في تلبية الاحتياجات المعنوية، والأخلاقية والروحية، والفكرية للنساء والرجال، فرادى أو بالاشتراك مع غيرهم، وبذلك تكفل لهم إمكانية إطلاق كامل طاقاتهم في المجتمع برسم مجرى حياتهم وفقاً لتطلعاتهم أنفسهم».^(٣)

فالمسألة العقدية عند المرأة كما يقرها المؤتمر هوائية، ورسم مجرى الحياة على المستوى العقدي يكون وفقاً لتطلعات المرأة نفسها، فلا سلطان ولا رقيب ولا ضابط لاختياراتها العقدية، فهي حرة فيما تعتقده أو ما تريد أن تعتقده، كما أن لها كامل الحرية في تبديل عقيدتها كلما أرادت ذلك. ولا مجال للتذرع بأية ضوابط عقدية، بل إن الأمم المتحدة تتادي عبر

(٣) وثيقة المؤتمر العالمي الرابع للمرأة ببكين: مجموعة وثائق الأمم المتحدة المعنية بالمرأة، الأمم المتحدة، نيويورك، ١٩٩٥م.

التغيير في البنية الاجتماعية والأسرية للمجتمعات العربية والإسلامية، لتتوافق مع الأطروحات الأممية فيما يتعلق بتحرير المرأة وتغريبها.

كما أن هذه المؤسسات أسند إليها مهمة مراقبة الحكومات العربية والضغط عليها من أجل تعديل السياسات والتشريعات كي تصب جميعها في مصلحة تحرير المرأة كما تريد لها الأمم المتحدة أن تتحرر.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أسند لتلك المنظمات والنشيطات القائمات عليها مهمة رفع تقارير دورية للأمم المتحدة تبرز فيها مجهوداتها المجتمعية، وملاحظاتها على أداء الحكومات ومدى تفاعلها مع الطرح النسوي الغربي وتفعيله في مجتمعاتها العربية والإسلامية.^(٢)

بعض الثمرات الفاسدة للأطروحات النسوية في العالم الإسلامي:

١- رفع سن الزواج وتجريم الزواج المبكر:

من أكثر النقاط التي دندنت عليها أجنحة تحرير المرأة هي: محاربة الزواج المبكر؛ باعتباره في نظرهم يمثل عنفاً ضد الفتيات، ومن ثم فقد صدر في العديد من الدول العربية والإسلامية قوانين تمنع توثيق عقد الزواج لمن لم تبلغ سن الثامنة عشرة، مع تجريم كل من يزوّج الفتاة تحت هذه السن بالسجن لسنوات.

ويأتي هذا التضييق على المنفذ الشرعي الحلال ليتوافق مع المادة ٢٧٤ من وثيقة مؤتمر بكين، والتي نصت على «ضرورة سنّ القوانين المتعلقة بالحد القانوني الأدنى لسن الرشد، والحد الأدنى لسن الزواج، وإنفاذ تلك القوانين بصرامة، ورفع الحد الأدنى لسن الزواج عند الاقتضاء».

المادة (١٢٤) من وثيقة بكين الجزئية /أ، والتي تقول: «إدانة العنف ضد المرأة، والامتناع عن التذرع بأي عرف أو تقليد أو اعتبار ديني؛ تجنباً للوفاء بالتزاماتها للقضاء عليه كما هي مبينة في إعلان القضاء على العنف ضد المرأة».

٢- التحرر الجسدي:

الحديث عن الحرية الجنسية، وجعلها متلازمة أصلية لتحرير المرأة جاء واضحاً وجلياً في المادة (٩٦) من منهاج عمل بكين، والتي تنص على أن «للمرأة حقها في أن تتحكم وأن تبت بحرية ومسئولية في المسائل المتصلة بحياتها الجنسية دون إكراه أو تمييز أو عنف».

فالمرأة تُشبع رغباتها بأية صورة كانت، وفي أي وقت شاءت، دون ضبط أو رقابة أو حساب، وهذا من شأنه إحداث فوضى أخلاقية داخل المجتمع تتخلخل فيه الهوية الإسلامية للمرأة.^(١)

آليات انتشار الأطروحات النسوية التحريرية:

أخذت الدعوات النسوية التحريرية في الانتشار في المجتمعات العربية والإسلامية من خلال عدة آليات؛ كان أهمها المؤسسات والمنظمات النسوية في العالم العربي، وشهدت المجتمعات العربية نشاطاً مكثفاً من قبل نشيطات الحركة النسوية المدعومات من مؤسسات التمويل الدولية، وذلك من أجل تطبيق مقررات الأمم المتحدة المتعلقة بالمرأة في المجتمعات العربية.

وهذه المنظمات عملت بكامل طاقتها داخل المجتمعات العربية والإسلامية ودعمتها مؤسسات التمويل الدولية بكل متطلباتها، وأخذت في الانتشار المجتمعي على عدة مستويات ووفق مجموعة استراتيجيات محددة؛ تسعى جميعها إلى إحداث

(٢) للمزيد انظر الهيثم زعفان وآخرون: أبحاث مشروع الحركة النسوية وخلخلة المجتمعات الإسلامية «المجتمع المصري نموذجاً، سلسلة الحركة النسوية في العالم العربي، كتاب البيان، الرياض، ٢٠٠٦م.

(١) الهيثم زعفان: المصطلحات الوافدة وأثرها على الهوية الإسلامية، فصل مصطلح تحرير المرأة، مركز الرسالة للدراسات والبحوث الإنسانية، القاهرة، ١٤٢١هـ.

٢- التهاون مع «الزنا» وإثبات نسب ابن «الزنا» لأمه:

في ذات الوقت الذي يتم فيه التضييق على الزواج الشرعي، تم في بعض الدول الإسلامية سن قوانين تسمح «للزانية» أن تسجل وليدها من «الزنا» في الوثائق الرسمية للدولة باسمها، وقد اعتبر العلماء أن في ذلك تيسيراً «للزنا» في المجتمع. خاصة أن الأم تعترف رسمياً أنها «زانية»، ومع ذلك لا توقع عليها أية عقوبات.

والعجيب أن الطفل المولود من «الزنا» يتم إثباته في الوثائق الرسمية، بينما الآخر المولود من الطريق الشرعي لا يتمكن الأبوان اللذان لم يتجاوزا الثماني عشرة سنة من إثباته في الأوراق الرسمية، بل يتم تجريمهما على مخالفتهما للقانون الوضعي وتطبيقهما شرع الله في أمر الزواج، على حين يتم تكريم «الزانية» الأقل من ١٨ سنة، والدعوة لالتماس الأعذار لها عندما تمارس «الزنا»! إن هذه الفوضى الجنسية الانحلالية، وترك النساء يمارسن الفاحشة وقتما شئن، ودون أدنى رادع يؤكد ما جاء بالمادة ٩٦ من منهاج عمل بكين التي أشرنا لها من قبل، والتي تنص على أن «للمرأة حقها في أن تتحكم، وأن تبت بحرية ومسئولية في المسائل المتصلة بحياتها الجنسية دون إكراه أو تمييز أو عنف».

٣- نشر ثقافة الطلاق في المجتمعات الإسلامية بديلاً عن المصالحة:

وهذا الأمر يتم تحت عنوان «التوعية القانونية للمرأة»، وفي سبيل ذلك يتم فتح الخطوط الساخنة، وتقوم المنظمات غير الحكومية المعنية بتنفيذ مجموعة من البرامج الميدانية، والدورات التثقيفية، وعرض المساعدات القانونية المجانية لإتمام عملية التصديق بين الزوجين، مع فتح مكاتب لتلقي الشكاوى ضد الأزواج؛ باعتبارها شكاوى تدخل تحت بند «العنف ضد المرأة»، على إثرها يتم تحريض المرأة لتقديم الشكاوى ضد هذا الزوج من أجل تقويم ما يرونه

نشوراً وعنفاً من الزوج.

٤- المرأة في سلك القضاء:

ضغطت النسويات كثيراً على نظم البلدان العربية والإسلامية كي تُمكن المرأة من اقتحام سلك القضاء، وعندما اصطدمت مطالبهن بالأحكام الشرعية، تشبثن برأي الإمام ابن حزم في تلك المسألة.

وقد أثار البعض كثيراً من المخاوف جراء تخبط الأحكام التي تصدرها المرأة؛ وذلك لغلبة العاطفة على المرأة، وتقلب مزاجها نظراً لظروفها الجسمانية من حمل ورضاعة وحيض ومتاعب نفسية إبان سن اليأس.

وعلى الرغم من أن البعض يدفع بأن بعض المعينات في سلك القضاء هن من المحجبات كدليل على أنه ليس كل الممكنات سياسياً علمانيات، لكن يبقى أن الأصل في تولي هذه الحقيبة القضائية عليه الكثير من التحفظات الشرعية التي لا يسقطها التزام المرأة باللباس الشرعي من عدمه.

وعلى الرغم من ذلك فقد اقتحمت المرأة سلك القضاء في العديد من البلدان الإسلامية وما يزال الضغط مستمراً على البلدان الراضة شرعاً لهذا الميدان.

ولا يفوتنا التشديد على أن تلاعب نشيطات الحركة النسوية في موضوع المرأة والقضاء والوظائف المرتبطة بها، والتماسة مع مسألة «شهادة المرأة» يثير الكثير من المخاوف في ظل دندنة الحركة النسوية حول تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة فيما يتعلق بـ «شهادة المرأة»، وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة.

٥- التمكين السياسي للمرأة:

«التمكين السياسي للمرأة» فسّرت وثيقة بكين بأنه «وصول المرأة إلى مراكز صنع القرار، والمراكز التي تؤثر في صنع القرار ووضع السياسات»، مع إزالة

موانع الحمل، والواقيات الذكرية والأنثوية لتحقيق الأمان عملياً.

والمادة ١٠٨ من وثيقة بكين تطالب بإدراج تعليم الجنس الآمن في المناهج التعليمية بالنسبة للأطفال؛ ليتم ترسيخ الصورة المراد رسمها في وجدان ومخيلة الأطفال، حيث تنص المادة على ضرورة (تصميم برامج محددة موجّهة للمراهقين والرجال من جميع الأعمار تهدف إلى توفير معلومات كاملة ودقيقة عن السلوك الجنسي والإنجابي المأمون والمسئول؛ بما في ذلك الاستخدام الطوعي لوسائل الوقاية الذكرية المناسبة والفعّالة؛ بغية الوقاية من فيروس نقص المناعة البشرية/ الإيدز).

٧- الإعلام وتكريس الأجندة النسوية:

يُعد الإعلام المرئي والمسموع والمقروء من أكثر الأدوات التي تستخدمها الحركة النسوية في العالم العربي من أجل خلخلة المجتمع وهز ثوابته القيمية لصالح الأجندة النسوية، وفي سبيل ذلك يتم الدفع بمئات المسلسلات، الأفلام، البرامج، الإعلانات، المقالات، الحوارات، والتحقيقات؛ وجميعها تُصاغ مادتها الإعلامية وفق ما تهدف إليه نشيطات الحركة النسوية.

٨- تحرير المرأة وقضايا الميراث:

ترى أجندة الحركة النسوية من خلال الأمم المتحدة أن أيّ تقسيم للموارث لا يخضع لقاعدة المساواة التامة، والاقتسام المتساوي بين الأشقاء يُعد نوعاً من التمييز ضد المرأة، وعليه يجب إلغاء أية تشريعات تتعارض مع نظرة الأمم المتحدة لتقسيم الموارث، ففي «الهدف الاستراتيجي ألف» من وثيقة بكين، والمتعلق بتتقيح القوانين والممارسات الإدارية؛ بغية ضمان

كافة الحواجز والعراقيل حتى ولو كانت دينية، والتي بنظرهم تعيق تحقيق المرأة الجديدة لهدف السيطرة على السلطة، ومواقع صنع القرار».

وقد وضعت «وثيقة بكين» هدفاً أولياً تمثل في وصول المرأة لمواقع صنع القرار بنسبة ٣٠٪ كخطوة أولى لتحقيق الهدف المرجو، وهو الوصول بالنسبة إلى ٥٠٪.

والخطورة الكامنة في هذا التصيب السياسي هو وضع بعض النسويات ذات التوجه الغربي في مواقع صنع قرار تسمح لهنّ بسنّ تشريعات وصياغة سياسات مرجعيتها اتفاقية سيداو ومقررات مؤتمر بكين، فيزداد البلاء وتعم البلوى.

٦- التعليم وإعادة صياغة المناهج وفق الأجندة النسوية:

تم في العديد من الدول العربية والإسلامية تشكيل لجان لإعادة صياغة الكتب المدرسية في المراحل التعليمية الأولى؛ ليتم أولاً تنقيحها مما يتعارض مع الطروحات النسوية حتى ولو كان المطلوب تنقيحه نصوصاً دينية، ثم يتم ثانية دمج المناهج التعليمية بما يتوافق مع الأجندة النسوية، وآلية المناهج التعليمية التربوية يشدد على توظيفها في بنود بكين، وعلى رأسها تضمين ما يطلق عليه «الجنس الآمن safe sex» ضمن المناهج التربوية، وهو مصطلح يقوم على حق المرأة في إشباع غريزتها بأمان، وبالصورة التي تقرها هي لا التي تضبطها الشريعة الإسلامية، ومن ثمّ فهي تمارس الجنس بصورة توفّر لها الحماية من الأمراض الجنسية أو الحمل غير الشرعي.

وحتى يتحقق هذا الجنس الآمن لا بد من توافر عنصرين مهمين؛ أولاً: تعليم الجنس والذي يأتي من خلال تعديل المناهج التعليمية لتتوافق مع هذا الطرح. والثاني خدمات الصحة الإنجابية والمتمثلة في توفير

الموارث، تلك المسائل التي تحاربها الأمم المتحدة، وتتادي بالقضاء عليها.

اللافت أن هناك بعض الأسر العربية قد استجابت لهذا العبث الأممي، وصارت لا تورث إلا وفقاً للقاعدة النسوية الفاسدة «للذكر مثل الأنثى».

٩- الهجوم على ولاية الرجل على المرأة:

حيث تهاجم الحركة النسوية بصورة صريحة قوامة الرجل المسلم على زوجته، وما يتبع هذه القوامة من تراتيب شرعية، وبخاصة في قضايا الاستئذان وسفر المرأة بدون محرم، وهو الأمر الذي تخلخل في عدد من البلدان الإسلامية. وكذلك ولاية الأب على ابنته وبخاصة في مسائل الزواج، وشرط موافقة الولي على النكاح.

تقول منظمة هيومن رايتس ووتش في تقرير صادر لها في العام ٢٠٠٨م «تدعو هيومن رايتس ووتش المملكة العربية السعودية إلى التحرك الفوري للتصدي لانتهاكات حقوق الإنسان الناجمة عن سياسات ولاية الرجل على المرأة، لضمان أن الهيئات الحكومية لا تطلب إذن ولي الأمر للسماح للنساء البالغات الراشديات بالعمل أو السفر أو الدراسة أو الزواج».

والاستجابة لهذا المطلب سيؤدي بالمجتمع إلى (سقوط القوامة داخل المجتمع، وتعطيل شرع الله المنظم للحياة الأسرية، وما سيتبع ذلك من مشكلات أسرية وانتشار للطلاق. وفتح المجال لسفر المرأة بدون محرم سيترتب عليه فتن عظيمة لا يعلم مداها إلا الله- كما أن إسقاط ولاية الأب عن تزويج ابنته فيه تعطيل لشرع الله، ونشر للفساد الخلقي، وأيضاً انتشار للطلاق لضعف خبرة الفتاة في فهم الرجال وحقوق الزواج).

الحقوق المتساوية للمرأة، وسبل وصولها إلى الموارد الاقتصادية؛ وفي الإجراءات التي يتعين اتخاذها قالت المادة (٦١/ب): «الاضطلاع بإصلاحات تشريعية وإدارية، بغية تمكين المرأة من الحصول على الموارد الاقتصادية، بما في ذلك الحق في الميراث، وفي تملك الأرض وغيرها من الممتلكات، والحصول على الائتمان والموارد الطبيعية والتكنولوجيات الملائمة».

وشددت المادة (٢٧٤/د) من وثيقة بكين على مسألة الميراث واصفة تقسيم الموارث بصورة مخالفة لرؤية محرري المرأة بأنه غبن للمرأة؛ حيث تدعو الفقرة إلى «العمل على إزالة ما تواجهه الطفلة من غبن وعقبات فيما يتعلق بالإرث حتى يتمتع كل الأبناء بحقوقهم دون تمييز».

وفي أعقاب تلك الدعوات العولمية تعالت في العالم الإسلامي بعض الأصوات التي تطالب باللعب في أحكام الموارث حتى تتوافق مع مواثيق الأمم المتحدة؛ يقول: «أحمد محمود صبحي»: «المذهب الجعفري -ذهب الشيعة الإمامية- لا يجعل للأعمام أي حق في الميراث، وإنما تؤول التركة كلها للبنات، وبما أن محور الدراسة -والكلام ما يزال لأحمد محمود- يدور حول التقريب بين السنة والشيعة، فإن الانطباع الذي يخرج به القارئ هو أن الشيعة أكثر إنصافاً للمرأة من أهل السنة مما لا يرضي البعض»^(١).

ويبدو هنا أن مذهب الشيعة في بعض المسائل المتعلقة بالمرأة يوافق بعض ما تتادي به الأمم المتحدة في قضايا تحرير المرأة. لكن بالقفز فوق الآراء الفقهية والمذهبية في هذه المسألة، فإن هذا الباحث يحاول الدخول بالشيعة إلى معترك الأحكام الأسرية للمرأة المسلمة، وذلك من مدخل الموارث، فهو يلقي بحجر شيعي في إجماع أهل السنة والجماعة في مسائل

(١) أحمد محمود صبحي: مدى مشروعية وراثية الأعمام - حال كون ذرية المتوفى إنثاء، سلسلة أبحاث المؤتمرات، مائة عام على تحرير المرأة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص ٩.

عوامل التحفيز والمدافعة للحركات النسوية العربية:

عوامل المدافعة	عوامل التحفيز
١- أنشطة علماء الأزهر وعلماء الشريعة في الأمة في مدافعة الأنشطة النسوية.	١- الاحتلال الاستعماري.
٢- التربية الإسلامية والخوف من مخالفة أوامر الله سبحانه وتعالى.	٢- الصراع القيمي بين الغرب والإسلام.
٣- ظهور الحركات الإصلاحية الإسلامية في بدايات القرن العشرين ومنتصفه (الإخوان المسلمون- الحركات السلفية)، وما صاحب ذلك من أنشطة إصلاحية تدينية.	٣- البعثات التغريبية.
٤- العادات القبلية لبعض البلدان العربية والإسلامية والمنطقة في معظمها من ضوابط شرعية تفرض حرمة خاصة للمرأة القبلية.	٤- المدارس الأجنبية والتعليم الأجنبي.
٥- نكبات الأمة خاصة في ١٩٤٨م و ١٩٦٧م ومراجعة بعض المجتمعات الإسلامية لذنوبها، وموقفها من الإسلام.	٥- الأنشطة التبشيرية.
٦- الأنشطة الدينية في الأوساط التعليمية وبخاصة الجامعية.	٦- أنشطة السفارات الأجنبية.
٧- الأنشطة الدعوية للتيارات الإسلامية في القرى والمدن.	٧- سقوط الخلافة الإسلامية.
٨- الجهود الدعوية الحركية والعلمية للدعاة والعلماء.	٨- النظم الاستبدادية والعلمانية والفساد السياسي، وضعفها أمام الإملاءات الدولية.
٩- أنشطة المؤسسات الخيرية الإسلامية في المجتمعات العربية؛ المدافعة والبديلة لأنشطة نظيرتها التغريبية.	٩- سيطرة العلمانيين على معظم مواقع صنع القرار في الدول الإسلامية.
١٠- انخفاض نسبة الأمية والجهل في الكثير من البلدان العربية بالمقارنة مع بدايات القرن العشرين.	١٠- النشاط الشيوعي المكثف حتى سقوط الاتحاد السوفييتي.
١١- انتشار العلم الشرعي وبخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين.	١١- النشاط الفراكفوني وارتباط بعض الدول العربية بفرنسا.
١٢- احتضان بعض النظم السياسية للعلماء والدعاة، وتبني أنشطتهم الدعوية، مما أعطى لجهودهم دفعة قوية.	١٢- الدور النسوي التغريبي المكثف للسيدة الأولى (زوجة رئيس الدولة).
	١٣- السيطرة على وسائل الإعلام وتوجيهها نسويًا.
	١٤- السيطرة على النظم التعليمية وتوجيه محتواها بما يخدم الأهداف النسوية.
	١٥- السيطرة على النظم التشريعية وسن القوانين النسوية.
	١٦- الطوائف المسيحية واليهودية في أوساط المسلمين (سلوكيات وأنشطة).
	١٧- الضعف العقدي لمعظم المجتمعات الإسلامية خاصة خلال النصف الأول من القرن العشرين.

عوامل المدافعة	عوامل التحفيز
١٣- انتشار موجات التدين في ثمانينيات وتسعينيات القرن المنصرم والتي انعكست بدورها على التزام المرأة في الزي والسلوك وتربية الأبناء.	١٨- ضعف العلم الشرعي في معظم البلدان العربية والإسلامية، وبخاصة في النصف الأول من القرن العشرين.
١٤- ظهور الجيل الثاني والثالث من بنات نساء الحركة الإسلامية وسيرهن على درب أمهاتهن في الالتزام الشرعي، والسلوك والتربية، ومدافعتهن لسلبيات الطرح النسوي الغربي.	١٩- الجهل وانتشار الأمية في كثير من البلدان العربية، وبخاصة في النصف الأول من القرن العشرين.
١٥- الدور السياسي لبعض التيارات الإسلامية، ومدافعة العلمانيين في مواضع صنع القرار وبخاصة التشريعية.	٢٠- الفساد الاقتصادي والثراء الفاسد، وما صاحبه من ظهور الطبقة الطفيلية، المقلدة للغرب في نزواتها.
١٦- تدين بعض المجتمعات العربية والإسلامية بطبعها مما يجعلها أكثر ميلاً للشيعة الإسلامية، ومن ثم للدعاة والعلماء، والمؤسسات الإسلامية والاستجابة لطرحتهم الشرعي.	٢١- سهولة السفر بين الشرق والغرب والانبهار بالنموذج الغربي المتحرر.
١٧- وجود مهابة حقيقية للعلماء في مقابل النموذج الهزلي لكثير من الشخصيات النسوية المروجة، والداعمة للطرح النسوي.	٢٢- شهوات النفس الإنسانية، والبعد عن الضوابط الشرعية.
١٨- انتباه كثير من الباحثين والكتاب إلى الأنشطة النسوية وانتشار الكتابات الكاشفة لأنشطتهم والمفئدة لآرائهم وزيف منطلقاتهم.	٢٣- سوء الأحوال الاقتصادية وانعكاسه على الفساد الأخلاقي والاجتماعي.
١٩- أنشطة المراكز البحثية والمجلات الفكرية والصحف الإسلامية المدافعة لأنشطة الحركات النسوية.	٢٤- التجارة الانحلالية والفساد الأخلاقي المصور.
٢٠- انتشار موجة من الفضائيات الإسلامية الناشرة للعلم الشرعي والمروجة لنموذج المرأة المسلمة الصحيح.	٢٥- الاستخدام السلبي لوسائل التكنولوجيا الحديثة، مع ما بها من انحلال وطرحة غربي فاسد في أطروحات كثيرة.
	٢٦- الدول العظمى وعولمة أطروحات الحركة النسوية.
	٢٧- الأمم المتحدة وعولمة نموذج سيداو ويكين.
	٢٨- منظمات التمويل الدولية والإنفاق على الأجندة النسوية.
	٢٩- حرص طائفة فاسدة على تتبع مواضع الفساد، ونشر الفساد في الأرض.
	٣٠- النشاط النسوي المكثف داخل أسوار الجامعات.
	٣١- إنشاء المحاضن التعليمية والوظيفية المختلطة.

مستقبل الحركة النسوية العربية في ظل ثورات الربيع العربي:

بسقوط الأنظمة البائدة في بلدان ثورات الربيع العربي فقدت الحركة النسوية سيطرتها على كثير من مواضع صنع القرار الرئيسية، والتي كان من أهمها موقع «حرم رئيس الجمهورية» أو ما اصطلح عليه استعلاءً «السيدة الأولى».

باب الاستحسان والتبعية بحيث يكون الطرح النسوي الهوائي هو الأصل والشريعة الإسلامية هي التابع!!

٢- نشدد في هذا الموضوع على زيف دعوى الإلزامية في الاتفاقيات الدولية؛ تلك الذريعة التي تتذرع بها نشيطات الحركة النسوية في البلدان العربية والإسلامية، وتستخدمها بحرفية عالية في الضغط على الحكومات لإحداث تغييرات تشريعية وسياسية تتفق مع مقررات الأمم المتحدة النسوية. والدليل على عدم إلزامية تلك المقررات، هو عدم امتثال أمريكا والكيان الصهيوني للاتفاقيات الدولية، بل ولقرارات مجلس الأمن التي هي أشد قوة من مقررات بكن ومقررات مؤتمرات الأمم المتحدة جميعاً، ومن ثم فإن النقطة الرئيسية التي ينبغي وضعها في الحسبان والتركيز عليها أثناء مدافعة الحركة النسوية التغريبية؛ هو التحرر كلية من أذوبة الإلزامية، والقناعة التامة بأن عدم وضع تلك المقررات موضع التنفيذ في المجتمعات الإسلامية لن يؤثر سلباً على البلدان غير الملتزمة بها.

مقررات بكن ومقررات مؤتمرات الأمم المتحدة جميعاً، ومن ثم فإن النقطة الرئيسية التي ينبغي وضعها في الحسبان والتركيز عليها أثناء مدافعة الحركة النسوية التغريبية؛ هو التحرر كلية من أذوبة الإلزامية، والقناعة التامة بأن عدم وضع تلك المقررات موضع التنفيذ في المجتمعات الإسلامية لن يؤثر

سلباً على البلدان غير الملتزمة بها.

٣- عدم إعطاء المؤتمرات الدورية لنشيطات الحركة النسوية أكبر من حجمها، مع التأكيد على عدم إلزامية مقررات تلك المؤتمرات، والسعي لفتح قنوات اتصال «نصح وإرشاد» بين العلماء وولاة الأمور لتبيان حقيقة الدعاوى النسوية، ومدى انحرافها عن المسار العقدي الصحيح الذي يضبط توازن المجتمع، ويحقق شريعة الله في الأرض.

٤- ضرورة إمداد الدعاة والعلماء بمخططات الحركة النسوية وآليات مواجهتها، وذلك لتحقيق هدفين أساسيين:

الأول يتمثل في تجنّب تفاعل الدعاة والعلماء مع أنشطة الحركة النسوية، ذلك التفاعل الذي تستغله

وحتى تتخيل حجم تأثير سقوط «السيدة الأولى» سواء في مصر أو تونس أو ليبيا على الحركة النسوية العربية التغريبية لا بد أن نسترجع إلى الأذهان حجم الدور الكبير الذي كانت تلعبه «السيدة الأولى» في تغريب المنظومة المجتمعية بالأمر الفوقي المباشر، وكان الجميع حينها يتألم من تأثير تلك الأوامر على مسار ونسيج المجتمع، ومن ثم هوية المرأة المسلمة. وعلينا أن نقيس في ضوء ذلك حسابات الحركة النسوية بعد غياب تلك السلطة الفوقية بهذه الطريقة الكارثية.

فالحركة النسوية العربية كانت تحاول تكريس

نفوذها في بنيان الدولة؛ من خلال محاولات التغلغل والسيطرة على مواضع صنع السياسات والقرارات في العديد من المناصب داخل المؤسسات والوزارات الرسمية، وقد أطلقنا على هذه الاستراتيجية في كتاب سابق عن الحركة النسوية اصطلاح «الإحلال النسوي»، فكنا نرى تمكين النساء وبخاصة من أهل الثقة لدى «السيدة الأولى»

وعصبتها في مناصب استراتيجية بالنسبة للحركة النسوية وبخاصة في الإعلام، التعليم، التشريعات، السياسات التخطيطية، وتحديد النسل، وجاءت الثورات العربية لتغير من هذا الواقع الضارب في عمق التاريخ لأكثر من خمسين سنة.

توصيات الدراسة:

١- ينبغي التأكيد على أن منطلقات أطروحات الحركة النسوية إنما هي هوائية، تجعل المعيار هو المرأة نفسها، وتلك الأطروحات تقدم «تمكين المرأة وتحريرها» بمنأى عن أية اعتبارات شرعية، وإن تعارضت الأطروحات النسوية التغريبية مع الشريعة الإسلامية فيتم تقديم النسوي الهوائي. وإن تقاطعا في جانب من الجوانب، فيكون ذلك من

٨- الاهتمام بإنتاج المزيد من البرامج والمواد الإعلامية المتخصصة؛ المدافعة لتحركات الحركة النسوية التغريبية، والموازنة لطردهم الإعلامي المكثف.

٩- نشر ثقافة الزواج المبكر في المجتمعات الإسلامية، وإنشاء مزيد من المؤسسات الخيرية الداعمة لتيسير الزواج المبكر، وتحفيز الأثرياء على تبني تدبير نفقات زيجات جماعية يُعْمَقُون بها الشباب والفتيات.

١٠- فتح قنوات الدعوة الإسلامية المباشرة والمستمرة مع نشطاء الحركة النسوية التغريبية، فيبقى أن لهم علينا حق الدعوة وتبيان الحقائق الإسلامية المغيبة عنهم، فغسى بهذه الدعوة أن يتراجع أحد رموزهم عن حماسته التغريبية فتتحقق فوائد جمة، ويهديهم الله إلى ما فيه الخير والفلاح.

الحركة النسوية في إعطاء غطاء شرعي لأنشطتها. الهدف الثاني: يتمثل في توسيع دائرة التوعية في المجتمع المسلم من خلال درجة الثقة بين العلماء والمسلمين.

٥- تفعيل وإنشاء مؤسسات خيرية موازية تطرح البديل الإسلامي الصحيح فيما يتعلق بقضايا المرأة، ووضعها الشرعي في المجتمع، وتتمكن من مدافعة الأنشطة السلبية للمنظمات النسوية التغريبية.

٦- تفعيل وإنشاء المراكز البحثية المتخصصة في مدافعة الطرح النسوي التغريبي، والمؤصلة للمعالجات الشرعية لقضايا المرأة المسلمة.

٧- محاولة البحث عن آليات سياسية مشروعة، تُحدث نوعاً من التوازن السياسي مع تسلل الحركة النسوية التغريبية لمواضع صنع القرار في البلدان الإسلامية.

معلومات إضافية

المؤتمرات النسائية العالمية:

المؤتمرات النسائية العالمية التي طالبت بتحسين أوضاع المرأة، من أهمها ما يلي:

١- المؤتمر النسائي العالمي لدرس شؤون المرأة (شيكاغو ١٨٩٣م):

اختتمت جلساته بتوصيات عُرفت بتوصيات مؤتمر شيكاغو ١٨٩٣م. ومن أهمها تشجيع المرأة على العمل والتحرر، والطلب إلى المؤتمرات السعي من أجل تعميم التعليم بين الفتيات.

٢- مؤتمر (اتحاد نساء العالم، لندن ١٨٩٩م):

عقد في بريطانيا، ونُوقشت فيه آراء بعض المشتركات، وخلص إلى توصيات أهمها: العمل على تعزيز تعليم المرأة، وحقها في العمل السياسي والاجتماعي.

٣- مؤتمر جمعية السلم الوطنية الإيطالية المنعقد في باريس ١٩٠٢م.

٤- مؤتمر المتطوعات للتعليم والتهديب ١٩٠٣م: عُقد في جامعة تورنتو كندا؛ للبحث في دور المرأة التربوي والاجتماعي.

٥- مؤتمر جمعيات السيدات المسيحيات العالمي ١٩١٠م: عقد في مدينة غلاسكو - كندا؛ للبحث في أحوال المرأة والتربية ومكافحة الجريمة، والآفات الاجتماعية وإعادة تأهيل الأحداث.

٦- مؤتمر التلاميذ والتلميذات العالمي ١٩١١م:

عُقد في الأستانة للبحث في أحوال التلاميذ، والمدرسة الوطنية، ومناهج التدريس المتبعة.

٧- مؤتمر التدبير المنزلي ١٩٢٣م: عُقد في روما برعاية ملك إيطاليا، انحصرت المطارحات حول التدبير المنزلي وأهميته في حياة المرأة وأخلاقها، وضرورة تأييد الدعوة للاهتمام بهذه الناحية من واجبات وعمل المرأة.

٨- مؤتمر مدارس الأحد ١٩٢٤م: عقد في مدينة غلاسكو - كندا؛ للبحث في إسهامات المرأة في حقل التعليم الديني.

١٠- المؤتمر النسائي الدولي في باريس ١٩٢٦م:

يعتبر هذا المؤتمر أول مؤتمر نسائي يبحث إلى جانب القضايا النسوية مسائل سياسية، فقد طرحت المؤتمرات موضوع دور المرأة الاجتماعي والسياسي بعد الحرب العالمية الأولى، وكيفية التصدي لبعض المشاكل التي قد تنعكس على الوضعين الاجتماعي والوطني.

أهم المؤتمرات التي عقدتها لجنة مركز المرأة بالأمم المتحدة، وأخطر الوثائق الصادرة عنها:

عقدت الأمم المتحدة أول مؤتمر عالمي للمرأة عام ١٩٧٥م، وهو مؤتمر مكسيكو لعقد الأمم المتحدة للمرأة «المساواة والتنمية والسلام» دعت فيه إلى حرية الإجهاض للمرأة، والحرية الجنسية للمراهقين والأطفال، وتنظيم

الأسرة لضبط عدد السكان في العالم الثالث، ثم عُقد مؤتمر في نيروبي عام ١٩٨٥م بعنوان: «استراتيجيات التطلع إلى الأمام من أجل تقدم المرأة»، ثم كان مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية الذي عُقد في سبتمبر ١٩٩٤م، وأخيراً كان مؤتمر المرأة في بكين الذي عُقد عام ١٩٩٥م تحت عنوان المساواة والتنمية والسلام وأخطر ما في تلك المؤتمرات هو ما ينتج عنها من وثائق تعمل على عوامة نمط الحياة الغربية على العالم بأسره، فأول اتفاقية تُصاغ بصيغة ملزمة قانونياً، كانت اتفاقية القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو) Convention (CEDAW) التي صدرت عام ١٩٧٩م عقب انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة تحت شعار: (القضاء على كافة أشكال التمييز ضد المرأة)، ثم تم تشكيل لجنة خاصة لمتابعة الدول في التزامها بتطبيق الاتفاقية سميت بلجنة سيداو CEDAW Committee .

ثم جاءت وثيقة بكين (١٩٩٥م)، التي تعتبرها لجنة مركز المرأة وثيقة (آليات وسياسات Policy Paper) لتفسير وتفعيل اتفاقية سيداو؛ حيث اشتملت على بنود صريحة، وواضحة، وخطة عملية Plan of Action لتطبيق اتفاقية سيداو.

والتابع لهذه المؤتمرات وتوصياتها يجدها تزداد تطرفاً وابتعاداً عن القيم التي أرسنتها الديانات السماوية جميعاً وعن الإسلام خصوصاً.

يوم المرأة الدولي:

(٨ آذار/مارس) مناسبة تحتفل بها المجموعات النسائية في العالم، ويُحتفل أيضاً بهذا اليوم في الأمم المتحدة، وقررت بلدان عديدة جعله يوم عيد وطني. واجتماع النساء من جميع القارات، واللاتي غالباً ما تفصل بينهن الحدود الوطنية والفروق العرقية واللغوية والثقافية، والاقتصادية والسياسية، للاحتفال بيومهن هذا، فسيكون بإمكانهن استعراض تاريخ النضال من أجل المساواة والعدل والسلام والتنمية على امتداد تسعة عقود من الزمن تقريباً. ويوم المرأة الدولي هو قصة المرأة العادية صانعة التاريخ، هذه القصة التي يعود أصلها إلى نضال المرأة على امتداد القرون من أجل المشاركة في المجتمع على قدم المساواة مع الرجل.

ففي اليونان القديمة قادت ليسيستراتا إضراباً عن الجنس ضد الرجال من أجل إنهاء الحرب؛ وخلال الثورة الفرنسية نظمت نساء باريس الداعيات لـ«الحرية والمساواة، والأخوة» نظمن مسيرة إلى قصر فرساي مطالبات بحق المرأة في الاقتراع. وظهرت فكرة يوم المرأة الدولي لأول مرة في بداية القرن التي شهد خلالها العالم الصناعي توسعاً واضطرابات ونمواً في السكان، وظهرت فيها الأيديولوجيات الراديكالية.

مؤتمر قمة المرأة العربية والإعلام:

عقد في القاهرة من (١٨ - ٢٠) نوفمبر (تشرين الثاني) من العام (٢٠٠٠م)، تم المؤتمر تحت رعاية جامعة الدول العربية، وبمشاركة «المؤتمر القومي للمرأة» بمصر، وبتنظيم من «مؤسسة الحريري» بלבنا.

شارك في المؤتمر ١٩ دولة عربية (جميع أعضاء الجامعة ما عدا السعودية والجزائر وقطر)، ترأس تسعة وفود منها من يُسمّى «السيدات الأوليات» في بلادهن، إلى جانب تمثيل عالٍ لباقي الوفود، إضافة إلى ٤٠٠ شخصية نسائية عربية، وعدد كبير من المنظمات النسائية.

افتُتح المؤتمر في قاعة المؤتمرات الكبرى بالقاهرة صباح السبت ١٨/١١/٢٠٠٠م بكلمة زوجة الرئيس المصري سوزان مبارك قالت فيها: «هذا المؤتمر هو بداية جديدة لحركة نسائية عربية شاملة تقوم في ظروف جديدة، ومن هنا فإن أحد أهدافه الأساسية هو وضع خطة عمل لتنظيم وتنشيط العمل النسائي العربي خلال عام ٢٠٠١م الذي اختير ليكون عام المرأة العربية.

شهد اليوم الثاني تعقيماً واسعاً لأعضاء الوفود حتى شكّل ظاهرة أقلقّت الجهات المنظمة للمؤتمر.

- وقد غادر القاهرة في اليوم الثاني الملكة رانيا (الأردن) وليلى بن علي (تونس).

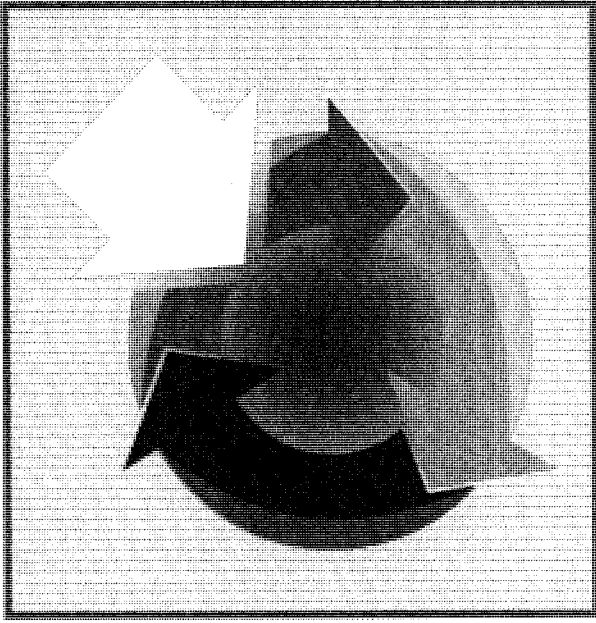
- لم تُلقِ كل من رئيسات وفود البحرين وجيبوتي وجزر القمر كلمتهن، واقتصرن على توزيعها على أعضاء المؤتمر .

المصادر:

١- موقع المنتدى السياسي العربي، على الرابط التالي: <http://www.arabs.com/showthread.php?5974>

٢- موقع اللجنة الإسلامية العالمية للمرأة والطفل، على الرابط التالي: <http://icwc.org/lagna/icwc/icwc.php?id=825>

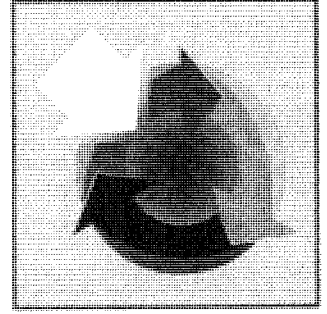
٣- موقع الأمم المتحدة، على الرابط التالي: <http://www.un.org/ar/events/womensday/history.shtml>



ثانياً: التحولات السياسية في العالم الإسلامي

- د. السيد أبو فرحة
- محمد الزواوي
- د. عدنان أبو عامر
- محمد إبراهيم مبروك
- د. تامر بكر
- مسألة الأقليات في العالم الإسلامي .. استراتيجيات التعامل
- الطموح التركي .. مسارات الصعود وتحديات الهيمنة
- وعد بلفور وتكوين دولة الكيان الصهيوني من النكبة إلى النكسة ثم السلام
- تصاعد وتراجع العداء بين الغرب والإسلام في ضوء قرن من الزمان
- الصراع المذهبي والعرقي في العالم الإسلامي: الجذور والمستقبل

مسألة الأقليات في العالم الإسلامي.. استراتيجيات التعامل.. مقارنة بين الخبرة الغربية والإسلامية



د. السيد أبو فرحة

أستاذ العلاقات الدولية بجامعة بني سويف - مصر

ملخص الدراسة

في ذكرى مرور مائة عام على الحرب العالمية الأولى نتذكر أن أبرز الأحداث التي نتجت عن هذه الحرب يتمثل في سقوط الدولة العثمانية، وظهور مشكلة الأقليات في العالم الإسلامي، وقد تفاقمت مشكلة الأقليات في العديد من بلدان العالم الإسلامي وشغلت حيزاً متميزاً إلى الآن، ومن المرشح تصاعدها في ظل التحولات المعتبرة في عدد من بلدان هذا العالم.

وتحاول هذه الدراسة الإجابة على عدد من الأسئلة تدور حول استراتيجيات التعامل مع الأقليات في بلدان العالم الإسلامي في ضوء خبرة التعامل معها خلال قرن مضى، وذلك في خضم التفاعل بين الحضارتين: العربية الإسلامية والحضارة الغربية في العصر الحديث.

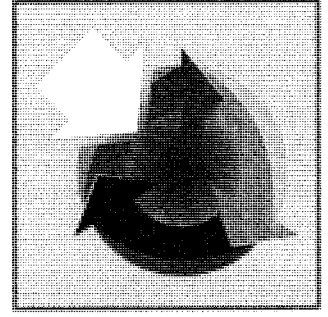
تتراوح الاستراتيجيات المتباينة في التعاطي مع مسألة الأقليات بين استراتيجيات عنيفة وصولاً إلى استراتيجيات سلمية، أو غير عنيفة، ومنها استراتيجيات القسر والفصل العنصري والإقصاء والتهميش، واستراتيجيات الاستيعاب والدمج، وأولى تلك الاستراتيجيات العنيفة هي استراتيجية «القسر»، والتي تستند إلى هيمنة الأكثرية على الأقليات، وقد تصل إلى مرحلة التطهير العرقي أو الترحيل الجبري.

ويعد «الفصل العنصري Racial Segregation» أحد أشهر تلك الاستراتيجيات الكلاسيكية التي تهدف لفرز الأكثرية عن الأقلية، وأشهر نماذجه النموذج الجنوب إفريقي (أبارتيد) إبان فترة حكم الطبقة البيضاء؛ حيث لا يُشير مصطلح «أقلية» في هذه الحالة لأقلية عرقية، وإنما لأقلية سياسية، والتي تستند لصورة ذهنية تحط من شأن ذوي البشرة السمراء في إدراك الفئة الحاكمة، وكذلك أيضاً النموذج الأمريكي حتى الربع الثالث من القرن العشرين، وكذا دولة الاحتلال لفلسطين.

ومن تلك الاستراتيجيات التي تحوي تمييزاً في حق «الأقليات» وإن كانت أقل وطأة من سابقتها هي التهميش والإنكار، وتستند تلك الاستراتيجية على إنكار وجود مشكلة عرقية أو عنصرية، وقد تتضمن رفض فكرة توفير ضمانات دستورية للأقليات العرقية، وأيضاً حظر استخدام كلمات ذات دلالات عرقية «سود/ بيض» أو الإشارة إلى تلك القوميات بأسمائها، وإنما إبدالها بمسميات غير ذي دلالة عرقية كـ «بدو ومستقرين»، ومن أمثلة ذلك التعاطي الموريتاني في أعقاب استقلال الدولة مع القوميات الزنجية.

إن التعاطي مع مسألة الأقليات وفقاً لتعاليم الدين الإسلامي هي معالجة موضوعية وواعية وسبّاقة لا تتال من حقوق الأقليات وواجباتهم في البلد المسلم، وعليه فإن التعامل مع تلك المسألة في بلدان العالم الإسلامي يجب أن يعتبر المنهج الإسلامي في هذا الشأن، والذي لا يعني بالضرورة تناقضاً مع الاعتبارات الأمامية بشأن الأقليات.

مسألة الأقليات في العالم الإسلامي.. استراتيجيات التعامل.. مقارنة بين الخبرة الغربية والإسلامية



د. السيد أبو فرحة

أستاذ العلاقات الدولية بجامعة بني سويف - مصر

مقدمة:

تعد الحرب العالمية الأولى اللبنة الأخيرة في انهيار الدولة العثمانية، وقد أعقب تلك الحرب نشوء واقع دولي جديد بدرجة أو بأخرى، وظهور مشكلات مستحدثة أكثر تبلوراً في ضوء اختلاف السياقات الاجتماعية والاقتصادية في مجتمعات العالم الإسلامي، ومن تلك الملفات النشطة حتى الآن ملف الأقليات؛ كقضية معتبرة عميقة الأثر وواسعة في نطاق تداعياتها على المستوى المحلي والدولي؛ حيث تفاقمت تلك المسألة في العديد من بلدان العالم الإسلامي لتفتت لعدد من الملفات التي تشغل حيزاً فكرياً وزمانياً، وحتى مكانياً متميزاً في مختلف دول العالم الإسلامي إلى الآن، والتي من المرشح تصاعدها في ظل التحولات المعتبرة في عدد من بلدان هذا العالم على الصعيد الداخلي.

ومن المتصور أن يطول الاهتمام بمسألة الأقليات، ولعل هذا الاهتمام بالواقع النظري على مدار عقود زمنية عدة في علوم السياسة والاجتماع وغيرها يكشف عن استراتيجيات عملية متباينة وتدابير مختلفة تسهم في التعامل مع مسألة الأقليات، ويمكن أن تكون محل نظر كثيرين في ظل اللحظة التاريخية الراهنة، والتي تشهد تحديات معتبرة أمام عدد من بلدان العالم الإسلامي.

ومن ثم تسعى هذه الدراسة للإجابة عن تساؤل رئيس بشأن «ما استراتيجيات التعامل مع الأقليات في بلدان العالم الإسلامي في ضوء خبرة التعااطي مع هذه المسألة على مدار قرن سالف منذ الحرب العالمية الأولى؟»، وهو ما يمكن أن تجيب عليه الدراسة عبر محاور؛ أولها يتصل بالتوصيف النظري لمفهوم الأقلية كأحد مفاهيم النظم السياسية المقارنة، وثاني تلك المحاور يدور حول استراتيجيات التعامل مع مسألة الأقليات من الناحية النظرية، وثالثها: محاولة الإجابة عن تساؤل بشأن استراتيجيات التعااطي مع مسألة الأقليات في ضوء المقاربة بين الخبرة الإسلامية والغربية في التعااطي معها، وأخيراً مستقبل النظام السياسي في ضوء الاستراتيجيات المتاحة للتعااطي مع مسألة الأقليات، والاعتبار لخبرة الماضي بشأنها.

الأقلية.. حدود المفهوم:

يُعد مفهوم «الأقلية» من المفاهيم المعتبرة التي تشغل بال المتخصصين في العلوم السياسية، وخاصة حقل النظم السياسية المقارنة، ويعود تنامي أهمية هذا المفهوم إلى التحليل المعاصر للدولة، والذي ينظر إلى الدولة والمجتمع باعتبار أن كليهما مدمج في الآخر، وهناك اقترابات عدة عبّرت عن تلك الفكرة كاقتراب «الدولة

يتصل بالمعيار الذهني، أو بمعنى آخر الصورة الذهنية التي تكون في ذهن الفرد، والتي لا تتفق مع الواقع بالضرورة، وإنما قد تتصل بنظرته لنفسه أو للآخرين، وذلك وفقاً لإشارة المعجم الوجيز في قوله «قل» الشيء أي: جعله قليلاً، ومن ثم فإنه يمكن القول: إن لفظة «أقلية» قد تُشير لواقع عددي ما في مقابل واقع عددي آخر، أو تُشير للصورة الذهنية في نظرة علاقة فرد أو جماعة بفرد أو جماعة أخرى، أو بمعنى آخر إدراك الفرد للآخر أو إدراك الآخر له.

أما عن المعنى الاصطلاحي، وبمراجعة موسوعة السياسة، فتُشير «الأقلية» إلى مجموعة من سكان قُطر أو إقليم أو دولة ما تخالف الأغلبية في الانتماء العرقي أو اللغوي أو الديني، دون أن يعني ذلك بالضرورة موقفاً سياسياً وطبقياً متميزاً.. في حين قد يُستخدم المفهوم أحياناً بمعنى طبقي سياسي أيضاً كأن يُقال:

أقلية حاكمة، أو كما ذهب البعض في تعريفه لعلم السياسة على أنه صراع بين أقليات منظمة، ولكن الشائع للأقلية غالباً ما يتصل بالتعريف الأول الذي يصف مجموعة من السكان.^(٤)

وبمراجعة تاريخ المفهوم في الثقافة العربية والإسلامية يتضح أن الحضارة العربية والإسلامية تحوي ألفاظاً عربية أصيلة تقترب من المفهوم المعاصر للأقلية بدرجة أو بأخرى، ومن تلك الألفاظ «الملل»، و«النحل»، والذنان يُقصد بهما الفرق والشيع والمذاهب دون الأعراق؛ حيث ذكرهما «أبو الفتح الشهرستاني» في كتابه «الملل والنحل» عن فرق عصره جميعها، والنواحي التاريخية لكل فرقة وشعبة، وما لها من آراء ومعتقدات، وكذا تناول الملل غير الإسلامية من أرباب

في المجتمع» لجويل مجدال - Joel S. Migdal؛ حيث لا تقف هذه النظرة المعاصرة للتعاطي مع الدولة وإشكالياتها^(١) على حدود مفهوم الدولة، وإنما تقفز عليها لشبكة المفاهيم المكوّنة له أو المتفاعلة معه أو المؤثرة فيه، ومنها مفهوم المجتمع، وفي القلب منه مفهوم «الأقليات».^(٢)

وللوقوف على حقيقة مفهوم الأقلية، والمقصود به يمكن التعاطي معه من مدخلين؛ أولهما المدخل اللغوي للمفهوم، وتاريخه، وثانيهما هو المدخل الاصطلاحي للمفهوم، وتطوره وتجلياته.

بمراجعة تاريخ الثقافة العربية والإسلامية يتضح أن الحضارة العربية والإسلامية تحوي ألفاظاً عربية أصيلة تقترب من المفهوم المعاصر للأقلية بدرجة أو بأخرى، ومن تلك الألفاظ «الملل»، و«النحل»، والذنان يُقصد بهما الفرق والشيع والمذاهب دون الأعراق؛ وقد ذكر حل ذلك «أبو الفتح الشهرستاني».

وبالبحث في الأصل اللغوي للكلمة في المعجم الوجيز في باب «القاف» مادة «قل» نجد أن «قل» الشيء أي ندر، فتشير لفظة «قلة» إلى ندرة، ونقص، ويُقال: هو يقل عن كذا: أي يصغر عنه، وقد تتصل بها «ما» فيقال: (قلما) يزورنا فلان، و(أقل) فلان: أي اقتصر، فهو مُقلٌّ، و(أقل) الشيء: حمله ورفع،

وفي القرآن الكريم ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نَّتَمَلَّأ سَفَنَهُ لِيَكْرِ مَيِّتٍ﴾، و«قل» الشيء أي جعله قليلاً، و«قل» في عينه أي: أراه إياه قليلاً وإن لم يكن كذلك. و«الأقلية» مقابل الأكثرية، و«القل» أي: القليل، و«القلة» ضد الكثرة، و«القليل» أي: النادر، وهي ضد الكثير.^(٣)

وباستقراء المعنى اللغوي لأصل الكلمة يتضح أنها تُشير إلى معنيين؛ أولهما يتصل بالمعيار العددي، وذلك في خضم الإشارة إلى أقل وأقلية، وثانيهما

(١) يُقصد به الإشكالية كيفية تصور المشكلات في منظومة فكرية معينة.

(٢) للمزيد من المعلومات في هذا الصدد يمكن مراجعة التقرير الاستراتيجي للبيان، الإصدار العاشر، دراسة «أقليات دول الربيع العربي: طبيعة دورها بين جدوى التأثير وقويها التأثير».

(٣) إبراهيم مدكور، شوقي ضيف، (محرران)، المعجم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم المصرية، (القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٩٩٤م)، ص ٥١٣.

(٤) عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، (محررون)، موسوعة السياسة، المجلد الأول (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دت)، ص ٢٤٤.

الباحث- قد تحمل في أحد معانيها إدراكاً ما وصورةً ذهنية ما، كما سبق وأشارت الدراسة^(٢).

أما الفهم المعاصر للمفهوم فأشارت الأمم المتحدة في وثائقها الرسمية المعنية بحقوق الأشخاص، ومنها «إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقليات دينية ولغوية» المعتمد من الجمعية العامة في قرارها ١٣٥/٤٧ المؤرخ ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٢م، إلى «الأقليات» بأنها «مجموعة الأشخاص المنتمون إلى أقليات» لتشمل أولئك الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية أو إثنية، وإلى أقليات دينية ولغوية، وذلك في خضم تأكيدها - أي: الأمم المتحدة وإعلاناتها- على مجموعة من الحقوق المعتبرة واجبة الاحترام من الدول، سواء من ناحية «التدابير التشريعية والتدابير الأخرى الملائمة» لحفظها، لتركز بذلك في حمايتها للأقليات على الصيغة الفردية للأقليات، وذلك بإشارتها لـ «الأشخاص المنتمين إلى أقليات»، وذلك لربما رغبة منها في إجمال مبادئ عامة تتصل بحماية الأقليات أكثر من تورطها في أفراد نظام محدد وجامد لـ «حماية الأقليات» كسابقها عصبية الأمم ومجلس الوصاية التابع لها، وكذا حصرها الأقليات في صور أربع واضحة وهي «القومية، الإثنية، الدينية، اللغوية»^(٣).

وعليه فإنه يمكن إجمال تعريف الأقلية -وفقاً للفهم العربي للفظتها- في صورتين قد تجتمعان؛ أحدهما عددية، والأخرى ذهنية، إلا أن هذا الفهم لا ينعكس بالضرورة على إنكار المجموعات البشرية الموصوفة بالأقليات وحقوقهم في الإسلام، وعلى مدار تاريخ

(٢) محمد عمارة، الإسلام والأقليات: الماضي والحاضر والمستقبل، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ١٤٢٣هـ)، ص ٧.

(٣) الجزء الأول من نص إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الأشخاص المنتمين إلى أقليات قومية أو إثنية، وإلى أقليات دينية ولغوية، واعتمده الجمعية العامة في قرارها رقم ١٣٥/٤٧ المؤرخ ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٢م، ص ١، ٢.

الديانات والشرائع وأهل الأهواء والنحل، والوقوف على مصادرها، ومواردها وشواردها، فتحدث عن اليهود والنصارى، والمجوسية والمناوية، والمزدكية والصابئة... ليقول في كتابه: «أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوي جميع ما تَدَيَّنَ به المتدينون، وانتحلته المتحلون؛ عبرة لمن استبصر، واستبصاراً لمن اعتبر»^(١).

في حين يرى عددٌ من الباحثين أن مصطلح «الأقلية» مصطلح وافد من الثقافة الغربية على الواقع الاجتماعي والثقافي العربي، وذلك في خضمّ التفاعل بين الحضارتين العربية الإسلامية والحضارة الغربية في العصر الحديث، وعليه يرى مَنْ يدعمون هذا الرأي أنه مصطلح مُخَمَّل بالأعباء الإثنية والعنصرية والعرقية التي ارتبط بها في الثقافة الغربية، وذلك عندما استُخدم في الأساس للتعبير عن الأفراد الذين يعتبرون أنفسهم، أو يعتبرهم الآخرون، مشتركين في بعض السمات والخصائص التي تميزهم عن التجمعات الأخرى في مجتمع يستطيعون في إطاره تطوير سلوكهم الثقافي الخاص؛ حيث يؤكد هذا الرأي على تجاوز المصطلح لمعياره العددي إلى اصطباغه بهوية ثقافية» متميزة عن عموم المجتمع الذي وُجدت فيه، ويكون لهذه الهوية الثقافية تبعات فكرية وإدراكية وسلوكية متميزة، ويدعم هذا الرأي فكرة أن التراث الإسلامي والديني والحضاري والتاريخي، وكذلك اللغوي لم يعرف استخدام مصطلح «الأقلية» بهذا المفهوم الوافد الذي يحوي هوية ثقافية، وليست مجرد أقلية عددية أو سياسية، وإنما عرفه بمعناه اللغوي، أي الأقلية العددية، في مقابل الأكثرية العددية، دونما أي مفاضلة أو تمييز بسبب هذه الكثرة أو القلة في الأعداد، وهو ما قد يختلف الباحث مع بعض من هذا الرأي فيما يتصل بأن اللغة العربية لم تحمل أبعداً عدة من الفهم الراهن للأقلية تتجاوز المعيار العددي؛ حيث إن أصل الكلمة في اللغة العربية -كما أشار

(١) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، (تحقيق أمير علي مهنا، وعلي حسن قاعود)، الملل والنحل، (بيروت: دار المعرفة، الجزء الأول، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م- ١٤١٤هـ)، ص ٦٥-٦٠.

وهي وثيقة تناولت عدداً من الحقوق والواجبات؛ منها أن للمسلمين دينهم ولليهود دينهم، وتحدثت عن النصر والنصح، والنصيحة والبر، ورفض الإثم، لتشكّل في مجملها منظومة معتبرة لأحكام تنظيمية وإدارية لأهل المدينة من مسلمين ويهود، وكذا شئون الحرب، ولم تتضمن تمييزاً في مواجهة غير المسلمين ليعدها كثيرون دستور المدينة الأول.

وكذا يأتي «ميثاق العهد» من رسول الله صلى الله عليه وسلم لـ «نصارى نجران»^(١)؛ ليحفظ عدداً من الحقوق المعتبرة لهم؛ تضمن لهم حرية الاختلاف في المعتقد الديني، وكذا حرية إقامة هذا المعتقد المخالف للإسلام، وأيضاً صون الوجود المادي لهم ولعقدهم،

= بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.. وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر المحض من أهل هذه الصحيفة، دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه».

ولمزيد من المعلومات يرجى مراجعة محمد حميد الله الحيدر آبادي - جمع وتحقيق- (القاهرة: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، طبعة ١٩٥٦م)، وأيضاً صالح أحمد العلي، «صحيفة الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة: دراسة لمحتواها ودلائلها علي تنظيمهم»، بحث منشور على الموقع الإلكتروني لمجمع اللغة العربية الأردني على الرابط التالي/ <http://www.majma.org.jo/majma/index.php/2009-02-10-09-36-00/274-64-1.html>

(٣) ومن ميثاق العهد لنصارى نجران ما هو نصه «... ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من ينتحل دعوة النصرانية.. جوار الله وذمة محمد رسول الله علي أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدتهم، وعشيرتهم، وبيعتهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير... أن أحمي جانبهم، وأدبّ عنهم وعن كنائسهم وبيعتهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، حيث كانوا من بر أو بحر، شرقاً وغرباً، بما أحفظ به نفسي وخاصتي وأهل الإسلام من ملتي... فلا يُغير أسقف من أسقفيتيه، ولا راهب من رهبانيته... ولا يُحشرون (أي: لا يكلفون بالتعبئة العامة للقتال)، ولا يُكلف أحد من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلي عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران، فإنه ليس على أهل الذمة مباشرة القتال، وإنما أعطوا الذمة على أن لا يكلفوا ذلك، وأن يكون المسلمون ذبائياً عنهم، وجواراً دونهم، ولا يُكرهوا علي تجهيز أحد من المسلمين إلي الحرب الذي يلقون فيه عدوهم، بقوة وسلاح أو خيل، إلا أن يتبرعوا من تلقاء أنفسهم، فيكون من فعل ذلك منهم وتبرع به حمّد عليه، وعُرف له وكُوفئ به...».

ولمراجعة نص الوثيقة كاملة يمكن الرجوع لكتاب د. محمد عمار، الإسلام والآخر: من يعترف بمن؟ ومن ينكر من؟، (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠١م).

الفكر السياسي الإسلامي كأصل عام، وإن لم يخلُ واقع بعض الأسلاف من خلال مؤقت في التعاطي مع الأقليات ارتبط في الأساس بحكام بعينهم ولا اعتبارات سياسية في الغالب.

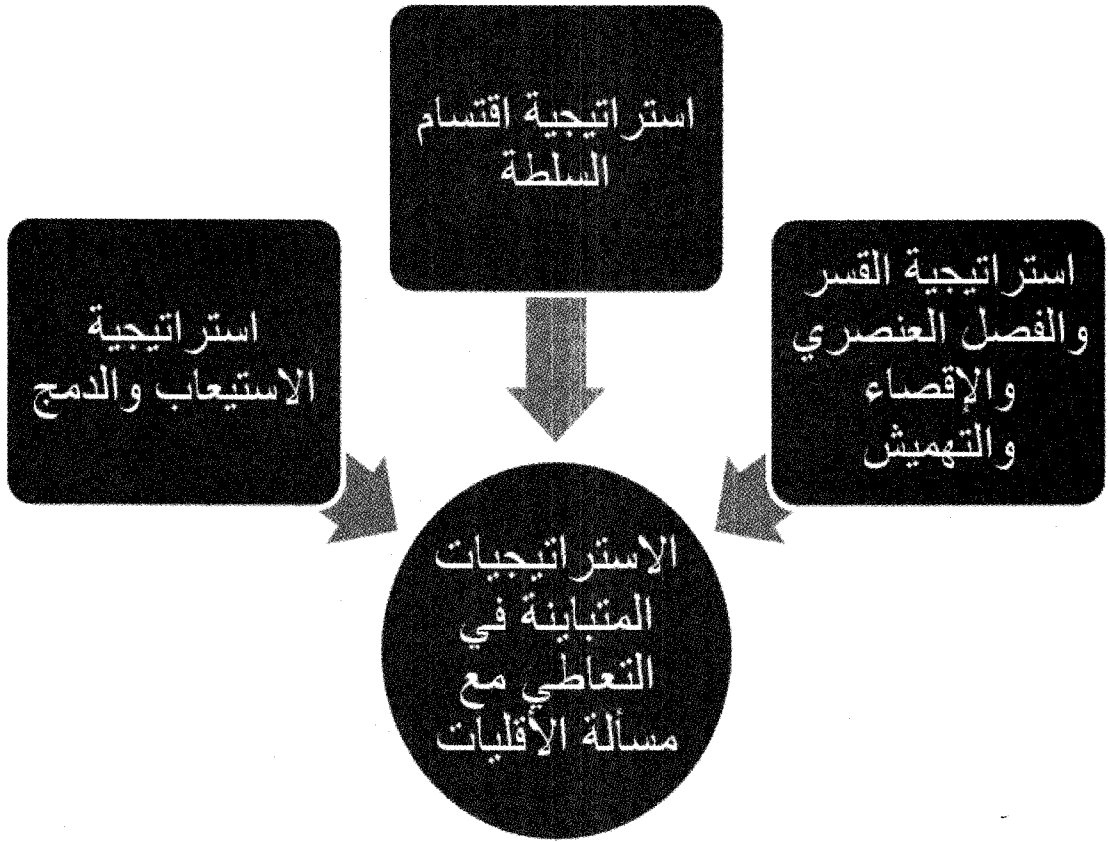
استراتيجيات التعاطي مع الأقليات.. مقاربة بين الخبرة الإسلامية والغربية:

ستسعى الدراسة في هذا المقام لاستعراض الاستراتيجيات المختلفة للتعاطي مع مسائل الأقليات، سواء في الخبرة الإسلامية العربية، أو في الخبرة الغربية؛ لبيان حدود الاختلاف والتمايز بين تلك الاستراتيجيات، والوقوف على حقيقة ملائمتها للواقع المعاصر، ومدى ملائمتها لخصوصية كل حالة إن وُجدت.

في البداية يسعى الباحث جاهداً لعدم سحب مفاهيم تطورت لاحقاً، أو في بيئة وسياقات مغايرة على موقف الإسلام من تلك التجمعات البشرية التي يُمكن وصفها بـ«الأقليات»، وإنما تقديم موقف الإسلام كدين ودولة كموقف متمايز عن غيره من المواقف المستحدثة غربية كانت أو شرقية في التعامل مع مسألة الأقليات؛ حيث يُقر الإسلام بداية الاختلافات والتنوعات والتمايزات في إطار الوحدة التي قدّمها، وذلك في مناسبات قرآنية وحياتية عدة، فنظم الحقوق والواجبات للقبائل اليهودية بالمدينة في إطار دولة الإسلام^(١)، وذلك في إطار ما نُقل عن تراث الأقدمين والمعروف باسم «الصحيفة أو الكتاب»^(٢).

(١) محمد عمار، مرجع سابق، ١٢، ١٤.

(٢) «الصحيفة/ الكتاب» يعده كثيرون بمثابة دستور دولة «المدينة»، وروى ابن الأثير أن الصحيفة أصدرها الرسول صلى الله عليه وسلم في اجتماع بيت أنس بن مالك، بعد الهجرة النبوية، ولم يذكر الحاضرین أو تاريخ الاجتماع، ووضعت الوثيقة لتنظيم العلاقات بين القبائل اليهودية، ومختلف قبائل المدينة، ونقلها عدد من النقات القدماء، ونشرها محمد حميد الله، وعرض لها، ونصت تلك الوثيقة على أن «يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود، فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.. وإن بطانة يهود ومواليهم كانوا من المؤمنين، وإن يهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وعلى اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن=



عما أسدي إليه»، والجزية مشتق على وزن فعلة من المجازاة، بمعنى «أعطوها جزاء ما منحوا من الأمن»، وفي قول ابن المطرز: بل هي من الإجزاء؛ «لأنها تجزئ عن الذمي»^(٢)، وهي في هذا الميثاق -في نظر عدد من الباحثين- «بدل جندي» لا تُحصل إلا من القادرين ماليًا، ممن يستطيعون حمل السلاح وأداء مهمة القتال في سبيل الدفاع عن البلاد، وليست «ضريبة لعدم اعتناق الإسلام»، وآية ذلك أنها لم تُفرض على الرهبان ورجال الدين، وكذا أن من انخرطوا في صفوف جيش المسلمين وهم على دياناتهم لم تُفرض عليهم، وإنما اقتسموا الغنائم مع المسلمين على قدم المساواة^(٣).

وعليه أقر الدين الإسلامي منظومة حقوقية معتبرة لغير المسلمين، خاصة النصارى، وفُرت مجموعة من

أما بشأن «الجزية»^(١) فهي في اللغة مشتقة من مادة (ج ز ي)؛ حيث يقول العرب: «جزى، يجزي أي: كافأ

(١) ذهب عدد من الباحثين إلى أن الجزية في الإسلام ليست بابتاوة يدفعها المغلوبون لغالبهم، بل هي بمثابة عقد مبرم بين الأمة المسلمة والشعوب التي دخلت في رعايتها، فهي عقد بين طرفين، ترعاه أوامر الله بالوفاء بالعهود واحترام العقود، ويوثقه وعيد النبي صلى الله عليه وسلم لمن أخل به؛ حيث ظهر مصطلح أهل الذمة، فالذمة هي التي يحرم نقضها ويجب الوفاء بها ورعايتها، وقد أجمع العلماء على أن الجزية تُؤخذ من المقاتلين، وبالتالي لا تُفرض على النساء والأطفال. ولقد أمر الله في كتابه الكريم ونبيه صلى الله عليه وسلم في حديثه بالإحسان لأهل الجزية وحسن معاملتهم، وقد اختلف العلماء في مقدار الجزية، فقد ذهب الحنفية إلى أن الجزية على ضريبتين: الجزية الصلحية، وليس لها حد مُعين بل تتقدر بحسب ما يقع عليه الاتفاق بين الإمام وأهل الذمة، والجزية العنوية وهي بحسب غنى الشخص وفقره، فيوضع على الغني ثمانية وأربعون درهماً، وعلى المتوسط أربعة وعشرون، وعلى الفقير المعتدل اثنا عشر درهماً، وذهب المالكية إلى أن الجزية ضريبتان أيضاً؛ صلحية وعنوية، فالجزية الصلحية تتقدر بحسب ما يتفق عليه الطرفان، والجزية العنوية تقدر بأربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعين درهماً على أهل الفضة، وعند الشافعية أن أقل الجزية دينار ذهبي خالص، ولا حد لأكثرها، وعند الحنابلة أن المرجع في الجزية إلى الإمام، فله أن يزيد وينقص على قدر طاقة أهل الذمة، ولمزيد من المعلومات يمكن مراجعة مركز الفتوى بموقع إسلام ويب.

(٢) منتقد بن محمود السقار، «الجزية في الإسلام»، دراسة منشورة على موقع «صيد الفوائد» الإلكتروني، ومتاح عبر الرابط التالي: <http://www.saaid.net/Doat/mongiz/14.htm> (٢٠١٣/١٠/٢)

(٣) محمد عمارة، مرجع سابق، ١٥.

وبلغاريا، وتركيا، وكذا المعاهدات الخاصة التي عُقدت مع بعض الدولة المستحدثة، ومنها بولونيا، ويوغوسلافيا؛ حيث تضمنت هذه البنود عدداً من الضمانات الخاصة بالأقليات، والتي يجب على الدول المذكورة مراعاتها تحت إشراف عصبة الأمم، والتي كان يحق لها - في ذلك الوقت- النظر عبر مجلس الوصاية التابع لها، في مختلف المخالفات والانتهاكات التي تتعرض لها الأقليات، وكذا أصدرت الجمعية العامة لعصبة الأمم عام ١٩٢٣م

قراراً طالبت فيه الدول غير الموقّعة على نظام حماية الأقليات، بمراعاة قواعد العدل في معاملتها للأقليات الخاضعة لسيادتها.

ومع نشأة الأمم المتحدة فقد تراجعت عن النص على نظام محدد لحماية الأقليات، وإنما اكتفت بالإشارة إلى المبادئ العامة

حول هذا الموضوع، وذلك توفيقاً بين حرص الدول على سيادتها ومسألة التدخل في الشؤون الداخلية للدول تحت ذريعة خاصة كحماية الأقليات من ناحية وبين منظومة حماية السلم والأمن الدوليين بصفة عامة، لتتخذ موقفاً يرى أن حماية الأقليات مسألة اختصاص داخلي كأصل عام.^(١)

وعليه لم ينص ميثاقها صراحة على نظام خاص بحماية الأقليات، وإنما اكتفت بالإشارة إلى الحماية التي نص عليها بشكل محدد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان؛ حيث نصت المادة ٥٥ من الإعلان السالف أن: «الأمم المتحدة تؤمن الاحترام الدولي لحقوق الإنسان والحريات العامة للجميع دون تفرقة في العنصر، أو الجنس، أو اللغة، أو الدين».

كما تضمنت المادة ١٣ من الإعلان المذكور أن:

(١) تقرير «غاي ماكدوغال»، الخبيرة المستقلة المعنية بقضايا الأقليات في الأمم المتحدة، والمقدم إلى مجلس حقوق الإنسان بالأمم المتحدة، الدورة العاشرة، في ١٦ فبراير ٢٠٠٩م، بند ٣ من جدول الأعمال، ص ١٥.

الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لهم عدت سابقة معتبرة للإقرار بحقوق الأغيار في مختلف الحضارات السابقة، ومدخلاً معتبراً لإدارة الدولة لهذا الملف في المستقبل، وقد ذهب عدد من الباحثين إلى أن النبل من هذه الحقوق في فترات زمنية لاحقة -كما سبق وأشار الباحث- ارتبط بظرفية زمنية ومكانية محددة، والتصق بحكام بذاتهم، وذلك كخلل مؤقت لم يستمر طويلاً، وإنما قُوبل بإنكار خاصة من المؤرخين والمفكرين.

يؤرخ باحثون إلى أن بروز مفهوم «حماية الأقليات» على الأجندة الدولية بشكل معتبر بعد الحرب العالمية الأولى؛ حيث تحدثت العديد من المعاهدات الدولية التي أبرمت بمناسبة قيام دول جديدة مستقلة تضم أقليات دينية وقومية عديدة، بنوداً صريحة تنص على حماية الأقليات.

وباستعراض الخبرة الغربية في التعاطي مع مسألة الأقليات فإنه من الجيد البدء بما قد يعتبره الباحث «الاستراتيجية الأممية»؛ نسبة إلى الأمم المتحدة في التعاطي مع مسألة الأقليات، ثم استعراض الاستراتيجيات المختلفة للدول في التعاطي مع

تلك المسألة، وتطور «الاستراتيجية الأممية» - إذا جاز التعبير- حول مبدأ أصيل فيها يُسمى مبدأ «حماية الأقليات - Protection of Minorities»؛ حيث يمثل هذا المبدأ - وفقاً لإعلانات الأمم المتحدة ذات الصلة - مدخلاً معتبراً في التعاطي مع تلك المسألة، وهو مبدأ سياسي قانوني ارتبط تاريخياً بانهيار الإمبراطوريات المتعددة القوميات في القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين، وذلك في ظل تنامي نزعات العديد من القوميات الخارجة من عباءة تلك الإمبراطوريات المتحللة لتشكيل دول خاصة بها.

ويؤرخ باحثون إلى بروز هذا المفهوم «حماية الأقليات» على الأجندة الدولية بشكل معتبر بعد الحرب العالمية الأولى؛ حيث إن العديد من المعاهدات الدولية التي أبرمت بمناسبة قيام دول جديدة مستقلة تضم أقليات دينية وقومية عديدة، تضمنت بنوداً صريحة تنص على حماية الأقليات فيها. ومثال على ذلك معاهدات الصلح الأربع التي أبرمت مع كل من النمسا، والمجر،

أشهر تلك الاستراتيجيات الكلاسيكية التي تهدف لفرز الأكثرية عن الأقلية، وأشهر نماذجه النموذج الجنوب إفريقي (أبارتيد) إبان فترة حكم الطبقة البيضاء؛ حيث لا يُشير مصطلح «أقلية» في هذه الحالة لأقلية عددية، وإنما لأقلية سياسية، والتي تستند لصورة ذهنية تحطّ من شأن ذوي البشرة السمراء في إدراك الفئة الحاكمة، وكذلك أيضًا النموذج الأمريكي حتى الربع الثالث من القرن العشرين، وكذا دولة الاحتلال لفلسطين^(٤).

وقد يشتمل «الفصل العنصري» على مجموعة من السياسات التي تقرضها الطبقة الحاكمة التي تميز نفسها عنصرياً، بالقوة، ومن خلال القانون في مواجهة «العنصر الأدنى» يقضي بتحديد مناطق سكنها، واستخدام مرافق خدمات منفصلة، ويكون مستواها أدنى في كل الأحوال، كالمدارس والمستشفيات ووسائل المواصلات العامة، وأماكن الترفيه، وكذا الحرمان من فرص العمل، وحجب حق الانتخاب والزواج المختلط^(٥).

ومن تلك الاستراتيجيات التي تحوي تمييزاً في حق «الأقليات» وإن كانت أقل وطأة من سابقتها هي التهميش والإنكار، وتستند تلك الاستراتيجية على إنكار وجود مشكلة عرقية أو عنصرية، وقد تتضمن رفض فكرة توفير ضمانات دستورية للأقليات العرقية، وأيضاً حظر استخدام كلمات ذات دلالات عرقية «سود/ بيض» أو الإشارة إلى تلك القوميات بأسمائها، وإنما إبدالها بمسميات غير ذي دلالة عرقية ك «بدو ومستقرين»، ومن أمثلة ذلك التعاطي الموريتاني في أعقاب استقلال الدولة مع القوميات الزنجية^(٦).

«الأمم المتحدة ستقوم بدراسات لتأمين حقوق الإنسان دون تفرقة في العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين»، كما أكدت اللجنة الاقتصادية والاجتماعية التابعة للأمم المتحدة أن من ضمن جدول أعمالها تقديم الاقتراحات والتقارير حول قضايا عدة، أهمها قضية حماية الأقليات^(٧).

أما عن الاستراتيجيات المتباينة في التعاطي مع مسألة الأقليات فهي عدة، تتراوح بين استراتيجيات عنيفة، وصولاً إلى استراتيجيات سلمية أو غير عنيفة، ومنها استراتيجيات القسر والفصل العنصري والإقصاء والتهميش، واستراتيجيات الاستيعاب والدمج^(٨)، وأولى تلك الاستراتيجيات العنيفة هي استراتيجية «القسر»، والتي تستند إلى هيمنة الأكثرية على الأقليات، وقد تصل إلى مرحلة التطهير العرقي أو الترحيل الجبري^(٩).

ويعد «الفصل العنصري - Racial Segregation» أحد

(١) عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، (محررون)، موسوعة السياسة، المجلد الثاني (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د ت)، ص ٥٨٠، ٥٨١.

(٢) الاستراتيجية: هي علم وفن وضع الخطط العامة المدروسة بعناية والمصممة بشكل متلاحق ومتفاعل ومنسق لاستخدام الموارد -مختلف أشكال الثروة والقوة- لتحقيق الأهداف الكبرى، وقد شاع استخدام المصطلح في العقود الأخيرة وهو من أصل يوناني، ويعني «فن الأشياء» أو «الخطط العامة»، ثم استُخدمت أيام اليونان لتعني «فن قيادة القوات العامة»، وقد تطور استخدام المصطلح علي يد «كلاوزفيتز» في القرن التاسع عشر الذي درس العلوم العسكرية على أسس عقلية فعرف الاستراتيجية على أنها «نظرية استخدام المعارك كوسيلة للوصول إلى هدف الحرب»، وذلك في ضوء مفهومه الأساس الذي يقول: إن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى، في حين ذهب آخرون من أمثال «ليدل هارت»، و«أندريه بوفر»، و«ماو تسي تونغ» إلى أنها «علم وفن إعداد الخطط والوسائل التي تعالج الوضع الكلي للصراع الذي تُستخدم فيه القوة بشكل مباشر وغير مباشر من أجل تحقيق هدف السياسة الذي يتعذر تنفيذه بوسائل أخرى». ولمزيد من المعلومات انظر عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، (محررون)، موسوعة السياسة، المجلد الأول (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د ت)، ص ١٦٩.

(٣) سمية بلعيد، «النزاعات الإثنية في إفريقيا وتأثيرها على مسار الديمقراطية فيها: جمهورية الكونغو الديمقراطية نموذجاً»، رسالة ماجستير منشورة، (الجزائر: جامعة منتوري - قسنطينة، كلية الحقوق، قسم العلوم السياسية والعلاقات الدولية، ٢٠٠٩/٢٠١٠م)، ص ٢١.

(٤) يعد إرثاً لنظام العبودية للسود، والذي كان سائداً إبان الحرب الأهلية الأمريكية في القرن التاسع عشر، وأطلقت على تلك التشريعات الأمريكية قوانين «جيم كرو».

(٥) عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، (محررون)، موسوعة السياسة، المجلد الرابع (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د ت)، ص ٥٤٧.

(٦) «دراسة حالة: جمهورية موريتانيا الإسلامية»، (القاهرة، وزارة الدفاع، أكاديمية ناصر العسكرية العليا، مركز الدراسات الاستراتيجية للقوات المسلحة، نوفمبر ٢٠٠٧م)، ص ٨.

التمايز في المجتمع، وأحد نماذجه التاريخية إدارة العلاقة بين الكاثوليك والبروتستانت في هولندا.

في نهاية العرض لتلك الاستراتيجيات التي تتراوح بين عنيفة وأقل عنفاً وغير عنيفة يمكن القول: إن أحد المحددات الرئيسية - ضمن محددات أخرى تتصل بطبيعة النظام الحاكم، وطبيعة الأقلية وتكوينها، وامتداداتها الإقليمية، وطبيعة الدولة ذاتها- في اتباع دولة أو أخرى لإحدى تلك الاستراتيجيات هي مسألة طبيعة مطالبات الأقلية ذاتها، وهل هي تتصل بمطالبات سياسية أو ثقافية، أو اجتماعية واقتصادية، وهي المطالبات التي تُعدّ محرّكاً معتبراً في طريقة تعاطي الدولة معها، كما سيرد لاحقاً.

مسألة الأقليات في العالم الإسلامي.. بين خبرة الماضي وتحديات المستقبل.. حلول مرهونة:

تسعى الدراسة في هذا المقام إلى الوقوف على مسألة الأقليات في بلدان العالم الإسلامي، وحدود مسائل الهوية، والمطالبات الثقافية والاقتصادية والسياسية لها، وخبرة التعاطي معها، والمحددات الرئيسية المؤثرة في هذه الخبرة، ومع ندرة المسوح الإحصائية لهذه المسألة فإنه من الملائم تقديم استعراض غير مغلّ لها في بلدان العالم الإسلامي مع التركيز على الأقليات الدينية؛ لأنها قد تتضمن في كثير من الأحيان أقلية عرقية؛ حيث إنه من المقبول اعتبارها كمحدّد رئيس للأقلية، وذلك في ضوء أن نطاق الدراسة هو العالم الإسلامي، وذلك وفقاً للجدول التالي:

أما سياسات «الصهر والاندماج - Assimilation- Integration» فتعود جذورها إلى ظهور تيار سياسي وفكري ينادي بانصهار الأقليات، وبصفة خاصة اليهود في المجتمعات التي تعيش فيها على سند الانتماء للدولة القومية فقط، وذلك في أعقاب الثورة القومية في الغرب، وذلك على عكس النظام الإقطاعي الذي كان يستند إلى الفصل بين الطبقات والفئات والأقليات في مواجهة بعضها البعض فصلاً كاملاً، وتتراوح تلك الاستراتيجية بين الاندماج الذي يعني أن يصبح الإنسان جزءاً من كل؛ دون أن يفقد بالضرورة صفاته الخاصة، والانصهار والذوبان الذين يستندان إلى ضرورة فقدان الجزء لسماته الخاصة في إطار الكل^(١).

وقد تبلورت تلك الاستراتيجية في الوقت الراهن في إطار ما شاع بتسميته استراتيجية «الاستيعاب والدمج» في ثلاثة محاور رئيسية؛ أولها تكوين ثقافة وأنظمة تعليم وأساليب تربوية موحدة، وثاني تلك المحاور هو الاستيعاب المادي عبر صهر الجماعات ببعضها؛ إما بإلحاقها بهوية الجماعة الرئيسة أو تكوّن هوية جديدة، وثالث تلك المحاور هي عمليات الاستيعاب المؤسسي بإنشاء مؤسسات يشارك فيها جميع الأفراد المنتمين للمجتمع دون الاعتبار لجماعاتهم الأولية، وعلى أسس موضوعية.^(٢)

وقد تبلورت استراتيجية أخرى يمكن تسميتها باستراتيجية «اقتسام السلطة»، وتتصل في الأساس بالبعد السياسي؛ حيث يتشكل ائتلاف حاكم ذي قاعدة معتبرة يستوعب في داخله مختلف الجماعات

(١) عبد الوهاب الكيالي، وآخرون، (محررون)، موسوعة السياسة، المجلد الثالث (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د ت)، ص ٦٥٨.

(٢) سمية بلعيد، مرجع سابق، ص ٢١.

جدول يوضح نسبة الأقليات الدينية في بلدان العالم الإسلامي^(١)

م	الدولة	السكان	الأكثرية / الأقلية
١	جمهورية أذربيجان	٩,٥٩٠,١٥٩	مسلمون ٨٢,٤٪، روس أرثوذكس ١٢,٢٪، أرمن يونان أرثوذكس ٢,٢٪، أخرى ١,٨٪
٢	المملكة الأردنية الهاشمية	٦,٤٨٢,٠٨١	مسلمون سنة ٩٢٪، مسيحيون ٦٪ (أغليتهم يونان أرثوذكس، وبعضهم يونان ورومان كاثوليك، سوريون أرثوذكس، أقباط أرثوذكس، أرمن أرثوذكس، بروتستانت)، ٢٪ أخرى (شيعة ودروز)
٣	جمهورية أفغانستان الإسلامية	٣١,١٠٨,٠٧٧	٨٠٪ مسلمون سنة، ١٩٪ شيعة، ١٪ أخرى.
٤	جمهورية ألمانيا	٢,٠١١,٤٠٥	مسلمون ٧٠٪، أرثوذكس ٢٠٪، رومان كاثوليك ١٠٪
٥	الإمارات العربية المتحدة	٥,٤٧٢,٩٧٢	مسلمون ٩٦٪ منهم ١٦٪ شيعة (معظمهم إيرانيون)، ٤٪ أخرى تضم مسيحيين وهندوساً.
٦	جمهورية إندونيسيا	٢٥١,١٦٠,١٢٤	٨٦,١٪ مسلمون، ٥,٢٪ بروتستانت، ٢٪ رومان كاثوليك، ١,٨٪ هندو، وأخرى ٤,٤٪
٧	جمهورية أوزبكستان	٢٨,٦٦١,٦٢٧	٨٨٪ مسلمون معظمهم من السنة، ٩٪ أرثوذكس شرقيون، ٣٪ أخرى.
٨	جمهورية أوغندا	٣٤,٧٥٨,٨٠٩	٤١,٩٪ رومان كاثوليك، ٤٢٪ بروتستانت بطوائفها، ١٢,١٪ مسلمون، أخرى ٢,٢٪، ١,٩٪ مجهول إحصائياً.
٩	الجمهورية الإسلامية الإيرانية	٧٩,٨٥٢,٩٠٠	مسلمون ٩٨٪ منهم ٨٩٪ شيعة، ٩٪ سنة، ٢٪ أخرى تضم يهوداً ومسيحيين ونهائين، وزرادشتية.
١٠	جمهورية باكستان الإسلامية	١٩٢,٢٣٨,٨٦٨	٩٦,٤٪ مسلمون (منهم من ٨٥٪ إلى ٩٠٪ سنة، ومن ١٠٪ إلى ١٥٪ شيعة)، ٢,٥٪ أخرى تضم مسيحيين وهندو.
١١	مملكة البحرين	١,٢٨١,٢٢٢	٨١,١٪ مسلمون سنة وشيعة، ٩٪ مسيحيون، ٩,٨٪ أخرى.

(١) قام الباحث بتصميم جدول مسحي للسكان والأقليات في دول العالم الإسلامي الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي، وقد استند الباحث للبيانات الإحصائية لصفحة كل دولة من دول العالم الإسلامي من الموقع الإلكتروني لمكتبة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية المتاح على الإنترنت، وذلك في سبيل توحيد مصدر البيانات الإحصائية، مع ضرورة الحيطة بشأن تلك البيانات الإحصائية عند الاعتماد عليها، ولا يضم الموقع ملفاً لدولة فلسطين، وإنما يضم ملفاً لقطاع غزة والضفة الشرقية كلاً على حدة، وعليه استند الباحث لموقع الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني في بيانات دولة فلسطين، وأغلب البيانات لعدد السكان في عام ٢٠١٣م، أما التوزيع العرقي والديني فيتراوح بين بداية ونهاية العقد السابق من ذات المصدر.

موقع كتاب الحقيقة بمكتبة وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية / <https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/>
موقع الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني

<http://www.marefa.org/index.php/>

http://www.pcbs.gov.ps/Portals/_Rainbow/Documents/gover.htm

م	الدولة	السكان	الأكثرية/الأقلية
١٢	بروناي دار السلام	٤١٥,٧٧٧	٢٧٪ مسلمون، ١٢٪ بوذيون، ١٠٪ مسيحيون، ١٠٪ أخرى تتضمن ديانات محلية.
١٣	جمهورية بنغلاديش الشعبية	١٦٣,٦٥٤,٨٦٠	٨٩,٥٪ مسلم، ٩,٦٪ هندي، ٠,٩٪ أخرى.
١٤	جمهورية بنين	٩,٨٧٧,٣٩٢	٢٧,١٪ مسيحيون، ٢٤,٤٪ مسلمون، ١٧٪ فونون Vodoo، ١٠,٤٪ بروستانت (بموائيم)، ٥,٢٪ مسيحيون آخرون، ١٥,٥٪ آخرون.
١٥	بورkina فاسو	١٧,٨١٢,٩٦١	٦١,٥٪ مسلمون، ١٩٪ كاثوليك، ١٥,٣٪ وشنون، ٤,٢٪ بروستانت، ٠,٦٪ أخرى، ٠,٤٪ مجهول إحصائياً.
١٦	جمهورية طاجيكستان	٧,٩١٠,٠٤١	٨٥٪ مسلمون سنة، ٥٪ شيعة، ١٠٪ أخرى.
١٧	الجمهورية التركية	٨٠,٦٩٤,٤٨٥	٩٩,٨٪ مسلمون معظمهم سنة، ٠,٢٪ أخرى معظمهم مسيحيون ويهود، ويوزع معظم المسلمين على ٧٥-٧٧٪ أتراك، ١٨٪ أكراد.
١٨	تركمنستان	٥,١١٢,٠٤٠	٨٩٪ مسلمون، ٩٪ أرثوذكس شرقيون، ٢٪ مجهولون إحصائياً.
١٩	جمهورية تشاد	١١,١٩٢,٤٥٢	٥٢,١٪ مسلمون، ٢٠,١٪ كاثوليك، ١٤,٢٪ بروستانت، ٧,٢٪ وشنون، ٠,٥٪ أخرى، ١,٧٪ مجهولون، ٢,١٪ ملحدون.
٢٠	جمهورية توغو	٧,١٥٤,٣٣٧	٢٩٪ مسيحيون، ٢٠٪ مسلمون، ٥١٪ معتقدات محلية.
٢١	الجمهورية التونسية	١٠,٨٢٥,٨٧٣	٩٨٪ مسلمون، ١٪ مسيحيون، ١٪ يهود وأخرى.
٢٢	الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية	٢٨,٠٨٧,٨١٢	مسلمون سنة ٩٩٪، مسيحيون ويهود ١٪.
٢٣	جمهورية جيبوتي	٧٩٢,١٩٨	٩٤٪ مسلمون، ٦٪ مسيحيون.
٢٤	المملكة العربية السعودية	٢٦,٩٣٩,٥٨٣	١٠٠٪ مسلمون، موزعون على ٩٠٪ عرب، ١٠٪ أسوي آسيوي.
٢٥	جمهورية السنغال	١٣,٣٠٠,٤١٠	٩٤٪ مسلمون، ٥٪ مسيحيون (معظمهم رومان كاثوليك)، ١٪ معتقدات محلية.
٢٦	جمهورية السودان	٣٤,٨٤٧,٩١٠	مسلمون سنة باستثناء جماعات قليلة من المسيحيين، ويشكل العرق السوداني العرب بنسبة ٧٠٪ من مجمل السكان تقريباً.
٢٧	الجمهورية العربية السورية	٢٢,٤٥٧,٣٣٦	ديناً / ٧٤٪ مسلمون سنة، ١٦٪ (دروز وعلويون)، ١٠٪ مسيحيون بموائيمهم، وأقلية يهودية في دمشق وحلب، عرقياً / ٣٠,٣٪ عرب، ٩,٧٪ أكراد وأرمن، وأخرى.
٢٨	جمهورية سورينام	٥٦٦,٨٤٦	٢٧,٤٪ هندي، ٢٥,٢٪ بروستانت، ٢٢,٨٪ رومان كاثوليك، ١٩,٦٪ مسلمون، ٥٪ معتقدات محلية.
٢٩	جمهورية سيراليون	٥,٦١٢,٦٨٥	٦٠٪ مسلمون، ١٠٪ مسيحيون، ٣٠٪ معتقدات محلية.
٣٠	جمهورية الصومال	١٠,٣٥١,٥٦٨	مسلمون سنة، والعرق الصومالي يبلغ ٨٥٪، ١٥٪ أخرى.
٣١	جمهورية العراق	٣١,٨٥٨,٤٨١	٩٧٪ مسلمون (٦٠-٦٥٪ شيعة، ٢٢-٢٧٪ سنة)، ٣٪ مسيحيون وأخرى، وعرقياً ٧٥-٧٨٪ عرب، ١٥-٢٠٪ أكراد، ٥٪ تركمان وأشوريون وأخرى.
٣٢	سلطنة عمان	٣,١٥٤,١٣٤	٧٥٪ مسلمون إباضية، ٢٥٪ أخرى (سنة، شيعة، هندي).
٣٣	جمهورية الغابون	١,٦٤٠,٢٨٦	٥٥-٧٥٪ مسيحيون، أقل من ١٪ وشنون ومسلمون.
٣٤	جمهورية غامبيا	١,٨٨٢,٠٥١	٩٠٪ مسلمون، ٨٪ مسيحيون، ٢٪ معتقدات محلية.

رقم	الدولة	السكان	الأقلية/الأقليات
٢٥	جمهورية غويانا	٧٣٩,٩٠٢	٢٢,٥ بروستانت بطوائفهم، ٢٨,١ هندو، ٢٨,١ رومان كاثوليك، ٢٧,٢ مسلمون، ٢٧,٧ مسيحيون آخرون، ٢٥,٥ أخرى، ٢٥,٢ مجهول إحصائياً.
٢٦	جمهورية غينيا	١١,١٧٦,٠٢٦	٨٥ مسلمون، ٨ مسيحيون، ٧ معتقدات محلية.
٢٧	جمهورية غينيا بيساو	١,٦٦٠,٨٧٠	٥٠ مسلمون، ٤٠ معتقدات محلية، ١٠ مسيحيون.
٢٨	دولة فلسطين	٤,٤٢٠,٥٤٩	لا يوجد إحصاء رسمي في هذا الشأن.
٢٩	جمهورية جزر القمر الاتحادية الإسلامية	٧٥٢,٢٨٨	٩٨ مسلمون سنة، ٢ رومان كاثوليك.
٣٠	جمهورية سيرقيزيا	٥,٥٤٨,٠٤٢	٧٥ مسلمون، ٢٠ روس أرثوذكس، ٥ أخرى.
٤١	دولة قطر	٢,٠٤٢,٤٤٤	٧٧,٥ مسلمون، ٨,٥ مسيحيون، ١٤ أخرى مورعون عرقياً على ٤٠ عرب، ١٨ هندو، ١٨ باكستانيون، ١٠ إيرانيون، ١٤ أخرى.
٤٢	جمهورية كازاخستان	١٧,٧٣٦,٨٩٦	٧٠,٢ مسلمون، ٢٦,٢ مسيحيون (منهم ٢٢,٩ روس أرثوذكس، ٢,٢ مسيحيون آخرون)، ٢,٢ أرثوذكس، ٢,٢ مسيحيون آخرون، ٢,٢ أخرى.
٤٣	جمهورية الكاميرون	٢٠,٥٤٩,٢٢١	١٠ مسيحيون، ١٠ معتقدات محلية، ٢٠ مسلمون.
٤٤	كويت دي فوار	٢٢,٤٠٠,٨٢٥	٢٨,٦ مسلمون، ٢٢,٨ مسيحيون، ١١,٩ معتقدات محلية.
٤٥	دولة الكويت	٢,٦٩٥,٣١٦	٨٥ مسلمون (٧٠ سنة، ١٢ شيعة)، ١٥ أخرى (مسيحيون وهنود، وأخرى).
٤٦	الجمهورية اللبنانية	٤,١٣١,٥٨٢	٥٩ مسلمون (شيعة، سنة، دروز، اسماعيلية، علويون)، ٢٩ مسيحيون (بمختلف طوائفهم)، ١,٢ أخرى، وعرقياً ٩٥ عرب، ٤ أرمن، ١ أخرى.
٤٧	ليبيا	٦,٠٠٢,٢٤٧	٨٧ مسلمون سنة، ١٢ أخرى.
٤٨	جمهورية المائيف	٣٩٣,٨٨٨	جميعهم مسلمون سنة، وأغرفهم هنود جنوبيون، وسنغاليون، وعرب.
٤٩	جمهورية مالي	١٥,٩٦٨,٨٨٢	٩٤,٨ مسلمون، ٢,٤ مسيحيون، ٢ وثنيون.
٥٠	ماليزيا	٢٩,٦٢٨,٣٩٢	دينياً: ٦,٤ مسلمون، ١٩,٢ بولنديون، ١,١ مسيحيون، ٢,٢ هندو، ٢,٦ ديانات صينية تقليدية، وعرقياً: ٥٠ ملايين، ٢٢,٧ مسيحيون، ١١ سكان أصليون، ٧,١ هندو، ٧,٨ أخرى.
٥١	جمهورية مصر العربية	٨٥,٢٩٤,٢٨٨	٩٠ مسلمون سنة، ٩ أقباط، ١ مسيحيون آخرون.
٥٢	المملكة العربية	٢٢,٦٤٩,١٣٠	٩٩ مسلمون، ١ مسيحيون وحوالي ٦٠٠٠ يهودي، وعرقياً ٩٩ عرب-أمازيغ، و١ أخرى.

م	الدولة	السكان	الأقليات/الأقليات
٥٣	الجمهورية الإسلامية الموريتانية	٢,٤٢٧,٦١٠	١٠٠٪ مسلمون، و٤٠٪ خليط بين البيضان والزنج، ٢٠٪ بيضان، ٢٠٪ زنج.
٥٤	جمهورية موريتانيا	٢٤,٠٩٦,٦٦٩	٢٨,٤٪ كاثوليك، ٢٧,٧٪ بروتستانت بطوائفهم، ١٧,٩٪ مسلمون، ٧,٢٪ أخرى.
٥٥	جمهورية النيجر	١٦,٨٩٩,٣٢٧	٨٠٪ مسلمون، ٢٠٪ أخرى (مسيحيون ومعتقدات محلية).
٥٦	جمهورية نيجيريا الاتحادية	١٧٤,٥٠٧,٥٣٩	٥٠٪ مسلمون، ٤٠٪ مسيحيون، ١٠٪ معتقدات محلية.
٥٧	الجمهورية اليمنية	٢٥,٤٠٨,٢٨٨	مسلمون سنة وشيعة، ومجموعات صغيرة من اليهود، والمسيحيين والهنود.

ومن هذه الدول التي تدعم هذا الرأي الجابون (عضو منظمة التعاون الإسلامي منذ ١٩٧٤م)؛ حيث تقل فيها نسبة المسلمين عن ١٪، وغويانا (عضوية المنظمة ١٩٩٨م)؛ حيث يمثل المسلمون فيها ٧,٢٪، وأوغندا (عضوية المنظمة عام ١٩٧٤م)؛ حيث يعتبر المسلمون فيها أقلية (١,٢٪) في مقابل أغلبية مسيحية معتبرة، وكذا توجو (عضوية المنظمة ١٩٩٧م)؛ حيث تبلغ نسبة المسلمين (٢٠٪)، وبنين (عضوية المنظمة ١٩٨٣م) حيث تبلغ نسبة المسلمين (٢٤,٤٪)، وجمهورية سورينام (عضوية المنظمة في ١٩٩٦م)؛ حيث تبلغ نسبة المسلمين (١٩,٦٪)، والكاميرون (عضوية المنظمة في ١٩٧٤م) (٢٠٪)، وموزمبيق (عضوية ١٩٩٤م) (١٧,٩٪) بدرجة أو بأخرى، وذلك في مقابل دول أخرى لا تنتمي للعالم الإسلامي رسمياً وفقاً لمعيار انضمامها لمنظمة التعاون الإسلامي، ومع ذلك فإنها تضم أقليات إسلامية معتبرة كحالة إثيوبيا؛ حيث يقدر عدد المسلمين فيها بـ (٣٣,٩٪) من السكان البالغ عددهم (٩٣,٨٧٧,٠٢٥) وفقاً لبيانات يوليو ٢٠١٣، وفي تقديرات أخرى حوالي ٥٠٪ من السكان، ليشكل

وبقراءة البيانات الإحصائية السابقة يمكن الوقوف على عدد من الملاحظات كالتالي:

أولى تلك الملاحظات: أنه فيما يتصل بدول العالم الإسلامي ذاته، يرى الباحث أن الاستناد للتصنيف الرسمي لما يُسمى بـ«بلدان العالم الإسلامي» وفقاً لعضوية منظمة التعاون الإسلامي، في إطار دراسة مسألة الأقليات يُعد تصنيفاً واجب المراجعة؛ حيث إن هناك عدداً من الدول الأعضاء - من بلدان العالم الإسلامي - يُعد المسلمون فيها أقلية، ومن ثمَّ وجب الاعتبار لوضعهم في مقابل الأقليات الأخرى، حيث إنه وفقاً للمعيار العددي والذي يُشير إلى أن الدول التي تزيد فيها نسبة المسلمين عن ٥٠٪ أو أكثر اعتُبرت من الدول الإسلامية، وإذا قل عددهم عن ذلك اعتُبرت أقلية إسلامية، فإنه وفقاً لهذا المعيار فإن عدداً من دول العالم الإسلامي لا تضم أغلبية مسلمة، وإنما أقليات مسلمة^(١).

(١) نزهة يقضان صالح الجابري، «جغرافية العالم الإسلامي»، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، مقرر جغرافية العالم الإسلامي، ٢٠١٣م، ص ٢، عبر الرابط التالي للجامعة:

http://uqu.edu.sa/files2/tiny_mce/plugins/filemanager/files/4083620/__.pdf

ورابع تلك الملاحظات: أن أحد المؤثرات المعتبرة في مسألة التعاطي مع الأقليات ملف المطالب السياسية، ومدى تبلورها في مواجهة الدولة، كالحالة السودانية والتي انتهت بانفصال جنوب السودان، وما يرتبط بها من ادعاءات الإهمال والتهميش للجنوبيين، أو المطالبات الكردية في كل من تركيا والعراق وسوريا في الأساس، والتي ارتبطت بتراكم تاريخي لمطالبات كردية في هذا الشأن؛ كثورات وانتفاضات أكراد العراق في عقود مختلفة على مدار القرنين التاسع عشر والعشرين^(٣)، وحتى سياسات المواجهة العنيفة التي تبنتها بعض النظم الحاكمة كالعراق^(٤).

إن التعاطي مع مسألة الأقليات وفقاً لتعاليم الدين الإسلامي هو معالجة موضوعية وواعية وسباقة لا تنال من حقوق الأقليات وواجباتهم في البلد المسلم، وفق رؤية أكثر اتساعاً وأعمق تفهماً لضرورات التماسك المجتمعي دون التمييز السلبي أو الإيجابي للأقليات.

خامس تلك الملاحظات: أنه يمكن الوقوف على عدد من التحديات التي تتصل بمسألة الأقليات، منها في ظل عولمتها، على الرغم من التمايز الطرقي بين وضعية الأقليات في بلدان العالم الإسلامي، فمثلاً في إفريقيا -وهي تعاني من مشكلات أكثر اتساعاً وعمقاً- تُعد مسألة الأقليات رقمًا بسيطاً في معادلة اقتصادية واجتماعية وسياسية أصعب، تتسع لتشمل إشكاليات الاندماج الوطني لمختلف مكونات المجتمع، وتنامي الولاءات التحتية القبلية والجهوية، والإرث الاستعماري، وممارساته من الحملات التبشيرية، وانتشار الحروب والصراعات المحلية والإقليمية، وانتشار

(٣) قام الأكراد بعدد من الثورات ضد الاستعمار البريطاني والدولة التركية والدولة العراقية، وهي بالترتيب في أعوام ١٨٠٦م، ١٨٨١م، ١٨٢٩-١٨٣٢م، ١٨٣٩-١٨٤٥م، ١٨٤٥م، ١٨٥٣-١٨٥٥م، ١٨٨٠، ١٩١٦-١٩٣١م، ١٩٤٥، ١٩٥٠م.

(٤) فايز عبد الله العساف، «الأقليات وأثرها في استقرار الدولة القومية: أكراد العراق نموذجاً»، رسالة ماجستير منشورة، (عمان: جامعة الشرق الأوسط، كلية الآداب، قسم العلوم السياسية، ٢٠٠٩-٢٠١٠م)، ص ٧٩، ٨٤.

المسلمون الأغلبية الثانية بعد المسيحية الأرثوذكسية الإثيوبية، والتي تشكل (٤٣,٥%)^(١)، وعليه فإن ظروف انضمام البلدان لمنظمة التعاون الإسلامي يتم غالباً في ضوء الاعتبارات العملية للتنمية والتعاون لهذه الدول، أو الرغبة السياسية للنظام الحاكم^(٢).

ثاني تلك الملاحظات: أنه باستعراض دول العالم الإسلامي يتضح أنه لا يمكن التعاطي مع مسألة الأقليات بصيغة واحدة، وإن كانت كلها ضمن العالم الإسلامي؛ حيث إن اعتبارات وواقع الدول في إفريقيا -التي تضم العديد من بلدان العالم الإسلامي- تختلف عن مثلتها في آسيا؛ لاعتبارات تتصل بطبيعة الدولة ذاتها وقدراتها الوظيفية، والبعد القبلي والعرقى والديني الذي يعقد من مسألة التعاطي مع الأقليات في إفريقيا.

ثالث تلك الملاحظات: هو أنه ليس بالضرورة وجود أكثرية عددية للمسلمين في بلدان العالم الإسلامي تتسق ومساحة العمل العام لتلك الأكثرية؛ حيث إن هناك عدداً من الحالات التي يمثل فيها المسلمون أكثرية عددية لا تعكس في أغلبية سياسية، وإنما أقلية سياسية كالحالة السورية وإريتريا بدرجة أو بأخرى، وهو ما يُشير لتعدد الواقع الاجتماعي والسياسي لدولة ما أكثر من الإحصاءات المعبرة عنها.

(١) بيانات إثيوبيا من موقع مكتبة كتاب الحقيقة الأمريكية، على الرابط التالي:

<https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/et.html>

(٢) إسلام عبد التواب، «مجتمع الأقليات المسلمة»، ورقة بحثية مقدمة لمؤتمر مكة المكرمة الثالث عشر (المجتمع المسلم: الثوابت والمتغيرات) برابطة العالم الإسلامي، في الفترة من ٢٠-٢١/١٠/٢٠١٢م، ص ١٤.

المسألة في بلدان العالم الإسلامي يجب أن يعتبر المنهج الإسلامي في هذا الشأن، والذي لا يعني بالضرورة تناقضاً مع الاعتبارات الأمامية بشأن الأقليات، وإنما الرؤية الإسلامية في هذه المعالجة رؤية أكثر اتساعاً وأعمق تفهماً لضرورات التماسك المجتمعي دون التمييز السلبي أو الإيجابي للأقليات، إلا أن هذه المعالجة تُعد مطلوبة، ولكن في إطار معالجة أوسع لمشكلات الدول المنتمة للعالم الإسلامي التي بعضها يرجع للإرث الاستعماري، والبعض الآخر تراكم عبر الممارسات غير الرشيدة للنظم الحاكمة بها، وليست عن طريق معالجة مبتورة أو جزئية، وآية ذلك التحولاتُ المعتمدة في عدد من بلدان العالم الإسلامي، خاصة مصر وسوريا، وما يرتبط بها من وضعية وموقف الأقليات.

الأمراض والأوبئة، وضعف - إن لم يكن غياب- مقومات معتبرة للحياة الاجتماعية والاقتصادية، وكذا التعددية الإثنية والعرقية، وما يرتبط بها من سيولة حدودية لفكرة الدولة في إفريقيا^(١).

كما أن هناك عاملاً مشتركاً في كثير من بلدان العالم الإسلامي ينال من فكرة التعاطي الإيجابي مع الأقليات؛ حيث تُستغل في كثير من الأحيان كأحد أوراق الضغط السياسي، وهذا العامل يتصل بالطبيعة السلطوية للنظم الحاكمة في عدد من البلدان، ومن ثم التهميش السياسي وعدم المشاركة في الحكومة، ومؤسساتها، وهو التهميش الذي يتجاوز في كثير من الأحيان حدود الأقليات الموجودة في الدولة لتكوينات المجتمع الأخرى.

في النهاية: إن التعاطي مع مسألة الأقليات وفقاً لتعاليم الدين الإسلامي إنما هو معالجة موضوعية وواعية وسباقة لا تنال من حقوق الأقليات وواجباتهم في البلد المسلم، وعليه فإن كيفية التعامل مع تلك

(١) السيد علي أبو فرحة، «المسلمون في نيجيريا وإشكالية بناء الدولة: استثناء مؤقت أم خلل دائم»، مجلة قراءات إفريقية، (لندن: المنتدى الإسلامي، العدد الحادي عشر، يناير/ مارس ٢٠١٢م)، ص ٣٤.

معلومات إضافية

أبرز هموم الأقليات المسلمة في العالم:

اختلف الباحثون فيما بينهم في التفرقة بين مفهومي الأقلية والدولة الإسلامية، فبعضهم يرى أنه إذا زادت نسبة المسلمين في الدولة عن 50% تصبح الدولة إسلامية، والبعض الآخر يرى أنه إذا كان المسلمون أغلبية مقارنة بأصحاب الديانات الأخرى وحتى لم يتجاوزوا نسبة 50% تصبح الدولة إسلامية، وهناك فريق ثالث من الباحثين يرى أن المعيار في تحديد إسلامية الدولة هو النص الدستوري أو ديانة رئيس الجمهورية، أو تشكيل النظام الحاكم.. إلخ.

وهناك صعوبات فنية وسياسية تحول دون معرفة حجم الأقليات الإسلامية بدقة، فالعديد من الدول التي توجد فيها أقليات إسلامية لا تتوافر فيها إحصائيات رسمية دقيقة عن التوزيع الديني للسكان، أو أنها تعيش في دول فقيرة لا تتوافر فيها الإمكانات المادية لمعرفة نسبة المواليد والوفيات والزواج والطلاق، وعدد أفراد الأقليات الدينية.. إلخ، أو إذا توافرت تلك الإحصائيات فإن العديد من الدول التي تقيم فيها الأقليات الإسلامية تفرض عليها طوعاً من السرية والكتمان؛ خوفاً من إثارة المشكلات الطائفية والعرقية.

وتأتي مشكلة المصادر لتزيد الأمر صعوبة، فأغلب المصادر الغربية تميل إلى التقليل من أعداد المسلمين، في حين تبالغ الكثير من المصادر الإسلامية في ذلك.

لذا يُعتمد في مثل هذه الدراسات على الإحصائيات الرسمية الصادرة عن الأمم المتحدة، والإحصائيات الصادرة عن الدولة نفسها في حال توافرها، إضافة إلى الموقع الأمريكي Factbook الذي يعتبر مصدرًا مهمًا في المعلومات الأساسية عن دول العالم، ومقارنة كل ذلك بأكثر من مصدر إسلامي متخصص في دراسة الأقليات الإسلامية.

هموم متشابهة:

حروب وصراعات.. فقر وقلة في الموارد والإمكانات.. تهميش اجتماعي وسياسي.. هذه هي أبرز هموم الأقليات الإسلامية في العديد من قارات العالم وبالأخص في إفريقيا وآسيا.

وينظر عامة على خريطة الصراعات السياسية والعسكرية في العالم، نجد أن أغلب مناطق التوتر تتركز في المناطق التي تتواجد فيها أقليات إسلامية كما هو الحال في جامو وكشمير، وتركستان الشرقية، والفلبين، وبورما، والبلقان.. إلخ.

إن الصراعات السياسية، والنزاعات العسكرية، وقلة الإمكانات المادية، والهوية المهددة، تمثل أهم مشكلات الأقليات الإسلامية.

ومما يزيد أوضاع الأقليات الإسلامية سوءًا انخفاض متوسط الدخل السنوي لأفرادها، وازدياد نسبة الأمية، وارتفاع معدلات الإصابة بالأمراض والأوبئة، وما ينجم عن ذلك كله من ارتفاع معدلات الوفيات، ويظهر ذلك جليًا في إفريقيا، خاصة في جمهورية إفريقيا الوسطى والكونغو الديمقراطية، ووسط الأقليات الإسلامية الكبيرة العدد في الهند والفلبين على سبيل المثال.

وقد أدى هذا الوضع إلى معاناة هذه الأقليات مما يمكن تسميته بالتهميش السياسي الذي يظهر في قلة مشاركتهم في أنظمة الحكم والإدارة بما يتوافق مع نسبتهم العددية، وهذا بدوره أثر في مدى اهتمام حكومات الدول التي يعيشون فيها بمطالبهم وحقوقهم. وتأتي بعد ذلك مشكلة الذوبان الثقافي والهوية الإسلامية التي يشعرون بأنها تواجه تحديات كبيرة وسط المجتمعات غير الإسلامية التي يعيشون فيها.

المسلمون في ميانمار (بورما) أنموذجاً:

كانت البداية الأولى لنشوء مشكلة المسلمين في بورما على يد الحكومة البورمية التي هجرت قرابة ٢٠٠ ألف منهم من إقليم أراكان إلى دولة بنغلاديش المجاورة.

ويطلق على الأقلية المسلمة في بورما شعب الروهنجيا، وهم ينحدرون من أصول عربية، وفارسية، وملاوية، ومغولية، وباتانية Pathans (الباتان قوم يقطن أكثرهم في باكستان وأفغانستان والهند ويعرفون أيضاً بالبشتون). وبحسب المصادر الغربية تبلغ نسبة المسلمين الذين يتمركزون في إقليم أراكان ٤٪ من إجمالي السكان البالغ عددهم حوالي ٤٢ مليوناً.

وصل الإسلام إلى إقليم أراكان في القرن السابع الميلادي، وكوّن شعب الروهنجيا مملكة دام حكمها ٣٥٠ عاماً، ثم انفرط عقدها على أيدي الغزاة البورميين عام ١٧٨٤م، وبدأت معاناة الأقلية المسلمة في ميانمار منذ ذلك التاريخ.

ويتعرض المسلمون في ميانمار للتطهير العنصري من جانب الأغلبية البوذية ما نتج عنه آلاف الضحايا، وتكرر حملات القتل المنهج ضد المسلمين هناك بشكل متكرر على مدار السنة.

كما تتمثل هذه المعاناة أيضاً في الحرمان من الحقوق السياسية والحريات الدينية، فلا يحق لهم على سبيل المثال الدراسة في المدارس والجامعات الحكومية، كما تمت مصادرة الأوقاف الإسلامية التي كان أشهرها الأراضي الموقوفة على مسجد «ماونجدو جيم» و«أكياب جيم»، والأراضي التي كانت مخصصة لمقابر المسلمين، والتي أقيم عليها ملاعب رياضية وأديرة.

وهناك أيضاً معاناة اقتصادية سببها فرض الحكومة البورمية على المسلمين تسليمها نسبة كبيرة من محصول الأرز الذي يعتبر الغذاء الرئيس للسكان.

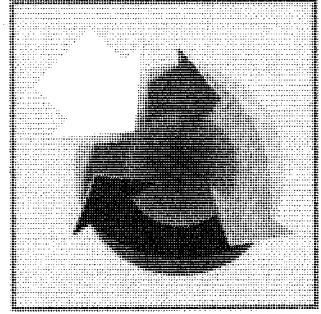
إضافة إلى ذلك وضعت الحكومة عوائق عديدة أمام مشاركة الأقلية المسلمة في الحياة السياسية، كان أبرزها القانون الصادر عام ١٩٨٣م، والذي لا يمنح الجنسية البورمية إلا لمن يُثبت أن أسرته عاشت في ميانمار قبل عام ١٨٤٤م، وهو العام الذي اندلعت فيه الحرب الإنجليزية البورمية الأولى، وقد تسبب هذا القانون في حرمان المسلمين الذين لم يتمكنوا من تقديم هذه الوثائق من حق المواطنة الكاملة وما يترتب عليه من حقوق سياسية.

المصدر:

مقال بعنوان الأقليات المسلمة في العالم [بتصرف واختصار]، محمد عبد العاطي، متاح على موقع الجزيرة نت على الرابط التالي:

<http://www.aljazeera.net/specialfiles/pages/fa45fbf5-7985-4462-b74e-b5fa1362b15b>

الطموح التركي .. مسارات الصعود وتحديات الهيمنة



محمد سليمان الزواوي

مدير وحدة العلاقات الدولية بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

ملخص الدراسة

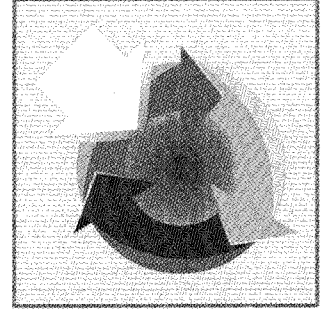
في إطار سعيها لاستعادة مجدها السابق؛ فإن تركيا تصطدم بعدة مشكلات على المستويات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وكذلك على المستويين الداخلي والإقليمي، فالدور الذي تريد تركيا لعبه في السياسات الإقليمية أفزع القوى في المنطقة، وعلى رأسها اليونان وإسرائيل، كما واجهت تركيا عقبات في تعاملها مع مناطق نفوذها السابقة في البلقان والقوقاز وغيرها.

لقد عملت قوى إقليمية أخرى على عدم خروج المارد العثماني من قمقمه، وعمل الاتحاد الأوروبي على صد تركيا أيضاً، وعدم السماح لها بالانضمام إليه، وهو ما جعل أنقرة في حلبة العدالة والتنمية تتجه شرقاً، وحاولت أن تقود عملية تكامل إقليمية قوامها تصفير المشكلات، واستراتيجية يفوز فيها الجميع في إطار عملية من المشاركة السياسية والاقتصادية، وأن تتوصل المنطقة إلى حالة من الاعتمادية الاقتصادية المتبادلة بين حكومات المنطقة، وقد حققت أنقرة نجاحاً ملموساً بهذا الصدد حتى جاء الربيع العربي.

تكتسب أهمية الدراسة من أهمية الصعود التركي ذاته، والذي يصفه البعض مثل جورج فريدمان في كتابه «المائة عام القادمة» بأنه صعود كبير سيضع تركيا في قلب سياسات المنطقة، وهو ما سيستدر صراعات على النفوذ والقوة، وسيؤدي كذلك إلى تمحور قوى إقليمية ودولية، سواء مع أو ضد، ذلك الصعود التركي، مما سيكون له أثر كبير على السياسات الإقليمية.

وفي ظل تحولات إقليمية على المستويين السياسي والاقتصادي بعد الربيع العربي، تبدو المنطقة على فوهة بركان يهددها بالتقسيم العرقي والطائفي، بمشكلات تهدد بتفجر المنطقة إلى فسيفساء متاحرة، مع انتشار فوضى السلاح في الرقعة الممتدة من العراق وحتى ليبيا؛ بتوالد جماعات مقاتلة مذهبية، سنية وشيعية، وميليشيات وتهديدات بتقسيم الدول والكيانات والدعوات إلى الفيدرالية في العراق وليبيا، لتبدو الصورة الكاملة وكأن الشرق الأوسط في حالة تقسيم فعلية تخرج من رحم الفوضى الخلاقة والشرق الأوسط الكبير، الذي بدأت تتضح أبعاده بتقسيم المقسم وتجزئة الجزأ.

الطموح التركي .. مسارات الصعود وتحديات الهيمنة



محمد سليمان الزواوي

مدير وحدة العلاقات الدولية بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

مقدمة:

بعد أن كانت الخلافة العثمانية إحدى أهم الإمبراطوريات في العالم لقرون، وبعد انهيار الخلافة وتقسيم أراضيها على الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى، وبعد عقود من الانزواء كدولة تابعة للفلك الغربي، بدأت تركيا اليوم تخط لها استراتيجية جديدة تجعلها دولة مركز في محيطها، وبدأت التنقيب في الإرث العثماني لمحاولة استعادة نفوذها في أراضيها السابقة في البلقان والقوقاز، وآسيا الوسطى، والمنطقة العربية، وبدأت بإصلاح اقتصادها بعد عشر سنوات من حكم حزب العدالة والتنمية ذي الجذور الإسلامية.

وفي رحلة التنقيب عن إرثها العثماني اتخذت تركيا عدة إجراءات، على رأسها سياسة تصفير المشكلات مع جيرانها، من أجل أن تصبح مناطق إرثها العثماني مناطق صديقة لها، وكذلك قامت بعدة إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية (فيما يخص التعامل مع الأقليات)، وذلك بدءاً من حقبة تورجوت أوزال وحتى وقتنا هذا، وتحاول تركيا أن تكون دولة مركز وليست دولة أطراف، وليس مجرد جسر يربط ما بين الشرق والغرب كما كانت تُوصف.

ولكن اليوم، وفي إطار سعيها لاستعادة مجدها السابق؛ فإن تركيا تصطدم بعدة مشكلات على المستويات الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، وكذلك على المستويين الداخلي والإقليمي، فالدور الذي تريد تركيا لعبه في السياسات الإقليمية أفرع القوى في المنطقة، وعلى رأسها اليونان وإسرائيل، كما عملت قوى إقليمية أخرى على عدم خروج المارد العثماني من قمقمه، وعمل الاتحاد الأوروبي على صد تركيا أيضاً، وعدم السماح لها بالانضمام إليه، كما واجهت تركيا عقبات في تعاملها مع مناطق نفوذها السابقة في البلقان والقوقاز وغيرها.

أهمية الدراسة:

تكتسب أهمية الدراسة من أهمية الصعود التركي ذاته، والذي يصفه البعض مثل جورج فريدمان في كتابه «المائة عام القادمة» بأنه صعود كبير سيضع تركيا في قلب سياسات المنطقة، وهو ما سيستدر صراعات على النفوذ والقوة، وسيؤدي كذلك إلى تمحور قوى إقليمية ودولية، سواء مع أو ضد ذلك الصعود التركي، مما سيكون له أثر كبير على السياسات الإقليمية.

الهدف من الدراسة:

الهدف من الدراسة هو اختبار ذلك الصعود التركي بعد حقبة الانكسار بعد الحرب العالمية الأولى، ومعرفة

كانت واضحة ومحددة في طوال حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ حيث كان مفهوم الإقليمية واضحاً إلى حد كبير، وتميز بالتركيز على التجاور الجغرافي والتشابه الثقافي كأساس لتعيين حدود الإقليم، ومن هنا جاءت عملية إنشاء التنظيمات الإقليمية التي تمت في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

ومع نهاية الحرب الباردة، ظهر مفهوم الإقليمية الجديدة، والذي ينصرف إلى اعتبار أن الإقليم ليس مساحة جغرافية، ولكنه منطقة تشابك مصالح عدد من الوحدات الدولية، والتي تواضعت على الاسترشاد بمفاهيم العولمة فيما يتعلق بالتجارة والاستثمار والتعاون السياسي والثقافي. ومن ثم فإنه طبقاً لمفهوم الإقليمية الجديدة، ليس شرطاً أن تكون الدول متجاورة جغرافياً أو متشابهة ثقافياً ولفوياً؛ إذ يكفي إدراك تشابه وتشابك المصالح في محيط غير محدد جغرافياً أو ثقافياً.

وهذا التغير في مفهوم الإقليم لا بد أن يؤثر على مفهوم الدور الإقليمي؛ ذلك أن المساحة الجغرافية التي يُمارَس فيها الدور أصبحت ذات طابع وظيفي، ولم تعد مجرد مساحة جغرافية. وبالتالي أصبحت الدول تمارس دوراً «إقليمياً»، ولكنه يطبَّق في مناطق بعيدة عنها جغرافياً.

الثانية: أن الدولة قد تضطلع بدور خارجي في إقليم بعيد عنها جغرافياً، أي: أنها لا تقوم بالدور الإقليمي في الإقليم الذي تقع فيه مباشرة، والدولة إذا قامت بدور في إقليم واحد خارج حدود الإقليم الذي تقع فيه مباشرة، فإن هذا الدور يعد إقليمياً، أما إذا تعددت تلك الأدوار، فإننا نكون إزاء دور عالمي لهذه الدولة.

وتتعدد معايير تصنيف أشكال الدور الإقليمي للدول، ومن ذلك معيار مضمون الدور (هل هو صراعي أو

حدود الدور التركي، وقدرات تركيا الاقتصادية والسياسية والعسكرية، ومدى ملائمة طموحاتها وأهدافها لإمكانياتها، وما هي العقبات التي تقف أمام ذلك الصعود التركي، وما هي المشكلات التي يمكن أن تتجسم عن زيادة الطموحات التركية في المنطقة، وما هي تداعيات ذلك، وهل تستخدم تركيا قوتها الصلبة في يوم من الأيام لمطاردة ذلك الحلم في استعادة مجدها العثماني؟

أسئلة الدراسة:

يتمحور السؤال الرئيس للدراسة حول: ما هو الدور الذي تريد تركيا لعبه في السياسات الإقليمية؟ ويتفرع منه عدة أسئلة فرعية: ما هي الإمكانيات التي تؤهل تركيا للعب هذا الدور؟ وما هي العقبات الداخلية والإقليمية والدولية؟ وكيف يمكن لتركيا أن تتغلب على تلك العقبات؟ وما هي تداعيات ذلك الطموح التركي المتزايد؟

محاوِر الدراسة:

- تركيا ما بين السقوط والصعود.. منعطفات التحول التاريخي.
- الدور التركي في المنطقة.. الطموحات والتحديات.
- تداعيات الصعود التركي ومساراته المحتملة وتأثيره على المنطقة.

الاقتراب البحثي: اقتراب الدور الإقليمي:

ينصرف الدور الإقليمي إلى وظائف الوحدة في إقليم أو أقاليم معينة، وفي هذا الإطار يثير مفهوم الدور الإقليمي إشكاليتين أساسيتين:

الأولى: أن حدود الإقليم الذي يمارس فيه الدور

وقد مرت تركيا بعدة منعطفات -نستطيع أن نصفها بأنها «تاريخية»- أثرت على تركيبها كدولة قومية، وكذلك على مكانتها الدولية بعد انهيار الخلافة العثمانية، وحتى عصرنا الراهن، ومن أهم هذه المنعطفات ما يلي:

مرحلة أتاتورك وتحديات الهوية:

مع نشوء الدولة القومية التركية برزت صراعات الهوية واضحة للعيان؛ حيث جنح مؤسسو الدولة التركية آنذاك إلى اقتفاء خطى الغرب ليس على المستويات السياسية والاقتصادية فقط، ولكن على المستويات الاجتماعية والقيمية أيضاً، وبدأت مرحلة الاتجاه نحو الغرب، واعتمد أتاتورك على الأدبيات التي تركها ضياء كوك ألب، المفكر القومي التركي من أصل كردي من ديار بكر، والذي كان واحداً من أهم المنظرين لجمعية الاتحاد والترقي التي خرج من رحمها أتاتورك والتيار العلماني والطوراني التركي^(٢).

وهذه المرحلة أثرت تأثيراً خطيراً على هوية الدولة التركية، والتي كانت -حتى سقوط الخلافة العثمانية- تعتمد بصورة أساسية على الدين كمظلة جامعة لشتات الأعراق والأجناس والإثنيات التي تأويها الخلافة العثمانية، فنشأت الطورانية والقومية التركية من أدبيات ضياء كوك ألب وآخرين؛ لتبتناها جمعية الاتحاد والترقي لتتشئ الدولة القومية التركية في ظل صعود حالة البحث عن الهوية للدولة التركية الحديثة.

ولا تزال تركيا تعاني حتى وقتنا الراهن من أزمة هوية لاسيما في ظل صعود الحركة الإسلامية التي تتعارض تماماً مع الأفكار العلمانية القومية التي

تعاوني أم محايد)، ومدى قوة النشاط الذي تقوم به الدولة في إطار هذا الدور (هل تتدخل بإيجابية للقيام به، أم أنها تضطلع بدور سلبي، وتوكل للآخرين مهمة القيام بمعظم أشكال الدور).

وفي إطار هذه الاعتبارات النظرية يأتي تناول دور تركيا (الإقليمي) بين الدولة العثمانية وتركيا الحديثة، وتأثير هذا الدور وأبعاده على مستقبل العلاقات التركية العربية.

المحور الأول: تركيا بين السقوط والصعود.. منعطفات التحول التاريخي:

ظلت الخلافة العثمانية دولة عظمى يهاب جانبها لعدة عقود؛ بعدما تمددت في أراض شاسعة وصلت لأقصى اتساع لها في عام ١٦٨٠م، وكانت تغطي دول شمال إفريقيا والشام، والعراق والسودان، واليمن والكويت الحالية، كما وصلت حدودها إلى البلقان وبولندا والمجر، وحتى تخوم إيطاليا، وخاضت حروباً عديدة بعد ذلك التاريخ الذي مثل ذروة توسعها، حتى ضربها الضعف والترهل، وتفككت الخلافة العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى ونشوء الدولة القومية التركية في عام ١٩٢٣م.

ومنذ ذلك الحين ظلت تركيا محسوبة على المعسكر الغربي وتدور في فلكه، لاسيما بعد الحرب العالمية الثانية ومبدأ الرئيس الأمريكي هاري ترومان والذي كان يلزم الولايات المتحدة بدعم اليونان وتركيا لمنعهما من السقوط في دائرة النفوذ السوفييتية آنذاك؛ حيث طلبت موسكو بعد الحرب العالمية الثانية إنشاء قواعد عسكرية لها في منطقة المضائق التركية، فكان رد الولايات المتحدة بمبدأ ترومان، والذي صاحبه عمليات واسعة من المساعدات الاقتصادية والعسكرية^(١).

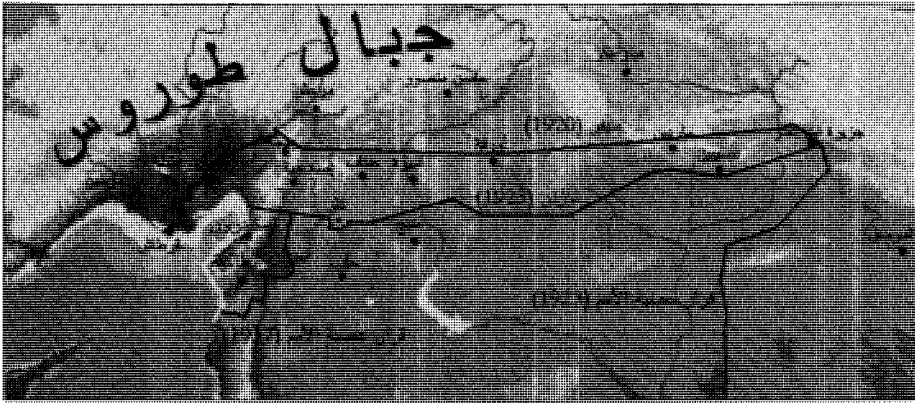
(٢) الطورانية أو البانطورانية Pan-Turanism هي حركة سياسية قومية ظهرت بين الأتراك العثمانيين أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، هدفت إلى توحيد أبناء العرق التركي الذين ينتمون إلى لغة واحدة وثقافة واحدة، المصدر:

M. Antoinette Czaplicka, The Turks of Central Asia in History and at the Present Day, Elibron, 2010, p.19

(1) Special Message to the Congress on Greece and Turkey: The Truman Doctrine." Truman Library Public Papers, 12 March 1947, on this link: <http://www.truman-library.org/publicpapers/index.php?pid=2189&st=&st1=>

العلمانية المتشددة غير المتسامحة مع الدين ورموزه مثل الحجاب وغيرها، وظل الجيش حامياً للعلمانية، وقام بعدة انقلابات من أجل منع حدوث أي تغيير يعيد الدين مرة ثانية إلى واجهة الأحداث السياسية في البلاد.

طرحتها جمعية الاتحاد والترقي والأتاتورية، بإنشاء الإسلام الاجتماعي لجماعة فتح الله كولن والإسلام الصوفي لسعيد النورسي ورسائل النور، وكذلك الإسلام السياسي على يد نجم الدين أربكان ورفاقه الذين أكملوا المشوار من بعده، فبدت تركيا وحتى وقتنا الراهن مقسمة بين هويات مختلفة؛ عمّقت أزمته مشكلات أخرى متعلقة بالهوية أيضاً، مثل القضية الكردية في الشرق، والقضية العلوية في الجنوب.



تطور حدود الدولة التركية مع سوريا والعراق من معاهدة سيفر ثم لوزان ثم قرارا عصبة الأمم

حزمة إصلاحات «تورجوت أوزال»:

وفي خضم تلك الحالة من التبعية شبه الكاملة للمعسكر الغربي، وسيطرة الجيش التركي على البلاد بحجة الحفاظ على العلمانية، استطاعت تركيا أن تحقق نجاحات على المستويات السياسية والاقتصادية، مثل الإصلاحات التي قام بها تورجوت أوزال؛ حيث انتهج سياسة انفتاحية في الاقتصاد التركي، وحرر الاقتصاد من كثير من القيود، وحوّل معظم مشاريع الدولة إلى القطاع الخاص.

واستطاع أن يرتفع بمعدل النمو الاقتصادي من ٣,٣٪ في عام ١٩٨٣م إلى ٩,١٪ عام ١٩٩٠م، وزيادة الصادرات من ٥,٧ مليار دولار في عام ١٩٨٣م إلى ١١,٦ مليار دولار عام ١٩٨٩م. واتّبع سياسة خارجية تدعم روابط تركيا بالدول المستقلة عن الاتحاد السوفييتي، وتوثق روابطها بالغرب، وكذلك بالدول العربية، كما دعم حقوق الأقلية الكردية في

السير في الفلك الغربي:

وقد اختارت تركيا في عهد أتاتورك السير في الفلك الغربي، وانضمت إلى قافلة المعونات الاقتصادية والعسكرية التي قدمها مبدأ ترومان^(١)، وما لبثت أن انضمت كذلك إلى حلف شمال الأطلسي (النيتو)، وأصبحت فعلياً دولة حليفة للمعسكر الغربي.

واستغلت تركيا موقعها الاستراتيجي كحاجز عازل عن التقدم السوفييتي من الشمال، فاكسبت أهمية لدى المعسكر الغربي، وفي الوقت ذاته تبنت نوعاً من

(١) مبدأ ترومان (بالإنكليزية: Truman Doctrine)، هو مبدأ أعلن عنه هاري ترومان في ١٢ مارس ١٩٤٧م. وينص على «أنه حين يهدّد العدوان، مباشراً كان أو غير مباشر، أمن الولايات المتحدة الأميركية وسلامتها؛ فعندئذ يكون لزاماً على الحكومة الأميركية أن تقوم بعمل ما لوقف هذا العدوان». طُبّق هذا المبدأ على اليونان وتركيا خاصة، تمكّيناً لهما من مقاومة المد الشيوعي ودخول الكتلة الشرقية. المصدر: مبدأ ترومان موسوعة المورد، منير البعلبكي، ١٩٩١م.

بد لها من أن تكون قادرة على الصمود أمام ضغط المنافسات في السوق الداخلية الأوروبية.

٣- معايير قانونية:

يجب على الدول المرشحة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي أن تكون على استعداد لتكييف إداراتها وجميع قوانينها مع قانون الاتحاد الأوروبي. ويعني هذا القبول بما يسمى «Acquis»، وهي ما يقارب ٨٠,٠٠٠ صفحة من النصوص القانونية^(٢).

لقد أسهمت معايير كوينهاجن في إجراء إصلاح مؤسسي للسياسة التركية، بالفصل بين السلطات، وإعلاء سيادة الشعب وحقوق الإنسان، وعدم تدخل الجيش في السياسة، ودشنت حقبة جديدة من استعادة تركيا لمكانتها الإقليمية، بالرغم من أنها لم تعد تهتم، كما في الماضي، بالانضمام إلى الاتحاد الأوروبي؛ فقد استفادت استفادة قصوى من مجرد محاولات الانضمام، وحققت أهدافاً سياسية واقتصادية حاسمة في مسيرتها نحو استعادة مكانتها الإقليمية.

وقد أسهمت هذه الإصلاحات السياسية والاقتصادية والقانونية في وضع تركيا في مصاف الدول المتقدمة، في مجموعة العشرين، ومن ضمن أهم ١٧ اقتصاداً في العالم، وأصبحت تركيا دولة مؤثرة في محيطها بمجموعة من الروابط العسكرية والعلاقات الدولية، ومشاركتها في عدد من المنظمات الفاعلة، لتضع قدمها على أعتاب ما يخطط لها مهندس السياسة الخارجية أحمد داود أوغلو، الذي يريد لتركيا أن تصبح دولة مركز، وأن تكون دولة فاعلة وصاحبة مبادرات في إقليمها، وليست مجرد جسر يربط بين الشرق والغرب أو دولة أطراف كما كان يُنظر لها في الماضي.

تركيا. وقد ظهرت آثار سياسته الخارجية في زيادة الصادرات، وزيادة تعاقدات شركات المقاولات التركية، ومعظمها في بلدان الخليج وبلدان عربية أخرى، وزيادة حجم الاستثمارات الأجنبية المباشرة من ١١٣ مليون دولار في عام ١٩٨٤م، إلى ٦٦٣ مليون دولار في عام ١٩٨٩م، وقد أدان تورجوت أوزال سياسة الانقلابات العسكرية، وأخضع إلى حد ما سلطة الجيش والاستخبارات، لأول مرة لسلطان الحكومة^(١).

وبالرغم من أن تورجوت أوزال لم يكن على وفاق مع الإسلام السياسي في تركيا إلا أنه لم يكن معادياً للإسلام، وأسهمت إصلاحاته السياسية والاقتصادية في أن ترشد الإسلام السياسي في البلاد، ليخرج من رحم حزب الرفاه والسعادة حزب العدالة والتنمية بقيادة رجب طيب أردوغان، والذي سار على نفس النهج الإصلاحية الذي بدأه أوزال، وابتعد عن الصدام الخشن مع المؤسسة العسكرية بعدم إظهار أي هوية إسلامية لحزبه، حتى استطاع الحزب أن يرسخ أقدامه في الحياة السياسية التركية.

الانضمام للاتحاد الأوروبي ومعايير كوينهاجن:

وضع الاتحاد الأوروبي في لقاء القمة عام ١٩٩٣م، في كوينهاجن ثلاثة شروط لقبول العضوية في الاتحاد الأوروبي:

١- معايير سياسية:

يجب على الدول المرشحة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي ضمان استقرار مؤسساتها، والحفاظ على الديمقراطية، وأن تتعهد بضمن دولة القانون، ويجب عليها أيضاً ضمان حقوق الإنسان، وحماية الأقليات.

٢- معايير اقتصادية:

يجب أن تتمتع الدول المرشحة للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي باقتصاد سوق مستقر، كما أنه لا

(١) موسوعة «مقاتل من الصغراء»، على الرابط التالي: http://www.moqatel.com/openshare/Behoth/SirZatia17/Turkey/sec001.doc_cvt.htm

(٢) موقع «قطرة»، «ما هي معايير كوينهاجن؟»، على الرابط التالي: <http://ar.qantara.de/content/m-hy-myyr-kwbnhgn>

المحور الثاني: الدور التركي في المنطقة..

الطموحات والتحديات:

بدأت تركيا في سعيها لاستعادة نفوذ إمبراطوريتها العثمانية السابقة في القوقاز والبلقان والمنطقة العربية وأوروبا، وتبأ أحد أهم المحللين الاستراتيجيين وهو جورج فريدمان في كتابه «المائة عام القادمة»⁽¹⁾ أن تستعيد تركيا قيادتها في مناطق نفوذها السابق إبان الإمبراطورية العثمانية، ومن هنا تبرز أهمية تركيا كلاعب مؤثر في منطقة الشرق الأوسط.

وتبرز أهمية تركيا في المجال الحيوي الذي يحيط بها؛ حيث إن تركيا أصبحت تطرح نفسها كدولة مركز وليست دولة أطراف، وقدم أحمد داود أوغلو -مهندس السياسة الخارجية التركية في حقبة العدالة والتنمية - أدلة على ذلك، وهو وجود تركيا في مكان قريب من الجغرافيا التي تسمى (أفرو آسيا)، أي: إفريقيا وأوروبا وآسيا، فهي من الناحية الجغرافية دولة مركز وليست دولة أطراف، وإن تركيا تقع وسط المكان الذي تشكل فيه تاريخ الحضارات الموجودة في المنطقة، ويقول: إنه

«عندما نلقي نظرة إلى حضارة ما بين النهرين والحضارات المصرية واليونانية والإسلامية والرومانية والعثمانية نجد أن تركيا ليست دولة أطراف، بل هي دولة تؤثر في عدة حضارات، وتتأثر بها في الوقت نفسه، فهي دولة مركز من الناحيتين التاريخية والثقافية»⁽²⁾.

وذلك الطرح يستتبعه أن ترسم لتركيا دائرة إقليمية جديدة من حولها، تكون فيها قائدة ورائدة، حتى لو استتبع ذلك اقتطاع أجزاء من نظم إقليمية «قديمة» مثل النظام العربي على سبيل المثال، فبدأت

تركيا تتحرك في المحيط الإقليمي لها؛ انطلاقاً من سوريا وموروراً بلبنان والأردن، وحتى فلسطين ومصر، هذا بالإضافة إلى الدائرة العراقية التي هي صاحبة مصلحة أساسية فيها؛ بسبب المشكلة الكردية، كما تحركت تركيا في دوائر البلقان والقوقاز أيضاً.

ومع الطفرة الاقتصادية التي حققها حزب العدالة والتنمية في سنواته العشر التي تقلد فيها السلطة، بدأت تركيا تبحث عن دور أكبر في محيطها الإقليمي، هذا الدور أفضل ما يصفه هو تصريحات وزير الخارجية أحمد داود أوغلو، التي قال فيها فور تقلده لمنصبه: إن «تركيا لديها الآن رؤية سياسة خارجية قوية نحو الشرق الأوسط والبلقان ومنطقة القوقاز». وأضاف أنه «يجب أن تتولى دور بلد يرسى النظام في كل تلك المناطق»، وأن «تركيا لم تعد البلد الذي تصدر عنه ردود أفعال إزاء الأزمات، وإنما يتابع الأزمات قبل ظهورها ويتدخل في الأزمات بفاعلية ويعطي شكلاً لنظام المنطقة المحيطة به»⁽³⁾، مما يفيد بالرغبة التركية بأن تلعب دوراً محورياً في سياسات المنطقة.

2010	2007	2002	المؤشرات الاقتصادية الرئيسية
5.4	8.4	29.7	التضخم (%)
736	657	231	الناتج المحلي الإجمالي (بالمليار دولار)
6.9	4.7	6.2	نمو الناتج المحلي الإجمالي (%)
10079	9234	3482	نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي (بالدولار)
112.93	97.3	36	الصادرات (بالمليار دولار)
185.49	170.1	51.6	الواردات (بالمليار دولار)
11.9	10.3	10.3	معدل البطالة (%)
20.6	18.49	8.5	إيرادات السياحة (بالمليار دولار)
6.6-	5.8-	0.3-	حجز ميزان المعاملات الجارية إلى الناتج المحلي الإجمالي
8.9	22	1.14	الاستثمار الأجنبي المباشر (بالمليار دولار)
317.4	248.4	216	سندات الدين الحكومي (بالمليار ليرة تركية)
41.6	39.4	73.7	الدين العام إلى الناتج المحلي الإجمالي
3.8	1.8	11.5	حجز الميزانية إلى الناتج المحلي الإجمالي (%)

المؤشرات الأساسية للاقتصاد التركي⁽⁴⁾

(3) الشرق الأوسط اللندنية، بعد يوم من تولي أوغلو منصب وزير الخارجية، في 2009/5/3م، العدد: 11114، على الرابط التالي: <http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&article=517589&issueno=11114>

(4) رويترز، نشرتها جريدة «الاقتصادية» السعودية، على الرابط التالي: http://www.aleqt.com/2011/06/13/article_548430.html

(1) George Friedman, The Next 100 Years: A Forecast for the 21st Century, Doubleday (January 27, 2009) p: 203.

(2) مرتضى بدر، «نظرية العمق الاستراتيجي لأحمد داود أوغلو»، شبكة النبأ المعلوماتية، على الرابط التالي: <http://www.annabaa.org/nbanews/2009/07/161.htm>

محور الاعتدال يتحول إلى دائرة خليجية مستقلة وأكثر انعزالاً وأكثر شراسة في مواجهة نفوذ الدول الأخرى في المنطقة مثل إيران وتركيا، بل والتمحور حول الأنظمة الملكية حتى من خارج الخليج - الأردن والمغرب - من أجل مواجهة المد (الديمقراطي/ الفوضوي) الذي أفرزه الربيع العربي.

وقد أدت تلك المتغيرات إلى تعطيل الخطط التركية في المنطقة، بل واحترقت استثماراتها في كل من ليبيا وسوريا في الأيام الأولى من ثورتها، كما أدى انحياز النظام الحاكم في تركيا إلى الشعب السوري وخياراته إلى انفصام مع النظام السوري بقيادة بشار الأسد، والذي كان يوصف بأنه بوابة النفوذ التركي في المنطقة بعد عقد النظامين لعدة اتفاقات اقتصادية وسياسية، وانعكس مبدأ «تصنيف المشكلات» التركي إلى «تعظيم المشكلات»؛ واضطرت تركيا بقيادة حزب العدالة والتنمية إلى الانحياز إلى مبادئها حتى لو أدى ذلك إلى الإضرار بمصالحها، وهو الاختيار الذي أكسب الحزب شعبية خارجياً، لكنه أحدث مشكلات داخلية مع أحزاب المعارضة، لاسيما بعد الأزمات التي تم تصديرها إلى الداخل التركي نظير تلك السياسة، بمشكلات لاجئين سوريين وتفجيرات ومصرع العشرات أبرزها كان انفجار مدينة ريجانلي جنوب البلاد، بالإضافة إلى الانفصام السياسي بين النظامين التركي والانقلابي في مصر، وما استتبعه من وقف اتفاقات تجارية واقتصادية، وهو ما استثمرته المعارضة التركية جيداً لصالحها.

لذلك وطبقاً لنظرية «البيوت الخشبية» التي طرحها أحمد داود أوغلو، والتي تفيد أن التقارب بين ثقافات المنطقة وظروفها السياسية يجعلها مثل البيوت الخشبية المتجاورة، إذا شب حريق في إحداها فإنها بالضرورة سينتقل إلى الجميع - ولذلك بنيت الاستراتيجية التركية بالأساس على «إطفاء الحرائق» وعلى تصنيف المشكلات⁽¹⁾؛ إذ إن الفشل في إطفاء

فتركيها منذ اللحظة الأولى لتولي أوغلو مهندس سياستها الخارجية منصبه تريد أن «ترسي النظام»، وأن «تدخل في الأزمات بفاعلية»، وأن «تعطي شكلاً لنظام المنطقة المحيطة بها»، وهذا الدور يمكن وصفه بأنه دور القائد الإقليمي، وهي كلها طموحات لتركيا وقف الربيع العربي حائلاً دون تحقيقها، أو على الأقل ساهم في تأجيل ذلك الحلم بالقيادة الإقليمية. فقد جاء الربيع العربي بكل ما يعكس صفو الحلم التركي في المنطقة، والذي بُني بالأساس على السلم الإقليمي كبيئة مواتية للانفتاح الاقتصادي على دول المنطقة ومن ثم ممارسة ما وصفه أوغلو بـ«إرساء النظام».

فالسلم الإقليمي لم يعد موجوداً في ظل تنامي عدة متغيرات

سياسية في المنطقة:

١- انهيار أنظمة دول الربيع العربي مثل مصر وسوريا وتونس وليبيا واليمن، بدون أن تتشكل أنظمة قوية مسيطرة تخرج من رحم الانتخابات الديمقراطية، ولكن ظلت ظاهرة «الهيّاج الشعبي» هي المسيطرة على مخرجات الربيع العربي، وفشلت الشعوب - حتى الآن - في بلورة نموذج يتسم بتعايش القوى السياسية المختلفة وعلى رأسها التياران الليبرالي والإسلامي، مما أفرز حالة من الفوضى السياسية والأمنية.

٢- سقوط النظام الإقليمي العربي نفسه فعلياً، فبعد أن كان في حالة الموت السريري إبان حقبة الجامعة العربية، إلا أن الربيع العربي أدى فعلياً إلى موت ذلك النظام، وبزوغ دوائر نفوذ جديدة حول قوى المنطقة الأكثر تأثيراً، مثل إيران والسعودية وتركيا وإسرائيل، مما دعا إلى تنامي الخلافات البيئية والصراعات المذهبية وظهورها على السطح في المنطقة الممتدة من العراق وحتى لبنان.

٣- سقوط الدولة المصرية كمثل موازن لما يسمى بـ«محور الممانعة»؛ ف«محور الاعتدال» فقد مصر والتي دخلت في صراع داخلي مدمر بعد الإطاحة بالرئيس المنتخب محمد مرسي، هذا السقوط المصري جعل

(١) تركيا وإيران ونظرية «البيوت الخشبية»، موقع «أخبار العالم» التركي، على الرابط التالي: http://akhbaralam.net/news_detail.php?id=29187

فإن الدور التركي يتحول ما بين هذه الأدوار جميعاً؛ فبعض الأنظمة تتهم النوايا التركية بأنها متطلعة

إلى الهيمنة وإنتاج ما سُمي بـ «العثمانية الجديدة»، لذلك ترى الدور التركي تهديداً لنفوذها، وأنها تقدم في الوقت ذاته «النموذج» للإسلام السياسي، في حين أن الدور المعلن للدولة التركية هو «قائد التكامل الإقليمي» بكل ما تحمله أدبيات أحمد داود أوغلو، والتي يمكن وصفها كذلك بـ «صانع السلام» في مرحلة ما قبل العدوان على

غزة في أواخر عام ٢٠٠٨م، عندما كانت تركيا تقود المبادرات بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني من جهة، والإسرائيلي والسوري من جهة أخرى؛ لكن ما وصفه أردوغان بالخيانة من الجانب الإسرائيلي بشن العدوان في أوج الوساطة التركية وعدم إبلاغ أنقرة بالنوايا الإسرائيلية، بالإضافة إلى الانقسام مع نظام الأسد، أنهى فعلياً دور صانع السلام.

كما أن دور قائد التكامل الإقليمي قد تعرض لضربة مع سقوط نظام الدكتور محمد مرسي بعد الانقلاب المصري؛ فرهان العدالة والتنمية كان على صعود الإسلام السياسي في مصر، وأن مصر وتركيا بحاجة إلى بعضهما البعض أكثر من أي وقت مضى، وذلك بسبب التحديات الإسرائيلية في المنطقة وقضايا كثيرة أخرى^(٢)، بالإضافة إلى حاجة نظام العدالة والتنمية إلى ظهير سياسي مشابه لأيديولوجيته في المنطقة من أجل تدعيم نموذجه ونموذج الإسلام السياسي بصورة عامة.

وعلى الرغم من الترحيب الأولي من شعوب وحكومات

الحرائق، سواء بالوسائل الناعمة أو الصلبة لتركيا، ربما سيؤدي إلى انتقال الحرائق إلى الداخل التركي.

فتركيا لديها أزمات داخلية أبرزها أزمة الهوية، والتي تشهد صراعاً بين الإسلام والعلمانية من ناحية، وصراعاً بين الإثنيات والأعراق من ناحية أخرى؛ بمشكلة كردية في الشرق، ومشكلة علوية في الجنوب؛ حيث يطالب الفريقان بحقوق أكبر سواء على مستوى اللغة والثقافة فيما يتعلق بالأكراد أو على مستوى ممارسة الشعائر الدينية فيما يتعلق

بالعلويين، لذلك ويقدر ما أن لتركيا قوة إقليمية تؤثر في محيطها إلا أنها دولة غير متماسكة من الناحية القومية، ومن ناحية تعريف ذاتها وحضارتها ولا يزال الصراع دائراً حتى اليوم فيما يتعلق بانحيازات تركيا الحضارية والدينية والثقافية.

التحديات أمام الصعود التركي في المنطقة:

من أهم معالم الصعود التركي في العقد الأخير هو تمكن حزب العدالة والتنمية من صياغة نموذج لحزب سياسي يجمع ما بين الإسلام والديمقراطية، واحترام القيم العلمانية في ظل رخاء اقتصادي وقدرة على حصر موجة الفساد التي ضربت البلاد على أيدي الكماليين، بالإضافة إلى انفتاحه على الشرق والغرب ولعبه لعدة أدوار في الوقت ذاته. فبينما يصف البعض الدور التركي في مناطق نفوذه بأنه دور «المتطلع للهيمنة»، فإن البعض الآخر يصفه بأنه دور «قائد التكامل الإقليمي»، كما أنه يلعب أيضاً أدوار صانع السلام والحليف المخلص والنموذج.

ومن المتصور أن تلعب الدولة أكثر من دور واحد في آنٍ واحد، بل إن هذا هو الوضع الأكثر شيوعاً^(١)، وواقعياً

(2) ABDULLAH BOZKURT, "Egypt and Turkey need each other more than ever", Today's Zaman, 12 July 2013, on this link: <http://www.todayszaman.com/columnists/abdullah-bozkurt-320747-egypt-and-turkey-need-each-other-more-than-ever.html>

(١) د. محمد السيد سليم، «تحليل السياسة الخارجية»، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٨، ص: ٥٠.

الإقليمية التقليدية في المنطقة بما في ذلك إيران التي ترى تركيا السُّنية تهديدًا لطموحاتها الإقليمية بتصدير مذهبها وثورتها اللذين ينطلقان من خلفية حضارية فارسية.

تحولات البيئة الإقليمية التركية:

لذلك فإن البيئة الاستراتيجية لتركيا ومجالها الحيوي قد تحول نتيجة عدة متغيرات داخلية وإقليمية، أهمها:

١- إغلاق حدودها مع أرمينيا بعد أزمة إقليم ناجورنو كاراباخ الأذربيجاني^(٢)، وخلفيات ما يسمى بـ «مذابح الأرمن» التي أعيد إحيائها على أيدي فرنسا والولايات المتحدة^(٣)، وذلك مثل انحسارًا لمبدأ تصفير المشكلات مع الجيران بعدما مدت تركيا يدها لأرمينيا.

٢- اندلاع الثورة السورية، وإحراق الأرض أمام النفوذ التركي، ووضع عراقيل أمام انفتاحها على المنطقة وممارسة أدوارها النشطة المختلفة.

٣- الانقلاب المصري الذي أدى إلى محاصرة النفوذ التركي الذي أراد الالتحام مع الدولة المصرية، وهوض آمال تكوين محور تركي مصري قوي سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا.

٤- الأزمة التركية الخليجية، التي كانت تحت الرماد بسبب المخاوف من تصدير النموذج التركي إلى المنطقة، لتصل إلى حالة الاشتعال فور الانقلاب المصري وتضارب الرؤى الخليجية المصرية بشأنه.

٥- احتمالية دخول السعودية كلاعب نشط في سياسات المنطقة بسياسات تعتمد على المبادرة لا

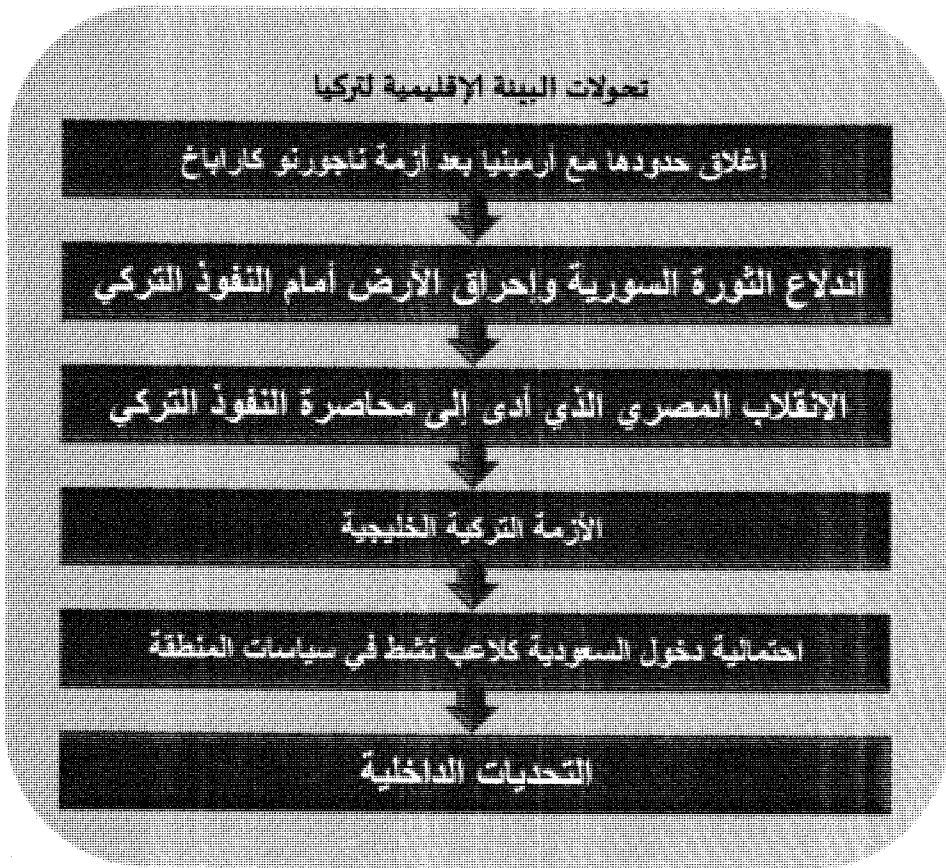
(٢) إقليم جبلي جزء من أذربيجان بجنوب القوقاز سيطرت عليه أرمينيا بدعم روسي في منتصف ١٩٩٣م، المصدر: بي بي سي على الرابط التالي: <http://www.bbc.co.uk/news/world-eu-18270325>

(٣) نص ما أثير عن ما يسمى بـ «مذابح الأرمن» في الكونجرس الأمريكي، من مكتبة الكونجرس، على الرابط التالي: <http://thomas.loc.gov/cgi-bin/query/z?r109:S22AP5-0011>

المنطقة لعودة الاهتمام التركي بالشرق الأوسط، وعقد عدة اتفاقات أمنية واقتصادية وتجارية بين معظم الدول العربية تقريباً (بما في ذلك دول مجلس التعاون الخليجي)، إلا أن الهوة اتسعت بين الأنظمة العربية وبين تركيا لاسيما بعد الربيع العربي، وبعد وضوح خطورة نموذج ما يسمى بـ «الإسلام السياسي» على بعض الأنظمة، وهو ما أنهى شهر العسل التركي الخليجي بصفة خاصة؛ وجمّدت الإمارات صفقات تجارية مع الجانب التركي ومشروعات كهربائية بقيمة ١٢ مليار دولار، في حين أشارت مصادر إلى أن التوتر بين تركيا وبعض دول الخليج أحد الأسباب المحتملة التي قد تدفع إلى إلغاء المشروع، فقد ثارت حفيظة بعض الدول الخليجية بسبب انتقاد رئيس الوزراء التركي رجب طيب أردوغان للإطاحة بالرئيس المصري محمد مرسي الذي اعتبره تركيا انقلاباً في حين دعمته الدول الخليجية، وعلى رأسها السعودية والإمارات^(١).

فمن ضمن الأدوار التركية أيضاً لنظام حزب العدالة والتنمية هو دور «المدافع عن الأيديولوجية» والتي تمثلها هنا الإسلام السياسي الذي يستقي منظومته القيمية من الخلفية الحضارية الإسلامية، وكتابات أوغلو مهندس السياسة الخارجية التركية ومنظر الرؤية الاستراتيجية للحزب تعقد تصالحاً مع الإرث العثماني والدولة التركية القومية مع العالم الإسلامي؛ فنظام أردوغان ينتمي للحركة الإسلامية التي تقوم على محاور السياسة والعمل الخيري والتصوف، والتي أعمدها نجم الدين أربكان وفتح الله كولن وسعيد النورسي على الترتيب، هذا مع تصالح النظام مع العلمانية والديمقراطية وقيم الليبرالية الحديثة، وهذا الدور أيضاً يزعج القوى الإقليمية؛ خشية من تصدير هذا النموذج، والذي يصطدم مع القوى

(١) رويترز في ٢٦ أغسطس ٢٠١٣م بعنوان: «مصادر: طاقة الإماراتية تسعى لإلغاء مشروع كهرباء في تركيا بقيمة ١٢ مليار دولار»، على الرابط التالي: <http://ara.reuters.com/article/businessNews/idARACAE9B2M7U20130826>



٧- ازدياد حجم التوتر بين أنقرة وبغداد، وما كان له من انعكاسات سلبية على الاقتصاد التركي وتجارته الخارجية.

٨- تحرك أكراد سورية لإنشاء حكم ذاتي، وما له من تأثير في مستقبل الأكراد في تركيا.

٩- علاقة حذرة بين تركيا من جهة وروسيا وإيران من جهة أخرى على خلفية الملف السوري^(٢).

لذلك ونظرًا لكل تلك التحديات، فإن تركيا قد تقوم بإعادة ترتيب كاملة لسياساتها الخارجية في المنطقة، وتحول طبيعة الدور التركي الذي أصبح في مفترق طرق: إما أن يستكمل ما بدأه من نفوذ إقليمي؛ وهنا قد يتحتم عليه استخدام قوته الصلبة، وممارسة نفوذ أكبر، أو الانكفاء على ذاته ليتحول إلى إعادة ترتيب

على رد الفعل، وذلك ردًا على التقارب الأمريكي الإيراني المحتمل، وتعالى الأصوات التي تتادي بأن تقود السعودية السياسات الإقليمية، وكأن واشنطن غير موجودة^(١)، وهو ما قد يزيد من وتيرة الصراع مع تركيا على النفوذ الإقليمي.

٦- التحديات الداخلية التي تمثلت في قيام تظاهرات كبيرة في مختلف المناطق التركية؛ على خلفية بعض المشاريع التي كان أردوغان ينوي تنفيذها في ساحة «تقسيم» وسط إسطنبول، وكذلك مسألة خلافة أردوغان في منصب رئاسة الوزراء أو تعديل الدستور لتقلده منصب الرئيس، وهو ما يعني قيادته مدى الحياة لتركيا، مما أثار المعارضة ضده بحجة نيته للتحويل إلى ديكتاتور.

(٢) د. صالح بكر الطيار، «تركيا باتت في حاجة إلى رؤى جديدة»، جريدة الاقتصادية السعودية، ١٢ سبتمبر ٢٠١٣، على الرابط التالي: http://www.aleqt.com/2013/09/13/article_785347.html

(١) فريدريك وير، «ما تفسير إفراط السعودية في التعبير عن ضيقها»، كارنيجي الشرق الأوسط، ١٥ أكتوبر ٢٠١٣، على الرابط التالي: <http://carnegie-mec.org/publications/?fa=53372>.

لذلك فإن الدور التركي في المنطقة يمكن أن يسير في عدة مسارات، منها:

أولاً: انحسار الدور التركي في خانة المدافع عن الأيديولوجية، وهو ينسجم في الوقت ذاته مع دور «النموذج»، بالاقتران على العمل على تقديم نموذج للإسلام السياسي الديمقراطي، والذي يتصالح مع الدين ولا يعاديه، بل ولا يخجل من إبراز الشعارات الإسلامية مثلما كان رد فعل أردوغان على مذبحه رابعة، برعايته لعدة فعاليات إسلامية واعتصامات وصلوات تأييداً للنظام الإسلامي في مصر الذي تم الإطاحة به.

أما على المستوى المحلي فإن ذلك سيتطلب نقل السياسات التركية الداخلية إلى مرحلة أخرى من الانفتاح على الهوية الإسلامية، بعدما نجح أردوغان في السماح للمحجبات بدخول المباني الحكومية، ومنها البرلمان⁽¹⁾، وفي ظل حزمة من التعديلات الدستورية التي تحاول نقل النظام التركي من العلمانية المتشددة إلى العلمانية المتسامحة مع الدين.

وهذان الدوران (المدافع عن الأيديولوجية، والنموذج) مرتبطان بأداء حزب العدالة والتنمية الانتخابي في المرحلة القادمة، وقدرته على تلافي انحسار شعبيته بسبب عدة عوامل، منها القضية العلوية، وانفجارات الداخل نتيجة التدخل في الأزمة السورية، ومدى رضاء الشعب عن سياسة استقبال لاجئي سوريا، والقبول بالدور الأخلاقي لتركيا الذي قد يأتي أحياناً على حساب مصالحها الاقتصادية أو الأمنية.

وفي حالة سير تركيا في هذا المسار، فإنه من المتوقع أن تستمر التوترات مع القوى التقليدية في المنطقة، وسيؤدي ذلك إلى مزيد من محاولات عزل تركيا وعدم

البيت الداخلي، والنظر في الأولويات والاهتمام بمزيد من بناء القوة الشاملة للدولة التركية بالاتجاه إلى التصنيع العسكري؛ ليصبح بمثابة منصة قفز لمرحلة قادمة من النفوذ التركي الجديد في المستقبل بعد أن تكون الظروف أكثر ملائمة.

المحور الثالث: تداعيات الصعود التركي ومساراته المحتملة وتأثيره على المنطقة:

ظلت تركيا طوال تاريخها الحديث منذ نشأة دولتها القومية أكثر ميلاً نحو الغرب بما في ذلك إسرائيل مقارنة بالمنطقة العربية؛ ولم تبدأ في الالتفات إلى المنطقة إلا بدءاً من حقبة تورجوت أوزال، ثم الحركة الإسلامية بقيادة نجم الدين أربكان، والتي استكملها حزب العدالة والتنمية، والذي يواجه الآن تحديات جمة بتحديد مسار الدولة التركية لاسيما في ظل تحديات انتخابية وداخلية قادمة.

فمن الأدوار الصراعية -سواء التدخلية منها أو السلبية، طبقاً للرؤية الأولية التي هندسها أحمد داود أوغلو، وتصرف إلى سعي تركيا إلى تغيير النظام الإقليمي من خلال أدوات قوتها الناعمة والصلبة، ثم محاولة لعبها لدور قائد التكامل الإقليمي- فقد تلجأ تركيا إلى الأدوار المحايدة، والتي لا تتضمن الاشتباك أو التعاون مع القوى الإقليمية أو العالمية المسيطرة في الإقليم، كما لا تتضمن القيام بدور خارجي نشيط، ومن تلك الأدوار دور النموذج، والذي قد يحصر دور تركيا في استكمال الإصلاحات الداخلية، وبناء مصادر القوة الشاملة، والاهتمام بالقضايا ذات البعد الاستراتيجي في مجالها الحيوي، مثل القضية القبرصية، ومصادر الطاقة والغاز شرق المتوسط، واهتماماتها الاقتصادية ذات الأولوية.

(1) جريدة «يني شفق» التركية، «أوروبا ترحب بالتوافق التركي حول رفع حظر الحجاب»، 8 أكتوبر 2013م، على الرابط التالي: <http://arabic.yenisafak.com/turkiye-haber/08.10.2013-4537>

عن الأيديولوجية على المستوى الإقليمي، ورفع دعمها عن أنظمة الإسلام السياسي في المنطقة أو التعامل معها بصورة مفضلة عن غيرها، وهذا سيتطلب تنازلات أيضاً فيما يتعلق بالعلاقات مع دول الخليج وكذلك العراق وإيران، بل وإسرائيل أيضاً، وقد لوحظ ذلك في انخفاض وتيرة الهجوم التركي على النظام الانقلابي في مصر، والذي بلغ أشده في أيامه الأولى من أردوغان الذي رفض الاعتراف بحكومة الانقلاب أو عقد حوارات معها، بل وحثَّ الغرب على الانحياز إلى قيمه الأخلاقية التي ينادي بها، وعدم التعاون مع حكومة الانقلاب، وقد انعكس ذلك مبدئياً في تصريحات أحمد داود أوغلو المشار إليها سابقاً.

وقد حدّد سيد حسن موسويان^(٣)، عدة محددات لسياسة خارجية جديدة لتركيا يمكن أن تساهم في عودتها إلى التعاون الإقليمي، وتعود لتلعب دوراً محورياً في استقرار وأمن الشرق الأوسط ووسط آسيا، وهي:

(١) ألا تلقي بثقلها خلف جماعة الإخوان المسلمين بناء على افتراض خاطئ بأن مستقبل المنطقة يقع على عاتق هذا الطرف.

(٢) ينبغي ألا تدفع الصحوة العربية تركيا إلى التخلي عن سياستها بعدم التدخل في شئون الدول الأخرى.

(٣) الحفاظ على الموقف الحيادي؛ كي تتمكن أنقرة من لعب دور موثوق في إدارة الأزمة الإقليمية.

(٤) تحديد مسار سياستها الخارجية؛ فالسياسة الخارجية الإيرانية في أعقاب ثورة ١٩٧٩م كانت تقوم على المصالح القومية والأيديولوجية، لكن تركيا كدولة علمانية تتصرف من الناحية العملية بناء على أيديولوجية أكثر منها على سياسة خارجية.

تمكينها من التعاون الاقتصادي مع دول المنطقة، مثل حالة مشروع الكهرباء الإماراتي؛ وذلك لإخراجها من المنطقة، ومحاولة تقاسم النفوذ في إطار صفقات بين القوى الفاعلة، لاسيما بين السعودية وإيران، وذلك في حالة صدق نوايا روحاني في مديته بالصدقة والتعاون مع دول المنطقة لاسيما مع السعودية، فقد هناً ملك السعودية الرئيس الإيراني الجديد بفوزه في انتخابات الرئاسة في إيران، مشيداً بتصريحاته بشأن تحسين العلاقات بين البلدين، وعبرت البرقية، التي نشرتها وكالة الأنباء السعودية، عن تمنيات المملكة والشعب السعودي بموفور الصحة والسعادة للرئيس الجديد، والتقدم والازدهار للشعب الإيراني «الشقيق»، كما أشادت بتصريحات روحاني بشأن «حرصه على التعاون وتحسين العلاقات بين البلدين الشقيقين»^(١).

ثانياً: استعادة دور «قائد التكامل الإقليمي»، وذلك بممارسة البرجماتية السياسية في أعلى صورها، وهذا سيتمثل في محاولة تركيا ترميم علاقاتها بأي نظام منتخب في مصر، أو في دول الربيع العربي الأخرى، وعلى رأسها ليبيا وتونس، والنظام الذي يمكن أن يخرج من رحم الثورة السورية، فقد صرح أوغلو بعد أشهر من التوترات مع النظام الانقلابي في مصر أن تركيا تدعم أي رئيس مصري منتخب سواء كان مرسي أو غيره، وأن تركيا لا تدعم شخصيات أو مجموعات معينة، لكنها تدعم الرئيس المنتخب أو أي شخص يتم اختياره عن طريق الانتخابات؛ حيث إن تركيا تفعل ذلك لصالح مصر، ولا تريد إلا شيئاً واحداً فقط وهو «مصر قوية»؛ لأننا نريد جيشاً مصرياً قوياً»^(٢).

وفي تلك الحالة فإن تركيا ستتخلى عن دور المدافع

(١) الجزيرة، نت في ١٧ يونيو ٢٠١٣م، على الرابط التالي: <http://www.aljazeera.net/news/pages/c60fa270-88d4-4777-a346-fe9cff82d47a>

(٢) جريدة الحياة اللندنية، «داود أوغلو: تركيا تدعم أي رئيس مصري منتخب سواء كان مرسي أو غيره»، ٢٧ أكتوبر ٢٠١٣، على الرابط التالي: <http://alhayat.com/Details/565735>

(٣) الرئيس الأسبق للجنة الشؤون الخارجية بمجلس الأمن القومي الإيراني ومؤلف كتاب «الأزمة النووية الإيرانية»، الذي نشرته مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي عام ٢٠١٢م.

في تظاهرات ميدان تقسيم ومنع شرب الكحوليات بعد العاشرة مساء وكذلك منع القُبلات في وسائل المواصلات العامة، وهو ما أحدث حالة من الفوضى غير مسبوقة في حقبة العدالة والتنمية وتوترات مجتمعية ربما تظهر نتائجها في الانتخابات القادمة^(٢).

وفي هذا المسار فإن أية تحولات في الخريطة الانتخابية الداخلية لتركيا يمكن أن تُحدث تحولاً عميقاً

في الدور التركي في الإقليم، ومن ثم هوية الدولة التركية وخياراتها الأيديولوجية، لاسيما مع محاولات تحجيم النموذج الإسلامي التركي في المنطقة، ومحاولة محاصرته تجارياً واقتصادياً، وتضاضر جهود القوى الإقليمية الأخرى في المنطقة على إخراج ذلك النموذج من المعادلة، لاسيما الكيان الصهيوني الذي يرى تهديداً وجودياً عليه من صعود تركيا، والتحامها بمحاور الإسلام السياسي المحتملة الأخرى في المنطقة.

خاتمة:

لا يزال الرباط الجامع للمنطقة يبحث عن هوية؛ فما بين الإسلام السياسي وما بين القومية العربية وما بين الليبرالية والتغريب، تمور المنطقة في خضم ذلك الصراع الأيديولوجي والهوياتي في المقام الأول؛ فهناك النموذج الغربي الذي يدعم قيم الفردية والحرية شبه المطلقة، وانفتاح الأسواق وأعمدة العولمة الأخرى، وهناك النموذج القومي الذي يتواجد في كل من العرب وإيران وتركيا، وكل قومية تريد التمحو

(٢) جيمس جيفري، «إلى أين تتجه تركيا؟ منتزه جيبي، ميدان تقسيم، ومستقبل النموذج التركي»، معهد واشنطن لدراسات الشرق الأدنى، ٢١ يوليو ٢٠١٢، على الرابط التالي: <http://www.washingtoninstitute.org/ar/policy-analysis/view/where-is-turkey-headed-gezi-park-taksim-square-and-the-future-of-the-turkis>

(٥) ألا يكون لديها طموح لإحياء الماضي العثماني؛ لأن هذا من شأنه أن تكون له عواقب وخيمة على تركيا والمنطقة. فقد جعلت سياسات تركيا في الآونة الأخيرة بعض البلدان تعتقد أن أنقرة تسعى إلى إحياء الهيمنة العثمانية السابقة على المنطقة، معتبرة أن «سياسة تصفير المشكلات» ليست سوى غطاء للطموحات «العثمانية الجديدة» في أنقرة.

(٦) ألا تتسى التحديات الداخلية.

فقد تعرضت مصداقية تركيا في المنطقة والعالم هذا الصيف إلى عدة انتكاسات نتيجة لقرار أردوغان بفض المظاهرات باستخدام شرطة مكافحة الشغب والغاز المسيل للدموع وخرطوم المياه، مما أدى إلى اعتقال وإصابة المئات من المتظاهرين في نحو ٥٠ مدينة.

(٧) محاولة للتعاون مع القوى الإقليمية، لاسيما إيران والسعودية والعراق ومصر لإدارة الأزمة الناشئة عن الصحوة العربية. لكن هذه السياسة ينبغي أن تقوم على عدم التدخل، والاحترام المتبادل، والتسوية السلمية^(١).

ثالثاً: حدوث تحول جذري في السياسة الخارجية التركية في حالة عدم تمكن العدالة والتنمية من المحافظة على أغليته البرلمانية وتشكيله للحكومة، وذلك في حالة تأثير الظروف الداخلية والإقليمية على سمعة الحزب، والذي يخوض حرباً على الهوية، في ظل تصاعد دور تيارات يسارية وقومية أعربت عن استيائها من تحركات الحزب، وبلغت ذروتها

(١) سيد حسين موسويان، تركيا بحاجة لإعادة النظر في سياساتها الإقليمية، جريدة الشرق الأوسط اللندنية، في: ٢٢ سبتمبر ٢٠١٢، على الرابط التالي: <http://www.aawsat.com/leader.asp?secti=on=3&article=744218&issueno=12717#.UniscvIUEQM>

بعدد من أكبر المنظمات الدولية والعسكرية مثل النيتو؛ ولكن لا تزال هي الأخرى سجيئة في قوالب الديمقراطية والليبرالية السياسية والاقتصادية.

وفي ظل تحولات إقليمية على المستويين السياسي والاقتصادي بعد الربيع العربي، تبدو المنطقة على فوهة بركان يهددها بالتقسيم العرقي والطائفي، بمشكلات تهدد بتفجر المنطقة إلى فسيفساء متاحرة، مع انتشار فوضى السلاح في الرقعة الممتدة من العراق وحتى ليبيا؛ بتوالد جماعات مقاتلة مذهبية، سنية وشيعية، وميليشيات وتهديدات بتقسيم الدول والكيانات والدعوات إلى الفيدرالية

في العراق وليبيا، لتبدو الصورة الكاملة وكأن الشرق الأوسط في حالة تقسيم فعلية تخرج من رحم الفوضى الخلاقة والشرق الأوسط الكبير، الذي بدأت تتضح أبعاده بتقسيم المقسم وتجزئة الجزأ.

ومن هنا تبزغ أهمية عثور المنطقة على الترياق الذي ينزع فتيل تلك الأزمات، ويحافظ على

وجودها على غرار الحالة الأوروبية، والتي تتشابه في الظروف من حيث الاختلافات العرقية والمذهبية، إلا أنها استطاعت في النهاية العثور على تلك التوليفة بتشكيل مظلة جامعة أمنية وسياسية واقتصادية تحفظها من التهديدات التي أزاحتها إلى خارج حدود الاتحاد الأوروبي، وتعظم التعاون في مختلف المجالات، للوصول إلى أمن إنساني شبه متكامل بين حدودها ودولها التي انضمت إليها، بالرغم من بعض العقبات الاقتصادية والمالية.

وفي ظل رفض الاتحاد الأوروبي لقبول عضوية تركيا، فإن أنقرة في حقبة العدالة والتنمية اتجهت شرقاً، وحاولت أن تقود عملية تكامل إقليمية قوامها

حول ذاتها، وأن تشكّل قلباً صلباً يتشكل حوله نظام إقليمي تدور في فلكه الدول القومية المشابهة له؛ فهناك العالم العربي الممتد على الرقعة الجغرافية من المحيط إلى الخليج، وهناك العالم الإيراني الفارسي الذي التحم مع المذهب الشيعي، وهناك العالم التركي الذي يتكون من 6 دول ناطقة بالتركية، بالإضافة إلى أقلية تركمانية في آسيا، ثم هناك الحركات الإسلامية السياسية التي بزغت بعد الربيع العربي ولا تزال تبحث عن نموذجها في الحكم؛ والذي لم يستطع حتى الآن أن يبلور نموذج ونظريته السياسية المستقلة، بل لا يزال يدور في فلك الديمقراطية الغربية.

شخّل الربيع العربي حالة من الفوران الشعبي والسياسي أدى إلى تغيرات جذرية في طبيعة المنطقة، وأدى إلى بزوغ أنظمة وزوال أخرى وإلى ظهور نماذج سياسية، في حالة من التدافع بين الأنظمة الثورية والتقليدية، لا تزال أصدائها مستمرة حتى الآن، في حالة من المخاض المؤلم الذي يجب إدارته بصورة عاقلة ورشيده.

وفي الخلفية تقبع الممالك والإمبراطوريات الفارسية والعثمانية، وكلاهما ترى نفسها أنها الأحق بوراثنة المنطقة، وأن وجودها التاريخي يشرعن لها التدخل في مناطق نفوذها السابق واستعادة مجدها الإمبراطوري. وفي خضم ذلك كله تعاني المنطقة

من شح اقتصادي إلا من مصادر الطاقة، والذي يشارف نجمه على الأفول بعد عثور الولايات المتحدة على مخزونات هائلة من الغاز الصخري، وكذلك الصين وروسيا، مما يجعل المنطقة مهددة اقتصادياً واجتماعياً في غضون عقدين من الزمان.

ويبرز النموذج التركي الذي استطاع النجاح اقتصادياً بدون مخزونات للطاقة، ولكنه اعتمد على توليفة من الحزم الاقتصادية والتجارية، جعلته معبراً لأنابيب الطاقة وللسياحة الدولية القادمة من الشرق والغرب؛ بسبب موقعه الاستراتيجي الذي يُعد جسراً بين عالمين، واستطاع أن يحقق حزمة أخرى من التحالفات السياسية والدولية جعلت تركيا عضواً

الثورية والتقليدية، لا تزال أصدائها مستمرة حتى الآن، في حالة من المخاض المؤلم، الذي يجب إدارته بصورة عاقلة ورشيده من كافة قوى المنطقة، التي تستطيع - إن أرادت - أن تصل إلى حالة الفوز المتبادل، وهذا يتطلب تنازلات من الجميع من أجل الوصول إلى ذلك الترياق لأمراض المنطقة المزمنة، التي من أبرزها: التبعية السياسية والاقتصادية للغرب، وعدم الرشاد في إدارة الخلافات الداخلية والإقليمية، والتي يمكن أن تصل إلى حد تحطيم الذات لصالح الكيان الصهيوني، كما نرى في الحالة المصرية.

تصنيف المشكلات، واستراتيجية يفوز فيها الجميع Win-Win Strategy في إطار عملية من المشاركة السياسية والاقتصادية، وأن تتوصل المنطقة إلى حالة من الاعتمادية الاقتصادية المتبادلة Economic Interdependence بين حكومات المنطقة، وقد حققت أنقرة نجاحًا ملموسًا بهذا الصدد حتى جاء الربيع العربي.

لقد شكّل الربيع العربي حالة من الفوران الشعبي والسياسي أدى إلى تغيرات جذرية في طبيعة المنطقة، وأدى إلى بزوغ أنظمة وزوال أخرى، وإلى ظهور نماذج سياسية، في حالة من التدافع بين الأنظمة

معلومات إضافية

حزب العدالة والتنمية التركي:

أسسه رجب طيب أردوغان وعبد الله غول ورفاقهما من المنشقين الآخرين من تيار الراحل نجم الدين أريكان في ١٤ أغسطس/آب ٢٠٠١م، بعد أقل من شهرين من حظر حزب الفضيلة، أحد أحزاب ذلك التيار، مضى على دخوله الساحة السياسية التركية أكثر من ١١ سنة، ويحمل لقب «الحزب الحاكم» منذ فوزه بالأغلبية الساحقة في الانتخابات النيابية التي أجريت في ٣ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٢م.

والحزب لم ينشأ في الأصل نشأة سياسية طبيعية، فهو حصيلة مخاض فكري عرفته حركة دعوية اقتنعت بضرورة المشاركة السياسية، وأنتجت رؤية جديدة تعتبر العمل السياسي تخصصاً، وأفردت له رؤيته السياسية، وأنتجت أدواتها السياسية لتصريف هذه الرؤية

رجب الطيب أردوغان زعيم حزب العدالة والتنمية:

يعزو كثير من المحللين الأتراك قوة حزب (العدالة والتنمية) في جانب منها إلى قوة شخصية زعيمه واستحواذها على قلوب الناس، ويذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك بالقول: إن الناخبين صوتوا لأردوغان قبل أن يصوتوا للعدالة والتنمية، فالرجل الذي وُلد في عام ١٩٥٤م، ومارس رياضة كرة القدم لمدة ١٦ عاماً، واشتغل بالتجارة بدءاً من بيع (السميط) والحلوى في مدرجات ملاعب كرة القدم، وتخرج من ثانوية الأئمة والخطباء، وكلية علوم الاقتصاد والتجارة بجامعة مرمره؛ هذا الرجل بدأ نشاطه السياسي بتولي منصب رئيس حزب (السلامة الوطني) بزعامة نجم الدين أريكان في إسطنبول وعمره ٢٢ عاماً، ثم تولى نفس المنصب لحزب (الرفاه) في عام ١٩٨٥م وعمره آنذاك ثلاثون عاماً.

والرجل أسر قلوب الملايين من سكان إسطنبول بحبه يوم تولى منصب عمدة إسطنبول عام ١٩٩٤م ولدة أربع سنوات؛ إذ تمكن في زمن قصير من تحويل ديون بلدية إسطنبول التي بلغت وقتها نحو ملياري دولار للبنوك إلى أرباح؛ محققاً قيمة استثمارات تلامس سقف الـ ١٢ مليار دولار.

وسن أردوغان توزيع الإعانات المادية والعينية على الفقراء من الأهالي في شهر رمضان، وساهم بنفسه في توزيعها ومراقبة توزيعها، وساهم أردوغان بشكل فعّال في حل مشكلة المياه المزمنة في منازل وأحياء إسطنبول، ونجح في توفير أماكن كثيرة لبيع مياه الشرب بأسعار زهيدة في أحياء إسطنبول، ونجح كذلك في ضخ المياه إلى كافة منازل المدينة.

ولم يستتف زعيم الكبير أن يلبس ملابس عمال البلدية، ويشاركهم أعمالهم؛ تشجيعاً لهم على المضي قدماً في مشروعه الطموح لنظافة المدينة، وتبنى مشروع زرع مليون شجرة بأنحاء المدينة؛ مما أسهم بدوره في تحويل إسطنبول لمدينة جميلة تحوي متنفسات خضراء ومنتزهات متنوعة.

وقد سرَّ كل مسلم وقتها أن الرجل إذ لم يتمكن من حظر بيوت الدعارة بشكل قاطع في إسطنبول؛ بسبب قوة القوانين العلمانية الجائرة وبطش العسكر؛ فإنه التف على ذلك على نحو لا يخلو من ذكاء؛ حيث فتح العديد من مشاغل الحياكة ودور التوبة التي استوعبت أعداداً كبيرة ممن يردن التوبة من عاهرات دور الدعارة (القانونية)!

كل هذا جعل الرجل يأسر قلوب الناس، ليس في إسطنبول وحدها، وإنما في كل ربوع تركيا المسلمة، وهو ما جعل قلوب العلمانيين المتحجرة تنفطر من الحنق والغیظ عليه، فتربصوا به الدوائر، وما أن ألقى الرجل أثناء توليه منصبه في إسطنبول أبياتاً من الشعر في مدينة (سمرت) التركية للشاعر محمد عاكف يقول فيها: (المآذن حرابنا، والقباب خوذنا، والمساجد حصوننا، والمصلون جنودنا) حتى أطلق عتاة العلمانية عقيرتهم مطالبين بمحاكمته، وهو ما تحقق على أيدي قضاة الزور الذين قضوا عليه بعد محاكمة جائرة بالحبس لمدة عشرة أشهر بسبب قراءة هذه الأبيات. يتم ذلك في ظل الديمقراطية التركية العرجاء!!

بيد أن الله أراد أن يبور كيد العلمانيين، وأن يأتيهم من حيث لا يحتسبون؛ إذ أسهم سجن الرجل كثيرًا في مضاعفة شعبيته، وكان يوم توديع الجماهير الغفيرة التي احتشدت بعشرات الآلاف أمام منزله المتواضع بحي البرهانية بإسطنبول، إلى السجن يومًا عظيمًا بلا شك، فالرجل قد صلى الجمعة بمسجد محمد الفاتح يوم وقفة عرفات، ثم توجه ومن خلفه آلاف السيارات وعشرات الآلاف من المسلمين الأتراك إلى السجن تتحشج هذه الكلمات وهي تخرج من أفواههم: (لنقطع الأيدي الممتدة لطيب، المآذن حرابنا، والقباب خوذنا ..)، وبكلمات حانية التفت أردوغان إلى الموكب الباكي الذي يضم أكثر من ١٥٠٠ سيارة، ويمتد لأكثر من ٢٥ كيلو مترًا قائلًا: (أستودعكم الله، هذه الأنشودة لن تنتهي هنا... سأعمل بجد داخل السجن، وأنتم اعملوا خارجه كل ما تستطيعونه..)، ودخل الرجل السجن وقضى فيه شهرًا أربعة، وعاد أكثر طموحًا وأكثر تصميمًا، وعادت إليه الجماهير أكثر لهفة واقتناعًا ببرنامجه الذي رأوه يضحى من أجله، وتزايدت شعبيته إلى حد كبير، إلى أن وصل إلى زعيم تركيا اليوم.

المصادر

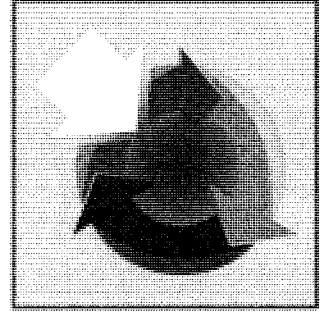
١- تركيا.. حزب العدالة والتنمية أمام منعطف خطير، مقال إسماعيل باشا، على الرابط التالي:

<http://www.aljazeera.net/opinions/pages/0d30f5db-0087-4f60-a877-8693ea552ad9>

٢- نتائج الانتخابات التركية .. تفاؤل دون حد الإغراق مقال للأستاذ أمير سعيد بمجلة البيان، العدد ١٨٢

ص ٨٤.

وعد بلفور وإقامة الكيان الصهيوني من النكبة إلى النكسة ثم السلام



د.عدنان عبد الرحمن أبو عامر

عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الأمة للتعليم المفتوح - غزة- فلسطين

ملخص الدراسة

التقت المصالح الاستعمارية الأوروبية على انتزاع فلسطين من الوطن العربي مع المصالح الصهيونية بإقامة وطن قومي لليهود، بل إن قادة أوروبا عرضوا إقامة وطن لهم في فلسطين، وعلى الأخص من جانب فرنسا وبريطانيا؛ للتخلص من المشكلة اليهودية في أوروبا، وتحقيق مكاسب استعمارية من الدولة (الدخيلة) التي ستقام في المنطقة العربية.

وقد أدت الاتصالات السياسية إلى إصدار اللورد (جيمس بلفور) ١٨٤٨-١٩٣٠م في الثاني من نوفمبر تشرين الثاني ١٩١٧م، رسالة، عُرفت لاحقاً باسم «وعد بلفور»، وجهها لـ(ليونيل روتشيلد) ١٨٦٨-١٩٣٧م أحد زعماء الحركة الصهيونية، جاء فيه: «تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف لتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية».

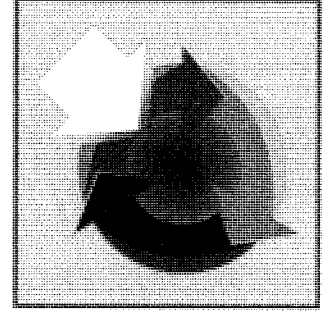
وقد شكّل وعد بلفور ذروة الصراع العربي الصهيوني في فلسطين، بعد إنجاز هدفه بإقامة الوطن القومي اليهودي، ومهدّ الوعد لتنامي قوة الصهاينة، وضعف العرب؛ نتيجة لواقع التجزئة وتركة الاستعمار، وأدى إلى تثبيت الكيان الصهيوني ككتلة عسكرية متقدمة للغرب، وقاعدة استراتيجية في المنطقة، وساهم في السيطرة على معظم مساحة فلسطين، بزيادة كبيرة عما حدده قرار التقسيم، وأدى إلى تهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين العرب من ديارهم، وتحويلهم إلى لاجئين ونازحين، وكان من نتائجه وقوع ملايين الفلسطينيين العرب تحت حكم الصهاينة، والتحكم بأموالهم ومصادرتهم، وشارك في سقوط الأتعة عن الأنظمة العربية التابعة للغرب المسيحي والمشروع الصهيوني.

ومن الأسباب التي دفعت بريطانيا لإصدار وعد بلفور هو أن تكون الدولة اليهودية خط الدفاع الأول عن قناة السويس، والعمل على استمرار تجزئة الوطن العربي، وتحقيق رغبتها في كسب الرأي العام اليهودي في الولايات المتحدة؛ لما لليهود من تأثير سياسي واقتصادي، وخوفاً من أن يسبقها الألمان والحلفاء بوعد مماثل، مما قد يغيّر مسيرة الحرب لصالحها، والخوف من النهوض المتوقع لحركة التحرر في فلسطين.

إلا أن أهم أسباب صدور الوعد يكمن في الجانب الاستعماري، كما جاء في صحيفة (صاندي كرونكيل) البريطانية التي كتبت تحت عنوان: «سياسة بريطانيا في فلسطين.. ضرورة عبرية بريطانية»: لا يوجد جنس آخر في العالم كله يستطيع أن يقوم بالخدمات التي نريدها غير اليهود أنفسهم، ولدينا في الحركة الصهيونية القوة المحركة التي ستجعل امتداد الإمبراطورية البريطانية مصدر كبرياء وركن قوة، وفي ١١ كانون أول ١٩١٧م دخلت الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال (اللتبي) ١٨٦١-١٩٣٦م مدينة القدس، مما أدّى لحدوث صدامات بين العرب واليهود، وتشكيل جمعيات عربية ضد المشروع الصهيوني.

جاءت بعض التفسيرات التاريخية للوعد بأن الوقت قد حان لأن تقوم الحضارة المسيحية بعمل شيء لليهود، ما يعني أن إنشاء دولة صهيونية أحد أعمال التمويض التاريخية، ولذلك دَوّن الزعيم الصهيوني «حايم وايزمان» العبارة التالية بعد صدور الوعد: «لو كنت يهودياً متديناً لظننت أن عودة المسيح قد دنت»!!

وعد بلفور وإقامة الكيان الصهيوني من النكبة إلى النكسة ثم السلام



د.عدنان عبد الرحمن أبو عامر

عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الأمة للتعليم المفتوح - غزة - فلسطين

مقدمة:

لا يمكن التعامل مع الصراع الدائر على أرض فلسطين المحتلة على أنه نموذج من الصراعات البشرية العادية، بل يمكن اعتباره امتداداً لصراعات لم تتوقف بين القوى المختلفة للسيطرة عليها، لأسباب اقتصادية أو عسكرية، أو حتى دينية.

فالصراع الذي تحياه الأمة بدرجات متفاوتة مع المحتل الصهيوني، تتداخل فيه الظروف التاريخية والسياسية، وعوامل الاقتصاد والدين، وحتى الرؤية الحضارية للوطن العربي، ودوره في موكب الحضارة الإنسانية.

كما أن مرور مائة عام على الحرب العالمية الأولى تتزامن بتغيرات استراتيجية تشهدا القضية الفلسطينية، تتعلق بتنامي المشروع الصهيوني في ظل اشغال الدول العربية بمشاكلها الداخلية، والصهاينة أنفسهم يعرفون أكثر من سواهم أن هذه الحرب الكونية شكلت البداية الحقيقية لإقامة الوطن القومي لهم على أرض فلسطين التاريخية.

لقد أدركت الحركة الصهيونية في وقت مبكر أن اندلاع الحرب العالمية الأولى فرصة تاريخية لن تتكرر، وبالتالي لا بد من استغلالها أيما استغلال، وحين كانت تدور رحى المعارك وسط هدير الدبابات وأزيز الطائرات وغبار الجنود، كانت هناك صفقات سياسية خطيرة تدور رحاها من وراء الكواليس، كانت فلسطين ضحيتها الأولى.

أولاً: جذور الصراع الاستعماري على فلسطين:

جاء التفكير الاستعماري الغربي مبكراً في استخدام الحركة الصهيوني، وإقامة دولة لهم تفصل بين وادي النيل والمغرب العربي من جهة، وبين بقية المشرق العربي من جهة أخرى؛ لتمزيق وحدته الجغرافية والسياسية، ما يعني أن بداية الأطماع الاستعمارية والمخططات التآمرية التي استهدفت القضية الفلسطينية، هدفت في مجملها لإيجاد كيان غريب مرتبط بالقوى الاستعمارية، ومدعوم منها، مهمته منع قيام الوحدة العربية، لاسيما بين مشرقه ومغربه، وبالتالي استحالة تكوين دولة عربية قوية.

مع العلم أن التوجهات الغربية نحو إقامة هذا الكيان الغريب في المنطقة العربية، كان يهدف للتخلص مما عُرف آنذاك في أوروبا بـ(المسألة اليهودية)، والأعباء الأمنية والسياسية التي بات يشكلها اليهود ضد الأوروبيين، وجاءت الجهود الغربية لخدمة مصالحها الاستعمارية عبر (وكيل أممي) في المنطقة، والتخلص من عبء اليهود

المنتشرين في مختلف أنحاء أوروبا.

وقد اشتد التنافس الاستعماري الأوروبي نهاية القرن التاسع عشر لوراثة الإمبراطورية العثمانية، في الوقت الذي حاول فيه نشطاء الحركة الصهيونية بدعم أوروبي الضغط عليها للموافقة على منح اليهود حق الاستيطان في فلسطين، والسماح بهجرتهم إليها، غير أن السلطان (عبد الحميد الثاني) ١٨٤٢-١٩١٨م رفض تلك الضغوط والإغراءات^(١).

وتقدم الصهاينة عام ١٩٠٢م بعرض مغرٍ له بتسديد

جميع ديون الدولة العثمانية، وبناء أسطول لحمايتها، وتقديم قرض بقيمة (٣٥) مليون ليرة ذهبية لخزينتها، لكنه رفض العروض كلياً، مما حفّزهم لتوثيق علاقاتهم مع القوى الاستعمارية ليصبحوا جزءاً من المعادلة الدولية التي رُسمت خطوطها بعد الحرب العالمية الأولى.

واستغل الصهاينة الظروف السياسية التي آمت بالدولة العثمانية والمنطقة العربية عموماً، وتمكنوا من تحقيق بعض أطماعهم ومخططاتهم الهادفة للاستيلاء على مساحات من فلسطين، واستجلاب أعداد كثيرة من المهاجرين إليها.

ورغم إصدار السلطان العثماني لقرارات بمنع الصهاينة من الإقامة في فلسطين لأكثر من ٣ أشهر، وحظره عليهم شراء أي أرض فيها؛ خشية أن تتحول إلى قاعدة تمكنهم من (سلخ) فلسطين عن بقية الجسد العربي، إلا أن نشاطهم بات محمومًا في تلك المرحلة في ظل تعاونهم مع بعض المسؤولين العثمانيين، عبر إغداق الأموال عليهم^(٢).

(١) الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد ١، دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤م، ص ١٨٦.

(٢) طربين، أحمد، قضية فلسطين ١٨٩٧-١٩٤٨م، دمشق، ١٩٦٨م، ص ٥٤.

وقد وصل الدور الاستعماري الغربي ذروته في المنطقة العربية، قبل قيام الحركة الصهيونية، وهدف لحماية مصالحه، وملاحقة الدول الأخرى لمنافستها عليها، ووجدت في فلسطين مكاناً ملائماً لسيطرت نفوذها لعدة أسباب أساسية:

١- الموقع الجغرافي الذي تتمتع فيه وسط الوطن العربي.

٢- البوابة التي تربط بين قارتي آسيا وإفريقيا.

٣- مصلحة الاستعمار الأوروبي عموماً، والبريطاني بالذات، بفصل الجزء الآسيوي عن الإفريقي من الوطن العربي، وإيجاد ظروف لا تسمح بتحقيق الوحدة بينهما في المستقبل، لاسيما وأن فلسطين تطل على البحر الأحمر، وما كان يعرف بـ(طريق الهند) المؤدية للمستعمرات الإنجليزية الأخرى في: السودان، عدن، كينيا، الصومال، والخليج العربي.

وجاء التوجه البريطاني منذ وقت مبكر من القرن العشرين حين دعت أصوات غربية للعمل من أجل «إبقاء المنطقة العربية مجزأة ومتأخرة، ومحاربة اتحاد الجماهير العربية، وإقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الرابط بين آسيا وإفريقيا، بحيث يشكّل على مقربة من قناة السويس قوة صديقة لبريطانيا، وعدوة للمنطقة».

وما لبث أن اشتد الصراع والتنافس الاستعماري بين القوى الكبرى عشية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م، وكانت فلسطين في قلب ذلك التنافس، مما وجد ترجمته في عدد من الاتفاقيات والأحلاف، لعل أهمها اتفاقية (سايكس- بيكو) عام ١٩١٦م، التي

دعت أصوات غربية للعمل من أجل «إبقاء المنطقة العربية مجزأة ومتأخرة، ومحاربة اتحاد الجماهير العربية، وإقامة حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الرابط بين آسيا وإفريقيا، بحيث يشكّل على مقربة من قناة السويس قوة صديقة لبريطانيا، وعدوة للمنطقة».

بقيت طي الكتمان فترة من الزمن.^(١)

(الدخيلة) التي ستقام في المنطقة العربية.

وعمد قادة الصهيونية وعلى رأسهم (حايم وايزمان) ١٨٧٤-١٩٥٢م لإجراء مباحثات مع بريطانيا؛ انطلاقاً من علاقتها الاستراتيجية، وصلت ذروتها بتقديم مذكرة رسمية لوزارة الخارجية البريطانية تضمنت برنامج إدارة جديدة في فلسطين، طالبت بـ:

أ- الاعتراف باليهود في فلسطين كوحدة قومية واحدة.

ب- اعتبار اللغة العبرية لغة قومية ورسمية في فلسطين.

ج- منح اليهود الاستقلال الذاتي في الشؤون الدينية والتعليمية.

وأدت الاتصالات السياسية إلى إصدار اللورد (جيمس بلفور) ١٨٤٨-١٩٣٠م في الثاني من نوفمبر تشرين الثاني ١٩١٧م، رسالة، عرفت لاحقاً باسم «وعد بلفور»، وجهها لـ (ليونيل روتشيلد) ١٨٦٨-١٩٣٧م أحد زعماء الحركة الصهيونية، جاء فيه: «تتظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف لتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى، وسأكون ممتناً إذا أحطتم الاتحاد الصهيوني علماً بالتصريح».^(٢)

ومن الأسباب التي دفعت بريطانيا لإصدار الوعد:

١- أن تكون الدولة اليهودية خط الدفاع الأول عن قناة السويس.

ولعل المراجع لحقبة الحرب العالمية الأولى بعد مرور مائة عام عليها، يكتشف كم كانت الخطوات الاستعمارية جنباً إلى جنب، سواء في ساحة المعركة أو في غرف التفاوض، في سباق منها لتوظيف الإعياء والإرهاق الذي وصلته الدولة العثمانية، وباتت تسميها «الرجل المريض»، لتوزيع تركتها، وتقاسم بلدانها.

ولم تكن الحركة الصهيونية بمنأى عن هذا الحراك الاستعماري الأوروبي، فوضعت نفسها في صورة تقاسم المنطقة العربية بين فرنسا وبريطانيا، لتكون حصتها الثمينة أرض فلسطين، من خلال صدور الوعد التاريخي.

وقد بدا جلياً واضحاً أن الحرب العالمية الأولى لم يكن لها لتنتهي دون تحقيق تلك التطلعات الاستعمارية، بما فيها الأطماع اليهودية، وبدأت معالم تحقق ذلك فور انتهاء الحرب عام ١٩١٨م، وخضوع فلسطين للانتداب البريطاني؛ توطئة لمنحها لليهود، بعد أن كلفت بريطانيا مندوبها السامي الذي عينته حاكماً لفلسطين بتطبيق وعد بلفور: نصاً وروحاً.

وكان التخطيط الصهيوني أنه فور انتهاء فترة الانتداب البريطاني على فلسطين بعد ٣٠ عاماً، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، يكون قد اكتمل بنيان الدولة اليهودية ليتم إعلانها أواسط مايو أيار ١٩٤٨م.

ثانياً: وعد بلفور.. الأسباب والنتائج:

التقت المصالح الاستعمارية الأوروبية على انتزاع فلسطين من الوطن العربي مع المصالح الصهيونية بإقامة وطن قومي لليهود، بل إن قادة أوروبا عرضوا إقامة وطن لهم في فلسطين، وعلى الأخص من جانب فرنسا وبريطانيا؛ للتخلص من المشكلة اليهودية في أوروبا، وتحقيق مكاسب استعمارية من الدولة

(٢) الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٣م، ص ١٦٥.

(١) خلة، كامل، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩م، المؤسسة العربية للدراسات، طرابلس، ١٩٨٢م، ص ١٥٣.

٢- استمرار تجزئة الوطن العربي.

٣- رغبتها في كسب الرأي العام اليهودي في الولايات المتحدة؛ لما لهم من تأثير سياسي واقتصادي.

٤- الخشية أن يسبقها الألمان والحلفاء بوعدهم مماثل، مما قد يغيّر مسيرة الحرب لصالحهم.

٥- الخوف من النهوض المتوقع لحركة التحرر في فلسطين.

٦- مكافأة (وايزمان) لخدماته التي قدّمها أثناء الحرب، واكتشافه مادة (الأسيتون) الفعّالة، وهي نوع من المتفجرات المستخدمة آنذاك.

إلا أن أهم أسباب صدور الوعد يكمن في الجانب الاستعماري، كما جاء في صحيفة (صاندي كرونيكل) البريطانية التي كتبت تحت عنوان: «سياسة بريطانيا في فلسطين... ضرورة عبرية بريطانية»: لا يوجد جنس آخر في العالم كله يستطيع أن يقوم بالخدمات التي نريدها غير اليهود أنفسهم، ولدينا في الحركة الصهيونية القوة المحركة التي ستجعل امتداد الإمبراطورية البريطانية مصدر كبرياء وركن قوة، وفي ١١ كانون أول ١٩١٧م دخلت الجيوش البريطانية بقيادة الجنرال (اللتبي) ١٨٦١-١٩٢٦م مدينة القدس، مما أدى لحدوث صدامات بين العرب واليهود، وتشكيل جمعيات عربية ضد المشروع الصهيوني^(١).

وقد كانت صيغة الوعد واضحة تمامًا، بحيث تم الاعتراف باليهود ليس كلاجئين أو مضطهدين مساكين، والهدف منه ليس هدفًا خيريًا بل سياسي استعماري، وستبذل بريطانيا ما بوسعها لتيسير تحقيق هذا الهدف، وهذا هو الجوهر الواضح للوعد، ولذلك جاءت بعض التفسيرات التاريخية للوعد بأن الوقت قد حان لأن تقوم الحضارة المسيحية بعمل شيء لليهود، ما يعني أن إنشاء دولة صهيونية أحد أعمال

التعويض التاريخية، ولذلك دوّن الزعيم الصهيوني «حايم وايزمان» العبارة التالية بعد صدور الوعد: «لو كنت يهوديًا متدينًا لظننت أن عودة المسيح قد دنت!»

في حين كان «بلفور» من المؤمنين بأن التاريخ ليس سوى أداة لتنفيذ الهدف الإلهي، وقد أوضح في كتابه العقيدة والإنسانية أن الله أغدق على اليهود وعدًا بالعودة لأرض الميعاد، وهي شرط مسبق للعودة الثانية للمسيح، ولذلك عندما صاغ هذا الوعد، اعتقد أنه يحقق إرادة الله، ويوفر الشروط المسبقة للعودة الثانية للمسيح، من خلال مساعدة اليهود.

وبالتالي فإن أحد أهم دوافع وعد بلفور هو تحقيق ما يعتقد أنه تعاليم المسيحية، فتصاعد النزعة الصهيونية المسيحية جعل فكرة «عودة» اليهود لأرض فلسطين تبرز بقوة كشرط لعودة المسيح، ودخول اليهود في المسيحية، وبالتالي نهاية العالم، ما يعني أنّ تسهيل احتلال اليهود لأرض فلسطين عبارة عن عمل ديني مسيحي لدى الصهاينة الغربيين، أي أنّ منشأه «لم يكن حبًا في اليهود، ولكن تطبيقًا لمعتقدات دينية متطرفة».

ورغم صغر حجم وعد بلفور شكلاً، إلا أنه كان سبباً بمعاناة عظيمة عاشها الفلسطينيون، ولا يزالون إلى يومنا هذا، وربما يكون من آخر محصّلاته التهديد الأخير من الصهاينة بترحيل كل الفلسطينيين من أرضهم مجددًا.

مع العلم أن التنافس الإمبريالي على السيادة والمصالح الاستراتيجية وقف على رأس دوافع إصدار وعد بلفور، ففي الوقت الذي كان لفرنسا موطن قدم في فلسطين بعلاقتها مع المسيحيين الكاثوليك هناك، وروسيا بعلاقتها بالأرثوذكس، فإن بريطانيا لم يكن لها من بين السكّان الأصليين حليف، مما جعلها تسعى لأن تعقد تحالفًا مع اليهود الصهاينة^(٢).

(٢) غانم، محمد حافظ، المشكلة الفلسطينية في أحكام القانون الدولي، معهد البحوث العربية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٧٤.

(١) بهلوان، سمر، صالح، حبيب، القضية الفلسطينية، جامعة دمشق، ١٩٨٧م، ص ٥٨.

الأسباب التي دفعت بريطانيا لإصدار وعد بلفور:

أن تكون الدولة اليهودية خط الدفاع الأول عن قناة السويس.

الخوف من النهوض المتوقع لحركة التحرر في فلسطين.

استمرار تجزئة الوطن العربي.

رغبتها في كسب الرأي العام اليهودي في الولايات المتحدة.

الخشية أن يسبقها الألمان والحلفاء بوعد مماثل، مما قد يغير مسيرة الحرب لصالحهم.

عنصري، ويرون أن «الوعد الإلهي» لليهود بالاستقرار في أرض فلسطين يخوّلهم بأن يقضوا على السكان الأصليين فيها، بحجة أن أهل البلد غارقون في الجهل والظلام واللاحضارة.

أما على الصعيد القانوني، فإن وعد بلفور الذي أسّس لقيام إسرائيل غير قانوني أساساً؛ لأنه وعد من شخص لا حق له في الأرض لطرف ثالث غريب تماماً عنها، كما أن هناك مغالطة كبرى في استعمال المصطلحات، فالوعد يتحدث أنه إعلان «Declaration» حتى يعطى صفة قانونية، والحال أنه مجرد وعد سياسي كتبه الصهاينة أنفسهم، ولا يعطيهم أي شرعية قانونية للاغتصاب⁽¹⁾.

ثالثاً: الخلفية الدينية في إقامة الكيان الصهيوني:

أسفرت الحرب العالمية الأولى عن تغييرات سياسية دولية مهمة، استطاعت من خلالها القوى الاستعمارية اقتسام مناطق النفوذ في العالم بما يخدم مصالحها

ومن جهة أخرى، فإن موقع فلسطين الاستراتيجي كنقطة التقاء لثلاث قارات، وسعي ألمانيا وروسيا وفرنسا لتعزيز مواقعهم، إما بمد شبكة القطار من برلين إلى بغداد، أو بالسيطرة على البوسفور، أو بمحاولة السيطرة على منطقة الشام ككل، جعل بريطانيا تفكر بجدية في بسط النفوذ على فلسطين حتى تضمن عدم تحولها لقوة أخرى بعد الحرب، وبالتالي تضمن مصالحها الاستراتيجية لفترة طويلة.

ولذلك فإن التأويلات الخاطئة لتعاليم المسيحية جعلت تيار الصهيونية ينتشر انتشاراً واسعاً داخل الكنيسة المسيحية، وبرز أعمالاً عنصرية وجرائم حرب باسم الدين، وفي هذا الإطار جاء وعد بلفور مكرساً للتأويل الصهيوني لبعض النصوص الدينية، فقد أباح جرائم الحرب التي ارتكبت بحق الشعب الأصلي في فلسطين، كما أضفى الشرعية على اغتصاب أرض الغير، ونظر إليهم على أنهم أقل من فئة البشر الذين يستحقون الاحترام والعناية، رغم وجود نسبة من المسيحيين بينهم.

وقد استعان الساسة البريطانيون واليهود بمقتطفات من بعض الكتابات التي تأوّل نصوصاً دينية بشكل

(1) زعيتر، أكرم، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، 1918-1939م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1979م، ص 197.

العرب مرة واحدة باستثناء لا مفر منه حين ذكرت كلمة (العربية) وصفاً لإحدى اللغات الرسمية الثلاث، مع العبرية والإنجليزية في المادة الـ ٢٢. (١)

وبعد أن تمت الصفة بين الصهاينة والإنجليز بإعلان الوعد، كان لا بد لذلك الوفاق أن يحقق مضمونه عملياً على أرض فلسطين منذ بداية الحكم العسكري البريطاني المباشر، لإرساء الوطن القومي الذي لم يكن يعني للصهاينة سوى الدولة اليهودية؛ حيث التزمت بريطانيا بدعم مطامعهم في أرض فلسطين ضد إرادة أصحابها الشرعيين ومصالحهم، وبدا كأنه سياسة متعمدة؛ لأنها حالت دون تسريب أي معلومات للعرب عن وعد (بلفور) وسياسة الوطن القومي اليهودي؛ لأنها تعرف مدى عدائهم للصهيونية، وشدة حرصهم على عروبة فلسطين.

وفور إعلان الانتداب، تولى (غلبرت كلايتون) الإدارة العسكرية في فلسطين، وعُين ضابطاً لإدارة المدن، ثم تبعه عدد من الجنرالات البريطانيين، إلى أن عُين السير (هربرت صموئيل) مندوباً سامياً لفلسطين منذ أوائل تموز ١٩٢٠م.

وتطلع الصهاينة لتحويل فلسطين دولة يهودية بأسرع وقت ممكن، حتى لو أدى لضياع الجهود البريطانية بتهدئة الخواطر العربية، وإيجاد نوع من التفاهم العربي الصهيوني، حيث وجدت تطلعاتهم ترجمتها في تحييز الإدارة العسكرية البريطانية، فمنحتهم العديد من الحقوق التي حُرِم منها الفلسطينيون، سكان البلاد الأصليين، ومنها:

١- إتاحة حرية التنقل والإقامة لهم.

(١) ياسين، عبد القادر، كفاح الشعب الفلسطيني حتى عام ١٩٤٨م، دار الجليل، دمشق، ١٩٨٤م، ص ٧٩.

الخاصة، وبتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٢٠م تقرر انتداب بريطانيا على فلسطين.

وجاء ذلك بعد إجماع استعماري لدى عدد كبير من صناع القرار الغربي بأن الدولة اليهودية القادمة هي دولة وظيفية منذ لحظة ميلادها، ولن تستطيع الخروج من شرنقتها الوظيفية إلى رحاب السيادة الذاتية بفعل عوامل كثيرة داخلية وخارجية.

مع العلم أن المصلحة الاستعمارية العليا ارتأت إيجاد كيان سياسي في المنطقة يقوم بوظيفة محددة تملئها عليه الدول الاستعمارية، مروراً بالاستحقاقات السياسية - الدينية بين الحركة الصهيونية والمجموعة الغربية، وانتهاءً بما بعد الحرب الباردة.

ولذلك فإن الصهاينة لم يكن لديهم مشكلة في أن يعتبروا دولتهم كياناً وظيفياً للغرب، وفقاً لما ذكره الفيلسوف اليهودي «يشعياهو ليويفيتش» ما نصه: «إسرائيل دولة عميلة للولايات المتحدة»، والإسرائيليون هم كلاب حراسة للمصالح الأمريكية والغربية في الشرق الأوسط، ويتعلق بقاؤنا بقدرتنا على القيام بهذه المهمة».

ولذلك شكّلت التحالفات الاستراتيجية بين واشنطن وتل أبيب تحليلاً سليماً لهذا الدور الوظيفي الذي تمارسه؛ لأنه دور تطلب منها القيام بمهام قد تكون في أحداث كثيرة «قدر» كي تتحصل على أهدافها لضرورات المصالح العليا الغربية، وأساسها الدعم الاقتصادي المالي والعسكري، حتى تظل جاهزيتها دائمة لتنفيذ الأدوار المناطة بها.

جاء صك الانتداب في ٢٨ مادة، إضافة للديباجة التي جعلت الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ وعد (بلفور)؛ حيث احتوت المقدمة على نصه، وشرحت باقي المواد شروط تنفيذ ومظاهرها، ولم ترد كلمة

وردت بريطانيا أنها سمحت لليهود بالمجيء
لفلسطين ليس لاغتصاب الأرض، وانتزاعها من
أصحابها، بل «لإحياء ما كان ميتاً، واستغلال ما كان
مهملاً»، وترديد نعمة (صلة القربى) المزعومة بين
العرب واليهود، «فاليهود ليسوا غرباء عن العرب،
فهم متصلون بصلة الدم، وجميعهم من نسل إبراهيم
الخليل».

وقد أدت الدول الاستعمارية الأوروبية دوراً حاسماً
في بناء دولة الكيان على مستوى توفير العنصر
البشري اليهودي المهاجر لأرض فلسطين، وبذلت
جهوداً كبيرة للحصول على أكبر مساحة ممكنة من
الأراضي لتوطين اليهود القادمين إليها، وساعدت
بتأمين إنشاء مؤسسات الدولة بكل أبعادها.

ويشترك اليهود والمسيحيون في خلفية دينية واحدة
تشكل جزءاً مهماً من العلاقات بينهما، وإن اختلفت
تفاصيلها بينهم، وهذه الخلفية الدينية مرتبطة بتفسير
جزء كبير مما جرى في الماضي، وما يجري اليوم
في فلسطين من سلوكهم، بل إنها مرتبطة ارتباطاً
كبيراً بمستقبل العلاقة مع الغرب، ولاسيما ما يتعلق
بدعنه لإسرائيل، وردود أفعاله ومواقفه من الأزمة
في فلسطين.^(١)

والحديث هنا عن بيان أسس هذه الخلفية الدينية
المؤثرة في الغرب، مستقاة فعلاً من الإرث الديني
المشترك مع إسرائيل، خاصة العقائد النصرانية
المتهودة بعامة، والبروتستانتية المتصهينة بخاصة،
وتقف خلف الدعم الغربي لإسرائيل منذ ما قبل
قيامها وحتى كتابة هذه السطور، وتزداد تمكناً في
قلوب المسيحيين مع مرور الوقت، ومشاهدة ما
يزعمون أنه واقع معاش يصدق نبوءاتهم التوراتية
والإنجيلية المزعومة.

ولذا يعتقد الكثير من النصارى أنهم بدعهم لليهود

٢- تشجيع هجراتهم إلى فلسطين.

٣- التدخل في شئون الإدارة العامة لصالحهم.

٤- تهيئة سبل استيطان الأراضي، وتقديم القروض
الميسرة لهم.

٥- إدخال اللغة العبرية كلغة رسمية، وإنشاء قضاء
يهودي.^(١)

في المقابل، مارست سلطات الانتداب سلوكيات
قمعية ضد العرب، مثل:

١- حظر التجول الدائم، الحد من حرية التنقل،
منعهم من إبداء آرائهم بإدارة بلادهم.

٢- العزل السياسي، قطع وشائجهم عن إخوانهم.

٣- التشدد في جمع الضرائب المتراكمة على
الفلاحين، رفض إنشاء بنك زراعي لإقراضهم، حجز
أراضي من يعجز عن تسديد ديونه، إهمال قراهم.

٤- إقامة محطات السكك الحديدية بعيداً عنهم؛
بهدف تخفيض أثمان أراضيهم.

٥- استبعاد المثقفين الفلسطينيين من أي وظائف
في المؤسسات العامة، مقابل ملئها بالموظفين اليهود.

وبعد أن أصبح (ونستون تشرشل) ١٨٧٤-١٩٦٥م
وزيراً للمستعمرات عقد مؤتمراً في القاهرة لموظفي
الوزارة، وأوصى بالاستمرار بتنفيذ وعد (بلفور)؛ لأن
بريطانيا ملزمة بإنشاء وطن قومي لليهود، وزاد من سوء
الأوضاع في فلسطين عشية الحرب العالمية الظروف
القاسية التي مرت بها، ومنها: استنزاف موارد البلاد،
هلاك الماشية، قطع عدد كبير من أشجار الزيتون
لأغراض الوقود لتسيير القطارات بشكل خاص بسبب
انعدام الفحم الحجري، إهمال بساتين البرتقال في
يافا وشمالها؛ نظراً لندرة الوقود اللازم لمضخات الماء،
والافتقار ليد العاملة ودواب الزراعة.

(١) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية،
رؤية نقدية القاهرة، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية،
الأهرام، ١٩٧٥م، ص ١٦٩.

(٢) بويصير، صالح، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، وزارة
الثقافة، رام الله، ٢٠٠١م، ص ١٨٩.

لفلسطين بقي حيًّا في أذهان النصارى المتدينين».

٣- من عقائد النصارى أيضًا أن اليهود مباركون في أنفسهم، ومبجلون من قبل الرب، وأنهم الشعب الذي ولد منه ربهم السيد المسيح عليه السلام، الذي يروونه بحسب الجسد يهوديًا من بني إسرائيل.. تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

٤- من عقائد النصارى التوراتية: ادعاء أن اليهود شعب محبوب من قبل الرب، والشعب المختار لله، بل يعدونهم أولاد الرب وأبناء الله الحي.

٥- كذلك من عقائد النصارى التوراتية أيضًا والمؤيدة بنصوص إنجيلية: عقيدة مباركة الرب لمن يبارك اليهود، ولعنه لمن يلعن اليهود، ما يعني وجوب مباركة النصارى لليهود لينالوا بركة الرب، والحذر من لعنهم لليهود، كي لا يتعرضوا لعن من قبل الرب، والمقصود عندهم بمباركة إسرائيل: دعم اليهود وتأييدهم ومناصرتهم في كل الأمور، كما أن المقصود بلعنهم عكس ذلك: كإيذائهم، والتقصير في دعمهم، وتأييدهم، وما شابه ذلك.

٦- أن المسيح سيأتي ثانية، لكن مجيئه مرتبط بتحقيق نبوءات معينة منها: هجرة اليهود إلى فلسطين، إقامة دولة إسرائيل بعاصمتها الأبدية القدس، هدم المسجد الأقصى، وإقامة هيكل سليمان مكانه.^(١)

رابعًا: الحروب التحريرية لمقاومة المشروع الصهيوني:

منذ إعلان وعد بلفور، شكلت المقاومة إحدى ركائز العمل الجماهيري للحركة الوطنية، وبرزت تشكيلات من المقاومة التي تفاوتت في تأثيراتها على مجريات الأحداث السياسية العاصفة في فلسطين.

وقبل الإعلان عن إسرائيل، قامت الحركة الصهيونية

(١) عبد الوهاب المسيري، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مرجع سابق، ص ١٦٩ وما بعدها.

الصهاينة يحققون أوامر الرب ووصايا المسيح عليه السلام، وأنهم مثابون إذا نفذوا ما جاء في التوراة المحرفة، لاسيما ما يرتبط باليهود، وكنتيجة طبيعية لتقديس النصارى لهذه التوراة، فقد أصبحت هناك عقائد توراتية نصرانية ليست قليلة تخدم اليهود خدمة كبيرة، وأصبحت هذه العقائد معينًا لا ينضب لصالح اليهود، تجبر المسيحيين على خدمتهم عن عقيدة وإيمان.

ومن أهم العقائد ذات العلاقة ما يلي:

١- عقائد نصرانية نابعة أساسًا من التوراة تسخر النصارى لخدمة اليهود والخضوع لهم، واعتقادهم أن الله وعد بني إسرائيل أن يعطيهم فلسطين إلى الأبد، بعد طرد اليهود للفلسطينيين، ومن ثم فالنصارى ينظرون لفلسطين على أنها حق ديني طبعي لليهود، فهم حين يهاجرون أو يُهجَّرون لفلسطين إنما يهاجرون للملكم وفق وعد إلهي، ولذا ساعدوهم ويساعدونهم على الهجرة من قديم بشتى السبل الحسية والمعنوية والمادية وغير المادية، ومنها القرارات السياسية على المستوى الدولي لتحقيق هذا الوعد الديني، وتحويله لواقع ملموس، ومن أشهر ذلك ما قاله «بلفور» عن نفسه: «أنا صهيوني أكثر من أي صهيوني».

ويقول «وايزمان» في مذكراته: (أتظنون أن «بلفور» كان يحايبنا حين منحنا الوعد، كلا إنه استجاب لعاطفة دينية تجاوب بها مع تعاليم العهد القديم).

٢- ما يزعمون أنه وعد إلهي بإعادة اليهود لفلسطين، وتجميعهم فيها من جميع أنحاء العالم، ولهذا وقف البروتستانت منذ نشأتهم خلف تهجير اليهود لفلسطين، ونادى «مارتن لوثر» الزعيم البروتستانتي المشهور بتهجير اليهود قسرًا إليها بداية القرن الـ١٦ الميلادي، كما أنشأ الإنجليز عام ١٨٠٩م جمعية تنصيرية من أول أهدافها تجميع اليهود المتفرقين في العالم، وتهجيرهم لفلسطين؛ وليس غريبًا أن تقول دائرة المعارف البريطانية: «إن الاهتمام بعودة اليهود

الجمهور الفلسطيني بآخر أخبار المقاومة.

- إصدار مطبوعات باللغات الأجنبية تُهزّب سراً،
وتوزع على أفراد الجيش البريطاني.

- التوعية بمخاطر الوجود والهجرة اليهودية عبر
الكتب والصحف.

٢- تشكيل الجمعيات التحررية:

التي شكلت الخطوة الأولى نحو التنظيم السياسي،
وتوحيد الجهود لمواجهة المرحلة الخطيرة القادمة،
وتركزت أهدافها بمقاومة السيطرة الصهيونية،
ومكافحة نفوذهم، والحيلولة دون شراء الأراضي،
والمحافظة على حقوق أبناء الوطن،
وترقية شئونه الزراعية والاقتصادية
والتجارية، وإحياء العلم وتهذيب
الناشئة.

٣- برقيات الاحتجاج:

التي وقّعتها الحملات الشعبية
بالصورة الأكثر تأثيراً وشمولاً عام
١٩٢٥م، حين زار (بلفور) فلسطين
لافتتاح الجامعة العبرية، وتوالت
البرقيات ورسائل الاحتجاج من
شتى القطاعات، التي اعتاد الفلسطينيون إرسالها
للمؤتمرات الدولية، وجاء فيها: «إن مندوبي جميع
بلدان سوريا الجنوبية يرفعون احتجاجهم الشديد
على ما سمعوه من جعل بلادهم وطناً قومياً لليهود،
ومنحهم حق الهجرة».

٤- إرسال الوفود السياسية:

ركز الفلسطينيون كثيراً على النشاط الدبلوماسي،
عبر إرسال عشرات الوفود إلى لندن وجنيف وباريس،
بغرض التفاوض وتحقيق أهداف إعلامية وكسب
الأصدقاء، ورغم أهمية ذلك الأسلوب، إلا أن جدواه
كانت ضئيلة جداً؛ حيث لم يكن للوفود العربية

عبر تسهيلات سلطات الانتداب ببناء الأجهزة
اللازمة، المتخصصة في المجالات الزراعية والتعليمية
والاقتصادية والإعلامية والعسكرية، وجاءت ليلة ١٥
أيار ١٩٤٨م ليتم الإعلان عن وجود دولة لها كامل
المقومات اللازمة لبقائها.

ويمكن تقسيم الحروب والثورات الشعبية التي قام بها
الفلسطينيون ضد الانتداب البريطاني والاحتلال الصهيوني
إلى نوعين:

أ- المقاومة المدنية السلمية:

فقد وضع الفلسطينيون منذ الأيام الأولى للانتداب
البريطاني على بلادهم تقاليد المقاومة المدنية
الطويلة، التي امتدت ليومنا هذا،
وشملت الاحتجاجات والإضرابات
والمظاهرات، وأصبحت المناسبات
الوطنية للحداد القومي للشعب
الفلسطيني.

وأجاد الفلسطينيون استعمال
الرموز التي تعتبر من مقومات
المقاومة المدنية، وأدوات التعبير
عن مشاعر الأمة وأفكارها في
كل مكان، واستخدموا الإعلام

السوداء وشارات الحداد وإغلاق الدكاكين ومصاريع
النوافذ وإخلاء الشوارع من الجمهور، ورفع الأعلام
الوطنية، وغيرها من أساليب المقاومة المختلفة في
العمل السياسي على النحو التالي:

١- الحملات الإعلامية الصحفية:

التي شكلت محوراً مهماً من المقاومة للانتداب
البريطاني، وأخذت دورها الحيوي في تلك المقاومة،
من خلال بعض الأشكال:

- النشاط الذي أبداه مراسلو الصحف ومحرروها
في تدبيح المقالات الحماسية والتثقيفية، وتوير

والفلسطينية التي تذهب إلى لندن تأثير كبير؛ لأنه لم يكن لها أصدقاء لنصحهم، ولم تكن لديهم خبرة كافية للتعامل مع وزارة المستعمرات.

٥- المظاهرات الشعبية:

التي قصدت دار الحاكم العسكري والقناصل الغربية، للإعراب عن معارضة إجراءات إدارة الانتداب ضد الفلسطينيين، وقد غلب على المظاهرات إغلاق الدكاكين، ومشاركة التجار فيها، وتشدت حين تتزامن مع زيارة مسئول بريطاني، وتسير مظاهرات ضخمة، للإعراب عن الاحتجاج ضد سياسة الانتداب ووعدهم (بلفور).

٦- الإضرابات العامة:

كان الإضراب العام الشامل عام ١٩٣٦م، الإجراء الأكثر بروزاً ووضوحاً في تاريخ المقاومة؛ لأنه شمل عمال جميع المدن، ورغم أن الطبقة العاملة حديثة العهد وقليلة التجربة في الإضرابات، لكنها أظهرت قدرة هائلة على الابتكار والتحدي، واستمرت مدته (١٧٧) يوماً، وشمل إضراب النقابات العمالية: عمال السيارات، السواقين، الموائى، شركات الجاز، الأفران، النجارين، عمال الصابون، الجلود والنسيج.

٧- مقاطعة الحكومة:

لجأ العرب لسلاح المقاطعة السياسية بوقت مبكر، وأسهمت فيه الجمعيات الإسلامية في المدن والقرى، وحين طلب الإنجليز من أئمة المساجد تلاوة البيانات الحكومية الرسمية، رفضوا الانصياع لها.

٨- المهرجانات الوطنية:

التي عُقدت للتديد بالانتداب، ورفض ممارساته

ومقاومتها، وتمخض عنها القيام ببعض الفعاليات أهمها:

أ- تشكيل جماعات لرصد السواحل، وإيقاف المهاجرين اليهود المتسللين ليلاً.

ب- تأليف فرق عربية لحماية العمال من اعتداءات اليهود، وضمان وصولهم لأماكن عملهم.

ج- تأسيس نواد ثقافية ومنظمات تربية وسياسية تقاوم الدعاية الصهيونية.

د- إقامة الحرس الوطني، وتعضيد تنظيمات الفتوة والكشافة، وجرها لساحات النضال، وتولي مهام الإسعافات خلال المظاهرات.

٩- تفعيل المساجد ودور العبادة:

التي لعبت دوراً كبيراً في مقاومة الانتداب البريطاني، وأصبحت نقطة انطلاق لكثير من الأحداث؛ نظراً لما

تتيحه من إمكانات عملية وروحية للمقاومة من حيث: تجمع المسلمين للصلاة في مكان واحد، شمول صلاة الجمعة على خطبة توجيهية، احتواء الصلوات والتلاوات القرآنية على عناصر نضالية، من حيث واجب الجهاد والاستشهاد، والدفاع عن حرمة الإسلام، وعجزت سلطات الانتداب نفسها عن التدخل في مثل ذلك التجمع أو تفريق المتجمعين.

لعبت المساجد دوراً كبيراً في مقاومة الانتداب البريطاني، وأصبحت نقطة انطلاق لكثير من الأحداث؛ نظراً لما تتيحه من إمكانات عملية وروحية للمقاومة من حيث: تجمع المسلمين للصلاة في مكان واحد، شمول صلاة الجمعة على خطبة توجيهية احتواء الصلوات والتلاوات القرآنية على عناصر نضالية، من حيث واجب الجهاد.

١١- تشكيل الأحزاب السياسية:

كان الدافع الأساس لها تنظيم الفعاليات النضالية ضد الانتداب، وإن كان معظم نشاطها سلمياً، إلا أنها شكلت بوابة وطنية مبكرة للعمل الكفاحي، ومن أهم أحزاب تلك المرحلة: الاستقلال العربي، الدفاع الوطني، الشباب، العربي الفلسطيني، الكتلة الوطنية، مع الكثير من التحفظات التي أحاطت بأدائها سياسياً وميدانياً.

١٢- دور المرأة الكفاحي:

ت- إعداد قوائم بأسماء كبار الصهاينة، والعناصر
الموالية لهم، وتسجيل مكان إقامتهم.

ث- تعليم بعض أعضائها اللغة العبرية، ليتابعوا ما
يُقال ويُشر في الصحف العبرية.

ج- مراقبة ما يجري في الساحة الفلسطينية،
والاتفاق مع بعض رجال الشرطة والدرك ليسلموا
أسلحتهم، ويسهلوا عمل الفدائيين إذا نشبت الثورة.

٢- ثورة موسم النبي موسى:

أولى الانتفاضات الشعبية في فلسطين، انطلقت
شرارتها الأولى بينما احتشدت وفود القرى في
القدس بتاريخ ٤ أبريل ١٩٢٠م للمشاركة في الموسم
الديني السنوي، وخطب فيهم عدد من رجالات
فلسطين، فألهبوا حماس الجماهير، وتطورت لمهاجمة
الجماهير لليهود بمدينة الخليل.

٣- انتفاضة يافا:

وقعت شرارتها عندما اعتدت مجموعة من اليهود
المحتفلين بيوم العمال في أول مايو ١٩٢١م على
الفلسطينيين القاطنين في حي المنشية بمدينة يافا،
وحدث إطلاق نار عليهم، فهاجموا منازل اليهود، ثم
اتسعت الاشتباكات والأحداث لتغطي أجزاء عديدة
من شمال فلسطين، وتستمر جذوتها حتى منتصف
مايو ١٩٢١م.

فيما قام اليهود بأسر العرب الموجودين عندهم في
مستعمرة (بتاح تكفا)، وقتلوا العشرات منهم، ووجد
بينهم من قُتل حرقاً بماء الفضة، وبالآلات القاطعة،
ومن شوّه وعُدب قبل قتله، وبين الشهداء أطفال ونساء
وبنات هُتكت أعراضهن، وبُقرت بطونهن، وجُرُدن من
ملابسهن.

٤- ثورة البراق:

وهو الحائط الغربي للمسجد الأقصى، وبدأت
الأحداث بتاريخ ١٥ أغسطس ١٩٢٩م حين نظم اليهود

برز دورها في مرحلة الانتداب البريطاني، وتطلبت
الظروف المصيرية التي شعر بها الشعب أن تنطلق
نحو المشاركة في الحياة النضالية والسياسية عبر:

أ- عقد المؤتمرات النسائية داخل فلسطين وخارجها
من الدول العربية المجاورة.

ب- التظاهرات النسائية الشعبية الدورية، لشجب
الإرهاب البريطاني، والمطالبة بمعاملة رجالهن معاملة
إنسانية.

ج- تأليف لجان السيدات الفلسطينيات التي دعت
للعصيان المدني.

د- تعرض النساء لبطش الشرطة، واستشهاد
بعضهن، واعتقال البعض الآخر.

هـ- تولي فرق من الفتيات لإسعاف الجرحى، ونقل
المؤن، وتوفير التجهيزات.^(١)

ب- المقاومة الثورية المسلحة:

خاض الشعب الفلسطيني عدداً من تجارب المقاومة
المسلحة ذات الأهمية الخاصة، كالثورات التي واجهت
الانتداب البريطاني والاحتلال الصهيوني على النحو
التالي:

١- جمعية الفدائية:

وقد اتبعت نظاماً سرياً صارماً، وضمّت في صفوفها
عدداً من رجال الشرطة والدرك (الجنדרمة)، وبدأت
عملها الجهادي من خلال الخطوات التالية:

أ- تسليح أعضائها بأسلحة خفيفة تمهيداً لساعة
الصفير.

ب- بث الدعاية الوطنية بين العشائر، وبذل الجهود
لإعداد ضباط فلسطينيين.

(١) علوش، ناجي، المقاومة العربية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨م، دار
الطلیعة، بيروت، ١٩٧٥م، ص ١٦٣.

ب- إقامة الحلقات السرية من أكثر الناس استعداداً للثورة، وإيماناً بها، وتمثل بالاعتماد على الأصول الشعبية للقيادة، وقد تمكن من تشكيل مجموعة قيادية، لها مهمات مناصرة به على النحو التالي: الدعوة، التدريب، الاستخبارات والمعلومات، العلاقات الخارجية، الأموال والتبرعات.

ج- النشاط العسكري السري تحت الأرض.

د- العلية واشتداد الكفاح المسلح.

٧- منظمة الجهاد المقدس:

أنشأها عبد القادر الحسيني، وشرع بتشكيل تنظيم سري عسكري، لمقاومة السلطة البريطانية وتحطيم المشروع اليهودي، واتسع ليشمل مناطق مختلفة من فلسطين، ووصل عدد أعضائه (٤٠٠) مقاتل، وأوجد (٧) مراكز سرية للتدريب.

٨- الثورة الكبرى:

وهي من أعظم الثورات التي عبّرت عن روح التضحية والفداء والمصابرة، والإصرار على الحقوق التي تميز بها أبنائها، وتمكنت ببعض مراحلها من السيطرة على كل الريف، والسيطرة على عدد من المدن، فيما انكفأت السلطات البريطانية في بعض المدن المهمة، وقدّمت الثورة نموذجاً عالمياً هو أطول إضراب يقوم به شعب كامل استمر ١٧٨ يوماً.

٩- المقاومة إثر قرار التقسيم:

اندلعت المواجهات في فلسطين فور الإعلان عن قرار التقسيم المعلن بتاريخ ٢٩/١١/١٩٤٧م، وبدت في أيامها الأولى أشبه بهجمة عفوية غير منظمة، وأقل مستوى من الأيام الأولى لثورة ١٩٣٦م، ثم بدأت تأخذ طابعاً أكثر تنظيمياً؛ حيث وُزِع جيش الجهاد المقدس في اتجاهين: الدفاع عن القرى والمدن، ومهاجمة المستعمرات والمنشآت الصهيونية.

ورغم الإرهاب الذي تعرض له الفلسطينيون من قبل

مظاهرات في القدس اتجهت إليه، ورفعوا علمهم، وأنشدوا نشيدهم الوطني، وشم خطبواؤهم رسول الله والإسلام والمسلمين.

وقام المسلمون في اليوم التالي بمظاهرة مضادة انطلقت من المسجد الأقصى، وحدث شجار بين الطرفين زاد الأوضاع توتراً، ثم وقعت صدامات واسعة بعد صلاة الجمعة يوم ٢٢ أغسطس في القدس، ولم تكد أخبار الصدامات تصل الناس، حتى عمت المظاهرات والصدامات أنحاء فلسطين، واستمرت بشكل عنيف أسبوعاً كاملاً، ولم تتطفئ جذوتها إلا بعد أيام أخرى تالية.

٥- عصاة الكف الأخضر:

تركز نشاطها شمال فلسطين بمدنيتي صفد وعكا، وبدأت ب(٢٧) ثائراً شاركوا بثورة البراق، وفروا من قبضة السلطات، ثم وصل عددهم ٤٠٠ مقاتلاً، ولاقوا تعاطفاً واسعاً من السكان، وهاجموا اليهود والإنجليز، ثم انضم إليها عدد من الثوار السوريين الذين حاربوا فرنسا في الثورة السورية ١٩٢٥-١٩٢٧م، وأصبحوا العمود الفقري لها.

وقد عمل الثوار على طريقة حرب العصابات، وكانت الحركة السريعة والمناورة من أهم صفاتها، مما سهّل لها تعاطف الفلاحين الذين قدّموا لها العون على مختلف المستويات، وشنّوا هجمات على اليهود والشرطة والجيش البريطانيين في وقت واحد، وأشادت التقارير البريطانية بكفاءةهم، وأشارت لتعاطف الكثير من القرويين معهم.

٦- ثورة القسام:

رأى الشيخ عز الدين القسام أن الطريق للثورة المسلحة ضد الانتداب، تمثل في ٤ مراحل تضمنت:

أ- الإعداد النفسي للثورة المسلحة، ونشر روحها في القطاعات الشعبية في الريف والمدينة.

د- المقاومة المسلحة والعمل الفدائي:

التي جاء ارتفاعها كبيراً لعدة أسباب، منها: حجم القمع الذي تعرض له الفلسطينيون مبكراً، والخبرة الوطنية المخزنة لدى الفلسطينيين منذ مواجهة القوات الإسرائيلية مع بدايات إنشاء الكيان الإسرائيلي، مروراً بسنوات الخمسينيات، والأعمال الفدائية التي نفذت حينها. (1)

خامساً: رؤية إستراتيجية لحل القضية

الفلسطينية:

تعتبر القضية الفلسطينية المحورية بين القضايا العربية، وتتأثر بالتغيرات والتطورات التي تحدث على العديد من الساحات، حتى لو كانت بعيدة جغرافياً، فكيف يكون الأمر إذا كانت الأحداث الكبيرة تجري على أعتاب فلسطين؟

ولذلك فإن ما يجري في الساحة العربية من ثورات متلاحقة وحراك متواصل عبارة عن زلزال كبير، وتطور تاريخي نضجت متطلبات انبثاقه، وسيؤثر حتماً على البنى السياسية والاجتماعية والاقتصادية في المنطقة العربية، وستكون له انعكاسات مهمة على مختلف القضايا والهموم العربية القطرية والقومية، وعلى رأسها قضية فلسطين.

ومن المتوقع أن تشكل حركة الشارع العربي موضوعاً حيوياً للشعب الفلسطيني ومختلف الفصائل المعنية بمستقبل الحقوق الوطنية، لاسيما وأن الوطن العربي دخل مع هذه الثورات مرحلة تاريخية جديدة تتغذى على حقبة تاريخية ساد فيها التخلف والطفيلان والهوان، وامتدت منذ أنتهت مرحلة الاستعمار المباشر.

السلطات البريطانية، فقد تمكنوا من إزاعها عبر استهداف المستعمرات الإسرائيلية، وتصدوا للعدوان بوسائلهم الدفاعية الضعيفة، وتمت عمليات الدعم وتهريب السلاح إلى فلسطين خفية بمعزل عنها، إلا أن معظمها لم يكن كافياً لتشكيل مواجهة فلسطينية عسكرية حقيقية.

١٠- المقاومة بين عامي ١٩٦٧-١٩٨٧م، وأخذت الأشكال التالية:

أ- الالتحام الشعبي وحرب الشوارع:

التي أخذت عدداً من الأشكال المعبرة، تمثلت بالاشتباكات المستمرة بين قوات الاحتلال والجماهير في المدن والقرى والمخيمات، والتي لم تكن عفوية غير منظمة وغير هادفة، على العكس، فغالبية الصدمات والمواجهات تمت بتخطيط مسبق، وتسليحت بأسلحتها البدائية، في مخيمات: جباليا وبلاطة، والدهيشة والنصيرات.

ب- التظاهرات الشعبية:

والمهرجانات الحاشدة، وسارت أكبر المسيرات في تشييع الشهداء، وترافقت معها الهتافات المدوية ورفع الأعلام، لتعبّر الإرادة الشعبية عن نفسها بأبسط الوسائل، كما تنوعت أسباب التظاهرات من القضايا الوطنية العامة، إلى الأكثر خصوصية: بلدياً وفتوياً، ولم يمر أسبوع واحد دون وقوعها.

ج- الإضرابات التجارية والعصيان المدني:

وجاءت حداً على الشهداء كرد فعل عفوي من الجماهير في منطقة الشهيد والمناطق المجاورة، واعتادت البيانات على تحديد تاريخ الإضراب ومناسبته وسببه، وأصبح سلاح التحدي الأول، ويات من هموم سلطات الاحتلال فتح المحلات التجارية بالقوة، ثم إقبالها في ساعات العمل التي تحددها المقاومة.

(1) صالح، محسن، المقاومة المسلحة ضد المشروع الصهيوني في فلسطين، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٥٨.

الفلسطينية والاحتلال الإسرائيلي برعاية أمريكية ودعم عربي رسمي، قد يسفر نهاية المطاف عن حل «مشوّه» للقضية الفلسطينية، تنهي النزاع التاريخي الذي يمر عليه هذه الأيام مائة عام.

ولذلك تمارس دولة الكيان الإسرائيلي ضغوطاً هائلة على السلطة الفلسطينية من خلال الوسيط الأمريكي «غير النزيه»، للقبول باتفاق سلام يضع حداً لهذا الصراع يتجاوز الحقوق التاريخية التي قامت عليها هذه القضية، بما فيها: القدس، اللاجئون وحق العودة، المياه، والمستوطنات، وسواها.

وبالتالي فإن السيناريوهات المحتملة للقضية الفلسطينية، وفقاً للمتغيرات المطروحة، قد تدفع بالمنطقة إلى أحد السيناريوهات التالية:

١- السيناريو الأول:

نجاح الثورات والانقاضات الشعبية في تحقيق تغييرات جذرية في المنطقة العربية، تؤدي لصعود قوى وطنية وإسلامية للقيادة، وبشكل يؤدي لقيام مشروع عربي إسلامي نهضوي جديد.

٢- السيناريو الثاني:

نجاح جزئي للثورات والانقاضات، يؤدي لتحسين ظروف الحياة السياسية والاقتصادية في المنطقة العربية، دون أن ينشغل بعملية الصراع مع إسرائيل، ودون أن يسعى لتغيير موازين القوى في المنطقة.

٣- السيناريو الثالث:

حدوث آثار عكسية لا تؤدي فقط لفشل الثورات في تحقيق أهدافها، وإنما لنجاح القوى المضادة للثورة بدعم إسرائيلي، وربما غربي مباشر وغير مباشر في تأجيج الصراعات الطائفية والعرقية، بشكل

مع العلم أن الأنظمة العربية التي سادت خلال العقود الماضية لم تكن بمستوى التحدي الذي فرضته القضية الفلسطينية؛ حيث تلهت بالكثير من الخطابات الرنانة والعبارات الجميلة، وأدارت ظهرها لقيم التضحية بالوقت والجهد والمال، وقيم الاستعداد والأخذ بالأسباب، ولذلك هناك طموح وطني فلسطيني بأن تأخذ هذه القضية مكانها الصحيح من الناحية العملية، وهي المكانة التي لم تتبوأها حتى الآن إلا نظرياً.

مع العلم أن الكثير من القراءات السياسية للثورات العربية الحاصلة لم تركز في شعاراتها على القضية الفلسطينية، مما يثير الشكوك حول التزام الشعوب العربية بها مستقبلاً، إلا أن ذلك تبدد بعد أن ظهرت بوادر التأثير على التفاعل العربي مع القضية الفلسطينية في ذكرى النكبة، وانطلقت مظاهرات متواضعة في عدد من البلدان العربية، وتوجهت

جماهير غفيرة يوم الزحف الموافق ٢٠١١/٥/١٦م إلى الحدود الافتراضية بين فلسطين والبلدان العربية المجاورة.

لكن حالة الانشغال العربي بالملفات الداخلية، وبروز بعض الثورات المضادة، وحالة الاستعداد للفلسطينيين في بعض الأقطار المجاورة، تكشف أن تطورات القضية الفلسطينية ليس لديها

مستقبل واعد، لاسيما وأنها تعاني من عقم المسار التفاوضي، الذي لم يؤدّ منذ توقيع اتفاقية أوسلو ١٩٩٣م إلى أيّ تقدم يُذكر في حصول الفلسطينيين على حقوقهم، بل إن كل يوم مضى منذ ذلك الوقت يشهد تغوُّلاً من إسرائيل في عملية الاستيطان في الأراضي الفلسطينية التي تهدد بتصفية القضية.

وهنا يمكن القول بكثير من الخطورة: إن الحراك التفاوضي الحاصل في هذه المرحلة بين السلطة

٧- سقوط الأقنعة عن الأنظمة العربية التابعة للغرب المسيحي والمشروع الصهيوني.

٨- رغم كل ذلك، فقد مهّد وعد بلفور، وإقامة الكيان الصهيوني -بعكس ما أراده القائمون عليه- الطريق لبروز حركات التحرر العربية، وقوى المقاومة الفلسطينية، لمواصلة مقاومتها؛ لتثبيت دعائم حكم شعبي من شأنه تعبئة الأمة لخوض معركة التحرير.

في المقابل، فإن الأمة الإسلامية مطالبّة في هذه الذكرى المؤلمة لصدور وعد بلفور، بأن تساند الفلسطينيين أصحاب القضية الأكبر والأقدس لها، من خلال التوصيات التالية:

١- معاونة أهل فلسطين بأنواع العون بالمال واللسان، والقلم والنفوس، والعون المالي هو اليوم من أوجب الواجبات، والسعي بكل طاقاتهم أفراداً وجماعات وشعوباً وحكومات لتقديمه، لتخفيف معاناتهم، وتثبيت حقوقهم الشرعية والتاريخية في وطنهم؛ ووقوفاً في وجه محاولات الإبادة والتهجير التي يقترفها المحتل الصهيوني بجميع الوسائل في كل أرض فلسطين.

٢- بذل كل الجهود الممكنة لتحقيق المصالحة بين جميع القوى الفلسطينية؛ لأنها ضرورة تملئها العقيدة الدينية، والمصلحة الوطنية، والحكمة السياسية، والكاسب الوحيد من الخلافات بين الفلسطينيين هو المحتل الصهيوني، ومن يجري في ركابه.

٣- تشجيع الشعوب العربية والإسلامية ومنظماتها الشبابية، والثقافية والنقابية وأحزابها، وسائر القوى التحررية على تنظيم المسيرات والاعتصامات والإضرابات الاحتجاجية السلمية للضغط على الحكومات المتقاعدسة عن نصرة فلسطين والدول المتواطئة، حتى تنهض للقيام بواجبها، وتكف عن كل مسعى تطبيعي مع الكيان الصهيوني.

٤- تشكيل لجان دائمة لمتابعة الشأن الفلسطيني، لتبقى قضية فلسطين في مكانها المركزي من قضايا

يؤدي للفوضى، وتمزيق الدول الحالية، ونشوء كيانات جديدة متناحرة.

٤- السيناريو الرابع:

ربما تتأرجح الاحتمالات الأقوى بين الاحتمالين الأول والثاني، غير أنه لا ينبغي استبعاد أي من الاحتمالات؛ إذ إن إسرائيل وحلفاءها لن يسمحوا بتحول هادئ وسهل في المنطقة، يمكن أن يؤدي لقيام كيانات معادية لهم، وسيسعون بكل الطرق الناعمة والخشنة، لحرف مسار هذه الثورات والانتفاضات، بما يفرّغها من محتواها، أو يؤدي لنتائج معاكسة تخدم المشروع الصهيوني على المدى البعيد.

الخاتمة

لعل مراجعة الصفحات السابقة في الحديث عن وعد بلفور والدعم المسيحي الغربي للمشروع الصهيوني على أرض فلسطين، تجعلنا نخرج بالاستخلاصات التالية على صعيد القضية الفلسطينية:

١- شكّل وعد بلفور ذروة الصراع العربي الصهيوني في فلسطين، بعد إنجاز هدفه بإقامة الوطن القومي اليهودي.

٢- كما مهّد الوعد لتنامي قوة الصهاينة، وضعف العرب؛ نتيجة لواقع التجزئة وتركة الاستعمار.

٣- ساهم الوعد في تثبيت الكيان الصهيوني كثكنة عسكرية متقدمة للغرب، وقاعدة إستراتيجية في المنطقة.

٤- السيطرة على معظم مساحة فلسطين، بزيادة كبيرة عما حدده قرار التقسيم.

٥- تهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين العرب من ديارهم، وتحويلهم إلى لاجئين ونازحين.

٦- وقوع ملايين الفلسطينيين العرب تحت حكم الصهاينة، والتحكم بأموالهم ومصادرتهم.

الفلسطينية، وقطع الطريق على ضغوط تركيع الشعب الفلسطيني واستسلامه، من خلال تعرية الاحتلال وفضح ممارساته، وتحقيق درجة عالية من الوحدة الشعورية في العالم العربي والإسلامي.

الأمة، دون أن يسبقها شأن آخر في زحمة القضايا المستجدة، بما يتطلب إبراز مكانتها، والعمل على التعريف بها، والانخراط في الدفاع عنها.

٥- توجيه وسائل الإعلام في الدول العربية والإسلامية لإجهاض محاولات تهميش القضية

معلومات إضافية

النكبة:

هي ذكرى احتلال الجماعات الصهيونية لحوالي ٧٨% من أرض فلسطين (أي: كل فلسطين باستثناء الضفة الغربية وقطاع غزة)، وكان ذلك بتاريخ ١٥-٥-١٩٤٨م، وإنشاء فوقها ما يسمى بإسرائيل.

تقوم الجمعيات والمنظمات الفلسطينية، ومن يساندتهم من منظمات عالمية وإنسانية، بفعاليات وأنشطة بهذه الذكرى الأليمة؛ كي لا ينسى الناس فلسطين.

وبالمناسبة تقوم إسرائيل بالاحتفال في يوم ١٤-٥ من كل عام بذكرى استقلال إسرائيل الذي أعلن عنه بتاريخ ١٤-٥-١٩٤٨م، وكان ذلك قبل انسحاب القوات البريطانية من فلسطين بيوم.

حجم الأضرار الفلسطينية الناتجة عن النكبة:

وفق معطيات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني فإن قرابة ٨٠٠ ألف فلسطيني، من أصل ١,٤ مليون فلسطيني كانوا يقيمون في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨م، هُجِّروا من قراهم ومدنهم إلى الضفة الغربية وقطاع غزة والدول العربية المجاورة، وآلاف آخرون هُجِّروا لكنهم بقوا داخل نطاق الأراضي التي أخضعت لسيطرة إسرائيل.

ووفق المصدر نفسه، يعيش اليوم حوالي ١١,٨ مليون نسمة في فلسطين التاريخية التي تبلغ مساحتها حوالي ٢٧ ألف كيلومتر مربع. ويشكل اليهود ما نسبته ٥١% من مجموع السكان ويستغلون أكثر من ٨٥% من المساحة الكلية للأرض.

٧٠ مجزرة:

واقترفت العصابات الصهيونية خلال النكبة أكثر من ٧٠ مذبحة ومجزرة بحق الفلسطينيين، واستشهد ما يزيد عن ١٥ ألف فلسطيني.

وكان الفلسطينيون قبل النكبة يقيمون في ١٢٠٠ قرية ومدينة في فلسطين التاريخية، سيطر الاحتلال خلال النكبة على ٧٧٤ قرية ومدينة، منها ٥٢١ دمرت بالكامل.

وبعد أن كان عددهم يقدر بنحو ١,٤ مليون نسمة إبان النكبة، يناهز اليوم ١١,٦ مليون نسمة، منهم حوالي ٥,٦ ملايين نسمة يقيمون في فلسطين التاريخية.

وتظهر المعطيات الإحصائية أن نسبة اللاجئين الفلسطينيين في فلسطين تشكل ٤٤,٢% من مجمل السكان، في حين بلغ عدد اللاجئين المسجلين لدى وكالة الغوث عام ٢٠١٣م حوالي ٥,٣ ملايين لاجئ، يشكلون ما نسبته ٤٥,٧% من مجمل السكان الفلسطينيين في العالم.

ويتوزع اللاجئون بين الأردن وسوريا ولبنان (٥٩%) والضفة الغربية (١٧%) وقطاع غزة (٢٤%)، ويعيش حوالي ٢٩% منهم في ٥٨ مخيمًا تتوزع بواقع ١٠ مخيمات في الأردن و٩ مخيمات في سوريا و١٢ مخيمًا في لبنان و١٩

مخيماً في الضفة الغربية و٨ مخيمات في قطاع غزة.

وتمثل هذه التقديرات الحد الأدنى لعدد اللاجئين الفلسطينيين؛ إذ لا يشمل العدد من تم تشريدهم بعد عام ١٩٤٩م حتى عشية حرب يونيو/ حزيران ١٩٦٧م، والذين رُحِّلوا أو تم ترحيلهم عام ١٩٦٧م.

وقُدِّر عدد الفلسطينيين الذين لم يغادروا وطنهم عام ١٩٤٨م بحوالي ١٥٤ ألفاً، في حين يُقَدَّر عددهم في الذكرى الخامسة والستين للنكبة بحوالي ١,٤ مليون نسمة نهاية عام ٢٠١٢م.

أما في فلسطين الضفة وغزة فُقَدَّ عدد السكان بحوالي ٤,٤ ملايين نسمة في نهاية عام ٢٠١٢م، منهم ٢,٧ مليون في الضفة الغربية وحوالي ١,٧ مليون في قطاع غزة.

وتشير البيانات إلى أن عدد المواقع الاحتلالية في نهاية عام ٢٠١٢م في الضفة الغربية قد بلغ ٤٨٢ موقعاً، في حين بلغ عدد المستعمرين في الضفة الغربية ٥٣٧ مستعمراً نهاية العام ٢٠١١م.

سياق تاريخي:

ووفق معطيات موسوعة النكبة الفلسطينية في موقعها الإلكتروني «نكبة»، فإن مجموع ما كان يملكه اليهود من أرض فلسطين عام ١٩١٨م لم يتجاوز ٢٤٠ ألف دونم، أي: ما نسبته ١,٥٦٪ من إجمالي أرض فلسطين، ارتفعت عام ١٩٤٨م لتصل إلى ١,٨ مليون دونم في عام ١٩٤٨م.

ووفق نفس المصدر فقد كان عدد اليهود في فلسطين عام ١٨٠٠ نحو خمسة آلاف، وقرابة ٥٥ ألفاً عام ١٩١٨م، أي نحو ٨٪ من السكان، ثم قفز إلى ٦٥٠ ألفاً عام ١٩٤٨م أي: نحو ٣١,٧٪ من إجمالي السكان.

وحسب المعطيات فإنه مع صدور القرار الدولي رقم ١٨١ بتاريخ ٢٩ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٤٧م أعلن تقسيم فلسطين إلى دولتين: الأولى يهودية تقوم على ٥٤,٧٪ من الأراضي الفلسطينية، ويسكن فيها ٤٩٨ ألف مستوطن يهودي، و٤٩٧ ألف عربي فلسطيني، والثانية عربية تقوم على نحو ٤٤,٨٪ من الأراضي يسكن فيها ٧٢٥ ألف فلسطيني و١٠ آلاف مستوطن يهودي.

ويشير التقرير إلى أن ٩٣٪ من مجمل مساحة «إسرائيل» تعود إلى اللاجئين الفلسطينيين و٧٨٪ من مجمل مساحة فلسطين التاريخية، قامت عليها «إسرائيل» في العام ١٩٤٨م.

وخلال الفترة بين ١٩٤٨ و١٩٦٧م تمكن اليهود من احتلال كافة الأراضي الفلسطينية والجولان السوري، إضافة إلى سيناء المصرية وجنوب لبنان عام ١٩٨٢م، ومن ثم الانسحاب منهما.

عز الدين القسام:

ولد الشيخ المجاهد عز الدين القسام في بلدة (جبله) التابعة لقضاء اللاذقية في سورية عام ١٨٨٢م، نشأ في أسرة ريفية عرفت بالعلم والتقوى، أبوه الشيخ عبد القادر مصطفى القسام من المشتغلين بعلوم الشريعة الإسلامية، وأمه حليلة قصاب من عائلة علم ودين.

كان أبوه من المهتمين بنشر العلم، حيث درّس في كُتّاب القرية القرآن الكريم والعربية والخط والحساب وبث

روح الجهاد بتعليم الأناشيد الدينية والحماسية، ثم عمل لفترة مستطفاً في المحكمة الشرعية.

تعلم عز الدين في كُتّاب البلدة القراءة والكتابة وتلاوة القرآن الكريم، وتميز بنبوغه وتفوقه على أقرانه، وامتاز بميله للتأمل وطول التفكير.

بعد تفوقه في دراسته في الكُتّاب، التحق عز الدين للدراسة في الأزهر في مصر، فقد كان الأزهر في ذلك الوقت منارة كبرى لنشر علوم الشريعة والعربية، فحضر دروس الشيخ محمد عبده، وارتوت نفسه من علمه وفهمه. كما تتلمذ على معظم حلقات الأزهر، واعتكف في أروقة مكباته، وكان يرافق اهتمامه بدروس العلم اهتمام آخر بحركات التحرر التي كان يغذيها رجال الأزهر، ففهم عز الدين أن الإسلام دين عز وقوة وتحرر وجهاد.

عمل القسام على تأسيس جمعية الشبان المسلمين عندما استفحل الخطر البريطاني في فلسطين، وانتشرت الجمعيات التبشيرية التي تدعو إلى تصير المسلمين، وقام القسام من خلال نشاطه في الجمعية بتربية جيل من الشباب المسلم، الذين أنقذهم من دائرة الانحراف والضياع بسبب قسوة الظروف الاقتصادية والسياسية، وأدخلهم في دائرة العمل الجاد لصالح الوطن..

كما أنه وثّق اتصالاته بقيادات المدن الفلسطينية الأخرى، وكسب عدداً من شباب المناطق المختلفة للانضمام إلى تنظيم الجهاد. وقد وازب القسام خلال وجوده في الجمعية على إعطاء محاضرة دينية مساء كل يوم جمعة، وكان يذهب كل أسبوع بمجموعة من الأعضاء إلى القرى، ينصح ويرشد ويعود إلى مقره. وقد تمكن من إنشاء عدة فروع للجمعية في أكثر قرى اللواء الشمالي من فلسطين، وكانت الفرصة للقاء بالقرويين وإعدادهم للدفاع عن أراضيهم.

وعندما تم إنشاء القوة المجاهدة بشكل متكامل، كانت مقسمة إلى وحدات مختلفة المهام؛ حيث لكل وحدة دور خاص بها تتولاها، وهذه الوحدات هي:

الأولى: وحدة خاصة بشراء السلاح.

الثانية: وحدة خاصة للاستخبارات ومراقبة تحركات العدو البريطاني واليهودي.

الثالثة: وحدة خاصة بالتدريب العسكري.

الرابعة: وحدة خاصة للدعاية في المساجد والمجتمعات، وأبرز أعمالها الدعوة إلى الجهاد.

الخامسة: وحدة العمل الجماهيري والاتصالات السياسية.

السادسة: وحدة جمع المال من الأعضاء والأنصار، ورعاية أسر المعتقلين والشهداء.

ولما قطعت الحركة شوطاً من الإعداد تم فيه تهيئة المقاتلين للجهاد، ابتداءً رجال القسام بتنفيذ عمليات فدائية ضد المستوطنات اليهودية عن طريق إعداد كمائن والهجوم على أفراد محددين ومستوطنات معينة، بهدف دفع اليهود في الخارج إلى وقف الهجرة إلى فلسطين.

ولم تكن أعمال القسام مهاجمة المستعمرات فحسب، وإنما قاموا بمجموعة أعمال أخرى ذكرها الأستاذ أميل

الغوري في كتابه (فلسطين عبر ستين عامًا) فقال: (أمّا الأعمال التي قام بها القساميون فكانت من أروع ما قام به المجاهد في فلسطين، وعلى الرغم من كثرتها وتعدد أشكالها ومظاهرها، فإنها ظلت محاطة بالسرية والكتمان إلى مدى كان معه أكثر الناس يجهلون مصدر هذه الأعمال، بل كانوا لا يعرفون إطلاقًا بوجود حركة القساميين، وكان من هذه الأعمال: ملاحقة وتأديب الذين يخرجون عن الشعب ومصالحه، مثل التعاون مع الحكومة ضد الحركة الوطنية، والتجسس لحساب المخابرات البريطانية، أو بيع الأراضي لليهود أو السمسرة عليها للأعداء. وكان من أعمال القساميين العديدة الواسعة النطاق، التصدي لدوريات الجيش والشرطة، وقطع طرق المواصلات والإغارة على تكتات الجيش ومراكز الشرطة، ومهاجمة حرس المستعمرات اليهودية، وزرع الألغام والمتفجرات فيها).

وفي الوقت الذي اعتبرت فيه أعمال القسام بمثابة الروح التي سرت في أوصال الأمة، فحركت الهمم وشدت العزائم، وحفزت الناس إلى العمل، كانت الحكومة البريطانية تعلن عن مكافآت ضخمة لمن يدلي بأية معلومات عن منفذي هذه الأعمال؛ لأنها فعلاً ألقت الرعب في قلوب اليهود الذين رأوا ولأول مرة عملاً جديداً من حديد ونار، وهذه لم يتعود عليها اليهود في فلسطين.. وازدادت الحكومة البريطانية واليهود ذعرًا وبثوا الأرصاء، ونشروا الجواسيس في الليل والنهار، وصار الاعتقال لمجرد الشبهة.

وأخيرًا وفي أحراش يعبد في منطقة جنين يوم ٢٠ تشرين ثاني عام ١٩٣٥م، حددت الشرطة البريطانية مكانهم وهاجمتهم بقوات عسكرية كبيرة، ودارت معركة رهيبه بين المجاهدين والشرطة، صمد فيها رجال القسام، وقاتل شيخهم قتال الأبطال، وظل يكافح حتى خرَّ صريعاً في ميدان الجهاد شهيداً كريماً في سبيل إعلاء كلمة الله فوق أرض فلسطين، واستشهد معه بعض إخوانه المجاهدين، وجرح آخرون وتم أسرهم.

نقل الشهداء إلى حيفا، وتمت الصلاة عليهم في جامع الاستقلال، وشيعت جثامينهم الطاهرة بتظاهرة وطنية كبرى نادى بسقوط الإنجليز ورفض الوطن القومي اليهودي.

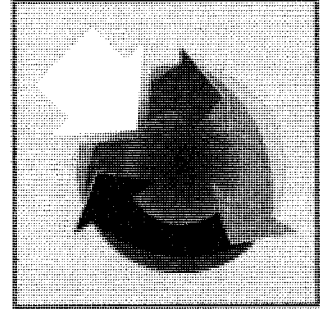
كان لاستشهاد القسام أعمق الأثر في شباب فلسطين في الثلاثينيات والأربعينيات، كما أصبح القسام رمزاً للتضحية والفداء، مما جعل بعض المؤرخين يعتبرونه بحق شيخ ثوار فلسطين.

المصدر:

نكتة فلسطين في أرقام، موقع الجزيرة. نت:

<http://www.aljazeera.net/mob/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/e7415729-bd72-467f-bc7d-67def9fb8fa7>

تصاعد وتراجع العداء بين الغرب والإسلام في ضوء قرن من الزمان



محمد إبراهيم مبروك

مفكر إسلامي

ملخص الدراسة

إن الصراع بين الإسلام والغرب صراع قديم وعميق بدأ كصراع نفوذ بين الإسلام والإمبراطورية الرومانية، وترك ثأراً عميقاً لدى الغرب؛ بسبب سيطرة الإسلام على الجانب الأكبر من تلك الإمبراطورية. لكن هناك سبباً آخر قد يكون أشد الأسباب جميعاً لعداء الغرب للإسلام في المرحلة الاستعمارية ما قبل الحرب العالمية وبعدها، وهو ما وجدوه من أن الدافع الرئيس لما يواجهونه من مقاومة شعوب تلك الدول الإسلامية هو الذود عن الإسلام، ورفع شعار الجهاد.

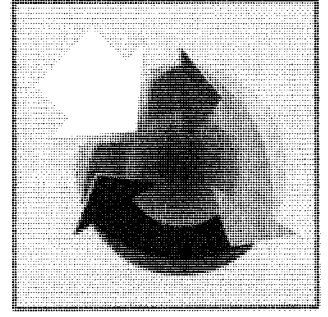
إن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية والتي امتدت حتى سقوط الاتحاد السوفييتي في أوائل التسعينيات شهدت تراجعاً نسبياً في العداء بين الغرب والإسلام، مادام أن تطبيق الإسلام الشمولي لم يتمثل في الواقع الفعلي، وأن عدداً مقدراً من الدول الإسلامية يمكن توظيفها في تحقيق المصالح الغربية الأمريكية بوجه خاص. ولكن ما إن تصاعدت المطالبة بالتطبيق الفعلي للإسلام في العقد الأخير من هذه المرحلة حتى تصاعد العداء مرة أخرى بينه وبين الغرب.

إن القوتين اللتين تتقاسمان النفوذ على العالم هما نتاج ثقافة غربية تتفق أيديولوجيتهما في العلمانية والمادية، وإقصاء الدين عن الحياة، وتختلفان ولو شكلاً في الديمقراطية والاستبداد، فبينما يسيطر على الاتحاد السوفييتي نخبة من السياسيين الدكتاتوريين؛ يسيطر على الولايات المتحدة نخبة أكثر اتساعاً من رجال الأعمال والسياسيين والإعلاميين تتحالف فيما بينها على أن لا يخرج القرار الأمريكي في النهاية عن دائرة نفوذهم.

وما نراه أنه من بعد انتقال الثقل الحضاري الغربي إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية فإن الصراع بين الغرب والإسلام في هذه المرحلة يتوج في مضمونه العميق مسيرة طويلة من الصراع الفلسفي بين التوجه البرجماتي للحضارة الغربية ومختلف الفلسفات والأيدولوجيات والمذاهب الأخرى، وبعد سقوط الأيدولوجية الماركسية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي كان استقطاب الصراع بين الليبرالية البرجمتية والإسلام أمراً حتمياً؛ لأنه يحمل الأيدولوجية الوحيدة المؤهلة للصمود والتحدي بحسب رؤية المفكرين الغربيين أنفسهم بعد أن استطاعت الليبرالية البرجمتية تفكيك الأيدولوجيات العالمية الأخرى.

الحلول التي يجدها الغرب للتوافق مع الإسلام أو توافق الإسلام معه بقول أدق يمكن تلخيصها هنا بثلاثة مصطلحات: (الشرق الأوسط الجديد - الإسلام الليبرالي - الإسلام المعتدل)، وتشارك الحلول الثلاثة في هدف واحد هو توظيف الإسلام ودوله في خدمة المصالح الغربية، ويكاد يكون هذا الهدف هو المحور الأساس للمفاهيم الثلاثة، ثم يكون الخلاف بعد ذلك في التفاصيل.

تصاعد وتراجع العداء بين الغرب والإسلام في ضوء قرن من الزمان



محمد إبراهيم مبروك
مفكر إسلامي

أولاً: ما قبل وما بعد الحرب العالمية الأولى:

الضباب الذي يخيم على الواقع الإسلامي الآن ومستقبلاً لا يعود مصدره لبضعة عقود وإنما لأكثر من ثلاثة قرون مضت؛ فلقد كان المشهد الأخير لعظمة القوة الإسلامية يتمثل في حصار الإمبراطورية العثمانية لأسوار فيينا عام ١٦٨٣م، وبالنسبة للغرب فإن الأتراك «لو أنهم نجحوا في الاستيلاء على فيينا لكان الوضع مروّعاً بذات الدرجة التي سيكونها لو أن المسلمين العرب هزموا تشارلز مارثل في توروواتيه منذ ألف سنة مضت»^(١). إن الصراع بين الإسلام والغرب صراع قديم وعميق بدأ كصراع نفوذ بين الإسلام والإمبراطورية الرومانية، وترك ثأراً عميقاً لدى الغرب؛ بسبب سيطرة الإسلام على الجانب الأكبر من تلك الإمبراطورية، واحتدم أكثر عندما تم استغلال المسيحية لتحقيق مطامع ملوك الغرب في الحروب الصليبية، وترك ثأراً أكبر لعودة هذه الحملات المهزومة مشتتة ضائعة في شعاب أوروبا.

ولكن هل كان هجوم الغرب على الإسلام في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بدافع الانتقام لهذا الثأر المسيحي؟

منذ اندلاع الثورة الفرنسية بل وقبلها بأكثر من قرن كان أغلب الأوروبيين قد هجروا الدين تماماً، وسيطرت العلمانية على عقولهم، ولذلك فقد كان وصف شيوخ الأزهر للفرنجة الفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية بهؤلاء (الذين لا دين لهم سوى دين العقل)، وهو الأمر الذي يغيب- مثله مثل أمور أخرى كثيرة مهمة- عن عقول الغالبية من أهل الإسلام وقادتهم الآن.

ولأنه لا يمكن اعتبار الغربيين كتلة واحدة في معتقداتهم وأفكارهم، فإن ذلك لا ينفي أن اعتبارات الثأر المشار إليها كانت تغيب عن جانب مهم منهم في تلك الهجمة الاستعمارية على الإسلام، ولكن يظل الجانب الأعظم من الغربيين كانت تتنازع الأفكار التالية عشية نشوب الحرب العالمية الأولى: «بسبب الطريقة التي تجري بها الأمور، فإنه لا يمكن لك أن تمتلك كفايتك من الأراضي، حيث ستكون دوماً بحاجة إلى المزيد منها. فمزيداً من المستعمرات يعني مزيداً من المصانع، ومزيد من المصانع يعني مزيداً من المنتجات، والمزيد من المنتجات يعني الحاجة إلى المزيد من المستعمرات»^(٢).

يشرح السلطان عبدالحميد في مذكراته الوضع العالمي في العقود السابقة للحرب العالمية الأولى كالتالي: «الشيء الذي لفت انتباهي بادئ ذي بدء في السياسة الخارجية وقت اعتلائي العرش كان تأسيس الاتحاد

(١) أي إتش غومبريتش، مختصر تاريخ العالم، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٠٠، ص ٢٥٩.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٢٤.



فرغانة وخانية خوقند، وعقبوا ذلك بالاستيلاء على قرغيزستان وتركستان وطاجيكستان، وكان التنافس بين الإنجليز والروس عظيمًا في آسيا^(١).

وعلى الرغم من مرور حوالي قرن كامل، وتبعًا للمراجع العالمية فإن تحليل السلطان عبدالحميد للموقف كان دقيقًا للغاية. ولكن ماذا كان يمكن فعله تجاه هذا الموقف؟ يجب عن ذلك السلطان عبدالحميد فيقول:

«لم أكن أستطيع الوقوف أمام هذه القوى كلها بمفردي. طاقاتنا لم تكن تكفي. الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع عمله هو أن أفيد من التنافس بين هذه القوى. هذه الإفادة كانت عبارة عن توزيع الأمل، في لقمة كبيرة بعض الشيء على كل واحدة منها، والإيقاع بين كل واحدة والأخرى»^(٢).

ويقول في موضع آخر: «منذ أربعين عامًا وأنا أنتظر أن تشتبك الدول مع بعضها البعض؛ لإنقاذ دولتي الكبرى»^(٣).

الألماني.. هذه الدولة التي وُلدت وأسرعت في التوسع في عدة أعوام أفسدت توازن القوى في أوروبا، وأدت بالدول الأوروبية كلها إلى ضرورة إحداث تغيير كبير في سياستها الخارجية.

فخففت فرنسا -المتنافسة مع إنجلترا- من حدة تنافسها وإن لم تتركه، وبدأت في البحث عن طرق للتفاهم مع الروس لحماية أمنها. كانت تؤيد باستمرار الروس في خلافاتهم مع الدولة العثمانية.

وبدأ الروس يعملون حسابًا للألمان، جيرانهم الأقوياء في الغرب، وأقامت النمسا من جديد سياسة التداخل بين العدو والصديق. وأما إنجلترا -وهي تعتمد على جزرها وعلى أسطولها القوي- فلم تكن على وفاق كبير مع ألمانيا بسمارك، بل إنها استفادت من نزاع الدول الأوروبية الأخرى مع بعضها البعض، واتبعت طريق تأمين مصالح جديدة لها في أراضي الدولة العثمانية في البحر الأبيض وفي آسيا، وسلك جلاستون سياسة (اعمل ما تستطيع عمله، واكسب ما تستطيع كسبه..)، والروس حولوا أيضًا أنظارهم في تلك الأعوام إلى آسيا الوسطى، واستولوا على

(١) مذكرات السلطان عبدالحميد، نقلًا عن محمد إبراهيم مبروك، لماذا لا نقول لا للنموذج التركي، ص ٧١-٧٢.

(٢) المرجع السابق؛ ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق؛ ص ٧٤.

ثانياً: الغرب والشيوعية والإسلام:

لم تحمل روسيا من أوروبا حضارياً سوى التراث الكلاسيكي البيزنطي، ومن ثم لم تتعرض لظواهر الحضارة الغربية التاريخية: الكاثوليكية الرومانية، الإقطاعية، الإصلاح الديني، التوسع فيما وراء البحار، التتوير، ظهور الدولة القومية.

ولكن بعد استقرار الحكم الإسلامي المغولي فيها لحوالي قرنين من الزمان جاء الانبعاث الروسي مع بطرس الأكبر في أواخر القرن السابع عشر الذي عمل على الجمع ما بين استلهام التقدم الغربي وترسيخ الاستبداد الآسيوي في آن واحد. وهو نفس النهج الذي اتبعه من بعده «كاترين الثانية» و«ألكساندر الثاني»، وكذلك «لينين» و«ستالين» بدرجات متفاوتة.

بعد الثورة البلشفية انقسمت الأحزاب اليسارية في الدول الغربية إلى أحزاب شيوعية واشتراكية، وكلاهما كان قوة مؤثرة في الدول الأوروبية، حتى ساد المنظور الماركسي معظم أنحاء الغرب «كان ينظر إلى الشيوعية والاشتراكية على أنهما موجة من المستقبل، وكان يتم تبنيهما بشكل أو آخر بواسطة النخب السياسية والفكرية»^(٢).

وبذلك عدت روسيا البلشفية (الصيغة اللينينية الستالينية للماركسية) تهديداً أيديولوجياً للغرب من خلال أيديولوجية غريبة الصنع؛ حيث كان ماركس يردد دائماً أن اشتراكيته العلمية قائمة على الفلسفة الألمانية والاقتصاد الإنجليزي.

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد «كان نمو الإمبراطورية السوفييتية يعد تأكيداً للتبؤات الجيوبولتيكية لماكيندر وغيره بأن ثمة قوة عسكرية عملاقة ستسيطر على موارد قلب أوروبا وآسيا.. وكان لا بد من الانتظار لعدة سنوات حتى تتخلى الإدارات الأمريكية -التي هزتها الحرب الكورية تماماً- عن أفكارها القديمة عن العالم الواحد، وتستبدل بها صورة من الصراع الرهيب للقوى عبر

لكن قادة تركيا الفتاة الماسونيين الذين عزلوا السلطان عبد الحميد لم يستغلوا الفرصة، وإنما ورّطوا الإمبراطورية في حرب منحت الدول الاستعمارية الذريعة لتحقيق مطامعها القديمة لتقسيمها بينهم.

وكما ذكرنا من قبل فلم تكن المطامع وحدها هي الدافع لهجوم الغرب على العالم الإسلامي، كان هناك أيضاً جانب الأحقاد الصليبية القديمة مثلما ظهر في قول القائد غورنو عندما ذهب إلى قبر صلاح الدين بعد استيلاء الإنجليز على الشام، وصاح قائلاً: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

لكن هناك سبباً آخر قد يكون أشد الأسباب جميعاً لعداء الغرب للإسلام في المرحلة الاستعمارية ما قبل الحرب العالمية وبعدها، وهو ما وجدوه من أن الدافع الرئيس لما يواجهونه من مقاومة شعوب تلك الدول الإسلامية هو الذود عن الإسلام، ورفع شعار الجهاد، ولهذا فقد كان صراخ بعض قادتهم أنه لا حل للاستقرار في تلك البلاد إلا بتحطيم الكعبة، وتمزيق المصحف الشريف!!

وعلى هذا الأساس جاءت شروط معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣م لترك الجيوش الغازية أراضي تركيا بحدودها الحالية كالتالي:

- إلغاء الخلافة الإسلامية.
- إخراج آل عثمان من تركيا إلى الأبد.
- إلغاء الشريعة الإسلامية، والاستعاضة عنها بدستور مدني مستمد من القوانين الأوروبية»^(١).

لكن الغربيين لم يكتفوا بكل ما سبق، وإنما زرعوا لهم مهاجرين يهود من كل أنحاء العالم ليتخذوا من فلسطين -أولى القبليتين وثالث الحرمين- وطناً لهم، ولتكون للغرب بمثابة مخلب القط الذين يعملون من خلاله على تركيع المسلمين وابتزازهم، وجاء وعد بلفور أثناء الحرب العالمية الأولى مسبغاً الشرعية على كل ذلك.

(٢) صمويل هنتجتون. صدام الحضارات الدار الجماهيرية، الطبعة الأولى ١٩٩٩م: ص ٢٣١.

(١) هـ.س. أرمسترونج، الذئب الأغبر، سلسلة تصدر عن دار الهلال العدد ١٦: ص ١٨٤.

الثانية تجد مبعثها فقط في الأيديولوجية وممارسات الستار الحديدي في أوروبا الشرقية، ولكن ربما كان ذلك وبشكل أكبر في تاريخ من الطغيان (الروسي-السوفييتي) على العالم الإسلامي.

إن هذا ما يفسر لماذا كان الحوار حول تلك النظرية العجيبة، الأمريكية الصنع، القديمة الجديدة، التي تتحدث عن شرق أوسط جديد مقبول لدى أغلب الدول الإسلامية بعد الحرب العالمية الثانية على الرغم من الذكريات المؤلمة التي أحدثها العصر الكولونيالي بالنسبة للمسلمين.

في خطاب (الستار الحديدي) الشهير الذي ألقاه تشرشل بكلية وستمينستر في فولتون بولاية ميسوري في وجود ترومان جالساً على المسرح خلفه عرض تشرشل «أن يتشارك مع واشنطن في أمر قد يثبت أن قيمته لا تقدر كمضاد للاتحاد السوفييتي.. قواعد عسكرية تضاعف قوة الولايات المتحدة، وكانت السويس بلا ريب أحد أهم المواقع في تلك الحسبة. وقد مضى تشرشل قائلاً: «تشعر تركيا وبلاد فارس بعميق مطالب روسيا منهما، والضغط التي تمارسها عليهما». وقال: إن على بريطانيا والولايات المتحدة في مواجهة تلك التحديات العامة والمحددة تطوير استراتيجية مشتركة»^(٢).

لم يكن هذا سوى دعم للمشروع الأمريكي في الأساس، والذي لا يقوم على استعمار أمريكي وريث للكولونيالية الأوروبية والبريطانية على وجه التحديد، وإنما على ما يمكن وصفه- مبدئيًا- بتحالف استراتيجي بين معظم دول العالم الإسلامي (الشرق الأوسط) والولايات المتحدة يسمح للأخيرة بممارسة نفوذها القوي في توجيه تلك الدول لمواجهة مطامع الاتحاد السوفييتي في المنطقة.

أو كما يقول لويد سي. جاردنر: «توافق صناع السياسة الأمريكيين على أن الانتقال الآمن يتوقف على قدرة واشنطن على إقناع فاروق وغيره من قيادات

الساحة الدولية». فكانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي هما الدولتين القادرتين على تحديد أقدار نصف الكرة الأرضية على حد تعبير دي توكفيل، وقد وقعت كل منهما فريسة للفكر ذي الاتجاه العالمي^(١).

الخلاصة أن القوتين اللتين تتقاسمان النفوذ على العالم هما نتاج ثقافة غربية تتفق أيديولوجيتهما في العلمانية والمادية، وإقصاء الدين عن الحياة، وتختلفان ولو شكلاً في الديمقراطية والاستبداد، فبينما يسيطر على الاتحاد السوفييتي نخبة من السياسيين الدكتاتوريين؛ يسيطر على الولايات المتحدة نخبة أكثر اتساعاً من رجال الأعمال والسياسيين والإعلاميين تتحالف فيما بينها على أن لا يخرج القرار الأمريكي في النهاية عن دائرة نفوذهم.

في الجانب العربي من العالم الإسلامي أثارت ذكريات ورواسب العصر الكولونيالي (السيطرة الاستعمارية الغربية) مشاعر القلق وخوف من الغرب، ومن ثم العداء على امتداد العقود التالية للحرب العالمية الثانية بالنسبة لتلك الشعوب التي واجهت ذلك بشكل مباشر، أما بالنسبة للنظرة الجامعة لصالح الأمة الإسلامية فإنها تدرك أن علاقة (روسيا- الاتحاد السوفييتي) بالإسلام كانت أكثر بشاعة، وإيلاماً بالعالم الإسلامي من الغرب.

فالابتعاث الروسي الذي صنعه إيفان الرهيب ومن بعده بيتر العظيم والقياصرة الروس تبعاً قام على أنقاض العالم الإسلامي أساساً، فكل توسع صنعه الروس كان يمثل انتقاصاً من الإمبراطوريتين الإسلاميتين المغولية والعثمانية، حتى إنه يمكن أن يقال: إن الوجود المادي الروسي (الأراضي التي تقوم عليها الإمبراطورية الروسية) هو وجود إسلامي بالأساس، وبعد قيام الاتحاد السوفييتي تم التهام باقي ما كان يسمى بالجمهوريات السوفييتية الإسلامية.

وعلى هذا الأساس فلم تكن مخاوف العالم الإسلامي من الاتحاد السوفييتي بعد الحرب العالمية

(٢) لويد سي. جاردنر. مصر كما تريدها أمريكا ترجمة: د. فاطمة نصر، سطور الجديدة، القاهرة الطبعة الأولى ٢٠١٢م، ص ٣٣.

(١) بول كيندي، نشوء وسقوط القوى العظمى، الأهلية للنشر والتوزيع والطباعة - لبنان، ١٩٩٨م: ص ٥٠٧.

لطلبات واشنطن وشروطها»^(٢).

بعد هزيمة ٦٧ كتب وولت روستو مستشار الأمن القومي مذكرة لجونسون أوجزت الموقف جاء فيها «تحت السطح مباشرة تكمن إمكانية لمرحلة شرق أوسط جديد معتدل: تركز على التنمية والتعاون الإقليمي، وتقبل بإسرائيل كجزء من الشرق الأوسط إذا أمكن وجود حل لمشكلة اللاجئين»^(٣).

بتجاوز السادات مشكلة الصراع مع إسرائيل تحققت على أرض واقع السبعينيات النظرية الكاملة:

شرق أوسط جديد.. دول إسلامية تمتد من باكستان إلى مصر يتم توظيفها أمريكيًا في مواجهة الاتحاد السوفييتي.

وكلمة التوظيف هي الكلمة الأكثر دقة لما كان يطلق عليه مشروع الهيمنة الأمريكية.

أما المشكلة الجديدة التي غدت تواجه المشروع الأمريكي منذ أواخر السبعينيات فهي الصحوة

الإسلامية المتصاعدة على امتداد العالم الإسلامي، «فلقد كانت الأصولية الإسلامية في الشرق الأوسط تمثل ظاهرة مزعجة تهدد (كما في إيران) بالتنفيس عن نفسها ضد الشيوعيين والجماعات الموالية لأمريكا سواء بسواء»^(٤).

مع تصاعد الصحوة الإسلامية، وصراعها مع النظم الحاكمة في الثمانينيات تصاعد معها العداء للولايات المتحدة والغرب بوجه عام على أساس أن الغرب هو المسئول عن مساندة هذه النظم في صراعها مع الإسلاميين.

الخلاصة: أن مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية والتي امتدت حتى سقوط الاتحاد السوفييتي في أوائل التسعينيات شهدت تراجعًا نسبيًا في العداء بين

دول الشرق الأوسط بأن الولايات المتحدة لن تسمح للقوى الاستعمارية القديمة أي: بريطانيا وفرنسا، باستعادة الأوضاع المميزة التي كانت لها قبل الحرب، وبأنها مستعدة لتقديم المساعدات الاقتصادية لتلك البلاد، وأيضًا المساعدات العسكرية؛ شريطة إدارتها بحرص، وذلك لضمان استقلال تلك البلاد وأمنها الداخلي.

كان ينبغي إدارة هذا بأسلوب سهل الانتقال من النطاق الاستعماري القديم إلى نظام سياسات

كوكبية جديدة بقيادة الولايات المتحدة من دون السماح للقوميين أو الشيوعيين باستغلال الوضع لترسيخ أقدامهم في المنطقة»^(١).

في ظل توازنات القوى العالمية كانت أغلب الدول الإسلامية تميل إلى قبول المشروع الأمريكي، وكان العائق الأساس الذي يواجه ذلك هو التبنّي الأمريكي للكيان الصهيوني؛ حيث يرفض الممكان ابن

سعود وفاروق رفضًا قاطعًا وجود الكيان الصهيوني في إطار هذا المشروع، وفي أوائل الخمسينيات تم القضاء على ثورة مصدق، وتثبيت الشاه على عرشه في إيران، وكان التجاوب الباكستاني والعراقي للمشروع الأمريكي مغريًا لتشكيل ما يسمى بحلف بغداد كمرتكز يمكن أن تنضم إليه تركيا وسوريا بعد ذلك.

كانت العقبة الأساس في الموضوع هي عبدالناصر الذي لم يكن رافضًا للتحالف الأمريكي، ولكن كان يريد مقابلاً اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا أكبر مما كان يمكن أن يمنحه الأمريكان، وكذلك السماح له برفض المشروع الصهيوني.

على أية حال «فقد كان الاعتقاد السائد بالولايات المتحدة أن عبدالناصر ليس لديه خيار سوى الإذعان

مع تصاعد الصحوة الإسلامية، وصراعها مع النظم الحاكمة في الثمانينيات تصاعد معها العداء للولايات المتحدة والغرب بوجه عام على أساس أن الغرب هو المسئول عن مساندة هذه النظم في صراعها مع الإسلاميين.

(٢) المرجع السابق: ص ٨٢.

(٣) المرجع السابق: ص ١٤٤.

(٤) بول كيندي. مرجع سابق: ص ٥٧٠.

(١) المرجع السابق: ص ١٧.

الإسلاميين. أربعة عشر قرناً من التاريخ تقول عكس ذلك. العلاقات بين الإسلام والمسيحية سواء الأرثوذكسية أو الغربية كانت عاصفة غالباً، كلاهما كان الآخر بالنسبة للآخر.. أحياناً كان التعايش السلمي يسود. غالباً كانت العلاقة علاقة تنافس واسع مع درجات مختلفة من الحرب الباردة»^(٢).

ويقول في موضع آخر: «الإسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك. وقد فعل ذلك مرتين على الأقل»^(٣). ويقصد بذلك معركة بواتيه على حدود فرنسا على يد الأمويين، وحصار فيينا وأواخر القرن السابع عشر على يد العثمانيين.

ويتابع هنتجتون شرحه للموضوع فيقول: «أسباب

هذا النمط من الصراع لا تكمن في ظاهرة انتقالية مثل العاطفة المسيحية في القرن الثاني عشر، أو الأصولية الإسلامية في القرن العشرين. إنها تتدفق من طبيعة الديانتين والحضارتين المؤسستين عليهما. الصراع من ناحية نتيجة الاختلاف، خاصة مفهوم المسلمين للإسلام كأسلوب حياة

عند الوقوف على آراء الكتاب والمفكرين يجب الأخذ في الاعتبار التوجه السياسي لهؤلاء؛ لأن إصدار هذه الآراء قد يكون بدافع تحليل هذا الواقع، وقد يشاركه في ذلك دافع آخر هو دافع التأثير في صناعة هذا الواقع نفسه.

يربط بين الدين والسياسة، وهو بهذا ضد المفهوم المسيحي الغربي الذي يفصل بين مملكة الرب ومملكة قيصر. كما كان الصراع نابغاً من أوجه التشابه بينهما.. كلاهما ينظر إلى العالم نظرة ثنائية: «نحن» و«هم» وكلاهما يدعي أنه العقيدة الصحيحة الوحيدة التي يجب أن يتبعها الجميع، كلاهما دين تبشيري يعتقد أن متبعيه عليهم التزام بهداية غير المؤمنين، وتحويلهم إلى الإيمان الصحيح»^(٤).

ويذكر في موضع آخر أنه «في سنة ١٩٩١م مثلاً كان بارن بوزان يرى عدة أسباب لنشوب حرب مجتمعية باردة «بين الغرب والإسلام تقف فيها أوروبا على خط

الغرب والإسلام، مادام أن تطبيق الإسلام الشمولي لم يتمثل في الواقع الفعلي، وأن عدداً مقدراً من الدول الإسلامية يمكن توظيفها في تحقيق المصالح الغربية الأمريكية بوجه خاص.

ولكن ما إن تصاعدت المطالبة بالتطبيق الفعلي للإسلام في العقد الأخير من هذه المرحلة حتى تصاعد العداء مرة أخرى بينه وبين الغرب.

ثالثاً: نظريات العداء بين الغرب والإسلام ما بعد الحرب الباردة:

عند تحليل الواقع الحالي أو بوجه أدق واقع ما بعد الحرب الباردة وسقوط الاتحاد السوفييتي والذي

يشهد تصاعد العداء بين الغرب والإسلام، فإنه عند الوقوف على آراء الكتاب والمفكرين يجب الأخذ في الاعتبار التوجه السياسي لهؤلاء؛ لأن إصدار هذه الآراء قد يكون بدافع تحليل هذا الواقع، وقد يشاركه في ذلك دافع آخر هو دافع التأثير في صناعة هذا الواقع نفسه، وقد يكون أوضح من يمكن الاستشهاد بهم في هذا السياق هو

المفكر السياسي الأمريكي هنتجتون؛ إذ يُعد أحد أهم الموجهين الأساسيين لتيار المحافظين الجدد في أوائل تسعينيات القرن الماضي.

وأفضل ما في نظرية هنتجتون هو أنه واضح ومحدد غاية التحديد بلا أي لف ولا دوران. فيحسب ما يقول هو نفسه فإن «المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام»^(١).

أما شرح الموضوع فكان التالي:

«يقول بعض الغربيين بما فيهم الرئيس كلينتون: إن الغرب ليس بينه وبين الإسلام أي مشكلة، وإنما المشكلات موجودة فقط مع بعض المتطرفين

(٢) المرجع السابق: ص ٣٢٨.

(٣) المرجع السابق: ص ٣٣٩.

(٤) المرجع السابق: ص ٣٤١.

(١) صدام الحضارات: ص ٣٥٢.

المواجهة».

هذا التطور له علاقة بالخصومة التاريخية بين المسيحية والإسلام، وبالعيرة من القوة الغربية، وبالاستياء من السيطرة الغربية الناجمة عن بنية الشرق الأوسط السياسية بعد زوال الاستعمار، وبالشعور بالمرارة والامتهان نتيجة المقارنة البيغضة بين إنجاز الحضارتين الإسلامية والغربية في القرنين الأخيرين^(١).

وهكذا يحدد هنتجتون خلاصة أفكاره: «المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليست الأصولية الإسلامية بل الإسلام: فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته، وهاجسه ضالة قوته.

المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات الأمريكية ولا وزارة الدفاع. المشكلة هي الغرب: حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بعالمية ثقافته، ويعتقد أن قوته المتفوقة إذا كانت متدهورة، فإنها تفرض عليه التزاماً بنشر هذه الثقافة في العالم. هذه هي المكونات الأساسية التي تغذي الصراع بين الإسلام والغرب»^(٢). قريب من أمر هنتجتون يأتي موقف فوكوياما، وإن كان حديث الأخير عن حالة العداء بين الإسلام والغرب لا يأتي من باب العداء للإسلام، ولكن من باب الدفاع عن الليبرالية التي يرى فيها النهاية الحتمية للتاريخ يقول فوكوياما:

«المسيحية بمعنى من المعاني كان لزاماً أن تلغي نفسها عن طريق صبغ أهدافها بالصبغة العلمانية قبل ظهور الليبرالية... وقد خضعت ديانات أخرى في مختلف أنحاء العالم لعمليات تحول علماني مماثلة، كالبودية والشنوية اللتين قصرتا نشاطهما على مجال عبادة خاصة تتركز حول العائلة. وأما اليهودية الأرثوذكسية والإسلام الأصولي فتراهما على العكس من ذلك. فهما ديانتان شموليتان تسعيان إلى تنظيم كل مظاهر الحياة البشرية عامة كانت أو خاصة، بما في ذلك المجال السياسي»^(٣).

ويقول في موضع آخر:

«الآن يبدو أن ثمة اتفاقاً عاماً - إلا في العالم الإسلامي - على قبول مزاعم الديمقراطية الليبرالية بأنها أكثر صور الحكم عقلانية»^(٤).

ويظل التناقض بين الإسلام والغرب والليبرالية هو الموقف الذي يذهب إليه أغلب المفكرين السياسيين الغربيين بما في ذلك مفكر أكاديمي إنجليزي هو بريان باري؛ حيث يقول: «على الرغم من أن القرآن لا يؤيد وجود حكومة دينية كما يفترض البعض أحياناً. فإنه يحتوي على مجموعة من القواعد التي تحدد طريقة تنظيم مجتمع المؤمنين، وهو ما لا يوجد نظيره في الأناجيل، وهذه المجموعة من التعاليم التي قامت أجيال من المفسرين بالتوسع فيها فيما بعد تخلق نوعاً من التوتر بين الإسلام والمعايير الليبرالية، ومن علامات هذا التوتر أنه لم تقم أي حكومة بها أغلبية مسلمة بإقامة دولة ديمقراطية ليبرالية مستقرة»^(٥).

أما جيمس كورث أستاذ السياسة الأمريكي فيقدم تحليلاً لعوامل أكثر عمقاً وتفصيلاً للعداء بين الإسلام السني والولايات المتحدة على وجه الخصوص؛ حيث يقول:

«ماذا عن النُخب الدينية للفرع السني من الحضارة الإسلامية؟ من الواضح أنها غير متوافرة على دولة حضارية مركزية. وترى نفسها، هي وحضارتها أيضاً، في حالة تناقض وعداء شديدين مع الولايات المتحدة على عدد من الأصعدة المهمة:

١- الإسلام السني حضارة، بل حضارة عظيمة، ولكنها حضارة بلا دولة. في حين أن الولايات المتحدة دولة عظيمة، ولكنها بلا حضارة.

٢- يمثل الإسلام السني مثلاً أعلى ينتظر أن يصبح واقعاً. روحاً تنتظر أن تتجسد (لاسيما استعادة الخلافة)، في حين أن الولايات المتحدة لا تمثل إلا واقعاً مادياً مبتدلاً، واقعاً تخلى عن المثل الأعلى

١٩٩٣م، الطبعة الأولى: ص ١٩٣.

(٤) المرجع السابق: ص ١٨٩.

(٥) الثقافة والمساواة، ط عالم المعرفة، ج ٢ ص ٥٤.

(١) المرجع السابق: ص ٣٤٤.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٥٢.

(٣) فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ منشورات مركز الإنماء القومي

نابعاً من نزعة عدوانية أساسية في داخل الإسلام، بل سيكون نتيجة مترتبة على مجموعة من العوامل التاريخية، وعلى الأفعال وردود الأفعال من كلا الطرفين»^(٣).

ثم يحاول شتبيات أن يستبعد أسباب الصراع المؤدية إلى تصاعد الأصولية الإسلامية، فيقول: «إذا انسقنا تحت تأثير ظواهر الأصولية الإسلامية إلى رسم صورة الإسلام كعدو لنا فسوف تترتب على ذلك ثلاث نتائج وخيمة العواقب:

أ- إن هذه الصورة ستحول بيننا وبين البحث في الأسباب التي أدت إلى الأصولية الإسلامية، وتدبر الوسائل التي تساعدنا على استبعاد هذه الأسباب.

ب- وإذا روجنا هذه الصورة عن الإسلام كعدو، فسوف يؤكد ذلك شعور المسلمين بأنهم محاطون بقوى معادية تترىص بالإسلام، وتسعى للقضاء عليه؛ إننا بذلك ندفع المسلمين دفعا إلى الأصولية.

ج- إن تصوير الإسلام في صورة العدو سيكون بطبيعة الحال أشبه بصب مياه جديدة في طواحين العداة للأجانب الذي تقاسي منه مجتمعاتنا»^(٤).

لكن هذه الحالة من المصالحة بين الغرب والإسلام (أو الدول الإسلامية بشكل أدق) تتطوي على مفهوم خاص للإسلام يراه شتبيات، ويعني إمكانية تقديم تفسيرات متعددة له يمكنها التوافق مع الحضارة الغربية؛ حيث يقول شتبيات: «والمؤمنون يتمتعون بحرية واسعة في هذا الشأن (أي في حرية التفسير) ما داموا يسعون بإخلاص وصدق للوصول إلى الحقيقة، ومن الممكن -والحال كذلك- أن يتوصل المؤمنون إلى استنتاجات مختلفة عن الموقف الصحيح من قضية معينة، كأن تكون هذه القضية هي قبول أو رفض الحضارة الغربية»^(٥).

هذا المفهوم الذي يُضمّره شتبيات هو نفس معنى

وهجرته الروح، ونتيجة لـ (١) و (٢) فإن الإسلام السنّي (٣) هو اليوم في حالة هشاشة مفرطة، لكنها زاخرة بالوعود العظيمة، في حين أن الولايات المتحدة اليوم في حالة جبروت عظيم، ولكنها غير منطوية إلا على القليل من الوعود»^(١).

أما الرؤية المخالفة لهذا الاتجاه فتأتي من فريستشبيات العميد السابق لمعهد العلوم الإسلامية بجامعة برلين فهو ينبئ إلى أنه:

«لو سلم الرأي العام في الغرب (المسيحي) -وفقاً لتصور هنتجتون- بأن الإسلام هو عدوه الطبيعي. لما استنتج المسلمون من ذلك سوى أن علتهم ألا يتوقعوا من الغرب غير العدوان عليهم. ذلك على التحديد هو الذي يمكن أن يدفع المسلمين كافة -بصرف النظر عن الاختلافات القائمة بينهم في المشاعر والمصالح- إلى اتخاذ موقف عدائي ضد الغرب. إن هنتجتون حتى لو أخذ حضارات أخرى في الاعتبار إنما يضع في الواقع إطاراً نظرياً لاستنفار كل من الإسلام والمسيحية تجاه الآخر، وهكذا نجده يتبأ بنبوذة يتوقع لها أن تتحقق»^(٢).

ثم يؤكد على دور العوامل التاريخية في الصراع فيقول: «لا المسيحية ولا الإسلام بحكم طبيعتهما وماهيتهما يريدان الحرب. ونحن نعلم من التاريخ أن كليهما قد استُغل في بعض العهود لتبرير الحرب وتعبئة جماهير المؤمنين بهما للقتال. ولكن لا ينبغي أبداً أن نعتبر ذلك هو هدفهما الحقيقي؛ ذلك أن ظاهرة الحرب الدينية يجب دائماً أن تفسر في إطار سياق تاريخي، وقد ذكرت من قبل أن ظهور عداوة عامة من جانب الغرب تجاه الإسلام يمكن كذلك أن يدفع المسلمين من جانبهم إلى اتخاذ موقف عدواني موحد ضد الغرب، غير أن رد الفعل هذا لن يكون

(١) جيمس كورث، الولايات المتحدة بوصفها قائداً حضارياً، ضمن الحضارات في السياسة العالمية، تحرير: بيترجيكاتزنشتاين: ص ٧٢-عالم المعرفة.

(٢) فريستشبيات الإسلام شريكاً، سلسلة عالم المعرفة، أبريل ٢٠٠٤م، عدد (٣٠٢): ص ٦٧.

(٣) المرجع السابق: ص ٦٨.

(٤) المرجع السابق: ص ٨٢.

(٥) المرجع السابق: ص ٦٦.

رابعاً: نظريات التوافق: الشرق الأوسط الكبير - الإسلام الليبرالي - الإسلام المعتدل:

الحلول التي يجدها الغرب للتوافق مع الإسلام أو توافق الإسلام معه بقول أدق يمكن تلخيصها هنا بثلاثة مصطلحات: (الشرق الأوسط الجديد - الإسلام الليبرالي - الإسلام المعتدل)، وتشترك الحلول الثلاثة في هدف واحد هو توظيف الإسلام ودوله في خدمة المصالح الغربية، ويكاد يكون هذا الهدف هو المحور الأساس للمفاهيم الثلاثة، ثم يكون الخلاف بعد ذلك في التفاصيل.

فالشرق الأوسط الجديد (ثم الكبير بعد ذلك في عهد بوش الابن) - كما أشرت سابقاً - هو الرؤية التي قدمها صناع السياسة الأمريكية فيما بعد الحرب العالمية الثانية لإيجاد تحالف أمريكي إسلامي يتم من خلاله توظيف الدول الإسلامية في مواجهة التوسع السوفييتي، وكذلك كبديل لاحتلال أمريكي مكلف لتلك الدول التي خلفت الاستعمار الأوروبي.

بعد الحرب الباردة وتصاعد الصحوة الإسلامية تم تعديل هذه الصيغة: بحيث تستهدف المصالح الأمريكية بوجه عام، وبحيث تتضمن أيضاً بُعداً جديداً يتم من خلاله تأكيد التوافق مع الغرب والتخلص من الصحوة الإسلامية في آنٍ واحد، هذا المفهوم هو الإسلام الليبرالي.

«فالإسلام الليبرالي» هو إسلام بلا ضفاف أو قواعد محددة، فهو إسلام يحتفظ بالشعارات والطقوس من الخارج بينما يعاً بمحتوى علماني من الداخل، يسقط كل ما له علاقة بالوحي والمقدس والمرجعية الإسلامية، ويضع مكانه العقل النفعي كمرجعية وحيدة في تصورات وسلوكه. فهو إسلام مزيف يتفق مع العلمانية والديمقراطية ومبادئ حقوق الإنسان الغربية والعملة الأمريكية، ويتفق مع كل شيء يريدونه في العالم،

الإسلام الليبرالي الذي تأتي تفاصيله في الصفحات التالية.

وما نراه أنه من بعد انتقال الثقل الحضاري الغربي إلى أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية فإن الصراع بين الغرب والإسلام في هذه المرحلة يتوج في مضمونه العميق مسيرة طويلة من الصراع الفلسفي بين التوجه البرجماتية للحضارة الغربية ومختلف الفلسفات والأيدولوجيات والمذاهب الأخرى، وبعد سقوط الأيدولوجية الماركسية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي

كان استقطاب الصراع بين الليبرالية البرجماتية والإسلام أمراً حتمياً؛ لأنه يحمل الأيدولوجية الوحيدة المؤهلة للصمود والتحدي بحسب رؤية المفكرين الغربيين أنفسهم بعد أن استطاعت الليبرالية البرجماتية تفكيك الأيدولوجيات العالمية الأخرى. تأتي بعد ذلك مجموعة من

العوامل المرافقة لهذا العامل الأساس أو الناتجة عنه؛ كميراث الحروب الصليبية، والصراع بين الغرب والشرق بوجه عام، والماضي الاستعماري، والقضية الفلسطينية، وامتلاك الدول الإسلامية للثروات البترولية، والقلق الغربي الرهيب من انتصار الإسلام على الهوية الغربية داخل الدول الغربية نفسها، كما عبر عن ذلك خطاب شيراك في الجماهير الغاضبة بسبب كون المسلمين قد غدوا عشرة في المائة من فرنسا؛ حيث قال: «أغضبون لأن المسلمين قد غدوا عشرة بالمائة من فرنسا» أقول لكم: انتظروا عشرة أعوام أخرى، وستكون فرنسا كلها من المسلمين»⁽¹⁾.

(1) راجع شرح نظرية كاتب الدراسة في تفسير العداء بين الغرب والإسلام في كتابه (الإسلام والغرب الأمريكي): نظرية في تفسير الصراع.

خامساً: ثورات الربيع العربي في ظل الصراع بين الغرب والإسلام:

يقول الدكتور مصطفى يوسف اللداوي تعليقاً على مجريات الأمور في واقع الثورات العربية: «لا يوجد أدنى شك أن الربيع العربي قد سقط، وانتهى إلى الأبد، وإنه لم يعد حلمًا ولا أملاً ولا هدفاً أو غاية؛ فقد استحال إلى خريف قاحل، وفصل مجذب قحط، فيه شمس رغم الخريف حارقة، تكوي ولا ترحم وتحرق ولا تتردد. وفيه آفاق تلسع وتماسيح تبلع وذئاب تفترس، وثعالب تمكر، وزواحف تتسلل، وبوم وغريان تتعق، وبشر هم إلى الشياطين أقرب تتحالف مع الشر وتتعاون مع البغي لا يهتمها الحق ولا يعينها الشعب أو الوطن، تقتل بلا حساب وتتهم بلا ضمير، وتتآمر بلا خلق ولا دين، ولم يعد هناك ربيع عربي فقد ولّى منقهرًا ولن يعود، وانكفأ ولن ينهض، وانكسر ولن يجبر، ولفظ أنفاسه مخنوقًا ولن تُبعث فيه الحياة من جديد»^(٦).

ومن الواضح أن الدكتور اللداوي يعبر عن رؤيته للواقع الراهن انطلاقاً من المنطق الأدبي للأستاذ سيد قطب رحمه الله.

وعلى نفس الخط تماماً وإنما في الاتجاه المقابل يكتب مجدي أحمد حسين: «الانقلاب قد مات إكلينيكيًا؟ أقول: إن هناك دائماً مسافة زمنية بين الموت الإكلينيكي والموت النهائي الحقيقي وغالبًا وبنسبة ٩٠% لا ينجو المريض من الموت الإكلينيكي، بل حتى في حالة الـ ١٠% من النجاة فإن المريض لن يعود إلى حالته الطبيعية في حالة النظم السياسية؛ فإن الموت الإكلينيكي والسريري لا حل له، والمسألة مسألة وقت»^(٧).

إن تلك الرؤيتين المتناقضتين للواقع الراهن -على

ووسيلتهم في كل ذلك هي التأويل والتحريف، ولكنه لا يتفق مع الإسلام الحقيقي نفسه»^(١).

أما الإسلام المعتدل فهو صيغة أكبر اتساعاً من الإسلام الليبرالي، فإذا كان الإسلام الليبرالي يقوم على عملية تأويل أو تحريف للإسلام؛ فإن الإسلام المعتدل يعني توافق توجهات الدول الإسلامية مع القيم الغربية، سواء قدمت بذلك إسلاماً ليبرالياً أو علمانية خالصة. فكما جاء في تقرير راند ٢٠٠٧م أنه

«يجب التشديد على: فوائد اتباع القيم الديمقراطية الليبرالية، مثل المساواة والتسامح، والتعددية وحكم القانون، واحترام الحقوق المدنية وحقوق الإنسان»^(٢).

ويذكر التقرير في موضع آخر أن «من بين الذين يجب التعاون معهم (المعتدلين طبعاً) جماعات الدفاع عن المرأة التي تدعو إلى المساواة بين الرجل والمرأة»^(٣).

ويذكر في موضع آخر أيضاً «إن أهم (وليس من أهم) معركة فكرية مع الإسلام (هنا يذكر التقرير بشكل صريح أن المعركة مع الإسلام نفسه، وليس مع الإسلاميين المتشددين) معركة حقوق المرأة»^(٤).

هنا يجب التنويه إلى شيء مهم جداً، فبالرغم من تأكيد صاحب هذه السطور على أن الإسلام الليبرالي هو الصيغة المفضلة لدى التوجهات الأمريكية في هذه المرحلة^(٥)، لكن ذلك ليس أمراً حتمياً، وإنما يكون ذلك مفضلاً عند تصاعد ضغوط الصحوة الإسلامية، أما عند تراجعها، فإن التوجه العلماني للدول الإسلامية هو المفضل دائماً لدى الغرب.

(١) محمد إبراهيم مبروك. الإسلام الليبرالي بين الإخوان المسلمين

والوسطيين والعلمانيين، الدار القومية للنشر والتوزيع: ص ٣٠ - ٣١.

(٢) تكوين شبكات من المسلمين المعتدلين، مركز الترجمة. ص ٦.

(٣) المرجع السابق: ص ٢٠.

(٤) المرجع السابق: ص ١٠.

(٥) راجع في هذا الصدد. محمد إبراهيم مبروك. (الإسلام الليبرالي).

(٦) الحرية والعدالة. عدد ٢ أكتوبر ٢٠١٣.

(٧) الشعب عدد ١٣ سبتمبر ٢٠١٣.

يقول فرانك سلامة أستاذ دراسات الشرق الأوسط بكلية بوسطن الأمريكية: «إنه من الواضح أن استخدام الأسد للأسلحة الكيماوية، والتردد وعدم التماسك الذي لاقاه في رد العالم (وخاصة أمريكا) أمور تتطابق مع حساباته وقراءته الماهرة للسياسة الأمريكية. وليس الأسد راضياً بعدم اتخاذ أوباما لإجراء عسكري ومؤخراً قرار أوباما بإحالة التعامل مع الأزمة السورية إلى روسيا... إن انعدام السياسة الأمريكية مكون مهم من مكونات بقاء الأسد، وربما انتصاره في النهاية»^(١).

ويتحدث نعوم تشومسكي عما يحدث في مصر فيقول: «لم يكن ليحدث دون موافقة البيت الأبيض؛ لأن الخلافات بين مرسي وأوباما أثبتت لأمريكا أن مصر لم تعد منطقة نفوذ أمريكي، أو على الأقل كما كانت، فقد كان مبارك يتبع أسلوب السياسة الناعمة مع الغرب، وتعودوا منه على تلبية أي مطلب حتى التي تضر بالأمن القومي المصري»^(٢).

إن ثورة الشعوب حقيقة واقعة، والعمل على توجيهها لخدمة المصالح الغربية والأمريكية تحديداً حقيقة واقعة أيضاً، وهو الأمر الذي يعني أن تحقيق نجاح واستقلالية تلك الثورات له تكلفة عالية للغاية، ومع ذلك يظل السؤال المطروح هو: النجاح من أجل ماذا؟ من أجل أي مشروع محدد وليس مائماً أو مزيماً؟ وما يضاعف من أهمية السؤال أن هذا المشروع المستهدف يعكس بشكل حتمي أشكال وحدود الطرق الثورية وغير الثورية المؤدية إليه، وإذا كان من غير المعقول تجميد المرحلة الحالية المتوهجة حتى إنتاج هذا المشروع، فإن كل ذلك يكشف مدى ثقل المهمة المزدوجة التي يتحتم على الحركة الاضطلاع بها، وهي إنتاج المشروع والعمل الثوري معاً، فلعل ذلك يكون تكفيراً لها عما أبدته من إهمال في إنتاج هذا المشروع منذ زمن طويل.

الرغم من انطلاقهما من موقف عاطفي واحد- تعبران بشكل كبير عن واقع الارتباك الذي تعاني منه الحركة الإسلامية في تعاملها مع أحداث ما يسمى بربيع الثورات العربية. وما يجب الآن عدم التأخر في التسليم به هو أن جهوزية الحركات الإسلامية في دول الربيع العربي لم تكن متوفرة إبان وقوع هذه الأحداث. أما ما لم يتم التسليم به أو حتى تفهمه- على الرغم من أنه قد غدا من مسلمات العمل الثوري في العالم- فهو أسبقية المشروع الفكري للعمل الثوري، وهو الأمر الذي دفعت الحركة الإسلامية- وما زالت تدفع- ثمنه كبيراً جداً. وفي مقابل التعقيدات العالمية والداخلية قاد الموقف شيوخ نصوصيون أو سياسيون حركيون أو دعاة تقتصر إمكاناتهم في القدرة على إبلاغ الدعوة إلى العوام وجدوا فيما حققوه من شهرة نتيجة لذلك مؤهلاً لهم لقيادة العمل الإسلامي.

كل ذلك دون امتلاك مشروع فكري حقيقي محدد يمكن احتكام الجماهير إليه عند اختلاط الأمور وارتباك الرؤية، والنتيجة هي هذا الكم الهائل من الانقسامات والتمزقات، والثورات والثورات المضادة، وما نجم عن كل ذلك من خسائر في الأرواح والثروات حتى تضاعف القلق في النفوس على مستقبل البلاد، وازدادت أصابع الاتهام لهذه الثورات بكونها صناعة أمريكية تستهدف الفوضى الخلاقة.

وأياً كان الخلاف حول طبيعة هذه الثورات، فإن الرصد الواقعي لها يؤكد وجود حقيقتين على الأقل:

الأولى: أنه لا يمكن إنكار أن نيران الغضب التي كانت تعتمل في صدور شعوب هذه البلاد ضد حكامها الطغاة كانت سبباً أساسياً في تفجير هذه الثورات.

الثاني: أن القوى الغربية والولايات المتحدة تحديداً لم تكن تضع يدها تحت خدها وهي تشاهد هذه الأحداث، وتكفي بدور المراقب دون تدخل منها، وهذا ليس فيما يتعلق بتفجير الثورات فقط، ولكن فيما يتعلق بأحداث كل المراحل، سواء كانت تتعلق بتفجير الثورات، أو استمرارها، أو إيقافها، أو انحرافها، أو تغيير مسارها.

(١) الشروق. عدد ٢٠ أكتوبر ٢٠١٣.

(٢) الشعب. عدد ١٣ سبتمبر ٢٠١٣.

معلومات إضافية

الاستعمار:

مصطلح الاستعمار:

الاستعمار لفظة محدثة مشتقة من عَمَرَ، واستعمره في المكان أي جعله يعمره، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١).

فالأصل اللغوي يفيد معنى طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران، لكن الواقع لا علاقة له بالمعنى اللغوي. فهو استيلاء دولة أو شعب على دولة أخرى وشعب آخر؛ لنهب ثرواته وتسخير طاقات أفرادها، والعمل على استثمار مرافقه المختلفة.

وهذا التعريف يشمل أنواعاً مختلفة من الاستعمار لا تختلف عن بعضها إلا بالأسماء وبعض الأشكال، فمن أشكال الاستعمار أن تضع دولة ما أخرى تحت حمايتها وإشرافها وتسلبها من حريتها بقدر ما يتناسب مع قوة هذه الدولة وضعف تلك، وفي الأغلب يكون للدولة المحمية شبه سيادة داخلية يمارسها حكام وطنيون تديرهم الدولة المستعمرة من خلف ستار.

ومن أمثلة هذا الشكل للاستعمار ما فعلته فرنسا في تونس؛ حيث وقّعتا معاهدة حماية في ١٢/٥/١٨٨١م، ثم جُددت في ٨/٦/١٨٨٣م، وبموجب بنود هذه الحماية فقدت تونس سيادتها الخارجية وحققها في التمثيل الدبلوماسي المستقل، كما سُلبت حق إبرام المعاهدات الخارجية، وعينت فرنسا آلاف الموظفين يرعون مصالحها يرأسهم المقيم العام.

وما حصل في تونس كررته فرنسا في مراكش بموجب معاهدة ٣٠/٣/١٩١٢م وفعله الإنجليز في مصر خلال احتلالهم لها بين عام ١٩١٤ - ١٩٢٢م.

ويعد الحرب العالمية الأولى ظهر شكل جديد من أشكال الاستعمار أقرته عصبة الأمم المتحدة التي تكونت حينذاك كمنظمة أممية لنشر السلام ومنع الحروب، فقد كرست عصبة الأمم نوعاً جديداً من الاستعمار وهو الانتداب، حيث وردت إجازته في المادة ٢٢ لميثاق عصبة الأمم التي اعتبرته طريقة للنهوض بالشعوب القاصرة والأخذ بيد هذه الأمم لتكون قادرة على تسيير أمورها، لكنه في الحقيقة كان مظهرًا للاستعمار ووسيلة لامتناس خيرات الشعوب.

وفيما عدا هذين الوجهين أسفر الاستعمار عن وجهه الكالح، فأعلن عن ضمه لبعض الدول إلى مستعمراته كما فعلت فرنسا بالجزائر.

رؤية تاريخية للاستعمار:

لقد بدأ الاستعمار الغربي للعالم مع بداية عصور النهضة في أوروبا؛ حيث استفادت أوروبا على وقع طبول الإصلاح الديني والسياسي في القرن الخامس والسادس عشر.

ومنذ أفاقت أوروبا بدأت تحركها للإطباق على العالم الإسلامي، فانتشرت المراكب الاستكشافية تجوب البحار بحثاً عن تحقيق أهداف الاستعمار المختلفة الدينية والسياسية والاقتصادية.

وفي عام ١٤٩٩م توصل فاسكودي جاما إلى طريق رأس الرجاء الصالح، فوصل البرتغاليون إلى الشواطئ الهندية بعيداً عن المرور في الأراضي الواقعة في سلطة الخلافة العثمانية.

وشرع البرتغاليون يؤسسون مستعمرات ومراكز تجارية في أماكن مختلفة من السواحل التي وصلوا إليها، ولم

يكد النصف الأول من القرن السادس عشر ينقضي حتى كان البرتغاليون قد أحكموا السيطرة على شواطئ شرق إفريقيا وغربها، إضافة إلى شواطئ الخليج وفارس والهند.

وفي عام ١٦٠٠م أنشأت بريطانيا أول جهاز استعماري لها تحت مسمى شركة الهند الشرقية البريطانية، ومثله صنعت فرنسا عام ١٦٦٤م فأنشأت ما أسمته بشركة الهند الشرقية الفرنسية، وبدأ الصراع والتنافس بين الدولتين، وانتهى بانتصار الإنجليز عام ١٧٧٥م - ١٧٧١هـ، وخروج فرنسا من الهند والصين.

وفي عام ١٧٩٨م - ١٢١٣هـ وصل نابليون يقود الحملة الفرنسية على مصر، ثم حاول السيطرة على بلاد الشام، فغادر وهو يحمل أدرج الخيبة لكثير من قُتل من جنوده هناك، ثم ما لبث أن عاد إلى فرنسا ولحقته جيوشه عام ١٨٠١م.

وفي عام ١٨٢٧م أعلن الملك شارل العاشر اعتزام فرنسا إنشاء مستعمرة ذات شأن في شمال إفريقيا، وزحفت الجيوش الفرنسية لاحتلال الجزائر عام ١٨٣٠م، واستتب الوضع لهم عام ١٨٥٧م، وهو نفس العام الذي قضت فيه بريطانيا على الإمارة الإسلامية المنغولية في الهند، وقد ألحقت فرنسا الجزائر بها عام ١٨٨١م، وهي نفس السنة التي أعلنت فرنسا وضعها تونس تحت الحماية الفرنسية بموجب ميثاق باردو، ثم السنغال ومدغشقر عام ١٨٨٢م، في عام ١٨٨٧م - ١٢٩٥هـ وقع مؤتمر برلين لاقتسام مواقع النفوذ في الوطن العربي. وتوالى بعد ذلك سقوط البلاد العربية والإسلامية في قبضة الاستعمار.

فسيطر الفرنسيون على المغرب سنة ١٩١٢م، وعلى سورية سنة ١٩٢٠م. وأما الإيطاليون فاحتلوا الصومال وإريتريا عام ١٨٨٧م، وزحفت إيطاليا لاحتلال الساحل الليبي عام ١٩١٤م، وأكملت الاحتلال خلال نفس العام.

فيما احتلت إنجلترا مصر ووضعتها تحت الحماية عام ١٨٨٢م، وكانت قد احتلت بلاد البنغال عام ١٧٥٧م، والبنجاب عام ١٨٤٩م، ثم احتلت نيجيريا عام ١٨٥١م. وفي عام ١٨٩٨م احتلت بريطانيا السودان ثم العراق ١٩١٩م، ثم الأردن عام ١٩٢٠م.

وفي المشرق الإسلامي انقض الروس الأرثوذكس على بلاد المسلمين فأخذوا ما يحاذيهم منها، وضموه إلى بلادهم، ففي ١٦٧٠م دخل الروس بلاد الأورال، وأحكموا السيطرة على مسلميها، وفي عام ١٨٥٩م ضمت روسيا طشقند، ثم القوقاز عام ١٨٦٤م، ثم بخارى عام ١٨٨٢م، فيما دخلت بلاد التركستان تحت سيطرة الروس عام ١٨٨٤م.

وقد استمرت السيطرة الروسية على بعض هذه البلاد إلى يومنا هذا؛ فيما نجت بلاد أخرى، وشكلت حكومات مستقلة بعد سقوط الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩٠م.

فيما تحررت البلاد الإسلامية جملة من الاستعمار الفرنسي والإنجليزي والإيطالي (العسكري) في أواسط القرن العشرين.

أعمال الاستعمار:

وخلال تاريخ الحركة الاستعمارية الغربية للعالم الإسلامي وبقية المستعمرات أظهر المستعمر الغربي صوراً قاتمة كالحمة ملؤها الظلم والقهر والاستغلال.

فعلى الصعيد الإنساني ارتكب المستعمرون مجازر بحق الشعوب التي قامت تدافع عن دينها وخيراتها، فقد بلغت أعداد قتلى المسلمين في الهند حتى عام ١٨٨٠م مليون مسلم سقطوا على يد الإنجليز، وكذلك كانت الجزائر بلد المليون شهيد.

وكان البرتغاليون قد أحدثوا مجازر عند سيطرتهم على الشواطئ الهندية، ويسجل القائد البرتغالي البوكيرك بفخر بعضاً منه وهو يخاطب ملك البرتغال مهنتاً إياه بالسيطرة على مقاطعة جوا الهندية فيقول: «وبعد ذلك أحرقت المدينة، وأعملت السيف في كل الرقاب، وأخذت دماء الناس تراق أياماً عدة.. وحيثما وجدنا المسلمين لم نوقر معهم نفساً، فكنا نملأ بهم مساجدهم، ونشعل فيها النار، حتى أحصينا ستة آلاف روح هلكت، وقد كان ذلك يا سيدي عملاً عظيماً رائعاً أجداً بدايته وأحسنها نهايته»!!

السياسات الاستعمارية:

قام عددٌ من المُستعمرين بفرض أسلوب حياتهم على المستعمرات، فقد كانوا يؤمنون بتدني مستوى ثقافة المناطق المُستعمرة قياساً إلى ثقافتهم. وحاول بعض هؤلاء الحكام أن يُغيروا من ديانة المناطق التي يستعمرونها، كما عمّدوا إلى جعل لغتهم الأجنبية اللغة الرسمية في تلك المستعمرات. وفي عدد من الحالات، حاول الحكام المستعمرون أن يحلوا ثقافتهم الخاصة محلّ الثقافة المحلية. وساعد الحكام المستعمرون في تطوير وتحديث المستعمرات عن طريق إنشاء خطوط السكك الحديدية والطرق البرية والمصانع، وكذلك عن طريق إنشاء المدارس والمستشفيات. لكنّ القوى الاستعمارية كانت تحرص على تبني سياسات اقتصادية وسياسية مفيدةٍ للاستعماريين أنفسهم.

السياسات الاقتصادية:

عمّدت الدول الاستعمارية إلى الاستفادة من العوائد الاقتصادية للمستعمرات. وفي العصور القديمة، كانت هذه القوى تزيد من ثروتها عن طريق السُّخرة (العمل بدون أجر)، كما فُرضت الإتاوات على الشعوب المُستعمرة بدعوى حماية هذه الشعوب من الدول الأخرى.

الإدارة السياسية:

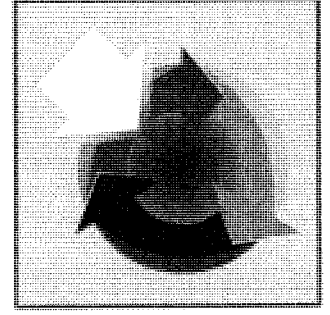
اختلفت طرق الحكم في المستعمرات بشكل كبير، فبعض الدول الحاكمة عمدت إلى جعل المستعمرات مستقلةً بشكل كامل على حين أنّها أعطت دولاً أخرى شيئاً من الحكم الذاتي. وإذا نظرنا في سياسات بلجيكا وفرنسا وبريطانيا والبرتغال في كلٍّ من إفريقيا وآسيا، فإننا نجد تبايناً في نظم الحكم.

المصادر:

١- الاستعمار في العصر الحديث، ودوافعه الدينية، د. منقذ بن محمود السقار، متاح على الرابط التالي:
<http://www.saaaid.net/Doat/mongiz/16.htm>

٢- الموسوعة العربية العالمية <http://www.intaaj.net/>

الصراع المذهبي والعرقى في العالم الإسلامي.. الجدور والمستقبل



د. تامر بكر

كاتب وباحث مصري

ملخص الدراسة

كان لاتفاق (سايكس/ بيكو) -الذي عُقد بين إنجلترا وفرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى- أثر بالغ في ظهور الصراعات المذهبية والعرقية في العالم الإسلامي، وقد ازدادت حدة هذه المشكلة بعد الحرب الباردة، ثم دخلت المشكلة مرحلة الخوف بعد ما يُسمى بثورات الربيع العربي، وهناك ثلاث فرضيات لأسباب الصراعات الطائفية حالياً في العالم الإسلامي:

الأولى: اعتبار الصراع خلافاً دينياً بحثاً، وذلك يعني أن كل طرف يشعر بأن مذهبه هو الحق، وأن الآخر مخطئ أو منحرف عن الطريق المستقيم، مما يستلزم دعوة وهداية المخالف.

الثانية: اعتبار الصراع خلافاً اجتماعياً ناتجاً عن التعارض أو التنافس بين دائرتي مصالح مختلفتين.

الثالثة: اعتبار الصراع رد فعل على الظلم أو انعدام العدالة الاجتماعية.

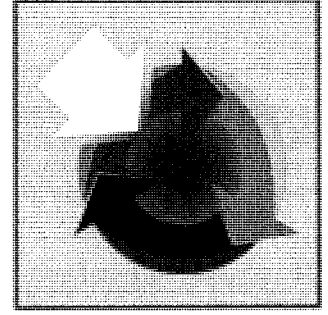
والحقيقة أن تلك الفرضيات الثلاث لا تصلح كل منها منفردة أن تُوصف حالات الصراع الطائفي، فتبين أسبابه ودوافعه وتداعياته السياسية، وإنما يمكن توصيف ذلك من مجموع تلك الفرضيات.

إن التفسير الموضوعي لظاهرة الصراع المذهبي والعرقى في العالم الإسلامي، يقوم على الاستفادة المتكاملة من الإمكانيات التي توفرها -مجتمعة- المداخل والنظريات الثرية لتفسير السلوك الصراعى للإشكالية محل الدراسة، والتعرف على الجدور والمسببات لها؛ ومن ثمَّ تحديد استراتيجية للتعامل معها.

وقد عالجت هذه الدراسة، من خلال أربعة محاور، أبرز أسباب ودوافع الصراعات المذهبية والعرقية في العالم الإسلامي، ثم ناقشت التداعيات السياسية لهذه الصراعات، وذلك للوصول إلى الحلول التي نحسبها ناجحة، سواء كانت تقليدية أو حديثة أو حلولاً استتبها الباحث.

فاهتم المحوران الأولان ببيان جدور تلك الصراعات، وناقش المحور الثالث ما يترتب على هذا الصراع من الناحية السياسية، واهتم المحور الأخير بمستقبل هذا الصراع، وكيفية التعامل معه؛ بناء على النتائج والتوصيات التي توصلت لها الدراسة.

الصراع المذهبي والعرقي في العالم الإسلامي.. الجدور والمستقبل



د. تامر بكر

كاتب وباحث مصري

مقدمة:

بينما كانت نيران الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م: ١٩١٨م) مستعرة، عقدت كل من بريطانيا وفرنسا اتفاقية سرية لتقسيم أملاك الدولة العثمانية، وقد عُرف هذا الاتفاق باسم (سايكس/ بيكو)، وكان لهذا التقسيم الذي جذرته تلك الاتفاقية عام ١٩١٦م أثر عظيم في تفتيت دولة الخلافة، وظهور ما بات يُعرف بالدولة القُطرية أو القومية الحديثة؛ حيث تبع ذلك ظهور عدد من المشكلات على السطح، منها مشكلة (الأقلية)، سواء العرقية أو الدينية أو الطائفية، وقد اصطلح على تسمية ذلك (بالنزاعات الإثنية).^(١)

ومنذ زمن تلك الحرب، وما تلاها مما عُرف باسم الحرب الباردة^(٢)، أصبحت الصراعات المذهبية والعرقية في العالم الإسلامي، إحدى أهم القضايا المزمنا لبعض دوله، سواء كان هذا الصراع صراعاً عنيفاً أو اقتصر على الصدام السياسي، ففي العالم الإسلامي يغلب على النزاعات الإثنية البُعد الطائفي بشقيه (المذهبي والعرقي)، وهو بُعد تتحمل الأمة كلها ثمنه العالي التكلفة المادية والبشرية؛ نظراً لأنه صراع نابع من اعتقاد، فلا يتردد الأفراد ببذل الغالي والنفيس من أجله.

وفي ضوء ما سُمي بالربيع العربي، بثوراته وحراكاته الشعبية التي شهدتها المنطقة، ودخولها في حالة من عدم الاستقرار والتدافع بشأن مستقبل عدد من الأنظمة القائمة، أو مسارات المستقبل لبعض الأنظمة التي أُسقطت، وفي أجواء تعززت فيها المخاوف والأبعاد الطائفية والعرقية لعملية التغيير، وخاصة مع قيام الكيان الصهيوني وبعض القوى الغربية بمحاولات لا تخفى للاستفادة من حالة السيولة السياسية في المنطقة، وذلك بدفع مسار الأحداث باتجاه تفتيت المنطقة على أسس طائفية وعرقية، في ضوء ذلك كله تأتي أهمية التركيز على هذا الموضوع حالياً في تلك المرحلة التاريخية التي تتحول فيها المنطقة بأسرها.

إن معاني (الطائفية والعرقية والمذهبية والإقليمية والعشائرية) معانٍ مترابطة بشكل كبير مع بعضها البعض؛

(١) (الإثنية) مصطلح لاتيني الأصل يشير إلى مجموعة الخصائص التي تتميز بها مجموعة عن أخرى، فهو وإن أشار في عمومته إلى تكوينات أو هويات جماعية متميزة إلا أنه لا يكاد يستقر على حال في تعيين طبيعة هذه الهويات أو أصل تميزها وصراعاتها، فقد يستخدم في سياقات معينة للتعبير عن جماعات الأقلية في علاقتها مع أكرية قومية في بلد معين، كالعلاقة بين العرب وبين الأكراد، والبربر والأمازيغ، وقد يُستخدم أيضاً للتعبير عن التمايز الديني أو الطائفي عن الأغلبية حتى لو وُجد بينهما المشترك اللغوي أو الثقافي. [انظر: برهان غليون (الإثنية والقبلية ومستقبل الشعوب البدائية)، بتصرف، مجلة التسامح الإلكترونية، بتاريخ ١٠/٩/٢٠١٣م، على الرابط التالي: <http://www.altasamoh.net/print.asp?Id=510>]

(و) (الصراع الإثني) يجب أن يكون فيه على الأقل سبب ذو علاقة بتعريف الإثنية ويدخل في صميم الصراع؛ كالعامل الديني أو اللغوي أو العرقي، وإلا فإن الصراع ليس إثنيًا ولا يعدو أن يكون صراعاً عادياً بين مجموعتين تتنازعان المصالح.

(٢) مصطلح يصف حالة الصراع والتوتر والتنافس التي كانت توجد بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وحلفائهم في الفترة من منتصف الأربعينيات حتى أوائل التسعينيات.

الطائفية يُعبر بها عن المذهبية بل والعرقية أيضاً. وعلى أية حال؛ فإن تقسيم فئات وجماعات وأفراد المجتمع إلى (نحن، وهم) قد يؤدي لحل الصراع عن طريق العدوانية والعنف، مما قد يؤدي إلى تقسيم وتشردم العالم الإسلامي أكثر مما هو عليه، وهو ما يؤثر سلباً على مشروع إحياء الأمة الإسلامية، فيرجعها للوراء ويعيق تقدمها ويعرقل أي مشاريع للوحدة والإصلاح والنهضة فيها.

وعليه يمكن صوغ المشكلة البحثية التي ستعالجها الدراسة في إرادة الباحث تقديم استراتيجية^(٢) تستوعب قضية الصراع المذهبي والعراقي في العالم الإسلامي، والبحث عن أنجح الحلول للحد منها، ومن ثمَّ يجب الباحث على الأسئلة المجملّة الآتية:

الصراعات المذهبية والعرقية في العالم الإسلامي، هل هي صراعات المستقبل؟

وإن كان هناك عدد من العناصر المانعة لأي عملية تفتيت محتملة في المنطقة، فهل هناك مخاطر محتملة لنجاح بعض تلك مشاريع التفتيت؟

وما هي الآليات و(السيناريوهات) المطروحة لاحتواء تلك الصراعات وتجنبها؟

وفيما يخص منهج هذه الدراسة، فقد تم الاستعانة بالمنهج التحليلي، وتم خلطه بالمنهج الوصفي والتاريخي حين الحاجة إليهما، وذلك في التعامل مع

(٢) كلمة أصلها إغريقي stratēgos كانت تستخدم بمعنى المكان المرتفع، ثم أصبحت في اللغات الأوربية بمعنى فن توزيع واستخدام القوات المسلحة لدولة ما بغرض تحقيق أهدافها السياسية، ثم تطور المفهوم ودخل للحياة المدنية ليصبح: المهارة في التخطيط الشامل والإدارة والتنسيق في أي قطاع، سواء أكان عسكرياً أم مدنياً. [لواء أ. ح. دكتور فوزي محمد طایل (نهضة أمة .. كيف نفكر استراتيجياً)، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ط١ / ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م، حاشية (ص ٢٤)، بتصرف].

لأن الفرد قد ينتمي لعرق وجنس مُعَيَّن، مثل: (عربي، كردي، تركي، فارسي)، وفي نفس الوقت له مذهب فقهي معين، مثل: (السُّنة العرب، الشيعة العرب)^(١)، وقد ينتمي بعد ذلك لإقليم معين وقومية معينة (كالعرب السُّنة في إقليم الأهواز بإيران)، ثم يكون للفرد بعد ذلك قبيلته وعشيرته التي ينحدر منها أصله، ويتم تتسيبه إليها والتي تختلف عن الآخرين، وقد يكون هناك تلاحم طائفي بين أفراد لا ينتمون لنفس العشيرة أو العرق أو الإقليم، مثل: (الشيعة)، فمنهم العرب والفرس والكُرد، وهكذا بالنسبة للعناصر الأخرى، وقد تكون الأقليات الدينية والمذهبية لها أقاليم خاصة بها، وعشائر خاصة بها، وأعراق خاصة بها، فالدروز مثلاً -وهم أصلاً عشائر عربية- استوطنوا في سوريا منطقة جبل حوران قبل ٢٠٠ عام.

ويمكن أن نعتبر الطائفية في العصر الحديث هي حرب هويات لكسب معركة هوية الدولة، وعلى أساس نتائج هذه الحرب سيتحدد نمط الدولة، فقد نجحت الطائفية في لبنان في أن تكون أيديولوجية الدولة والبنية السياسية الأساسية لها.

وعلى الرغم من أن الطائفية تختلف عن المذهبية، فليس ضرورياً أن يكون الطائفي متديناً أو ملتزماً دينياً ومذهبياً، على الرغم من ذلك؛ فالدارج استخدام

(١) أعني بذلك هاهنا التعامل الجزئي في باب الفقه مع الحالة المذهبية، ولا أعني حقيقتها المجملّة، فمثلاً الخلاف بين الشيعة والسُّنة له أبعاد متعددة، ويمكن دراسته من خلال عدة أبواب، كالعقيدة والفقه والتصور الإسلامي والفكر، فالشيعة يمكن أن ينظر البعض إليهم في باب الفقه على أنهم مذهب فقهي من المذاهب، أما في باب العقيدة، فبعبداً عمّن يراهم خارج دائرة الإسلام، فهناك من يراهم بالجملة ممن يُبدعون اتفاقاً، ويختلف في تكفيرهم بالعين، فهم بذلك فرقة من الفرق الإسلامية، وقصر هذا الاختلاف على باب واحد من الأبواب السابقة هو الخطأ الذي وقع فيه بعض الفضلاء، الذين اعتبروا ذلك الخلاف الواسع هو من قبيل الاختلاف الفقهي المذهبي فقط!

إن الصراعات المذهبية والعرقية تنفجر إذا توفرت مجموعة من الأسباب تغذي وتؤجج الصراع، بعض هذه الأسباب المختلفة يرتبط بأسباب اجتماعية إنسانية لها علاقة بالبيئة الداخلية للمتصارعين، وبعضها الآخر مرتبط بالتفاعلات مع الأطراف الخارجية، وبعضها له أسباب سياسية واقتصادية.

ونريد هاهنا أن نقف على بعض المقاربات التي يمكن من خلالها تفسير أسباب وأبعاد تلك الصراعات، فمن ذلك:

أولاً: قابلية بعض شعوب الدول الإسلامية بعد انهيار الخلافة للتمزق وعدم الانصهار؛ نظراً للجهل بأحكام الإسلام، والابتعاد عن الإيمان بأهدافه السامية، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ (المائدة ٧٧).

ثانياً: الوضعية الموروثة عن الاستعمار، حيث قام قبل انسحابه من الدول التي احتلها لفترات طويلة برسم الحدود بين تلك الدول دون مراعاة للتركيبية للمذهبية أو العرقية، كما قام بتسليم السلطة إلى نُخب إثنية أقلية، مما شكّل أول سبب للصراع بين المجموعات العرقية المختلفة التي رأت في ذلك إجحافاً في حقها ونوعاً من التواطؤ مع المستعمر؛ إذ تحولت تلك النُخب إلى ما يشبه مستعمر جديد^(١) (العلويون في سوريا، مثلاً).

ثالثاً: نشوء الدول القطرية الحديثة في العالم الإسلامي بشكل قسري بعد الحرب العالمية الثانية، أدى في بعض الدول إلى استقطاب مجتمعات غير متجانسة بل متصارعة أحياناً؛ عرقياً أو طائفياً أو عشائرياً أو مذهبياً، وهذا التكوين أو النشوء القسري جعل بعض الدول الإسلامية في بعض الأحيان مهياة تلقائياً للصراعات؛ إذا ما توافرت أجواء سياسية واجتماعية واقتصادية معينة، كما أن هذا

(١) وهذان وهذان، (الصراعات العرقية والأمن القومي)، منتديات الحوار الجامعية السياسية، موقع د. أحمد وهبان، بتاريخ ١٥/٥/٢٠١١م، على الرابط التالي: www.ahmedwahban.com/aforum/view-topic.php

محاور الدراسة الأربعة، وهي:

- الصراعات المذهبية والعرقية: الأسباب والدوافع.
- الأدوار الخارجية ودورها في تأجيج الصراعات المذهبية والعرقية.
- الصراع المذهبي والعرقى وتداعياته السياسية.
- نحو استراتيجية لاستيعاب قضية الصراع المذهبي والعرقى في العالم الإسلامي.

أما الاقتراب البحثي الذي سلكه الباحث هنا، فهو: اقتراب الصراع؛ لأنه المناسب للمشكلة البحثية.

المحور الأول: الصراعات المذهبية والعرقية: الأسباب والدوافع:

كان تنوع طوائف وأعراق المسلمين في عصور الإسلام الأولى وفي أوقات الالتزام به قولاً وفعلاً، كان مصدر عزّة وانتصار للإسلام ودعوته؛ حيث أسهمت الأجناس والأعراق المتعددة لمعتقيه في انتصاره، فقد جمعهم الإسلام على قلب رجل واحد في انسجام رائع استطاع نشر الدعوة الإسلامية وتكريس عالمية الدين الإسلامي، وبقدر ما كان التنوع بعمومه من أهم الميزات التي تمتع بها العالم الإسلامي، بقدر ما كان هذا علامة من علامات الثراء والتنوع والقدرة على صهر الطوائف والأعراق في بوتقة واحدة؛ انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

ولكن في المقابل إذا نظرنا إلى هذا التنوع في العصور المتأخرة عصور تشتت الدولة الإسلامية الواحدة، وانفصال القرآن عن السلطان؛ نجد أنه تحول إلى نقمة، فنادراً ما نجد دولة عربية أو إسلامية تتميز بالنقاء العرقى أو المذهبي؛ حيث تنتشر في ربوعها عديد من الأعراق أو المذاهب أو الأقليات، لم ينجحوا في التعايش معاً.

وتحديد علاقتها بالمجتمع؛ إذ لم تتجح سياسات الدمج القسري -للعراق والمذاهب- التي اتبعتها بعض الدول الإسلامية في صهر الاختلافات، لاسيما في تلك الدول التي تحتوي على أقليات كبيرة نسبياً، مثل: الأكراد في سوريا والعراق، والأمازيغ في دول المغرب العربي، والحوثيين في اليمن.

سادساً: تحوُّل الحالة المذهبية إلى الحالة الطائفية في بعض الدول الإسلامية (العراق، مثلاً)، وذلك لبعض الأسباب التالية:

- ١- تأمر أعداء الأمة من المحتلين عليها.
- ٢- المصالح الشخصية لبعض الزعماء والحكام.
- ٣- انتشار التكفير بالجملة دون مراعاة شروطه العلمية القائمة على تحقيق شروط وانتفاء موانع.
- ٤- اتجاه ما يسمى بالعمولة والذي يعمل على تغيير البنى السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية لبعض الشعوب.

سابعاً: الاحتقان المذهبي والعرقى:

ومن عوامل هذا الاحتقان:

- ١- سيادة المناخ المذهبي المخيم على المنطقة الإسلامية منذ غزو العراق عام ٢٠٠٣م.
- ٢- فساد بعض الأنظمة السياسية الحاكمة، التي تجد في التفرقات الطائفية والعرقية والفتنة المذهبية، ونهج سياسة تمييزية بين مواطنيها، تجد في ذلك كله حاجة ملحة لبقائها واستمرار سلطتها المستبدة.^(١)

- ٣- الخلل في أسلوب إدارة التنوع المذهبي؛ نتيجة عدم تحديد العلة الحقيقية للصراع، والتي قد تكون شيئاً آخر غير الطائفية والمذهبية، كالتهميش -مثلاً:

(٢) انظر: صاحب الربيعي، مقال (النزاعات العرقية والمذهبية في المجتمعات المقهورة نتاج سلطة الاستبداد) مجلة الحوار المتمدن، (العدد ١٠٩٤) بتاريخ ٢٠/١/٢٠٠٥م

التكوين القسري قد فتح المجال للحديث عن تكوين هوية ثقافية موحدة للدولة القطرية من جهة، وتلبية متطلبات واحتياجات الأمة من جهة ثانية، وقدرتها على أداء وظيفتها السياسية والأمنية^(١) من جهة ثالثة.

ويبدو أن هذه الجوانب الثلاثة جعلت الدول القطرية في حالة أزمة، وهذا الوضع كان سبباً أساسياً في المحيط الخارجي للعالم العربي والإسلامي؛ فقد أدى أحياناً إلى اندماج كيانات مع بعضها، أو تكتل دول قطرية لتطوير قدراتها (مثل: اندماج اليمن -زيدية- مع عُمان -إباضية- في مشروع اتحاد الجنوب العربي في زمن سابق) بدلاً من تطوير دورها وفعاليتها، أو اتجاهها أحياناً أخرى نحو التشرذم والتفكك إلى كيانات أصغر وأضعف وأكثر قطرية (انفصال بنجلادش عن مشروع الباكستان، مثلاً)، ولكن أكثر تجانساً عرقياً أو مذهبياً، وربما التصاقاً بالهوية الثقافية والحضارية للأمة.

رابعاً: ساهم ظهور الدول القطرية في إضعاف وتغييب الروابط التقليدية التي كانت تربط بين الفرد وبين الوحدات الاجتماعية التقليدية، والتي تتمثل في: الأسرة والقبيلة والعشيرة والكنيسة، مما أوجد (فراعاً عاطفياً)، تم ملؤه بأشكال جديدة من الهوية، كان المذهب والعرق من أهمها، ومع تولد بعض الصراعات التنافسية العسكرية بين بعض الدول القطرية -بسبب النزاع على الثروات -، كانت الهوية المذهبية والعرقية حاضرة فيها.

خامساً: إخفاق الدول القطرية (القومية) في أداء وظيفتها -دمج مواطنيها على أساس الانتماء للوطن-

(١) يقول الله تعالى: ﴿وَأَنْتَجَ فَيْمَاءً أَنْتَلَكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص ٧٧)، ويقول أيضاً: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَلِيِّينَ﴾ (الأنعام ١٦٢)، وقد انعكس ذلك على الفكر السياسي عند المسلمين، فحدّد المسلمون وظيفة الخلافة -كما ذكرها الإمام الماوردي- بأنها حفظ الدين وسياسة الدنيا بالدين، وهذا التحديد ليس اختراعاً بل هو مستنبط من الآيتين الكريمتين المذكورتين، وغيرهما.

عوامل الاحتقان المذهبي والعرفي



«فلو أخذنا مثلاً الحرب الأهلية اللبنانية التي اتفق على تصويرها على أنها نزاع طائفي، فسوف نجد أن انتهاء الحرب لم يتحقق نتيجة حوار بين أهل الأديان والمذاهب التي شاركت فيها، بل باتفاق على إعادة صياغة النظام السياسي وتوزيع مصادر القوة بين الطوائف المختلفة، ومثل ذلك النزاع الحالي في العراق، فالذين يتناقشون حول حل الأزمة ليسوا رجال الدين ولا قادة الفكر، بل السياسيون، وهم لا يتطرقون إلى النقاشات الدينية، وأدلة كل طرف على حقانية مذهبه، بل يتحدث كل منهم حول تصوره للحصّة العادلة لجمهوره في سياسة البلاد ومواردها.. ومن المؤكد أن هذا الاختلاف لم يكن ثمرة توافقات مذهبية بقدر ما نتج عن مساومات سياسية»^(٢)

٤- الرغبة في السيطرة، حيث يرى بعضهم نفسه أو جماعته العرقية هي الأجدر بالسيطرة والتحكم في مجريات الأمور، ويجد لنفسه المسوغ أو التأويل

حيث تتفاوت محاور التهميش في العالم الإسلامي من تهميش اقتصادي (شعبة الخليج، مثلاً)^(١) أو ثقافي (أمازيغ المغرب، مثلاً)، أو سياسي (كأقباط مصر بعد يوليو ١٩٥٢م)^(٢)، وقد يكون مُركباً يجمع بين أكثر من نوع من أنواع التهميش، كالسياسي والاقتصادي (سنة العراق بعد الاحتلال الأمريكي، وصراع القوقاز، مثلاً)، أو سياسي اقتصادي ثقافي (زنج موريتانيا، مثلاً).

(١) أحياناً يكون الأمر مجرد توترات باعثها الرئيس التفاوت المعيشي، ولكنها تلبس عباءة المذهب هنا وعباءة الدين أو القومية أو الطبقية هناك.

(٢) يقول أحد المستشرقين الإنجليز: «إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نَعِمُوا -بوجه الإجمال- في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة، وإن دوام الطوائف المسيحية في وسط إسلامي يدل على أن الاضطهادات التي قاست منها بين الحين والآخر على يد المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التصب وعدم التسامح» [سير توماس أرنولد (الدعوة إلى الإسلام)، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط٢ / ١٩٥٧م، (ص٢٢٩، ٧٣٠)].

(٢) المصدر السابق، بتصرف.

أن يمثلها فقد دخلت في السياسة وما يرتبط بها وإلى مفردات الحياة الاجتماعية وتسربت أيضًا إلى التعليم والفن بكل أشكاله، والإعلام بشتى صوره ووسائله حتى ممارساتها العملية تداخل فيها البعد الرسمي والنخبوي مع العامي والمحلي، وغدا من المستحيل التفارقة بينهما»^(٢).

المحور الثاني: الأدوار الخارجية ودورها في تأجيج الصراعات المذهبية والعرقية:

تعتبر الأدوار الخارجية - خاصة من المحتلين - مقارنة أساسية في تفسير الأسباب والدوافع المؤدية للصراعات المذهبية والعرقية في العالم الإسلامي، وهذا ما دفع الباحث هاهنا إلى إفرادها بمحور خاص في الدراسة، وعدم إلحاقها بالمحور الأول الذي تناول مقاربات الأسباب والدوافع.

إن إثارة الصراعات الطائفية والمذهبية تأتي ضمن رؤية صراع الحضارات، والتوجه السياسي الذي تسعى القوى المهيمنة على العالم لفرضه، فقبل عشرين عام تقريباً نشر (صامويل هنتجتون) نظريته في كتابه الشهير (صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي) الذي نشره في نهاية تسعينيات القرن الماضي بعد انتهاء الحرب الباردة بين العسكريين بسقوط أحدهما وسيادة الآخر على العالم، ويشير (صامويل هنتجتون) في نظريته إلى أن الصراع القادم هو صراعات بين الحضارات (صراع ثقافي، ديني) بدلاً من الصراع الأيديولوجي الذي سار في زمن الحرب الباردة، فالشعوب التي تفصل بينها الأيديولوجيا

المناسب الذي يُسهّل له ذلك، حتى لو كان ذلك التأويل قائماً على تبني قيمة عقدية أو خلقية أو مشروعاً بعينه، فمثلاً: مشروع إعادة إحياء الملك الفارسي القديم وجد من مسألة نشر مذهب التشيع الإمامي الاثنا عشريّ، وجد مطيته التي يتحرك بها بين شيعة الخليج بل وغيرهم من عموم المسلمين، بحيث يقدم نفسه صاحب مبدأ وعقيدة لا طالب حكم وسيطرة.

٥- وجود الأقليات، «ثمّة علاقة وثيقة بين التوتر المذهبي أو الطائفي وبين مسألة الأقليات... ونقصد بالأقلية معناها السياسي، أي الشريحة التي تحصل على حقوق أدنى قليلاً أو كثيراً من المستوى المتوسط لبقية المجموعات في البلد نفسه.. صحيح أن وجود الأقلية ليس مشكلة ولا يولد مشكلات في أكثر أقطار العالم، لكنه على أي حال يمثل احتمالاً يستدعي التدخل المبكر للحيلولة دون ظهور المشكلة أو تفاقمها.

من هذه الزاوية فإن التنازع المذهبي/ الطائفي لا يستمد وقوده من الوصف الديني أو المذهبي للأقلية - فقط -، بل من كون الجماعة أقلية تعامل على نحو مختلف عن بقية المواطنين»^(١).

٦- تحول الطائفية إلى ظاهرة وثقافة في بعض الدول (العراق نموذجاً)، «فهي ظاهرة لأنها لم تعد مجرد ردود أفعال عفوية، وليست كذلك من قبيل ما يتهامس به الناس هنا أو هناك بالسر والعلن في إطار محدود... وهي ثقافة لأنها في الظاهر أيضاً أخذت من مفهوم الثقافة ذات الأبعاد والتشعبات التي يمكن

(١) توفيق السيف، (المسألة الطائفية: بحثاً عن تفسير خارج الصندوق المذهبي) مجلة الكلمة، بتاريخ ١٤/٦/٢٠٠٨م، نقلاً من على الرابط التالي:

www.gulfpolicies.com/index.php?option=com_content&view=article&id=177:2011-07-20-21-29-45&catid=145:2011-04-09-07-47-04

(٢) عمار المشهداني (الصراع الطائفي في العراق .. جذوره التاريخية وأبعاده القديمة والمعاصرة) موقع الألوكة، بتاريخ ٧/٧/٢٠١٣م، على الرابط التالي:

www.alukah.net/culture/1035/56925/#ixzz2eJllcX00

وصاروا منظمين في حزبين سياسيين على الأقل هما (حزب أنصار الله، وحزب الحق) يمتلكان وسائل إعلام كالصحف والقنوات الفضائية، في حين استغل السنة نفوذهم السياسي في السلطة من خلال (حزب الإصلاح) الذي يمتلك وسائل إعلامية عديدة.

أما في العراق فلعل نجاح الأمريكان بدرجة أو بأخرى في ترسيخ المعطيات الطائفية والعرقية (شيعة - سنة - أكراد)، فتح شهية بعضهم في باقي المنطقة العربية التي تشهد ثورات وانتفاضات، فتح شهيتهم للسير في الخط نفسه.

ولا يمكن هنا أن نغفل الدور الصهيوني في تلك المسألة؛ فالصهاينة معنيون تمامًا «بإبقاء حالة الانقسام والتجزئة، وبالعامل على تحقيق مزيد من التفتت للمنطقة على أسس طائفية وعرقية، بحيث يتحول هذا الكيان إلى كيان طائفي عرقي يهودي (طبيعي) بين الكيانات الطائفية والعرقية التي يسعى إلى إيجادها في المنطقة؛ سواء أكانت سنية أم شيعية أم مسيحية أم درزية أم علوية.

ولقد اهتم المسؤولون الصهاينة بمسألة الأقليات في العالم العربي، وأدعوا أن الحدود التي رسمت للمنطقة إثر الحرب العالمية الأولى لم تكن آمنة، وظلمت الأقليات العرقية والطائفية، فمنذ ما قبل قيام الكيان الإسرائيلي كان هناك اهتمام صهيوني بمشاريع التفتت والتقسيم؛ إذ دعا الزعيم الصهيوني (جابوتسكي) مثلاً إلى إيجاد دويلات طائفية عرقية تحيط بالكيان الصهيوني، وبهيمن عليها.

ومن الدراسات الخطيرة التي وُضعت في هذا الإطار دراسة (عوديد نون) -الموظف بالخارجية الإسرائيلية-، بعنوان (استراتيجية إسرائيل في الثمانينيات)؛ حيث تركز على تجزئة العالم العربي وإضعافه، أما المفكر الصهيوني (يحقيل درور) فتحدث في كتاب (استراتيجية عظمى لإسرائيل عام ١٩٩٠م) عن تقويض الكيانات العربية، وإسقاطها وتفتيتها، وإثارة الحروب والنزاعات فيما بينها،

تجمع بينها الثقافة وتقريبها.

وقد عمل الاستعمار على خلق الظروف الملائمة لتمزيق الأمة بثتى الأساليب من الدسّ والوضع والتحريك وخلق الفتن، ففضى على دولة الخلافة، واستمر على مر عدة عقود في الكيد للمسلمين، واعتمد سياسة ثلاثية تستهدف:

١- إبقاء الأمة على تخلفها العلمي والاقتصادي والثقافي والتعليمي، وغير ذلك.

٢- إشاعة الحالة العلمانية الغربية على الروح الإسلامية في العالم الإسلامي إلى جانب تحريك النزاعات القومية والعنصرية.

٣- تمزيق العالم الإسلامي إلى دول وشعوب متفرقة، وتحريك النزعات المذهبية الجغرافية والقومية والعنصرية حتى التاريخية، كل ذلك خوفاً من هاجس الوحدة الإسلامية الذي كان يجري الحديث عنه منذ ظهور جيل ما بات يُعرف بالصحوّة الإسلامية منذ زمن السبعينيات في القرن الميلادي الماضي.

ويمثل التدخل الخارجي بصفة عامة أحد أهم عوامل تفجّر النزعات المذهبية والعرقية في بعض الدول الإسلامية، فالدعم الإيراني للحوثيين منذ عام ٢٠٠٤م في اليمن ضد حكومة صنعاء، بل دعم عودة انفصال الجنوب اليمني عن شماله، على الرغم من أن سكان الجنوب اليمني من السنة، وعلى الرغم من أن التعايش ساد بين سكان اليمن عدة قرون بلا مشاكل تُذكر، كان هذا الدعم عاملاً في الحثّ على نشوب الصراع ابتداءً، ثم في تطويل أمدّه، بل كان مدعاة لتدخل خارجي أوسع في اليمن؛ حيث خاضت السعودية - التي لا تريد أي نفوذ إيراني عند حدودها الجنوبية- حرباً ضد الحوثيين، ونتيجة تلك التدخلات الداعمة والمساندة، وبرغم وقف القتال منذ العام ٢٠٠٩م، إلا أن الحرب السياسية والإعلامية بين اليمنيين قد تصاعدت وتيرتها، وأخذت أشكالاّ عدة؛ حيث انتظم الحوثيون في نشاطهم السياسي

حيث حاول نظام الأسد، منذ الأيام الأولى للثورة، أن يعطيها بُعداً طائفياً، ولم تتجح تلك المحاولات، لكن دخول إيران و«حزب الله» على الخط في نصره النظام عسكرياً، عمّق الانقسام، ومع وجود حركات إسلامية جهادية في صفوف المعارضة جعل الموقف يشتعل وينذر بحرب طائفية تطول المنطقة، ولم يعد من الآثار المترتبة على ذلك هو -فقط- إخفاق كل مشاريع الوحدة الإسلامية وتراجع الدعوات لها، ووجود فرق إعلامية طائفية لها أدواتها التي يُجيش بها الأتباع، وبأليت الأمر يقف عند هذا الحد، فالترابط العقدي الإسلامي كفيل بإيجاد نوع من التعاون والتسيق في حالة التشرذم السياسي للدول، ولكن الأخطر هو إيجاد حالة دائمة من الفرقة والقطيعة المبنية على عدائية تنافسية تصارعية بين المسلمين (في الدولة الواحدة أو بين الدول المتعددة)؛ بحيث تمنع تلك الحالة من وجود أيّ تعاون أو تسيق في المستقبل، وهو أمر في النهاية ينعكس على الحالة السياسية.

وللصراعات المذهبية والعرقية في العالم الإسلامي تداعيات في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ولكننا هنا سنقتصر على عرض تلك التداعيات السياسية فقط، وذلك تبعاً لطبيعة البحث السياسية.

ويمكننا أن نجمل أبرز تلك التداعيات السياسية فيما يلي:

١- تصاعد الدعوات الانفصالية، وتكوّن دويلات متناحرة، وذلك سيؤدي في النهاية إلى تفتت المُفتّت وتجزئة المُجَزَّأ، وهو سيناريو مُرَجَّح في الحالة السورية.

أما في السعودية فتصاعد أحياناً وتيرة احتجاجات الشيعة في شرق السعودية -لاسيما في القطيف والأحساء- استغلالاً للأحداث العالمية^(٢) أو الإقليمية^(٣)، وتظهر حينئذ أصوات تطالب بالانفصال والانضمام إلى البحرين؛ ورحيل قوات (ذرع الجزيرة)

وتفتت المجتمعات العربية من الداخل عن طريق دعم الأقليات غير العربية وغير المسلمة.^(١)

ويعتبر مؤتمر (هرتسلييا) السنوي أحد أهم منابر الصهيونية في تخطيط وتوجيه السياسات المستقبلية للكيان الصهيوني.. وخلص المؤتمر الأخير الذي عُقد في تل أبيب في الفترة من ١١ - ١٤ مارس ٢٠١٣م إلى أن المتغيرات التي تشهدها المنطقة توجب على قادة الاحتلال بلورة صفقة شاملة للشرق الأوسط تساعد الكيان الصهيوني على لعب دور إقليمي ببناء. ويدعو التقرير الذي خلص إليه المؤتمر إلى ما يسميه (تطوير سياسات خارجية خلاقة تستطيع أن تحرف مسارات تاريخية غير مرغوب فيها نحو المرغوب فيه)، وأوصى ذلك المؤتمر أيضاً بتأجيج الصراع المذهبي في المنطقة من أجل تحقيق أمن الكيان الصهيوني الغاصب، ونص على أنه من الضروري تكريس الصراع الطائفي!

إن الهدف الرئيس من ذلك العرض هو تبييه الجماهير المسلمة، وفي القلب منها جماهير دول الربيع العربي وقادتها، تبييههم للمخططات التي تُحاك لهم ليليل، وإلى المصائد الطائفية والعرقية التي تُوضع في طريقهم؛ حتى تتعامل معها الأمة بالحكمة والحزم اللازمين، وبدرجة من المسؤولية التاريخية المطلوبة.

المحور الثالث: الصراع المذهبي والعربي وتداعياته السياسية:

لو نظرنا إلى مسار الثورات في دول الربيع العربي نجد أن محاولة تمزيق الشعوب جرّيها بعض الحكام السابقين لهذه الدول، تارة باتهام المعارضة بالعمالة للخارج، وتارة باتهامهم بالإرهاب وتحميلهم مسؤولية الضرر الاقتصادي بقصد تأليب المجتمع عليهم، غير أن ما حدث في سوريا كان له تأثير عميق على الأمة؛

(١) محسن محمد صالح، مقال (قراءة في دعاوى التفتت الطائفي والعربي) الجزيرة نت، بتاريخ ١/٢٧/٢٠١٣م، على الرابط التالي: www.aljazeera.net/opinions/pages/fl82047f-bcac-43fb-91fb-56a2dc9efef9

(٢) مثل: حرب بوش (الابن) على الإرهاب.

(٣) مثل: ثورات الربيع العربي.

عن الأخيرة.

انفصالية جديدة، فإن تصاعد وتيرته واتساع نطاقه إقليمياً، وارتباطه بتجدد نشاط الحركات الجهادية في سوريا تحت مظلة الجيش السوري الحر، يُعتبر أحد أبعاد التحول في الظاهرة الانفصالية.^(٣)

٥- الحركات العرقية أو المذهبية -برغم كونها حركات داخلية- إلا أنها كثيراً ما تتمخض عن آثار دولية مهمة، فهي تهدد استقرار الدول في علاقاتها الخارجية، فالحركة في جامو وكشمير كان لها دور فيما يتصل بتأجيج الصراع بين الهند وباكستان، والحركة الشعبية لجنوب السودان كان لها دور في تأجيج خلافات السودان مع جيرانه، وذلك

قبل أن تتجح في الانفصال!

٦- التأثير على الأوضاع داخل العديد من البلدان الإسلامية، فضلاً عن كون تلك الصراعات أضرت بشدة باستقلال القرار السياسي للعالمين العربي والإسلامي؛ فقد أعطت أيضاً الفرصة لدول الغرب للتدخل في شئون بلدان العالمين العربي والإسلامي، واستخدام قضايا الأقليات العرقية كمسماز جحا للابتزاز والهيمنة على الثروات، ووقف مشاريع الإصلاح والتنمية والنهضة، وليس أدل على ذلك مما يحدث في دارفور والعراق، وغيرهما.

المحور الرابع: نحو استراتيجية لاستيعاب قضية الصراع المذهبي والعرقى في العالم الإسلامي:

إن الحديث عن استراتيجية لاستيعاب تلك الصراعات في العالم الإسلامي تتطلب منا بداية محاولة استشراف للمستقبل؛ محاولين التنبؤ بإمكانية استمرار الصراع المذهبي والعرقى من عدمه، وما يترتب عليه من مشاريع التقسيم أو الانفصال، وما

وفي العراق، استمعنا منذ فترة ليست ببعيدة إلى تهديدات مسعود برزاني رئيس إقليم كردستان العراق بالانفصال، على خلفية تفجّر الخلافات بين الإقليم والحكومة العراقية حول التعاقدات النفطية وتقاسم العائدات.

الحركات العرقية أو المذهبية -برغم كونها حركات داخلية- إلا أنها كثيراً ما تتمخض عن آثار دولية مهمة، فهي تهدد استقرار الدول في علاقاتها الخارجية.

٢- صعود النموذج الفيدرالي، بل تكريسه كنموذج للتسوية المؤقتة للتناقضات الإقليمية: فبعد تطبيقه مع كردستان العراق، بات هذا النموذج الاتحادي مطروحاً بقوة، كآلية لتسوية المطالب الانفصالية، لا سيما في حالتي

اليمن وليبيا، خصوصاً أن نموذج الدولة الموحدة لم يعد هو الاتجاه السائد؛ بسبب تراخي قبضة الدولة المركزية، إثر الثورات العربية.^(١)

٣- بروز دور الميليشيات: إذ ازدادت عمليات تكوين الميليشيات الانفصالية، على غرار قوات (البشمركة) الكردية في العراق، وهو المسار ذاته الذي بدأ الأكراد والعلويون والسنة في سوريا والحوثيون في اليمن اتباعه، وهو ما فعله حزب الكتائب المسيحي في لبنان.^(٢)

٤- تفجّر العنف الداخلي والتوجه نحو الحرب الأهلية: حيث تميل حركات انفصالية إلى توظيف العنف من أجل تحقيق الانفصال على غرار نموذج حزب العمال الكردستاني في تركيا، والجيش الشعبي لتحرير جنوب السودان، وحركة تيمور الشرقية في إندونيسيا، وعلى الرغم من أن العنف ليس آلية

(١) محمد عبد الله يونس (مأزق الدولة.. تداعيات تفجّر النزاعات الانفصالية في الشرق الأوسط) المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية بالقاهرة، بتصرف، بتاريخ ٢٠١٢/١١/١٨، نقلاً من على الرباط التالي:

<http://adenalghad.net/news/21339/#.Ui3eINLwle0>

(٢) المصدر السابق، بتصرف.

(٣) المصدر السابق، بتصرف.

ولأننا نرى أن الصراعات الطائفية يكون قمة نجاحها في تحقيق الانقسام والتفتت؛ فلا بد أن نجيب على سؤالين مهمين لنستشرف منهما المستقبل:

أولهما: هل هناك احتمال لنجاح مشاريع التقسيم والتفتت الطائفية في المستقبل؟

والجواب هو: نعم، وذلك نظراً لما يلي:

١- أسباب ودوافع ظهور الصراعات العرقية والمذهبية التي ذكرناها في هذا البحث هي في حد ذاتها عوامل قد تدفع باتجاه إيجاد أرضية لإنجاح هذه المشاريع، ناهيك عن الدعم الصهيوني والغربي لمشاريع التفتت.

٢- انتشار (عدوى) الدعوة للدولة القطرية في عالمنا الإسلامي للتعبير عن الهوية، فلم يعد إيجاد دول قطرية أمراً قسرياً يفرضه المحتل، بل صار لدى بعض المسلمين فكراً وهدفاً يتم السعي لتحقيقه.

٣- تخوُّف بعض النظم المستبدة الفاسدة التي لا تمثل الإرادة الشعبية، من عواقب تخليهم عن الحكم لصالح الفئة التي تختارها الأغلبية.

٤- استناد بعض الأنظمة إلى الحكم العسكري الدكتاتوري المستبد، الذي نكّل بالجميع عرباً وكرداً، وأمازيغ وسنة، وشيعة وغيرهم.

٥- ضعف بعض الأنظمة المركزية، وعدم استقرارها، ومرور بعضها بمراحل انتقالية في أزمان الثورات.

هي احتمالات النجاح والإخفاق لمشاريع التفتت تلك؟

إذا ما حاولنا باختصار التعرف على رؤية بعض الباحثين الغربيين لمستقبل الصراعات الإثنية بعمومها في العالم نجد أن (جيرري مولر) أستاذ التاريخ بالجامعة الكاثوليكية الأمريكية، قد ذهب في عدد مجلة فورين أفيرز (أبريل ٢٠٠٨م) إلى أن الإثنية/ القومية هي موجّه المستقبل، وإلى أنها ستؤدي إلى بروز كيانات سياسية جديدة وكثيرة، ولكن بعض الباحثين السياسيين على رأسهم (جيمس هيباري مانا)

قد ردوا عليه في مقالة نقاشية عن مستقبل القوميات الإثنية في القرن الواحد والعشرين، ورأى أن ذلك الادعاء ليس صحيحاً؛ لأن الذهاب إلى أن كل إثنية من حقها أن تكون لها دولة، قد تسبّب في الاضطراب عبر التاريخ.

وقد شجع (وودرو ويلسون) في أطروحته (حق الشعوب في تقرير مصيرها) على هذا الأمر

(إنشاء تقسيمات إثنية جديدة)؛ لاعتقاده أن النزاعات الإثنية كانت سبباً في اندلاع الحرب العالمية الأولى، ولذلك فهو يتعجب مما جرى بعد الحرب الأولى؛ حيث تجمعت عدة إثنيات في دولة واحدة مثل هنغاريا وإيطاليا والاتحاد السوفييتي، وهو ما يراه يزيد من الصراع.^(١)

ولذلك فلا عجب أن نجد أن تلك النظرة المستقبلية لاستمرار الصراعات الطائفية في العالم الإسلامي، قد ظهرت في دراسات وتحليلات منشورة في الصحف وبعض المواقع الإلكترونية في العشر سنوات الأخيرة.^(٢)

١- فريد موهيتش (مسلمو مقدونيا: تحديات ومستقبل غير واضح المعالم) مركز الجزيرة للدراسات، بتاريخ ٢٥/٨/٢٠١٢م، على الرابط التالي: <http://studies.aljazeera.net/repors/2013/08/201382595914924635.htm>

٢- محمد زروال (الحركة الأمازيغية بالمغرب: عيون على المستقبل بتاريخ ١٠/١/٢٠١٢م، على الرابط: <http://www.lakome.com>

(١) انظر: مقال (الصراعات الإثنية، هل هي صراعات المستقبل؟)، مجلة التسامح، نقلاً بتاريخ ٦/٩/٢٠١٣م، على الرابط التالي: <http://www.altasamoh.net/Article.asp?Id=530>

(٢) من أمثلة ذلك:

والعرقية) بالجملة تتوق إلى العودة إلى نموذج الدولة الإسلامية الواحدة؛ إذ يمكن للهويتين الإسلامية والعربية أن تكونا إطاراً جامعاً من خلال التركيز على المشترك الذي يجمع الناس ولا يفرقهم.

٣- لا تزال التيارات الإسلامية الوطنية -حتى لو تعثرت أو فشل بعضها- تحافظ على دعوتها للوحدة وعودة الخلافة من خلال مشروع نهضوي حضاري.

٤- لا تملك كل مشاريع الانفصال في العالم الإسلامي المكون الديمغرافي والجغرافي الذي يساعدها على ذلك.

٥- هناك بعض الدوائر الغربية تخشى من خروج مشاريع الانفصال عن السيطرة الغربية؛ فقد يؤدي ذلك إلى انهيار أنظمة حليفة للغرب وحلول أنظمة أخرى مكانها ربما تكون غير حليفة، أو تصعد قوى إسلامية متطرفة -حسب رأيها- إلى سدة الحكم.

مقاربات حل الصراعات العرقية والمذهبية:

بعيداً عن اقتراب التقسيم والتفتت للدول القطرية كآلية تفكيك للدولة وإعلان الهزيمة والفشل في حل الصراع، بعيداً عن ذلك هناك عدد من المقاربات الحديثة والتقليدية يمكن الاعتماد عليها وعلى آلياتها كسيناريوهات لحل الصراعات العرقية والمذهبية في العالم الإسلامي، وقد رتبها الباحث هنا ترتيباً تنازلياً بحسب الأمتل فالأمتل؛ لأن النجاح في حل تلك الصراعات مرهون نسبياً بابتعادنا عن شبح التقسيم والتفتت، واقترابنا من الوحدة والتآلف والسلام؛ فالأمة الإسلامية إذا كانت غير قادرة في الزمن الراهن على التجميع والتوحد، فليس أقل من أن تكف عن الفرقة والتشردم بأي صورة من الصور.

أولاً: اقتراب السلام:

هو توافق الجميع حول ترتيبات معينة تتضمن اتفاقاً يُرضي جميع الأطراف، ويرتكز السلام بين أطراف الصراع

٥- فشل -وربما إفشال- بعض الأحزاب المنتخبة الحاكمة في بعض الدول الإسلامية في استيعاب الخلافات العرقية والمذهبية -رغم استناد بعضها للأيديولوجية الإسلامية-، وانزلاق بعض المجتمعات التي حُكمت منها إلى حالة من التمزق الاجتماعي.

٦- تفوق المحدد الطائفي والعرقى على الهوية الوطنية أو العربية أو الإسلامية الجامعة في عدد من الأماكن المرشحة للاشتعال في العالم الإسلامي.

٧- «تظهر الأحداث عدم صعوبة جرّ الناس إلى المستتق الطائفي، وخصوصاً عند ظهور جهات متطرفة من كل فئة، واللجوء إلى العنف، والقتل على الهوية، واستهداف الرموز والأماكن الدينية، كما حدث في العراق وباكستان وسوريا ولبنان»^(١).

أما السؤال الثاني: إذا كان هناك عوامل يمكن أن تسبب نجاح مشاريع التقسيم في العالم الإسلامي، فهل هناك عوامل أخرى يمكن أن تمنع أو تثبّت أو تقلل من فرص النجاح لمشاريع التفتت المحتملة^(٢)

والجواب هو: نعم، ومن تلك العوامل ما يلي:

١- عدم وجود حالات إجماع في أوساط الجماعات الطائفية على مشاريع التقسيم، فالخوف من المجهول ربما يسيطر على بعضهم، والبعض الآخر يرفضون أن يكرروا تجربة إنشاء كيانات هزيلة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً (دولة جنوب السودان، مثلاً)، هذا بالإضافة إلى وجود فئة ثالثة -أحياناً- ترى أن تكون الأقلية العرقية فاعلاً رئيساً في الدولة الموجودة فيها وفي مشاريع تميمتها، بدلاً من الدخول في حالة عداء مع باقي مكونات الدولة.

٢- لا تزال عموم جماهير المسلمين (المذهبية

(١) محسن محمد صالح، (مواجهة مشاريع التفتت الطائفي والعرقى) الجزيرة نت، بتاريخ ٢٠١٣ / ٢ / ١٠م، على الرابط:

<http://www.aljazeera.net/opinions/pages/20df47f2-e7cf-4fdf-b57d-4abc499eaa68>

(٢) المصدر السابق، بتصريف، وإضافات.

على المقاربات التالية:^(١)

١- نظرية صنع السلام peace maker théorie بكل الوسائل السلمية.

٢- نظرية حفظ السلام، وذلك بحفظ كل العمليات والإجراءات التي تمنع تفجر الصراع من جديد.

٣- نظرية فرض السلام، من خلال وجود طرف ثالث ممثلاً في دولة أو دول أو منظمة دولية.

ثانياً: اقتراب تحويل الصراع Conflict Transfor- mation^(٢):

يشير هذا الاقتراب إلى ضرورة العمل على تغيير الأيديولوجيا والأفكار، أو الوضع الاقتصادي، أو النظام السياسي في بلد ما قبل اللجوء إلى حل الصراعات، وهو ما يساعد على الأقل في منع تحول الصراع إلى منحى عنيف، وتعد أفكار نشر الديمقراطية وحقوق الإنسان، وتغيير الأنظمة، وأفكار ما يُعرف بـ (تدريس السلام) في المناهج التعليمية هي بعض الأمثلة على استراتيجيات تحويل الصراع، والتي هي محور الكثير من برامج الجمعيات غير الحكومية الأوروبية والأمريكية المانحة في المناطق العربية والإسلامية، ولعل حرب العراق كانت في جزء منها تجربة كبرى لفكرة (تحويل الصراع)، بواسطة تغيير النظام وقيادته.

ثالثاً: المقاربة التقليدية القبلية أو العشائرية:^(٣)

أدت المقاربات التقليدية في كثير من المراحل

التاريخية السابقة أدواراً في حل الصراعات أو الحد من تفاقمها، وهي تعتمد على القيم المحلية ومستويات السلطة المعنوية للأعيان وكبار القوم، وتفعيل بعض المبادئ المتوارثة، كمبدأ (ابسط يدك للآخر)، و(احمل كفنك لعدوك).

رابعاً: التوافقية على الديمقراطية والمواطنة:

تقوم هذه المقاربة على التشارك في التمثيل السياسي واتخاذ القرارات، سواء على مستوى الأقاليم أو على مستوى المركز، وتقوم على مبدأ قبول التعددية مع ضمان الحقوق والحريات لكل الجماعات.

كما تقوم على (المواطنة)، واعتبارها الأساس الأكثر أهمية في تحقيق المصالح المشتركة، وخلق شكل من أشكال العقد الاجتماعي الصحيح الذي يؤدي إلى كسب قاعدة اجتماعية عريضة موحدة.^(٤)

خامساً: المقاربة الإقليمية (الفيدرالية):^(٥)

تنشأ الدولة الفيدرالية بإحدى طريقتين:

١- انضمام عدة ولايات أو إمارات أو دول مستقلة تتنازل كل منها عن بعض سلطاتها الداخلية، وسيادتها الخارجية، فتتوحد لتكون دولة فيدرالية. (اتحاد ماليزيا، مثلاً).

٢- تفكك دولة موحدة إلى عدة وحدات ذات كيانات دستورية مستقلة، ثم بناء دستور فيدرالي يتم توحيد هذه الوحدات فيه على أساس آخر وهو الفيدرالية، وهذا هو محل قصدنا في هذه الدراسة.

وتعد الطريقة الثانية هي المطبقة في العراق، وقد سُرعَت الفيدرالية دستورياً فيها، وتم تقسيم العراق إلى ثلاث مناطق أصبحت لها ضرائبها وعملتها ومليشياتها، فضلاً عن مؤسساتها التنفيذية

(١) بشير شايب، مصدر سابق، وهو منقول عن: د. محمود أبو العنين (إدارة وحل الصراعات العرقية في إفريقيا)، الدار الجامعية للنشر والتوزيع، ليبيا، ط١ / ٢٠٠٨م، (ص ٦٠، ٦١).

(٢) د. أحمد جميل عزم (تحويل الصراع «اقتراب غير صفري» لإدارة نزاعات ما بعد الثورة العربية) مجلة السياسة الدولية، نقلاً بتاريخ ٢٠١٣/٩/٦م، على الرابط التالي:

<http://www.siyassa.org.eg/NewsContent/3/134/2769>

(٣) بشير شايب، مصدر سابق، بتصرف، وهو منقول عن: د. محمود أبو العنين (إدارة وحل الصراعات العرقية في إفريقيا)، مرجع سابق (ص ٤٨، ٥١).

(٤) المصدر السابق، بتصرف، وانظر فيه أيضاً: خصائص الديمقراطية التوافقية.

(٥) المصدر السابق، بتصرف.

وبيئته أكثر من التسمر أمام المشكلات نفسها.^(١)

إن بعض الإسلاميين يرى أنه لا يمكن بمكان أن يلتقي أصحاب فكرة الدولة الأمة (دولة الخلافة) مع مبدأ (المواطنة) والذي هو عنصر رئيس من عناصر الدولة القطرية الحديثة (كما هي في النموذج الغربي)؛ لأنها في واقعنا الإسلامي دولة تجزئة ترسخ لواقع الانقسام الإسلامي بل وتشعره بدلاً عن دولة الوحدة الإسلامية، وبعيداً عن جدلية قبول مبدأي (الديمقراطية والمواطنة) من عدمه بين الإسلاميين وبين الغربيين ومن قلدتهم في العالم الإسلامي، فإن الباحث يرى أن مبدأي الديمقراطية والمواطنة قد تم قبولهما من الإسلاميين بمعان

جديدة بعيدة عن فلسفتها الغربية وما تحمله من مخالفات للمبادئ الإسلامية - وهو أمر بالجملة مقبول - فالديمقراطية مقبولة على أنها مجرد آلية سلمية لتداول السلطة، ومبدأ (المواطنة) مقبول من حيث كونه أدباً للعلاقات في المجتمع المسلم، والتي تهدف في النهاية إلى إقامة الحقوق التي

جاءت بها الشريعة الإسلامية في إطار المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان من خلال علاقاته مع عناصر هذا المجتمع - دولة ومؤسسات وأفراداً -.

وبناء على ما سبق فإننا لا نستحي أن نسمي التسميات بأسمائها، ونقول: إن المقاربة الإسلامية التي ندعو لها تقوم على مزج فكرتي حل الصراع، والوقاية من الصراع، لتعني الوصول إلى أصل المشكلات، واتخاذ إجراءات لتفادي الصراع في المستقبل^(٢)، بما في ذلك التغيير في المؤسسات والسياسات الاجتماعية.

والتشريعية، وبسقوط بغداد تمددت صلاحيات الإقليم الشمالي (الكردي) أكثر فأكثر، حتى وصلت إلى فتح مكاتب لتمثيل الإقليم في الخارج والتعاقد المباشر مع الشركات الأجنبية للاستثمار فيه دون مشاورة الحكومة، ومنع دخول الجيش العراقي فيه إلا وفق ضوابط محددة، وتعتبر تلك الصورة الفيدرالية في العراق من أسوأ الصور؛ لدرجة تكاد تشعر معها بأن ما حدث هو تقسيم وليس اتحاداً فيدرالياً.

مقاربة مقترحة:

من خلال هذا البحث يمكن أن نقترح مقاربة نراها ناجزة لاحتواء تلك الصراعات وتجنبها في المستقبل،

وهي مقاربة يمكن تسميتها بـ(المقاربة الإسلامية)، وهي كما يظهر من اسمها عبارة عن تجديد وإحياء لدور الروح الإسلامية التي غابت في حل الصراعات، مع الاستعانة بما في العلوم السياسية المعاصرة من آليات.

وابتداءً: يظهر لي من مجمل آراء كثير من الباحثين العرب

والأجانب لمسألة الصراعات الإثنية ذات الأبعاد المركبة - كما أوضحت سابقاً - أنه من الممكن أن يحدث مزج بين اقتربات السلام، وتحويل الصراع، والتوافقية على الديمقراطية والمواطنة، على أن يكون اقترب تحويل الصراع هو العنصر الرئيس الذي يتم دمج الاقتربين الآخرين فيه؛ وذلك لأن «اقترب (تحويل الصراع) ينطلق من أن (إدارة الصراع) هي عملية احتواء مؤقتة، وتتطلب من أن (حل الصراعات) عملية معقدة، لذلك تنصب الجهود على إجراء تغيير في السياقات الاقتصادية، والاجتماعية، وفي تغيير أطراف الصراع، بإحداث تغييرات في السلوك والأيدولوجيا والاتجاهات، أي بكلمات أخرى، يتم التركيز على أطراف الصراع

(١) د. أحمد جميل عزم (تحويل الصراع... مصدر سابق، بتصرف.

(٢) يلاحظ أن فكرة الوقائية لا تتسجم دائماً مع فكرة حل الصراع، فالوقائية قد لا تعني منع التجدد التام للصراع، وإنما هي مجموعة أدوات تُستخدم من أجل منع وحل الخلافات قبل أن تصبح صراعات محتدمة.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ٩، ١٠)، وحينئذ فقط تعلق قيمة الانتماء الحضاري الإسلامي؛ حيث يمكن حشد الطاقات العلمية والفكرية للمجتمعات الإسلامية لإعادة البناء والتقدم نحو المستقبل.

إن الوحدة تبدأ من داخل الإنسان الذي ما لم يغيّر ما بنفسه فإن الله لن يغيّر ما بواقعه، وما لم يترفع الإنسان عن أنانيته ورغباته ونزواته في حب التسلط والتملك والتحكم بمصائر الناس واستعبادهم فإن مصير الوحدة وتماسك المجتمع سيبقى مهدداً؛ لأن مجتمع الوحدة مجتمع تسوده القيم وتحكمه الأخلاق، فما أوجنا اليوم إلى الرجوع إلى قول

الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا

كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران ١٠٣).

إن استحضار تجربة الإسلام في صهر الأعراق، واستيعاب الأقليات، والتعاون بين أصحاب المذاهب الفقهية، وتسخير ذلك كله في خدمة الدعوة الإسلامية هو الأمل الوحيد لإنقاذ الأمة من المأزق الشديد الذي تعاني منه، فلا بد من وجود أسس تكاملية للتعايش على أساس الإسلام.

النتائج والتوصيات:

أولاً النتائج:

١- تعددت وتنوعت مقاربات التعرف على جذور الصراع المذهبي والعرقى في العالم الإسلامي، فشملت منظومة متكاملة داخلياً وخارجياً، ويعتبر البعد الخارجي للصراعات (سواء من خارج القطر أو من خارج العالم الإسلامي كله)، يعتبر من أقوى تلك الجذور.

٢- تحمل جذور (الأسباب والدوافع) ذلك الصراع في ذاتها، مسوّغاً لبقاء تلك الصراعات في مستقبل الأمة القريب على الأقل، وإن كان ذلك لا يسلم من عوامل أخرى مثبّطة ومُفسّلة لنجاح تلك الصراعات

إن هذه المقاربة الإسلامية لا بد أن تستفيد أيضاً من أيّ مقاربة أخرى -كالمقاربة التقليدية العشائرية- لها وسائل لا تتعارض مع الإسلام، أو أي وسائل أخرى تم أسلمتها.

إن استحضار تجربة الإسلام في صهر هذه الأعراق، واستيعاب الأقليات، والتعاون بين أصحاب المذاهب الفقهية، وتسخير ذلك كله في خدمة الدعوة الإسلامية هو الأمل الوحيد لإنقاذ الأمة من المأزق الشديد الذي تعاني منه، فلا بد من وجود أسس

تكاملية للتعايش على أساس الإسلام الذي يعطي كل ذي حق حقه دون تمييز أو إجحاف، والذي يرفض استثثار الأغلبية الطائفية أو الإثنية بكل شيء وحرمان من سواها، كما يرفض المحاصصة السياسية على أسس طائفية، ويؤمن بالحياد المذهبي في صنع السياسات العامة، وإيجاد مؤسسات عابرة للإثنيات

والمذاهب والمساواة أمام القانون، ويدعو للحوار بين الناس جميعاً -ناهيك عن المسلمين-، حوار شامل قائم على تحقيق العدالة والمساواة، حوار يقود إلى تشكيل حكومات قادرة على فرض القانون العادل على الجميع وقيام الدولة بوظيفتها، وحينئذ يمكن النقاش حول فكرة قيام رابطة الجوار (عبر الجامعة العربية وعبر منظمة المؤتمر الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي) للحوار بين العرب والترك، والفرس والأكراد، والأمازيغ من جهة، أو بين السنة والشيعة من جهة أخرى، ويمكن أيضاً التوصل لحلول ناجزة للصراعات حتى لو كان الأمر قد تطور لاستخدام العنف واللجوء للقتال،

وذلك في ضوء قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِإِن طَافْنَا نِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَلَوْا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَهُمَا عَلَى الْآخَرَىٰ فَقْتَلُوا أَنِي تَبَعِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ

في تحقيق هدفها الأكبر(التقسيم والتفتيت)!

الحياة السياسية.
- تأكيد الحلول السياسية والقانونية البديلة
للصراعات.

٣- تلك الصراعات تداعيات سياسية كارثية على
الأمة، ذكرناها في حينه من البحث.

- يمكن أن تقوم المقاربة الإسلامية المقترحة على
المزج بين ثلاثة اقترابات: (السلام، وتحويل الصراع،
والتوافقية على الديمقراطية والمواطنة)، على أن يكون
اقتراب تحويل الصراع هو العنصر الرئيس الذي يتم
دمج الاقتراابين الآخرين فيه، ولا بد من الاستفادة
أيضاً من أي وسائل أخرى تم أسلمتها، أو أي مقاربة
أخرى (كالمقاربة التقليدية العشائرية)، فلها وسائلها
التي لا تتعارض مع الإسلام، وذلك كله مع مزج فكري
حل الصراع، والوقاية من الصراع، في تلك المقاربة
الإسلامية؛ لتعني الوصول إلى أصل المشكلات،
واتخاذ إجراءات لتفادي الصراع في المستقبل، بما في
ذلك التغيير في المؤسسات والسياسات الاجتماعية.

٤- مقاربة (التقسيم والتفتيت) كوسيلة لحل
الصراعات المذهبية والعرقية في العالم الإسلامي،
هي مقاربة مرفوضة إسلامياً، فالإسلام يحث على
الاتحاد، كما أن تلك المقاربة كحل تمثل قمة نجاح
الصهاينة وبعض الدوائر الغربية في الحصول على
أهدافها من إزكاء تلك الصراعات.

٥- هناك عدد من المقاربات يمكن أن تصلح كحلول
للصراعات المذهبية والعرقية، تم ذكرها داخل البحث
مرتبة حسب الأمتل فالأمتل.

٦- إن استحضار تجربة الإسلام في صهر هذه
الأعراق، واستيعاب الأقليات، والتعاون بين أصحاب
المذاهب الفقهية، وتسخير ذلك كله في خدمة الدعوة
الإسلامية؛ هو الأمل الوحيد لإنقاذ الأمة من المأزق
الشديد الذي تعاني منه.

- ضرورة وجود أسس تكاملية للتعايش على أساس
الإسلام الذي يعطي كل ذي حق حقه، دون تمييز أو
إجحاف، والذي يرفض استئثار الأغلبية الطائفية
أو الإثنية بكل شيء وحرمان من سواها، كما يرفض
المحاصصة السياسية على أسس طائفية، ويؤمن بالحياد
المذهبي في صنع السياسات العامة، وإيجاد مؤسسات
عابرة للإثنيات والمذاهب والمساواة أمام القانون.

ثانياً التوصيات:

١- إعادة إحياء ما يمكن تسميته بالمقاربة
الإسلامية، كاستراتيجية تساعد على وضع أسس
ومبادئ تحكم المرحلة المقبلة، وتقوم بحل الصراعات
العرقية والمذهبية في العالم الإسلامي.

- لا بد من الحوار الشامل القائم على تحقيق
العدالة والمساواة بين الناس جميعاً، الذي يقود إلى
تشكيل حكومات قادرة على فرض القانون العادل على
الجميع، وقيام الدولة بوظيفتها.

٢- ويمكن أن تكون تلك الاستراتيجية متمثلة فيما
يلي:

- ضرورة إدارة نقاش إسلامي حول قيام (رابطة
الجوار) كآلية لحل الصراعات العربية والإسلامية،
ويمكن أن تُقام تلك الرابطة عبر الجامعة العربية، وعبر
منظمة المؤتمر الإسلامي ورابطة العالم الإسلامي.

- العمل على إعادة تعريف أطراف الصراع، وهو
ما يعني تمثيل جميع القوى الموجودة داخل العملية
السياسية.

- تجاوز بعض الصراعات أو قضايا الخلاف
الموروثة.

- تكريس فكرة الحلول غير الصفرية في

معلومات إضافية

صور من الحرب الأهلية في البلاد العربية:

١- الحرب الأهلية السودانية.. الأسباب والنتائج:

شهد السودان حرباً أهلية ممتدة، خلّفت وراءها ما يقرب من المليون قتيل، وبلداً تم تجزأته مؤخراً إلى دولتين تواجهان خطر الحرب الشاملة.

السبب الأول والأهم أن السودان بلد متعدد الأعراق والأديان، (الإسلام والنصرانية وديانات أخرى) ، وتميز هذا البلد بالتنوع العرقي؛ حيث تكون من حوالي ١٩ جماعة عرقية مختلفة وحوالي ٦٠٠ جماعة عرقية فرعية؛ حيث إن الجنوب أكثر تعددًا عرقيًا .

اندلعت الحرب الأهلية الأولى ١٩٥٥ - ١٩٧٢م، ثم الحرب الأهلية الثانية ١٩٨٢ - ٢٠٠٥م.

نتائج الحرب الأهلية السودانية:

وقوع خسائر بشرية فادحة، والتي تأتي في المرتبة الثانية بعد الحرب العالمية الثانية، وكذلك استمرار الحرب الأهلية لعقود أنهك اقتصاديات السودان، وأدى إلى تعطل التنمية والنمو على مدار نصف قرن. وأدى استمرار النزاع إلى استحالة الوضع وتوقيع اتفاق السلام في نيفاشا عام ٢٠٠٥م، الأمر الذي انتهى في ٢٠١١م بانفصال الجنوبيين.

اتفاقية السلام الشامل أو اتفاقية نيفاشا هي الاتفاقية التي أوقفت أطول حرب أهلية في إفريقيا، وقد تم توقيعها بواسطة حكومة السودان بقيادة حزب المؤتمر الوطني الذي يتزعمه الرئيس السوداني عمر البشير والطرف الآخر هو الحركة الشعبية لتحرير السودان بقيادة جون قرنق.

٢- الحرب الأهلية اللبنانية.. نكبة الطائفية:

لم تكن الحرب الأهلية اللبنانية الكبرى (١٩٧٥ - ١٩٨٩م) هي أولى الأزمات الداخلية التي عاشتها لبنان، فتاريخ لبنان مليء بالنزاعات منذ القرن التاسع عشر وحتى الآن والتي تفاوتت بين الأزمات السياسية، والصدامات المسلحة، والحروب الشاملة. فليبنان على الرغم من صغر حجمه الجغرافي، إلا أن تناقضاته الداخلية طائفياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً هي ما فرضت نفسها على واقعه المعاش، لتظل نكبة لبنان الحقيقية في طائفته التي تطل برأسها القبيح في كل أزمة تمر بها البلاد.

أسباب الحرب الأهلية:

أولاً: الطائفية وأزمة الهوية.. فلا يمكن فهم الواقع السياسي في لبنان بمعزل عن إدراك أبعاد الواقع الطائفي للمجتمع. فليبنان هي دولة «أقليات» تتكون من ١٩ طائفة، أكثرها أهمية وتأثيراً المسلمون (سنة، شيعة، دروز)، والمسيحيون (الموارنة، الأرمن، روم كاثوليك، روم أرثوذكس).

عملت قوى خارجية على ترسيخ الطائفية في لبنان منذ العهد العثماني، مروراً بالانتداب الفرنسي، ووصولاً

للاستقلال وما بعده؛ حيث دعم كل طرف طائفة بعينها بالمال والسلاح بهدف تعزيز نفوذه الاستعماري في المنطقة، وهو ما انعكس على الأوضاع التنموية في لبنان، حيث تم اختصاص طوائف بعينها بالمناصب السياسية والإدارية، ومن ثم الخدمات الأساسية والتعليم والرفاهة الاقتصادية. وقد أسهمت تلك التحيزات الخارجية في تأجيج فتن طائفية دموية في أعوام ١٨٤١ و ١٨٤٥ و ١٨٦٠م.

وامتدت الطائفية السياسية من التوزيع الطائفي للمناصب الكبرى والصغرى في الدولة إلى الحياة الحزبية في لبنان. فأغلب الأحزاب مؤسسة على الانتماءات الطائفية التي تقاطعت مع التوجهات الأيديولوجية.

ثانياً: وجود الفصائل الفلسطينية في جنوب لبنان:

حدث الاقتتال على خلفية تواجد الفصائل الفلسطينية المسلحة في جنوب لبنان متخذة منه منطلقاً لهجماتها على إسرائيل؛ حيث عارضت الأحزاب المسيحية وجودهم، واعتبرته تهديداً لسيادة لبنان خاصة مع عدم قدرة الجيش على التعامل معهم، في حين دعمت التحالفات والأحزاب الإسلامية واليسارية وجودهم وعملياتهم الفدائية باعتبارها تأكيداً على عروبة لبنان؛ وتم استخدام الوجود الفلسطيني كورقة ضغط سياسية بين القوى المختلفة.

من ناحية أخرى كان الصراع الأيديولوجي بين اليمين اللبناني (المسيحي) الذي يميل إلى المعسكر الغربي، واليسار اللبناني (المسلم) الذي يميل للمعسكر الشرقي على أشده. وقد اشتعلت الحرب بعد عدة حوادث اغتيال متبادلة كانت الفصائل الفلسطينية طرفاً رئيساً فيها، لتستمر الحرب ١٥ عاماً، دخلت خلالها القوات السورية لبنان فلم تتسحب سوى عام ٢٠٠٥م عقب اغتيال الحريري، واحتلت فيها إسرائيل جنوب لبنان فلم تتسحب سوى عام ٢٠٠٠م.

نتائج الحرب الأهلية:

تشير التقديرات إلى مقتل أكثر من ١٠٠,٠٠٠ نسمة، وما يصل من خمس السكان المقيمين ما قبل الحرب قد شردوا من ديارهم. كما أثقلت الحرب كاهل الاقتصاد اللبناني.

وبالنظر للأحداث الحالية في سوريا والاستقطاب الدولي والإقليمي والعربي بشأنها، فإن له انعكاساته على الساحة اللبنانية نتيجة تورط أطراف لبنانية محلية في دعم الأطراف المتقاتلة في سوريا، وتهريب السلاح لها، كتهريب أسلحة بدعم عراقي - إيراني إلى حكومة الأسد، فأصبحت سوريا ولبنان هدفين لوصول السلاح من مختلف الجهات المؤيدة للسلطة والمناوئة لها، الأمر الذي قد يندرج بانفجار الأوضاع في لبنان في أي وقت.

٣- حرب اليمن الأهلية ١٩٩٤م أو (حرب الانفصال اليمنية):

في ٢٢ مايو ١٩٩٠م تحقق حلم وطني يمني قديم، عندما اتحدت جمهورية اليمن العربية (المعروف باليمن الشمالي) وجمهورية اليمن الديمقراطي الشعبية (اليمن الجنوبي) وشكلتا الجمهورية اليمنية، إلا أن عملية الاندماج السياسي تعرضت لهزة عنيفة بعد أربع سنوات، وذلك مع بروز نزاع بين فئات ذات سلطة سياسية متوارثة تاريخياً وقوى اجتماعية - سياسية انفصالية، مما أدى إلى نشوب الحرب الأهلية عام ١٩٩٤م، حدثت في شهري مايو ويوليو بين الحكومة اليمنية والحزب الاشتراكي اليمني خلفت آلاف القتلى، وانتهت بهزيمة الحزب

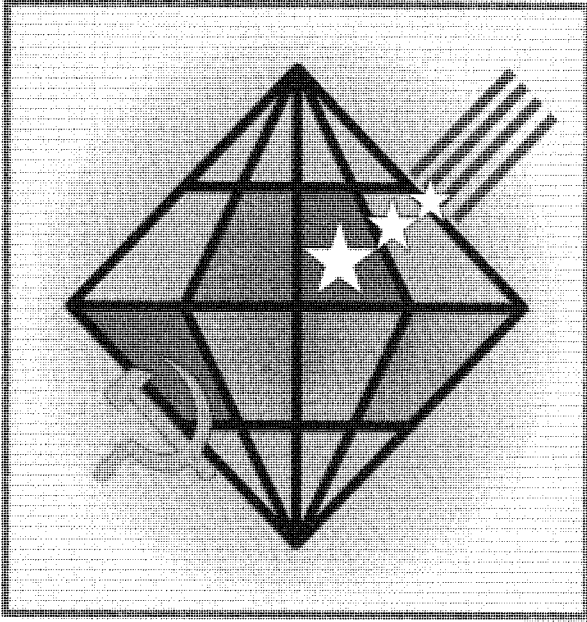
الاشتراكي اليمني وهروب قادة الانفصال لخارج البلاد، وخروج الحكومة اليمنية فيها منتصرة.

المصادر:

١- مقال بعنوان (الحروب الأهلية العربية.. قراءة استشرافية)، بوابة الوطن الإلكترونية، الرابط:

<http://www.elwatannews.com/news/details/42497>

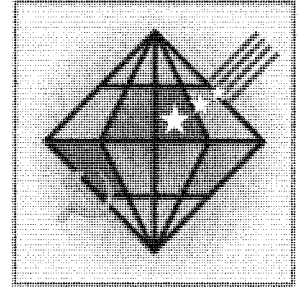
٢- دراسة بعنوان حرب اليمن ١٩٩٤م الأسباب والنتائج (مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية).



ثالثاً: التحولات السياسية الدولية

- دور المؤسسات الدولية في تعزيز الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي
- قرن من الصعود الأمريكي وأثره على النظام الدولي
- تغيير موازين القوى في أوروبا ونشوء الاتحاد الأوروبي
- الاتحاد السوفييتي بين الصعود والسقوط وأثره على العالم الإسلامي
- المعاهدات الدولية بعد الحرب العالمية الأولى.. وآثارها على العالم العربي والإسلامي
- الصراع المذهبي المسيحي وأثره على الصراع الدولي
- أحمد عمرو
- د. عصام عبد الشافي
- د. أحمد البرصان
- د. نورهان الشيخ
- د. مروة نظير هويدي
- فيصل بن علي الكاملي

دور المؤسسات الدولية في تعزيز الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي



أحمد عمرو

سكرتير تحرير التقرير الاستراتيجي، ومدير وحدة الحركات الإسلامية بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

ملخص الدراسة

باسم القانون الدولي والشرعية الدولية، تستطيع أمريكا والدول الغربية أن تتدخل في شئون الدول والشعوب، وتستطيع جعل الباطل حقًا، والحق باطلاً، والاعتداء مشروعًا!!

تحاول هذه الدراسة التركيز على محور المؤسسات الدولية، ودورها في تعزيز الهيمنة الدولية على العالم الإسلامي، ابتداء من عصبة الأمم التي أنشئت عام ١٩١٩م، وكان لها دورها في فرض الانتداب على فلسطين، وانتهاء بورثها الأمم المتحدة التي أكملت مهمة الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا، وحتى ثقافيًا وقيميًا، فكان لقراراتها عظيم الأثر في البيئة الإقليمية العربية والإسلامية مثل قضايا: فلسطين، والعراق، والبوسنة والهرسك... إلخ.

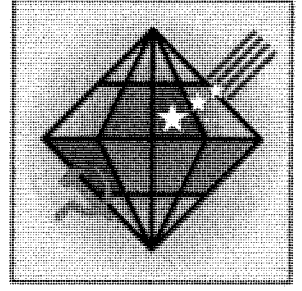
ونحن الآن على أعتاب مائة عام على إنشاء أول مؤسسة دولية، وهي عصبة الأمم، لذا فإن شعوب ودول العالم العربي والإسلامي تحتاج إلى وقفة ونظرة تقييمية لتلك المنظمات الدولية، لإصلاح شأنها بحيث تعبّر عن جموع مواقف شعوب ودول العالم المختلفة بمختلف توجهاتها وحضاراتها، وألا يكون مقصورًا فقط على التوجه الحضاري الأنجلو سكسوني دون بقية حضارات وثقافات العالم المختلفة.

وفي العام ٢٠٠٦م قدّم الأمين العام للجمعية العامة للأمم المتحدة، وقتها كوفي عنان، مقترحات كجزء من خطة إصلاح واسعة لتطوير الهيكل التنظيمي والإداري للمنظمة، وجرى الحديث حينها عن توسعة مجلس الأمن بحيث يشمل دولاً من كافة القارات، إلا أنه وللآن لم يتغير شيء على أرض الواقع، بل جرى الحديث عن تلك الإصلاحات وقتها كنوع من امتصاص غضب شعوب ودول العالم من الغطرسة والهيمنة الغربية على مؤسسات تلك المنظمة الدولية.

إن وجود هذه المنظمات -التي أُطلق عليها منظمات دولية- كان ولا يزال وبالاً على العالم ودوله وشعوبه. خاصة الصغرى منها. لذا يكمن الحل في عنصرين:

- إنشاء كتل قوي يعتمد على عنصر القوة، عسكرياً أو اقتصادياً أو توافقاً سياسياً، أو على هذه الأصعدة معاً.
- اعتماد أنظمة ومعاهدات لتحقيق «شرعية» إقليمية مرجعية للدول الأعضاء في التكتل، بديلة عن «شرعية» دولية مفتقدة في الأمم المتحدة.

دور المؤسسات الدولية في تعزيز الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي



أحمد عمرو

سكرتير تحرير التقرير الاستراتيجي، ومدير وحدة الحركات الإسلامية بالمركز العربي للدراسات الإنسانية

مقدمة:

الثورة العربية الكبرى، معاهدة سايكس بيكو، وبداية تقسيم المنطقة العربية، وعد بلفور، وبداية إنشاء وطن قومي لليهود وضياع فلسطين، محاولة الإجهاز على دولة الخلافة العثمانية، وإنهاء وجودها، إنشاء مؤسسات دولية لحماية مصالح الدول المنتصرة، كل تلك الأحداث العالمية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالحرب العالمية الأولى التي ألفت بظلال كثيفة على العالم الإسلامي وقضاياها العظمى.

وكان من أبرز تلك المؤسسات التي نشأت عقب الحرب العالمية الأولى: هيئة عصبة الأمم، ثم تلتها الأمم المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية، كان لتلك المؤسسات الدولية أدوارها في العديد من القضايا التي تخص العالم الإسلامي، فكان لقراراتها عظيم الأثر في البيئة الإقليمية العربية والإسلامية، مثل قضايا: فلسطين والعراق والبوسنة والهرسك.. إلخ.

لذا ستحاول هذه الدراسة التركيز على محور المؤسسات الدولية، ودورها في تعزيز الهيمنة الدولية على العالم الإسلامي، ابتداءً من عصبة الأمم التي أنشئت عام ١٩١٩م، وكان لها دورها في فرض الانتداب على فلسطين، وانتهاء بوريثتها الأمم المتحدة التي أكملت مهمة الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وحتى ثقافياً وقيماً.

المؤسسات الدولية.. النشأة والأهداف.

أولاً: تعريف المؤسسات الدولية:

المنظمات أو المؤسسات الدولية هي (هيئة تضم مجموعة من الدول، من خلال اتفاق دولي، يهدف إلى السعي لتحقيق أغراض ومصالح مشتركة، على نحو دائم، وتتمتع هذه الهيئة بالشخصية القانونية والذاتية المتميزة عن الدول الأعضاء فيها، في المجال الدولي).

أو هي: الهيئات والمؤسسات التي يتكون منها المجتمع الدولي، وتشارك في تفعيل إرادة الجماعة الدولية، وهي منظمات؛ لأنها تقوم على هيكل إداري وتنفيذي، وتقوم على إرادة مجموعة من الأشخاص الاعتبارية، (مثل المنظمات الدولية الحكومية) التي تتكون من الدول كمنظمة الأمم المتحدة، وغيرها من المنظمات التي تتكون من انضمام مجموعة من الدول إلى ميثاق أو اتفاقية معنية بإنشاء وعمل المنظمة.

والإنسانية، وعلى تعزيز احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للناس جميعاً، والتشجيع على ذلك إطلاقاً، بلا تمييز بسبب الجنس أو اللغة أو الدين، ولا تفرق بين الرجال والنساء.

- جعل هذه الهيئة مرجعاً لتنسيق أعمال الأمم وتوجيهها نحو إدراك هذه الغايات المشتركة.

والسؤال الآن: هل هذه هي الأهداف الحقيقية التي من أجلها أنشئت تلك المنظمات؟ وهل مارست مبادئها بشفاافية وحيادة بين جميع الدول على النحو المبين في موثيقها؟!

كانت عصبة الأمم بلورة لمحاولات بدأت بوادرها مع ما يُعرف بالأسرة الأوروبية، والتي نشأت في القرن السادس عشر كرد فعل على تنامي نفوذ الدولة العثمانية، وحاولت من خلال بعض المؤتمرات (مؤتمر واستفاليا)^(١) أن تؤسس لما عُرف لاحقاً بالقانون الدولي^(٢)؛ ذلك أن الدول الأوروبية حين شعرت بخطر الإسلام والمسلمين حين اندفعت الجيوش الإسلامية في أوروبا تفتتح بلدانها بلداً بعد آخر، ووصلت جيوشها وحاصروا فيينا في ١٥٢٩م، أصاب أوروبا الخوف والفرع، فأوجدت تكتلات فيما بينها لتتقي خطر الدولة الإسلامية. وأوجدت ما سُمي بالأسرة

أو هي: (مؤسسات وهيئات دائمة ذات إرادة ذاتية وشخصية قانونية ودولية مستقلة، تنشئها مجموعة من الدول لتعزيز التعاون فيما بينها، وتحقيق أهدافها المشتركة، ويبين ذلك الاتفاق المنشأ بينهم).

ثانياً: النشأة والأهداف:

من أبرز المؤسسات الدولية التي نشأت عقب مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩م - الذي أنهى الحرب العالمية الأولى- (عصبة الأمم)، كانت أهداف العصبة الرئيسية كما جاء في ميثاقها تتمثل في:

- عدم اللجوء إلى الحرب. ضمان الأمن المشترك بين الدول.
- تأسيس العلاقات الدولية على أساس قواعد العدل والشرف.
- التقيّد بقواعد القانون الدولي.

هكذا جاءت ديباجات الأهداف التي من أجلها أنشئت تلك المنظمة.

ومثلها جاءت الأهداف التي من أجلها أنشئت الأمم المتحدة:

- حفظ السلم والأمن الدوليين، وتحقيقاً لهذه الغاية تتخذ الهيئة التدابير المشتركة الفعالة لمنع الأسباب التي تهدد السلم وإزالتها، وتقمع أعمال العدوان وغيرها من وجوه الإخلال بالسلم، وتتنزّع بالوسائل السلمية، وفقاً لمبادئ العدل والقانون الدولي، لحل المنازعات الدولية التي قد تؤدي إلى الإخلال بالسلم أو لتسويتها.

- إنماء العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذي يقضي بالتسوية في الحقوق بين الشعوب، وبأن يكون لكل منها تقرير مصيرها، وكذلك اتخاذ التدابير الأخرى الملائمة لتعزيز السلم العام.

- تحقيق التعاون الدولي على حل المسائل الدولية ذات الصبغة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

(١) وستفاليا (Peace of Westphalia) هو اسم عام يطلق على معاهدتي السلام اللتين دارت المفاوضات بشأنهما في مدينتي أسنابروك (Osnabrück) ومونستر (Münster) في وستفاليا، وتم التوقيع عليهما في ١٥ مايو ١٦٤٨م، و٢٤ أكتوبر ١٦٤٨م، وكتبتا باللغة الفرنسية. وقد أنهت هذه المعاهدات حرب الأعوام الثلاثين في الإمبراطورية الرومانية المقدسة (معظم الأراضي في ألمانيا اليوم) وحرب الأعوام الثمانين بين إسبانيا وجمهورية الأراضي الواطئة السبع المتحدة. ووقعها مندوبون عن إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فرديناند الثالث (هابسبورغ)، وممالك فرنسا، وإسبانيا والسويد، والجمهورية الهولندية والإمارات البروتستانتية التابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

(٢) بداية القانون الدولي كان مع مؤتمر السلام الأوروبي في «وستفاليا» في العام ١٦٤٨م، والذي اعترف بالحقوق العلمانية لصغار الأمراء الألمان في مواجهة سلطة البابوية الدينية، مشرّعاً بذلك سلطة الدولة على أية سلطة خارجية أخرى. هذا الاعتراف الرسمي شكّل أساس العلاقات الدولية فيما بعد. لكن حينها، لم يكن قد تبلور أي قانون دولي كالذي نعرفه اليوم.

الدولية، ونشأ ما سُمي بالمسألة الشرقية. فالمسألة الشرقية كانت أولاً لاتقاء خطر الدولة الإسلامية، ثم تحولت في القرن التاسع عشر إلى كيفية القضاء على الدولة الإسلامية، واقتسام تركيا «الرجل المريض»، كما أُطلق على دولة الخلافة العثمانية في حينها.

وقد بقيت الأسرة الدولية مدة ثلاثة قرون أسرة نصرانية أوروبية يحرم على غير الدول النصرانية دخولها، ومع ذلك سموها الأسرة الدولية والجماعة الدولية؛ وذلك ليضيفوا عليها الصفة الدولية ويؤكدوا لها وحدها بحث الشؤون الدولية.

ومن أجل إعطاء هذا التجمع النصراني الأوروبي الصفة الدولية التي تسمح له بتنظيم ووضع قواعد تقليدية سُميت فيما بعد بالقانون الدولي. فقد عمدوا إلى الاتفاقات الدولية التي عُقدت بين الدول الغربية، وإلى الأعراف التي كانت سائدة بين تلك الدول، وكونوا منها قواعد جعلوها قواعد دولية، أو ما يسمى بالقانون الدولي.

وبعد القضاء على الخلافة العثمانية تحولت الأسرة الأوروبية إلى عصابة الأمم. ورغم أن عصابة الأمم أدخلت في عضويتها دولاً أخرى، ولكنها لم تقبل غير القواعد التقليدية للدول الأوروبية، ولم تعبأ بما عند باقي دول العالم من عقائد وأديان وأعراف وأفكار، بل نظرت إلى الأديان والحضارات والأعراف والأفكار والعقائد الأخرى نظرة الاستخفاف والاحتقار. ثم تحولت عصابة الأمم بعد الحرب العالمية الثانية إلى هيئة الأمم المتحدة الحالية.

ولم تسمح أمريكا والدول الغربية، بأية قواعد جديدة أن تتسرب للقانون الدولي ولا لنظام هيئة الأمم المتحدة، بل ظلت القواعد القديمة للدول الأنجلو

إن وجود هذه المنظمات التي أُطلق عليها منظمات دولية كان ولا يزال وبالاً على العالم ودوله وشعوبه، خاصة الصغرى منها؛ إذ تعد الأمم المتحدة منطقة نفوذ وهيمنة خاصة للولايات المتحدة والغرب سواء من خلال ما يسمى بحق الفيتو أو من خلال الاستضافة والتمويل.

الأمن، فالمادة ٢٥ من ميثاق الأمم المتحدة تنص على: «يتعهد أعضاء الأمم المتحدة بقبول قرارات مجلس الأمن وتنفيذها»، ويمكن لقرارات مجلس الأمن أن تكون ملزمة لجميع الدول الأعضاء في الجمعية

العامة، حتى أولئك الأعضاء المعارضين لقرارات المجلس، وقد تم جعل هذه السلطة الملزمة واضحة بموجب المادة رقم ١٠٣ من الميثاق، التي تنص على: «إذا تعارضت الالتزامات التي يرتبط بها أعضاء الأمم المتحدة وفقاً لأحكام هذا الميثاق مع أي التزام دولي آخر يرتبطون به؛ فالعبرة بالتزاماتهم

المرتبة على هذا الميثاق». ولهذا فإن لمجلس الأمن سلطة إلزام الدول الأعضاء بالتزامات يكون لها الأسبقية فوق أية التزامات قانونية أخرى.

الجمعية العامة للأمم المتحدة:

تتولى الجمعية العامة السلطة على الموازنات الخاصة بمحفظتها المالية، فهي تنظر وتصادق على موازنة منظمة الأمم المتحدة، وتحدد المادة ١٨ فقرة (٢) من الميثاق قائمة الموضوعات التي للجمعية العامة صلاحية اتخاذ القرار بشأنها، وتشتمل هذه القائمة على:

(توصيات بشأن الحفاظ على السلم والأمن الدوليين - انتخاب الأعضاء غير الدائمين في مجلس الأمن - انتخاب أعضاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة - قبول الأعضاء الجدد في الأمم المتحدة - تعليق حقوق وامتيازات العضوية - طرد الأعضاء من الأمم المتحدة، واتخاذ القرارات الخاصة بالموازنات).

واتخاذ القرارات بشأن موضوعات معينة ضمن هذه القائمة، ينبغي أن يتم بموافقة أغلبية ثلثي أصوات أعضاء الجمعية العامة (أغلبية الثلثين هي ١٢٨ صوتاً في الوقت الحالي). وبحسب المادة ١٨ فقرة (٣) من الميثاق، فإن القرارات في موضوعات أخرى «بما فيها

يقرأها أمينها العام، وأنها المؤسسة التي يتجاوز فيها الفساد الإداري والمالي، والأخلاقي أيضاً، مثيلاتها من المنظمات الإقليمية والدولية، وذلك كله بسبب الهيمنة الغربية، وخاصة الأمريكية عليها.^(١)

فياسم القانون الدولي والشرعية الدولية، تستطيع أمريكا والدول الغربية أن تتدخل في شؤون الدول والشعوب، وتستطيع جعل الباطل حقاً، والحق باطلاً، والاعتداء مشروعاً!!

ونستطيع أن نرجع في ذلك لقرارات مجلس الأمن المتعلقة بالقضية الفلسطينية على سبيل المثال، وقراراته المتعلقة بحصار العراق، وقراراته بحرمان البوسنة والهرسك من السلاح. وقراراته المتعلقة بكشمير وكثير من القضايا الأخرى.

ونستطيع أن نسلط الضوء بصورة أكثر عمقاً من خلال تحليل الوسائل والآليات التي من خلالها تتخذ القرارات في تلك المؤسسات الدولية في المحور التالي.

المؤسسات الدولية.. محددات الدور وآليات التنفيذ:

الأمم المتحدة ذلك النموذج للمؤسسات الدولية الأكثر تأثيراً في العالم، لذا من الجيد أن ندرس طبيعة اتخاذ القرارات داخل تلك المؤسسة لنقف على محددات الدور الذي تمارسه تلك المؤسسة؛ كمثال للعديد من المؤسسات الدولية الأخرى التي لا تختلف في دورها عن ممارسات تلك المؤسسة.

تنقسم سلطات اتخاذ القرار في الأمم المتحدة بين الجمعية العامة ومجلس الأمن، إلا أن السلطات القوية والقابلة للتنفيذ على أرض الواقع هي في النهاية لمجلس

(١) أشرف أبو الهول، المنظمات الدولية وسيلة الهيمنة الغربية المصدر، الأهرام اليومي.

عن التصويت من جانب إحدى الدول دائمة العضوية لا يعتبر «فيتو».

وهنا يُطرح سؤال: ما الفرق بين المسائل الإجرائية والمسائل الموضوعية؟

لم يحدد ميثاق الأمم المتحدة المقصود بالمسائل الإجرائية والمسائل الموضوعية؛ لذلك فإن الاختلاف حول تكييف طبيعة مشروع القرار يخضع في أغلب الحالات لما يتمخض عنه صراع المصالح بين الدول الكبرى حول محل النزاع.

لذلك يهتم العضو الدائم الذي يريد إيقاف صدور مشروع قرار معين من مجلس الأمن بأن يحول وصف المشروع من إجرائي إلى موضوعي، وقرار مجلس الأمن في هذه المسألة الابتدائية، وهي هل مشروع القرار المقدم يمس الموضوع أو يتعلق بالإجراءات، يتطلب إجماع الأعضاء الدائمين.

سلطات مجلس الأمن واردة في فصلين رئيسيين من فصول ميثاق الأمم المتحدة: في الفصل السادس، بعنوان «تسوية النزاعات بالطرق السلمية»، وفي الفصل السابع تحت عنوان «التدخل ضد تهديدات السلام، انتهاكات السلام وأعمال العدوان». ورد في المادة ١/٣٣، وهي المادة الأولى من الفصل السادس؛ بأن على المجلس أن يشجع «أطراف أي نزاع من شأن استمراره أن يعرّض حفظ السلم والأمن الدوليين للخطر أن يلتمسوا حله بادئ ذي بدء بطريق المفاوضة والتحكيم والوساطة والتوفيق والتحكيم والتسوية القضائية، أو أن يلجأوا إلى الوكالات والتنظيمات الإقليمية أو غيرها من الوسائل السلمية التي يقع عليها اختيارها».

إن الخيارات المتاحة أمام مجلس الأمن، على النحو المبين في الفصل السادس، تتركز بصورة واسعة على وضع توصيات للعمل، ولكن مدى إنفاذ مثل هذه التوصيات هي مسألة خاضعة للنقاش.

أما الفصل السابع، من الناحية الأخرى، فهو يتضمن

تحديد فئات إضافية من المسائل التي تتطلب موافقة أغلبية ثلثي الأعضاء» يجب أن تتم بأغلبية الأعضاء الحاضرين والمصوتين. وهكذا، يجوز للجمعية العامة أن تقرر لذاتها أي الموضوعات يجب أن يتخذ القرار بشأنها بالحصول على «أغلبية [] عظمى»، أي: بموافقة ثلثي الأعضاء، وأنها يمكن اتخاذ القرار بشأنها بموافقة الأغلبية البسيطة (النصف + ١).

ومع ذلك، يتوجب على الجمعية العامة أن تتبعد بشكل واضح عن معالجة أية مواضيع هي قيد النظر أو المعالجة في مجلس الأمن؛ حيث تنص المادة ١٢ من الميثاق على أنه: «عندما يباشر مجلس الأمن، بصدور نزاع أو موقف ما، الوظائف التي رُسمت في الميثاق، فليس للجمعية العامة أن تقدم أية توصية في شأن هذا النزاع أو الموقف إلا إذا طلب ذلك منها مجلس الأمن». فقد أراد الذين وضعوا الميثاق من ذلك تجنب حدوث أي تضارب بين الهيئتين أثناء بذلها الجهود الرامية للحفاظ على السلم والأمن الدوليين، وبذلك منح الميثاق لمجلس الأمن الأسبقية والسلطة العليا في هذا المجال.

مجلس الأمن:

يختلف التصويت في مجلس الأمن اعتماداً على ما إذا كانت المسألة المنظورة «إجرائية» أم «موضوعية»؛ حيث تفيد المادة ٢/٢٧ على أنه في المسائل «الإجرائية» تُؤخذ القرارات بموافقة تسعة من أعضاء مجلس الأمن، وبالمقابل، تقرر المادة ٣/٢٧ على أن القرارات المتعلقة بالمسائل «الموضوعية» تُؤخذ بموافقة تسعة من أعضاء المجلس «من بينها أصوات الأعضاء الدائمين»، وهذا هو حق النقض [الفيتو] الشهير.

ولهذا فإن حق الفيتو يعني: منع اتخاذ قرار في المسائل الموضوعية إلا بموافقة جميع الأعضاء الدائمين، ولكنه لا يستطيع منع اتخاذ قرار في المسائل «الإجرائية»، ومن ناحية عملية، فإن الامتناع

وتتم الموافقة عليها من قبل الجمعية العامة للأمم المتحدة والدول الأعضاء غير الدائمين، ولكل عضو من أعضاء المجلس صوت واحد، وتتخذ القرارات بشأن المسائل الإجرائية بموافقة تسعة على الأقل من الأعضاء الخمسة عشر.

ومجلس الأمن هو الجهاز الوحيد التابع للأمم المتحدة الذي يتمتع بسلطة اتخاذ قرارات تكون الدول ملزمة بتنفيذها بموجب الميثاق، أما الأجهزة الأخرى فإنها تقدم التوصيات إلى الحكومات فقط.

يكفي أن نشير هنا أن الولايات المتحدة صاحبة حق الفيتو في مجلس الأمن وقفت ضد عشرات القرارات التي صدرت من هيئات الأمم المتحدة ومنظماتها تُدين الكيان الصهيوني، وتدعو إلى انسحابه من الأراضي العربية التي احتلت بعد عدوان يونيو ١٩٦٧م، فقد استخدمت حق الفيتو أكثر من ٥٧ مرة، مفضية حمايتها على العدوان الصهيوني ودولته من قرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة؛ ليزداد الصلف الصهيوني همجيةً وطغياناً، ودمويةً وإرهاباً. نهايك عن ملفات عربية وإسلامية أخرى مثل قضية البوسنة والهرسك، وقضية كشمير الإسلامية، وأفغانستان، والكثير من القضايا الأخرى.

المؤسسات الدولية ومواقفها من قضايا العالم الإسلامي:

تتعدد المؤسسات والمنظمات الدولية بحسب ما ذكرنا من تعريفات، وعلى رأسها عصبة الأمم التي أنشئت في العام ١٩١٩م عقب الحرب العالمية الأولى، والأمم المتحدة التي تأسست في العام ١٩٤٥م، وغيرهما من المؤسسات سواء السياسية منها أو الاقتصادية، مثل البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، ومنظمة العفو الدولية.. إلخ، إلا أننا سنركز حديثنا على منطمتين فقط؛ هما عصبة الأمم في القديم، ووريثتها الأمم المتحدة في العصر الحديث.

أحكاماً تتعلق بآليات إنفاذ قراراته. فيموجب المادة ٢٩ ولأجل اتخاذ إجراءات بموجب الفصل السابع، فإن المجلس يقرر «ما إذا كان قد وقع تهديد للسلم أو إخلال به، أو كان ما وقع عملاً من أعمال العدوان».

وتبين المادة ٤١ التدابير الخاصة التي لا تقتضي اللجوء للقوة العسكرية التي يمكن استخدامها لتطبيق قرارات مجلس الأمن. وتشتمل هذه التدابير على: «وقف الصلات الاقتصادية، والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية، والبريدية والبرقية، واللاسلكية وغيرها من وسائل المواصلات وفقاً جزئياً أو كلياً، وقطع العلاقات الدبلوماسية».

وتحدد المادة ٤٢ التدابير الإكراهية التي يمكن اتخاذها بحيث يجوز للمجلس أن يتخذ بطريق القوات الجوية والبحرية والبرية من الأعمال ما يلزم لحفظ السلم والأمن الدوليين، أو لإعادته إلى نصابه. ويجوز أن تتناول هذه الأعمال المظاهرات والحصار، والعمليات الأخرى بطريق القوات الجوية أو البحرية أو البرية التابعة لأعضاء «الأمم المتحدة». وتتناول المادة ٤٧ تشكيل لجنة أركان عسكرية، هدفها تقديم المشورة، ومساعدة مجلس الأمن في المسائل العسكرية.

يتكون المجلس من خمسة أعضاء دائمين، ولهم حق النقض (حق الفيتو)، وهم: الاتحاد الروسي، والصين، وفرنسا، والمملكة المتحدة، والولايات المتحدة. ويعود سبب حصولهم على المقاعد الدائمة لانتصاراتهم التي تحققت في الحرب العالمية الثانية.

وستة أعضاء غير دائمين قبل أن يتم زيادة العدد إلى عشرة أعضاء عام ١٩٦٥م عندما تم تعديل ميثاق الأمم المتحدة.

تنتخب الجمعية العامة الأعضاء غير الدائمين في المجلس لفترات، مدة كل منها سنتان، يتم تبديل خمسة أعضاء كل سنة، اختيار الأعضاء غير الدائمين يتم من قبل الأعضاء الخمسة الدائمين في المجلس

أولاً: عصبة الأمم:

صك انتداب فلسطين وأهم بنوده:

- أعلن مشروع صك الانتداب من قبل عصبة الأمم المتحدة بتاريخ ٦ يوليو ١٩٢١م، وُصودق عليه في ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢م، ووُضِع موضع التنفيذ في ٢٩ سبتمبر. ونكتفي منه بنقل الديباجة والمادة الأولى والثانية فقط لنعلم مدى

الازدواجية والظلم الذي وقع على المسلمين، تقول مقدمة صك الانتداب الصادر من عصبة الأمم: (لما كانت دول الحلفاء الكبرى قد وافقت على أن يُعهد بإدارة فلسطين التي كانت تابعة فيما مضى للمملكة العثمانية بالحدود التي تعينها تلك الدول إلى دولة مندوبة تختارها الدول المشار إليها تنفيذاً لنصوص المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم.

ولما كانت دول الحلفاء قد وافقت على أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذي أصدرته في الأصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٧م، وأقرته الدول المذكورة لصالح إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين؛ على أن يُفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضير بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة الآن في فلسطين، أو بالحقوق أو الوضع السياسي مما يتمتع به اليهود في أية بلاد أخرى.

ولما كان قد اعترف بذلك بالصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين، وبأسباب التي تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك البلاد. ولما كانت دول الحلفاء قد اختارت صاحب الجلالة البريطانية ليكون مندوباً على فلسطين؛ لذلك فإن مجلس عصبة الأمم بعد تأييده الانتداب المذكور يحدد شروطه ونصوصه بما يلي:

استخدمت أمريكا حق الفيتو أكثر من ٥٧ مرة مفضية حمايتها على العدوان الصهيوني ودولته من قرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة؛ ليزداد الصلف الصهيوني همجية وطغياناً، ودموية وإرهاباً. نهايك عن ملفات عربية وإسلامية أخرى مثل قضية البوسنة والهرسك وقضية كشمير وأفغانستان.

يمكننا فقط استعراض مبدأ الانتداب الذي أقرته عصبة الأمم كوسيلة للهيمنة على الأجزاء المختلفة من الدول العربية في نهاية الحرب العالمية الأولى، ونلاحظ هنا كيف استغل مبدأ الانتداب للسيطرة على خيرات ومقدرات الشعوب العربية والإسلامية الواقعة تحت الانتداب من جانب، إضافة إلى محاولة فرض الهيمنة الفكرية من خلال تغيير المفاهيم وخلخلة قيم تلك الشعوب مثل: مفهوم الدولة القطرية أو الدولة القومية من جانب آخر.

- أرسى مؤتمر السلام مبدأ

يقول بأنه ينبغي إدارة هذه الأراضي من قبل حكومات مختلفة نيابة عن عصبة الأمم، وفق نظام يخضع للإشراف الدولي. عُرف هذا النظام بالانتداب، الذي وضعه «مجلس العشرة» في ٣٠ يناير ١٩١٩م، وأحيل إلى عصبة الأمم.

نشأت انتدابات عصبة الأمم وفقاً للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم. وأشرفت لجنة الانتداب الدائمة في عصبة الأمم، على تنظيم استفتاءات عامة في المناطق المتنازع عليها؛ بحيث يمكن أن يقرر سكان تلك المناطق لأي بلد ينضمون، وقُسمت إلى ثلاثة أنواع من الانتداب.

الانتدابات من الدرجة الأولى:

الانتدابات من الدرجة الأولى (وتنطبق على أجزاء الدولة العثمانية القديمة) هي المجتمعات التي وصلت إلى مرحلة من التطور، بحيث يمكنها التواجد كدول مستقلة معترف بها، وتخضع بصورة مؤقتة للمساعدة والنصح الإداري من قبل الانتداب إلى أن يحين الوقت الذي تصبح فيه قادرة على النهوض وحدها. وتكون رغبات هذه المجتمعات هي العامل الرئيس في اختيار الدولة المنتدبة.

الوطنية أو القُطرية حقيقة موضوعية، وفُرض التعامل معها على أنها من ضرورات الواقع، وغُيِّب مفهوم «الأمة»، ووُضع مفهوم الدولة الوطنية (المحدودة بإطار جغرافي ثابت، وسلطة، وشعب في ظل إطار دستوري) في مواجهة مفهوم الأمة.

لقد كان صعود الدولة الوطنية «العلمانية» مؤثراً على شخصية الأمة الإسلامية وهويتها بشكل كبير. وأولى تجليات مفهوم الدولة الوطنية هو علاقة الدين بالدولة. فالدولة الوطنية المؤسَّسة على المفهوم العلماني فصلت الدين بشكل كامل عن الدولة.

ثاني تلك التأثيرات هو مفهوم الأمة؛ فقد كان وقع كلمة «الأمة» لدى المسلمين هو «الأمة الإسلامية»،

أي: جميع المسلمين في العالم، وبالتالي فإن هذا المفهوم العقدي السياسي يختلف جذرياً مع مفهوم الدولة القُطرية ذات الحدود الثابتة التي أسست لمفهوم آخر هو «المواطنة»، فقد أصبحت الحدود السياسية بين الدول سياجاً يحيط بالمسلمين المقيمين في تلك البقعة من الأرض جغرافياً بنفس القدر الذي يعزلهم دينياً وشعورياً عن بقية المسلمين في الدول القُطرية الأخرى.

قضية العراق (الموصل):

قضية عربية أخرى تدخلت بها عصبية الأمم نستعرضها ليتبين لنا كيف تجلت قيم وأهداف عصبية الأمم في مواقفها من قضايا الدول العربية والإسلامية.

فقد نشأ نزاع بين تركيا والعراق حول محافظة الموصل، وحاولت كلتا الدولتين ضمها إليها. فتدخلت عصبية الأمم لحل النزاع بين المملكة العراقية وتركيا

المادة الأولى: يكون للدولة المنتدبة السلطة الفعلية في التشريع والإدارة، باستثناء ما يكون قد قيّد في نصوص هذا الصك.

المادة الثانية: تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي وفقاً لما جاء بيانه

في ديباجة هذا الصك، وترقية مؤسسات الحكم الذاتي، وتكون مسؤولة أيضاً عن صيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين؛ بقطع النظر عن الجنس والدين.⁽¹⁾

يكفي هنا أن نشير إلى أن عصبية الأمم أقرت وعد بلفور، وأصبحت هي المسؤولة عن تنفيذه، واعترفت

في المادة الثانية من صك انتداب فلسطين بحق اليهود في إقامة وطن قومي لهم على الأراضي الفلسطينية المسلمة، وأوكلت مهمة الانتداب إلى بريطانيا، فلم يعد وعد بلفور وعداً بريطانياً لليهود، بل أصبح تعهداً دولياً شاركت فيه دول عصبية الأمم. فهل هذه هي مبادئ العدالة التي أقرتها عصبية الأمم كهدف من أهداف نشأتها؟!

ولنا أن نلاحظ هنا أنه في تلك المرحلة التاريخية رافق الانتداب والاستعمار المفروض على الدول الإسلامية ظهور أيديولوجيات علمانية جديدة مضادة للثقافة الإسلامية، تبوأَت سلطة الدولة الوطنية الوليدة في كثير من البلدان العربية، ومصر على وجه الخصوص، لم يقتصر الأمر على البعد السياسي بل امتد ليشمل الفكر نفسه؛ فقد أصبحت الدولة

(1) صك انتداب على فلسطين، موقع الجزيرة نت على الرابط التالي:

<http://www.aljazeera.net/home/print/787157c4-0c60-402b-b997-1784ea612f0c/87614b3c-40e5-4b17-ba21-426489f95ff8>

منذ سنوات قليلة بفعل الولايات المتحدة.. وفي البوسنة والهرسك كان الصرب والكروات يرتكبون مجازرهم التي يندى لها الجبين تحت سمع وبصر قوات حفظ السلام الدولية، التي لم يتورع بعض أفرادها عن مشاركتهم في مخازيهم الأخلاقية في بعض الأحيان!!

ونشير هنا إلى أنموذج واحد على سبيل المثال وهو قضية البوسنة والهرسك وموقف الأمم المتحدة في التعامل مع تلك القضية، والتي يمكن أن يُقاس عليها. وأردت هنا في اختيار البوسنة والهرسك -مع توفر مادة خصبة في اذواجية معايير الأمم المتحدة في قضايا كثيرة مثل القضية الفلسطينية- أن أشير إلى حقيقة تلك المنظمة حتى في تعاملها مع دولة تقع في قلب القارة الأوروبية التي سطرت فيها وخرجت من عبائتها كثير من موثيق وعهود المؤسسات الدولية المختلفة، مدعية الحرية والديمقراطية والإنسانية، وما إلى ذلك من شعارات!!

البوسنة والهرسك:

بعد وفاة «تيتو» زعيم الاتحاد اليوغسلافي ١٩٨٠م، وبدء انهيار الشيوعية في شرق أوروبا عام ١٩٨٨م. ما لبثت الجمهوريات اليوغسلافية في التفكك والانفصال.

فقد أعلنت سلوفينيا في (٤ يوليو ١٩٩٠م) تطبيق قوانينها الخاصة بدلاً من قوانين يوغسلافيا الاتحادية، وأيد التصويت الاستقلال التام في (٢٤ ديسمبر ١٩٩٠م). أعقبها كرواتيا في إعلان الانفصال، واعترفت ألمانيا بسلوفينيا وكرواتيا كدولتين مستقلتين؛ أعقب ذلك إعلان برلمان سراييفو - عاصمة البوسنة - استقلال جمهورية البوسنة والهرسك عن بلغراد - عاصمة الصرب - في (١٥ أكتوبر ١٩٩١م).

السيطرة على محافظة الموصل العثمانية سابقاً. وقد مثلت بريطانيا العراق في الشئون الخارجية وفق الحق الذي منحه إياها العصبة في الانتداب البريطاني على العراق منذ عام ١٩٢٠م. أرسلت عصبة الأمم لجنة تحقيق انتهت إلى عدم رغبة السكان في أن يكونوا جزءاً من تركيا أو العراق، لكنهم يفضلون العراق إذا وجب عليهم الاختيار بين الاثنتين.

لكن العجيب هي توصيات اللجنة: فقد أوصت لجنة التحقيق في سنة ١٩٢٥م على أن تبقى الموصل جزءاً من العراق، مع شرط بقاء الانتداب البريطاني على العراق لمدة ٢٥ عاماً، لضمان حقوق الحكم الذاتي للسكان الأكراد. اعتمد مجلس العصبة على توصية لجنة التحقيق لتقره في ١٦ كانون الأول سنة ١٩٢٥م، وقعت بريطانيا والعراق وتركيا في ٥ يونيو من سنة ١٩٢٥م على اتفاقية منفصلة تبعت قرار مجلس العصبة، ووفقاً لهذه الاتفاقية ألحقت الموصل بالعراق. وأيضاً وافقت العراق على أنها ستتضم إلى عصبة الأمم خلال ٢٥ عاماً، وستبقى تحت سيطرة الانتداب حتى دخولها في العصبة.

والجدير بالذكر هنا أن الأراضي التي كانت تحكمها القوى المنتدبة، لم تحصل أي من هذه الأراضي على استقلالها حتى الحرب العالمية الثانية، والجدير بالذكر أيضاً أن معظم الدول العربية كانت واقعة تحت الانتداب الأجنبي.

ثانياً: الأمم المتحدة:

أما بالنسبة للأمم المتحدة؛ فإن مواقفها من قضايا العالم الإسلامي، والتي تمثلت فيها ازدواجية المعايير إلى أقصى حد، ولنا أن نراجع موقفها من القضية الفلسطينية، وقضية كشمير، واحتلال أفغانستان المسلمة مرتين تحت سمع وبصر الأمم المتحدة؛ الأولى كانت بفعل الاتحاد السوفييتي قبل انهياره، والثانية



- ولما كانت صربيا تريد تشكيل يوغسلافيا جديدة تضم البوسنة والهرسك المسلمة إليها، فقد تفجر الموقف في البوسنة والهرسك في (٩ مارس ١٩٩٢م) عندما شن الصرب معارك في جمهورية البوسنة والهرسك، ودخل الصرب بالمدفعات والدبابات بلدة «بوسانسكي برود».

فبعثت الأمم المتحدة بقوات في (٢٣ مارس ١٩٩٢م) إلى بلغراد لحفظ السلام، وإيقاف اعتداء الصرب على كل من كرواتيا والبوسنة، وبالفعل توقف الاعتداء على كرواتيا، بينما امتد على المسلمين واتسع حتى عمّ بحلول (٢٥ مارس ١٩٩٢م) جميع مدن البوسنة والهرسك، فصار المسلمون يجاهدون وحدهم ضد الجيشين الصربي والكرواتي يدعمهم صرب البوسنة وكروات البوسنة.

- وإزاء تلك المشكلة أسندت الأمم المتحدة، للمجموعة الأوروبية مهمة القيام بدورها لتسوية الصراع في

لم يأبه الصرب لذلك وأعلنوا في (٥ يناير ١٩٩٢م) قيام دولة جديدة من الصرب والجبل الأسود والمناطق الصربية في البوسنة والهرسك.

- عند ذلك اعترفت الدول الأوروبية والمجتمع الدولي بكل من كرواتيا وسلوفينيا، على أن يُترك المجال مفتوحاً أمام البوسنة والهرسك ومقدونيا لتقديم المزيد من الوثائق التي تثبت التزامهما ووفائهما بشروط الاعتراف باستقلالهما!!

ومنها مثلاً القيام باستفتاء شعبي على الاستقلال، وبالفعل فقد أجرت الحكومة البوسنية استفتاءً، وكانت نسبة المشاركة في الاستفتاء على الاستقلال ٦٣,٤%، وقد صوّت لصالح الاستقلال ٩٩,٧% من الناخبين، ليعلن بذلك «علي عزت بيجوفيتش» استقلال الجمهورية رسمياً في (٤ مارس ١٩٩٢م).

- نخلص مما سبق إلى التأكيد على أن حرب البوسنة والهرسك، هي حرب دينية بالأساس كان الهدف منها إقصاء المسلمين، والقضاء على فكرة دولة ذات أغلبية مسلمة في قلب أوروبا؛ فقد سُمح لكروتيا بالانفصال عن الاتحاد اليوغسلافي وسلوفينا، لكن لم يُسمح للمسلمين بأن تكون لهم دولة.

وجاءت قرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن متوافقة مع إرادة الدول الأوروبية، ورغبتها في عدم قيام دولة ذات أغلبية مسلمة، وكل قراراتها كانت دون مستوى حرب الإبادة التي مُرست على المسلمين، وسقط ميثاق حرية الشعوب وحقوق الإنسان من قراراتهم ومواقفهم تجاه تلك القضية الإنسانية المؤلة.

الخاتمة:

في العام ٢٠٠٦م قدم الأمين العام للأمم المتحدة، كوفي عنان، للجمعية العامة للأمم المتحدة مقترحات كجزء من خطة إصلاح واسعة لتطوير الهيكل التنظيمي والإداري للمنظمة.

وركز التقرير الذي صدر بعنوان «الاستثمار في الأمم المتحدة: من أجل منظمة أقوى»، على تحسين قدرة المنظمة على الانتشار، وإدارة عمليات حفظ السلام. وقال الأمين العام عند تقديمه للتقرير: «إن القوانين والإجراءات المتبعة حالياً مصممة على أساس أن تقوم الأمانة العامة للمنظمة بعقد المؤتمرات والاجتماعات للدول الأعضاء، إلا أنه في الوقت الراهن وبفضل المهام التي أوكلتها لنا الدول الأعضاء، فإن المنظمة تعمل في جميع أنحاء العالم؛ لذا فهي بحاجة إلى جعلها أكثر توافقاً مع متطلبات العصر، وتمكينها من تأدية مهامها».

وقد أتت مسودة تلك الإصلاحات وقتها بناء على توصية قادة العالم أثناء قمة الأمم المتحدة التي عُقدت

البوسنة، وهو ما عكسه قرار مجلس الأمن (٧٤٩ / ٧ / ٤ / ١٩٩٢م) الذي ناشد جميع الأطراف المعنية في البوسنة، التعاون مع المجموعة الأوروبية من أجل التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار، والتفاوض من أجل الوصول إلى حل سياسي للصراع.

- أُلقت المجموعة الأوروبية بالمسئولية على عاتق الأمم المتحدة؛ حيث استصدرت قراراً من مجلس الأمن يسند مهمة الإشراف على تجميع السلاح الثقيل لدى الأطراف المتحاربة إلى قوات حفظ السلام الدولية.

- أعلن د. بطرس غالي أمين عام الأمم المتحدة وقتها أن قوات الأمم المتحدة في البوسنة لا يمكنها القيام بذلك، وبدا الموقف وكأن الأمين العام لا يرغب في قيام قوات الأمم المتحدة بهذه المهمة، وقد انتهى الخلاف باقتناع مجلس الأمن في ٢٥ / ٧ / ١٩٩٢م، برؤية الأمين العام.

- بعدها أعلنت الولايات المتحدة مرة أخرى أن مسئولية حل الصراع في البوسنة تقع على عاتق أوروبا بشكل كامل؛ حيث إن ما قدمته من اقتراحات، رُفض من جانب المجموعة الأوروبية، وأن واشنطن لن تتحرك بمفردها، والمشكلة في جوهرها أوروبية^(١).

وظلت المشكلة تتقاذفها الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي حتى تم اتفاق سلام؛ وزع البوسنة بين الطوائف الثلاث؛ المسلمين والكروات والصرب، وأصبح لكل طائفة برلمان منفصل ورئاسة الدولة جماعية عبر ممثل عن كل طائفة، فأصبحت البوسنة دولة اللادولة، عبارة عن كتونات أو مناطق معزولة عن بعضها، ليست لها هوية أو شخصية ذاتية مثل بقية دول العالم، هذه هي حصيلة العدالة الدولية الممثلة في الأمم المتحدة!!

(١) أبعاد الصراع في البوسنة - الهرسك المصدر: بقلم: عماد جاد، السياسة الدولية، يوليو ١٩٩٣م: <http://digital.ahram.org.eg/ar-ticles.aspx?Serial=217578&eid=298>

التوصيات:

في أيلول/سبتمبر من العام ٢٠٠٥م^(١).

إن كنا بصدد ذكر توصيات، فإننا لن نقدمها للأمم المتحدة كمؤسسة، بل سنحاول إيجاد خيارات أمام الأمة الإسلامية لتستطيع من خلالها تفادي التأثير السلبي لتلك المنظمات الدولية على ذاتيتها وثقافتها وحضاراتها، ومن قبل ذلك دينها وإيمانها.

نرى هنا أن التكتلات هي الحل الأمثل للخروج من تلك الشرنقة الدولية، ولنا في الاتحاد الأوروبي مثال

على ذلك.

النموذج الأوروبي:

وصل الاتحاد الأوروبي إلى تحقيق قسط كبير من الاستقلالية والاستقرار؛ كنتيجة مباشرة لتحقيق قسط كبير من تأمين عنصرين فاعلين، أولاهما: القوة العسكرية المتميزة، إضافة

وصل الاتحاد الأوروبي إلى تحقيق قسط كبير من الاستقلالية والاستقرار كنتيجة مباشرة لتحقيق قسط كبير من تأمين عنصرين فاعلين، أولاهما: القوة العسكرية المتميزة، إضافة إلى القوة الاقتصادية من خلال النهوض الاقتصادي في كل دولة على حدة، ثم عبر التكامل والتعاون بين دوله.

ارتباطه العسكري بحلف شمال الأطلسي، إضافة إلى القوة الاقتصادية من خلال النهوض الاقتصادي في كل دولة على حدة، ثم عبر التكامل والتعاون بين دوله، من خلال تلك القوة الاتحادية وجدت قضايا حقوق الإنسان، وحل الأزمات، طريقها إلى التحقيق عبر أجهزته المنفصلة عن المنظومة الدولية، كالمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان، والمحكمة الأوروبية لفض النزاعات^(٢).

لم تتناقض المسيرة الأوروبية على هذا الطريق مع الوجود الأوروبي، الجماعي والانفرادي، في المنظمة

هذا الأمر إن دل على شيء فهو يدل على رغبة الدول في تغيير نظام الأمم المتحدة وآليات ما يصدر عنها من قرارات، ويعكس إحساساً عميقاً لدى كثير من الدول بالظلم الواقع عليها، وأن الأمم المتحدة ما هو إلا نادٍ للكبار فقط، ولهم وحدهم القرار واتخاذ المواقف وتنفيذها على أرض الواقع، وعلى شعوب العالم وحكوماته الرضوخ إلى رغبة الكبار هذه.

ورغم تلك الورقة الإصلاحية التي قدمت في العام ٢٠٠٦م وجرى الحديث وقتها عن توسعة مجلس الأمن بحيث يشمل دولاً من كافة القارات، إلا أنه ولأن لم يتغير شيء على أرض الواقع، بل جرى الحديث عن تلك الإصلاحات وقتها كنوع من امتصاص غضب شعوب ودول العالم من الغطرسة والهيمنة الغربية على مؤسسات تلك المنظمة الدولية وقد كان.

ونحن الآن على أعتاب مائة عام على إنشاء أول مؤسسة دولية وهي عصبة الأمم؛ لذا فإن شعوب ودول العالم العربي والإسلامي تحتاج إلى وقفة ونظرة تقييمية لتلك المنظمات الدولية لإصلاح شأنها؛ بحيث تعبر عن جموع مواقف شعوب ودول العالم المختلفة بمختلف توجهاتها وحضاراتها، وألا يكون مقصوراً فقط على التوجه الحضاري الأنجلو سكسوني دون بقية حضارات وثقافات العالم المختلفة.

(٢) نبيل شبيب، إصلاح الأمم المتحدة.. بين الواقع والأوهام، موقع مدام <http://www.midadulqalam.info/midad/modules.php?file=article&name=News&sid=1345>

(١) عنان يقدم تقريراً عن إصلاح الأمم المتحدة، مركز أنباء الأمم المتحدة: <http://www.un.org/arabic/news/story.asp?NewsID=5395#UoERN-8VCM8>

الذاتية، وهي أمام طريقتين: إما طريق التكتل اقتصاديًا وماليًا وعسكريًا وسياسيًا، عبر الوسائل المشتركة بينها، على صعيد حقوق الإنسان وعلاقات الدول، ليكون لها «موقع ودور» على الساحة الدولية، والطريق الآخر: وهو زيادة ما هو قائم الآن، من تفتيت المصالح المشتركة على هذه الأصعدة جميعًا، وترسيخ الارتباطات المختلفة مع القوى الدولية المهيمنة عالميًا، ولن يكون لها آنذاك موقع ولا دور ولا شأن على الساحة الدولية في المستقبل المنظور.

فالحل إذن يكمن في وجود كتل عربي وإسلامي قوي يعتمد على عنصر القوة العسكرية أو الاقتصادية، أو حدوث توافق سياسي، أو على هذه الأصعدة معًا.

الدولية، بل إن تأثيره فيها مرتبط ارتباطًا وثيقًا بما حققه إقليميًا خارج نطاقها.

ويسري شبيه ذلك على تكتلات دولية أخرى، كل على حسب حجم القوة الذاتية فيه من جهة، وحجم التكامل والتعاون السياسي والاقتصادي وفي الميادين الأخرى من جهة ثانية.

ولكل تكتل عوامل أساسية لتسويغه، جغرافية أو مصلحة، أو ما يصنعه تقارب الرؤى السياسية وغيرها نتيجة أبعاد حضارية مشتركة، ومن هنا ينبغي التأكيد أيضًا على أن مستقبل تعامل البلدان العربية والإسلامية - التي تتوافر لها جميع تلك العوامل - مع الأمم المتحدة، - سواء تحققت إصلاح جذري أو جزئي لها - رهن بتعاملها مع بعضها البعض، وبمسيرتها

معلومات إضافية

دور المؤسسات الدولية في تعزيز الهيمنة الغربية على العالم الإسلامي:

المسألة الشرقية (Eastern Question):

تبادلت الدول العربية - الإسلامية والدول الأوروبية الأدوار الحضارية: تخلّفت الأولى وتقدمت الثانية. واقع جديد انصرف فيه تلك الدول - لأغراض تجارية ودينية-، إلى التفتيش عن أسواق جديدة أو تأمين طرق للمواصلات، فكانت بلادنا، لموقعها الوسط بين قارات ثلاث، ولأنها موطن للأماكن المقدسة، محطّ للأنظار والأطماع.

شهدت المنطقة العربية، منذ الحروب الصليبية، موجات متتالية من المد والجزر؛ تارة كان الصليبيون ينتصرون، وتارة أخرى كانوا ينهزمون فيرحلون. لكن أعين الأطماع الأوروبية لم تتوقف عن النظر إلى هذه المنطقة، فأصبحت هذه الأطماع من الثوابت السياسية-التاريخية التي طبعت تاريخ الصراع بين مختلف القوى حول منطقتنا. ومرّت بعدة مراحل تاريخية، تنوع فيها الصراع بين المتنافسين الأوروبيين وأتسع، لكنه استمر فصولاً دون كلل أو ملل.

تنقسم هذه المراحل التاريخية إلى ثلاث مراحل:

- الأولى: امتدت منذ أوائل القرن ١٧م حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وعُرفت بالمسألة الشرقية، وهي مرحلة الصراع الروسي-العثماني-الأوروبي للاستيلاء على المنطقة.

- الثانية: اتفاقية سايكس-بيكو. امتدت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وهي مرحلة تثبيت السيطرة الإمبريالية القديمة برأسها الأساسيين؛ بريطانيا وفرنسا.

- الثالثة: امتدّت من أعقاب الحرب العالمية الثانية حتى المرحلة المعاصرة، وهي مرحلة تثبيت السيطرة القطبين الدوليين الجديدين: الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفييتي، التي تميزت، وما زالت، بأرجحية السيطرة الأميركية.

جذور المسألة الشرقية:

بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية العاصمة البيزنطية في ٢٩ مايو ١٤٥٢م بقيادة محمد الثاني الفاتح، وتغيير اسمها إلى اسطنبول أي: مدينة الإسلام، فتحت أبواب انتشار الإسلام في شرق أوروبا، ثم أوروبا بالكامل؛ نظراً للموقع الاستراتيجي لهذه المدينة العريقة الأوروبية والآسيوية في نفس الوقت وبين البحرين الأسود والأبيض المتوسط، فخلق الحدث إرباكاً وخوفاً وقلقاً في نفوس الأوروبيين المسيحيين ورجال الدين يومها من انتشار الإسلام في أوروبا عبر مضيق البوسفور والدردنيل، بعد ما دخل الإسلام سابقاً عبر مضيق جبل طارق في العام ٧١١م من جنوبها الغربي.

وقد توسع العثمانيون في البلقان؛ ففتحوا رودس في ١٥٢٢م، وحاصروا فيينا في ١٥٢٩م، وفتحوا صربيا في

نفس العام والبوسنة في ١٤٦٣م، كما توسعت الفتوحات في الوطن العربي ابتداءً من ١٥١٦م، والذي كان أي الوطن العربي ضحية للحروب الصليبية الأوروبية في ١٠٩٥ و ١٢٧٠م ليتغلغل البعد الديني في الصراع بين المسلمين والمسيحيين. فأصبح من الضروري طرد العثمانيين الآسيويين المسلمين من منطقة البلقان، وتحريره أبدياً من الإسلام، وكانت القضية قضية سنوات فقط، خاصة بعد تدهور الدولة الإسلامية في شبه جزيرة أيبيريا، وطرد المسلمين منها بسقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين في الأندلس.

فالمسألة الشرقية: هي مسألة وجود العثمانيين المسلمين في أوروبا، وطردهم منها، واستعادة القسطنطينية من العثمانيين بعد سقوطها في ١٤٥٣م، وتهديد مصالح الدول الأوروبية في هذه المنطقة. وعلى تصفية أملاك رجل أوروبا المريض في البلقان من طرف الدول الأوروبية، فهو مصطلح عام يطلق على العلاقات السياسية بين بعض الدول الأوروبية وبين السلطنة العثمانية إبان القرنين ١٨ و ١٩م وأوائل القرن ٢٠م.

وقد مرت المسألة الشرقية بعدة مراحل؛ بدأت بالتحريض على تعميق الحقد والكراهية للرأي العام الأوروبي ضد الدولة العثمانية، عبر حملات من طرف الدول والجماعات الدينية والكنيسة المسيحية، بتبيان الإجرام العثماني -في زعمهم- في حق أوروبا من خلال احتلال أوروبا، ونشر الإسلام في نظر المسيحيين!!

وانتهت هذه المراحل بمرحلة التصفية والاقترام في البلقان بالاستقلال أو الحكم الذاتي بضغط سياسي أو تدخل عسكري عند الضرورة (كحرب اليونان وحرب القرم) بإجبار الدولة العثمانية على منح الاستقلال للدويلات البلقانية بهدف الانفصال.

حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م):

اندلعت هذه الحرب بين القوات الروسية وجيوش التحالف التي ضمت كلاً من فرنسا والدولة العثمانية (تركيا حالياً) وسردينيا والمملكة المتحدة. وقد سُميت بهذا الاسم نسبة إلى شبه جزيرة القرم التي دار فيها معظم القتال.. وقد بدأت الحرب بسبب نزاع حول مكانة الكنيسة النصرانية الأرثوذكسية في الدولة العثمانية الإسلامية. إلا أن الأسباب البعيدة كانت أكثر تعقيداً من ذلك. فقد ازداد قلق النمسا وفرنسا والمملكة المتحدة من النوايا الروسية في بلاد البلقان، فصمّمت على إحباط سياسات روسيا التوسعية في المنطقة.

احتلت روسيا إمارات الدانوب (رومانيا الحالية) في يوليو عام ١٨٥٣م، فسارعت المملكة المتحدة فوراً إلى إرسال أسطول إلى القسطنطينية (إسطنبول) لدعم الأتراك، وقد أعلنت تركيا الحرب على روسيا في أكتوبر عام ١٨٥٣م، فشنت هجوماً على إمارات الدانوب. وفي شهر يناير من عام ١٨٥٤م وبعد أن دمّر الأسطول الروسي مجموعة من السفن التركية في سينوبه، وقامت فرنسا والمملكة المتحدة بإرسال أساطيلهما إلى البحر الأسود لحماية حركة التجارة التركية.

وفي مارس أعلنت فرنسا والمملكة المتحدة الحرب على روسيا. وفي أغسطس قام الروس بسحب قواتهم من إمارات الدانوب؛ بغية منع النمسا من الانضمام إلى التحالف ضدهم، ومن ثمّ احتلت النمسا إمارات الدانوب.

وفي سبتمبر من عام ١٨٥٤م أنزلت فرنسا والمملكة المتحدة جيوشهما في بلاد القرم. وضربت تلك الجيوش حصاراً حول الحصون المحيطة بمدينة سيفاستوبول لمدة عام كامل. وفي يناير من عام ١٨٥٥م قام الكونت دي كافور بإرسال ١٠،٠٠٠ جندي سرديني مجهزين تجهيزاً كاملاً لمساعدة فرنسا والمملكة المتحدة أملاً في الحصول على دعم لجهوده الرامية إلى توحيد إيطاليا.

استبسل جنود الحلفاء في معارك ألما في ٢٠ سبتمبر ١٨٥٤م وبالاكلوا في ٢٥ أكتوبر ١٨٥٤م وفي إنكرمان في ٥ نوفمبر ١٨٥٤م. إلا أن قوات التحالف عجزت في البداية عن اختراق الدفاعات الروسية بشكل فعال.

وفي ١١ سبتمبر عام ١٨٥٥م، تمكن الفرنسيون من شنّ هجوم ناجح على مالاخوف، وهي نقطة استراتيجية في الدفاعات الروسية، واضطر الروس إلى إخلاء حصونهم، وإغراق سفنهم، والتخلي عن سيفاستوبول. واستمرت الحرب بعد ذلك حتى وافقت روسيا على شروط السلم المبدئية على مضض بعد أن أنهكت عسكرياً واقتصادياً، كما خشيت أن تتدخل النمسا مرة أخرى في بلاد البلقان، وتم التوصل إلى السلام الكامل في مؤتمر باريس؛ حيث جرى التوقيع على معاهدة السلام في ٣٠ مارس عام ١٨٥٦م. واضطرت روسيا بموجب المعاهدة إلى التخلي عن بعض الأراضي التي احتلتها من الدولة العثمانية، ومنعت السفن الحربية من دخول البحر الأسود، ومنعت التحصينات حوله.

تميزت هذه الحرب بسوء القيادة والإدارة من كلا الجانبين. فقد تمسك الضباط القادة، وكان كثير منهم من الكبر بحيث لم يكونوا أكفاء لإدارة المعارك الميدانية سوى بمفاهيم نابوليونية عفا عليها الزمن، مما تسبب في وقوع الكثير من الكوارث. كما كانت الرعاية الصحية في المعسكرات معدومة عملياً. فلم يحظ المجندون بأي اهتمام؛ فهلك الآلاف منهم بسبب الكوليرا وبعض الأمراض الأخرى التي كان من الممكن منعها.

وقد تولت فلورنس نايتجيل قيادة فريق من الممرضات مؤلف من ٣٨ ممرضة، حيث أبحرت من المملكة المتحدة إلى سكوتاري لتقييم مستشفى للجرحى. إلا أن الأوضاع الطبية بقيت بدائية، وفاق عدد الذين ماتوا متأثرين بجراحهم، عدد من قُتلوا في المعارك مباشرة.

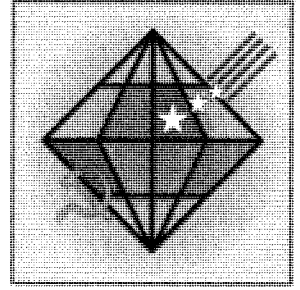
وكانت حرب القرم أول اشتباك عسكري كبير يشهده مراسلو ومصورو الصحف فعلياً. فقد كان السير وليم رسل من جريدة التايمز يبرق بتقاريره يومياً إلى لندن، وقد وصف معاناة الجنود، والافتقار الكامل إلى المؤن الأساسية، وعدم كفاية القادة. كما كتب الشاعر الإنجليزي اللورد تينيسون قصيدة شهيرة بعنوان هجوم الفرقة الخفيفة حول معركة بالاكلوا.

لم تتمكن حرب القرم من تحقيق الاستقرار في أوروبا الشرقية. فعندما كانت الحرب في أوجها أدخل الإسكندر الثاني - الذي أصبح قيصرًا على روسيا عام ١٨٥٥م - إصلاحات اقتصادية وعسكرية شاملة أملاً في التغلب على تخلف بلاده. كما استغل الكونت دي كانور مؤتمر باريس منبراً للمطالبة بوحدة إيطاليا ضد رغبات النمسا. وأدركت بروسيا أن عزلة النمسا خلقت فراغاً في وسط أوروبا، وبدأت بإلقاء بذور الوحدة الألمانية.

المصادر:

- ١- حسن خليل غريب، في سبيل علاقة سليمة بين العروبة والإسلام، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- ٢- محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية (دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية)، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، مكتبة وهبة، القاهرة.
- ٣- الموسوعة العربية العالمية على الرابط www.intaaj.net/

الصعود الأمريكي وأثره في النظام الدولي



د. عصام عبد الشليفي

أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الإسكندرية

ملخص الدراسة

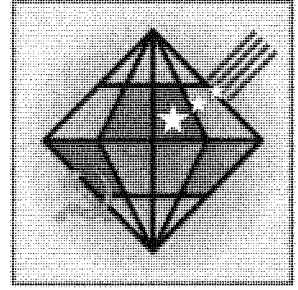
شهد القرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين صعود الولايات المتحدة الأمريكية بشكل بارز، ومع هذا الصعود تصاعد الجدل داخل الأوساط السياسية والأكاديمية الأمريكية والغربية، بل والعربية أيضًا، حول مستقبل القوة الأمريكية ودورها في النظام العالمي الجديد. ويتركز هذا الجدل حول جملة التحديات التي تواجه أسس ومقومات القوة الأمريكية من جهة، والتحول والتغيرات في موازين القوى على الصعيد الدولي من جهة أخرى.

ينظر الكثيرون إلى القرن العشرين على أنه «قرن أمريكي بامتياز» وذلك بسبب النجاحات التي حققتها الولايات المتحدة في مواجهة منافسيها، سياسيًا واستراتيجيًا وفكريًا. وقد ارتبط هذا التطور، وما صاحبه من جدل بمفهوم «الإمبراطورية» و«الهيمنة»، وخاصة في ظل تعدد السياسات والممارسات التي تبنتها الولايات المتحدة لبناء إمبراطوريتها وترسيخ هيمنتها على مقدرات النظام العالمي طوال القرن العشرين وخلال السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، الأمر الذي يتطلب البحث في أبعاد الهيمنة الأمريكية، وتأثيراتها على تطور العلاقات الدولية، بصفة عامة، وعلى قضايا العالمين العربي والإسلامي بصفة خاصة.

تتبع أهمية هذه الدراسة من عدة اعتبارات؛ من بينها: الأهمية التي تتمتع بها الولايات المتحدة في هيكل النظام الدولي، وطبيعة الدور الذي تمارسه ليس فقط في بناء هذا الهيكل، وإنما كذلك في تحديد قضاياه وأولوياته، من ناحية، وتعدد القضايا العربية والإسلامية التي لا تؤثر الولايات المتحدة فقط في إدارتها، بل في بروزها والتأسيس لها، من ناحية ثانية، وتصاعد الجدل حول مقومات الهيمنة الأمريكية وقدرتها الولايات المتحدة على فرض هيمنتها في ظل التحولات الرئيسية التي شهدتها السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، من ناحية ثالثة.

يمكن القول: إن التأثير الأمريكي في صنع وإدارة تطورات الأحداث، على الأقل في العالمين العربي والإسلامي، وردود فعل الدول العربية والإسلامية، يتطلب مراعاة عدة اعتبارات، ذكرنا منها في هذه الدراسة توصيات للإدارة الأمريكية، وتوصيات أخرى للعالم الإسلامي.

الصعود الأمريكي وأثره في النظام الدولي



د. عصام عبد الشافي

أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الإسكندرية

مقدمة:

شهد القرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين صعود الولايات المتحدة الأمريكية بشكل بارز، ومع هذا الصعود تصاعد الجدل داخل الأوساط السياسية والأكاديمية الأمريكية والغربية، بل والعربية أيضاً، حول مستقبل القوة الأمريكية ودورها في النظام العالمي الجديد. ويتركز هذا الجدل حول جملة التحديات التي تواجه أسس ومقومات القوة الأمريكية من جهة، والتحولات والتغيرات في موازين القوى على الصعيد الدولي من جهة أخرى.

لقد كانت بداية الصعود العالمي للولايات المتحدة مع أحداث الحرب العالمية الأولى، والتي لم تشارك فيها من بدايتها، استناداً لمبدأ العزلة الذي صاغه الرئيس الأمريكي الأسبق «مونرو» عام ١٨٢٣م، ولكن مع تطورات الأحداث في الحرب العالمية الأولى، بعد الهزائم المتتالية التي تعرضت لها بريطانيا وفرنسا، ثم الهجوم الذي قامت به الغواصات الألمانية على السفن البريطانية والأمريكية في المحيط الهادي، أعلنت الولايات المتحدة دخولها الحرب في الثاني من أبريل ١٩١٧م.

دفعها إلى ذلك العديد من الاعتبارات بجانب، الاعتداء الألماني على غواصاتها وغواصات حلفائها، منها: الكشف عن برقية مساعد وزير خارجية ألمانيا «زيمرمان»، إلى المكسيك يطلب منها التحالف ضد الولايات المتحدة مقابل منحها ولايتي «كاليفورنيا» و«نيو مكسيكو»، وكذلك الديون الأمريكية الضخمة على البنوك الفرنسية والإنجليزية، وخوف الولايات المتحدة من ضياعها حال هزيمة الدولتين على يد ألمانيا.

وجاء إعلان الولايات المتحدة دخول الحرب ليقرب موازين التفاعلات الدولية؛ لأن هذا الدخول أنقذ حلفاءها من الانهيار والتدمير، وخاصة بعد إعلان روسيا القيصرية انسحابها من الحرب بعد قيام الثورة البلشفية ١٩١٧م، وحقت الولايات المتحدة نجاحات ساحقة في مواجهة ألمانيا، في معركة «مونديديه» في ٨ أغسطس ١٩١٨م، ومعركة «سجفريد»، في ٢٩ سبتمبر ١٩١٨م، والتي أجبرت ألمانيا على طلب الصلح.

لتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات الدولية، كانت فيها الولايات المتحدة هي المحرك الرئيس لتحولاتها الكبرى، فقد قادت مؤتمرات الصلح مع ألمانيا في فرساي وسان جيرمان، وتريانون وسيفر، ووضع رئيسها «ودرو ويلسون» مبادئه للعلاقات الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، ودعا إلى تأسيس عصبة الأمم عام ١٩٢٠م، كما قادت الولايات المتحدة جهود مواجهة أزمة الكساد العالمي منذ ١٩٢٩م، ثم عادت من جديد لتتقود الغرب الأوربي لتدمير ألمانيا واليابان في الحرب العالمية الثانية، وتشكل القطب الثاني في مواجهة الاتحاد السوفييتي بين عامي

إلحاحًا وأهمية «ما مدى قدرة الولايات المتحدة على فرض هيمنتها والحفاظ على تفرداها في القرن الحادي والعشرين؟».

وفي إطار هذا التساؤل الرئيس تسعى الدراسة إلى الإجابة على عدد من التساؤلات الفرعية، منها: ما هي أسس ومقومات الهيمنة الأمريكية؟ وما طبيعة التأثيرات التي ترتبت على الصعود الأمريكي خلال القرن العشرين على العلاقات الدولية؟ وما طبيعة التأثيرات التي ترتبت على الصعود الأمريكي على القضايا العربية والإسلامية؟، وما هي التحديات التي تواجه الهيمنة الأمريكية، وما مدى قدرة الولايات المتحدة على مواجهتها؟

ثالثًا: منهجية الدراسة:

سعيًا نحو الإجابة على هذه التساؤلات تعتمد الدراسة على «اقترب الهيمنة». والهيمنة اصطلاحًا تعني امتلاك السلطان والقوة والغلبة على الآخرين؛ بحيث يصبحون مسلوبو الإرادة تجاه صاحب السلطان والجاه. وتستند الهيمنة على احتكار مقومات القوة، وما من شأنه فرض حالة من حالات التبعية والخضوع للآخرين. والهيمنة على الصعيد الدولي ما هي إلا انعكاس لطبيعة

العلاقات السائد في الدولة المهيمنة، فحين تستند الهيمنة في الدولة المهيمنة إلى السوق تستند الهيمنة دوليًا إلى السوق، وحين تستند في الدولة المهيمنة إلى القبيلة أو الطائفة تستند الهيمنة دوليًا إلى القبيلة أو الطائفة، أما حين تكون الدولة الأقوى دوليًا تسودها المساواة والتكافؤ فإن العلاقات الدولية ستبنى على المساواة والتكافؤ أيضًا.

وللهيمنة أبعاد عديدة منها: البعد السياسي (ويتمثل عالميًا في تصيب القوى الكبرى حكومات عميلة

و ١٩٤٥ و ١٩٩٠م، ومع انهيار الاتحاد السوفياتي كان التفرد الأمريكي بقيادة العالم.

وقد ارتبط هذا التطور، وما صاحبه من جدل بمفهوم «الإمبراطورية» و«الهيمنة»، وخاصة في ظل تعدد السياسات والممارسات التي تبنتها الولايات المتحدة لبناء إمبراطوريتها وترسيخ هيمنتها على مقدرات النظام العالمي طوال القرن العشرين وخلال السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، الأمر الذي يتطلب البحث في أبعاد الهيمنة الأمريكية، وتأثيراتها على تطور العلاقات الدولية، بصفة عامة، وعلى قضايا العالمين العربي والإسلامي بصفة خاصة.

أولاً: أهمية الدراسة:

تتبع أهمية هذه الدراسة من عدة اعتبارات؛ من بينها: الأهمية التي تتمتع بها الولايات المتحدة في هيكل النظام الدولي، وطبيعة الدور الذي تمارسه ليس فقط في بناء هذا الهيكل، وإنما كذلك في تحديد قضاياه وأولوياته، من ناحية، وتعدد القضايا العربية والإسلامية التي لا تؤثر الولايات المتحدة فقط في إدارتها، بل في بروزها والتأسيس لها، من ناحية ثانية، وتصاعد الجدل حول مقومات الهيمنة الأمريكية

وقدرة الولايات المتحدة على فرض هيمنتها في ظل التحولات الرئيسة التي شهدتها السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، من ناحية ثالثة.

ثانيًا: مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

في الوقت الذي نظر فيه الكثيرون إلى القرن العشرين على أنه «قرن أمريكي بامتياز» مع النجاحات التي حققتها الولايات المتحدة في مواجهة منافسيها، سياسيًا واستراتيجيًا وفكريًا، أصبح السؤال الأكثر

التجارة الخارجية، وهو الأمر الذي دفع إلى الاهتمام بالعلاقات الدولية، وبروز الحاجة إلى تشكل سياسة خارجية أمريكية، فتنامي القوة الصناعية الأمريكية والتجارة الخارجية خلق الاهتمام بالسياسة الخارجية.

واعتمدت أمريكا في بناء قوتها الذاتية على التوسع من الداخل إلى الخارج، أي داخل أراضيها، وبعد أن استكملت الدولة الجديدة السيطرة على كامل «أراضيها»، بدأت في التوسع نحو مجالها الاستراتيجي (المحيطين الهادي والأطلسي)، وفي إطار هذا التوسع، أصبح هدف المشروع الأمريكي «جذب كل أنام الكوكب إلى مجتمع مثالي، تشكل على الأرض الأمريكية، وتحقيقه أولاً بالتسامح، ثم بالقوة عند الاقتضاء، وأخيراً بالتجارة، فمهمة أمريكا هي أن تدل بقية العالم على طريق التوبة والتطهير الكبير والإصلاح الاجتماعي، وتراكم الثروة بشتى الطرق»، وهو ما يعكس نظرة «رسالية» و«استغلالية» للذات تجاه العالم^(١).

فالحالة الأمريكية -منذ نشأتها- تعبر عن قوة متطلعة ذات طابع إمبراطوري خارج فكر التوازن الدولي، وهو ما حكم الرؤية الأمريكية للعالم على مدى قرنين تقريباً؛ حيث تطمح إلى أن تكون هي ذاتها النظام الدولي، وهكذا مارست دورها في العلاقات الدولية، منذ بداية توسعها الدولي، فمسيرة سياستها الخارجية منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى الآن، تأتي استجابة لعاملين: القوة المتنامية باطراد، والمصالح التوسعية الإمبراطورية، متراوحة في ذلك بين مبدأ المثالية الذي صاغه ويلسون، ومبدأ «القوة» الذي صاغه روزفلت، ولكن دون وجود خلاف على هدف «السيادة الأمريكية الكونية»^(٢).

وبدأ بروز الدور الأمريكي منذ أواخر القرن

(وتابعة)، والبعد الاقتصادي (ويتمثل عالمياً في إخضاع للاقتصاديات الأضعف للاقتصاديات الأقوى)، والبعد العسكري (ويتمثل في استحواذ الأقوى على السلاح وحرمان الأضعف منه، ومن ثم استخدامه كأداة لإحكام قبضة الأقوى على الأضعف)، والبعد الثقافي والمعرفي (ويتمثل في استحواذ الأقوى على وسائل نشر المعرفة، وحرمان الأضعف منها، واستخدام تلك الوسائل أيضاً لإحكام قبضة الأقوى على الأضعف)، والبعد القانوني (ويتمثل عالمياً في هيمنة الأقوى على المنظمات الدولية، واستحواده على السلطة، وصياغة بنود القانون الدولي بما من شأنه إطالة أمد الهيمنة).

وفي إطار هذه الأبعاد يمكن تناول أسس ومقومات الهيمنة الأمريكية، وطبيعة الصعود الأمريكي وأثره على البيئة الدولية، خلال القرن الماضي، ثم مستقبل الهيمنة الأمريكية بين الصعود والانكسار، مع بيان واقع العالم الإسلامي وتحديات الدور الأمريكي في مرحلة ما بعد الثورات التي شهدتها بعض الدول العربية خلال ٢٠١١-٢٠١٣م.

رابعاً: تقسيم الدراسة:

في إطار هذه الاعتبارات تم تقسيم الدراسة إلى أربعة مباحث، يتناول الأول: الهيمنة الأمريكية.. الأسس والمنطلقات، ويتناول الثاني الصعود الأمريكي وأثره على البيئة الدولية، ويتناول الثالث الصعود الأمريكي وواقع العالم الإسلامي، ويتناول الرابع الهيمنة الأمريكية بين الصعود والانكسار.

المبحث الأول: الهيمنة الأمريكية.. الأسس والمنطلقات:

قامت الولايات المتحدة منذ استقلالها على بناء قوتها الذاتية، وانطلقت في تقدمها بسرعة كبيرة، مستغلة قلة القيود الاجتماعية والجغرافية، وانعدام الأخطار الخارجية الجسيمة، وتدفق رأس المال الاستثماري، وقد أدى الازدهار الاقتصادي إلى ازدهار

(١) سمير مرقص، الإمبراطورية الأمريكية.. ثلاثية الثروة والدين والقوة،

[http://islamonline.net/arabic/politics/2003/03/article26.](http://islamonline.net/arabic/politics/2003/03/article26.shtml)

shtml

(٢) المصدر السابق.



أن تكون هي الدولة رقم (١) بين الدول.

وتفترض استراتيجية الهيمنة أن للولايات المتحدة مصلحة حيوية في الحفاظ على الاستقرار في النظام الدولي، وأنه من الضروري استمرار زعامة الولايات المتحدة؛ لأنها شرط للاستقرار الشامل، أما عدم الاستقرار فهو خطر لأنه يهدد بالقضاء على الرابطة التي بين أمن الولايات المتحدة والمصالح الاستراتيجية التي حققتها من خلال الاعتماد الاقتصادي المتبادل.^(١)

وترسخ فكر الهيمنة مع البدايات الأولى للدولة الأمريكية، فالهيمنة المعنوية والتجارية التي يتمتع بها الأمريكيون، القائمة على القوة العسكرية والثقة بالنفس ليست قضية حديثة العهد، بل بدأت مع ظهور أصول الأمة الأمريكية الأولى؛ حيث ظلت هذه الهيمنة تمثل جوهرها الأساس.^(٢)

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، الذي نظر إليه الأمريكيون باعتباره «قرنًا أمريكيًا»، فقد نجحت الولايات المتحدة خلاله في بناء قوة عسكرية ضخمة ومتفوقة، تتوازن مع قدرتها الاقتصادية، الأمر الذي فتح أمام القوة الأمريكية طريق الهيمنة، وإن كان التحدي السوفييتي قد عطل انطلاق الحلم الأمريكي بجعل القرن العشرين «قرنًا أمريكيًا»، فقد تأجل الحلم - من وجهة نظر البعض - إلى القرن الحالي «الحادي والعشرين»، فالولايات المتحدة - وفقًا لهم - هي مركز العالم ومحوره، وعليها أن تقود العالم في مختلف المجالات؛ تعبيرًا عن الحق والقوة معًا، وأن تقدم النموذج الذي تحتذي به كل شعوب العالم، وأصبح الفكر المهيمن هو فكر «الهيمنة».

وتقوم استراتيجية «الهيمنة» على استمرار السيطرة الجيوسياسية، وأن تسعى الولايات المتحدة إلى زيادة قوتها النسبية (مقارنة بقوة الدول الأخرى) إلى أقصى حد، فالدول تكسب الأمن ليس من خلال توازن القوى، بل عبر اختلال توازن القوى لمصلحتها، ففي عالم يتسم بالصراع والتنافس يعتمد أمن الدولة على القوة العسكرية ودعاماتها الاقتصادية، ومن الأفضل للدولة

(١) كريستوفر لين، إعادة صياغة الاستراتيجية الأمريكية الكبرى زعامة في القرن الحادي والعشرين أم توازن قوى، ترجمة أديب يوسف شيش، مجلة الفكر السياسي، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، العددان الرابع والخامس، السنة الثانية، شتاء ١٩٩٨ - ١٩٩٩م.

(٢) لا تزال أسطورة «أجدادنا المسافرين» تؤثر في العقلية العامة للأمريكيين. فهؤلاء الكلفانيون الذين وصلوا إلى «بليموث» عام =

فالعنصر الجوهرى الذى ميّز فكر المحافظين فى القرن العشرين، هو الاعتقاد باستحالة الديمقراطية، ومن ثم ضرورة وجود هيئة تنفيذية قوية أو نوع ما من الانتقائية أو حكم الأقلية، والاعتقاد بحرية الاقتصاد والتجارة، والنزعة إلى إعادة توزيع الثروة، والإيمان بالوطنية المتشددة، وكذلك الاعتقاد بأهمية القوة، وخاصة العسكرية، فى السياسة الخارجية^(٢).

ويعتبر تيار «المحافظين الجدد» أقوى تيارات المحافظين، وأكثرهم بروزاً وتأثيراً فى رسم وتشكيل توجهات السياسة الخارجية الأمريكية بعد نهاية الحرب الباردة، وقد بدأ هذا التيار فى الصعود فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن العشرين^(٤).

وإذا كان «المحافظون الجدد» هم - من وجهة نظر الكثيرين - التيار الرئيس المهيمن على صنع وصياغة توجهات السياسة الخارجية الأمريكية، وتحديد منطلقاتها، فإن المجموعة العقائدية الأكثر تجانساً داخل المحافظين الجدد، هى تلك التى بلورت ما سُمي

=القرن العشرين، باستثناء «ونستون تشرشل» و«ايرتج باييت» و«بول المرمور». و«بيرز بينهم» «رسل كيرك» و«أدموند بيرك» و«جون آدمز» و«جون راندولف» و«الكاردينال نبومان». انظر: إدوارد م. بيرنز، النظريات السياسية فى العالم المعاصر، ترجمة د. عبد الكريم أحمد، بيروت: منشورات دار الآداب، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص ٢٢٧.

(٢) يعتبر المفكر الألماني الأصل «ليو شتراوس» (١٨٩٩ - ١٩٧٣م) من أهم المفكرين الذين تأثر بهم الفكر المحافظ الأمريكي، وقد استلهم كتاباته من رائد الوجودية «مارتن ميديجر»، وقد استكمل «شتراوس» دراسته العليا فى لندن وباريس ثم فى الولايات المتحدة، حتى أصبح أستاذاً فى المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية بنيويورك، وبعدها فى جامعة شيكاغو، واستقر فى أمريكا والتحق به رفاقه من الفلاسفة تلاميذ نيته مثل «هربرت ماركوز» و«تيودور الورنو» و«ليو لاونشال». انظر: إدوارد م. بيرنز، مرجع سابق ص ٢٥٩.

(٤) كان أغلب مفكري هذا التيار من اليهود الذين ينتمون إلى اليسار الأمريكي مثل «نورمان بود هرتز» و«أرفنج كريستول» و«ثان بلزر» و«دانييل بل» و«ملفن لاسكى». ومع أوائل السبعينيات من القرن العشرين بدأت أفكار المحافظين الجدد تأخذ اتجاهاً وشكلاً محدداً، ينطلق من تعريف «أرفنج كريستول» لها بأنها: «الأفكار النابعة من الانتلجنسيا والطبقة الأكاديمية القلقة من الأفكار الليبرالية السائدة فى المجتمع الأمريكي». انظر:

Irving Kristol, Reflections of a Neo-conservative (New York: Basic Books, 1983, p. 75-76.

ومع بداية حقبة جديدة من توسع الإمبراطورية الأمريكية وتشكلها، عملت الولايات المتحدة على فرض قوتها، والظهور بمظهر القوة الإمبراطورية، وترافق طفيان القوة مع خطاب واضح لتشريع هذه الإمبراطورية. فقد بدأ عدد من المفكرين الأمريكيين يتحدثون مباشرة عن الهيمنة الأمريكية^(١).

ورسخت مقولاتهم لفكر المحافظين، ليصبح الركيزة الأساسية فى استراتيجية الولايات المتحدة خلال القرن الحادى والعشرين، والتى تسعى من خلالها لأن يصبح هذا القرن «أمريكياً» خالصاً^(٢).

= ١٦٢٠م على متن السفينة ماي فلاور» كانوا يرون فى العالم الجديد أرض الميعاد، وأنهم الشعب المختار الذى هياه الله لكي ينشئ مملكته على الأرض، «مدينة على التلة»، وأن الله كافأهم فأعطاهم الثروة ووقفهم إلى الانتصار على كل أعدائهم وخصومهم. انظر: بيير بيرنيس، القرن الحادى والعشرون لن يكون قرناً أمريكياً، صحيفة البيان، الإمارات، عدد ٢٠٠٣/٤/٩م.

(١) من بين هذه المقولات: فى عام ١٨٩٥م قال «هنري لودج»: «ما من شعب فى القرن التاسع عشر حقق ما حققناه من فتوحات واستعمار وتوسع ... وما من شيء سيوقفنا الآن»، وكتب «هنري واترسون»، عام ١٨٩٦م: «نحن جمهورية إمبريالية كبيرة مقدر لها أن تمارس تأثيراً حاسماً على البشرية، وأن تصنع مستقبل العالم مما لم تقدر عليه قط أى أمة أخرى، وحتى الإمبراطورية الرومانية». وبعد مرور عقود على مقولات لودج وواترسون، جاءت كتابات «وليام كريستول» و«روبرت كاجان» فى «ويكلي استاندرد»: «نعم أمريكا إمبراطورية ويجب أن تتصرف على هذا الأساس .. مستفيدة من تفوقها العسكري الكاسح». ووصف «برجينسكي» فى كتابه «رقعة الشطرنج الكبرى» حلفاء الولايات المتحدة بأنهم «توابع وخدم». وقال «ديفيد روثكوف»: «على الأمريكيين ألا ينفوا الحقيقة .. فإن من بين كل أمم العالم .. تعتبر أممتهم الأكثر عدلاً، والأفضل كنموذج للمستقبل». وقال الرئيس السابق جورج دبليو بوش: «إن الهدف الأساس للولايات المتحدة هو الحيولة دون صعود أى منافس محتمل لها فى المستقبل». انظر: شريف دلاور، حقبة الهيمنة الأحادية الأصول الفكرية للاستراتيجية الأمريكية، صحيفة الأهرام، القاهرة، عدد ٤٢٦٨٥، بتاريخ ٢٠٠٣/١٠/١٩م.

(٢) ازدهر فكر المحافظين منذ ثلاثينيات القرن العشرين، وكان معظم دعائه من الشباب الذين كانوا يعبرون عن خيبة أمل عميقة فى المثل العليا التى سادت فترة ما بين الحربين. ويمتدّون أن الاشتراكية والدعوة إلى السلام والتجريبية والنسبية والمادية والأناية عوامل هدم قوية تاكل قلب المدنية ذاته، وأن هذه كانت الأسباب الرئيسة فى انتشار الفاشية والنازية وقيام الحرب العالمية الثانية، والخطر الذى يمثله الاتحاد السوفيتى على كيان العالم الغربى. وليست فلسفة «المحافظين» فى جوهرها تقدمية، فاتجاههم يتحرك إلى الوراء والإعجاب بأساليب الماضى، ولا يعترفون بأى فضل لمفكرى=

أخذ يلفت الانتباه، وفي سنة ١٩١٨م، كانت قواتها العسكرية قد أخذت تضع حدًا للأزمة القائمة على الجبهة الغربية، كما تزايد تأثيرها الأيديولوجي مع مناداة رئيسها «ويلسون» بحق تقرير المصير الوطني، والسلام دون نصر، وحرية الملاحة في البحار.

لكن طريقها للسيطرة والهيمنة كان محدودًا في بدايته، فبعد عام ١٩١٩م صوّت الكونجرس إلى جانب سياسة الانعزال والحياد، كما تم التخلي عن عصبة الأمم، التي كانت بدعوة من ويلسون، والجيش الذي زاد على نحو واسع في ١٩١٧-١٩١٨م، خُفِّص على نحو واسع أيضًا، بل ظهرت اقتراحات تدعو إلى إلغاء الفيلق البحري، وذهب الأمر ببعض إلى التساؤل حول جدوى الاحتفاظ بوزارة الخارجية. كما تم إغلاق المكتب السري المسئول عن فك الشفرات الأجنبية.

وعلى الجانب الاقتصادي تبنت الولايات المتحدة سياسات تكاد تصل إلى التمرکز التام على الذات، ولكن زاد تأثير السياسة الأمريكية التجارية والمالية في الخارج، وخاصة مع تتابع الكوارث العالمية التي أعقبت انهيار وول ستريت عام ١٩١٩م، وإلغاء التجارة الدولية المفتوحة الذي أثاره مرسوم «هاولي - سموت» للتعريف عام ١٩٣٠م، وقد كان العالم بحاجة ماسة إلى «دائن أخير»، ولم يكن هناك سوى أمريكا من يملك الموارد للعب ذلك الدور، لكنها لم تفعل، ففي الثلاثينيات لم تعد تحتل موقعها الطبيعي على المسرح العالمي بل وقفت في الأطراف، بينما واجهت الديمقراطيات الغربية المستضعفة صعود الديكتاتوريات الفاشستية.

وعلى الرغم من حدة مقاومة تيار الانعزال فقد بدأت الولايات المتحدة تدريجيًا في مواجهة التهديدات في أوروبا والباسيفيك، وعلى صياغة استراتيجية للتعامل مع تلك التهديدات، فمع تدمير فرنسا والدول الأوروبية الأصغر، وغزو ألمانيا للاتحاد السوفييتي، وحصار بريطانيا، بدأ التحرك الأمريكي نحو مكانها الطبيعي عالميًا، وكان هذا هو المغزى وراء دعوة «هنري لويس»

بـ «مشروع القرن الأمريكي الجديد» على شكل مبادرة نظرية استراتيجية، لخصّ توماس دونالي (نائب مدير معهد المشروع) منطلقاتها وأهدافها قائلًا: «الولايات المتحدة هي أقوى وأهم دولة في العالم، ويجب تأكيد هذا الإنجاز وحمائته، وقيادة العالم وفق المبادئ التي حققت هذا الإنجاز، ومنع ظهور أية قوة منافسة، واعتبار العالم كله مركز نفوذ لنا»^(١).

وتتفق أغلب تيارات المحافظين حول النظر للنظام الدولي والصراعات والمشاكل العالمية المختلفة من منطلق التصادم بين قوى الخير وقوى الشر، وأن القوة العسكرية هي القوة الأساسية والوحيدة في هذا الصراع، ولذا يجب على الولايات المتحدة زيادة إنفاقها العسكري، وتسخير جميع مواردها من أجل هذا الهدف، واستخدام القوة العسكرية من أجل حماية المصالح الأمريكية، ومن أجل إسقاط أي نظام أو حركة معادية، وكذلك محاربة الأفكار والسياسات التي تدعو إلى السلم العالمي أو التعاون الدولي؛ لأن مثل هذه السياسات والأفكار تحدد وتضعف حرية أمريكا في التحرك وبسط نفوذها، مع عدم الثقة بشكل تام بحلفاء أمريكا الغربيين؛ حيث إن لهؤلاء الحلفاء أفكارهم وسياساتهم التي ربما تضر بدور أمريكا العالمي، أما العالم الثالث فإنه من الأفضل عدم الاهتمام به كقوة ذاتية وذات قيمة، إلا في إطار ما يخدم المصالح الأمريكية فقط^(٢).

المبحث الثاني: الصعود الأمريكي وأثره على البيئة الدولية:

كانت الولايات المتحدة هي البلد الوحيد الذي امتلك القدرة على تغيير الموازين الدولية، منذ بداية القرن العشرين، ففي عام ١٩١٥م كان تأثيرها المالي قد

(١) محمد جمال باروت، «احتدام الجدل حول عصبة المحافظين الجدد: مجريات ودلالات»، صحيفة الوطن، السعودية، عدد ٢٠٠٣/٤/١٠م.
(2) Ibrahim Al-Muhanna, The Neo-Conservative, The Journal of National Interest and the United States Foreign Policy, April, 1987).

عام ١٩٤١م مواطنيه لأن يدخلوا القرن الأمريكي^(١).

فلم يكن سوى الولايات المتحدة التي تملك القدرة على البناء، وتمويل قواتها وقوات حلفائها من خلال منظومة الإعارة والتأجير، وكلما تعمقت الحرب ازدادت هذه الإمكانية تحققًا، وفي عام ١٩٤٥م كانت أهداف «لويس» قد تحققت، وأصبحت أمريكا - من وجهة نظر البعض - هي «الأخ الأكبر» في كل الأنحاء، واستقرت مؤسسات بريتون وودز والبنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، ومنظمة الأمم المتحدة في الولايات المتحدة، مما يعكس هذا الواقع الجديد.

ومع التدهور في العلاقات مع الاتحاد السوفييتي وبداية الحرب الباردة، ظهر «مبدأ ترومان» بتقديم الدعم لكل الديمقراطيات التي طالبت به، وأعطيت الضمانات العسكرية إلى اليونان وتركيا، وإلى الحلفاء الآخرين في حلف الناتو، وإلى اليابان، وأستراليا، وبقية دول الأمريكيتين، وعادت القاذفات الأمريكية إلى قواعدها الجوية في بريطانيا، وعادت القوات الأمريكية إلى ثكناتها في الراين وبافاريا، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت عبارة «السلم الأمريكي - Pax Americana» أكثر انتشارًا.

إلا أنه أمام وجود الاتحاد السوفييتي، وما يملكه من قدرات عسكرية وتحالفية وأيديولوجية، فقد تكون نظام ثنائي القطبية، لكن ظلت الولايات المتحدة هي الأقوى، وامتلكت القدرة على الصمود، ونجحت في حسم صراعها مع الاتحاد السوفييتي، الذي كان يعاني هو الآخر من تحديات أكثر عمقًا وأشد تأثيرًا قادت في النهاية إلى انهياره، وانتهاء الحرب الباردة التي قاد طرفها الآخر ضد الولايات المتحدة.

لقد كان التهديد السوفييتي عَرَضًا بالنسبة للاستراتيجية الأمريكية؛ لأن طموحات أمريكا الدولية كانت قائمة بصرف النظر عن وجود الاتحاد السوفييتي، إلا أن هذا الوجود كان ضروريًا لتحقيق أهدافها الاستراتيجية؛ لأن الحرب الباردة أضفت شرعية على توسع القوة الأمريكية، وحقبة لتبرير سعي أمريكا إلى الهيمنة الشاملة^(٢).

لقد كان التهديد السوفييتي عَرَضًا بالنسبة للاستراتيجية الأمريكية؛ لأن طموحات أمريكا الدولية كانت قائمة بصرف النظر عن وجود الاتحاد السوفييتي، إلا أن هذا الوجود كان ضروريًا لتحقيق أهدافها الاستراتيجية؛ لأن الحرب الباردة أضفت شرعية على توسع القوة الأمريكية، وحقبة لتبرير سعي أمريكا إلى الهيمنة.

وقد تعددت الممارسات والسياسات، التي تبنتها الولايات المتحدة، لفرض هيمنتها، وصولاً لأن يكون القرن الحادي العشرين، أمريكيًا خالصًا، ومن هذه الممارسات وتلك السياسات:

أولاً: استراتيجية الاحتواء والردع:

بعد عام ١٩٤٥م، تقدمت الولايات المتحدة لملء الفراغ الناتج من ضعف الإمبراطورية البريطانية، وانهايار النظام الأوروبي؛ بحيث توفر ثقلًا مضادًا للاتحاد السوفييتي، وتمثل الهدف في حرمان الاتحاد السوفييتي من القدرة على توسيع دائرة نفوذه، ومن ثم الحفاظ على النظام عبر إدارة التوازن القطبي بين المعسكرين، وقد أفرزت هذه الاستراتيجية العديد من المؤسسات والشراكات التي انخرطت فيها أمريكا، كحلف شمال الأطلسي، والتحالف مع اليابان، واستمرت هذه الشراكات بعد انتهاء الحرب الباردة؛ لأنها وفرت الضمانة للاستقرار.

وقد استند جورج بوش خلال الحملة الانتخابية (٢٠٠٠م) إلى بعض مفاهيم هذه الاستراتيجية، فوصف مقاربهته للسياسة الخارجية بـ «الواقعية الجديدة»، القائمة على نقل الاهتمام الأمريكي من بناء الأمم والعمل الاجتماعي الدولي والاستخدام

(٢) كريستوفر لين، مصدر سابق، نسخة إلكترونية.

(١) كريستوفر لين، مصدر سابق، نسخة إلكترونية.

تمارس قوتها وتحقق مصالحها القومية، بطريقة تقوّي نسيج المجتمع الدولي^(١).

ثالثاً: نشر القيم والمعايير الأمريكية:

فخلال العقد الأخير من القرن العشرين، والسنوات القليلة الماضية من القرن الحادي والعشرين، حاولت الولايات المتحدة، ممارسة الضغط على البلدان الأخرى لتتبني وتطبق القيم والإجراءات الأمريكية، فيما يتعلق بحقوق الإنسان والديمقراطية؛ ومنع البلدان الأخرى من الحصول على قدرات عسكرية تمكنها من مواجهة التفوق الأمريكي؛ وتطبيق القانون الأمريكي في المجتمعات الأخرى؛ وتصنيف الدول وفقاً لالتزامها بالمعايير الأمريكية بخصوص حقوق الإنسان، والمخدرات، والإرهاب، وانتشار الأسلحة النووية والصواريخ والحرية الدينية؛ وفرض عقوبات على البلدان التي لا تطبق المعايير الأمريكية بخصوص هذه المسائل، ورفع

شعارات حرية التجارة والأسواق المفتوحة؛ وتوجيه سياسة البنك الدولي وصندوق النقد العالمي بحيث ترسخ هذه الشعارات؛ والتدخل في النزاعات المحلية التي لها فيها مصالح مباشرة محدودة نسبياً؛ وإكراه دول أخرى على اتباع سياسات اقتصادية وسياسات اجتماعية تخدم المصالح الاقتصادية الأمريكية^(٢).

رابعاً: تقارير حقوق الإنسان والحرية الدينية:

فالتقارير التي تصدرها الخارجية الأمريكية عن حقوق الإنسان في دول العالم، تُستخدم بدرجة كبيرة - من وجهة نظر الكثيرين - لابتزاز العديد من

الانتقائي للقوة، إلى الاهتمام بعلاقات القوى العظمى، وبناء القوة العسكرية الأمريكية. ومثلت جهود بوش الرامية إلى إدخال روسيا في النظام الأمني الغربي المظهر الأهم لهذه السياسة الواقعية الكبرى.

ثانياً: استراتيجية الاعتماد المتبادل:

وتمثلت في سعي الولايات المتحدة لبناء النظام من خلال العلاقات السياسية المؤسّسة على اقتصادات السوق المتكاملة، ودعمها فتح الأسواق، وفق نظام دولي تستخدم فيه الولايات المتحدة ثقلها السياسي لصوغ القواعد المناسبة التي تحمي المصالح الأمريكية، وتحافظ على مصالحها، وتوسع من نفوذها. وتمت إدارة هذه الاستراتيجية عبر سلسلة من المبادرات، والمؤسسات (بريتون وودز، ومنظمة التجارة العالمية، ومنظمة التنمية والتعاون الاقتصادي).

واستمرت الولايات المتحدة خلال التسعينيات من القرن العشرين في

السعي لتحقيق هذه الاستراتيجية، فحاولت إدارتها بوش الأب وكلينتون أن تقدما رؤية لنظام عالمي لا يعتمد على تهديد خارجي أو على توازن ظاهر للقوى، إلا أن إدارة بوش الابن لم تتحمس لهذه الاستراتيجية، رغم أنها تستخدم بعض أفكارها، «ومن ذلك القول بأن دعم دخول الصين إلى منظمة التجارة العالمية، سينشئ ضغطاً في اتجاه الإصلاح السياسي الصيني، وسيحْدان من التوجه نحو سياسة خارجية تصادمية مع الولايات المتحدة».

وقد تكاملت استراتيجيتنا الاحتواء والاعتماد، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، فوفرت الأولى الأساس السياسي للالتزامات أمنية رئيسة في مختلف أنحاء العالم، ووفرت الثانية برنامجاً إيجابياً لزعامة الولايات المتحدة للعالم. وأصبح في وسع أمريكا أن

(١) ج. جون إكبري، طموح أمريكا الإمبريالي، مصدر سابق، ص ٢٠-٢٢.

(٢) صمويل هنتجتون، القوة العظمى الانفرادية، النص المترجم متاح على الرابط التالي، http://www.qudsway.com/Links/Majal-1ah_Islam/Number_64/Html_Majallah64/64hmal1.htm

المبحث الثالث: الصعود الأمريكي وواقع العالم الإسلامي:

في العقد الأخير من القرن العشرين والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تعددت المواقف والمناسبات التي كان على صانعي السياسة الأمريكية أن يقدموا تصريحات رسمية حولها، والتي يكون بعض المسلمين طرفاً فيها، أو يحتمل أن تتضمن هذه التصريحات ما يمس مشاعر المسلمين داخل الولايات المتحدة، وخارجها، الأمر الذي تطلب تطوير سياسة خارجية أمريكية محددة ومعلنة تجاه الإسلام.

وقد تمحورت هذه السياسة حول التأكيد الرسمي المعلن، على أن الولايات المتحدة لا تعتبر «الإسلام» أيديولوجية مواجهة للغرب، بل إنها تحترم الإسلام وتعتبره واحداً من أعظم الأديان. أما أولئك الذين يلجئون إلى العنف واضطهاد الأقليات، وعدم التسامح، ويرفضون التعددية السياسية ويخالفون الأعراف المقبولة دولياً حول حقوق الإنسان، فإن الولايات المتحدة تعارضهم بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية^(٢).

وبعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، بدأت الإدارة الأمريكية، في إطار دبلوماسيتها العامة، إصدار بيانات تؤكد أن الإسلام ليس محل اتهام، وأنه قوة إيجابية في العالم وديانة تدعو للسلام والتسامح. وجاء هذه التحرك، على مستويين:

- مصلحياً، لتفادي حركة ارتدادية تتبع من أعمال العنف والعداء الموجهة ضد الأقليات المسلمة في المجتمع الأمريكي، وكذلك دفع حكومات الدول الإسلامية إلى تقديم الدعم اللازم لجهود الإدارة الأمريكية في مواجهة الإرهاب.

الدول، والتأثير في توجهاتها الخارجية، وإلا سيتم إثارة قضايا ما قد تشهده من انتهاكات وأحداث، قد تحدث عرضياً، أو بشكل فردي، أو بظغوط وتدخلات خارجية.

أما التقارير السنوية عن الحرية الدينية، فقد بدأت مع إنشاء إدارة جديدة للشئون الدينية في الخارجية الأمريكية تتولى إصدار تقرير سنوي عن الحريات الدينية في العالم، عام ١٩٩٨م، وتصدر سنوياً، وفي نفس العام أنشئ «مكتب السفير المتجول للحرية الدينية الدولية»، وعُهدت إليه «مهمة تعزيز الحرية الدينية في جميع أنحاء العالم».

وأوكلت إلى السفير مسئولية شغل منصب المستشار الرئيس للرئيس ولوزير الخارجية في القضايا المتعلقة بالحرية الدينية الدولية، ويقوم السفير والموظفون التابعون له بمراقبة الوضع العالمي للاضطهاد والتمييز الديني، والعمل على تطوير استراتيجيات لتعزيز الحرية الدينية، لمعالجة الأسباب الجذرية للاضطهاد الديني، وأيضاً كوسيلة لتعزيز المصالح الأمريكية الأساسية الأخرى، كحماية الحقوق الإنسانية الأخرى، وتشجيع تطوير ديمقراطيات ناضجة، وخوض الحرب ضد الإرهاب.

وترجع خطورة مثل هذه التقارير إلى أنها تعد مبرراً للإدارة الأمريكية كي تمارس ضغوطاً وتفرض قيوداً على الدول المتهمه بانتهاك حريات الأديان؛ حيث تنتظر الحكومة الأمريكية ردوداً من ١٥ جهة رسمية أمريكية (مؤسسات، وهيئات سياسية واقتصادية)، وتقرر في ضوء هذه الردود، العقوبة التي تقررها على الدول المخالفة، إلا أن عدم اتخاذ أية إجراءات ضد دول متهمه بانتهاك حرية الأديان، يعزز القول بأن هذه التقارير ليست سوى أداة من أدوات السياسة الخارجية للترغيب والترهيب^(١).

(٢) بوش يشجب استغلال الإرهابيين الإسلام لغايات عنيفة، ويقول: إن الولايات المتحدة تحارب الإرهاب من خلال استراتيجية مؤلفة من خمسة عناصر، نشرة واشنطن العربية، موقع وزارة الخارجية الأمريكية، عدد ١٥ نوفمبر، ٢٠٠٥م.

(١) محمد جمال عرفة، تقرير الأديان الأمريكي الرابع يكرس سيادة القرن الأمريكي، مجلة المجتمع، الكويت، عدد ٢٠٠٢/١٠/٢٠م.

السياسية والدينية»^(١).

وأن «الإسلام الحقيقي دين سلام»، و«المسلمون يحترمون قيم غيرهم»، و«هناك قيم مشتركة بين الديانات السماوية الثلاث»؛ مما يؤكد الحاجة إلى «تفاهم أكبر بين العالم الإسلامي والغرب»، وإيجاد سبل «لتواصل أفضل بين الأفراد». وأن «تقويم النصر أو الهزيمة في الحرب على الإرهاب، يُقاس بمقدار إرساء ديمقراطيات جديدة في أنحاء العالم، لتقليص المساحة التي يمكن للعدو إيجاد مأوى فيها».

كما تضمنت هذه التصريحات حثّ الشعوب الإسلامية وحكوماتها على دعم الديمقراطية والاعتدال، والتأكيد على أن الولايات المتحدة ليست في حالة حرب مع الإسلام، ولكن ليس على حساب المصالح الأمريكية^(٢). وأن الحرب «ليست صراعاً ضد الدين الإسلامي». ولكنها «صراع عبر العالم لأناس شرفاء مسلمين ضد القلّة التي تريد أن تفرض رؤيتها عليهم»^(٣). والتأكيد على رفض فكرة حتمية حدوث صدام بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية:

(١) انظر: وزارة الخارجية الأمريكية، نص وقائع المؤتمر الصحفي الذي عقده الوزير باول، مكتب الناطق الرسمي، نشرة واشنطن العربية، عدد ٢٩/٧/٢٠٠٤م. وأيضاً: بوش يشجب استغلال الإرهابيين الإسلام لغايات عنيفة، ويقول: إن الولايات المتحدة تحارب الإرهاب من خلال استراتيجية مؤلفة من خمسة عناصر، نشرة واشنطن، عدد ١٥ نوفمبر، ٢٠٠٥م. وانظر أيضاً: البيت الأبيض، نص مقابلة الرئيس بوش مع تلفزيون العربية، مكتب السكرتير الصحفي، ٥/١٠/٢٠٠٧م، نشرة واشنطن العربية، وزارة الخارجية الأمريكية، مكتب الإعلام الخارجي، عدد ٥/١٠/٢٠٠٧م.

(٢) جودي آبيتا، بوش يبعث برسالة أمل إلى الشرق الأوسط: الرئيس الأمريكي يقول: إن الولايات المتحدة لا تشن حرباً على الإسلام، نشرة واشنطن، وزارة الخارجية الأمريكية، مكتب برامج الإعلام الخارجي، عدد ٢٠/٩/٢٠٠٦م.

(٣) ستيفن كوفمان، بوش يقول: إن الإسلام دين عظيم يحض على السلام، نشرة واشنطن العربية، وزارة الخارجية الأمريكية، مكتب الإعلام الخارجي، عدد ٦/١٠/٢٠٠٧م، على الرابط التالي:

<http://usinfo.state.gov/xarchives/display.html?p=washfilearabic&y=2007&m=October&x=20071006144425bsibhew0.5126612>

- ودينياً: في محاولة لإسقاط المفهوم الأمريكي عن الدين على الإسلام، في إطار التوجهات الأمريكية المعلنة بفرضها نموذجها الديني/القيمي، على العالم، انطلاقاً من رؤيتها لدورها الرسالي في العالم.

وفي إطار هذين المستويين، تعددت التوجهات الأمريكية الرسمية تجاه الإسلام، وتفاوتت ما بين توافقية (جاءت في إطار عمليات الدبلوماسية العامة التي تبنتها الإدارة الأمريكية خلال هذه المرحلة لفرض نموذجها القيمي والمعرفي من ناحية، وتحسين صورتها بعد تداعيات حربها على الإرهاب من ناحية ثانية)، وصراعية، (جاءت في إطار سياسات القوة الأمريكية، ببعديها الديني والمصلحي، والتي أكدت إلى أي حد امتزج هذان البعدان، ولم يكن الأول مجرد رداء أو مبرر للثاني، بقدر ما كان مرجعية ودافعاً، يقوم على صعيدهما تحقيق المصالح الأمريكية، وبما يؤكد أن النموذج الأمريكي هو في جوهره نموذج مشتق من رؤى ومنطلقات دينية).

ففي إطار الدبلوماسية العامة التي تبنتها السياسة الأمريكية في مرحلة ما بعد سبتمبر ٢٠٠١م، تجاه العالم الإسلامي، تنوعت المواقف ما بين الإشادة بالدين الإسلامي، والاعتراف الرسمي بالإسلام، كديانة عالمية كبرى، والاهتمام بالمناسبات الإسلامية، والتواصل مع المنظمات الإسلامية داخل الولايات المتحدة وخارجها، والخطب الحماسية التي صدرت عن الرئيس الأمريكي باراك أوباما في عدد من عواصم الدول الإسلامية.

فقد تعددت التصريحات الأمريكية الرسمية التي تشيد بالإسلام، وإسهاماته في الحضارة الإنسانية، وأكدت على التمييز بين الإرهاب والإسلام، وأن أيديولوجية الإرهاب مختلفة جداً عن مبادئ دين الإسلام العظيم، وأن الإرهابيين متعصبون ومتطرفون، وأن تطرفهم يستغل الإسلام لخدمة رؤى سياسية عنيفة، هدفها إقامة إمبراطورية دكتاتورية، بواسطة الإرهاب والتدمير والتمرد، تمنع كل الحريات

وبجانب هذه السياسات المرنة، واستناداً لتوجهاتها القيمية والدينية، وأمام سيطرة تيارات اليمين الديني والسياسي على صياغة هذه التوجهات، تبنت السياسة الأمريكية، بشقها الرسمي في تعاطيها مع الإسلام، عددًا من السياسات الصراعية، التي تهدف منها إلى تشويه مرجعيته الدينية، وقيمه ونموذجه الحضاري، والربط بينه وبين الإرهاب، بل والفاشية، والاعتداء على المصدر الرئيس لهذه المرجعية وتلك القيم، القرآن الكريم، ودعم المرتدين عن الإسلام، بدعوى الدفاع عن الحريات الدينية، بصيغتها الأمريكية.

وفي هذا الإطار يمكن القول:
إن السياسة الأمريكية، بشقيها الرسمي وغير الرسمي، لم تسع فقط إلى فرض تصورها للإسلام على المجتمعات الإسلامية، ولكنها سعت لتحديث المبادئ والتعاليم الدينية والمؤسسات والممارسات الدينية والفقهاء المتحدثة، وتصوغها وتحدد أطرها الولايات المتحدة.

من خلال توسيع الحدود المفاهيمية، وأسس الشريعة فيما وراء القرآن والسنة لخلق نموذج قيمي معرفي، يتفق وما تهدف إلى بنائه وترسيخه في العالم الإسلامي، فبناء نموذج إسلامي، وفق مرجعية جديدة، تصوغها وتحدد أطرها الولايات المتحدة، من شأنه أن يقود تلقائيًا، وفق التصور الأمريكي، إلى القضاء على المرجعية الإسلامية القائمة، وتفتيت النموذج الحضاري الذي تأسس استنادًا إليها، والتي ترى فيه أكبر تحدٍّ يواجهه نموذجها القيمي، وبناءها الإمبراطوري الذي تسعى إلى تشكيله.

وحتى يتحقق ذلك، فلا بد من إفراغ الإسلام من مضمونه، ونزع الخصوصية التي يتمتع بها، وإعادة تشكيل الهوية التي قامت على أساسه، من خلال منطيات إقليمية يجتمع فيها مفكرو التحديث الإسلامي بانتظام للبت في الاختلافات السياسية

انطلاقًا من اعتبارات تاريخية وقيمية مشتركة^(١).

إلا أنه رغم أنه إذا كان الظاهر من هذه التصريحات، رؤية إيجابية تجاه الإسلام، فإن تحليلها الدقيق يكشف غير ذلك، ففي ثنايا عبارات المدح والثناء، يأتي التأكيد على أولوية القيم الأمريكية، ورؤيتها للديمقراطية والحرية، والنظر لإرسائها ونشرها في العالم، مصدرًا لتخليصه من شرور الإرهاب، كما تتصورها الإدارة الأمريكية.

كما أن الغالب على هذه التصريحات محاولة حصر الإسلام في مجرد شعائر وطقوس رمزية، وفق المنظور الأمريكي للدين، وتحجيم دوره كنظام للقيم وكنموذج حضاري، والتأكيد في الوقت نفسه على الخلفية الصراعية بين الإسلام والغرب،

وأنه كان «ماضيًا دمويًا»، وهو ما يشير إلى تأثير هذه الخلفية على صياغة التوجهات والسياسات الأمريكية تجاه الإسلام بين ٢٠٠١ و٢٠١٢م.

وفي ٢ أكتوبر ٢٠٠٧م، وافق مجلس النواب الأمريكي، بإجماع الأصوات على قرار يعتبر الإسلام ديانة عالمية كبرى، ويشيد بالمسلمين في الولايات المتحدة وأنحاء العالم كافة. ويشير إلى ما تعرّض له المواطنون الأمريكيون من أصل عربي وإفريقي وآسيوي من تهديدات وحوادث عنف، وخصوصًا ما تعرّض له المسلمون منهم، على خلفية الهجمات التي وقعت في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م^(٢).

(١) انظر: النص الذي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية لمقابلة باول مع تليفزيون الشرق الأوسط، مكتب المتحدث الرسمي باسم الوزارة، نشرة واشنطن، عدد ٢٠٠٤/١٢/١٣م.

(٢) انظر: مجلس النواب الأمريكي يصدر قرارًا بالإجماع يقرّ بالإسلام كأحد الأديان العالمية الكبرى، نشرة واشنطن، مكتب برامج الإعلام الخارجي، وزارة الخارجية، ٢٠٠٧/١٠/٢م، النص متاح على الرابط التالي: <http://usinfo.state.gov/xarchives/display.html?p=w:ashfilearabic&y=2007&m=October&x=20071003134828xmivotrap4.139346e-02>

صلى الله عليه وسلم، والذي تم بثه في الولايات المتحدة، ٢٠١٢م، ثم تلاه نشر عدد من الرسوم المسيئة للنبي الأعظم في إحدى المجلات الفرنسية، وإعلان عدد من الوسائل الإعلامية عن دعمها للفيلم وللرسوم، والعمل على نشرهما على أوسع نطاق.

الأمر الذي فاقم من موجات الغضب الشعبي في الدول الإسلامية تجاه الدول الغربية بصفة عامة، والولايات المتحدة بصفة خاصة، ومهاجمة مصالحها وسفاراتها في عدد من الدول العربية والإسلامية.

المبحث الرابع: الهيمنة الأمريكية بين الصعود والانكسار:

يمكن التمييز بين مجموعتين من العوامل، والتي يتوقف استمرار التفرد الأمريكي، ومدى نجاح الولايات المتحدة في جعل القرن الحادي والعشرين، قرنًا أمريكيًا خالصًا، على التوفيق بينهما، بصورة تحد من السلبيات، وتزيد من تفعيل الإيجابيات، وتتمثل هاتان المجموعتان في:

رغم أن أمريكا اختارت أفغانستان والعراق، كمختبر لفرض وصياغة نموذجها الحضاري في العالم الإسلامي، فإن هاتين الدولتين، كانتا أشبه ببالون اختبار؛ استعدادًا لممارسة ضغط أكبر، على الدول التي تشكل المحاور في العالم الإسلامي، إلا أن الاستراتيجية الأمريكية شهدت نوعًا من التغيير أو التعديل على خلفية الثورات والاحتجاجات الشعبية التي شهدتها الدول العربية والإسلامية، وأدت لإسقاط عدد من النظم السياسية الحليفة، بل التابعة للولايات المتحدة، وصعدت هذه الاحتجاجات بقوى إسلامية إلى سدة الحكم في هذه الدول.

الأولى: العوامل الدافعة:

تتعدد العوامل التي ساعدت على - ويمكن أن تساهم في استمرار - تفرد وهيمنة الولايات المتحدة، مقارنة بغيرها من القوى الكبرى في العالم، ومن بين هذه العوامل:

١- أن توافر الموارد الاقتصادية الهائلة اللازمة للصناعة الأمريكية ساهم في قدرة الولايات المتحدة على استعادة الكثير من مركزها القيادي الأول في التصنيع والإنتاج. وقد واكب هذا التجديد في الروح الصناعية عدة إجراءات قاسية، من بينها تقليص حجم اليد العاملة، والقضاء على اتحادات العمال أو إضعافها، وخلق ملايين الوظائف غير المؤمنة، وإعادة

والفلسفية والعقائدية، وتقدير قواسم مشتركة وأهداف مشتركة، تستمد من أصول ومرجعيات دينية وفلسفية وعقائدية مختلفة، من بينها الإسلام، حتى لا يكون هو المرجعية الوحيدة للنماذج الحضارية في الدول الإسلامية.

وإذا كان هذا عن التوجهات الأمريكية، تجاه الإسلام، وما أفرزته من مطالب وضغوط على الدول العربية والإسلامية، ورغم أن الولايات المتحدة اختارت أفغانستان والعراق، كمختبر لفرض وصياغة نموذجها الحضاري والقيمي في العالم الإسلامي، فإن هاتين الدولتين، كانتا أشبه ببالون اختبار؛ استعدادًا لممارسة ضغط أكبر، على الدول التي تشكل المحاور في العالم الإسلامي، إلا أن الاستراتيجية الأمريكية شهدت نوعًا من التغيير أو التعديل على خلفية الثورات والاحتجاجات الشعبية التي شهدتها الدول العربية والإسلامية، وأدت لإسقاط عدد من النظم السياسية الحليفة، بل التابعة للولايات المتحدة، وصعدت هذه الاحتجاجات بقوى إسلامية إلى سدة الحكم في هذه الدول.

ومع محدودية التأثير الأمريكي في إدارة وتوجيه هذه الثورات، وخاصة في مصر وتونس، من ناحية، وتبنيها مبدأ القيادة من الخلف (كما حدث في ليبيا واليمن والبحرين، وكما يحدث في سوريا)، من ناحية ثانية، وأمام تراجع مكانة ونفوذ الولايات المتحدة في دول الثورات العربية، من ناحية ثالثة، كان لا بد من تبني كل ما من شأنه النيل من أمن واستقرار النظم الوليدة، وتفتيت جهودها، واستنزاف قدراتها في قضايا فرعية وفي صراعات وحروب جانبية، ترتبط بأهم مكون من مكونات ثقافة وحضارة هذه الدول، وهو معتقدها الديني ورموزها الدينية، وكان التجسيد الأكبر لذلك «الفيلم المسيء للرسول الكريم «محمد»

الزيادات الهائلة المتواصلة في عدد السكان، وخطر الجماعات والتنظيمات الإرهابية، وتنظيمات تجارة المخدرات.

٢- أن أدوات الهيمنة الأمريكية الحالية، على الصعيدين الاقتصادي والتكنولوجي، سوف تتآكل تدريجياً - من وجهة نظر البعض- خلال الأعوام المقبلة، وسيكون ذلك نتيجة تعرض الولايات المتحدة لتراجع في الأداء التكنولوجي، وانكسار موجة الإنفاق المفرط على تكنولوجيا المعلومات، التي سادت خلال حقبة التسعينيات، وكانت وراء الراج والازدهار في الاقتصاد والمجتمع الأمريكي.

٣- تصاعد احتمالات ظهور دول كبرى جديدة: حيث يمكن أن يكون لظهور دول عظيمة جديدة آثاره السلبية على الولايات المتحدة، فقد تطمح هذه الدول إلى الزعامة، وإذا ما نجحت، فسوف تهدد أمن الولايات المتحدة تهديداً جدياً، كما أنه قد يؤدي إلى توتر وعدم استقرار، ولهذا يجب على الولايات المتحدة، في سبيل تنفيذ استراتيجية الهيمنة بصورة ناجحة، أن تحسب حساباً كافياً لمصالح الأمم الكبيرة؛ لئلا تتشجع على تحدي زعامتها، أو تسعى إلى قلب النظام السياسي أو الاقتصادي المستقر.

٤- الاضطراب الذي يحدث في الأطراف؛ والذي قد ينشأ نتيجة لسقوط الدول، أو للصراعات التي تنشأ بسبب الخلافات العرقية والدينية والقومية، والتي قد تحفز حلفاء الولايات المتحدة إلى العمل بصورة مستقلة من أجل الحفاظ على النظام في الأطراف، كما يمكنها أن تطلق شبح «العودة إلى القومية»، أو أن تنتقل إلى القلب أو المركز^(١).

٥- مدى القدرة على مواجهة عوامل التحلل الداخلية في الجسد الإمبراطوري؛ والتي يرصدها البعض في: العنصرية بين السود والبيض، والتي تتفاعل تحت السطح، وأن ضعف التجانس بين مختلف

توزيع الإنتاج في مواقع اليد العاملة الرخيصة في بلدان العالم النامي.

٢- ساهمت التكنولوجيات الأمريكية الجديدة في السبعينيات والثمانينيات، في تعزيز مواطن القوة الأمريكية. فأجهزة الكمبيوتر، وأنظمة الاتصالات، وتطبيقات البرمجة الجديدة والإنترنت شكلت معاً «ثورة معرفية» ما كان لها أن تتبثق إلا عن اقتصاد ومجتمع قويين، وقد وفرت هذه الثورة المعرفية دورة تغذية عكسية أفاد منها أولئك الذين أوجدوها في المقام الأول، كما أن القوات المسلحة الأمريكية أخذت بالكثير من هذه الأنواع الجديدة من التكنولوجيا، لزيادة فاعليتها القتالية.

٣- أن عشرات الملايين من معظم - إن لم يكن كل- مجتمعات العالم، كانوا يسعون للوصول إلى الولايات المتحدة؛ حيث كانوا يأملون في إيجاد حياة أفضل لعائلاتهم، ومع قبول الملايين من المهاجرين الإضافيين، فقد تعزز الإحساس بوجود ثقافة أمريكية لم تعرف حدوداً.

٤- أن هناك العديد من الدلائل التي تشير إلى إمكانية استمرار هذا التفوق الأمريكي، ومن ذلك: عولمة المعايير التجارية الأمريكية التي تستمر دون هوادة، وانتشار الثقافة الأمريكية لتصل إلى أبعد مدى يمكن تصوره، كما أن التحول إلى الديمقراطية في نسخها الأمريكية، يتصاعد في العديد من مناطق العالم، وهو ما يقود - في التحليل الأخير - إلى «أمركة» كل شيء في العالم المعاصر.

الثانية: العوامل المعوقة:

هناك عدد من الاعتبارات التي قد تحد من الهيمنة الأمريكية المطلقة، ومن ذلك:

١- تصاعد التهديدات العالمية التي تتطلب جهداً دولياً مشتركاً لمواجهتها، ولا يمكن للولايات المتحدة أن تهض بها منفردة، كالأضرار البيئية، وتداعيات

(١) كريستوفر لين، مصدر سابق، نسخة إلكترونية.

فالشعب الأمريكي ينفر من السياسة الخارجية؛ نتيجة كون بلاده محمية بمحيطين كبيرين يتقاسمهما مع جارين حليفيين، صديقين، فلا يستشعر الخطر الخارجي، وهو ما رسّخ مقولة أن القوة الأمريكية ليست لها طموحات توسعية، بل تميل إلى الانكفاء في حدودها ولا يغريها استكشاف الآخر، ولا تستسيغ سوى نمط حياتها، فتبادر بالبحث عن مسالك الخروج فور إكمال مهمتها الخارجية^(٣).

وتأكيداً لهذه الاعتبارات قال المفكر الأمريكي فريد زكريا، في مقالة تحت عنوان «نسير نحو عالم ما بعد أمريكا»: «نحن نسير بوضوح نحو عالم ما بعد الولايات المتحدة؛ حيث لا يسيطر أحد، بل تظهر الطاقة والأفكار المبتكرة كمقومات رئيسة للنجاح في القرن الحادي والعشرين.. إن المشكلة الأمريكية الراهنة هي غياب نظام سياسي يسخر كل الأشياء التي تتميز بها أمريكا ويضعها موضع التنفيذ.. إن الولايات المتحدة ليست لديها سياسة في مجال الطاقة منذ عشرين عاماً، وليست لديها سياسة هجرة ولا سياسة تجاه فرص العمل والنمو، ولا حتى سياسة تتعلق بمواجهة العجز في الميزانية».

وخلص زكريا، إلى أن القرن الحادي والعشرين ليس قرن أمريكا؛ إنما يمكن أن يكون قرن الصين. فالصين هي «الأكثر ملائمة للريادة في القرن الحادي والعشرين؛ حيث تحظى بعمالة رخيصة، وتدخل إليها مبالغ ضخمة من رعوس الأموال، كما أن بمقدورها القيام بكل ما تريده»^(٤).

خاتمة الدراسة: النتائج والتوصيات:

في دراسة بعنوان «دعم الديمقراطية ضروري للمصالح الأمنية»، وضعها «دانييال برومبيرج» و«لاري

(٣) السيد ولد أباه، قراءة في أحدث وثيقة لاستراتيجية السياسة الخارجية الأمريكية، صحيفة الشرق الأوسط، لندن، ١٩/٢/٢٠٠٤م.
(٤) سمير كرم، عالم ما بعد أمريكا بدأ بالفعل، صحيفة السفير اللبنانية، ١٩/٨/٢٠١١م. الرابط: <http://www.assafir.com/Article.aspx?EditionId=1925&ChannelId=45438&ArticleId=2265>

اللغات والأعراق التي يقوم عليها المجتمع الأمريكي، وللممارسات الظالمة في جميع أنحاء العالم والتي فتحت على الأمريكيين جبهة واسعة من الأعداء، وخطر الميليشيات اليمينية البيضاء والتي توجه خطابها السياسي إلى القاعدة العريضة من الجمهور الأمريكي، وتحذر من هيمنة الحكومة الفيدرالية في واشنطن على حياة الأفراد في البلاد، وكذلك نمو الجهاز الأمني الذي بات مؤسسة ضخمة، تستهلك مبالغ ضخمة يدفعها المواطن كضريبة فيدرالية من دخله^(١).

٦- تنامي فكر الوطنية والانعزالية في الرؤية الأمريكية: حيث يرى البعض أن هناك تطوراً صاعداً في الخطاب الأمريكي، من اعتزاز وطني منفتح على العالم والعمولة، إلى تقوقع متزمتم مهمل للآخر في العديد من الحالات، ومدين ومهين له في بعضها، واستتباب الخطاب الوطني المتشدد إلى حد التقوقع لا يعكس تأصل الانعزالية في كافة أوساط المجتمع الأمريكي، بقدر ما يشير إلى انزواء القطاعات المحبذة والمستفيدة من العمولة ومن التواصل الدولي في أعقاب صدمة سبتمبر ٢٠٠١، وبمرور الوقت أصبحت هذه الأوساط قادرة على العودة إلى اعتناق طرحها السابق.

فمعالم المواجهة الفكرية التي ارتسمت الآن في الولايات المتحدة - من وجهة نظر البعض - هي الوطنية المنفتحة على العالم، وعلى الشرعية الدولية في مقابل الانعزالية المبطللة لأي تواصل، والمنتجة للبغض والإرهاب، إزاء الوطنية الساعية إلى تحصين البلاد والتأكيد على استقلاليتها وتضرد دورها في العالم^(٢).

٧- طبيعة النظرة الداخلية للسياسة الخارجية:

(١) انظر الرابط: <http://www.newsarchive.info/shownews.asp?newsid=3365>
(٢) حسن منيمنة، الوطنية والانعزالية في المواجهة الانتخابية الأمريكية، صحيفة الحياة، لندن، ٢١/٢/٢٠٠٤م.

ضد الفارك وشافيز.

وكذلك تقرير «نيويورك تايمز» (٢٠١١/٤/١٤م) حول «مجموعات من الولايات المتحدة ساعدت على تغذية الانتفاضات العربية». والذي يتناول برامج التدريب والتمويل والرعاية التي قدمتها الولايات المتحدة للنشطاء الديمقراطيين في الوطن العربي خلال السنوات الماضية، وكذلك تقرير «الدور الأمريكي في الثورات العربية: تعبئة الاحتجاج من خلال الدبلوماسية العامة والشبكات الاجتماعية»، والذي نشره «مركز بيترسبرج لدراسات الشرق الأدنى المعاصر»، في ٢٠١١/٣/٣١م. ويظهر التقرير أن روسيا ذهبت منذ بداية الحراك الشعبي العربي، إلى اعتباره نتاجاً مباشراً لمبادرة الشراكة الشرق أوسطية التي أشرفت على ٣٥٠ برنامجاً منذ عام ٢٠٠١م تحت إدارة الخارجية الأمريكية، وخضع عشرات آلاف المواطنين العرب من خلاله للتدريب والتشبيك والتعبئة السياسية باستخدام وسائل الاتصال الحديثة^(٢).

توصيات:

في إطار هذه التقارير، وغيرها، يمكن القول: إن التأثير الأمريكي في صنع وإدارة تطورات الأحداث، على الأقل في العالمين العربي والإسلامي، وردود فعل الدول العربية والإسلامية، يتطلب مراعاة عدة اعتبارات، من بينها:

أولاً: توصيات للإدارة الأمريكية:

١- أن تقف الولايات المتحدة في وضع يمكنها من دعم حقوق الإنسان والعدالة وسيادة القانون ضد

دايموند»، و«فوكوياما، صدرت عن «معهد السلام» الذي أنشأه الكونجرس الأمريكي عام ١٩٨٤م لدراسة حل النزاعات، ووجهها المعهد للرئيس الأمريكي باراك أوباما في فبراير ٢٠١٠م^(١)، من بين ما جاء فيها:

- أن الأنظمة المتعاونة مع الولايات المتحدة في المنطقة العربية يجب أن تتم إعادة إنتاجها بصيغة ديمقراطية؛ لأن وضعها الحالي يجعلها فاقدة للمشروعية والتأييد الشعبي، مما يتركها ويترك المصالح الأمريكية معها في حالة من عدم الاستقرار.

- أن المواطن العربي يربط بين السياسات القمعية لتلك الأنظمة وبين تحالفها مع الولايات المتحدة، مما يزيد منسوب العداء للولايات المتحدة في الشارع العربي، وبالتالي يجب أن تسعى الولايات المتحدة للضغط جدياً على الأنظمة الموالية لها للقيام بإصلاحات حقيقية باتجاه الليبرالية السياسية، ولانتقادها علناً عندما تنتهك حقوق الإنسان، ولإستخدام الدبلوماسية العامة والخاصة لفرض التحول الديمقراطي.

- أن الصراع العربي - الإسرائيلي، كأحد مصادر النقمة الشعبية العربية على الولايات المتحدة، وكأحد ذرائع الأنظمة لإعاقة التحول الديمقراطي، يجب أن يتم العمل على تسويته بالتوازي مع الضغط باتجاه فرض التغيير الديمقراطي.

وتأكيداً لهذه الرؤية جاء تقرير مجلة نيوزويك الأمريكية (٢٠١١/٢/١م): حول «مدرسة وزارة الخارجية الأمريكية للمدونين الثوريين» التي تحدثت عن دور برامج تدريب المدونين في تعبئة الحراك الشبابي في مصر، وفي كولومبيا وفنزويلا

(٢) إبراهيم علوش، حول الدور الأمريكي في الحراك المعارض في

الدول الموالية، الصوت العربي الحر، -http://freeara.com/14/8/2011م bvoice.org/?p=1193

(1) http://www.swissinfo.ch/ara/detail/content.html?cid=8298350

يجر دول العالم إلى طريق مسدود، فبدون طرح حلول جادة وفعّالة لإصلاح النظام السياسي والاقتصادي والمالي العالمي الجديد، وجعله أكثر عدالة وتوازناً، فإن جذور العنف ستظل قائمة، وهنا فالمطلوب إعمال العقل الاستراتيجي الأمريكي، وليس الاحتكام إلى مجرد القوة، فالأمر يحتاج لمراجعة واسعة للسياسة الخارجية الأمريكية وممارساتها خلال التسعينيات، فالمطلوب هو إيقاف العمل بمبدأ «القوة فوق الحق»، واستبداله بمبدأ «الحق فوق القوة»، حفاظاً على السلم والاستقرار العالميين^(٢).

إن الرهان على السنن الكونية في انهيار وازدهار الإمبراطوريات، وانتظار الانهيار الأمريكي لاستعادة الحقوق المسلوقة والحريات المقموعة، لن يحقق نصراً، بل يزيد من معدلات الإحباط والكرهية، ويغرس السلبية في النفوس.

وهنا يبقى التأكيد على مقولة المفكر الأمريكي بول كيندي (١٩٩٨م): «إن الاحتمال الأكبر أن الولايات المتحدة ستدخل القرن الحادي والعشرين كقوة عالمية من الدرجة الأولى، بما يدفع للقول بأن القرن التالي يمكن أن يكون أمريكياً أيضاً. ومع ذلك فمن الحكمة أن نتذكر سؤال فولتير: «إذا سقطت روما وقرطاجة فأية قوة هي الخالدة؟» وكان جوابه «ولا واحدة».

ثانياً: توصيات للعالم الإسلامي:

١- إن الرهان على السنن الكونية في انهيار وازدهار الإمبراطوريات، وانتظار الانهيار الأمريكي لاستعادة الحقوق المسلوقة والحريات المقموعة، لن يحقق نصراً، بل يزيد من معدلات الإحباط والكرهية، ويغرس السلبية في النفوس.

٢- إن الرهان على أن تغير القوى الكبرى سياساتها، لن يحقق الأهداف المنشودة، فالحقوق يجب أن تُتزع انتزاعاً وليس رهاناً على قادم من الخارج يدافع عنها أو يحميها.

الحكومات التي لا تحترم هذه المبادئ. كما يجب عليها الدفاع عن الحريات السياسية وحرية الأفراد التي ظلت مكبوتة لسنوات طويلة في المنطقة^(١).

٢- يجب على الأمريكيين أن يتوقفوا عن التصرف والتحدث كما لو أن هذا العالم أحادي القطبية، فهو ليس كذلك. وتحتاج الولايات المتحدة في تعاملها مع أية مسألة عالمية رئيسية، إلى التعاون، على الأقل، مع بعض القوى الرئيسية، أما فرض العقوبات والتدخلات من جانب واحد فهي بمثابة وصفات تدميرية للسياسة الخارجية.

٣- يجب أن يتخلى القادة الأمريكيون عن أوهام الهيمنة اللطيفة، وأن هناك انسجاماً طبيعياً قائماً بين مصالحهم وقيمهم وبين مصالح وقيم بقية العالم، فهذا غير صحيح، ففي بعض الأحيان يمكن أن تحقق السياسات التي تقوم بها الولايات المتحدة منافع عامة، وتخدم أغراضاً مقبولة على نطاق واسع. ولكنها لا تؤدي إلى ذلك بسبب المكون الأخلاقي المتفرد في السياسة الأمريكية؛ ولكن لأنها القوة العظمى الوحيدة، وبالتالي فمصالحها تختلف عن مصالح البلدان الأخرى، وهذا يجعلها متفردة، ولكنها غير مقبولة في هذه البلدان.

٤- أن تستفيد أمريكا من وضعها كقوة عظمى وحيدة في النظام الدولي الحالي، وأن تستخدم مواردها للحصول على التعاون مع الدول الأخرى، في التعامل مع القضايا العالمية بطرق تلبي المصالح الأمريكية.

٥- إن اختصار واختزال كل مشاكل العالم إلى «مشكلة الإرهاب»، و«مواجهة الدول المارقة»، سوف

(١) آدم هينت، ست خطوات حاسمة للولايات المتحدة لتحسين علاقاتها في الشرق الأوسط، صحيفة كرسيتيان ساينس مونيتور، ٢ أغسطس ٢٠١١م.

(٢) عبد الفضيل محمود، المشهد الجديد حروب وصراعات القرن الحادي والعشرين، صحيفة السفير اللبنانية، عدد ٢٠٠١/١٢/٤.

٥- على الشعوب في الدول العربية والإسلامية، الوعي بطبيعة الأخطار والتحديات التي تحيط بها على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية والأمنية، حال استمرار سياسات الهيمنة التي تمارسها القوى الكبرى، وحال القبول والخنوع لمثل هذه السياسات والرهان على أن يكون لها دور في حماية المصالح والذود عن الحقوق.

٦- على النظم والشعوب في الدول العربية والإسلامية تجنب الخوض في كل ما من شأنه إشعال الفتن وإثارة النزاعات، وتفريغ الجهود والطاقات في مسارات بعيدة عن مواجهة سياسات الهيمنة التي تمارسها القوى الكبرى؛ لأن مثل هذه الفتن هي الركيزة الأساسية التي تُعَوَّل عليها هذه القوى في نجاح مخططاتها.

٣- إنه منذ بداية الحرب العالمية الأولى، وحتى اليوم وبعد مرور مائة عام على تاريخ بدايتها، فقدت الدول الإسلامية خلافتها، وتفتت دولها، رغم حصول الكثير منها على ما يسمى تجاوزاً «استقلال»؛ لأنه كان استقلالاً شكلياً، وظلت الدول تحت هيمنة وتسلط المستعمرين، وتحت رحمة مخططاتهم، بأشكال مختلفة، وأصبحت الدول الإسلامية في انتظار المزيد من التفتت والتجزيم.

٤- على النظم السياسية في الدول العربية والإسلامية إعادة النظر في سياساتها وممارساتها، لأنه إذا كان الهدف الرئيس من هذه السياسات وتلك الممارسات هو الحفاظ على بقائهم في السلطة، فلن يجدوا، في ظل سياسات التفتت والتجزيم، الدول والشعوب التي يحكمونها.

معلومات إضافية

البنيات السياسية والدستورية للولايات المتحدة الأمريكية:

١- الرئاسة: يعتبر رئيس الدولة هو المسك الفعلي بزمام السلطة التنفيذية حسب الدستور الأمريكي في المادة (٢) وبحكم رئاسته للدولة والحكومة فهو يرسم السياسة العامة، وله سلطة البت والتقرير في مجموع خططها وبرامجها.

٢ - الكونجرس: يتألف الكونجرس من مجلسين: الشيوخ، والنواب.

يمثل مجلس النواب السكان على أساس التمثيل العددي، ويضم ٤٣٥ عضواً، وتدوم ولايته النيابية لمدة سنتين. أما مجلس الشيوخ فيتساوى فيه تمثيل الولايات؛ حيث ينتخب الناخبون في كل ولاية نائبين بغض النظر عن عدد السكان، وعدد أعضاء مجلس الشيوخ مائة عضو، وتدوم مدة العضوية ستة أعوام يجدد ثلثهم كل سنتين.

٣ - الجهاز القضائي: يتألف الجهاز القضائي في الولايات المتحدة من المحكمة العليا باعتبارها في أعلى هرم السلطة القضائية، ومحاكم الولايات - وهي محاكم عادية - تتولى النظر في قضايا القانون العام.

كما توجد بعض المحاكم الفيدرالية المتخصصة مثل محكمة الادعاءات وهي محكمة فيدرالية مختصة بالنظر في الجرائم المرتكبة ضد الدولة، ومحكمة التجارة الدولية، ومحكمة الضريبة.

الأجهزة التنفيذية:

تنبثق هذه الأجهزة من الرئاسة؛ فهي امتداد لها، ومن أهمها:

أولاً: الإدارة: هناك جملة من المميزات التي يمكن القول: إنها تميز الحياة الإدارية الأمريكية، وهي: الاتساع العددي لطاقتهم الموظفين العاملين في الأجهزة الإدارية الفيدرالية ليناهاز الملايين.

ثانياً: مجلس الأمن القومي: أنشئ المجلس عام ١٩٤٧م بمقتضى قانون الأمن القومي، وتتمثل وظيفته الأساسية في تنسيق جميع أنشطة المصالح والمؤسسات المهتمة بالأمن القومي، وتحديد الأهداف العامة والخطط المتعلقة بقضايا الأمن القومي.

ويرأس رئيس الدولة بنفسه أعمال المجلس، ويضم وزير الخارجية والدفاع والخزانة ورئيس هيئة الأركان العامة، ويمكن دعوة عدد من كبار الموظفين حسب حاجة الموضوع محل الاهتمام.

ثالثاً: وكالة المخابرات المركزية (C. I. A): تتلخص وظائف الوكالة في ثلاث وظائف رئيسية:

أ- تقديم المعلومات والمعطيات في الميادين الاستراتيجية: العسكرية والسياسية والاقتصادية لمجلس الأمن القومي ولدائرة القرار في مجال السياسة الخارجية.

ب- تقديم التحليلات والتقويمات والتقديرات للأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية والاستراتيجية في بلدان العالم؛ بناء على طلب مجلس الأمن القومي أو الرئيس، أو عندما تتبلور لدى مسؤولي الوكالة تقويمات بشأن أوضاع بلد أو منطقة معينة في العالم.

ج- القيام بأعمال أو عمليات سرية في الخارج لتنفيذ أهداف استراتيجية أو سياسية أو عسكرية محددة في إطار برنامج السياسة الخارجية الأمريكية.

رابعاً: وزارة الدفاع: تتألف المؤسسة العسكرية من ثلاث وحدات رئيسية: قسم وزارة الدفاع التي يرأسها وزير مدني وهو المسئول الإداري المكلف بشئون الدفاع، ويخضع لرئيس الدولة مباشرة.

قسم هيئة الأركان التي تتولى تقديم المشورة العسكرية لرئيس الدولة، وتشرف على هيئات وقادة جيوش البر والبحر وسلاح الجو.

قسم القيادات المتمركزة في جميع أنحاء العالم التي يشرف عليها قائد القيادات، وله صلة إدارية بوزير الدفاع، ويخضع لإشراف واتصال من قِبَل رئيس هيئة الأركان المشتركة.

وهي عشر قيادات: قيادة الأطلسي، القيادة المركزية، الأوروبية، قيادة القوات، الباسفيك، القيادة الحكومية، الفضاء، العمليات الخاصة، الجوية والاستراتيجية، النقلات.

خامساً: الجهاز الدبلوماسي: ينقسم عمل وزارة الخارجية حسب التوزيع الجغرافي إلى إدارات: إدارة أوروبا، شئون القارة الأمريكية، شئون الشرق الأوسط وأدنى شرق آسيا، الشئون الإفريقية، المنظمات الدولية.

وحسب الناحية الفنية: الشئون القانونية، الاقتصادية، المراسيم، الاتصال والإعلام، التخطيط السياسي، الأبحاث والاستخبارات.

الهيئات والجماعات المؤثرة:

- الأحزاب السياسية: يسيطر على النظام الحزبي في الولايات المتحدة حزبان: الحزب الديمقراطي معبراً عن فئات الطبقة الوسطى والاتجاه التحرري في القضايا الاجتماعية، والحزب الجمهوري معبراً عن نزوع الفئات اليسورة التي تجمع بين السلطة الاقتصادية والنفوذ السياسي.

- الجماعات الضاغطة (اللوبي): هي إطار تتنظم فيه مجموعة ذات مصالح ومنافع مشتركة، وتستهدف التأثير على صناعة القرار من أجل توجيهه بما يتوافق ومصالحها وأغراضها.

وهناك المجموعات المرتبطة بالأصول الدينية والعرقية كاليهود والسود، وذوي الأصول اليابانية والإسبانية، وهناك أيضاً جماعات المهن والبيئة ونقابات العمال واتحادات رجال الأعمال.

وتستخدم هذه المجموعات مجموعة من أدوات النفوذ: القوة المالية، والقوة العددية أو النوعية، وتتوفر جماعات اللوبي على وضع شرعي من الناحية الواقعية والقانونية رغم أن عدداً من السياسيين والأكاديميين ينظرون إليها من منظور أخلاقي بازدرء، وقد أخذت أشكال عمل اللوبي صيغاً أكثر دقة وتطوراً في السنوات الأخيرة بحكم التقدم الحاصل في الميدانين التكنولوجي والتدبير، فأصبحوا يعتمدون على المعلومات ووسائل الاتصال الحديثة للوصول إلى أصحاب القرار.

وتذهب حقيقة العملية السياسية الأمريكية إلى أن هنالك جماعات ضغط قوية جداً ذات تأثير قوي على القرار السياسي، وهنا يبرز دور اللوبي الإسرائيلي في صناعة القرار السياسي الأمريكي الذي تتجلى قوته في

مظهرين أساسيين:

- ١- قوة موارده وضخامتها داخل الولايات المتحدة وخارجها: المالية منها والإعلامية.
- ٢- نفوذه داخل المؤسسات الأمريكية إلى أعلى قمة هرم الدولة (البيت الأبيض).

المؤسسات الاقتصادية:

تمارس المؤسسات الاقتصادية دورها في صناعة القرار من خلال عدة مظاهر:

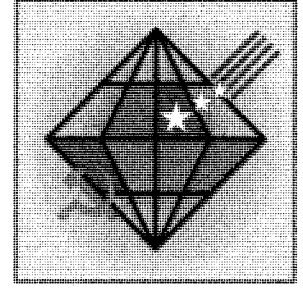
- ١- الارتباط بين المؤسسة العسكرية وشركات الصناعة.
- ٢- بروز دور قوي للشركات المتعددة الجنسيات، وتأثيرها على مجريات الأوضاع داخل بلدان العالم الثالث، ومن ثمَّ على القرار في واشنطن.
- ٣- ظهور دور المنظمات الدولية المتخصصة، وخاصة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي في توجيه القرار السياسي للبلدان النامية، وتعتبر الولايات المتحدة من أقوى الفاعلين داخل هذه المنظمات وتؤدي أكبر حصة مالية فيها.
- ٤- قيام الولايات المتحدة بأدوار دولية تركز على الاقتصاد مثل مشروع مارشال في أوروبا؛ كما كان للعامل الاقتصادي الذي استخدمته الولايات المتحدة أثره الكبير في إضعاف الاتحاد السوفييتي، ومن ثمَّ سقوطه.
- ٥ - تمدد نفوذ العائلات الغنية في أمريكا داخل مؤسسات السياسة الأمريكية؛ مما جعلها ذات أثر في توجيه القرار الأمريكي بما يخدم المصالح الاقتصادية لهذه العائلات.

المصادر:

- ١- حسن الرشيدى، قراءة في كتاب صناعة القرار السياسي الأمريكي عرض وتلخيص، مجلة البيان العدد ٤٤٤ ص ٤٨.

<http://www.intaaj.net/>

٢- الموسوعة العربية العالمية



تغيير موازين القوى في أوروبا ونشوء الاتحاد الأوروبي

أ.د. أحمد سليم البرصان

أستاذ العلاقات الدولية - جامعة الملك عبدالعزيز - جدة

ملخص الدراسة

يتجه النظام الدولي إلى التعددية القطبية مع تراجع الولايات المتحدة، وصعود قوى دولية كبرى كالصين وروسيا الاتحادية، وبروز دول من الجنوب، مثل البريكس والتي تضم كلاً من الهند والبرازيل وجنوب إفريقيا إضافة للصين وروسيا الاتحادية.

ويُعدّ الاتحاد الأوروبي أحد الأقطاب الدولية الرئيسية في النظام الدولي على المستوى الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي، يضم ٢٨ دولة، ومعظم دوله أعضاء في حلف الناتو.

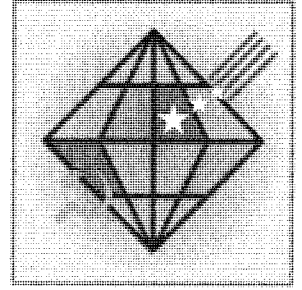
كان النظام الدولي في القرن التاسع عشر نظاماً أوروبياً؛ حيث إن الدول الأوروبية الكبرى هي التي تتحكم في السياسة الدولية وتتنافس فيما بينها. وتبنت الدول الأوروبية بعد هزيمة نابليون وعقد معاهدة فيينا ١٨١٥ سياسة توازن القوى في القارة الأوروبية، بمعنى أن لا تهيمن دولة واحدة على النظام الدولي.

خرجت أوروبا من الحرب العالمية الثانية محطمة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً، وانتقلت زعامة العالم الغربي، إن لم يكن العالم كله، من أوروبا إلى خارجها، وتحول النظام الدولي إلى ثنائي القطبية، وأصبحت أوروبا ثانوية فيه.

إن النظام الدولي يتجه نحو التعددية القطبية في ظل تراجع الولايات المتحدة عن الهيمنة على النظام الدولي؛ بسبب ما تواجهه من أزمات اقتصادية، وتراجع عسكري في العالم، مع فشلها في التدخل في كل من العراق وأفغانستان، واتجهت نحو استعمال دول أخرى لحماية مصالحها بدلاً من التدخل المباشر.

إن سياسة الاتحاد الأوروبي مع دول ما يعرف بالربيع العربي هي احتواء التحولات السياسية في جنوب المتوسط؛ لأن لها آثارها داخل مجتمعات الاتحاد الأوروبي بسبب الجاليات الإسلامية هناك والعلاقات الاقتصادية، وتحاول دول الاتحاد مع دول المتوسط إيجاد قواسم مشتركة من خلال حوار الحضارات وليس صدامها وتسمى لاستقرارها، وتعمل على التوسط في خلافاتها، مثل محاولات الاتحاد الأوروبي التوسط في الأزمة المصرية إثر الانقلاب العسكري في مصر في الثالث من يوليو ٢٠١٣م، فالرئيس الذي تمت تنحيته من قبل الجيش رئيس منتخب، وإزاحته من السلطة يتنافى مع المسار الديمقراطي الذي يدعو له الاتحاد الأوروبي، وتبقى أوروبا حريصة على عدم الصدام في منطقة البحر المتوسط، وتسمى للاستقرار السياسي، واحتواء الأزمات من أجل مصالحها الاستراتيجية في حوض البحر المتوسط.

تغيير موازين القوى في أوروبا ونشوء الاتحاد الأوروبي



أ.د. أحمد سليم البرصان

أستاذ العلاقات الدولية - جامعة الملك عبدالعزيز - جدة

مقدمة:

يتجه النظام الدولي إلى التعددية القطبية مع تراجع الولايات المتحدة وصعود قوى دولية كالصين وروسيا الاتحادية، وبروز دول من الجنوب، مثل البريكس والتي تضم الهند والبرازيل وجنوب إفريقيا إضافة للصين وروسيا الاتحادية.

والاتحاد الأوروبي أحد الأقطاب الدولية الرئيسية في النظام الدولي على المستوى الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي، يضم ٢٨ دولة، ومعظم دوله أعضاء في حلف الناتو، وفوق ذلك فهو تجمّع نصراني له علاقاته التاريخية مع العالم الإسلامي، ورفض انضمام تركيا إلى الاتحاد رغم طلبها المتكرر؛ لأنها لا تنتمي إلى الحضارة الغربية رغم علمانية الدولة التركية، وفي دراستنا للاتحاد الأوروبي وموازن القوى في أوروبا ونشوء الاتحاد الأوروبي، نتناول المحاور الرئيسية التالية:

أولاً: النظام الدولي ١٩١٨-١٩٤٥م والدور الأوروبي.

ثانياً: أوروبا والنظام الدولي خلال الحرب الباردة.

ثالثاً: الاتحاد الأوروبي بعد الحرب الباردة (الأحادي القطبية) وميزان القوى الدولي.

رابعاً: ميزان القوة الأوروبي في ظل التعددية القطبية.

خامساً: رؤية مستقبلية للاتحاد وعلاقاته بالعالم الإسلامي.

أولاً: النظام الدولي ١٩١٨-١٩٤٥م والدور الأوروبي:

كان النظام الدولي في القرن التاسع عشر نظاماً أوروبياً؛ حيث إن الدول الأوروبية الكبرى هي التي تتحكم في السياسة الدولية وتتنافس فيما بينها. وتبنت الدول الأوروبية بعد هزيمة نابليون وعقد معاهدة فيينا ١٨١٥م سياسة توازن القوى في القارة الأوروبية، بمعنى أن لا تهيمن دولة واحدة على النظام الدولي، وكان مهندس اتفاقية فيينا وزير خارجية النمسا مترنيخ الذي عرف سياسة توازن القوى التي تبنتها أوروبا بعد فيينا «بالوفاق الأوروبي Concert of Europe»^(١).

(1) Schroeder. P. Did the Vienna Settlement rest on a Balance of Power? The American Historical Review, Vol. No. 3, 97 (June., 1992), pp. 683-706.

ومتغيرة خلال القرن التاسع عشر أدت فيما بعد إلى أن تكون هذه التحالفات من أسباب الحرب العالمية الأولى، والتي حدثت بين الدول الأوروبية. فقد تشكل بعد مؤتمر فيينا ١٨١٥م الحلف المقدس بين ثلاث دول محافظة تريد استمرار سياسة الأمر الواقع وهي: النمسا وروسيا وبروسيا، ولكن هذا الحلف تراجع مع الثورات الشعبية في القارة عام ١٨٤٨م وبروز الشعور القومي، وطلب الشعوب لحريتها، وبالمقابل كان هناك التقارب البريطاني الفرنسي على اعتبار أن هاتين الدولتين أكثر ليبرالية من دول الحلف المقدس، وبرز التقارب البريطاني-الفرنسي في حرب القرم في الوقوف ضد روسيا القيصرية وأطماعها في أراضي الدولة العثمانية التي اعتبرتها الدول الأوروبية «الرجل المريض»!

وإثر قيام كل من الوحدة الإيطالية والألمانية عام ١٨٧٠ و١٨٧١م على التوالي، أثرت هذه الدول التحالف بين الدول الأوروبية، وكان بسمارك موحد ألمانيا قد اشتهر بتحالفاته السياسية في سبيل تحجيم الدور الفرنسي في القارة، ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تبلور بشكل واضح التحالف السياسي داخل القارة الأوروبية، فكانت دول الوفاق الأوروبي الثلاث: روسيا وفرنسا وبريطانيا مقابل الحلف الثلاثي: ألمانيا والنمسا وإيطاليا، وهذه التحالفات بين الدول الأوروبية لها علاقات بالصراع على المستعمرات في كل من آسيا وإفريقيا والباسيفيك.

إن دول القارة الأوروبية الكبرى المشار إليها دول صناعية بفضل الثورة الصناعية التي بدأت في بريطانيا، وهذه الدول بحاجة للمواد الخام والأسواق، وبفعل الانفجار السكاني بحاجة إلى مستعمرات، وقد عبّر عن ذلك السياسي البريطاني الاستعماري سيسيل رُودس CECIL RHODES بقوله: «كنت بالأمس في الاستد أند (حي عمالي في لندن)، وحضرت اجتماعاً للعمال العاطلين. وعندما سمعت في ذلك الاجتماع خطابات متحمسة سمتها الرئيسة

ورغم الحروب المحدودة التي نشبت بين الدول الأوروبية فقد أثرت سياسة الوفاق الأوروبي على الأمن الدولي حتى بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م، عندما وصل التنافس الدولي إلى ذروته بسبب اختلاف المصالح بين دوله مما أدى إلى اندلاع تلك الحرب التي كانت في حقيقتها حرباً بين الدول الأوروبية، ولم تدخلها الولايات المتحدة إلا في نهاية الحرب تقريباً في عام ١٩١٧م.

الدول الرئيسة في أوروبا:

إن الدول الكبرى الرئيسة التي هندست اتفاقية فيينا هي: روسيا القيصرية، بروسيا (التي قادت الوحدة الألمانية فيما بعد)، النمسا، فرنسا، وبريطانيا العظمى. وقد اتفق مترنيخ مع وزير خارجية بريطانيا كاستلريه على سياسة توازن القوى لمنع تكرار سياسة نابليون من دولة أخرى في الهيمنة على القارة الأوروبية، وبقيت هذه الدول تحافظ على سياسة الأمن والاستقرار الأوروبي حتى عام ١٨٧١م عندما حدث تغول في توازن القوى بصعود دول أوروبية قوية.

ولقد وقفت بريطانيا وفرنسا ضد روسيا القيصرية عندما تقدمت الأخيرة في شبه جزيرة البلقان الذي كان ضمن الدولة العثمانية، وحاولت روسيا الوصول إلى البحر الأسود، ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط ضمن استراتيجية الوصول إلى البحار الدافئة، ولكن فرنسا وبريطانيا وبسبب مصالحهما القومية وقفت إلى جانب الدولة العثمانية في حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦م^(١)، وكان ذلك ضمن التنافس بين دول أوروبا الكبرى في القارة الأوروبية والمستعمرات في آسيا وإفريقيا.

التحالفات داخل القارة الأوروبية:

شهدت دول القارة الأوروبية تحالفات متعددة

(1) Schroeder. P. The 19Th-Century international System: changes in Structure, World Politics, Vol. 39, No. 1 (Oct., 1986), pp. 1-26.

أصبحت ألمانيا مع عام ١٩١٤م، مع بداية الحرب العالمية الأولى، أقوى دولة في أوروبا، فقد زاد عدد سكانها من ٤٩ مليون نسمة ١٨٩٠م إلى ٦٦ مليون نسمة ١٩١٣م، وفي نفس العام كانت في مقدمة الدول المصدرة في العالم، فقد كان نصيبها من الإنتاج الصناعي العالمي ١٩١٣م، ١٤,٨٪ بينما كان نصيب بريطانيا العظمى ونصيب فرنسا ٦,١٪، مما يعني أن ألمانيا قد تفوقت على بريطانيا العظمى صناعياً^(٣).

إن التقدم الصناعي والانفجار السكاني والبحث عن مصادر القوة دفع أوروبا للبحث عن المستعمرات، فمع عام ١٨٠٠م، سيطرت الدول الأوروبية على ٣٥٪ من الأراضي اليابسة للكرة الأرضية، ومع عام ١٨٧٨م سيطرت على ٦٧٪ منها، وهو نفس العام الذي عُقد فيه مؤتمر برلين لتقسيم القارة الإفريقية بين الدول الأوروبية، ومع عام ١٩١٤م، عام نشوب الحرب، كانت الدول الأوروبية تسيطر على ٨٤٪ من يابس الكرة الأرضية^(٤).

الاستعمار الأوروبي:

انتقل الصراع داخل القارة الأوروبية إلى خارج القارة للبحث عن القوة ولإضعاف الدول المعادية، فقد كانت حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م من أجل قطع طريق الهند على بريطانيا لإضعافها، باعتبار الهند درة التاج البريطاني، وحسب رأي المؤرخة البريطانية إليزابيث مونرو^(٥)، فإن قوة بريطانيا في القرن العشرين تمثلت في أسطولها الذي يتحكم في أعالي البحار والهند، والمواد الخام والسوق لمنتجاتها الصناعية، والقوة البشرية لتجنيدتها في الجيش البريطاني، فقد

كانت هي صرخات: الخبز! الخبز!. وأثناء عودتي إلى بيتي كنت أفكر بما سمعت، واقتعت أكثر من السابق بأهمية الإمبريالية..

إن الفكرة التي أصبو إليها تمثل حلاً للمسألة الاجتماعية، أعني: أنه لكي تتقذ أربعين مليوناً من سكان المملكة المتحدة من حرب أهلية فتاكة، ينبغي علينا نحن الساسة الاستعماريين أن نستولي على أراضٍ جديدة لنرسل إليها فائض السكّان، ولنحصل على أسواق جديدة لتصريف البضائع التي تنتجها مصانعنا ومناجمنا. فالإمبراطورية -وقد قلت ذلك

مراراً- هي مسألة مَعْدَة. فإن كنتم لا ترغبون في قيام حرب أهلية عليكم أن تُصبحوا إمبرياليين.^(١)

كانت بريطانيا القوة الاقتصادية العظمى في العالم Economic Superpower، فخلال الفترة ما بين ١٧٦٠-١٨٣٠م، كانت قد ملكت ثلثي الإنتاج الصناعي في القارة الأوروبية، ومع عام ١٨٦٠م كانت تنتج ١٩,٩٪ من الإنتاج الصناعي العالمي، وتنتج ٥٣٪ من الحديد في العالم، والدولة الأولى في صناعة السفن^(٢)، كانت بريطانيا قوة بحرية في الوقت التي كانت روسيا قوة برية تبحث عن البحار الدافئة، ولكن مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين برزت ألمانيا كمنافس قوي لبريطانيا العظمى في الصناعة والقوة البحرية؛ حيث أخذت ألمانيا بنظرية ماهان بالقوة البحرية والسيطرة على العالم مما أقلق سيده البحار بريطانيا.

(١) ميغل مرتين، الاستعمار الإسباني في المغرب ١٨٦٠-١٩٥٦م، جريدة المناضل (المغرب)، ٥ مايو ٢٠١٢م، على الرابط التالي:

<http://www.almounadil-a.info/article2801.html>

(2) Paul Kennedy, The Rise and Fall of the Great Powers: Economic change and Military conflict from 1500 to 2000, London: Fontana Press(1987).

(3) Ibid.

(4) Ibid.

(5) Monroe, E. Britain's Moment in the Middle East, 1914-1956, JohnHopkinsUniversityPress(1963).

صورها في نقل السود إلى العالم الجديد. وفي آسيا مارس العنصرية والاضطهاد ضد سكان البلاد، واتبع سياسة «فَرَّقْ تَسُدْ»، وكانت حرب الأفيون على الصين التي قادتها بريطانيا على الصين عام ١٨٣٩م، وهي حرب لا أخلاقية ضد الشعب الصيني، ثم فرض سياسة الباب المفتوح على الصين عام ١٩٠٠م.

الدول الأوروبية والدولة العثمانية:

سيطرت الدولة العثمانية على ثلث القارة الأوروبية، وحاصرت فيينا عاصمة الإمبراطورية النمساوية عام ١٦٨٣م، وعندما تحالفت الدول الأوروبية النصرانية، على حد تعبير البروفسور والتر وليتش تم «انتصار الجيش النصراني على الجيش العثماني»^(٢)، ولكن الدولة العثمانية تراجعت قوتها، وأخذت في الضعف حتى أُطلق عليها «الرجل المريض»، وأحياناً «المسألة الشرقية».

كانت أوروبا تنظر إلى الدولة العثمانية -رغم قوتها- على أنها ليست جزءاً من النظام الدولي الأوروبي، وتعتبر السلطان العثماني في مرتبة أقل من مراتب ملوك أوروبا، وهذا يؤكد النظرة الصليبية التي كانت -وما زالت - عالقة بأذهان أوروبا ضد دولة إسلامية هددت القارة الأوروبية، وسيطرت في أوج عهدها على ثلث القارة، وكانت معظم المعاهدات الأوروبية مع الدولة العثمانية باسم Highness أي مستوى الأمراء الأوروبيين، ولكن في عام ١٨٥٤م تمت مخاطبة السلطان العثماني في الرسائل والمعاهدات الرسمية بلقب صاحب الجلالة أسوة بمرتبة ملوك أوروبا.

وكان الدافع وراء هذا التحول، هو قبول الدولة العثمانية رسمياً وليس واقعياً ضمن توازن القوى

كان يُرَوَى: أن بريطانيا تقاتل في آسيا لآخر جندي هندي.

وعندما فشل نابليون الثالث إمبراطور فرنسا في تعزيز قوة فرنسا داخل القارة الأوروبية، توجه لاحتلال الجزائر ١٨٣١م لضمها لفرنسا كعمق استراتيجي جنوب المتوسط؛ عوضاً عن فشلها داخل القارة الأوروبية أمام بريطانيا والنمسا وبروسيا،

وكان مؤتمر مدريد عام ١٨٨١م من أجل المغرب العربي، وبعده احتلت فرنسا تونس ١٨٨١م، وكانت ترغب فيها إيطاليا والتي قايضتها فيما بعد على إطلاق يد إيطاليا في ليبيا ١٩١١م، وقايضت فرنسا بريطانيا بدلاً من تونس في أن تكون مصر من نصيب بريطانيا ١٨٨١م. وبذلك أصبحت أراضي الدولة العثمانية

يتم تقسيمها بين الدول الأوروبية، ثم فيما بعد المغرب بين فرنسا وإسبانيا عام ١٩١٢م عندما فرضت الحماية على المغرب.^(١)

وامتد الاستعمار الأوروبي لإفريقيا جنوب الصحراء وإلى آسيا، وكان الاستعمار الأوروبي عنصرياً ينظر للشعوب الأخرى في آسيا وإفريقيا بأنها شعوب متخلفة بربرية، استعمل التبشير في القارة السوداء وسيلة للاستعمار والاستيلاء على الأراضي.

وتمثل ذلك في سيطرة الرجل الأبيض على أراضي القارة السوداء، وكان النظام العنصري في جنوب إفريقيا دليلاً واضحاً على عنصرية الاستعمار الأوروبي وعدم إنسانيته؛ رغم رفعه لشعارات الليبرالية والحرية وحقوق الإنسان، ومارس الرجل الأبيض تجارة الرقيق في القارة السوداء بأبشع

(١) علي محافظة، موقف فرنسا وبريطانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩-١٩٤٥م، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية (١٩٨٥م)، ص ١٣-٢٤.

(2) Walter Leitsch, 1683: The Siege of Vienna, History Today Vol. 33 No.7 (1983).

وسباق التسلح، وغيرها من الأسباب، ولم تكن رصاصة اغتيال ولي عهد النمسا في ٢٨ يونيو ١٩١٤م إلا الشرارة التي أشعلتها، فبدأت الحرب في ٢٨ يوليو ١٩١٤م، وانتهت ١١ نوفمبر ١٩١٨م.

كان التنافس البريطاني - الألماني حادًا، فقد حذر بسمارك أثناء حكمه من التوسع الألماني خارج القارة الأوروبية، وركز جهوده على بناء نفوذ ألمانيا داخل القارة الأوروبية، ولكن بعد إقالته في ١٨٩٠م، أخذت ألمانيا سياسة جديدة في البحث عن مستعمرات في إفريقيا؛ لأنها أصبحت قوة صناعية تفوقت على بريطانيا العظمى، وكان الصراع محتدمًا بين روسيا القيصرية وإمبراطورية النمسا-المجر في البلقان على أشده؛ بسبب دعم الروس للصرع السلاف في البلقان.

أما ألمانيا الصاعدة فقد وطّدت علاقاتها مع الدولة العثمانية؛ من خلال تدريب الجيش العثماني، ومد خط سكة حديد برلين إلى إسطنبول وبغداد مما أقلق بريطانيا العظمى؛ حيث نفوذها ووجودها في درة التاج البريطاني في الهند، ومنطقة الخليج العربي هي حلقة الوصل، وكانت بريطانيا قد بسطت نفوذها باحتلال عدن ١٨٢٣م وفي بلاد فارس ومنطقة بحر العرب والمشيكات، وكانت فرنسا قلقة على نفوذها في المغرب العربي بعد أزمة أغادير ١٩١١م عندما زار الطراد الألماني أغادير متحدثًا لفرنسا ومؤشرًا على قوة ألمانيا، وأنها جادة في البحث عن النفوذ في القارة السوداء.

دخلت المحاور الأوروبية، دول الوفاق الثلاثي، روسيا وبريطانيا وفرنسا في حرب مع التحالف الثلاثي، ألمانيا والنمسا وإيطاليا، وإن كانت الأخيرة لم تنتهج سياسة الهجوم في الحرب، ثم جرّ حزب الاتحاد والترقي في الدولة العثمانية البلاد للحرب بجانب ألمانيا، علمًا بأنه لا مصلحة للدولة العثمانية في المشاركة في الحرب، ثم مع نهاية الحرب تقريبًا دخلت الولايات المتحدة إلى جانب الوفاق الثلاثي

الأوروبية؛ حيث إن ضعف الدولة العثمانية جعل الدول الأوروبية تخشى من بعضها، في تقسيم هذه الدولة وخاصة الخطر الروسي الذي كانت كل من فرنسا وبريطانيا تخشاه في التوسع على حساب أراضي الدولة العثمانية، وكان هذا السبب في دخولهم - كما أسلفنا - حرب القرم إلى جانب السلطان العثماني^(١).

وقد طالبت الدول الأوروبية الدولة العثمانية بإجراء إصلاحات سياسية - كما تطالب واشنطن اليوم - والهدف منها إدخال القوانين الأوروبية العلمانية للدولة العثمانية، فصدر خط شريك كاخانة عام ١٨٢٩م، ولقد استغلت قوى التبشير النصرانية خط كاخانة، وقال أحد المبشرين الفرنسيين: «كان عام ١٨٢٩م عامًا عظيمًا بالنسبة للتوغل الفرنسي في تركيا.. لقد كان بداية التنظيمات والسنة الأولى في الإصلاح.. ونحن رجال الدين سنبدأ بالاستفادة من هذه الليبرالية الخجولة، ونبدأ بإرسال إرسالية تبشيرية للتعليم الكاثوليكي»^(٢).

وصدر أيضًا عام ١٨٥٦م الخط الهمايوني، وأكد أيضًا على المساواة بين المسلمين وغير المسلمين وسمح للنصارى وغيرهم ببناء المعابد ودعا للحرية الدينية، وسمح للأجانب بالتملك في الدولة العثمانية. كان خط همايون إرضاء لبريطانيا وفرنسا بسبب موقفهما في حرب القرم، وموقفهما المساند ضد التقدم الروسي، ومحاولة روسيا تقسيم الإمبراطورية العثمانية في الوقت الذي تحقق كل منهما أقصى نصيب من الرجل المريض!!

الحرب العالمية الأولى وتقسيم العالم الإسلامي:

قادت الصراعات بين دول النظام الدولي الأوروبي إلى الحرب العالمية؛ بسبب التنافس على المستعمرات،

(1) J. C. Hurewitz, Ottoman Diplomacy and the European State System, Middle East Journal, vol.15 no.2, (Spring 1961), pp.141-151.

(٢) قيس العزاوي، الدولة العثمانية: قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، بيروت: الدار العربية للعلوم، (١٩٩٤م).

وكان الاتحاد السوفييتي قد بقي متعافياً اقتصادياً بسبب سياسة التخطيط المركزي، وهيمنة الدولة على وسائل الإنتاج، ولكن ما يهمننا هو آثار الحرب العالمية الأولى على العالم الإسلامي.

آثار الحرب العالمية الأولى على العالم الإسلامي:

كانت الدول الأوروبية -ولا زالت- ترى في وحدة العالم الإسلامي في قيادة مركزية خطراً عليها؛ فالدولة العثمانية دولة إسلامية تجمع الشعوب الإسلامية تحت مظلتها رغم ضعفها، وكانت الخلافة الإسلامية رمزاً للوحدة الإسلامية، فبعد الحرب وتقسيم المنطقة العربية وفقاً لاتفاقية سايكس-بيكو ١٩١٦م، ثم منح بريطانيا وعد بلفور ١٩١٧م لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين؛ حتى تضمن تفكيك المنطقة الإسلامية، وفصل الجناح الإفريقي عن الآسيوي للعالم الإسلامي، كان وعد بلفور قد أيدته الدول الأوروبية، وكذلك الولايات المتحدة، وكانت سياسة الدول الأوروبية تميل نحو إقامة كيانات سياسية متناحرة رسمت حدودها بريطانيا وفرنسا؛ حتى تضمن البقاء فيها، وحتى إن خرجت تعود إليها، ولقد عبّر المؤرخ الأمريكي ديفيد فرومكين بقوله: «لقد كان عصراً اصطُنعت فيه بلدان الشرق الأوسط وحدوده في أوروبا. فالعراق وما نسميه الآن الأردن، على سبيل المثال هما اختراعا بريطانيا، والخطوط الحدودية رُسمت على خارطة بيضاء من قِبل سياسيين بريطانيين بعد الحرب العالمية الأولى، بينما أنشئت حدود المملكة العربية السعودية والكويت والعراق من قِبل موظف مدني بريطاني عام ١٩٢٢م (هو: بيرسي كوكس). ورسمت فرنسا الحدود بين المسلمين والمسيحيين في سوريا ولبنان. ورسمت روسيا الحدود بين المسلمين والمسيحيين في أرمينيا وأذربيجان السوفيتية»^(١).

وَصِفَتْ بريطانيا العظمى -عن حق- بأنها عقّادة

(١) ديفيد فرومكين، سلام ما بعده سلام: ولادة الشرق الأوسط، ١٩١٤-١٩٢٢م، ترجمة أسعد كامل إلياس، لندن: رياض الريس للكتب والنشر (١٩٩٢م)، ص ١٥.

وكذلك اليابان، بينما دخلت بلغاريا إلى جانب ألمانيا.

ولكن الدول الأوروبية كانت أهدافها ممتلكات الدولة العثمانية وتقسيمها، فكانت اتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦م بين دول الوفاق الثلاث، وعندما قامت الثورة البلشفية في أكتوبر ١٩١٧م، ومع انسحاب روسيا من الحرب كُشفت الاتفاقية السرية. ومع نهاية الحرب أصبحت أوروبا تواجه انقساماً أيديولوجياً حاداً مع الشيوعية في الاتحاد السوفييتي الجديد والرأسمالية الغربية.

وبعد الحرب وبسبب شروط مؤتمر فرساي ١٩١٩م القاسية، والتعويضات على ألمانيا، وتذمرها، وانسحاب الولايات المتحدة من المشهد الأوروبي والعودة إلى سياسة العزلة بسبب رفض الكونجرس الأمريكي المشاركة في عصبة الأمم، ظهرت ألمانيا من جديد عقب قيام الحزب الوطني الاشتراكي (النازي)، وتولي هتلر الحكم في ألمانيا ١٩٣٣م، وكان موسوليني قد تولى الزعامة في إيطاليا وقيادة الحزب الفاشي، وفي الاتحاد السوفييتي حيث الماركسية وزعامة ستالين، فأصبح المشهد الأوروبي صراع أيديولوجيات وقوميات، وشعرت بريطانيا أنها مهددة في مصالحها من جديد، وفشلت دبلوماسية الترضية، وكانت المواجهة بسبب بولندا عام ١٩٣٩م في حرب استمرت حتى عام ١٩٤٥م.

كانت أوروبا في فترة ما بين الحرب ما زالت القوة الرئيسة المهيمنة على السياسة الدولية والمركز الاقتصادي العالمي، رغم الاختلافات بين الدول؛ لأن الدول الرئيسة المؤثرة عالمياً هي الدول الأوروبية، رغم حالة الصراع بين أنظمة شمولية ودول تعتبر نفسها ديمقراطية ليبرالية، ولكنها في واقع الحال استعمارية تنتهك حقوق الشعوب الضعيفة في إفريقيا وآسيا.

وحتى رغم الأزمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩م التي اجتاحت الولايات المتحدة الأمريكية، وانتقلت لأوروبا إلا أن أوروبا، وخاصة لندن، كانت المركز المالي العالمي،

وسياسات كانت نتيجة تفاعلات داخلية وإقليمية، فالتنافس الدولي بين الدول الأوروبية على المستعمرات والهيمنة في أوروبا كانت له أسبابه الداخلية أيضًا، وكذا الثورة الصناعية وما ترتب عليها من البحث عن الأسواق والمواد الخام، وإيجاد فرص عمل كما عبّر عنه بصراحة سيسل رودس، وقرار بلفور عام ١٩١٧م كانت له دوافعه الداخلية في بريطانيا المتعلقة بالحرب العالمية الأولى، وله أسباب استراتيجية ودينية وتنافس دولي، وحتى بروز النازية والفاشية في كل من ألمانيا وإيطاليا كان لهما أسبابهما الاجتماعية داخل كل دولة إضافة إلى الظروف الدولية، فقد كان موسوليني يقول عن البحر الأبيض المتوسط (بحرنا)، يرجو

بذلك إعادة أمجاد الإمبراطورية الرومانية!!

ثانيًا: أوروبا والنظام الدولي خلال الحرب الباردة:

خرجت أوروبا من الحرب العالمية الثانية محطمة اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا، وانتقلت زعامة العالم الغربي، إن لم يكن العالم كله، من أوروبا إلى خارجها، وتحول النظام الدولي إلى ثنائي القطبية، وأصبحت أوروبا ثانوية فيه.

وإذا كان تشرشل رئيس وزراء بريطانيا في الحرب العالمية قد برز تحالفه مع الاتحاد السوفييتي بزعامة ستالين بقوله: «أتحالف مع الشيطان ضد هتلر، فبعد الحرب اختلف السوفييت مع الولايات المتحدة وحلفائها، وطرح تشرشل «سياسة الستار الحديد Iron Curtion»⁽³⁾ في مارس ١٩٤٦م ضد السوفييت، ودعا الدبلوماسي جورج إلى سياسة الاحتواء ضد

(3) Churchill, Winston. «Sinews of Peace (Iron Curtain)». Churchill Centre. Retrieved 26 February 2007. <http://www.winstonchurchill.org/learn/speeches/speeches-of-winston-churchill/120-the-sinews-of-peace>.

العُقد، ففي الدول التي استعمرتها سواء في إفريقيا أو آسيا أوجدت مشاكل جمة داخل مستعمراتها يصعب حلها، وبعضها ما يزال وسيبقى يستعصي على الحل من الهند إلى فلسطين، ونيجيريا وغيرها كثير، ولذلك وُجدت دول قُطرية هجينة، وكما قال روجر أوين: إن

الدولة القُطرية ليست ظاهرة محلية، بل شيئاً أجنبياً ومستورداً من الخارج، فالقوى الخارجية هي التي رسمت الحدود وقرّرت من يحكم وما شكل الحكم⁽¹⁾، بل إن الدولة القُطرية العربية ثمرة هجينة وُلدت ولادة غير طبيعية، وبواسطة قوى أجنبية. يقول قرني: «إنها مشوّهة ومحاصرة ومأزومة، وكأنها وُجدت لتبقى،

وذلك بفعل قوى خارجية مهيمنة على النظام الدولي، ولا مصلحة لها في اختفاء هذه الدول من ناحية، وبفعل قوى داخلية، إما أن لها مصالح فيها أو تعودت واستمرأت وجودها من ناحية أخرى».⁽²⁾

ونلاحظ ما يتردد حاليًا بأن الشرق الأوسط الذي صنعتته سايكس بيكو الأوروبية لم يحقق الاستقرار، وكأننا بسايكس بيكو جديدة، ولكن سايكس بيكو أمريكية -روسية ومعها أوروبا!!

ولم تنته الحقبة الأوروبية في الهيمنة على النظام الدولي حتى أدت السياسة والاستراتيجية الأوروبية إلى قيام إسرائيل في قلب العالم الإسلامي، ونلاحظ أن السياسة الأوروبية وما نتج عنها من قرارات

(1) Owen, Roger. State, Power, and Politics in the Making of Modern, Middle East, London: Routledge, (1992), p. 11.

(2) بهجت قرني «وافدة، متغربة، ولكنها باقية: تناقضات الدولة القُطرية العربية» في غسان سلامة وآخرون (تحرير)، الأمة والدولة والاندمج في الوطن العربي، الجزء الأول، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، (١٩٨٩م)، ص ٢٩-٧٢. وانظر: قرني «وافدة، متغربة، ولكنها باقية: تناقضات الدولة القُطرية العربية» المستقبل العربي، السنة ١٠، عدد ١٠٥ (تشرين ثاني ١٩٨٧م)، ص ٢٤.

واشنطن إلى تقديم المساعدات الاقتصادية إلى أوروبا الغربية، فقد أعلن وزير الخارجية الأمريكي عام ١٩٤٧م في خطاب له في جامعة هارفارد عن تقديم الولايات المتحدة لحوالي ١٧ مليار دولار لمساعدة حلفائها الغربيين في أوروبا، وخاصة بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية.

وقد رفض السوفييت مساعدات مارشال^(٢)، وانتقل الثقل المالي العالمي من لندن إلى نيويورك، وكانت

مساعدات الولايات المتحدة عبر مشروع مارشال لها أهدافها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية؛ فقد خافت واشنطن من أن يؤدي تردّي الأوضاع الاقتصادية إلى أن تقع الدول الأوروبية (حليفها) في يد الأحزاب الاشتراكية من خلال كسب الطبقة العاملة إلى جانبها في الانتخابات البرلمانية، واستطاعت

أوروبا أن تنهض باقتصادها خلال العقدين التاليين من الحرب العالمية الثانية في مرحلة كانت الحرب الباردة على أشدها بين معسكر السوفييت والمعسكر الغربي بزعامة الولايات المتحدة.

وقد استفادت الولايات المتحدة نفسها من تحطم الاقتصاد الأوروبي؛ فقد أصبحت المهيمنة على التجارة الدولية والقوة الصناعية العالمية، ولكن بعد تعافي الاقتصاد الأوروبي أخذت أوروبا تنافس الولايات المتحدة تجارياً في العالم، مما دفع الرئيس الأمريكي نيكسون عام ١٩٧١م إلى أن يلغي اتفاقيات بريتون وودز في تحويل الدولار للذهب، أي إلغاء القاعدة الذهبية للدولار؛ خوفاً من استنزاف الاحتياطي الأمريكي من الذهب إزاء نمو الاقتصاد الأوروبي، و بروز ظاهرة اليودولار، أي: تجمع ملايين الدولارات في البنوك الأوروبية بسبب

السوفييت، وإقامة الأحلاف العسكرية من حلف الناتو ١٩٤٩م إلى حلف بغداد، وبعده حلف سنتو، وبالمقابل شكّل السوفييت وحلفاؤهم حلف وارسو ١٩٥٥م.

من الهيمنة إلى تقسيم القارة:

بعد أن كانت الدول الأوروبية تهيمن على النظام الدولي، وتمتد مستعمراتها عبر القارات، فقد أدت الحرب العالمية الثانية إلى تقسيم القارة، فصارت

دول أوروبا الشرقية ضمن الفلك السوفييتي تتبنى الماركسية وأنظمة حكم شمولية، يحكمها نظام الحزب الواحد، وشكلت مع السوفييت حلفاً عسكرياً وتكتلاً اقتصادياً، وبالمقابل أصبحت أوروبا الغربية؛ (بريطانيا وفرنسا وإيطاليا)، وغيرها، ضمن التكتل الغربي بزعامة الولايات المتحدة، وتحت حماية

المظلة النووية الأمريكية، وهُدّد الرئيس الأمريكي ترومان بالتدخل الأمريكي في حالة وصول الأحزاب الاشتراكية في أوروبا للحكم، وكان مبدأ ترومان عام ١٩٤٧م موجهاً للخطر الشيوعي لليونان، وإيطاليا بسبب قوة الأحزاب الاشتراكية فيها.^(١)

أما ألمانيا فقد تم تقسيمها لألمانيا الغربية ضمن حلف الناتو والمعسكر الغربي، ووجود القوات الأمريكية فيها، وتقسيم العاصمة برلين، وألمانيا الشرقية ضمن حلف السوفييت.

مشروع مارشال ومساعدة أوروبا اقتصادياً:

إن انهيار الاقتصاد الأوروبي في الحرب دفع

(1) McGlinchey, Stephen. The Marshall Plan, The Truman Doctrine, and the Division of Europe», e-International relations (October 13, 2009). (<http://www.e-ir.info/2009/10/13/the-marshall-plan-the-truman-doctrine-and-the-division-of-europe/>).

(2) Ibid

وكذلك لعبت الولايات المتحدة في بعض الدول الإفريقية والآسيوية مع أحمد سوكارنو في إندونيسيا ووقفت مع الثورة المصرية عام ١٩٥٢م وانقلاب الضباط الأحرار فرفضت الولايات المتحدة التدخل العسكري البريطاني ضد الانقلاب في مصر، وعند العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م (بريطانيا، فرنسا، إسرائيل) ضد مصر بسبب تأميم قناة السويس كان موقف الرئيس الأمريكي أيزنهاور حازماً في سحب كل من فرنسا وبريطانيا قواتهما من مصر^(١)، وكذلك أذعن رئيس وزراء إسرائيل بن غوريون لأول مرة للضغط الأمريكي للانسحاب من سيناء.

وإذا أخذنا مقولة بول كنيدي حول تراجع القوى الاستعمارية عندما تكون تكاليف الاستعمار أكبر من العائدات التي تحصل عليها، فبعد الضعف الأوروبي وتراجع قوتها وبروز القوى غير الأوروبية المتمثلة في الولايات المتحدة للهيمنة على النظام الدولي، وعلى إثر ذلك استقلت كل من المغرب وتونس والسودان عام ١٩٥٦م، وفيما بعد استقلت الكويت والجزائر عام ١٩٦٢م، والبحرين والإمارات العربية وقطر وعمان عام ١٩٧١م، وكذلك فقدت بريطانيا سلطانها في اليمن مع الانقلاب اليمني عام ١٩٦٢م رغم دعمها للإمام البدر، واستقلال اليمن الجنوبي عام ١٩٦٧م، وبذا نلاحظ تراجع الدور الأوروبي في ظل النظام الثنائي القطبية، وأخذت تعاني الدول الأوروبية من مشكلات داخلية، مع حدة التنافس بين اليمين واليسار، وفي هذه الأثناء كانت الحركة الطلابية والعمالية في فرنسا قد أسقطت ديغول عام ١٩٦٩م برفضها إصلاحاته.

التكتل الاقتصادي للجماعة الأوروبية:

شعرت الدول الأوروبية بالضعف والإنهاك بعد الحرب وملايين القتلى، كما أن نفوذها قد تراجع

(3) Kunz, Diane, The Economic Diplomacy of the Suez Crisis, The University of North Carolina Press 91991).

امتاع واشنطن عن استبدالها بالذهب.^(١)

خروج أوروبا من مستعمراتها في ما وراء البحار:

واجهت الدول الاستعمارية الأوروبية حركات التحرر في إفريقيا وآسيا، وبسبب ضعفها ودعم القوى العظمى المتمثلة في كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي لاستقلال الدول في إفريقيا وآسيا؛ كل لأسبابه السياسية والاقتصادية في حمى الحرب الباردة، وكانت الولايات المتحدة تريد أن تبسط نفوذها السياسي والاقتصادي في المستعمرات البريطانية والفرنسية فشجعت على استقلالها، وخاضت أحياناً منافسة قوية مع كل من بريطانيا وفرنسا التي حاولت مع بريطانيا التمسك بنفوذها، ولذلك شجعت الولايات المتحدة الانقلابات العسكرية كوسيلة لبسط النفوذ في دول العالم الثالث؛ لأن المؤسسة العسكرية أقوى مؤسسة في الدول النامية، ونعطي مثلاً من المنطقة العربية عندما هندست الاستخبارات الأمريكية CIA انقلاب حسني الزعيم في سوريا عام ١٩٤٩م لمد أنبوب التابلاين إلى السواحل السورية على البحر المتوسط^(٢)، ومدّ بالفعل لخدمة شركة البترول الأمريكية، وكانت بريطانيا بسبب مصالح شركاتها ضد الانقلاب، وبعد ستة أشهر دعمت لندن سامي الحناوي للقيام بانقلاب عسكري على حسني الزعيم وقلته.

وكذلك شجعت الولايات المتحدة على استقلال الجزائر، ورفضت استعمال قوات الناتو لمساعدة فرنسا، وقد أزعج هذا الموقف السياسي الجنرال ديغول، مما أدى لتجميد مشاركة فرنسا العسكرية في حلف الناتو.

(١) روبرت غيلين، الاقتصاد السياسي للعلاقات الدولية، دبي: مركز الخليج للأبحاث والدراسات (٢٠٠٤م)، خاصة الفصل الخاص باتفاقية بريتونوودز وظاهرة البترودولار والبيروودولار.

(2) Little, D. 1949-1958: Early Experiments in Covert Actions, Press for Conversation? Issue No. 51, (May 2003), pp.12-13. (http://coat.ncf.ca/our_magazine/links/issue51/articles/51_12-13.pdf)

اتفاقية باريس في ١٨ أبريل ١٩٥١م لقيام الجماعة، ودخلت الاتفاقية حيز التنفيذ في ١٠ أغسطس ١٩٥٢م، وبذلك بدأت مرحلة التكتل الأوروبي حتى تحولت عام ١٩٩٢م إلى الاتحاد الأوروبي، وعقدت معاهدة روما عام ١٩٥٧م^(٢)، كان الهدف من الجماعة هو احتواء ألمانيا، والحد من عملية تسليحها، وعادت السيادة الكاملة لألمانيا عام ١٩٥٤م، وقبلت عضواً في حلف الناتو على قدم المساواة مع بقية الدول الأعضاء في الحلف.

كان الهدف من الجماعة الاقتصادية: التعاون بين الدول الست لإبعاد شبح الحرب مرة أخرى، وللتقريب بين ألمانيا وفرنسا بعد طول العداوة بينهما، فقد احتلت ألمانيا العاصمة الفرنسية ثلاث مرات في تاريخ ألمانيا الموحدة.

وقد ترددت بريطانيا كعادتها في دخول الجماعة الاقتصادية الأوروبية (السوق)، وقد وقف الرئيس الفرنسي ديغول ضد دخولها لخلافات سياسية، وعلاقة ديغول المتوترة مع واشنطن، والخلافات في حلف الناتو، وانسحاب فرنسا من الجهاز العسكري للحلف.

كانت بريطانيا لها علاقات خاصة مع الولايات المتحدة، وتحاول تعزيز قوتها المتراجعة بالتقريب من الولايات المتحدة، ولم تدخل بريطانيا الجماعة الاقتصادية الأوروبية إلا بعد استقالة ديغول من رئاسة فرنسا ١٩٦٩م، وفي أول قمة للجماعة الاقتصادية الأوروبية بعد استقالة ديغول ديسمبر ١٩٦٩م، قبلت بريطانيا وأيرلندا والدنمارك، ومع عام ١٩٧٣م أصبح انضمام هذه الدول رسمياً، وبذلك وصل عدد أعضاء المجموعة إلى تسع دول، ثم اليونان عام ١٩٨١م، وإسبانيا والبرتغال ١٩٨٦م. وإثر معاهدات ماسترخيت وتغيير اسم المجموعة إلى الاتحاد الأوروبي تم الاتفاق على إزاحة الحواجز الجمركية وإنشاء البنك المركزي

على المستوى الإقليمي والدولي، وأن الخطر الماركسي يتهدها، فطرح بعض القادة السياسيين فكرة الوحدة بين الدول الأوروبية، وهذه الفكرة (أوروبا الموحدة) قديمة، ولكن انتشار القومية في القرن التاسع عشر وراء الحروب الأوروبية كما قال المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي.

إن فكرة الوحدة الأوروبية ليست جديدة وكانت قد طُرحت في القرنين الثاني والثالث عشر من الناحية الدينية، ولكن الفكرة السياسية بعد الحرب العالمية الثانية تأثرت بالنظرية الوظيفية التي طرحها ديفيد متراني بأن التعاون في المجالات الاقتصادية يدفع للأمن والسلام والاستقرار، وتبنى الفكرة وزير خارجية فرنسا السابق روبرت شومان؛ بأن تبدأ فكرة التعاون في مجالات الفحم والصلب كمقدمة للتعاون الاقتصادي بين الدول الأوروبية وأوروبا الغربية، على أمل أن تنتهي الحروب في القارة.^(١)

وقد شجعت الولايات المتحدة فكرة التعاون الأوروبي للوقوف في وجه المعسكر السوفييتي، وكانت أوروبا تقع ضمن حماية المظلة النووية الأمريكية في حالة الهجوم السوفييتي على أوروبا الغربية التي اعتبرتها الولايات المتحدة خط الدفاع الأول عن أمنها القومي، وتبنت الولايات المتحدة في الخمسينيات استراتيجيات الدمار الشامل ضد السوفييت في حالة تعرض أوروبا الغربية للهجوم السوفييتي، وفي عهد مكنمار وزير الدفاع في عهد كينيدي وجونسون تبنت الولايات المتحدة استراتيجية الاستجابة المرنة ضد السوفييت؛ مما أزعج حلفاءها الغربيين، وهي إشارة إلى عدم التصعيد الأمريكي ضد السوفييت.

طرح روبرت شومان مبادرته لقيام الجماعة الأوروبية للفحم والصلب في ٩ مايو ١٩٥٠م، ورحبت كل من ألمانيا الغربية وإيطاليا وفرنسا إضافة إلى دول البنيلوكس (لوكسمبرج وهولندا وبلجيكا)، ووقعت

(١) حسن ناعمة، الاتحاد الأوروبي والدروس المستفادة منه عربياً، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية (٢٠٠٤م)، ص ١٢٢-١٢٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٤.

وتوحيد ألمانيا في أكتوبر ١٩٩٠م، برزت ألمانيا كقوة اقتصادية تترجع على قمة الاتحاد الأوروبي، ولها علاقاتها الاقتصادية مع روسيا الاتحادية، وأخذت تتجه سياسة تتفق مع مصالحها، وتختلف مع بقية الدول في الاتحاد، وعند احتلال الولايات المتحدة للعراق عام ٢٠٠٣م، فقد عارضت كل من ألمانيا وفرنسا الاحتلال، والتدخل خارج نطاق مجلس الأمن الدولي، ولكن بريطانيا شاركت في عملية الاحتلال، وبسبب الخلافات مع الولايات المتحدة أطلق وزير الدفاع الأمريكي الأسبق دونالد رامسفيلد وصف أوروبا القديمة وأوروبا الجديدة، وفيه انتقاد لسياسة كل من فرنسا وألمانيا اللتين اعتبرهما تمثلان أوروبا القديمة، وفي هذا تمجيد لدول أوروبا الشرقية التي انضمت إلى عضوية الاتحاد الأوروبي، ولكنها أيدت التدخل الأمريكي في العراق، وأطلق عليها أوروبا الجديدة، وهي إشارة سياسية لاذعة لسياسة كل من فرنسا وألمانيا.

وكما أشرنا، فإن أوروبا الغربية كانت في خلافات مع واشنطن في قضايا عدة، سواء في علاقاتها مع الاتحاد السوفيتي ومستعمراتها السابقة، وكانت فرنسا من أشد الدول انتقاداً لسياسة واشنطن، ورغم ذلك كانت أوروبا تخشى انتقاد سياسة واشنطن؛ لأنها بحاجة للحماية النووية في حالة الصراع مع الاتحاد السوفيتي، ويظهر الضعف الأوروبي وتبعيته في موقفه من القضية الفلسطينية، فالرئيس أيزنهاور كان له موقف واضح من أزمة السويس عام ١٩٥٦م كما سبق، ولكن أوروبا الغربية دعمت إسرائيل بالسلح، وكانت فرنسا قبل الولايات المتحدة قد تبنت المفاعل النووي الإسرائيلي منذ الخمسينيات ولم تخفف من دعمها إلا بعد حرب ١٩٦٧م.

وكانت أوروبا الغربية تعتبر القضية الفلسطينية

الأوروبي، وطرح عملة موحدة للاتحاد الأوروبي (اليورو)، وقد تم مأسسة الاتحاد الأوروبي؛ من خلال تشكيل المجلس الأوروبي والمفوضية الأوروبية والبرلمان، وتأسيس محكمة العدل الأوروبية، وغيرها من مؤسسات أخرى للاتحاد، وانضمت في عام ١٩٩٥م كل من النمسا وفرنلندا والسويد، فأصبح عدد دول الاتحاد خمس عشرة دولة.

ودخلت العملة الموحدة (اليورو) حيز التنفيذ عام ٢٠٠٢م، دخلت في هذه العملة ١٢ دولة من دول الاتحاد، وانسحبت منه بريطانيا والدنمارك التي حافظت كل منهما على بقاء عملتها. وانضمت مع عام ٢٠٠٤م عشر دول أوروبية؛ منها بعض الدول التي كانت ضمن المنظومة السوفييتية خلال الحرب الباردة، ووصل عدد دول الاتحاد حالياً إلى ٢٨ دولة، كان آخرها انضماماً للاتحاد: كرواتيا في يوليو ٢٠١٣م. (١)

إن الاتحاد الأوروبي تجربة اقتصادية ناجحة، ولكن الخلافات السياسية داخل الاتحاد تحد من دوره الدولي، فقد كان موقف ديغول من دخول بريطانيا، والخلافات بين ألمانيا وبقية أوروبا عندما انتهجت سياسة التقرب من الاتحاد السوفيتي خلال السبعينيات ضمن ما عُرف بسياسة التوجه شرقاً Ostpolitik، وهي سياسة تطبيع العلاقات مع المعسكر السوفييتي، ثم كانت الخلافات داخل الاتحاد عبر تاريخه حول الصراع العربي- الإسرائيلي، فلم تأخذ دول الاتحاد موقفاً موحداً، بل إن موقفها كان مهمشاً من قبل الولايات المتحدة الأمريكية.

وبعد سقوط جدار برلين في ٩ نوفمبر ١٩٨٩م،

(١) دوريك موراي، جغرافيات العولمة: قراءة في تحديات العولمة الاقتصادية والسياسية والثقافية، ترجمة سعيد منقار، عالم المعرفة عدد ٢٩٧، (فبراير ٢٠١٣م)، ص ٢٢٣-٢٢٧.

المجموعة في ٦ نوفمبر ١٩٧٣م بعودة إسرائيل لخط حدود ما قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧م، وعدم جواز احتلال الأراضي بالقوة.^(١)

رفضت الولايات المتحدة الحوار العربي الأوروبي، وطالبت المجموعة الأوروبية بعدم الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، ولكن التحول الأوروبي بالنسبة للمنظمة جاء في مؤتمر الاشتراكية الدولية الذي عُقد في فيينا يوليو ١٩٧٩م؛ حيث وُجّه المستشار النمساوي كرايسكي الدعوة لرئيس منظمة التحرير الفلسطينية

ياسر عرفات لإلقاء خطاب في المؤتمر وبحضور المستشار الألماني برانت، وكان الهدف من الدعوة محاولة إشراك منظمة التحرير الفلسطينية في الحل السياسي الذي كانت تسعى له بعض الدول، ولكن الموقف الأوروبي بقي رهينة الموقف الأمريكي حتى بداية الحوار الأمريكي مع منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، خلال شهر

ديسمبر ١٩٨٨م، فتم رفع تمثيل المنظمة في باريس من مكتب إعلامي إلى مندوبية عامة لفلسطين، والتقى الرئيس الفلسطيني عرفات مع الرئيس فرانسو ميران في باريس مايو ١٩٨٩م^(٢)، والمعروف أن ميران رئيس ينتمي للتيار الاشتراكي في فرنسا.

والواقع، أن الجماعة الاقتصادية الأوروبية بقيت خلال الحرب الباردة -رغم تعافي قوتها الاقتصادية، ومنافسة الشركات الأوروبية للشركات الأمريكية، والتنافس الاقتصادي بينهما على الأسواق التجارية العالمية- إلا أنه من الناحية السياسية كانت هناك خلافات مع الولايات المتحدة في بعض القضايا التي أشرنا إليها، ولكن بشكل عام كانت سياسة أوروبا مقيّدة بصراع الحرب الباردة، وتتماشى مع السياسة

قضية لاجئين، ولكنها غيرت موقفها نحو اعتبارها قضية شعب له وطن بعد استعمال الملك فيصل سلاح البترول في حرب رمضان عام ١٩٧٣م، وعندها شعرت أوروبا بخطر تماديها في تأييد إسرائيل، وهي المستورد للبترول من الشرق الأوسط^(٣)، وهنا بعد الحرب بدأت مسيرة الحوار العربي الأوروبي، وبينما كانت أهداف الدول العربية من الحوار سياسية، كانت أهداف الجماعة الاقتصادية الأوروبية أهدافاً اقتصادية.

كانت المواقف الأوروبية قبل الحوار متعددة، فألمانيا قدّمت تعويضات لإسرائيل مما عزّز قوتها وانتقدتها بعض الدول العربية، وعندما صدر قرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢، ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧م الذي يطالب بانسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها، أيدت فرنسا القرار، بينما كان الموقف البريطاني غامضاً من خلال

صياغة نص القرار، بينما كانت إيطاليا مؤيدة لإسرائيل، ولكن موقفها تحول وتصارف مع الموقف الفرنسي عندما فرض ديفول حظر السلاح عن إسرائيل بسبب الحرب.

كانت الأحزاب الاشتراكية الأوروبية أكثر تهماً للقضية الفلسطينية، فقد حدث تحول في الموقف الألماني بعد وصول الحزب الديمقراطي الاشتراكي للحكم عام ١٩٦٩م، بسبب انفتاح المستشار الألماني فيلي برانت على المعسكر الاشتراكي المتمثل في السوفييت وحلفائهم، وأيدت قرار مجلس الأمن الدولي ٢٤٢، وإن كانت أقرب للتفسير الإسرائيلي للقرار. وطالبت الجماعة الأوروبية في بيان بروكسل لوزراء خارجية

(١) أحمد البرصان، «تصورات الاتحاد الأوروبي ومستقبل الصراع العربي الإسرائيلي» في أحمد البرصان وعبد الفتاح الرشدان (محرران)، مستقبل وسيناريوهات الصراع العربي الإسرائيلي، عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط (٢٠١١م)، ص ٥٨٥-٦٠٨.

(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.

ودول حوض البحر الأبيض المتوسط الأوروبية تعاني اقتصادياً ودول شرق أوروبا تعاني من البطالة.

أما بريطانيا، التي شاركت مع الولايات المتحدة في أزمة الكويت، فقد شعرت أنها خرجت من الاستثمارات في الكويت بأقل المكاسب في الوقت الذي حصلت الشركات الأمريكية على نصيب الأسد، ومن هنا بدأت دول أوروبا تحاول أن تلعب دوراً دولياً لتعزيز علاقاتها الاقتصادية والتجارية طلباً للحصول على مزيد من الاستثمارات، فالتجهت بريطانيا لتعزيز علاقاتها مع دول الكومنولث، وهي الرابطة التاريخية، وعددها ٥٤ دولة، وقامت فرنسا أيضاً بإيجاد رابطة الفرنكوفونية للدول الناطقة بالفرنسية، أو التي كانت مستعمرة فرنسية حتى شمل ذلك دولاً لم تكن مستعمرة فرنسية وانضمت للرابطة الفرنكوفونية مثل مصر، وعدد دول هذه الرابطة ٥٧ دولة، إضافة إلى ٢٠ دولة بصفة مراقب، وذلك لتعزيز الدور الفرنسي، ومعظم هذه الدول تقع في إفريقيا وآسيا.

إن الكومنولث والفرنكوفونية أساليب لتعزيز العلاقة السياسية والاقتصادية لدول الاستعمار القديم، ولكن بعد نهاية التهديد الأوروبي بدأت أوروبا تشعر بتهديد آخر من جوارها المتوسطي.

التهديد من جنوب المتوسط:

إن التفكير الاستراتيجي الغربي، كان ولا يزال يرى أن الخطر على أوروبا من محيطها الجنوبي وخاصة الإسلامي بعد انهيار السوفييت، وتؤكد كتابات الاستراتيجيين هذه الفكرة، فنجد أن رينهولد نيبور (١٨٩٢-١٩٧١) Renhold Neibur أحد أشهر رؤاد النظرية الواقعية في العلاقات الدولية في القرن العشرين، يفسر السلوك الاستراتيجي من كيسنجر مروراً ببريجنسكي حتى بوش ورامسفيلد بأن الذي يسيطر على الشرق الأوسط يسيطر على أوروبا:

الأمريكية في كثير من القضايا، وإن حاولت ألمانيا بناء علاقات سياسية مع السوفييت في عهد فيلي برانت.

وجاءت أزمة الكويت عام ١٩٩٠م لتنتهي الحوار العربي الأوروبي، وتختلف الدول الأوروبية فيما بينها في الموقف من أزمة السويس، وشاركت بعضها مثل بريطانيا بقواتها لإخراج القوات العراقية من الكويت، وكانت سابقة خطيرة في احتلال دولة عربية لأخرى عضو في الجامعة العربية والأمم المتحدة وكان الاحتلال بداية لانقسام النظام الإقليمي العربي، وضعف الجانب العربي في موقفه تجاه أوروبا، وعندما عُقد مؤتمر مدريد في أكتوبر ١٩٩١م حضرت الجماعة الأوروبية كمراقب لعملية السلام كغيرها من الوفود التي حضرت، وكان المؤتمر برعاية أمريكية-سوفييتية، وبعدها بشهرين تفكك الاتحاد السوفيتي، وأصبحت الولايات المتحدة الدولة المهيمنة على النظام الدولي، وفي رعاية الرئيس الأمريكي كلنتون تم توقيع اتفاق أوسلو في سبتمبر ١٩٩٣م، وأيد الاتحاد الأوروبي الاتفاقية، وبدأت أوروبا تمارس سياستها في ظل الهيمنة الأمريكية وتحرر دول أوروبا الشرقية من الشيوعية، وأخذت تطلب بعضها الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو.

ثالثاً: الاتحاد الأوروبي بعد الحرب الباردة (نظام الأحادي القطبية):

كان التهديد السوفييتي عاملاً مهماً في العلاقة الأمريكية-الأوروبية، ولكن مع الهيمنة الأمريكية ونهاية الاتحاد السوفييتي بدأ الاتحاد الأوروبي يتوسع بانضمام دول جديدة له كما توسع الناتو، وأصبحت روسيا تشعر بتهديد الناتو على حدودها، وفي داخل الاتحاد الأوروبي هناك دول ذات نمو اقتصادي مرتفع واقتصاد قوي ودول ضعيفة الاقتصاد منخفضة الدخل القومي، مثل الدول التي كانت ضمن المنظمة الشيوعية، فألمانيا قوة اقتصادية وبشرية مع توحيدها،

العنصري للمرأة الحديدية التي رفضت إدانة المذابح الروسية للمسلمين في الشيشان وغيرها في روسيا؛ ففي خطاب لها في مجلس الناتو في عام ٢٠٠٥م باسكتلندا، أكدت أن على الناتو أن يحضر لمدِّ عملياته خارج أوروبا للعالم الإسلامي. (Nato should be prepared to extend its sphere of operation beyond Europe, towards the Muslim world)..

ونجد أن خطورة المنطقة للأمن الأوروبي قامت بعض دول المتوسط الأوروبية، وهي فرنسا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا قد شكّلت قوة عسكرية للتدخل السريع في جنوب المتوسط وإفريقيا، وأطلق عليها يورفور Eurofour Forces وهي عودة للعقلية الاستعمارية لبسط النفوذ.

ولا بد أن نشير إلى الموقف الأوروبي من الانتخابات الجزائرية ١٩٩١م، وفوز جبهة الإنقاذ الإسلامية (FIS)، ودفع فرنسا للمؤسسة العسكرية لإجهاض التجربة الديمقراطية؛ خوفاً من سيطرة الإسلاميين على الحكم، وشعرت أنه يهدد مصالحها، حتى إن وزير الخارجية كلود شيسون قال: «ليس هناك ما أخافه في العالم أكثر من إعلان دولة إسلامية في الجزائر».^(٤)

الشراكة الأوروبية المتوسطية (برشلونة ١٩٩٥م):

إثر تنافس الدول الكبرى وجدت أوروبا أن المنطقة الاستراتيجية الحيوية لها هي منطقة البحر المتوسط، فالولايات المتحدة تعتبر منطقة أمريكا الجنوبية والوسطى منطقة نفوذ لها وفق مبدأ منرو منذ عام ١٨٢٣م، والشركات الأمريكية لها استثمارات قوية

‘who ever controls the Middle east also control Europe’^(١)

وكذلك ما نقله الكاتب الفرنسي Marius Peltier عن زعيم الثورة البلشفية فلاديمير لينين من أن الطريق إلى باريس تمر عبر المغرب (The road to Paris goes through the Maghreb)^(٢)، ويقصد المغرب العربي، ولأهمية المغرب العربي الاستراتيجية في التنافس بين القوى الأوروبية والدول الكبرى الأخرى، ويعتبرها أستاذ الجيوبوليتيكا الأمريكي المعاصر، سول كوهن Saul Cohn البوابة الخلفية لأوروبا^(٣).

وهذا يفسر القلق الأوروبي من التطورات السياسية على بوابته الخلفية، أي: منطقة المغرب العربي، فأوروبا كما تخشى الصواريخ الباليستية تخشى سيطرة الجماعات الإسلامية على الحكم، وهي كذلك قلقة من الهجرة من هذه الدول، وتداعياتها على التركيبة الاجتماعية داخل الاتحاد الأوروبي.

ونجد أن صموئيل هنتجتون في كتابه عن صدام الحضارات يؤكد على البعد التاريخي في الصدام بين الإسلام وأوروبا النصرانية من معركة بلاط الشهداء (بواتيه ٧٣٢ ميلادية) بقيادة عبد الرحمن الغافقي إلى حصار العثمانيين لفيينا ١٦٨٣م.

وقد أكدت رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارجريت تاتشر على أن الخطر القادم من جيرانها من البحر المتوسط، وخاصة الخوف مما أسمته بالإسلاموفيبيا مع انتشار التكنولوجيا العسكرية، وانتشار الصواريخ الباليستية، ويظهر التفكير

(1) Reinhold Neibour: Power and Ideology in National and International in William Fox (ed). Theoretical Aspects of International Affairs, University of Notre Dame Press, (1959), pp.116.

(2) Marius Pettier, The Suez Canal and the Indian Ocean in Africa and Defence of the West, LeMonde Moderne. Paris, (1975).

(3) Saul Cohn, Geopolitics of the World System, New York: Rowman Little Field Publishers Inc., (2003), pp. 149-183.

(4) «Legacy of ‘The Iron Lady’», (26 April 2013). <http://www.muslimnews.co.uk/newspaper/editorials/legacy-of-the-iron-lady/>

(5) Julian Nundy, Paris in two minds about Algiers coup . The Independent, (17 January 1992), p. 12.

(<http://www.enpi-info.eu/medportal/content/340/About%20the%20EuroMed%20Partnership>)

عام ١٩٩٩م. (١)

وبعد عقد من الزمن من الشراكة ١٩٩٥-٢٠٠٥م، وبعد تقييم التجربة وُجد أنها بحاجة لدفعة جديدة، وكانت فرنسا تريد مناطق لتجارتها ونفوذها الاقتصادي والسياسي، فطرح ساركوزي عام ٢٠٠٨م، الاتحاد من أجل المتوسط، وكان يهدف لتمتين علاقة فرنسا مع دول المتوسط، ولكن بقية دول الاتحاد طالبت بأن تتضمن كل دول الاتحاد الأوروبي للاتحاد من أجل المتوسط لتستفيد كلها من فرص التجارة والاستثمار، وعُقدت القمة الأولى للاتحاد من أجل المتوسط في باريس يوليو ٢٠٠٨م، وحضرت القمة ٤٣ دولة، وتم الاتفاق على أن تكون برشلونة مقر الأمانة العامة للاتحاد من أجل المتوسط، وهي إشارة إلى استمرار مسيرة برشلونة التي اعتُبرت فاشلة نسبياً في تحقيق أهدافها. (٢)

لقد جاء الاتحاد من أجل المتوسط في ظل التنافس الحاد بين الولايات المتحدة وفرنسا في منطقة اعتبرتها فرنسا مجالها الاستراتيجي، وهي منطقة المغرب العربي. وضم الاتحاد من أجل المتوسط دول الاتحاد والدول العربية جنوب المتوسط وأيضاً تركيا وإسرائيل، وقد تلقت بعض دول التكتل الإقليمي (الاتحاد من أجل المتوسط) بعين الريبة، فساركوزي الذي كان معارضاً لانضمام تركيا للاتحاد الأوروبي، واعتبر الاتحاد من أجل المتوسط قد يكون بديلاً لتركيا عن الانضمام للاتحاد الأوروبي، وهذا ما انتقدته تركيا وشككت في أهداف الاتحاد من أجل المتوسط.

فيها، وقامت الولايات المتحدة بإعلان رابطة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا)، أما روسيا التي تحسن اقتصادها واسترد عافيته ففي ظل التنافس الدولي اعتبرت جمهوريات آسيا الوسطى التي كانت ضمن المنظومة السوفييتية منطقة نفوذ لها تحت مسمى الجوار القريب Near Abroad .

ولذلك أعلنت دول الاتحاد الأوروبي في قمة لشبونة عام ١٩٩٥م أن الهدف الأساس للشراكة الأوروبية المتوسطية هو التجارة والاستثمارات لدول الاتحاد، تضمنت الشراكة ٢٧ دولة وهي دول الاتحاد الأوروبي وتسع دول من جنوب المتوسط هي، الجزائر، مصر، إسرائيل، الأردن، لبنان، المغرب، السلطة الفلسطينية، سوريا وتونس.

ونلاحظ أن الأردن ليست دولة لها حدود مع المتوسط، وضُمَّت للشراكة الأوروبية-المتوسطية، وكذلك إسرائيل، فبالإضافة إلى الأهداف الاقتصادية كانت أوروبا تريد التطبيع بطريقة غير مباشرة بين إسرائيل والدول العربية.

وقد حققت الشراكة فوائد كبرى للاتحاد الأوروبي؛ حيث إن ٥٠٪ من تجارة دول الإقليم المتوسطي مع الاتحاد الأوروبي، والاتحاد الأوروبي أكثر مستثمر في المنطقة، إذ إن أوروبا هي المصدر للسياحة في المنطقة، وأول مقدم مساعدات أيضاً. وقد بلغ حجم صادرات الاتحاد الأوروبي إلى دول المتوسط ١٢٠ مليار يورو عام ٢٠٠٧م، أي ٩,٧٪ من صادرات الاتحاد الأوروبي الخارجية، وقد بلغت صادرات دول المتوسط إلى الاتحاد الأوروبي في نفس العام حوالي ١٠٧ مليارات يورو، وتشكل ٧٥٪ من واردات الاتحاد الأوروبي، ويستقبل الاتحاد ٤٧٪ من صادرات دول جنوب حوض المتوسط، وبزيادة سنوية تقدر ١٠٪ منذ

(1) EU-Mediterranean Trade, European Commission - MEMO/08/472 02/07/2008(http://europa.eu/rapid/press-release_MEMO-08-472_en.htm)

(2) Gillespie, Richard. A union for Mediterranean .or for the EU? Mediterranean Politics, Vol. 13, No.2, (July 2008), pp.277-286.

تقوم بها دول الاتحاد لصالح إسرائيل وإدماجها في المنطقة، رغم فشل عملية السلام والحرب التي تشنها إسرائيل على الشعب الفلسطيني ومقدسات المسلمين.

وخلاصة القول: فإن ما سُمِّي بـ «الاتحاد من أجل المتوسط»، ما هو إلا شكل جديد من «الاستعمار الليبرالي الجديد» لنهب واستنزاف خيرات وثروات المنطقة العربية الإسلامية من جديد تحت شعار التعاون.⁽¹⁾

رابعاً: ميزان القوة الأوروبي في ظل التعددية القطبية:

إن النظام الدولي يتجه نحو التعددية القطبية في ظل تراجع الولايات المتحدة عن الهيمنة على النظام الدولي؛ حيث تواجه أمريكا أزمة اقتصادية، وتراجعت عسكرياً في العالم مع فشلها في التدخل في كل من العراق وأفغانستان، واتجهت نحو استعمال دول أخرى لحماية مصالحها بدلاً من التدخل المباشر، مثل العودة لمبدأ نيكسون.

وبحسب رأي مستشار الأمن القومي السابق؛ فإن قوة الدولة على المستوى العالمي باعتبارها قوة عظمى تحددها أربعة عناصر: الاقتصاد، التكنولوجيا، القوة العسكرية والثقافة -بمعنى أعم أيديولوجية الدولة-، ومدى انجذاب الشعوب الأخرى لثقافة الدولة أي قيمها، أي الجانب الأيديولوجي للدولة⁽²⁾.

فالولايات المتحدة تعاني أزمة اقتصادية وتراجع القوة العسكرية، تمثل ذلك في إعلان الرئيس أوباما تقليص ميزانية الدفاع خلال العقد القادم 500 مليار دولار، ثم إن القيم الأمريكية وتمثال الحرية لم يعد يجذب شعوب العالم، وشعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان لم يعد لها مصداقية بسبب السياسة الخارجية الأمريكية.

أما الاتحاد الأوروبي، فيشكل قوة اقتصادية عالمية،

إن فرنسا وبقية دول الاتحاد لهم أهدافهم الاستراتيجية من إنشاء الاتحاد من أجل المتوسط، والتي تظهر فيها ملامح الإمبريالية الجديدة، ومنها:

1- أمن الطاقة: يشكل أمن الطاقة أحد أهم القضايا التي تقلق صناع القرار في الاتحاد الأوروبي، خاصة بعد الأزمة الروسية-الأوكرانية، فقد فطن الساسة الأوروبيون إلى أنه لا يمكن الاعتماد على غاز الدب الروسي، لذلك اهتمت بمنطقة جنوب المتوسط، وخاصة الدول النفطية، (الجزائر وليبيا) من لدن الشركات المتعددة الجنسيات الأوروبية لمزيد من الاستغلال والتنقيب عن النفط بهذه المنطقة، حتى توفر دول الاتحاد الأوروبي حاجتها من الطاقة لصناعاتها وتنمية بلدانها.

2- الهجرة غير الشرعية: تعتبر الهجرة من جنوب المتوسط إلى شماله، أحد التحديات التي تواجه دول الاتحاد الأوروبي وخاصة المطة على البحر المتوسط، بفعل الفجوة الاقتصادية بين دول الشمال والجنوب، لذلك تهدف دول الاتحاد الأوروبي من الاتحاد من أجل المتوسط، أن تقوم دول جنوب المتوسط بدور «الشرطي الحارس» لأمن أوروبا من الطوفان البشري القادم من إفريقيا جنوب الصحراء، أو من دول جنوب المتوسط التي تشهد نمواً سكانياً مرتفعاً.

3- سوق استهلاكية: تشكل دول جنوب المتوسط سوقاً استهلاكية لمنتجات وبضائع دول الاتحاد الأوروبي في ظل تنافس صيني-هندي-أمريكي في القارة السوداء.

4- الغزو الثقافي: تسعى فرنسا وبقية دول الاتحاد الأوروبي، من خلال التعاون في المجالات الثقافية والتعليم العالي، إلى دمج المنطقة في القيم الثقافية والأخلاقية بعيداً عن قيمنا العربية والإسلامية، من خلال تسليط غزو إعلامي / ثقافي (قناة فرانس ٢٤ على سبيل المثال) يخدم هذا الغرض، ومن خلال الفرنكوفونية.

5- التطبيع مع الكيان الصهيوني: إن الإصرار على عضوية إسرائيل في الاتحاد من أجل المتوسط يعتبر محاولة من الاتحاد الأوروبي لسياسة التطبيع التي

(1) Ibid.

(2) Donici, G. et la. European Union Economic Power, CES Working papers, II, (1), 2010.

البريطاني في التدخل في مالي ٢٠١٣م، والتدخل العسكري في ليبيا لإسقاط نظام القذافي^(٢)، ولكن ليبيا لم تستقر سياسيًا بعد، ثم إن ألمانيا لها رؤية للتدخل الخارجي، ولذلك مع انسحاب الولايات المتحدة تقريبًا من بعض الأقاليم، والتوجه نحو آسيا يجعل أوروبا في حالة تردد وانقسام، مثل تهديد بريطانيا من الانسحاب من الاتحاد الأوروبي.

من حيث صادراته للنتائج القومي الإجمالي، فالدول الأوروبية دول متقدمة تكنولوجياً، ولا تزال ثقافتها جذابة في الكومنولث ودول الفرانكفونية، ولكنها لا تملك القوة العسكرية لتنافس دولياً؛ لعدم وجود قوة عسكرية موحدة، رغم أن بريطانيا تأتي في المرتبة الرابعة في العالم من حيث الإنفاق للدفاع لعام ٢٠١١م (٦٢,٧ مليار دولار)، وتأتي فرنسا في الدرجة التالية لها (٦٢,٥ مليار دولار)، وتبلغ ميزانية الدفاع في

الصين	اليابان	الولايات المتحدة	الاتحاد الأوروبي	المؤشر الاقتصادي
٨,٧١	٤,١٤	١٤,٢٦	١٤,٥١	الناتج القومي الإجمالي (تريليون دولار)
٦٥٠٠	٣٢,٦٠٠	٤٦٤٠٠	٣٢٧٠٠	متوسط دخل الفرد (دولار)
٩٥٩٦	٣٧٧	٩٨٢٦	٤٣٢٤	المساحة (كيلو متر مربع)
١٣٣٨٦١٢	١٢٧	٣٠٧,٢	٤٩١,٥	السكان (مليون نسمة)
٤٠,٥	٧٥,٤	٧٦,٩٠	٧١,٩	نسبة قطاع الخدمات في الدخل القومي (%)
١٠,٩	١,٦	١,٢	٢,١	نسبة قطاع الزراعة في الدخل القومي (%)
٤٨,٦	٣٣,١	٢١,٩	٢٥,٩	نسبة قطاع الصناعة في الدخل القومي (%)

ألمانيا (٤٦,٧ مليار دولار)، كما أن دول الاتحاد الأوروبي تأتي في مقدمة الدول في التدخل الخارجي، وخاصة بريطانيا وفرنسا بعد الولايات المتحدة^(١).

ولكن هناك ثلاثة عوامل تؤثر في دور الاتحاد الأوروبي دولياً، وهي: بروز قوة آسيا كما يتردد أنه القرن الآسيوي، توجه السياسة الأمريكية إلى آسيا كتقل اقتصادي؛ وظهور الكتل الاقتصادية الجديدة مثل دول البريكس (البرازيل، جنوب إفريقيا، الهند، الصين، روسيا الاتحادية)؛ والأمر المهم هو ما يحدث في

الجوار الجغرافي لأوروبا وما تشهده منطقة الشرق الأوسط الكبير بالإضافة لشرق أوروبا وجنوبها من عدم استقرار سياسي، وعدم وضوح التطورات السياسية في منطقة ما يسمى الربيع العربي، على اعتبار أن هذه المنطقة لها علاقة مباشرة بالأمن القومي الأوروبي.

إن المشكلة التي تحد أيضاً من الدور والنفوذ الأوروبي عالمياً، وحتى إقليمياً، تتمثل في عدم وجود استراتيجية واضحة ومشاركة للاتحاد الأوروبي تحدد رؤية موحدة لهذا الاتحاد، بالرغم من وجود تعاون ثنائي في التدخل خارجياً، مثل التعاون الفرنسي -

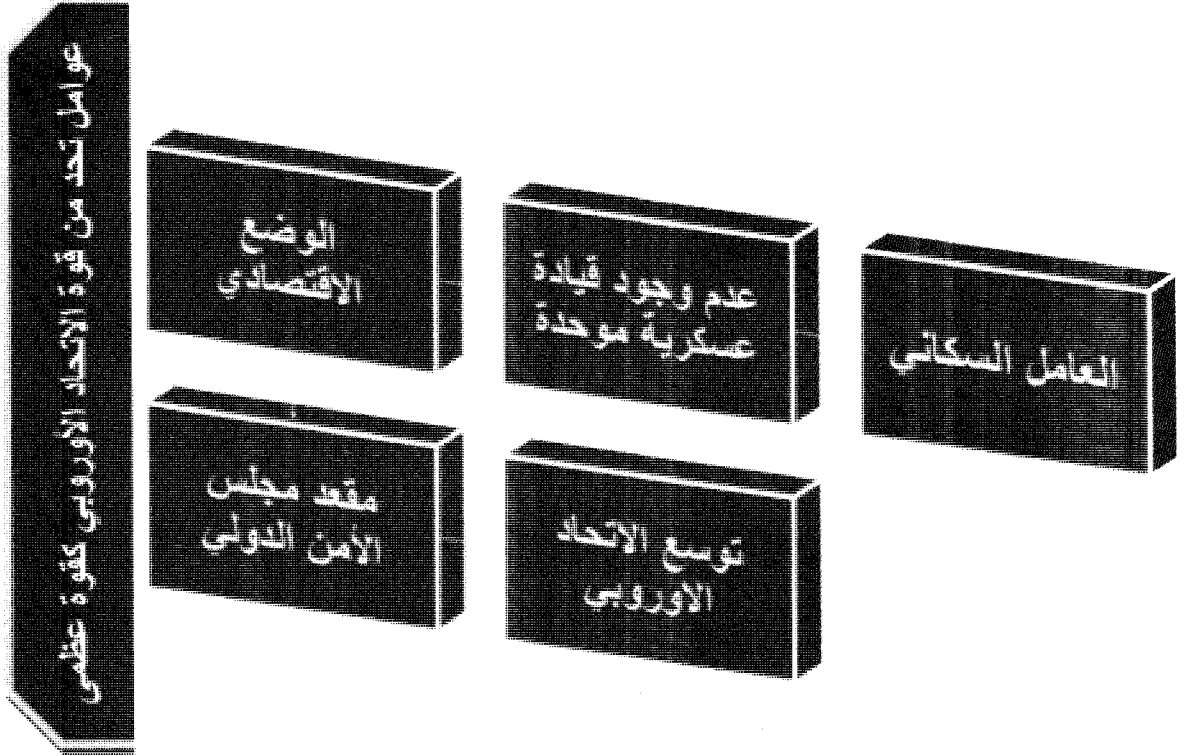
المؤشرات الاقتصادية للاتحاد الأوروبي، الولايات المتحدة، اليابان والصين (٢٠٠٩م)

Source: Donici, G. et la. European Union Economic Power, CES Working papers, II, (1), 2010.

ورغم التفاؤل حول أوروبا كقوة على المستوى العالمي، بحسب مؤشرات القوة التي يُقاس بها دورها العالمي، إلا أنه توجد دول تنافس الاتحاد الأوروبي في مناطق نفوذه في آسيا وإفريقيا، مثل الصين والهند وحتى البرازيل وروسيا الاتحادية التي أخذت تلعب دوراً عالمياً تعيد ذكريات الاتحاد السوفيتي السابق كما هو الحال في موقفها مما يحدث في سوريا، ودعمها لنظام بشار الأسد الذي قتل وشرذ الشعب السوري.

(1) Stokes, D; Whiman, R. Transatlantic triagle? European and UK grand strategy after the US rebalance to Asia. International Affairs, 89:5, (2013), pp.1087-1107.

(2) Ibid.



الاتحاد السوفييتي، وتراجع الولايات المتحدة في التزاماتها تجاه أوروبا، بل ومطالبتها للدول الأوروبية بتحمل مسؤوليتها الأمنية يجعل الاتحاد الأوروبي في حالة قلق، وكما أشرنا فإن الدولتين الفاعلتين عسكرياً هما: بريطانيا وفرنسا في التدخل الخارجي، ولكن ليس هناك توافق على القضايا الأمنية التي تهدد الاتحاد سوى أهداف عامة مثل الإرهاب، ولا توجد استراتيجية شاملة تحدد أهداف الاتحاد الأوروبي والوسائل اللازمة لتحقيق ذلك.

٣- الوضع الاقتصادي: إن الناتج القومي الإجمالي للاتحاد الأوروبي قد يتقارب أو يتجاوز الولايات المتحدة، ولكن بعض دول الاتحاد الأوروبي تعاني أزمات اقتصادية، مثل اليونان وإسبانيا، وهناك تراجع في النمو الاقتصادي للاتحاد الأوروبي مقارنة بالولايات المتحدة والصين، فالنمو الاقتصادي ١,٧٪ مقارنة بالولايات المتحدة ٣,٥٪، والصين ٩,٢٪، والهند ٧,٢٪، ولا شك أن هذا له انعكاسه على دور الاتحاد الأوروبي عالمياً. (١)

(2) Points against the rise of an EU superpower. (http://en.wikibooks.org/wiki/Future/Emergence_of_the_EU).

وهناك خمسة عوامل تحد من قوة الاتحاد الأوروبي كقوة عظمى، تتمثل فيما يلي:

١- العامل السكاني: تواجه أوروبا شيخوخة سكانية مع تراجع النمو السكاني، وزيادة نسبة من أعمارهم في سن الشيخوخة، مقارنة مع دول جنوب البحر المتوسط التي تشهد نمواً سكانيًا مرتفعاً، وهذا التراجع في النمو السكاني الكبير له تأثيره على توفير عمالة للصناعة الأوروبية وتكلفة عالية لنفقات الضمان الاجتماعي لمن هم في سن الشيخوخة.

ومما يقلق دول الاتحاد الأوروبي: النمو السكاني المرتفع للجاليات الإسلامية في أوروبا، وفشلها في محاولة دمج هذه الجاليات في المجتمعات الأوروبية. (١)

٢- عدم وجود قيادة عسكرية موحدة: إن الاتحاد الأوروبي خلال الحرب الباردة كان يعتمد على الترسانة النووية الأمريكية لردع الاتحاد السوفييتي، ولكن بعد زوال

(1) The EU 11 in an Aging Europe, (January 17, 2013). (<http://www.worldbank.org/en/news/feature/2013/01/17/the-eu-11-in-an-aging-europe>).

بأن يكون للاتحاد الأوروبي كتلة مقعد دائم مما يحد من دور الاتحاد في الأمم المتحدة.

خامساً: رؤية مستقبلية للاتحاد الأوروبي وعلاقته بالعالم الإسلامي:

إن التحول باتجاه التعددية القطبية، والصراع على مناطق النفوذ؛ من أجل الأسواق التجارية والاستثمارات يجعل الاتحاد الأوروبي يتجه إلى منطقة البحر المتوسط الجوار الجغرافي له، والعلاقات التاريخية بين دول شمال المتوسط وجنوبه. فالولايات المتحدة لها منطقة نفوذها في أمريكا اللاتينية، وأقامت منظمة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (نافتا)، وتعزز علاقاتها في شرق آسيا، وتسعى لإقامة علاقات مع كل من أستراليا واليابان والهند تحت شعار التحالف الديمقراطي.

أما الصين وروسيا، فقد شكّلتا منظمة شنغهاي للتعاون، والصين لها علاقاتها مع جوارها الجغرافي الآسيوي، وروسيا أيضاً لها منطقة نفوذ في الجوار القريب؛ الجمهوريات الآسيوية الإسلامية التي كانت ضمن الاتحاد السوفييتي سابقاً، وتحاول جاهدة إخراج الولايات المتحدة من آسيا الوسطى، خاصة من القواعد العسكرية التي أقامتها هناك في ظل الضعف الروسي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في عهد يلتسن.

ولذلك فإن المنطقة المهمة جيواستراتيجياً للاتحاد الأوروبي هي منطقة جنوب البحر المتوسط وإفريقيا جنوب الصحراء؛ لأن الأمن الأوروبي مرتبط بما يحدث في جنوب المتوسط، ولذلك لاحظنا الموقف الأوروبي وخاصة الفرنسي كان معارضاً لوجود تيارات معادية له، أو تسعى لاستقلال القرار السياسي في بلادها كما كان الحال في الموقف من أزمة الجزائر عام ١٩٩١م.

ولكن دعم أوروبا لأنظمة شمولية أو سلطوية

٤- توسع الاتحاد الأوروبي: إن توسع الاتحاد الأوروبي له سلبيات؛ لصعوبة الاتفاق على قضايا داخلية، وحتى في السياسة الخارجية، فبريطانيا مثلاً شاركت في احتلال العراق في الوقت الذي رفضته فرنسا وألمانيا، كما أن هناك خلافات بين الدول الأوروبية في موقفها من أزمة المفاعل النووي الإيراني بسبب العلاقات الاقتصادية مع إيران.

كما أن بعض الدول الأوروبية -فرنسا على سبيل المثال- قد رفضت الدستور الأوروبي المقترح عام ٢٠٠٥م، وهناك أيضاً خلاف بشأن الانضمام إلى عملة الاتحاد الرئيسية اليورو، فدولة مثل بريطانيا لا تزال تحتفظ بالجنيه الإسترليني، وكما أشرنا تهدد أحياناً بالخروج من الاتحاد، وتختلف الدول في نموها الاقتصادي، رغم بناء المؤسسات السياسية والاقتصادية للاتحاد الأوروبي. وإن توسعة الاتحاد ليصل عدده ٢٨ دولة يشكل نقطة تزيد من مشكلات الاتحاد مستقبلاً مع استمرار قبول الاتحاد طلب العضوية.

٥- مقعد مجلس الأمن الدولي: تطرح الدول الكبرى وبعض الدول النامية قضية إصلاح الأمم المتحدة وعضوية مجلس الأمن الدولي؛ على اعتبار أنها جاءت في نهاية الحرب الباردة، ولها ظروفها الدولية، ولكن النظام الدولي تغير، وظهرت دول لم تكن موجودة، وبرزت قوى كبرى، وتطالب الهند مثلاً بعضوية دائمة لمجلس الأمن الدولي، وكذلك ألمانيا واليابان، ودول أمريكا اللاتينية، وبالنسبة لدول الاتحاد الأوروبي فكل من بريطانيا وفرنسا مقعد دائم في مجلس الأمن الدولي، وبذلك لهما تأثير في القضايا الدولية التي تُعرض أمام المجلس^(١)، ولكن هناك رؤية مطروحة في حالة إصلاح ميثاق الأمم المتحدة وعضوية مجلس الأمن الدولي، وظهور دول مؤثرة لها دورها الإقليمي

(1) Ibid.

وتسعى لاستقرارها، وتعمل على التوسط في خلافاتها، مثل محاولات الاتحاد الأوروبي التوسط في الأزمة المصرية إثر الانقلاب العسكري في مصر في الثالث من يوليو ٢٠١٣م، فالرئيس الذي تمت تنحيته من قبل الجيش رئيس منتخب، وإزاحته من السلطة يتنافى مع المسار الديمقراطي الذي يدعو له الاتحاد الأوروبي.

وتبقى أوروبا حريصة على عدم الصدام في منطقة البحر المتوسط، وتسعى للاستقرار السياسي، واحتواء الأزمات من أجل مصالحها الاستراتيجية في حوض البحر المتوسط.

أثر الاتحاد الأوروبي على العالم الإسلامي:

إن قيام الاتحاد الأوروبي له آثاره السياسية

والاقتصادية على العالم الإسلامي،

فقد أصبح الاتحاد يمثل تكتلاً

نصرانياً؛ يؤكد ذلك عدم قبول

تركيا في الاتحاد الأوروبي رغم

علمانية الدولة ووجود جاليات

إسلامية في أوروبا يصل عددها

إلى حوالي ٢٠ مليون نسمة تقريباً،

هناك ١٢ مليون مسلم في أوروبا

الغربية وحدها؛ مما أوجد قلقاً

داخل الاتحاد الأوروبي من عدم

اندماجها في المجتمعات الأوروبية، ومن محافظتها

على هويتها الإسلامية الخاصة؛ علماً بأن الدين

الإسلامي هو الأكثر انتشاراً في أوروبا.

وإثر توسع الاتحاد الأوروبي فقد أثر على العمالة

المسلمة في أوروبا، في محاولة لتقليصها، والاعتماد

على عمالة دول أوروبا الشرقية.

وحيث إن الاتحاد الأوروبي يعتبر أكبر تكتل

سياسي واقتصادي، فإن منظمة التعاون الإسلامي

تمثل تكتلاً كبيراً يشمل ٥٧ دولة، وحيث إن الأمن

الأوروبي مرتبط بالعالم الإسلامي بحكم التاريخ

والجغرافيا، فلا بد من تعزيز التعاون بينهما في

لا يحقق أهدافها في ظل عدم الاستقرار، ولذلك شجع الاتحاد الأوروبي على التحول الديمقراطي في المنطقة، وشجّع منظمات المجتمع المدني، وركّز بالذات على دور المرأة.

ولكن تطورات الربيع العربي من تونس إلى مصر وليبيا وغيرها كانت مفاجأة للاتحاد الأوروبي بل للولايات المتحدة نفسها وحتى إسرائيل، ولذلك كان الاتحاد الأوروبي متريثاً في رد فعله على ثورات الشعوب، وخاصة بعد فوز التيارات الإسلامية في الانتخابات التي شهدتها دول الربيع العربي، ولذلك تعامل الاتحاد الأوروبي بسياسة الأمر الواقع، وعلى اعتبار أنها تيارات معتدلة، خاصة أن بعض رموز هذه التيارات مثل زعيم حزب النهضة عاش فترة طويلة في المنفى في المملكة المتحدة.

ورغم تعامل الاتحاد الأوروبي

بسياسة الأمر الواقع؛ فإن بعض

دوله وخاصة فرنسا تسعى لأن

يكون التيار العلماني الموالي لها

في السلطة، سواء بالانتخابات

أو غيرها، ولذلك نلاحظ تحركاً

خفياً لتشجيع التيارات العلمانية

في هذه الدول، ومحاولة إظهار

فشل تجربة الإسلام السياسي.

ورغم تسويق دول الاتحاد الأوروبي فيما بينها

في السياسة الخارجية، إلا أن هناك دولاً فيه لها

مصالح حيوية ومهمة أكثر من غيرها بالعالم العربي

والإسلامي مثل فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا.

إن سياسة الاتحاد الأوروبي هي احتواء التحولات

السياسية في جنوب المتوسط؛ لأن لها آثارها

داخل مجتمعات الاتحاد الأوروبي؛ بسبب الجاليات

الإسلامية هناك والعلاقات الاقتصادية.

وتحاول دول الاتحاد مع دول المتوسط إيجاد قواسم

مشتركة من خلال حوار الحضارات وليس صدامها،

القضايا الإقليمية والدولية.

وتتمثل أهم توصيات الدراسة فيما يلي:

الإنسان، خاصة أن المجتمعات الأوروبية تسير نحو الشيخوخة، وتحتاج إلى الأيدي العاملة الشابة.

٥- التعاون في مجال أمن البحر المتوسط بدعم أوروبا للتنمية في الدول الإسلامية المجاورة، فالفقر والدكتاتورية من أهم أسباب الهجرة غير المنظمة.

٦- إن الإسلاموفوبيا، التي تصوّرها وسائل الإعلام الصهيونية في تهديد أوروبا، غير واقعية، والعلاقات التاريخية أثبتت أن الإسلام دين التسامح والسلام، ولكن عدم إيجاد حل للغطرسة الصهيونية، والاستيطان، وتهديد المقدسات الإسلامية وحتى المسيحية في القدس، يهدد السلام في المنطقة الذي ينعكس بدوره على أوروبا وأمنها.

٧- احترام حقوق الجاليات الإسلامية في أوروبا؛ لأنها حلقة الوصل بين المجتمعات الإسلامية والأوروبية وعدم تهميشها في العمل والوظيفة، وأن يكون شغل الوظيفة خاضعاً لمبدأ تكافؤ الفرص.

١- الاستمرار في الحوار الحضاري البناء بين العالم الإسلامي والاتحاد الأوروبي ضرورة ملحة لكلا الطرفين لإيجاد أرضية مشتركة للتعاون.

٢- دعم أوروبا حقوق الشعوب الإسلامية في تحقيق سيادتها، وتقرير مصيرها، وخاصة ما يتعلق بالقضية الفلسطينية التي تعتبر أوروبا هي المسؤولة تاريخياً عن إيجاد الكيان الصهيوني، ورغم مشاركتها في اللجنة الرباعية إلا أن هذه اللجنة لم تحقق تقدماً سياسياً لحقوق الشعب الفلسطيني.

٣- فتح المجال للتبادل التجاري، وخاصة المنتجات الزراعية، مع دول جنوب المتوسط، وهي الدول المغاربية للدخول لأوروبا بنفس مزايا دول جنوب أوروبا.

٤- فتح المجال للعمالة الإسلامية للعمل في أوروبا، والمحافظة على حقوقها وفق المواثيق الدولية لحقوق

معلومات إضافية

الاتحاد الأوروبي.. نشأته ومؤسساته الحاكمة:

يتكون الاتحاد الأوروبي من مجموعة من الدول الأوروبية الملتزمة بالسعي إلى تحقيق وحدة اقتصادية وتكامل سياسي وثيق. كانت تعرف سابقاً باسم المجموعة الأوروبية، أنشئ الاتحاد الأوروبي في ١ يناير ١٩٩٣م.

تطور الاتحاد الأوروبي من التعاون الاقتصادي الذي بدأ بين الدول الأوروبية الغربية في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين. وقد تعاونت هذه الدول في نهاية الأمر في الشؤون الاقتصادية بوصفها أعضاء في المجموعة الأوروبية.

وفي عام ١٩٩٣م، سعت دول المجموعة الأوروبية الاثنتا عشرة -التي أصبحت الآن أعضاء في الاتحاد الأوروبي- إلى توسيع مجالات التعاون لتشمل تطبيق العدالة والشؤون الداخلية، بالإضافة إلى تبني سياسة خارجية وأمنية موحدة. تُعنى العدالة بالشؤون الداخلية والتعاون في مجالات مثل تطبيق القانون وسياسات الهجرة؛ بينما تُعنى السياسة الخارجية والأمنية الموحدة بالمسائل العسكرية ومسائل السياسة الخارجية الأخرى. تسمى مجالات التعاون الثلاثة في بعض الأحيان، أعمدة الاتحاد الثلاثة.

تكونت المجموعة الأوروبية من ستة أعضاء أساسيين: بلجيكا وفرنسا وإيطاليا ولوكسمبرج وهولندا وألمانيا الغربية. وقد انضمت كل من الدنمارك وأيرلندا والمملكة المتحدة إلى المجموعة عام ١٩٧٣م. وانضمت اليونان بدورها عام ١٩٨١م، أما إسبانيا والبرتغال فقد انضمتا عام ١٩٨٦م. وانضمت كل من النمسا وفنلندا والسويد إلى الاتحاد الأوروبي في عام ١٩٩٥م. وأسفر الاستفتاء الذي أُجري في النرويج عام ١٩٩٤م، عن رفض الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي.

كان أعضاء الاتحاد قد وافقوا على انضمام عشر دول إلى الاتحاد الأوروبي بحلول شهر مايو ٢٠٠٤م وذلك بموجب اتفاقية كوينهاجن التي وُقِّعت في ديسمبر ٢٠٠٢م، والدول هي: لاتفيا، إستونيا، لتوانيا، بولندا، المجر، تشيكيا، سلوفاكيا، سلوفينيا، قبرص، مالطة. ووافق الأعضاء على انضمام بلغاريا ورومانيا في عام ٢٠٠٧م، وظلت تركيا تفاوض من أجل الانضمام إلى الاتحاد.

معاهدة الاتحاد الأوروبي:

حدثت أهم مرحلة في تطور المجموعة الأوروبية في ماستريخت بهولندا في ١١ ديسمبر ١٩٩١م، عندما اتفق قادة الدول الأعضاء في المجموعة الأوروبية على نصوص وبروتوكولات معاهدة الاتحاد الأوروبي والاتحاد الاقتصادي والنقدي. صادقت البرلمان الوطنية في الدول الأعضاء على نصوص المعاهدة، وأصبحت نافذة المفعول في يناير ١٩٩٣م. وفي عام ١٩٩٥م، وقَّعت كل من السويد وفنلندا والنمسا أيضاً على المعاهدة.

الاتحاد الاقتصادي والنقدي:

إن أهم تطور بعيد الأثر نصت عليه المعاهدة، هو ذلك المتعلق بالسعي إلى تحقيق اتحاد اقتصادي ونقدي يعتمد على عملة واحدة تركز على وحدة العملة الأوروبية (اليورو) التي بدأ العمل بها في ١ يناير ١٩٩٩م.

تعد وحدة العملة الأوروبية بمثابة سلة عملات تتكون من مقادير محددة من عملات الدول الأعضاء التي تعكس الأهمية الاقتصادية لهذه الدول. حُدد عدد العملات المشتركة بـ ١٢ عملة، واستُبعدت عملات كل من السويد وفنلندا والنمسا.

تطلب مثل هذا التطور تبني سياسة نقدية موحدة يديرها بنك مركزي مستقل. وقد نص أحد البروتوكولات المهمة الملحقة بالمعاهدة على أن المملكة المتحدة غير ملزمة بالانتقال إلى المرحلة النهائية للاتحاد الاقتصادي والنقدي إلا بعد الحصول على موافقة منفصلة من حكومتها وبرلمانها. ونجحت الحكومة الدنماركية أيضًا في أجل للحصول على وضع مماثل.

وضعت المعاهدة بعض المعايير الاقتصادية المحددة التي ينبغي الوفاء بها. كما نصت على تحقيق الاتحاد الاقتصادي والنقدي على ثلاث مراحل. وفي ١٩٩٩م، جمدت إحدى عشرة دولة من دول الاتحاد أسعار صرف عملاتها مقابل اليورو حسب أسعار السوق بصفة مؤقتة، والدول هي: ألمانيا، أيرلندا، إيطاليا، إسبانيا، البرتغال، بلجيكا، لوكسمبرج، النمسا، فنلندا، فرنسا، هولندا.

ويمكن تبادل عملات دول الاتحاد الأوروبي الأربع المتبقية وهي: الدنمارك والسويد والمملكة المتحدة واليونان حسب أسعار صرف اليورو الجارية، وقد وافقت الدنمارك واليونان على الاشتراك في آلية سعر الصرف التي تمنع عملتيهما من الارتفاع أو الانخفاض بنسبة ١٥٪ من الأسعار الرسمية المعلنة. واتفقت الدول الإحدى عشرة التي وافقت على تجميد سعر عملاتها على إحلال اليورو مكان عملاتها بحلول الأول من يوليو عام ٢٠٠٢م.

المؤسسات الحاكمة:

كانت المؤسسات الرئيسية الخمس للاتحاد الأوروبي في عام ١٩٩٥م، هي: مجلس الوزراء، والمجلس الأوروبي، والهيئة التنفيذية، والبرلمان الأوروبي، ومحكمة العدل الأوروبية.

أ- مجلس الوزراء:

يُعد مجلس الوزراء الكيان المسئول عن صنع سياسات الاتحاد. ولا يمكن للمجلس طرح مشاريع للقوانين بنفسه؛ ولكن يمكنه أن يقبل أو يرفض مقترحات الهيئة التنفيذية. قد تتطلب إجازة التشريعات موافقة الوزراء عليها بالإجماع أو بالأغلبية المشروطة (٦٢ صوتًا من أصل ٨٧). وتتطلب الأغلبية البسيطة ٤٤ صوتًا فقط، ولكنها نادرًا ما تُستخدم.

يتكون المجلس من ممثل واحد لحكومة كل بلد عضو، وفي العادة يكون هذا الممثل هو وزير الخارجية. وتتعاقد الدول الأعضاء على رئاسة هذا المجلس لمدة ستة أشهر. ويعقد المجلس اجتماعاته عادة في بروكسل.

ب- المجلس الأوروبي:

المجلس الأوروبي أو «القمة»، مصطلح يُستخدم لوصف اجتماعات رؤساء الدول الأعضاء التي يشارك فيها رئيس الهيئة التنفيذية، أعطي هذا المجلس رسميًا صيغة قانونية في قانون أوروبا الموحدة لعام ١٩٨٦م. تعطي معاهدة الاتحاد الاقتصادي هذا المجلس بعض المسئوليات فيما يتعلق بالسياسة الخارجية والأمنية والاتحاد الاقتصادي والنقدي.

ج- الهيئة التنفيذية:

الهيئة التنفيذية تُعد بمثابة الكيان التنفيذي والخدمة المدنية للاتحاد. والدور الرئيس الذي تؤديه الهيئة هو التأكد من الالتزام بشروط وأحكام المعاهدات، واتخاذ الإجراءات التأديبية بحق المخالفين. كما أنها مسؤولة أيضاً عن طرح وصياغة مشاريع القوانين، وتنفيذ القرارات التي يتخذها مجلس الوزراء، وإدارة صناديق الاتحاد الأوروبي المختلفة.

يُعد رئيس الهيئة التنفيذية الشخصية الرئيسة في الاتحاد الأوروبي. يعين أعضاء الهيئة التنفيذية بوساطة حكومات الدول الأعضاء، ولكن ينبغي عليهم العمل لتحقيق المصلحة العامة للاتحاد بأكمله دون أن يدينوا بالمسئولية لحكوماتهم الوطنية. كما ينبغي عليهم العمل بصورة مستقلة عن المجلس الأوروبي. ويتم تعيينهم لمدة أربعة أعوام، ويرأس كل واحد منهم إدارة عامة تُعنى بمجال معين. كان عدد الأعضاء في عام ١٩٩٥م: ٢٠ عضواً؛ بمعدل عضوين من كل دولة من الدول الخمس الكبرى (فرنسا وألمانيا، وإيطاليا وإسبانيا، والمملكة المتحدة)، وعضو واحد من كل دولة من الدول الصغيرة.

يقع المقر الرئيس للهيئة التنفيذية في بروكسل، وتوجد الإدارات الأخرى في لوكسمبرج.

البرلمان الأوروبي:

يعمل البرلمان الأوروبي بوصفه هيئة استشارية في المقام الأول. ويناقش البرلمان مقترحات الهيئة التنفيذية، ويسدي النصح لكل من الهيئة ومجلس الوزراء.

أسس البرلمان الأوروبي في عام ١٩٥٧م، وأُسندت له صلاحيات استشارية؛ غير أن التعديلات التي أُدخلت على معاهدة روما والتشريعات الأخرى، أعطته صلاحيات تشريعية ومالية محدودة.

يتمثل دور البرلمان في إجازة ميزانية الاتحاد، والتعليق على مشاريع القوانين، واقتراح أي تعديلات يراها ضرورية. كما يحقق البرلمان أيضاً في الشكاوى المتعلقة بسوء الإدارة في مؤسسات الاتحاد الأخرى. أعطت معاهدة الاتحاد الأوروبي البرلمان الحق في رفض التشريعات في ١٤ مجالاً محدداً، تشمل التعليم والثقافة. تقوم ١٩ لجنة برلمانية متخصصة بإدارة أعمال البرلمان.

يضم البرلمان الأوروبي ٦٢٥ مقعداً، وتجرى الانتخابات كل خمس سنوات. يختار الناخبون في كل دولة، نسبة مئوية محددة من أعضاء البرلمان. وتتمتع الدول الصغيرة بنسبة تمثيل أكبر لكل فرد مما تتمتع به الدول الكبيرة. وهناك رئيس للاتحاد يدير جلساته.

يعقد البرلمان الأوروبي ١٢ جلسة بكامل أعضائه كل سنة في ستراسبورج، بينما تعقد الجلسات الإضافية الأخرى في بروكسل.

د- محكمة العدل الأوروبية:

محكمة العدل الأوروبية هي المحكمة العليا للاتحاد الأوروبي. وهي مخوَّلة بالنظر في القضايا ذات العلاقة بالقوانين التي يجيزها الاتحاد الأوروبي. كما أنها تنظر في القرارات المتخذة من قبل الهيئة التنفيذية ومجلس الوزراء، وحكومات الدول الأعضاء والمنظمات الخاصة، وتقرر مدى خضوعها لأنظمة الاتحاد وقوانينه.

ويمكن للمحكمة أيضاً النظر في الاستثناءات المرفوعة من الدول الأعضاء، أو من الهيئة التنفيذية، أو مجلس الوزراء، أو المؤسسات أو المواطنين. كما تقوم المحكمة بتفسير قوانين ولوائح الاتحاد الأوروبي فيما يتعلق بالقضايا المحالة عليها من المحاكم الوطنية.

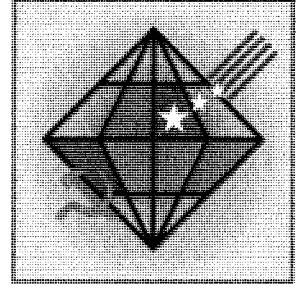
ويمكن للمحكمة أيضاً إلغاء الأحكام الصادرة عن المحاكم الوطنية.

وتعد قرارات المحكمة ملزمة لكل الأطراف بما في ذلك الدول الأعضاء، وتتكون المحكمة من ١٣ قاضياً يُعينون بالاتفاق بين حكومات الدول الأعضاء لمدة ستة أعوام. ويوجد مقر المحكمة في لوكسمبرج.

المصدر:

الموسوعة العربية العالمية: www.intaaj.net

الاتحاد السوفيتي بين الصعود والسقوط .. وأثره على العالم الإسلامي



د. نورهان الشيخ

أستاذ العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة

ملخص الدراسة

جاء إعلان قيام الاتحاد السوفيتي في ديسمبر ١٩٢٢م ليمثل نقطة تحول مفصلية في السياسة الدولية، وكان له دور مهم في تحقيق توازن سياسي في العلاقات الدولية، كما كان له تأثير إيجابي في مساندة القضايا العربية. وقد اتخذت السياسة الخارجية الروسية العديد من الأبعاد والتوجهات، كان من أبرزها تلك المتعلقة بالمنطقة العربية؛ نظرًا لتلاقي التوجهات السوفيتية الجديدة مع المصالح والأولويات العربية. فكان للصعود السوفيتي تأثير إيجابي على مجموعة من القضايا العربية على مدى العقود السبعة التالية.

وقد تمثل التأثير الإيجابي للدور الروسي تجاه القضايا العربية في العديد من الملفات، ومنها الدعم السوفيتي لحركات التحرر الوطني العربية؛ حيث ناصب الاتحاد السوفيتي الاستعمار و«الإمبريالية» التوسعية العدا، ودعم التقارب العربي السوفيتي، وساند حركات التحرر الوطني أينما اندلعت.

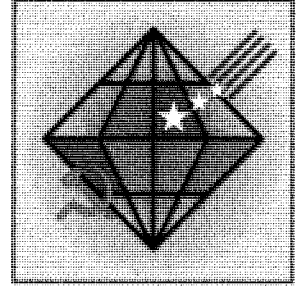
استمر الدعم السوفيتي كتوجه أساسي حاكم للسياسة السوفيتية تجاه المنطقة العربية، وازداد تبلورًا منذ منتصف الخمسينيات حيث ازدادت الأهمية الاستراتيجية للمنطقة، ذات الجوار الجغرافي شبه المباشر للاتحاد السوفيتي، في ضوء الحرب الباردة وتصاعد حدة التنافس الدولي بين موسكو وواشنطن.

كما دعم السوفييت مصر وسوريا خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣م عسكريًا واقتصاديًا؛ من أجل استرداد الأرض العربية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧م، في مواجهة الجسر الجوي الأمريكي لإسرائيل، بدأ الاتحاد السوفيتي في ١٠ أكتوبر ١٩٧٣م جسرًا جويًا لمصر وسوريا بالأسلحة. وطلب الاتحاد السوفيتي من الدول العربية التي يزودها بالسلاح دعم مصر وسوريا.

ودعم السوفييت القضية الفلسطينية، وكانت سياستهم المعلنة هي التأييد المطلق للحقوق الفلسطينية، وقد أحدث الاتحاد السوفيتي -وعلى مدى ما يزيد عن أربعة عقود منذ الحرب العالمية الثانية منتصف الأربعينيات وحتى تفككه مطلع التسعينيات- توازنًا مهمًا في النظام الدولي، وكان حليفًا استراتيجيًا لعدد كبير من الدول العربية، وداعمًا للقضايا العربية داخل وخارج الأمم المتحدة في مواجهة الدعم الأمريكي المطلق لإسرائيل.

أدى تفكك الاتحاد السوفيتي في ديسمبر ١٩٩١م إلى تغييرات عميقة في السياسة الخارجية الروسية، واختلال التوازن الاستراتيجي في المنطقة. فرغم أن روسيا مثلت دولة الاستمرار للاتحاد السوفيتي أو الوريث للدولة السوفيتية؛ حيث كان من نصيبها معظم القدرات الاقتصادية والعسكرية السوفيتية، وكذلك كل قدراته النووية العسكرية، والمقعد السوفيتي الدائم في مجلس الأمن، إلا أنها ورثت أيضًا أزماته الاقتصادية والسياسية، ولم يعد في أولويات القيادة الروسية الجديدة ممثلة في بوريس يلتسين، ولا في مقودورها، الاستمرار في الدور السوفيتي التقليدي تجاه المنطقة العربية.

الاتحاد السوفيتي بين الصعود والسقوط .. وأثره على العالم الإسلامي



د. نورهان الشيخ

أستاذ العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة

مقدمة:

مثلت الحرب العالمية الأولى وما صاحبها من تطورات، وأعقبها من تسويات، نقطة تحول مفصلية؛ وذلك بالنظر إلى التغيرات الجوهرية التي أحدثتها في النظام الدولي والإقليمي وتداعياتها على العالم الإسلامي. فقد تم تفكيك الإمبراطوريات الكبرى مثل النمسا والمجر والإمبراطورية العثمانية، آخر الإمبراطوريات الإسلامية، إلى دول صغيرة محدودة الدور والتأثير.

كما برزت الولايات المتحدة لأول مرة كفاعل دولي مؤثر؛ حيث حكمت مبادئ ويلسون الأربعة عشر إعادة ترتيب الشأن الأوروبي والعالمي.

وقد كانت الثورة الروسية عام ١٩١٧م ووصول البلاشفة بقيادة لينين إلى السلطة في نوفمبر من نفس العام أحد أبرز التطورات ذات التأثير الدولي والإقليمي الواضح التي صاحبت الحرب العالمية الأولى.

فقد كان النداء الذي وجهه البلاشفة في ديسمبر ١٩١٧م إلى «جميع المسلمين الكادحين في روسيا والشرق»، مؤكداً فيه موقفهم المناوئ للاستعمار والإمبريالية، ومطالبين شعوب الشرق بالثورة على الاستعمار الذي استعبد الشرق واغتصب أراضيه وثرواته، إيذاناً بتوجه جديد حكم السياسة السوفيتية تجاه العالم العربي والإسلامي خلال العقود السبعة التالية، تضمن دعم الاتحاد السوفيتي لحركات التحرر الوطني في مواجهة الاستعمار الغربي، ومواقف مهمة ومؤيدة لقضايا العالم العربي والإسلامي، وأهمها القضية الفلسطينية.

وأحدث الاتحاد السوفيتي على مدى ما يزيد عن أربعة عقود -منذ الحرب العالمية الثانية منتصف الأربعينيات وحتى تفككه مطلع التسعينيات- توازناً مهماً في النظام الدولي، وكان حليفاً استراتيجياً لعدد كبير من الدول العربية، وداعماً للقضايا العربية داخل وخارج الأمم المتحدة في مواجهة الدعم الأمريكي المطلق لإسرائيل.

وعقب تفكك الاتحاد السوفيتي في ديسمبر ١٩٩١م فقدت روسيا -لعمد من الزمان- مكانتها في مصاف القوى الكبرى، وتراجعت القضايا العربية والمنطقة بصفة عامة في أولويات السياسة الروسية تحت ضغط وإلحاح الأزمات الداخلية والانحيار الاقتصادي الحاد، وعدم الاستقرار السياسي الذي كانت تموج به البلاد.

ومنذ وصول الرئيس بوتين إلى السلطة مطلع عام ٢٠٠٠م استطاعت روسيا تحقيق قفزات اقتصادية مكنتها من استعادة الاستقرار السياسي والاجتماعي، واستعادة نفوذها الإقليمي والدولي، وشهدت علاقات روسيا مع العالم العربي والإسلامي تفعيلاً ملحوظاً؛ حيث استطاعت موسكو إعادة إطلاق علاقاتها مع حلفائها التقليديين

وتسعى الدراسة إلى فهم وتحليل هذا التأثير في إطار أربعة محاور أساسية، هي:

أولاً: بروز الاتحاد السوفييتي كقطب دولي وتداعياته.
ثانياً: أثر تفكك الاتحاد السوفييتي على اختلال التوازن الاستراتيجي في المنطقة.

ثالثاً: أثر استعادة روسيا لمكانتها الدولية على قضايا المنطقة.

رابعاً: مستقبل العلاقات مع روسيا ومحدداتها.

أولاً: بروز الاتحاد السوفييتي كقطب دولي وتداعياته:

مثل إعلان قيام الاتحاد السوفييتي في ديسمبر

١٩٢٢م نقطة تحول مفصلية أدت

إلى تغيرات جوهرية في السياسة

الخارجية الروسية، اتخذت

العديد من الأبعاد والتوجهات،

كان من أبرزها تلك المتعلقة

بالمنطقة العربية خاصة، والعالم

الإسلامي عامة؛ نظراً لتلاقي

التوجهات السوفييتية الجديدة مع

المصالح والأولويات العربية. فكان

للسعود السوفييتي تأثير إيجابي

على مجموعة من القضايا العربية على مدى العقود

السبعة التالية، ويستثنى من ذلك التدخل السوفييتي

في أفغانستان الذي مثل خروجاً عن الخط العام

للعلاقات الودية التي ربطت الاتحاد السوفييتي

بالعالم العربي والإسلامي.

الدعم السوفييتي لحركات التحرر الوطني:

ناصر الاتحاد السوفييتي الاستعمار و«الإمبريالية»

التوسعية العداء، وأكد الانقطاع مع الإرث القيصري

الذي كان جزءاً من المنظومة الاستعمارية، ومتعاوناً

معها. وأظهر مبدأين في فكر الثورة دعماً التقارب

في المنطقة على أسس جديدة، وحدث تطور غير مسبق في علاقات روسيا بدول الخليج العربي، وخاصة المملكة العربية السعودية بعد عقود طويلة من توقف العلاقات بينهما منذ ثلاثينيات القرن الماضي.

إلا أن روسيا، التي لم تكن قد تعافت بعد من كبوتها تماماً، لم تستطع الوقوف في وجه الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م، واقتصرت معارضتها للولايات المتحدة على السلوك اللفظي والدبلوماسي داخل مجلس الأمن، ورغم أهمية ذلك إلا أنه لم يغيّر كثيراً من الحقائق على الأرض واحتلال العراق من جانب واشنطن وحلفائها، وهو ما لم يكن متصوراً حدوثه لو كان الاتحاد السوفييتي ما يزال قائماً.

ولقد كانت أزمة أوسيتيا الجنوبية ٢٠٠٨م، ثم الأزمة

السورية من الدلالات الواضحة على بدء حقبة جديدة

يتجه فيها النظام الدولي نحو تعدد

القوى مع صبغة آسيوية يؤكدتها

الصعود المتزايد وتنامي قدرات

القوى الآسيوية وفي مقدمتها

روسيا والصين.

ولا شك أن لهذا تأثيره على

عالمنا العربي والإسلامي، ويفرض

علينا ضرورة فهم أبعاد السياسة

الروسية وخريطة تحالفاتها

ومصالحها في المنطقة حتى يتسنى لنا بناء علاقات

وطيدة تصون مصالحنا وأمننا القومي، وتسهم في

تحقيق التنمية الشاملة التي نرجوها لبلادنا.

وتنطلق الدراسة من كون بروز الاتحاد السوفييتي

كقطب دولي وتفككه، ثم استعادة روسيا لمكانتها

الدولية كان له تأثير واضح على القضايا العالم العربي

والإسلامي، وأبرزها الصراع العربي الإسرائيلي

والقضية الفلسطينية، والتدخل السوفييتي في

أفغانستان، والاحتلال الأمريكي للعراق، والأزمة

السورية، وغيرها.

الاستراتيجية للمنطقة، ذات الجوار الجغرافي شبه المباشر للاتحاد السوفييتي، في ضوء الحرب الباردة وتصادم حدة التنافس الدولي بين موسكو وواشنطن. فقد هاجمت الولايات المتحدة النوايا السوفييتية في الشرق الأوسط، وأعربت عن استعدادها لتقديم مساعدات اقتصادية وإرسال قوات أمريكية لأي دولة بالمنطقة للتصدي لما أطلقت عليه «الشيوعية الدولية»، فيما عُرف بمبدأ أيزنهاور. وفي المقابل ازداد عزم الاتحاد السوفييتي على توطيد نفوذه في المنطقة ومواجهة الأحلاف والقواعد الأمريكية بها خاصة حلف بغداد.

في هذا الإطار، ساند الاتحاد السوفييتي حركات التحرر الوطني في الدول العربية خلال الخمسينيات والستينيات، والتي كان من أبرزها دعمه لنضال الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي منذ بداية حرب التحرير الوطني، وتضمن ذلك إمداد الجزائريين بالأسلحة، ورفض اعتبارها مسألة داخلية لفرنسا، كما كانت تدعي باريس، واعتبر الوضع في الجزائر قضية دولية تشكل خطراً على السلام في المنطقة. وكان الاتحاد السوفييتي من أوائل الدول التي اعترفت رسمياً بالحكومة الجزائرية المؤقتة في ١٩ مارس ١٩٦٢م.

دعم العرب عسكرياً في صراعهم مع إسرائيل:

كان من التوجهات السوفييتية الجديدة معاداة الصهيونية؛ حيث هاجم لينين الحركة الصهيونية واعتبرها حركة رجعية تتعارض ومصالح البروليتاريا اليهودية، وحرص القادة السوفييت على إيقاف النشاط الصهيوني والقضاء عليه نهائياً، وتم اعتقال عدد من القادة الصهاينة، وحل التنظيمات الدينية اليهودية ومصادرة ممتلكاتها. ولم تحرب حكومة الثورة في روسيا بوعده بلفور، وقامت باتخاذ مجموعة من الإجراءات كرد فعل مضاد بهدف إيقاف المد الصهيوني الذي قد ينجم عنه، وتم حظر الهجرة إلى فلسطين.

العربي السوفييتي: أولهما، ضرورة مساندة حركات التحرر الوطني أينما اندلعت. وثانيهما، ما يُطلق عليه الدبلوماسية العلنية، والشفافية في علاقات موسكو الدولية من خلال إلغاء المعاهدات السرية التي وقعتها روسيا القيصرية ونشر نصوصها.^(١)

وفي هذا الإطار، قامت حكومة الثورة بنشر الاتفاقيات السرية التي وقعتها روسيا القيصرية ومنها اتفاقية سايكس بيكو التي قُسمت بمقتضاها بلاد الشام والعراق بين فرنسا وبريطانيا. كما ساند الاتحاد السوفييتي حركات التحرر الوطني في الدول العربية؛ باعتبارها تقوُّض الاستعمار وتحذ من تغلغه في المنطقة.

وعندما أعلن الملك عبد العزيز آل سعود نفسه من مكة المكرمة ملكاً على الحجاز في ٨ يناير ١٩٢٦م، كان الاتحاد السوفييتي أول دولة اعترفت باستقلال مملكة ابن سعود، وأقامت العلاقات الدبلوماسية معها، كما كانت المملكة أول دولة عربية أقامت علاقات دبلوماسية مع موسكو؛ حيث اعتبرت موسكو ما يحدث في المملكة حركة تحرر وطني مناهضة للاستعمار العثماني ثم الإنجليزي.

وفي ٢٩ مايو ١٩٣٢م قام الأمير فيصل ابن سعود بزيارة الاتحاد السوفييتي، وكانت أول زيارة لرعيم عربي إلى روسيا. ورغم هذا التطور الملحوظ في العلاقات السوفييتية السعودية، فإن تراجعاً واضحاً حدث فيها عام ١٩٣٨م؛ حيث استدعت الحكومة السوفييتية بعثتها الدبلوماسية في جدة، وتم قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين.^(٢)

واستمر الدعم السوفييتي كتوجه أساسي حاكم للسياسة السوفييتية تجاه المنطقة العربية، وازداد تبلوراً منذ منتصف الخمسينيات، حيث ازدادت الأهمية

(١) لينين، المهام المباشرة أمام السلطة السوفييتية، موسكو: دار التقدم، بدون تاريخ، ص ١١ - ٢٣.

(٢) طائر منصوروف، القصة التاريخية للسفير نذير تيور ياقولوف في الجزيرة العربية، موسكو، ٢٠٠٢م.

مماثل من جانب الدول الاشتراكية في شرق أوروبا. وقام الاتحاد السوفييتي بوضع قطع أسطوله في البحر المتوسط، وسارع في تقديم المساعدات العسكرية لمصر وسوريا من خلال جسر جوي، وقدرت بعض المصادر قيمة الأسلحة والمعدات التي قام الاتحاد السوفييتي بتسليمها إلى مصر خلال الفترة من ١٩٦٧ - ١٩٧٣ بنحو ١١ مليار دولار.

كما دعم السوفييت مصر وسوريا خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣م عسكريًا واقتصاديًا؛ من أجل استرداد الأرض العربية التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧م، رغم التوتر الذي شهدته العلاقات المصرية السوفييتية عقب طرد الخبراء السوفييت من مصر عام ١٩٧٢م. وفي مواجهة الجسر الجوي الأمريكي لإسرائيل، بدأ الاتحاد السوفييتي في ١٠ أكتوبر ١٩٧٣م جسرًا جويًا لمصر وسوريا بالأسلحة. وطلب الاتحاد السوفييتي من الدول العربية التي يزودها بالسلاح دعم مصر وسوريا، فطلب من العراق تزويد سوريا بالأسلحة لقرب المسافة بينهما، على أن تقوم موسكو بتعويض بغداد عن هذه الأسلحة في وقت لاحق.^(٢)

التأييد المطلق للحقوق الفلسطينية:

عارض الاتحاد السوفييتي محاولة إقامة وطن مستقل لليهود في فلسطين، وأيد الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦م، وعارض فكرة تقسيم فلسطين في نفس العام، كما عارض فكرة إنشاء الدولة اليهودية بها؛ معتبرًا إياها ضربة للحركة القومية العربية. إلا أن الحركة الصهيونية استطاعت في مطلع الأربعينيات التقارب مع الاتحاد السوفييتي، وإقناع القادة السوفييت بتأييدها؛ حيث كان كثير من قادتها يهودًا من الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية. فكان الاتحاد السوفييتي من الدول التي أيدت قرار تقسيم فلسطين داخل الأمم المتحدة عام ١٩٤٨م، وكان أيضًا من أوائل الدول التي

ورغم أن عقد الأربعينيات يعتبر استثناء عن هذا التوجه إلا أنه انتهى بحملة تطهير واسعة ضد اليهود الصهاينة، وبعدها أعلن من جانب ستالين للصهيونية أعاد السياسة السوفييتية لمسارها التي كانت عليه، والذي تضمن دعمًا واضحًا للعرب في مواجهة إسرائيل.^(١)

فقد هاجم الاتحاد السوفييتي العدوان الثلاثي على مصر في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦م، ووصف إسرائيل بأنها أداة في يد الاستعمار، وقام بسحب السفير السوفييتي في تل أبيب. وهدد الزعيم السوفييتي خروتشوف بقصف عواصم الدول المعتدية إن لم يتوقف العدوان، وأنه «إذا لم يبادر المعتدون إلى سحب قواتهم فإن الاتحاد السوفييتي لن يمنع المتطوعين السوفييت الراغبين في الاشتراك مع شعب مصر في نضاله من أجل الاستقلال».

وتمت تعبئة شعبية على أوسع نطاق في الاتحاد السوفييتي، وبدأ التطوع بالآلاف لمساندة مصر، وهو الموقف الذي أسهم في إنهاء العدوان الثلاثي على مصر.^(٣)

كما يعتبر الدعم الدبلوماسي والعسكري السوفييتي لمصر وسوريا خلال العدوان الإسرائيلي في ٥ يونيو ١٩٦٧م نقطة تحول جوهرية، وعلامة فارقة في العلاقات السوفييتية العربية. فلم يسبق أن قام الاتحاد السوفييتي بمثل هذا الدعم لأي دولة خارج المعسكر الشرقي، وكان دعمه معضدًا للصمود العربي خلال الأزمة، وعاملًا مساعدًا لتجاوزها، والحد من تداعياتها الاستراتيجية الخطيرة.

ففي أعقاب العدوان أعلن الاتحاد السوفييتي قطع علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل، وتلا ذلك قرار

(١) د. محمد كمال يحيى، السوفييت والقضية الفلسطينية (١٩٤٨ - ١٩٦٧)، القاهرة: دار الطباعة العربي للطبع والنشر والتوزيع، ١٩٨٦م، ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) فؤاد مرسي، العلاقات المصرية السوفييتية (١٩٤٢ - ١٩٥٦م)، القاهرة: دار الطباعة الحديثة، ١٩٧٧م، ص ١٤٤ - ١٥٠.

(٣) سعد الدين الشاذلي، حرب أكتوبر، باريس: مؤسسة الوطن العربي للطباعة والنشر، ١٩٨١م، ص ١٧٠ - ١٧١.

في ذلك إسرائيل.

٤- ضرورة الحفاظ على الوضع القانوني لمدينة القدس، والانسحاب الإسرائيلي من القدس الشرقية، وضئها إلى حدود الدولة الفلسطينية، مع حرية دخول الأماكن المقدسة للديانات الثلاثة.

٥- ضرورة انعقاد مؤتمر دولي للسلام في الشرق الأوسط باعتباراه السبيل لتحقيق الاستقرار والسلام في المنطقة. ورفض الحلول الجزئية الانفرادية التي تقودها واشنطن؛ لأنها لا تؤدي، من وجهة النظر السوفييتية، إلى حل شامل وجذري للقضية.

عقب حرب أكتوبر شارك الاتحاد السوفييتي في مؤتمر جنيف الذي عُقد في ٢١ ديسمبر ١٩٧٣م لحل القضية الفلسطينية، وأيد مطالب الدول العربية، وإشراك منظمة التحرير الفلسطينية في المؤتمر. وفي عام ١٩٧٤م تم فتح ممثلية منظمة التحرير الفلسطينية في موسكو.

من دعم استقلال أفغانستان إلى التدخل العسكري به:

كانت أفغانستان تاريخياً منطقة نفوذ بريطانية، وتم رسم الحدود الأفغانية السوفييتية بالاتفاق بين روسيا وبريطانيا عام ١٨٩٥م، وعقب تولي أمان الله خان السلطة في أفغانستان عام ١٩١٩م، وفي إطار التوجهات السوفييتية الجديدة الداعمة لحركات التحرر الوطني، بدأت العلاقات السوفييتية الأفغانية في النمو المطرد، وأمدت موسكو أفغانستان بالمساعدات العسكرية، مما مكن أمان الله خان من تحقيق الاستقلال عن بريطانيا وتحرير أفغانستان، وتوقيع معاهدة سلام حصلت أفغانستان بموجبها على الاستقلال، والاعتراف بها دولة مستقلة.

وبهذا الاستقلال ازدادت العلاقات الروسية الأفغانية قوة، خاصة مع استعداد موسكو لدعم الاقتصاد الأفغاني من خلال برامج وخطط طموحة. وفي فبراير ١٩٢١م وقَّعت معاهدة صداقة وعدم اعتداء بين الاتحاد السوفييتي وأفغانستان لمدة خمسة وعشرين عاماً، وفي نوفمبر ١٩٢٦م وقَّعت البلدان معاهدة «الحياد وعدم الاعتداء».

اعترفت بدولة إسرائيل في نفس العام. إلا أنه ما إن اتضح التوجه الغربي لإسرائيل وتبعيتها للقوى الغربية، خاصة الولايات المتحدة مطلع الخمسينيات، حتى بدأ التحول في السياسة السوفييتية؛ فأخذت موسكو في

التحفظ بالامتاع عن التصويت على القرارات المؤيدة لإسرائيل، واستخدم الاتحاد السوفييتي حق النقض (الفيتو) ضد مشروع القرار الغربي الذي قُدِّم لمجلس الأمن ضد مصر في ٢٩ مارس ١٩٥٤م، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها الاتحاد السوفييتي الفيتو مؤيداً لدولة عربية في مواجهة مباشرة مع

الولايات المتحدة وإسرائيل. وقد بلغ التوتر بين موسكو وتل أبيب ذروته مع قطع العلاقات الدبلوماسية بينهما في ١٢ فبراير ١٩٥٣م.^(١)

وعقب حرب أكتوبر شارك الاتحاد السوفييتي في مؤتمر جنيف الذي عُقد في ٢١ ديسمبر ١٩٧٣م لحل القضية الفلسطينية، وأيد مطالب الدول العربية، وإشراك منظمة التحرير الفلسطينية في المؤتمر. وفي عام ١٩٧٤م تم فتح ممثلية منظمة التحرير الفلسطينية في موسكو. وانطلق الموقف السوفييتي من عملية التسوية السلمية في المنطقة من مجموعة من المبادئ ظلت حاكمة للسياسة السوفييتية تجاه القضية الفلسطينية على مدى العقود التالية، من أهمها:

١- انسحاب إسرائيل من الأراضي العربية التي احتلتها عام ١٩٦٧م بالكامل.
٢- قيام الدولة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة، وعودة جميع اللاجئين الفلسطينيين، وتعويض الذين لا يرغبون في العودة إلى فلسطين.

٣- حق جميع دول المنطقة في العيش بسلام بما

(١) والتر لاکور، الاتحاد السوفييتي والشرق الأوسط، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، ١٩٥٩، ص ١١٨ - ١٢٠.



الإعلامية الغربية- نجحت في ترويج هذه الصورة، وإقناع حلفاء واشنطن في باكستان والمنطقة العربية بدعم «المجاهدين» الأفغان، ليس فقط بالمال والسلاح، وإنما بأبنائها ومواطنيها الذين سافروا للجهاد في أفغانستان.

وفي إطار عمليتها المسماة بـ «الإعصار»، التي كان هدفها مساعدة المجاهدين في مواجهة السوفييت، دعمت واشنطن أنشطة تنظيم القاعدة وابن لادن، ويشير البعض إلى أن اسم «القاعدة»، جاء من قاعدة البيانات التي كانت تحتوي على معلومات عن آلاف المجاهدين الذين تم تدريبهم بمساعدة من المخابرات الأمريكية.

ومع وصول جورباتشوف إلى السلطة منتصف الثمانينيات، وفي إطار إعادة هيكلته للسياسة الخارجية السوفييتية تحت ضغط الأزمات والتراجع الاقتصادي، والتي تضمنت تسوية النزاعات الإقليمية التي كانت مسرحاً للصراع والتنافس السوفييتي الأمريكي، بدأ الانسحاب السوفييتي من أفغانستان،

وطوال حكم الملك ظاهر شاه (١٩٣٣-١٩٧٣م)، وحكم الجنرال محمد داود (١٩٧٣-١٩٧٨م) ظل الاتحاد السوفييتي الدولة الأكثر نفوذاً في أفغانستان.

وفي ديسمبر ١٩٧٩م تدخلت القوات السوفييتية في أفغانستان؛ بناء على طلب الحكومة الأفغانية الشيوعية الموالية لموسكو لدعمها، والقضاء على المقاومة الشعبية المتنامية للحكم الشيوعي؛ حيث لم تتقبل الجماهير الأفغانية القوانين الثورية التي بدأت الحكومة في تطبيقها، مثل الإصلاح الزراعي، وحرية المرأة في العمل، وغيرها، ودعا علماء الدين الأفغان إلى نيل القوانين الشيوعية والقضاء على النظام الشيوعي بالكامل.^(١)

ورغم أن التدخل السوفييتي لم يكن «ضد الإسلام»؛ حيث إن الحكومة الأفغانية الجديدة آنذاك كانت أيضاً من المسلمين، إلا أن الولايات المتحدة -التي كانت تعتبر نفسها وريث النفوذ البريطاني في أفغانستان، والآلة

(١) ش. ن. حق تناس، العلاقات الأفغانية الروسية (١٨٢٦ - ١٩٨٤م)، ترجمة عن الفارسية: د. عفاف السيد زيدان، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٩٢م.

قيمه ٣٠,٥ مليار دولار. إلى جانب الدعم الفني الذي كان يقوم به الخبراء السوفييت، وتدريب العسكريين العراقيين. إلا أن العلاقات السوفيتية العراقية شهدت تراجعاً نسبياً منذ عام ١٩٨٠م عندما أطلق العراق برنامجه النووي بالتعاون مع الخبرات الغربية، صاحب ذلك اتجاه العراق خلال حربه مع إيران إلى تنويع مصادر تسليحه من دول أخرى، مثل فرنسا ويوغوسلافيا، ورومانيا وغيرها.

وفي ١٥ فبراير ١٩٨٩م تم سحب كل القوات السوفيتية من أفغانستان بعد تكبّد موسكو خسائر مادية وبشرية فادحة، إلى جانب الشرخ الذي أحدثته الحرب في صورة الاتحاد السوفيتي لدى العالم الإسلامي، والذي ما يزال عالقاً في أذهان البعض حتى يومنا هذا.

ثانياً: أثر تفكك الاتحاد السوفيتي على اختلال التوازن الاستراتيجي في المنطقة:

أدى تفكك الاتحاد السوفيتي في ديسمبر ١٩٩١م إلى تغييرات عميقة في السياسة الخارجية الروسية، واختلال التوازن الاستراتيجي في المنطقة. فرغم أن روسيا مثلت دولة الاستمرار للاتحاد السوفيتي أو الوريث للدولة السوفيتية؛ حيث كان من نصيبها معظم القدرات الاقتصادية والعسكرية السوفيتية، وكذلك كل قدراته النووية العسكرية، والمقعد السوفيتي الدائم في مجلس الأمن، إلا إنها ورثت أيضاً أزماته الاقتصادية والسياسية، ولم يعد في أولويات القيادة الروسية الجديدة ممثلة في بوريس يلتسين، ولا في مقدورها، الاستمرار في الدور السوفيتي التقليدي تجاه المنطقة العربية.

وكان لهذا التغيير تداعيات واضحة على ثلاث قضايا أساسية:

١- التدخل العسكري الأمريكي في المنطقة العربية واحتلال العراق:

منذ سقوط النظام الملكي وقيام ثورة ١٤ يوليو ١٩٥٨م أصبح العراق حليفاً استراتيجياً للاتحاد السوفيتي. ولم يؤثر الانقلاب الذي قام به حزب البعث في ١٧ يوليو ١٩٦٨م على العلاقات السوفيتية العراقية، فواصل البلدان تعاونهما الاستراتيجي في مختلف المجالات، وخلال الفترة ما بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٩٠، كان العراق من أهم مستوردي الأسلحة السوفيتية، وبلغ حجم المبيعات العسكرية للعراق في تلك الفترة ما

وعقب الغزو العراقي للكويت في أغسطس ١٩٩٠م، أعلن الاتحاد السوفيتي رفضه للغزو، وطالب العراق بالانسحاب من الكويت، وأيد التحالف الدولي ضد العراق سياسياً ودبلوماسياً داخل مجلس الأمن، ووافق على القرارات الخاصة بفرض عقوبات على العراق، وبنشر القوات الأمريكية تحت مظلة التحالف الدولي في المنطقة.

ولا شك أن مقدمات تفكك الاتحاد السوفيتي والتي بدأت فعلياً منذ منتصف الثمانينيات، وتولي جورباتشوف السلطة عام ١٩٨٥م، كانت عاملاً مباشراً في قبول موسكو انتشار القوات الأمريكية في المنطقة، والذي لم يكن متصوراً عندما كان الاتحاد السوفيتي في قوته خلال الحرب الباردة^(١).

وقد شهد الموقف الروسي تحولاً نسبياً في فترة ما بعد انتهاء العمليات العسكرية ضد العراق حيث اتجهت روسيا لتأييد العراق، وقد اتخذ هذا التأييد بعدين أساسيين: أولهما: السعي لتخفيف العقوبات المفروضة على العراق منذ أغسطس ١٩٩٠م تمهيداً لرفعها. وثانيهما: رفض استخدام القوة ضد العراق؛ حيث أدانت روسيا الضربات الجوية التي شنتها الولايات المتحدة وبريطانيا على العراق في يناير ويونيو ١٩٩٣م وديسمبر ١٩٩٨م وفبراير ٢٠٠١م.

كما رفضت روسيا الاحتلال الأمريكي للعراق،

(١) يفجيني بريماكوف، الشرق الأوسط: المعلوم والمخفي، (دمشق: دار إسكندرون)، ٢٠٠٦م.

وإحكام السيطرة عليها، خاصة في ظل تفاقم الأزمة الاقتصادية، واحتماد الصراع السياسي بين الرئيس بوريس يلتسين والبرلمان.

ولم تشهد السنوات الأولى عقب تفكك الاتحاد السوفييتي تحركاً دبلوماسياً ملموساً ومشاركة فعالة من جانب روسيا في عملية التسوية، باستثناء استضافتها للجولة الأولى من المفاوضات متعددة الأطراف في يناير ١٩٩٢م، والتي كان متفقاً عليها في فترة ما قبل التفكك، ولم يحضرها الرئيس الروسي؛ نظراً لانشغاله بالتداعيات الداخلية والإقليمية والدولية لتفكك الاتحاد.

إلا أنه مع تصاعد حدة الانتقادات لسياسة يلتسين الداخلية والخارجية، واتجاهه إلى اتباع سياسة متوازنة، وأكثر استقلالية عن الولايات المتحدة الأمريكية عادت السياسة الروسية إلى التوازن في المنطقة، وقد كانت مذبحه الخليل في فبراير ١٩٩٤م - حين قام أحد المستوطنين الإسرائيليين بقتل ٢٥ فلسطينياً، كانوا يصلون الفجر في المسجد - هي البداية الحقيقية لعودة روسيا إلى ممارسة دور ما في عملية السلام، بل وعودتها إلى المنطقة ككل.

فقد نشطت الدبلوماسية الروسية آنذاك في تقديم مجموعة من المقترحات والمبادئ لعقد مؤتمر دولي ثانٍ للسلام في الشرق الأوسط في مدريد، امتداداً لمؤتمر مدريد للسلام الذي عُقد في أكتوبر ١٩٩١م. كما اقترحت موسكو إرسال مراقبين دوليين للضفة وقطاع غزة لحماية المواطنين الفلسطينيين العزل من الاعتداءات الإسرائيلية. إلا أن هذه المقترحات لم تلق قبولاً لدى كل من الولايات المتحدة وإسرائيل.

وفي مايو ١٩٩٥م أدانت روسيا قرار الحكومة الإسرائيلية بمصادرة ٥٣ هكتاراً من الأراضي الفلسطينية، واعتبرته خرقاً للاتفاقات المبرمة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية، وطالبت

وجاهرت بموقفها هذا علانية داخل مجلس الأمن عندما رفضت مشروع القرار الأنجلو أمريكي لتحويل الولايات المتحدة الحق في استخدام القوة ضد العراق تحت مظلة الأمم المتحدة. الأمر الذي أثار -دون شك- على مسار القضية العراقية، وأخرج السلوك الأمريكي من نطاق الشرعية الدولية، وأكد الصيغة الاستعمارية الواضحة للاحتلال الأمريكي البريطاني للعراق في مارس ٢٠٠٣م، ليصبح احتلالاً مستتقراً على الصعيد الدولي رسمياً وشعبياً. إلا أن موقف موسكو لم يغيّر واقعة الاحتلال في شيء، فلم تكن روسيا قد نهضت من كبوتها بعد واستعادت قوتها ومكانتها الدولية. ولكن رغم أن موقفها لم يجلّ دون احتلال الولايات المتحدة للعراق، فإنه يظل موقفاً مهماً من الناحية السياسية والدبلوماسية.

٢- تراجع الاهتمام بالقضية الفلسطينية دون التخلي عن الثوابت تجاهها:

أدى تفكك الاتحاد السوفييتي إلى تحول جذري في الموقف الروسي، على النحو الذي أصبح واضحاً معه أن المعادلة الصفرية (إما / أو) غير مطروحة في علاقات موسكو مع أطراف الصراع. فهي ترتبط بعلاقات جيدة مع إسرائيل، ولكنها في ذات الوقت تؤيد الحق العربي، وتطور علاقاتها بالدول العربية على نحو مضطرب في مختلف المجالات؛ لأنها لا تجد تناقضاً أو تعارضاً بين الأمرين، لاسيما مع اتجاه عدد من الدول العربية ذاتها إلى الانفتاح على إسرائيل والتعاون معها.

ورغم أن روسيا أصبحت «الراعي الثاني» لعملية السلام خلفاً للاتحاد السوفييتي. إلا أنها لم تسع إلى تفعيل دورها هذا، بل إن دورها أصبح أكثر محدودية وهامشية مما كان عليه في ظل الاتحاد السوفييتي السابق، وتراجعت المنطقة وأهميتها على نحو واضح في أولويات السياسة الروسية طوال حقبة التسعينيات. وذلك نظراً لانشغال القادة الروس في فترة ما بعد الانهيار بترتيب الأوضاع الداخلية،

مصلحية واقتصادية واضحة بدأت روسيا تطوير علاقاتها مع طهران خلال حقبة التسعينيات في عهد الرئيس بوريس يلتسين.

فهناك تعاون عسكري واسع النطاق بين البلدين، وتعتبر إيران سوقاً رئيساً للأسلحة الروسي، وقد بدأ التعاون العسكري بين البلدين في عام ١٩٨٩م عندما تم توقيع عقد توريد بعض الأسلحة السوفيتية إلى إيران. وفي عام ١٩٩١م وقّعت موسكو وطهران مجموعة من العقود بلغت قيمتها ٧,٩ مليار دولار.

وخلال الفترة من ١٩٩١ - ١٩٩٤م قامت روسيا بتوريد ما قيمته ٤ مليارات دولار من الأسلحة لإيران، وتضمن ذلك مقاتلات ميغ-٢٩، وقاذفات سوخوي-٢٤، وثلاثة غواصات، وكتائب صاروخية، كما تم بناء معامل لصناعة الدبابات والمدرعات والصواريخ المضادة للدبابات.

وفي عام ١٩٩٢م وقّع البلدان اتفاقيتين: الأولى للتعاون في مجال الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية، ويتضمن ذلك إجراء البحوث والدراسات، وتدريب الخبراء، أما الثانية فهي تلك الخاصة ببناء محطة نووية في إيران لإنتاج الطاقة الكهربائية، وهي محطة بوشهر (جنوب إيران) بطاقة تبلغ ١٠٠٠ ميغاوات. وتم توقيع العقد الخاص بالصفقة بين البلدين في يناير ١٩٩٥م، وبدأ العمل فيه أوائل عام ١٩٩٦م. كما تلقى نحو ٧٠٠ مهندس إيراني التدريبات اللازمة في روسيا؛ حيث يتم تأهيل العلماء النوويين الإيرانيين في معهد كورنشاتوف للطاقة النووية ومقره موسكو، والتقنيين في موقع مفاعل نوفوفوروينش الروسي النووي.^(٢)

الحكومة الإسرائيلية بإعادة النظر في هذا القرار.^(١)

ورغم إيجابية المواقف الروسية السابقة، إلا أن الاهتمام الروسي بالقضية الفلسطينية عاد وشهد تراجعاً واضحاً خلال العامين التاليين، في ظل انفراد الولايات المتحدة بالوساطة لتوقيع الاتفاق الفلسطيني الإسرائيلي، ثم الأردني الإسرائيلي، إلى أن شهد عام ١٩٩٧م محاولة لتنشيط هذا الدور؛ حيث تم تعيين فيكتور بوسوفاليوك مبعوثاً دائماً خاصاً لعملية السلام في الشرق الأوسط، وهي الخطوة التي اعتبرها بعض

المحللين عودة للاهتمام الروسي بالقضية الفلسطينية. لاسيما بعد الزيارات المتتابة التي قام بها للمنطقة بهدف استئناف المباحثات وإخراج عملية التسوية من الأزمة التي كانت تمر بها آنذاك.

وبصفة عامة فإنه خلال حقبة التسعينيات اقتصر الدور الروسي على السلوك اللفظي

الداعم للسلطة الفلسطينية، والنشاط الدبلوماسي، ومحاولات الوساطة السياسية، والحرص على احتفاظ روسيا بأكبر قدر من التوازن في علاقاتها بمختلف الأطراف.

٣- التعاون الاستراتيجي الروسي الإيراني:

يعتبر التعاون الاستراتيجي الروسي الإيراني نموذجاً واضحاً للتحول في السياسة الروسية؛ حيث أصبحت الاعتبارات والمصالح الاقتصادية هي الحاكمة للسياسة الخارجية الروسية بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، وأصبحت السياسة الروسية أكثر برجماتية، وسعيًا لتحقيق المصالح الروسية على الصعيدين الاقتصادي والأمني. وفي هذا الإطار وانطلاقاً من اعتبارات

(2) Brenda Shaffer, Partners in Need: The Strategic Relationship of Russia and Iran, (Washington: Washington Institute for Near East Policy), 2001, pp.48-53

(1) Robert O. Freedman, Moscow and the Middle East since the Collapse of the Soviet Union: A Preliminary Analysis, in Roger E. Kanet & Alexander V. Kozhemiakin, The Foreign Policy of the Russian Federation, New York: Macmillan Press, 1997, P. 147

ساعد على ذلك التحسن الملحوظ في أداء الاقتصاد الروسي منذ عام ٢٠٠٠م، والذي وصل إلى حد الطفرة؛ حيث حقق الاقتصاد الروسي معدل نمو بلغ حوالي ٧٪ سنويًا منذ عام ٢٠٠٣م، كما استعادت المؤسسة العسكرية الروسية هيبتها وانضباطها، وتطورت قدراتها العسكرية بشكل ملحوظ.

ولقد كان لهذا تأثيره على القضايا العربية، وتعقد الدول العربية آمالاً على موسكو في مزيد من العدالة والإنصاف في مواقف المجتمع الدولي تجاه القضايا العربية المختلفة، لاسيما القضية الفلسطينية. فروسيا وسيط نزيه من وجهة النظر العربية، يسعى

للتسوية السلمية مراعيًا مصالح كافة الأطراف. كما تعتبر روسيا أن استقرار المنطقة مطلب ضروري لتحقيق مصالحها، ومن ثم تسعى إلى الحفاظ عليه.

(١) إعادة تفعيل الدعم الروسي للقضية الفلسطينية:

في عام ٢٠٠١م بدأت آلية رباعي الوسطاء الدوليين، «الرباعية»، التي تضم روسيا والولايات المتحدة، والاتحاد الأوروبي، والأمم المتحدة، والتي صدر بها قرار مجلس الأمن رقم ١٢٩٧ في مارس ٢٠٠٢م، ليعزز من دور روسيا في عملية التسوية السلمية، ولتعود فاعلاً أساسياً في هذه العملية ذا وضعية دولية وقانونية في هذا الإطار. وقد كان انضمام روسيا إلى الرباعية الدولية أمراً محورياً لإحداث التوازن مع الموقف الأمريكي المنحاز دائماً إلى إسرائيل.

وتؤكد روسيا دوماً على تأييدها للحق الفلسطيني، وضرورة التزام إسرائيل بتنفيذ كافة الاتفاقات الموقعة، والمحافظة على مرجعية مدريد، وتطبيق مبدأ: الأرض مقابل السلام. وأن قرارات مجلس الأمن الدولي ٢٤٢، ٣٢٨ تعد هي الأساس لإحلال السلام في المنطقة. كما تؤكد روسيا على حق الفلسطينيين في إقامة دولتهم

ولقد أصبح الملف النووي الإيراني من أكثر القضايا تعقيداً وإثارة للجدل على الصعيدين الإقليمي والدولي. فمن ناحية تصرّ إيران على حقها - غير المشروط - في تشغيل دورة الوقود النووي كاملة، وإتمام إعداد برنامج تخصيب اليورانيوم؛ ضماناً لاستمرار الحصول عليه،

والتحلل من أي قيود روسية أو مغالاة في سعر التكلفة بعد ذلك، في حين ترفض الولايات المتحدة هذا رفضاً قاطعاً حتى لا تمتلك إيران «القدرة» على إنتاج قنبلة نووية في المستقبل.

وفي خضم الهجوم العنيف على طهران من جانب الولايات المتحدة يؤيدها الاتحاد الأوروبي وإسرائيل،

يظل الموقف الروسي الأكثر تعاطفاً مع إيران وتفهماً لموقفها على الرغم من موافقة موسكو على فرض عقوبات على إيران للحيلولة دون تحويل برنامجها للاستخدام العسكري.

ولا شك أن امتلاك إيران قدرات نووية، حتى ولو للاستخدام السلمي، يخل بالتوازن الاستراتيجي في المنطقة خاصة مع سعي طهران للدوب لتطوير برنامجها وزيادة معدلات تخصيب اليورانيوم ذاتياً.

ثالثاً: أثر استعادة روسيا لمكانتها الدولية على قضايا المنطقة:

عقب حقبة الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين واللتين شهدتا انهياراً سريعاً في القدرات الروسية الاقتصادية والعسكرية، ودرجة حادة من عدم الاستقرار السياسي لم تشهدها روسيا منذ انتهاء الحرب الأهلية، وإعلان قيام الاتحاد السوفييتي مطلع العشرينيات من القرن الماضي، استعادت روسيا مكانتها كقوة كبرى قادرة على الدفاع عن مصالحها وحلفائها، وفرض إرادتها في هذا الخصوص.

لفلسطين. فقد كانت أول زيارة لمسئول روسي رفيع المستوى إلى فلسطين دون المرور بإسرائيل، الأمر الذي جعل الزيارة سابقة هي الأولى من نوعها؛ حيث جرت العادة أن كل شخصية دولية مهمة تزور فلسطين تتور إسرائيل أيضًا لتؤكد عدم تحيزها لأي من طرفي النزاع؛ الفلسطيني الإسرائيلي.

وقد بدا الدعم الروسي للقضية الفلسطينية واضحًا أيضًا في الموقف من إعلان الدولة الفلسطينية. فقد اعتبرت روسيا أن الطلب الفلسطيني الذي تقدم به الرئيس الفلسطيني محمود عباس في ٢٣ سبتمبر ٢٠١١م إلى مجلس الأمن للحصول على عضوية كاملة لدولة فلسطين في الأمم المتحدة «مطلق الشرعية ومبني على أسس».

وصوتت روسيا الاتحادية لصالح عضوية فلسطين في منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم «اليونسكو» في ٢١ أكتوبر ٢٠١١م، رغم معارضة الولايات المتحدة وإسرائيل، وتهديدها بوقف تمويل المنظمة التي تشكل حصة الولايات المتحدة في ميزانيتها ٢٢٪، وتم منح فلسطين العضوية الكاملة لليونسكو، ولتصبح فلسطين العضو الـ ١٩٥ في هذه المنظمة الدولية. كما أيدت روسيا في نوفمبر ٢٠١٢م رفع صفة فلسطين في الأمم المتحدة من صفة مراقب إلى «دولة» غير عضو (مراقب) في المنظمة الدولية، رغم المعارضة الأمريكية والإسرائيلية الحادة لذلك أيضًا.

ولا يقتصر الدعم الروسي على الدعم السياسي فقط، وإنما يتضمن دعمًا اقتصاديًا أيضًا؛ حيث قدمت روسيا مساعدات بلغت قيمتها ٣٠ مليون دولار لفلسطين على ثلاث دفعات قيمة كل منها ١٠ ملايين دولار في مايو ٢٠٠٦م وسبتمبر ٢٠٠٨م، وأكتوبر ٢٠١٠م، كما قدمت لفلسطين ٩٨٣٩ طنًا من الدقيق في مارس ٢٠١٠م.

المستقلة، وأن القدس جزء من الأراضي المحتلة، وترفض سياسة الاستيطان والعنف؛ باعتبارها لا تخدم العملية السلمية. وقد نددت روسيا بإعادة احتلال إسرائيل للأراضي الواقعة تحت السيطرة الفلسطينية، واعتبرته عملاً يصعد من المواجهة بين الجانبين.

وعبر الرئيس الروسي فلاديمير بوتين صراحة عن استيائه من ممارسات القوات الإسرائيلية في الأراضي الفلسطينية.

كذلك أيدت روسيا عددًا من القرارات المهمة المتعلقة بالقضية الفلسطينية داخل الأمم المتحدة، منها قرار الجمعية العامة (١٣/١٠) في أكتوبر ٢٠٠٣م، الذي يدين تصرفات إسرائيل في الأراضي المحتلة وبناءها لجدار الفصل العنصري، والذي اعتبرته روسيا عملاً غير شرعي.

ونجحت في استصدار قرار مجلس الأمن رقم ١٥١٥، بناء على اقتراح روسي، الذي يقر خارطة الطريق، ويجعل منها قرارًا ملزمًا بدلاً من كونها مجرد مبادرة من الرباعية الدولية. كما رفضت دعوات الولايات المتحدة وإسرائيل لمقاطعة الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات بدعوى التشجيع على ظهور قائد فلسطيني جديد.

وقد جاءت زيارة الرئيس بوتين لفلسطين في أبريل ٢٠٠٥م لتؤكد هذا التوجه في السياسة الروسية، وكانت مراسم استقباله في رام الله اعترافًا ضمنيًا من جانب روسيا بالدولة الفلسطينية، كما أن مطالبته لإسرائيل «بالسعي لمساندة الرئيس الفلسطيني بدلاً من الضغط عليه» مثلت دعمًا معنويًا كبيرًا للسلطة الفلسطينية ورئيسها. وفي يونيو ٢٠١٢م قام بوتين بزيارته الثانية لفلسطين، والتي افتتح خلالها المركز الروسي للثقافة والعلوم في بيت لحم.

وسبقته زيارة الرئيس الروسي دميتري ميدفيديف لفلسطين في ١٨ يناير ٢٠١١م لتكثل الدعم الروسي

(٢) الموقف الروسي من الأزمة السورية:

شهد العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين بدء حقبة جديدة تتضمن تحولاً تدريجياً إلى نظام دولي متعدد القوى ذات صبغة آسيوية واضحة؛ حيث تتراجع الهيمنة الأمريكية في ضوء إلحاح مشكلاتها الاقتصادية الداخلية والفسل النسبي لأدواتها الخارجية خاصة في العراق، يتزامن هذا مع ميل واضح في ميزان القوى الاقتصادية لصالح آسيا لاسيما في ضوء الأزمة المالية التي كادت تعصف بالكيان الأوروبي الموحد.

في هذا الإطار استطاعت روسيا -تأييدها الصين- تحجيم الولايات المتحدة، وإعاقة حركتها في مواقف عدة؛ من أبرزها: الأزمة السورية التي تشهد استقطاباً حاداً بين الولايات المتحدة يدعمها الاتحاد الأوروبي وتركيا وقطر والسعودية من ناحية، وروسيا والصين تدعمهما إيران وحزب الله من ناحية أخرى. فقد أثر الموقف الروسي تأثيراً بالغاً على مسار الأزمة السورية، ولعل مقارنة سريعة بين الحالة الليبية والسورية توضح هذا التأثير.

فموسكو ترى أن واشنطن تسعى إلى إحكام قبضتها على المنطقة، ووضع حد للشراكة العربية المتنامية مع القوى الآسيوية، وفي مقدمتها روسيا والصين، وذلك من خلال إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط جغرافياً وسياسياً، وإضعاف القوى الإقليمية المهمة العربية وغير العربية الكبرى، وخلق كيانات ضعيفة يسهل توجيهها ولا تمثل خطراً على مصالحها. وأن تدخلاً أمريكياً في سوريا قد يكون مقدمة «لصوملتها» وتفتيتها، الأمر الذي يُخرج سوريا كما خرج العراق من المعادلة الإقليمية بعد أن كانت فاعلاً رئيساً ومهماً بها، ويفتح الباب أمام تصفية الحسابات القديمة بين الولايات المتحدة وإيران وكسر شوكة طهران.

انطلاقاً مما سبق، رفضت روسيا رفضاً قاطعاً أي تدخل خارجي مباشر أو غير مباشر في الأزمة

السورية، واستخدمت الفيتو داخل مجلس الأمن ثلاث مرات للحيلولة دون ذلك في ٥ أكتوبر ٢٠١١م، و٥ فبراير ٢٠١٢م، ثم في ١٩ يوليو ٢٠١٢م. وأكدت على حتمية الحل السلمي وجلوس كل الأطراف المعنية على طاولة المفاوضات.

فروسيا ترى أن ما يحدث في سوريا هو «نزاع داخلي مسلح» أو حرب أهلية، وأن بشار الأسد لا يتحمل وحده مسئولية العنف، وإنما يتحمل الطرفان؛ السلطة والمعارضة، مسئولية ما يحدث في ظل العنف المتبادل بينهما. كما أكدت على دور الطرف الثالث، وأن النزاع ليس فقط بين النظام والمعارضة، وأن هناك ما يسمى «القوة الثالثة» وهي تنظيم «القاعدة» وتنظيمات إرهابية مقربة منه مثل جبهة النصرة، التي تنامي نشاطها على نحو ملحوظ، وأصبح يهدد ليس فقط سوريا، وإنما الأمن الإقليمي. وأن استخدام القوة بشكل واسع ضد الآلاف من المقاتلين المدربين والمسلحين بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وغيرها من القوى الغربية والإقليمية، الذين يحاولون إسقاط السلطة الشرعية، أمر مبرر من وجهة نظر موسكو.

وهو موقف يختلف جذرياً عن الموقف الغربي والعربي الذي حمل بشار الأسد وحده مسئولية العنف في سوريا، وفقد الأمل في الحل السلمي لیتجه إلى الدعم العسكري للمعارضة من أجل الإطاحة ببشار. فالرؤية الروسية تقوم على ضرورة الحل السلمي، والانتقال السلس للسلطة، وترى في هذا السيناريو إنقاذاً للدولة والشعب السوري، والمنطقة بأسرها، وبالطبع حماية للحد الأدنى من مصالحها.

في هذا الإطار عارضت روسيا بشدة إعلان أوباما عن عزم واشنطن توجيه ضربة عسكرية أمريكية ضد سوريا في أعقاب استخدام السلاح الكيميائي في الغوطة الشرقية في ٢١ أغسطس ٢٠١٢م، وأكدت الرئيس بوتين أن القيام بها دون تفويض من مجلس الأمن الدولي يجعلها «عدواناً».

العقد الماضي يعكس تغيراً ملحوظاً فيها، ليس فقط مقارنة بما كانت عليه خلال فترة الاتحاد السوفيتي السابق، وإنما مقارنة أيضاً بحقبة التسعينيات في ظل قيادة الرئيس الروسي الأسبق بوريس يلتسين. فقد عادت روسيا لتلعب دوراً فاعلاً وتتخذ مواقف واضحة في العديد من القضايا الدولية والإقليمية؛ ساعدها في ذلك وجود قيادة واعية ذات رؤية للأولويات الوطنية، ولديها القدرة على تنفيذها وإدارة تبعاتها بكفاءة، وانتعاشة اقتصادية مكنتها من تحقيق درجات متزايدة من الاستقلالية في سياستها الخارجية.

وقد أبدت روسيا اهتماماً ملحوظاً بالعالم الإسلامي بصفة عامة، والمنطقة العربية خاصة، وتقدمت في أكتوبر ٢٠٠٣م بطلب عضوية منظمة المؤتمر الإسلامي، وحصلت على صفة مراقب في المنظمة عام ٢٠٠٥م؛ حيث يقطنها ما يزيد عن ٢٠ مليون مسلم أي حوالي ١٤٪ من إجمالي عدد السكان. كما مُنحت روسيا في عام ٢٠٠٧م صفة مراقب في المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم «الإيسيسكو»، وتم تشكيل مجموعة عمل تحت مسمى الرؤية الاستراتيجية «روسيا - العالم الإسلامي»، التي تعقد اجتماعات دورية.

وشهدت العلاقات العربية الروسية نمواً متزايداً، وعلى أسس راسخة، وذلك في إطار رؤية واضحة للقيادة الروسية لبرامج العمل والتعاون بين روسيا والدول العربية على النحو الذي يحقق مصالح الطرفين، واستجابة عربية للمبادرات الروسية.

ولكن ما إن استطاعت روسيا ترتيب أوضاعها في المنطقة بجهد كبير وزيارات متتالية ومكثفة قامت بها القيادة الروسية، حتى هبَّت رياح التغيير لتعصف بكل الأوراق، وتطرح ضرورة إعادة ترتيبها من جديد. فتورات الربيع العربي التي بدأت بتونس في ديسمبر

واتهم وزير الخارجية الأمريكي جون كيري بالكذب على الكونجرس بشأن دور تنظيم «القاعدة» في الصراع في سوريا. وشدد على ضرورة انتظار نتائج التحقيق الذي أجراه فريق محققي الأمم المتحدة بشأن من استخدم السلاح الكيميائي. ونفى وجود أي معطيات حتى تاريخه تشير إلى أن الجيش النظامي السوري هو من استخدم هذه المواد الكيميائية.

ورأى أنه ليس من المعقول أن يستخدم الجيش النظامي الذي يحقق تقدماً على الأرض السلاح الكيميائي المحظور، وهو يدرك جيداً أن ذلك قد يُتَّخذ ذريعة لفرض عقوبات تصل إلى استخدام القوة.

وأكد بوتين أن روسيا لا تدافع عن الحكومة السورية، بل عن النظام العالمي الجديد واستخدام القوة فقط في إطار القواعد الدولية والقانون الدولي.

كما أعلن مصدر في أركان سلاح البحرية الروسي أن السفن

الحربية الروسية قادرة على التأثير في الوضع في منطقة شرق البحر المتوسط، بالتعاون مع الغواصات إذا اقتضت الضرورة ذلك، خاصة وأن طراد موسكو الصاروخي الذي أطلق عليه حلف الأطنطي «قاتل حاملات الطائرات» يتجه إلى منطقة شرق البحر المتوسط، بدلاً من غرب إفريقيا كما كان مخططاً له.

وعلى صعيد آخر قام وفد برلماني روسي بزيارة الولايات المتحدة للقاء أعضاء من الكونجرس الأمريكي بهدف إجهاض محاولة أوباما للحصول على موافقة الكونجرس على الضربة العسكرية الأمريكية ضد سوريا.

رابعاً: مستقبل العلاقات مع روسيا ومحدداتها:

إن تتبع السياسة الروسية في المنطقة على مدى

حقيقية تسعى للحفاظ عليها، وتميبتها حتى مع تغيير النظم الحاكمة في بعض الدول العربية في أعقاب الثورات. وفي هذا الإطار ترتبط المصالح الروسية بثلاثة قطاعات رئيسية، هي: الطاقة (النفط والغاز)، والتعاون التقني في المجالات الصناعية والتنمية، والتعاون العسكري.

ثانيها: موقفها من الثورات العربية والتزامها الحياد وعدم التدخل في الشأن الداخلي لأي بلد عربي أو الانحياز الصريح والمعلن لطرف دون آخر، باستثناء الحالة السورية:

فخلافًا للعهد السوفييتي الذي كانت فيه موسكو الداعم لكل الثورات وحركات التحرر الوطني في العالم، لم تعلن روسيا تأييدًا صريحًا للثورة والثوار في أي بلد عربي. فقد التزمت الصمت إزاء الأحداث حين نضجها وإزاحة من بالسلطة كما حدث في تونس ومصر، ووقفت موقف الحياد أو المتابع، واتسم موقفها بالتأني الذي وصل حد البطء في رد الفعل في حالة اليمن والبحرين.

في حين أبدت مواقف مؤيدة بوضوح للسلطة الحاكمة في ليبيا وسوريا مع اختلاف نمط ودرجة التأييد. مع تأكيد حرصها على الاستقرار الداخلي والإقليمي للدول العربية، حتى يتسنى لها الإبقاء على علاقاتها بالدول محل الثورات بغض النظر عن الطرف الذي سيطر على السلطة ويكون له الغلبة في النهاية.

ثالثها: أهمية الشراكة مع روسيا بالنسبة للعالم العربي والإسلامي:

فهناك آفاق رحبة للتعاون في مجالات الطاقة النووية، وتكنولوجيا الفضاء، وتطوير البنية الصناعية لبلادنا، وهو التعاون الذي بدأ بالفعل على نطاق

٢٠١٠م، وما زالت تتطور في العديد من الدول العربية توفر فرصًا وتفرض تحديات على روسيا. فالثورات نجحت في فك الارتباط التقليدي بين النخب الحاكمة والولايات المتحدة في بعض البلدان، إلا أنها قد تتجح أيضًا في إنهاء العداء التقليدي بين البعض الآخر والولايات المتحدة.

ولا شك أن هذه التطورات سوف تؤدي إلى بروز متغيرات إقليمية جديدة تمامًا. وبنهاية مرحلة التحول سوف يُعاد تعريف الحلفاء وكذلك الخصوم أو المنافسين، الأمر الذي سيؤثر حتمًا على السياسة الروسية وتحالفاتها. فالمنطقة بأكملها يُعاد رسم خريطة القوى والتحالفات بها، وذلك بالنظر إلى التغير السريع والجزري الذي تمر به، والذي سيغير دون شك من حسابات روسيا ومعطيات اتخاذ قرارها الخارجي. ويعتبر هذا التغير في حد ذاته تحديًا مهمًا يواجه السياسة الروسية.

ولا شك أن روسيا حريصة على استمرار روابطها مع العالم العربي والإسلامي، وتنمية التعاون المثمر بينهما في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية والاستراتيجية. وهي قادرة على إعادة ترتيب علاقاتها، ومواجهة التحديات التي تفرضها التغيرات المصاحبة للثورات العربية.

ويعزز من هذا التوجه مجموعة من العوامل:

أولها: المصالح الروسية الاقتصادية والاستراتيجية في المنطقة:

فعلى مدى العقد الأول من القرن العشرين استطاعت روسيا إعادة بناء علاقاتها مع عدد كبير من الدول العربية تتضمن حلفاءها التقليديين، وفي مقدمتهم سوريا وليبيا والجزائر، والشركاء الجدد مثل دول الخليج والأردن. وأصبح لروسيا مصالح

محدود مع بعض الدول في المنطقة.

يضاف إلى هذا، حاجة دولنا للدعم السياسي الروسي فيما يتعلق بقضايا المنطقة خاصة القضية الفلسطينية داخل الأمم المتحدة وخارجها؛ حيث يتم الموقف الروسي بالاعتدال والتوازن وتأييد الحق العربي على النحو السابق بيانه تفصيلاً.

إن روسيا شريك واعد للدول الإسلامية عامة ولنطقتنا العربية خاصة، ومن الضروري اتخاذ خطوات جادة لتفعيل التعاون مع روسيا، وتبرز في هذا الإطار أهمية ما يلي:

- دعم التعاون والتنسيق في مجال الطاقة للحفاظ على استقرار السوق النفطية، وضمان حد أدنى لأسعار النفط، وتشجيع الاستثمارات المشتركة في هذا المجال.

- تنمية التبادل التجاري بين الطرفين؛ حيث تستوعب السوق الروسية الكثير من المنتجات الغذائية والصناعات الاستهلاكية والأدوية، وغيرها.

- تكثيف المشاركة في المنتديات الاقتصادية والمعارض التي تعقدتها روسيا.

- تنظيم معارض لمنتجات دولنا في روسيا، واستضافة معارض لمنتجاتها، وتنظيم لقاءات لرجال

الأعمال وممثلي الشركات المهتمة على هامش هذه المعارض للتعرف على فرص الاستثمار المشترك.

- تنظيم زيارات لرجال الأعمال العرب والمسلمين لروسيا للتعرف عن قرب على فرص الاستثمار والتعاون الاقتصادي بها، واستقبال وفود من مجتمع الأعمال بها للتعرف على فرص التعاون الاقتصادي مع دولنا.

- التوسع في إنشاء المراكز الثقافية لدولنا في روسيا.

- دعم وتشجيع إقامة مراكز للبحوث والدراسات في روسيا؛ بهدف دراسة الواقع الروسي، وتقديم توصيات إلى صانعي القرار في دولنا فيما يتعلق بمجالات التعاون المختلفة، وكذلك نشر الوعي الصحيح بقضايانا وثقافتنا الأصيلة.

- إحياء حركة الترجمة فيما بين اللغتين العربية والروسية، وبحث قناة عربية باللغة الروسية، وإقامة الأسابيع الثقافية المتبادلة على نحو دوري؛ من أجل مزيد من التقارب الثقافي والحضاري.

- عقد الندوات المشتركة، وتعزيز التعاون بين المراكز البحثية في الجانبين، وزيادة حركة التبادل العلمي بين الأساتذة والطلاب.

معلومات إضافية

انهيار الاتحاد السوفياتي:

انهار الاتحاد السوفياتي مع نهاية عام ١٩٩١م، إثر استقالة ميخائيل جورباتشوف.

وكان هناك العديد من الأسباب المهمة لنكسة الاشتراكية، منها على سبيل المثال: تلازم هذه الاشتراكية، مع الدكتاتورية البوليسية المطلقة التي خلصت دائرة السلطة في مجال ضيق تتناوله نخبة سياسية وعسكرية بيروقراطية، استطاعت أن تقدم الحرية والديمقراطية.

وقد تعرض الاتحاد السوفياتي لضغوط قوى داخلية، اقتصادية وسياسية، وأخرى خارجية كانت من أسباب انهياره، وتمثلت في الآتي:

١- الضغوط الداخلية:

أ- القوى المحافظة المناهضة لجورباتشوف: حيث أكد جورباتشوف على أن توقف عملية الإصلاح سيؤدي إلى كارثة محققة، وأن الإصلاحات ستجعل من الاتحاد السوفياتي أكثر دول العالم ديمقراطية.

ب- مشكلات القوميات: التي نجحت أجهزة الإعلام الغربية في استثارتها، مثل دول البلطيق، أو مشكلة عودة التتار إلى القرم، أو مشكلات القومية الدينية في مولدافيا، وغيرها.

ج- دول أوروبا الشرقية: وتمثلت ضغوطها في الرغبة على الانفتاح تجاه الغرب، وهو ما أدى إلى صجوة التيار القومي، ودور الكنيسة بصفقتها مركزاً للمقاومة الأيديولوجية، والمبادئ التي قام عليها الموقف السوفياتي إزاء أوروبا، وكان إقرار استقلال الأحزاب الشيوعية الأوروبية، وحققها السيادة ومسئوليتها عن معالجة مشاكلها.

٢- معاهدة جورباتشوف:

طرح جورباتشوف معاهدته التي أجرى عليها الاستفتاء في مارس ١٩٩١م، والتي كانت بداية للتفكك، وقد نصت على الآتي:

أ- إقامة فيدرالية ديمقراطية ذات سيادة تتكون نتيجة للاتحاد الطوعي الاختياري بين جمهوريات متساوية في الحقوق، وتمارس سلطة الدولة في حدود الصلاحيات التي منحتها إياها أطراف المعاهدة.

ب- يحق لكل جمهورية أن تحفظ لنفسها الحق في أن تحل بذاتها كافة مسائل تطويرها وضمأن الحقوق السياسية، وإمكانات التطور اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً لكافة الشعوب القاطنة في أراضيها.

ج- تتعهد الجمهوريات بإعطاء الأولوية لحقوق الإنسان وفقاً لقواعد القانون الدولي المتعارف عليه كمبدأ مهم للغاية.

د- حق لكل جمهورية أن تقيم علاقات قنصلية وتجارية مباشرة، وغيرها من الصلات، مع دول أجنبية، وتتبادل معها التمثيل، وتعقد معها المعاهدات الدولية، وتشارك كذلك بصورة مباشرة في نشاطات المنظمات الدولية، شريطة ألا يستتبع ذلك انتهاك الالتزامات الدولية للجمهوريات السوفياتية.

هـ- عضوية الجمهورية في اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية هي عضوية تطوعية اختيارية والجمهوريات الأطراف في المعاهدة الاتحادية تتمتع بحقوق متساوية وتحمل التزامات متكافئة.

و- من حق الجمهورية أو الجمهوريات الأطراف في المعاهدة الخروج بصورة حرة من الاتحاد وفقاً للأصول التي أقرها المشاركون في المعاهدة.

وتم إجراء استفتاء شعبي لأول مرة في مارس ١٩٩١م، لتحديد مصير الاتحاد. وطرح الاستفتاء سؤالاً واحداً على المواطنين وهو: هل توافق على إقامة الاتحاد السوفياتي في نمط جديد للاتحاد من الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ذات السيادة المتساوية في الحقوق التي يراعى فيها حقوق الإنسان وحرياته؟

واشتركت في الاستفتاء تسع جمهوريات فقط من بين الجمهوريات الخمس عشرة، وقاطعت الاستفتاء ست جمهوريات هي جمهوريات البلطيق الثلاث، وجورجيا، ومولدافيا، وأرمينيا، واشترك في الاستفتاء أكثر من ٨٠٪ من المقيدين في جميع أنحاء البلاد، وافق منهم ٧٧٪ على الاحتفاظ بكيان الاتحاد السوفياتي الحالي.

٣- الأسباب الاقتصادية والتي تمثلت في الآتي:

أ- غياب عناصر القدرة التنافسية للاقتصاد السوفياتي وفقدانها.

ب- تدهور القوة الاقتصادية نتيجة عجز آليات الاقتصاد عن توفير الأساليب التكنولوجية والتنظيمية والإدارية الأحدث التي تؤمن زيادة معدل التنمية.

ج- تأخر التحديث التكنولوجي للاقتصاد السوفياتي نتيجة الاعتماد على إمكانية الاستيراد من الغرب.

د- تراجع حجم صادرات الاتحاد من السلاح والبتروال والغاز الطبيعي في مطلع التسعينيات، مع تراجع قدراته على تقديم العون الاقتصادي للبلدان النامية.

هـ- الانخراط في دائرة الإنفاق العسكري الضخم الذي استنزف الموارد المادية والمعنوية.

و- عدم الاهتمام بالإنفاق على البحث العلمي، ومشاريع تطوير التكنولوجيا في القطاعات غير العسكرية، وعدم العناية بالصناعة المتوسطة والاستهلاكية؛ لتلبية رغبات وحاجات المواطنين.

ح- الإعلان رسمياً في ٥ يناير ١٩٩١م، بواسطة أعضاء مجلس المساعدة الاقتصادية التسع الكوميكون وهي: رومانيا، والمجر، وبولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وبلغاريا، والاتحاد السوفياتي، وكوبا، وفيتنام، ومنغوليا، عن حل المجلس، مع تكوين منظمة جديدة لها مهام مختلفة عن الكيان القديم.

٤- الأسباب السياسية وتتلخص في الآتي:

أ- تدهور قدرة الدولة وعجز النظام الشيوعي عن تحقيق التفوق، مع تآكل مكانة الاتحاد السوفياتي بصفته قوة عظمى؛ حيث تراجعت قدرته بشدة عن ممارسة الدور الذي نهض به بعد الحرب العالمية الثانية.

ب- ارتباط التدهور بمسألة الضغوط والقيود التي فرضها التصعيد والتوتر الدائم الذي فرضه سباق التسلح الضاري في المجالات النووية وغير التقليدية مع الولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية.

ج- فرض الحصار على الاتحاد السوفييتي من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، وظلت تمارس ضغطاً مباشراً ومستمرًا عليه لإجباره على الدخول في سباق التسلح الذي استهدف استنزاف اقتصادياته وتقويض الشيوعية وتفكيك الدولة.

د- الانقلاب الفاشل في أغسطس ١٩٩١م، الذي ساهم في الإجهاد على الاتحاد السوفييتي وانقسام المؤسسة العسكرية وحل الحزب الشيوعي، ومن ثم فشلت النخبة الحاكمة في المحافظة على نظامها.

٥- الأسباب الأيديولوجية:

أ- كانت الأيديولوجية الشيوعية - والمؤسسة التي التزمت بهذه الأيديولوجية وجسدها ونسبت إلى نفسها صفة تمثيلها الحزب الشيوعي- كانت لها الهيمنة على الدولة وعلى أجهزتها القمعية لضمان تماسك الاتحاد السوفييتي، والحيلولة دون تفككه، ولكن مع تصاعد الأحداث لم يعد للحزب الشيوعي وجود، وغابت الأيديولوجية التي تقوم بعملية التوحيد، كما لم يستطع أبناء هذا النظام الدفاع عنه.

ب- تبنى الاتحاد السوفييتي فلسفة جديدة تقوم على وحدة العالم وضرورة إنهاء الحرب الباردة، باعتبار أن تزايد حدة التنافس لم يحقق أهدافها السياسية والاقتصادية والأيديولوجية، ومن ثم توقفت عن تحقيق مبدأ مهم وهو تحقيق التوازن أو التفوق العسكري على الغرب.

ومن ثم تبنت القيادة السوفييتية أربعة مواقف هي:

(١) وقف سباق التسلح النووي، وامتداد التخفيض إلى التسلح التقليدي والكيميائي.

(٢) فض الاشتباك في العالم الثالث، وتحقيق تسويات في مناطق النزاع، وفي مقدمتها أفغانستان، وأنجولا، ونيكاراجوا.

(٣) تعزيز مركز الأمم المتحدة بصفتها المرشحة لشغل الفراغ خلال المرحلة الانتقالية القادمة.

(٤) تعديل العقيدة الاستراتيجية، لتصبح العمليات الدفاعية هي الشكل الأفضل في الحرب، مع الدعوة إلى الحفاظ على قوات ذات كفاءة معقولة لا تغري بالهجوم، وتتناسب مع مستوى التهديد العسكري.

ج. إخفاق الاتحاد السوفييتي في إحداث التغيير الاجتماعي بالقوة خلال فترة زمنية محددة عبر منظور أيديولوجي محدد، وقد أكدت التجارب التاريخية ذلك.

٦- أزمة شرعية السلطة المركزية:

فقدت السلطة المركزية قدرتها على القيام بدور الحكم في صراعات السيادة والخلافات بين شعوب الاتحاد السوفييتي، بل لم تستطع الإشراف على تشكيل مجتمع جديد من المصالح بين الجمهوريات السوفييتية، كما أن الدولة السوفييتية لم يعد لها مستقبل، وقد جرى الحديث طويلاً حول تدهور شعبية جورباتشوف لدى الجماهير السوفييتية، ففي سبتمبر ١٩٩٠م لم يحظ جورباتشوف بتأييد الرأي العام في الاستفتاء الذي أُجري حول الموقف السياسي وأزمة القوميات. فقد حصل على ٢٨,٥% في حين حصل بوريس يلتسين رئيس جمهورية روسيا الاتحادية على ٦١,٥%، وهذه النتائج لا تترجم القوة السياسية لكل منهما فحسب، ولكنها تُعبّر كذلك عن

انتقال الثقة من أجهزة الدولة الاتحادية إلى أجهزة السلطة السياسية الإقليمية والمحلية، بل إن السلطة المركزية لم تستطع الحفاظ على سلامة الدولة الاتحادية وبقائها، كما لم تستطع سلطة جورباتشوف الشخصية أن تمنع تدهور شعبيته وشرعيته القانونية.

وتعويضاً عن عدم قدرة أجهزة الحكم المركزي على الاستمرار في دورها بوصفها أعلى جهاز للسلطة السياسية، كان يمكن لهذه الأجهزة لتعليل وجودها عن طريق أداء دور الحكم في الخلافات التي ستثور حتماً بعد تفكيك الدولة السوفييتية، ولكن هذه الأجهزة فقدت مصداقيتها لدى الجميع بسبب تدخلاتها العنيفة التي زادت الصراعات تفاقمًا بدلاً من تهدئتها، بالإضافة إلى أن السلطة المركزية أصبحت عاجزة عن التصدي لرغبة السلطات المحلية في القيام بمفردها بمهمة الدفاع عن أمنها وسيادتها، وإن رفض زعماء جورجيا وليتوانيا وأرمينيا تطبيق القرار الصادر في ٢٥ يولييه ١٩٩٠م الذي بموجبه يصبح من حق رئيس الدولة السوفييتية مصادرة الأسلحة التي حصلت عليها التشكيلات العسكرية بطريق غير قانوني، والتي زادت كميتها بشكل كبير، هذا الرفض يُعدّ رفضاً للاعتراف بحق السلطة المركزية في حفظ النظام، ويعبر كذلك عن عجز هذه السلطة عن ممارسة حقوقها في هذا المجال.

٧- الضغوط الخارجية:

أ- الولايات المتحدة الأمريكية:

هي الدولة التي تصدرت القوة الضاغطة على الاتحاد السوفييتي، ويدّعي الرئيس الأمريكي ريجان أن نزع السلاح قد تم نتيجة الضغط الدبلوماسي والعسكري، وليس نتيجة تنازلات سياسية من جانب أمريكا أو وعود للتعاون الاقتصادي، إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية عند نهاية الحرب العالمية الثانية كانت تملك ثلثي ذهب العالم وكل قوته النووية.

ومع استمرار التنافس مع الاتحاد السوفييتي حدث نوع من التعادل في التسليح النووي، علاوة على استنزاف الاقتصاد الأمريكي بوجود ٦٠٠ ألف جندي خارج أراضيها، وهو ما أدى إلى زيادة الإنفاق السنوي إلى ١٥٠ بليون دولار للدفاع عن أوروبا وحدها.

ومع ذلك استمرت الولايات المتحدة الأمريكية في التحرك من منطلق القوة وبنوع من الغطرسة، مع الاستعداد للتصعيد والتحدي للاتحاد السوفييتي في جميع مواقعه بالعالم الثالث.

وقد واكب ذلك، أن المتطلبات الاقتصادية والتكلفة، والعبء الاقتصادي للمساندة الأيديولوجية للاتحاد السوفييتي لحلفائه، أصبح أمراً لا يستطيع تحمله، وبالتالي أصبح أكثر مرونة فيما يخص مساندة حلفائه التقليديين، دون أن يفرض بالطبع في هذه المواقع الاستراتيجية، ومن ثم أصبح وصف الاتحاد السوفييتي بأنه قوة توازن لصالح دول العالم الثالث أمراً مشكوكاً فيه.

ب- أوروبا:

كانت أوروبا هدفاً سوفييتياً بغرض تحييدها في الصراع الدائر بين القوتين العظميين، ولكن أوروبا استطاعت في المرحلة الأخيرة قبيل التفكك، تصعيد النزعة الديمقراطية والقومية داخل دول أوروبا الشرقية وهو أمر عجل بسقوط الشيوعية فيها وسقوط حلف وارسو.

ج- الصين:

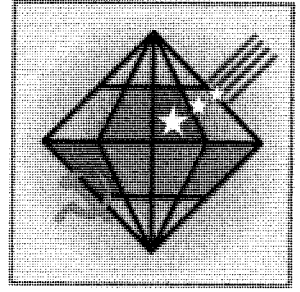
وتتحدد علاقاتها بالاتحاد السوفييتي وفقاً لسياسته الجديدة الهادفة إلى إيجاد جو من الوفاق بين الطرفين، فهناك من القضايا بينهما ما يمكن تسويته مثل المشكلات الإقليمية الآسيوية والقوات على الحدود بين الجانبين، علاوة على إمكانية قبول الصين أيديولوجيا، حيث مازال الهيكل الأساسي في الصين ماويا والحزب مصدر السلطة.

المصدر:

موسوعة مقاتل من الصحراء، على الرابط التالي:

http://www.moqatel.com/openshare/Behoth/Siasia21/Soviet-cra/sec07.doc_cvt.htm

المعاهدات الدولية بعد الحرب العالمية الأولى وآثارها على العالم العربي والإسلامي



د. مروة نظير

مدرس العلوم السياسية- المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - مصر

ملخص الدراسة

كان للاتفاقيات التي جاءت في أعقاب الحرب العالمية الأولى آثار متعددة على العالم العربي والإسلامي الذي كان يمثل أحد أهم موضوعات العلاقات الدولية في ذلك الحين. وإن عظم التحديات والصعوبات التي تواجه الدول العربية والإسلامية في الوقت الراهن يدفعنا للاستفادة من تجارب الماضي والدروس المستفادة منه.

لقد استمرت الحرب العالمية الأولى بين عامي ١٩١٤-١٩١٨م، وانتهت بفوز دول الحلفاء، وبعد نهاية هذه الحرب، أسرع الحلفاء المنتصرون إلى عقد مؤتمر للسلام في باريس استمر حتى ١٩٢٠م، وقد دامت تلك الاجتماعات حوالي ٦ أشهر بشكل متقطع، وهدفها المعلن هو «إيجاد حلول» للمشاكل العديدة المترتبة على الحرب في أوروبا والعالم.

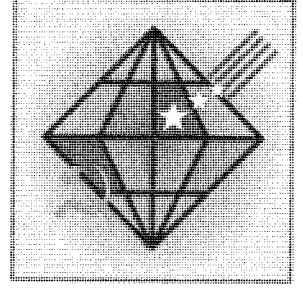
ومن أبرز المعاهدات الدولية بعد الحرب العالمية الأولى: معاهدة فرساي بين الحلفاء وألمانيا والتي نصت على عدة بنود، من أهمها: توزيع المستعمرات الألمانية في إفريقيا على الدول المنتصرة في إطار ما سُمي بـ«نظام الانتداب»، وكذلك معاهدة سان جرمان، ومعاهدة سيفر، ومعاهدة لوزان، وميثاق عصبة الأمم.

تعاملت الدول المنتصرة مع العالم العربي- الإسلامي خلال هذه المرحلة من خلال طرح «المسألة الشرقية»، و«مسألة الرجل المريض»، والتي اهتمت بشكل أساسي بوضع الإمبراطورية العثمانية التي كانت من بين المهزومين خلال الحرب العالمية الأولى. وارتبطت هذه السياسة بإعادة ترسيم توازنات القوة بين الإمبراطورية العثمانية والقوى الكبرى في العالم؛ في ضوء الأوضاع التي أفرزتها الحرب العالمية الأولى.

ومن أهم سلبات معاهدات وتسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى: هو الاعتراف بوعد بلفور، وتضمينه في وثائق القانون الدولي. رغم أن هذا الوعد لا يُعتبر في نظر القانون الدولي معاهدة دولية؛ لأنه وحيد الطرف ولا قيمة له؛ ولم يكن اتفاقاً بين دولتين، وإنما عبارة عن تصريح وحيد الطرف أعطي لشخص ليست له صفة دولية.

وأدت تسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى إلى إذكاء وتكريس العديد من النزاعات الحدودية والعرقية والإثنية فيما بين الكيانات التي كانت تشكل فيما بينها الدولة العثمانية، كما أثرت معاهدات ما بعد الحرب العالمية الأولى سلباً على الاندماج القومي بين مكونات العالم العربي والإسلامي، وذلك من خلال تغذية الانقسامات العرقية والإثنية.

المعاهدات الدولية بعد الحرب العالمية الأولى وآثارها على العالم العربي والإسلامي



د. مروة نظير

مدرس العلوم السياسية- المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - مصر

مقدمة:

تعد العلاقة بين السياسة الدولية والقانون الدولي علاقة دائرية، فكلاهما يعد سبباً ونتيجة للآخر؛ ففي الوقت الذي تسهم فيه طبيعة التفاعلات السياسية وتوازنات القوى بين الفاعلين على الساحة الدولية في تشكيل وصوغ مبادئ القانون الدولي، فإن هذه المبادئ تشكل الإطار العام الذي يحكم التفاعلات السياسية بين الأطراف المختلفة في المجتمع الدولي، ويحدد مشروعية الأفعال التي يقوم بها أي من هذه الأطراف، ومقدار ما تتمتع به من مقبولية بين الفاعلين الآخرين. في هذا السياق تتبدى أهمية دراسة الأطر القانونية التي تفرزها الأحداث السياسية الكبرى على الصعيد العالمي؛ لما تعكسه طبيعة العلاقات الدولية وتوازناتها في تلك اللحظة.

وفي ذكرى مرور ١٠٠ عام على الحرب العالمية الأولى، يصبح من اللازم إلقاء الضوء على مجموعة المعاهدات الدولية التي نتجت عن تلك الحرب، والتي تتمتع بأهمية خاصة ليس فقط لأنها جاءت تعبيراً عن نتائج تلك الحرب، وإنما لأنها كانت أيضاً -وفقاً لكثيرين- سبباً في اندلاع الحرب العالمية الثانية.

أما على الصعيد العملي، فقد كانت لتلك المجموعة من الاتفاقيات آثار متعددة على العالم العربي والإسلامي الذي كان أحد أهم موضوعات العلاقات الدولية في ذلك الحين، ولعل التحديات والصعوبات التي تواجهها الدول العربية والإسلامية في الوقت الراهن هي ما تعظم أهمية الاستفادة من تجارب الماضي والدروس المستفادة منه.

تساؤلات الدراسة:

تحاول الدراسة الإجابة على عدد من التساؤلات البحثية، يبلورها سؤال رئيس هو:

كيف أثرت المعاهدات الدولية الناجمة عن الحرب العالمية الأولى على موقع الدول العربية والإسلامية في السياسة العالمية؟ وكيف يمكن تجنب الآثار السلبية لمثل هذه المعاهدات؟

وللتوصل إلى إجابة حول هذا السؤال، هناك مجموعة من الأسئلة الفرعية التي تعرض أثناء الإجابة عليها، ولعل من أهمها:

ما المقصود بالمعاهدات الدولية؟

ما طبيعة منظومة القانون الدولي في ذلك الوقت، وكيف تأثرت بالحرب العالمية الأولى؟

ما أبرز المعاهدات الدولية الناجمة عن الحرب العالمية الأولى؟ وما موقع العالم العربي والإسلامي منها؟

الدولي، فقد تكون بين دول، وقد تكون بين دولة ومنظمة دولية، وقد تكون بين منظمات دولية، كما يجب أن يكون موضوعها تنظيم علاقة من العلاقات التي يحكمها القانون الدولي.^(٢)

تتميز المعاهدات الدولية بأربعة عناصر هي^(٣):

١- من حيث الموضوع: تُعتبر المعاهدة اتفاقاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، بل إن الاتفاق يُعتبر جوهر المعاهدة وأساس وجودها، ويختلف مضمون المعاهدة من معاهدة إلى أخرى بحسب طبيعتها، ونية أطرافها.

٢- من حيث الأطراف: تبرم المعاهدات الدولية بين أشخاص القانون الدولي، وهي الدول والمنظمات الدولية والدويلات (أعضاء الاتحاد الفيدرالي)، والأشخاص الاعتبارية في القانون الدولي.

٣- من حيث القانون واجب التطبيق: يجب أن يطبق القانون الدولي على الاتفاق الدولي، والغرض من ذلك تمييز المعاهدة الدولية عن غيرها من الاتفاقات التي وإن كانت مبرمة بين أشخاص القانون الدولي، إلا أنها تخضع لقواعد قانون أخرى، أو لنصوص القانون الداخلي أو أكثر، حسبما يقرر أطراف الاتفاق.

٤- من حيث الشكل: لا يشترط القانون الدولي شكلاً معيناً لكي يكون الاتفاق ملزماً لأطرافه. فيعتبر الاتفاق معاهدة دولية، سواء تمت صياغته في وثيقة واحدة، أو في وثيقتين أو أكثر، بل يعتبر الاتفاق معاهدة دولية أيًا كانت التسمية. وتدل العناصر الأربعة في مجموعها على الطبيعة الاتفاقية للمعاهدات الدولية.

تتعدد تصنيفات المعاهدات الدولية وفق عدد من المحددات، لعل أبرزها:^(٤)

١- من حيث عدد الأطراف: تصنف المعاهدات إلى

ما طبيعة تأثير تلك المعاهدات على العالم العربي والإسلامي؟

ما أهم الدروس المستفادة في هذا السياق؟

منهجية الدراسة:

اهتم فقهاء القانون بالظواهر الدولية، وحاولوا طرح رؤى أو نظريات قانونية لفهم وتفسير هذه الظواهر، وقد اختلفت هذه الرؤى والنظريات، وتطورت باختلاف المدارس القانونية المختلفة، وتطورها عبر العصور.

وبالتدرج، شكّلت المعاهدات الدولية الثنائية والجماعية، ودساتير المنظمات الدولية، والأعراف الدولية نظاماً لتفسير العلاقات الدولية على أساسه أو للاحتكام إلى قواعده.

ويركز المنظور القانوني في دراسة العلاقات الدولية على الحكم على مدى قانونية السياسة الخارجية للدولة، ومدى تطابقها مع مبادئ القانون الدولي.

في هذا السياق، تسعى الدراسة إلى استخدام المنهج القانوني في بحث أثر مجموعة المعاهدات التي أبرمت في أعقاب الحرب العالمية الأولى على العلاقات الدولية في هذه المرحلة من خلال تحليل آثارها على تحديد مدى قانونية ومشروعية أفعال أشخاص المجموعة الدولية، ومدى تطابقها مع مبادئ القانون الدولي.

أولاً: المعاهدات والاتفاقيات الدولية.. قراءة نظرية:

تتعدد تعريفات المعاهدات الدولية، ولكن تتفق جل هذه التعريفات على أن المعاهدة الدولية هي الأساس توافق إرادة شخصين أو أكثر من أشخاص القانون الدولي على إحداث آثار قانونية معينة طبقاً لقواعد القانون الدولي.^(١)

وهذا يعني أنها يمكن أن تتم بين أشخاص القانون

(٢) عبد الكريم علوان، «الوسيط في القانون الدولي العام»، ط٤، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م، الأردن، ص ٢٥٩.

(٣) <http://sciencesjuridiques.ahlamontada.net/portal>

(٤) أحمد أسكندري ومحمد ناصر بوغزالة، «محاضرات في القانون الدولي العام»، ١٩٩٨م، القاهرة، ص ١٠٧-١٠٨.

(١) محمد يوسف علوان، «القانون الدولي العام (المقدمة والمصادر)»، ط٣، دار وائل للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م، الأردن، ص ١١٢.

المعاهدة، كما أنه من الممكن تعديل المعاهدة بظهور قاعدة أمر جديدة في القانون الدولي. كما أن سريان المعاهدة يمكن أن يُحَدِّد مفعوله بوضع حدِّ لنفاذها، وإنهاء العمل بها، وذلك لأسباب اتفاقية، مثل ما تنصه أحكامها أو لأسباب خارجية أي غير اتفاقية، مثل ما يعبر عنه سلوك أحد الأطراف المتعاقدة، أو استحالة تنفيذ تلك المعاهدة.^(٢)

ثانياً: المعاهدات الدولية الناجمة عن الحرب العالمية الأولى.. تعريف وقراءة في الآثار:

استمرت الحرب العالمية الأولى بين عامي ١٩١٤-١٩١٨م، وانتهت بفوز دول الحلفاء، وبعد نهاية هذه الحرب، أُسرع الحلفاء المنتصرون إلى عقد مؤتمر للسلام في باريس استمر حتى ١٩٢٠م، وقد دامت تلك الاجتماعات حوالي ٦ أشهر بشكل متقطع، وهدفها المعلن هو «إيجاد حلول» للمشاكل العديدة المترتبة على الحرب في أوروبا والعالم، ومن ثم دارت مجريات المؤتمر بشكل أساس حول الأمن والتعويضات، وإعادة ترتيب الحدود.^(٣)

ورغم أن مؤتمر السلام عُقد بحضور ممثلي حوالي ٢٧ دولة، إلا أنه اتسم بأمرين: غياب ممثلي الدول المنهزمة، احتكار الأربعة الكبار آنذاك (الولايات المتحدة الأمريكية- فرنسا- بريطانيا- إيطاليا) لفعاليات المؤتمر.^(٤)

وقد شكَّلت التسويات والاتفاقيات التي جاءت في

من المعروف أن المعاهدات الدولية لا تترتب آثارها إلا على أطرافها، بحيث لا تمنحهم حقوقاً ولا تلزمهم بواجبات إلا برضاهم، وتسري المعاهدة منذ لحظة نفاذها حتى يتم إلغاؤها، كما أنها تلزم القاضي الوطني بتطبيق أحكام تلك المعاهدة، مثل القانون الداخلي.

معاهدات ثنائية ومعاهدات جماعية أو متعددة الأطراف.

٢- من حيث الوظائف التي تؤديها: تنقسم المعاهدات إلى: معاهدات شارعة، وهي تلك التي يهدف أطرافها من وراء إبرامها إلى سن قواعد دولية جديدة تنظّم العلاقات بين أشخاص القانون الدولي. ومعاهدات عقديّة أي: تلك التي تُبرَم بين أشخاص القانون الدولي في أمر خاص بهم.

شروط انعقاد المعاهدات الدولية:

هناك مجموعة من الشروط حتى يتم انعقاد

المعاهدات، تشمل: الأهلية بمعنى توفر صفة الشخصية القانونية الدولية للأطراف، رضا أطراف المعاهدة، وإبداء الإرادة لعقدها، فضلاً عن مشروعية المحل وسبب المعاهدة.

أما عن خطوات عقد المعاهدات فيمكن تلخيصها في الإجراءات التالية: التفاوض بين الأطراف، والاتفاق

مبدئياً على الموضوع، ثم المعاهدة بعد التوصل للاتفاق حول أهم بنودها، التوقيع عليها من قبل المتعاقدين، التصديق عليها من طرف السلطات المختصة في الدول المتعاهدة. وتخضع هذه الإجراءات لضرورة التحفظ، لضمان صيرورة المعاهدة، ثم يتم تسجيلها ونشرها؛ تضادياً لفقدان المعاهدة لقوتها الملزمة.^(١)

ومن المعروف أن المعاهدات الدولية لا تترتب آثارها إلا على أطرافها؛ بحيث لا تمنحهم حقوقاً ولا تلزمهم بواجبات إلا برضاهم، وتسري المعاهدة منذ لحظة نفاذها حتى يتم إلغاؤها، كما أنها تلزم القاضي الوطني بتطبيق أحكام تلك المعاهدة، مثل القانون الداخلي.

ومن الممكن تعديل المعاهدة وفق مبدأ رضا الأطراف

(1) <http://sciencesjuridiques.ahlamontada.net/portal>

(٢) المرجع السابق.

(٣) هنري بدروس كيفا، «مؤتمر السلام المعقود في باريس عام ١٩١٩م»، موقع التنظيم الأرامي الديمقراطي، على الرابط التالي:

<http://www.aramaic-dem.org/Arabic/Seyassah/0.htm>

(٤) «العالم غداة الحرب العالمية الأولى»، على الرابط التالي:

<http://hgeocharafi.voila.net/monde1ereguerre.pdf>

المعاهدات الدولية
الناجمة عن الحرب
العالمية الأولى:

معاهدة سان جرمان

معاهدة فرساي

معاهدة سيفر

معاهدة تريانون مع
المجر

معاهدة نوي مع
بلغاريا

ميثاق عصبة الأمم

معاهدة لوزان

وتشيكوسلوفاكيا.

- قبول إلغاء اتفاقية بريست ليتوفسك مع روسيا
السوفيتية، واتفاقية بوخارست مع رومانيا.

- توزيع المستعمرات الألمانية في إفريقيا على الدول
المنتصرة في إطار ما سُمِّي بـ«نظام الانتداب».

- التزمت ألمانيا بمد تطبيق الدولة الأولى بالرعاية
إلى سائر أعدائها لمدة خمس سنوات، وتخويلهم حق
المرور في أراضيها دون أن تُعامل بالمثل، مع فتح قناة
كيبيل للملاحة الدولية.

- التعهد بمحاكمة الإمبراطور السابق «غليوم
الثاني» أمام محكمة دولية بتهمة «الجريمة العظمى
ضد الأخلاق الدولية»، ولكن هذه المحاكمة لم تتم.

٢- معاهدة سان جرمان:

- بين الحلفاء والنمسا في ١٠ سبتمبر ١٩١٩م؛ إذ
أجبرت الدول المنتصرة الدولة النمساوية على توقيع
معاهدة سان جيرمان، وبموجبها اعترفت النمسا
باستقلال المجر، كما وافقت على إعطاء إيطاليا

أعقاب تلك الحرب علامة فارقة في تطور المنظومتين
القانونية والسياسية على المستوى الدولي، ولاستكشاف
آثار تلك الاتفاقيات قد يكون من المفيد بدء التعرف
على هذه الاتفاقيات وموضوعاتها وأطرافها، ويمكن
تفصيلها على النحو التالي:

١- معاهدة فرساي في ٢٨ يونيو ١٩١٩م بين
الحلفاء وألمانيا.

وقد نصت على عدة بنود، من أهمها: ^(١)

- اعتراف ألمانيا بمسئوليتها عن نشوب الحرب
العالمية الأولى، وبالتالي التزامها بدفع تعويضات
للدول المنتصرة، وتعهدا بتسليم أسطولها التجاري
وجزء كبير من ثروتها الطبيعية والصناعية للدول
المنتصرة.

- ضم قطاعات من أراضيها لعدد من الدول
المجاورة، مثل فرنسا، وبلجيكا، والدانمرك، وليتوانيا،

(1) <http://www.sciences-politiques.net/index.php/international-relations/premiere-guerre-mondiale-et-ii/premiere-guerre-mondiale>

وثلاثين ألف جندي، كذلك تعهدت المجر بإعطاء مملكة الصرب دفعات سنوية مجانية من الفحم لمدة خمس سنوات، كذلك تعهدت بدفع تعويضات مالية تُحدد فيما بعد.^(٢)

٥- معاهدة سيفر مع الإمبراطورية العثمانية في ١٠ أغسطس ١٩٢٠م:

وقد قبلت الأستانة أن يحصل الأكراد على الحكم الذاتي في ديار بكر وضواحيها، وفي مناطق في جنوب شرقي الأناضول. أما المناطق الشرقية ومقاطعات قارس وأردهان وأرزوم فقد شكّلت «دولة أرمينيا المستقلة». كما وافقت السلطنة على تولية فرنسا على انتداب سوريا ولبنان، وكذلك انتداب بريطانيا على فلسطين والعراق، كما حصلت فرنسا على مناطق نفوذ في كيليكيا والمناطق المتواجدة فيها عسكرياً. وحصلت إيطاليا على أضنة وضواحيها وعلى الاثني عشرة جزيرة، وأكبرها جزيرة رودوس. أما اليونان فحصلت على سميرن وتراسيا.^(٣)

٦- معاهدة لوزان بين الحلفاء والجمهورية التركية:

حيث وافق الأتراك على استقلال المناطق العربية، وتوقف الحلفاء عن المطالبة باستقلال الأكراد والأرمن. تمت هذه المعاهدة في سويسرا في ١٩٢٣م، وهي تعتبر آخر المعاهدات المتعلقة بانتهاء الحرب العالمية الأولى.

٧- ميثاق عصبة الأمم ١٩١٩م:

وبموجبه تأسست عصبة الأمم كمنظمة دولية عالمية في سنة ١٩٢٠م؛ بهدف إقرار السلم العالمي، وخلق التعاون الدولي؛ اعتماداً على أجهزة داخلية منها: الجمعية العامة (جهاز تشريعي للمنظمة)،

(٢) المرجع السابق.

(٣) هنري بدروس كيفا، «مؤتمر السلام المعقود في باريس عام ١٩١٩م».

م س ذ.

منطقة جنوب التيرول وشاطئ دلماسيا، وشاطئ الأدرياتيك، ومنطقة استيريا.

كما حصلت رومانيا وبولندا ومملكة الصرب والكروات والسلوفين وتشيكوسلوفاكيا على أراض من الإمبراطورية النمساوية السابقة. كذلك وافقت النمسا على تدمير أو تسليم أسطولها البحري، وتحديد قواتها بثلاثين ألف جندي متطوع، كما حرمت المعاهدة النمسا من حرية التصرف في استقلالها، وكان المقصود من ذلك هو منع النمسا من الاتحاد مع ألمانيا.^(١)

٣- معاهدة نويي مع بلغاريا:

وقعت هذه المعاهدة بين الحلفاء وبلغاريا في ٢٧ نوفمبر ١٩١٩م، وبموجبها أعيدت بلغاريا إلى حدود سنة ١٩١٤م على اعتبار أنها خسرت كثيراً من الأراضي في الحرب، وكانت هي منفذها الوحيد إلى بحر إيجه، كما تنازلت عن ثلاث مناطق صغيرة في حدودها الغربية لمملكة الصرب، وعن مدينة دوبرجة لرومانيا، وفرض عليها تخفيض التسليح وتسليم الأسطول البلغاري للدول المنتصرة ودفع تعويضات لها.

٤- معاهدة تريانون مع المجر:

في ٤ يونيو ١٩٢٠م وقّعت الدول المنتصرة معاهدة تريانون مع المجر. وبموجب تلك المعاهدة خسرت ثلثي مساحتها ونصف سكانها لصالح مملكة الصرب وتشيكوسلوفاكيا، ورومانيا والنمسا، وحُرمت من المنفذ الوحيد لها على البحر وهو «ميناء فيومي» الذي تُرك تحديد مصيره إلى مفاوضات لاحقة.

ومن الجدير بالذكر أن رومانيا استعادت إقليم بسارابيا سنة ١٩١٨م بعد تفكك الإمبراطورية الروسية، كذلك تم تحديد الجيش المجري بخمسة

(١) المرجع السابق.

من تأسيسها (المحافظة على السلم والأمن الدوليين)؛ حيث قصرت العضوية فيها على الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى ودول الحياد دون الدول المنهزمة، ناهيك عن نصوص العصبة الأخرى التي منحت الدول المنتصرة في الحرب حقوقاً وصلاحيات خاصة لا تتمتع بها الدول الأعضاء الأخرى.

٢- بلورت معاهدات ما بعد الحرب العالمية الأولى مساعي إنشاء منظمة دولية أو أممية تشكل الإطار الناظم للتفاعلات السياسية الدولية، فتم إنشاء «عصبة الأمم»، التي تعتبر أولى تطبيقات فكرة الأمن الجماعي في العلاقات الدولية.

وفي ظل العصبة، جاءت الترتيبات المتعلقة بالأمن الجماعي متماشية مع طبيعة النظام الدولي في ذلك الحين، والتي كانت الحرب مشرعة باعتبارها إحدى طرق إدارة العلاقات الدولية، ومن ثم فلم ينص عهد العصبة على تحريم الحرب بشكل قطعي، وإنما اكتفى بوضع بعض القيود لتضييق نطاقها. وقد اتجه عهد العصبة إلى تحقيق السلم والأمن الدوليين من خلال بعض الوسائل التي يمكن إجمالها في اتجاهين^(٢):

- العمل على منع الحروب: عبر آليات مثل حل المنازعات بالوسائل السلمية، الضمان المتبادل، تخفيض التسليح، فضلاً عن ربط المعاهدات الدولية بعهد العصبة.

- إجراءات مواجهة العدوان: مثل الجزاء الاقتصادي، الجزاء العسكري، إلى جانب الطرد من العضوية.

بعبارة أخرى، يمكن القول: إن منظومة الاتفاقيات الدولية التي تلت الحرب العالمية الأولى قد حاولت إدخال تغيير على فكرة مشروعية الحرب كوسيلة مقبولة لتسوية الخلافات، فالقانون الدولي الكلاسيكي لم يحرم الحرب بصفة قطعية، ومرد ذلك

ومجلس العصبة (جهاز تنفيذي)، ومحكمة العدل الدولية (جهاز قضائي)، والأمانة العامة (جهاز مسير للمنظمة).^(١)

وعند تقييم ما أفرزته اتفاقيات ما بعد الحرب العالمية الأولى من آثار سياسية وقانونية على البيئة الدولية، نجد ما يلي:

١- كرّست هذه المنظومة من المعاهدات توازنات القوى القائمة نتيجة الحرب، أي: أنها كانت تعبيراً عن إرادة المنتصر.

فالدول المنتصرة لم تتفاوض مع ألمانيا، وإنما تدارست ما يجب أن يفرض عليها، ثم طلبت منها توقيع معاهدة فرساي. كما حرصت على فرض شروط مهينة على ألمانيا، ومن ثم فإن هتلر الذي تولى السلطة في ألمانيا سنة ١٩٣٣م سُمى معاهدة فرساي «إملاء فرساي Diktat of Versailles».

من ناحية أخرى فإن معاهدات الصلح لم تراعى مصالح روسيا السوفييتية، فلم تحضر هذه الدولة مؤتمر الصلح، وتجاهلت الدول المنتصرة مصالحها حتى إنها اقتطعت بعض المناطق الروسية وضمتها إلى رومانيا (سارابيا وترانسلفانيا). كذلك فإن الدول المنتصرة لم تتفاوض مع النمسا أو المجر أو بلغاريا، وإنما صاغت المعاهدات وطلبت من الدول المهزومة التوقيع عليها. كما أن حق تقرير المصير لم يطبق على الألمان.

والواقع أن معاهدات الصلح لم تحترم هذا المبدأ بصفة عامة؛ إذ إنها أسفرت عن تكوين دول تضم قوميات متناحرة، وفصلت قوميات عن بعضها دون مبرر.^(٢)

وانعكس ذلك أيضاً في عضوية عصبة الأمم، فيبدو جلياً أن دعاة إنشائها، كانوا قد خرجوا عن الغاية

(٢) كمال صلاح عواد الحازمي، «تطوير نظام الأمن الجماعي لمجلس التعاون الخليجي»، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٢م، ص ٦-١١.

(١) <http://www.alrakrak.com/>

(٢) «عيوب تسويات الحرب العالمية الأولى»، موقع السياسي.كوم، ١٢ ديسمبر ٢٠١١م، على الرابط التالي: <http://www.elsyasi.com/>

التحكيم أو القضاء، أو التزمت بقرار مجلس العصابة الصادر بالإجماع.

٤- قيام حالة الحرب بين دولتين؛ إحداها أو كلاهما غير أعضاء في العصابة، بعد رفض إحداها اتباع الإجراءات التي دعا إليها مجلس العصابة.

وإجمالاً، يمكن القول: إن نظام عصابة الأمم فشل في تحقيق الأمن الجماعي، وهو ما يرجع إلى مجموعة من الأسباب؛ أهمها أن العصابة كانت تعتمد بشكل أساس على إجماع الدول الأعضاء للموافقة على قراراتها وتوصياتها

الهادفة إلى تحقيق الأمن الجماعي، وهو ما لم يمكن تحقيقه بسبب المشاحنات والتوترات السياسية بين الدول الأعضاء، فضلاً عن نظام العصابة ذاته، والذي عانى مجموعة من المثالب لاسيما في ظل سيطرة النزعة الأوروبية على عضوية العصابة وغياب القوى العظمى عنها (إذ لم ينضم الاتحاد السوفييتي إلا في عام ١٩٣٤م، في حين لم تنضم الولايات المتحدة على الإطلاق)، وفتح الباب أمام الانسحاب من عضوية العصابة؛ الأمر الذي أضعف كثيراً من روح التنظيم الدولي، وقيامه على أساس وجود الجماعة، وتكاتفها إلى جانب افتقار العصابة إلى قوة عسكرية خاصة بها (٤).

أن الحرب كانت تمثل حقاً طبيعياً من حقوق الدول، وهي مرتبطة بسيادتها المطلقة (١).

أما في إطار عصابة الأمم فقد جرت محاولة لإخراج موضوع استعمال القوة من نطاق الحقوق والامتيازات التي تتمتع بها الدول، وهي الفترة التي تم فيها تحريم الحرب في بعض صورها، وتقييدها في البعض الآخر، ففي هذه الفترة لم تكن الدول مستعدة بعد للتخلي كلياً عن اختصاصها الموروث من القانون الدولي في اللجوء للقوة، لكنها أبدت استعدادها -من خلال نظام العصابة- لقبول بعض الالتزامات الدولية، وذلك باعتبار بعض الحروب غير مشروعة (٢).

ووفق ميثاق العصابة اعتُبرت الحرب غير مشروعة في حالات أربع هي: (٣)

١- الحرب العدوانية التي تشنها دولة عضو في العصابة على دولة أخرى عضو فيها بعد إخلالها بالتزام الضمان المتبادل.

٢- اللجوء إلى الحرب قبل عرض النزاع على التحكيم أو القضاء أو مجلس العصابة.

٣- إعلان الحرب على الدولة التي قبلت قرار

على أرض الواقع أدت هذه المعاهدات إلى ظهور مجموعة جديدة من الدول نشأت بموجب تسويات الحرب بشكل مباشر، وهي: (٥)

(٤) مروة أحمد نظير هويدي، «عمليات حفظ السلام بعد انتهاء الحرب الباردة: دراسة لحالتي الصومال وكوسوفا»، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠١٠م، ص ٥٩.

(٥) «الدول الجديدة التي نشأت نتيجة الحرب العالمية الأولى»، موقع السياسي.كوم، ١٢ ديسمبر ٢٠١١م، على الرابط التالي:

<http://www.elsyasi.com/default.aspx>

(١) محيي الدين علي العشماوي، «حقوق المدنيين تحت الاحتلال الحربي مع دراسة خاصة بانتهاكات إسرائيل لحقوق الإنسان في الأراضي العربية المحتلة»، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، كلية الحقوق، القاهرة، ١٩٧٢م، ص ٤٤.

(٢) خيرة طالب، «مبدأ حظر استخدام القوة في العلاقات الدولية»، مذكرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم القانونية والإدارية، جامعة ابن خلدون، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ١٣-١٦.

(٣) د. طلعت جياذ لحي الحديدي، «مشروعية الحرب في الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام»، مجلة القادسية للقانون والعلوم السياسية، العددان ٢-١، المجلد: الثالث، حزيران - كانون الأول ٢٠١٠م، ص ٩٢-٩٣.

أ- بولندا:

الجبل الأسود.

ولعل هذه العوامل في مجملها هي ما دفع كثيرين إلى القول بأن المعاهدات الموقعة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وضعت البذور التي أثمرت الحرب العالمية الثانية.

مثّلت هزيمة ألمانيا والنمسا والمجر فرصة تاريخية لإعادة دولة بولندا إلى الوجود، خاصة أن البولنديين حاربوا إلى جانب الحلفاء. فحاربوا روسيا أولاً حتى مغادرتهم بولندا سنة ١٩١٧م، ثم حاربوا الألمان بعد ذلك. وفي نوفمبر سنة ١٩١٨م أعلنت الجمهورية البولندية برئاسة المارشال بيلسودسكى. ويمكن القول: إن قرار الحلفاء إعادة دولة بولندا إلى الوجود يعود إلى رغبتهم في أن تكون حاجزاً قوياً بين روسيا وألمانيا.

ب- تشيكوسلوفاكيا:

ثالثاً: الآثار السياسية لمعاهدات الحرب العالمية الأولى على العالم العربي والإسلامي:

تعاملت الدول المنتصرة مع العالم العربي- الإسلامي

خلال هذه المرحلة من خلال طرح

«المسألة الشرقية»، و«مسألة

الرجل المريض»، والتي اهتمت

بشكل أساس بوضع الإمبراطورية

العثمانية التي كانت من بين

المهزومين خلال الحرب العالمية

الأولى.

تعاملت الدول المنتصرة مع العالم العربي- الإسلامي خلال هذه المرحلة من خلال طرح «المسألة الشرقية»، و«مسألة الرجل المريض»، والتي اهتمت بشكل أساس بوضع الإمبراطورية العثمانية التي كانت من بين المهزومين خلال الحرب العالمية الأولى.

ونشأت نتيجة الدور الذي قام به التشيك ضد النمسا وألمانيا أثناء الحرب، وقد بدأ هذا الدور في بداية الحرب بالقتال في صفوف الجيش الروسي، وحينما خرجت روسيا من الحرب لم تجد القوات التشيكية سبيلاً إلا طريق سيبيريا متجهة إلى أوروبا للاشتراك في الحرب ضد النمسا وألمانيا، وبعد

ويمكن القول: إن هذا المشروع

ارتبط أساساً بإعادة ترسيم

توازنات القوة بين الإمبراطورية

العثمانية والقوى الكبرى في العالم؛ في ضوء الأوضاع

التي أفرزتها الحرب العالمية الأولى.

الحرب مباشرة وبالتحديد في ٢٨ أكتوبر ١٩١٨م أعلن عن قيام تشيكوسلوفاكيا في أراضٍ مقتطعة من الإمبراطورية النمساوية المجرية وألمانيا، وبذلك تأسست أول جمهورية في تشيكوسلوفاكيا مكونة من مقاطعات «بوهيميا، ومورافيا، وجزء من سيليزيا، وسلوفاكيا، وروتينيا».

ج- مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين:

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى حال الإمبراطورية

العثمانية قبل الحرب؛ إذ عانت من قلة الموارد المالية،

وتراكم الديون الخارجية، والفوضى الإدارية، وضعف

الجيش العثماني، فضلاً عن تطور الحركات القومية

والانفصالية، خاصة في أعقاب الانقلاب العسكري

الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد الثاني في ١٩٠٨م،

والذي اتبع سياسة التتريك التي تمثلت في احتكار

الأتراك للوظائف الإدارية والتعصب للغة التركية على

حساب باقي القوميات.

في سنة ١٩١٦م اجتمع قادة الحركات الوطنية في كرواتيا، وسلوفينيا مع زعماء صربيا والجبل الأسود وقرروا توحيد شعوبهم في مملكة سلافية جديدة. وقد وافقت دول الوفاق على هذا القرار وتم إعلان تكوين مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين سنة ١٩١٨م، وضمت صربيا، وسلوفينيا، وكرواتيا، والبوسنة، والهرسك، ومقدونيا الشمالية، وفيما بعد انضم إليها

وإزاء هذه المعطيات تزايدت الأطماع الأجنبية،

ودخلت الإمبراطورية العثمانية في تبعية للدول

الأوروبية وخاصة ألمانيا، ولهذا اضطرت إلى المشاركة

الاقتصاد التركي محكوماً من قِبَل لجنة للحلفاء^(٣).

ويمكن القول: إن معاهدة سيفر بهذه المعطيات قد أفضت إلى زوال الخلافة العثمانية من الوجود؛ إذ رفض القوميون الأتراك الاتفاقية جملة وتفصيلاً، فقد تزعم مصطفى كمال أتاتورك الحركة القومية التركية عبر عقد مؤتمر أرضروم سنة ١٩١٩م الذي قرر مناهضة الحكم العثماني الضعيف والتدخل الأجنبي في الأناضول. وقد أطاح أتاتورك بالحكومة العثمانية الضعيفة وأقام كياناً تركيا علمانياً مستقلاً، عاصمته أنقرة في ١٩٢٣م. ورفضت حكومة أتاتورك هذه المعاهدة وعملت على إخراج اليونانيين من آسيا الصغرى، وأصررت على تسوية جديدة تحققت لها بالفعل في معاهدة لوزان عام ١٩٢٣م.^(٤)

وإجمالاً، يمكن القول: إن تسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى قد عملت بشكل أساس على تفكيك الإمبراطورية العثمانية كفاعل دولي يضم الشعوب الإسلامية والعربية تحت مظلته.

ومن ناحية ثانية، حرصت الدول الكبرى المنتصرة في تلك الحرب على ألا يسمح تفكيك الإمبراطورية العثمانية بقيام فاعلين أقوياء آخرين على الساحة الدولية، فضلاً عن الحفاظ على مصالحها الخاصة والاستعمارية في تلك المناطق. ومن ثم، سارع المجلس الأعلى للحلفاء لعقد مؤتمر سان ريمون بإيطاليا ١٩-٢٥/٤/١٩٢٠م كإمتداد لمؤتمر لندن (فبراير ١٩٢٠م) الذي بحث فيه شروط الحلفاء للصلح مع الدولة العثمانية، ونتج عنه معاهدة سيفر. ويرجع البعض إصرار الحلفاء إلى عقد هذا المؤتمر، وتحويل معاهدة سيفر إليه للمصادقة عليها إلى إعلان سوريا استقلالها ومناداتها بالأمير فيصل بن الحسين ملكاً عليها في ٨/٣/١٩٢٠م.^(٥)

في الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول الوسط.^(١)

كانت معاهدة سيفر التي عقدها الحلفاء مع السلطنة العثمانية في ١٠ أغسطس عام ١٩٢٠م، هي القناة الرئيسية التي تركت من خلالها معاهدات الحرب العالمية الأولى أثارها على العالم العربي والإسلامي.^(٢)

فكما سبقت الإشارة نصت هذه الاتفاقية على أن تكون سوريا وفلسطين، وبلاد ما بين النهرين (العراق حالياً) دولاً مستقلة تتولى الوصاية عليها القوات المنتدبة من عصبة الأمم.

وأن تتخلى الدولة العثمانية عن كل سلطاتها الإقليمية في شمال إفريقيا، وأن تتخلى عن تراقيا الشرقية لليونان، على أن تكون سميرنا (أزمير حالياً) والإقليم الأيوني تحت حكم اليونان لمدة خمس سنوات، والاعتراف باستقلال أرمينيا وجزء كبير من شرق تركيا ضمّاً إليها.

وقد مُنحت حرية الملاحة في كل المياه التي حول الدولة العثمانية لسفن جميع الدول، وتقلصت القوات التركية المسلحة إلى قوة شرطة ليس إلا، كما جعلت

(١) د. المصطفى قصابوي، «سقوط الإمبراطورية العثمانية وتوغل الاستعمار بالشرق العربي»، على الرابط التالي:

<http://www.achamel.info/Lyceens/cours.php?id=849&idc=1>

(٢) من الجدير بالذكر أنه مع اندلاع الحرب العالمية الأولى اتجهت أنظار دول الحلفاء إلى إمكانية تحقيق مآربها القديمة بالحصول على الأجزاء التي طمعت فيها من الإمبراطورية العثمانية، فتم في أوائل عام ١٩١٦م عقد الاتفاقية الإنكليزية - الفرنسية - الروسية التي عرفت باسم اتفاقية سايكس-بيكو، وفضت بحصول روسيا القيصرية على إسطنبول والأراضي المتاخمة لمضيق البوسفور وأربع ولايات متاخمة للحدود الروسية في شرقي الأناضول، فيما يتم تقسيم الهلال الخصيب وغربي الأناضول بين فرنسا وبريطانيا. وحرصت الدول الثلاث على إبقاء هذه الاتفاقية سراً، حتى إن الكشف عنها يُعد من أشهر الفضائح السياسية والدبلوماسية لاسيما أنها جاءت بعد ثلاثة أشهر فقط من تعهدات بريطانيا باستقلال البلاد العربية. لم يلتفت لاتفاقية سايكس-بيكو عند التسوية النهائية بعد الحرب العالمية الأولى، خاصة مع الخلاف بين فرنسا وإنجلترا بشأنها.

للمزيد من التفاصيل انظر: «اتفاقية سايكس بيكو»، موقع المجموعة ١٩٤ على شبكة الإنترنت: <http://www.group194.net/index.php?mode=article&id=19067>

(3) <http://ency.kacemb.com>

(٤) عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، المجلد ٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط ٢ سنة ١٩٩٣م، ص ٤٠٣.

(٥) اتفاقية سان ريمو، موقع المجموعة ١٩٤ على شبكة الإنترنت، على الرابط التالي:

<http://www.group194.net/index.php?mode=article&id=19066>

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال انعقاد مؤتمر السلام عام ١٩١٩م في باريس طالبت الحركة الصهيونية بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني كي يتم تحقيق وعد بلفور، وقدمت مشروعاً لنظام الانتداب في فلسطين. وأعلنت عصبة الأمم صك الانتداب على فلسطين في ١٩٢١م، وُصودق عليه في ١٩٢٢م، وُوضع موضع التنفيذ في نفس العام، وجاء في نص المادة الثانية من صك الانتداب ما يلي: (٢)

« تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي؛ وفقاً لما جاء بيانه في ديباجة هذا الصك، وتكون مسؤولة أيضاً عن صيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بغض النظر عن الجنس والدين».

وقد عينت بريطانيا الصهيوني صموئيل كأول مندوب سام على فلسطين؛ لكي يعمل على تهيئة أجواء مناسبة لتنفيذ وعد بلفور وإقامة الدولة اليهودية. وخلال فترة الانتداب عملت بريطانيا على جعل الوكالة اليهودية حكومة داخل حكومة، وفتحت أبواب فلسطين للهجرة اليهودية، وشجعت الصهاينة على الاستيلاء على الأراضي العربية، وسمحت للوكالة اليهودية بإنشاء قوات مسلحة كعصابة الهاتماناة شيرن والارفون، كما كانت قوات الانتداب البريطاني تقمع انتفاضات الشعب العربي الفلسطيني. (٤)

من ناحية ثالثة، أدت تسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى إلى إذكاء وتكريس العديد من النزاعات الحدودية والعرقية والإثنية فيما بين الكيانات التي كانت تشكل فيما بينها الدولة العثمانية.

وقد تم الاتفاق إبان هذا المؤتمر بشكل واضح على: (١)

- ١- وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي.
- ٢- وضع العراق تحت الانتداب الإنجليزي.
- ٣- وضع فلسطين وشرقي الأردن تحت الانتداب الإنجليزي مع الالتزام بتنفيذ وعد بلفور الصادر في عام ١٩١٧م لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

وقد كرس هذا المؤتمر شعور المرارة والحزن والغضب والثورة لدى الشعوب العربية التي كانت تنتظر الاستقلال التام مكافأة لها على مشاركتها في الحرب العالمية الأولى إلى جانب بريطانيا؛ أملاً في الحصول على الاستقلال الكامل عن كل من الإمبراطورية العثمانية والدول الأوروبية، إلا أنهم فوجئوا بهذه الدول تقرر نظام الانتداب الذي يُعدّ نمطاً آخر من أنماط الاستعمار.

ومن أهم سلبيات معاهدات وتسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى- لاسيما مؤتمر سان ريمون الذي يُعد امتداداً للسيطرة على العالم العربي والإسلامي- هو الاعتراف بوعد بلفور، وتضمينه في وثائق القانون الدولي. فقد كان هذا الوعد الصادر في صورة رسالة وجهها وزير الخارجية البريطاني بلفور إلى المليونير اليهودي روتشيلد لا يُعتبر في نظر القانون الدولي تصريحاً أو معاهدة دولية؛ لأنه وحيد الطرف ولا قيمة له.

فوعد بلفور لم يكن اتفاقاً بين دولتين، وإنما عبارة عن تصريح وحيد الطرف أُعطي لشخص ليست له صفة دولية، إلا أن هذا الوضع تغير بعد سان ريمون التي نصت على التزام بريطانيا بتنفيذ وعد بلفور الصادر في عام ١٩١٧م لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. (٢)

«وعد بلفور»، شبكة البصرة. نت ، ٢٨ كانون الأول ٢٠١٢م، على الرابط التالي: http://www.albasrah.net/pages/mod.php?mod=art&lapage=../ar_articles_2012/1212/qazi_281212.htm

(٢) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

(١) د. ماري شهرستان، «تاريخ سورية تحت الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ - ١٩٤٦م»، شبكة المعلومات السورية القومية الاجتماعية، ٧-٦-٢٠١١م، على الرابط التالي:

<http://www.ssnp.info/index.php?article=64461&print=true>
د. غازي حسين، «للأجيال القادمة كي لا تنسى: عدم شرعية»

أرمينيا، ووافقت على إحالة مسألة ترسيم الحدود إلى تحكيم الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون وإيجاد منفذ بحري لأرمينيا. في ١٣ تشرين الثاني ١٩٢٠م صدر القرار التحكيمي للرئيس الأمريكي وبموجبه أصبحت مساحة أرمينيا ١٦٠ ألف كيلو متر مربع وباستعادة الأفضية السبع (كارس وآرداهان وفان وموش وارزروم وارزنغا وطرابزون) صار لأرمينيا منفذ على البحر الأسود.^(٢) وينسحب الأمر ذاته على حالة الأكراد، فبعد نهاية الحرب العالمية الأولى فكرت الدول الغربية خاصة بريطانيا في إقامة دولة كردية لعدة أسباب، منها: ^(٣)

أثرت معاهدات ما بعد الحرب العالمية الأولى سلبيًا على الاندماج القومي بين مكونات العالم العربي والإسلامي، وذلك من خلال تغذية الانقسامات العرقية والإثنية، ويتجلى هذا مثلاً في مسألة استقلال الأرمن عن الدولة العثمانية التي اعترفت -بمقتضى معاهدة سيفر- بجمهورية أرمينيا.

ومن أمثلة ما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق: لواء الإسكندرون الذي شكّل مادة للنزاع بين تركيا والدولة الوليدة في سوريا لوقت طويل؛ إذ اعترفت السلطنة العثمانية في معاهدة سيفر ١٩٢٠م بتبعية

منطقتي اللواء وكيليكيا للأراضي السورية، وبعد توحيد الدويلات السورية التي شكّلها الانتداب الفرنسي ضم لواء الإسكندرون إلى السلطات السورية المركزية.

وفي ١٩٣٧م أصدرت عصبة الأمم قرارًا بفصل اللواء عن سوريا، وعين اللواء حاكم فرنسي. وفي ١٩٣٨م دخلت القوات التركية بشكل مفاجئ واحتلت اللواء،

وتراجع الجيش الفرنسي إلى أنطاكيا. وأشرفت الإدارة الفرنسية على انتخابات -يشكك كثيرون فيها- فاز فيها الأتراك، وابتدأت سياسة تترك اللواء، وتهجير السكان السوريين. وتم ضمه إلى تركيا بعد استفتاء نظم عام ١٩٣٩م، ثم قامت تركيا بتغيير كافة الأسماء إلى أسماء تركية.

ويقدر البعض مساحة إجمالي المناطق التي منحتها فرنسا لتركيا بأكثر من ثلث مساحة سوريا الحالية، مع أن المادة الرابعة من صك الانتداب نصت على إلزام الدولة المنتدبة باحترام وحدة البلاد الموكلة إليها، والحفاظ على سلامة أراضيها.^(١)

في السياق ذاته، أثرت معاهدات ما بعد الحرب العالمية الأولى سلبيًا على الاندماج القومي بين مكونات العالم العربي والإسلامي، وذلك من خلال تغذية الانقسامات العرقية والإثنية، ويتجلى هذا مثلاً في مسألة استقلال الأرمن عن الدولة العثمانية التي اعترفت -بمقتضى معاهدة سيفر- بجمهورية

- إنشاء منطقة عازلة بين أترك الأناضول وأترك آسيا الوسطى؛ لأن غالبية أترك الأناضول وآسيا الوسطى من المسلمين السنّة.

- إضعاف قوة تركيا والعراق وإيران التي تتواجد بها تكتلات لسكان الأكراد؛ حيث ستجبر تلك الدول على الانصراف إلى شئونها الداخلية، وعدم التدخل في شئون البلدان الأخرى، كالبلدان العربية الخاضعة للسيطرة الفرنسية- البريطانية.

- استغلال مصادر المياه والطاقة الكهرومائية موجودة في المناطق الكردية.

- إنشاء منطقة عازلة بين تركيا القومية وجمهورية أذربيجان ذات الاستقلال الذاتي.

لذلك وضع الحلفاء مشروع إقامة دولة كردية في

(٢) آرا سوفاليان، «الجمهورية الأرمنية الفتية ١٩١٨ - ١٩٢٠م»، موقع فتاة عشتار الفضائية، ٢٧-٥-٢٠١٢م، على الرابط التالي:

<http://www.ishtartv.com/>

(٣) تمام عدنان مرعي، «لماذا لم تقم دولة كردية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى؟» 14-03-2013، على الرابط التالي:

<http://www.kulilk.com/portal>.

(١) «لواء إسكندرون السليب: أرض سورية مسروقة»، موقع طرطوس اليوم، ٢٢/٥/٢٠١٣م، على الرابط التالي:

<http://www.tartous2day.com/news/index.php?part=12>

وكان الغطاء القانوني لكل هذه الإجراءات هو إلغاء معاهدة سيفر، والتمهيد لاتفاق جديد في لوزان في ١٩٢٣م، وقد تمخض عن هذا الاتفاق تثبيت الحدود الحالية للدول في المنطقة، والتوصية بتأمين الحقوق الثقافية للأكراد داخل دولتي تركيا الجديدة والعراق المستحدث. وبناء على قراءة سريعة لتلك المرحلة وملابساتها يمكن الاستنتاج بأن أبرز مسببات هذه التحول تجاه الأكراد كانت: (٢)

- عدم اقتناع الحلفاء عمومًا وكل من فرنسا وبريطانيا بدعم وإعلان استقلال الأكراد.

- إلغاء الخلافة العثمانية شكلاً حافزاً ومؤشراً على تقارب حكومة الكماليين مع الغرب/ المسيحي، ومدخلاً لتغيير المنظومة الإسلامية (الخلافة الإسلامية الشكلية) في المشرق، وشكّلت هذه الخطوة في الواقع أول بادرة حسن نية قدمها الكماليون الترك للغرب.

- تحالف الكماليين الأتراك مع البلاشفة، وموقف البلاشفة السلبي من المسألة الكردية.

- خوف بريطانيا من مواجهة أعداء جدد جراء التمسك بإعلان الدولة الكردية ورعايتها، مثل روسيا، إيران الشاهنشاهية، القوميين العرب الذي كانوا من حلفائها الأساسيين إبان الحرب العالمية الأولى.

وأياً كانت الأسباب، فقد تغير موقف دول الحلفاء من المسألة الكردية خلال معاهدة لوزان (١٩٢٣م) التي تم عقدها فيما بينهم وبين تركيا الكمالية، إذ نصت معاهدة لوزان على تعهد أنقرة منح معظم سكان تركيا الحماية التامة والكاملة، ومنح الحريات دون تمييز، من غير أن ترد أية إشارة للكرد فيها، كما لم

مؤتمر الصلح من خلال معاهدة سيفر التي نصت على حق الشعب الكردي بالتمتع بشكل من أشكال الحكم الذاتي يمكن أن يتحوّل إلى نوع من الاستقلال مع السماح لأكراد كردستان الجنوبية (أكراد العراق) بالانضمام إليهم إذا رغبوا بذلك، ومن ثم برزت القضية الكردية في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية في العام ١٩٢١م، وقد وردت الإشارة إليها في قرار لمجلس وزراء الحكومة العراقية المؤقتة، التي نادى بالأمير فيصل الأول ملكاً على العراق، وذلك حين جرى التأكيد على مشاركة الأكراد في انتخابات المجلس التأسيسي وفقاً لما نصت عليه معاهدة سيفر. (١)

ولكن يبدو أن نية دول الحلفاء تجاه الأكراد قد تغيرت فيما بعد، فالولايات المتحدة الأمريكية كانت تحبذ إنشاء دولة أرمنية واسعة على حساب المناطق الكردية الشمالية كترجمة فورية لمبادئ ولسون، وروسيا كانت تميل لمد نفوذها إلى داخل كردستان حتى

منطقة راوندوز، أما فرنسا فكانت ضد استقلال كردستان، وكانت تهدف إلى ضم أكبر جزء من كردستان إلى مستعمراتها في سوريا بما فيه جزيرة بوتان والموصل، في حين ظلت بريطانيا مترددة ومتوترة، وحسمت رأيها بضم كردستان الجنوبية «لواء الموصل مع نبطها إلى مملكة العراق التي ظل بعض رجالها ضدها ضدها إلى العراق العربي حتى آخر لحظة أمثال «نويل»». (٢)

(١) «العراق والفيديرالية»، مجلة معلومات، المركز العربي للمعلومات، العدد ٤٠، مارس ٢٠٠٧. متاح على الرابط التالي:

<http://www.achr.nu/achr.ar.htm>

(٢) د.آزاد أحمد علي، «معاهدة سيفر ومشروعية استقلال كردستان»، موقع مركز كلكامش للدراسات والبحوث الكردية، ١٣/٦/٢٠١٣م، متاح على الرابط التالي:

<http://gilgamish.org/printarticle.php?id=357>

(٣) المرجع السابق.

- الاتفاقيات الدولية التي وضعت للجماعة الدولية -
تنظيمًا جديدًا، مثل اتفاقية فرساي في عام ١٩١٩م،
والتي أدت إلى إنشاء عصبة الأمم، واتفاقية سان
فرانسيسكو التي أدت لإنشاء هيئة الأمم المتحدة في
عام ١٩٤٥م.

كما ترتبط التغييرات التي يشهدها القانون
الدولي في المرحلة الحالية بالمنافسة السياسي وما
يتضمنه من عوامل مواتية مثل: التطور التكنولوجي
والعلمي الكبيرين، ظهور المشاكل الاقتصادية على
الصعيد الدولي، التغيير في دور الدولة على الصعيد
الداخلي. (٢)

ومن ثم فإن على الدول العربية والإسلامية إدراك
حقيقة أن قدرتها على تلافى الآثار السلبية المحتملة
للأطر القانونية والمعاهدات الدولية، إنما ترتبط
بشكل أساس بقدرتها على الاصطفاف، وتجميع
قواها في مجموعات، أو كتل متقاربة المواقف، مما
يزيد من ثقلها النسبي في إطار توازنات القوى العالمية
التي تؤثر بشكل مباشر على صوغ وإعمال القوانين
والاتفاقيات الدولية.

وقد يكون بمقدور العالم العربي والإسلامي تحقيق
ذلك عبر مجموعة من الخطوات، تشكل في مجموعها
استراتيجية لدعم الموقف التفاوضي للعالم العربي/
الإسلامي في الفضاءات الدولية المختلفة، وذلك على
النحو التالي:

١- التنسيق مع الدول النامية الأخرى، وتكوين
كتلات وتحالفات ذات أوزان تصويتية عالية في
المنظمات الدولية:

فطالما ظلت العلاقات الدولية قائمة على التعدد بين

تجر الإشارة إلى معاهدة سيفر. (١)

خاتمة

نحو بناء إطار استراتيجي لتلافي الآثار السلبية للمعاهدات
الدولية على العالم العربي والإسلامي:

يثبت استقرار معاهدات ما بعد الحرب العالمية الأولى،
صحة الفرضية القائلة بأن العوامل السياسية تؤثر
بصفة عامة على عملية تشكيل وصك المبادئ القانونية
الدولية الحاكمة للتفاعلات بين الفاعلين الدوليين.

وهذا ما يتسق مع حقيقة أن إقامة أحكام ومبادئ
القانون الدولي المعاصر وصياغتها على النحو الذي
خرجت به جاء نتيجة لمجموعة من التفاعلات والعوامل
السياسية، منها (٢):

- مبادرة الدول إلى تضمين معاهدات الصلح بعض
القواعد القانونية الدولية، مثل ما حدث في معاهدة
صلح وستفاليا في عام ١٦٤٨م التي تضمنت مبدأ
المساواة بين الدول المسيحية بغض النظر عن عقائدها
أو أشكال حكوماتها.

- ظهور عدة دول جديدة بعد الثورة الفرنسية،
ثم بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، وانتشار
الحركات القومية، واستقلال الكثير من الشعوب
خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

- المؤتمرات الدولية التي عُقدت لوضع قواعد
القانون الدولي، وتدوينها في اتفاقيات دولية، مثل
مؤتمر جنيف ١٨٦٤م ومؤتمر لاهاي ١٨٩٩م و١٩٠٧م.

(١) د. أحمد علو، «الحلم المنوع»، مجلة الجيش - العدد ٢٣٤، أبريل
٢٠١٢م، متاح على الموقع الرسمي للجيش اللبناني:

<http://www.lebarmy.gov.lb/ar/>

(٢) د. حامد سلطان، «القانون الدولي العام في وقت السلم»، دار النهضة
العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٥م، ص ٣٧-٤٢.

(٣) مروة أحمد نظير هويدي، المرجع السابق، ص ٣٢.

مع الدول العربية والإسلامية؛ إذ ينبغي التنسيق بين تلك الأطر والهيئات حتى تصبح أداةً متحدةً للتعاون الدولي من أجل تنمية تلك الدول، ولمنع الازدواجية والتضارب في الأدوار والاختصاصات التي تؤديها على المستوى الدولي، وبما لا يضعف الموقف التفاوضي للدول النامية، ومنها الدول العربية والإسلامية في مواجهة الدول المتقدمة التي تهيمن على المؤسسات المالية والنقدية الدولية.

ومن أمثلة تلك الهياكل:

- مجموعة الـ ٧٧ والصين، التي تُسمى بهذا الاسم؛ لأنه تم إنشاؤها من طرف ٧٧ دولة نامية أثناء مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية بجنيف في ١٩٦٧م، وتضم ١٣١ دولة، وتهدف إلى تنسيق مواقف الدول النامية من المسائل الاقتصادية والتجارية والاجتماعية والثقافية الكبرى المطروحة على المجموعة الدولية في اجتماعات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية والمؤتمرات الأخرى^(٣).

- حركة عدم الانحياز التي تضم الآن ١١٨ دولة، وتعتبر ثاني أكبر تجمع بعد الأمم المتحدة، وتأتي أهمية الحركة من منطلق أنها تضم دولاً رئيسة تلعب أدواراً مهمة على الساحة الدولية والإقليمية، وتؤخذ قراراتها بعين الاعتبار في القضايا الدولية؛ حيث إنها تمثل اليوم نسبة ٦٠٪ من عدد الدول في الأمم المتحدة، وبالتالي تشكل كتلة تصويتية كبيرة، كما تمثل أكثر من نصف سكان العالم، وبالتالي فعلى الحركة أن تستفيد من هذا الثقل الكبير لصالح إقامة العدالة والسلام في العالم^(٤).

(٣) موقع وزارة الخارجية التونسية، على الرابط التالي: <http://www.diplomatie.gov.tn/index.php?id=190&L=1>

(٤) مصر وحركة عدم الانحياز، موقع الهيئة العامة للاستعلامات، على الرابط التالي:

<http://www.sis.gov.eg/Ar/Templates/Articles/tmpArticles.aspx?CatID=306>

دول ذات سيادة ستبقى سياسة التحالف موجودة، ومن ثم فعلى الدول العربية والإسلامية الوعي بضرورة تنسيق المواقف فيما بينها أولاً فيما يخص القضايا ذات الاهتمام المشترك، ثم السعي إلى تكوين تحالفات مع الدول الأخرى ذات المصالح المشتركة. مع ملاحظة أنه يمكن عقد هذه التحالفات في صورة غير رسمية؛ بحيث لا تتطلب تعهداً رسمياً يقوم على وجود تنسيق بين عمليات صنع القرار.

ومن المهم في هذا السياق ملاحظة ما تتمتع به التحالفات الاقتصادية من ثقل وزن في الوقت الراهن، فمن أهم سمات العولمة في ظل النظام العالمي الجديد الانتقال من الاقتصاديات القومية إلى التكتلات الإقليمية، والاعتماد على التحالفات الاقتصادية بدلاً من العسكرية؛ حيث وصل عدد التكتلات الاقتصادية إلى (١٠٩) تكتلات بسوق حرة مشتركة^(١).

ويمكن تحديد أهم المجالات ذات الأولوية لإقامة التحالفات أو الشراكات بين دول الجنوب بصفة عامة في: المجال السياسي والسلام والأمن، الاستثمار والتجارة، الزراعة والأمن الغذائي، التعاون الاجتماعي والثقافي^(٢).

٢- دعم التنسيق مع الأطر المؤسسية الإقليمية القائمة التي تضم في عضويتها دولاً تنتمي للعالمين العربي والإسلامي، مثل جامعة الدول العربية، ومنظمة التعاون الإسلامي ومجلس التعاون الخليجي.. وغيرها.

٣- التعاون الوثيق مع الحركات والتحالفات المختلفة التي تضم عضويتها دولاً نامية تتقاطع في مصالحها

(١) عادل السلطان، الأحلاف والتكتلات الدولية، مجلة الحوار المتمدن الإلكترونية- العدد: ٩٣٠-١٩-٨-٢٠٠٤م. متاح على الرابط التالي:

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=22188>

(٢) بيان صحفي مشترك -رقم: ٦، القمة الإفريقية العربية، سرت، ٨ أكتوبر ٢٠١٠م.

لتنسيق المواقف العربية من الموضوعات المعروضة على الدورة السابعة لاجتماعات اللجنة التحضيرية للمحكمة الجنائية الدولية التي عُقدت خلال الفترة من ٢٦ فبراير إلى ٩ مارس ٢٠٠١م^(٢).

كما يمكن الحديث عن آليات أخرى لتعزيز موقف العالم العربي/الإسلامي إزاء المعاهدات الدولية؛ مثل تعزيز النشاط الدبلوماسي على مستوى الدول -سواء كانت هذه الدبلوماسية منفردة أو

مجتمعة- للترويج للمفاهيم التي تتوافق مع مصالح ورؤى وتوجهات دول العالم العربي والإسلامي إلى جانب مخاطبة الرأي العام العالمي ودفعي الضرائب حول هذه القضايا؛ أملاً في أن يتمكنوا حال اقتناعهم من التأثير في حكوماتهم، في تصادي تهميش الدول العربية والإسلامية من آلية اتخاذ القرار بالمنظمات الدولية.. وغيرها.

٤- المشاركة في عملية صياغة المعاهدات الدولية، وتشجيع قيام الأطر المؤسسية بصياغة مواقف موحدة للدول العربية والإسلامية إزاء هذه المعاهدات.

عند التعاون مع الحركات والتحالفات المختلفة التي تضم عضويتها دولاً نامية تقاطع في مصالحها مع الدول العربية والإسلامية؛ ينبغي التنسيق بين تلك الأطر والهيئات حتى تصبح أداة متحدة للتعاون الدولي من أجل تنمية تلك الدول، ولمنع الازدواجية والتضارب في الأدوار.

وتعد عملية صياغة ميثاق روما المنشئ للمحكمة الجنائية الدولية نموذجاً مهماً في هذا السياق؛ حيث نشطت الدول العربية بشكل واضح خلال عملية صياغة المعاهدة (لاسيما مصر والأردن)، كما يلاحظ أن جامعة

الدول العربية لعبت دوراً مهماً في محاولة إيجاد موقف ورؤية عربية موحدة تجاه فكرة إنشاء المحكمة الجنائية الدولية منذ ما قبل إنشاء تلك المحكمة.

فقد شكّلت الجامعة لجنة من خبراء وممثلي الدول العربية بقرار من المكتب التنفيذي لمجلس وزراء العدل العرب بتاريخ ٢٠/٤/١٩٩٨م هدفها الخروج بموقف عربي موحد إزاء المحكمة الجنائية الدولية قبيل انعقاد مؤتمر روما المعني بإقرار النظام الأساسي للمحكمة ١٩٩٨م.

وعقدت اللجنة العربية مجموعة من الاجتماعات في القاهرة، وبالتوازي مع هذه الاجتماعات عقدت المجموعة العربية اجتماعات تنسيقية في روما ونيويورك^(١).

كما عقدت الجامعة بعد انتهاء مؤتمر روما عدة اجتماعات للجنة العربية، كان أبرزها الاجتماع الذي عُقد بالقاهرة في الفترة من ٤-٨ فبراير ٢٠٠١م

(٢) مروة أحمد نظير هويدي، «الجرائم الدولية: دراسة في الأبعاد السياسية في النظام الجنائي الدولي المعاصر»، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ٢٠٠٤م، ص ٢٠٤-٢٠٥.

(١) د. عادل محمد بياتي، «حول إنشاء محكمة جنائية دولية خاصة لمحاكمة مجرمي الحرب الإسرائيليين، والتعويض عن الخسائر البشرية والأضرار المادية التي لحقت بالدول العربية»، مجلة شؤون عربية، سبتمبر ٢٠٠١م، ص ١٠٠.

معلومات إضافية

الحرب العالمية الأولى ونتائجها ومعاهداتها، ودورها في سقوط الخلافة العثمانية:

بعد أن نجح مخطط جماعة الاتحاد والترقي ويهود الدونمة في خلع السلطان عبد الحميد الثاني من سدة الخلافة العثمانية أصبح الطريق مفتوحاً أمام الاتحاديين لتنفيذ أفكارهم القومية ومبادئهم العلمانية والتغريب بأقصى سرعة، وعلى أوسع نطاق، ولما كان رجال الاتحاد والترقي المتصرفين في الحكم معظمهم شباب في الثلاثينيات؛ فلقد جاءت أفعالهم وقراراتهم متهورة طائشة كأنهم مجموعة من الشباب الأحمق، وأصبحت الخلافة العثمانية نهباً لكل طامع وعدو متربص، وتكالب عليها الأعداء يقضمون من أطرافها، وهددتها إيطاليا باحتلال إسطنبول، ونشبت حرب البلقان التي أفقدت الدولة العثمانية معظم أراضيها في أوروبا، وأطلق أعداء الدولة عليها اسم «الرجل المريض».

في تلك الفترة كانت هناك متغيرات كثيرة على الساحة الأوروبية أثرت بشكل مباشر على المسلمين والخلافة العثمانية خاصة، ففي تلك الفترة كانت بريطانيا هي الدولة العظمى الأولى والإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس في الساحة الأوروبية، وكانت بريطانيا صاحبة مصالح حيوية تراعيها وتدافع عنها، وتمثل لها أهمية بالغة كما كانت لها ثوابت وأهداف لا تتغير، ومن أهم أهدافها: القضاء على الخلافة الإسلامية الممثلة في الدولة العثمانية، وإيجاد دولة قومية علمانية تركية في آسيا الصغرى كدولة عازلة للإمبراطورية البريطانية في الشرق بعد وراثة الأقاليم الشرقية من الدولة العثمانية، وكانت بريطانيا الدولة العظمى في أوروبا تحفظ لنفسها بميزان القوى داخل البيت الأوروبي على الرغم من وجود عدة قوى تقليدية في المنطقة مثل روسيا التي ترى نفسها الوريث الوحيد لأملاك العثمانيين وفرنسا التي كانت أقوى دولة في القرنين السابع والثامن عشر.

ظهرت قوة جديدة على الساحة الأوروبية وهي القوة الألمانية التي بدأت تتنامى وبقوة خاصة بعد أن تولى عرش ألمانيا الإمبراطور ولهم الثاني سنة ١٣٠٦هـ، وبدأت ألمانيا تهدد ميزان القوى في أوروبا، وتقف في طريق مصالح بريطانيا، وأدت سياسات ولهم التوسعية وطموحاته لكثرة أعدائه، فقام ولهم بتنفيذ برنامج أسطول بحري ضخم متجاوزاً بذلك أحد الخطوط الحمراء التي رسمتها بريطانيا، ثم قام بمشاكسة بريطانيا في قضايا المستعمرات في منطقة مراكش والبيير، ثم كانت ثلاثة الأثافي عندما أخذت ألمانيا بالتفاهم مع الدولة العثمانية عندما قام ولهم سنة ١٣١٥هـ بزيارة السلطان عبد الحميد في دمشق، وأعلن من هناك أنه يمكن لثلاثمائة مليون مسلم أن يعتمدوا على صداقة ألمانيا، وتعهدت ألمانيا بتحديث الجيش العثماني، وحصلت على امتياز لمد خط حديد برلين/ بغداد؛ بحيث يتصل وسط أوروبا الألماني بالخليج العربي؛ مما يعتبر تهديداً للإمبراطورية البريطانية وطرق مواصلاتها، وبذلك تكون ألمانيا قد تخطت كل الخطوط الحمراء، وأصبح حتم لازم تأديب تلك الدولة المارقة عن منظومة الاتحاد الصليبي ضد الإسلام والمسلمين.

إلى هذه النقطة لم يكن للمسلمين دخل بما يجري على الساحة الأوروبية حتى وقعت الحادثة الشهيرة عندما قام أحد الصرب بإطلاق النار على ولي عهد النمسا أثناء زيارته سراييفو، وكانت النمسا في حلف مشترك مع ألمانيا، وكانت البوسنة والهرسك قد أصبحت من أملاك النمسا بعد حرب البلقان، وكان الصرب شديدي العداوة للنمساويين بسبب الاختلاف العقائدي، وأعلنت ألمانيا عزمها على تأديب الصرب، فاعترضت روسيا للولاء العقدي بينهما، ودخلت إيطاليا طرفاً في الصراع لحلفها مع روسيا، وكذلك فرنسا مع روسيا، وبذلك أصبحت

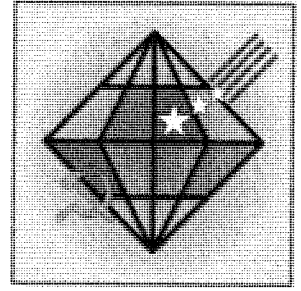
ألمانيا والنمسا طرفاً في الحرب ضد روسيا وفرنسا وإيطاليا، ومع بالقطع إنجلترا.

وعندما طلبت ألمانيا من العثمانيين مساعدتهم في حربهم ضد الحلفاء واستطاع أنور باشا - وكان وزير الحربية آنذاك ويُعتبر أخطر شخصية اتحادية - أن يجزّ الدولة العثمانية للحرب بجانب الألمان، رغم معارضة الخليفة وولي عهده ورئيس الوزراء وغيرهم، ولكن منحة تقدر بخمس ملايين جنيه ذهبي كانت كفيلة بإسكات المعارضين، ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى بحوالي مليون جندي على شتى الجبهات المتعددة لمساعدة الألمان، وأعلن الخليفة محمد الخامس الجهاد المقدس ضد الحلفاء الصليبيين، غير أن المسلمين في شتى البقاع لم يتجاوبوا مع هذا النداء؛ لأن ألمانيا دولة صليبية مثل باقي الحلفاء، ولأن رجال الاتحاد والترقي لم تكن عندهم حماسة لنصرة الدين، واندلعت الحرب الشاملة في ٦ رمضان سنة ١٣٣٢هـ، والتي انتهت بأكبر خسارة للمسلمين في العصر الحديث؛ حيث انتهت بسقوط دولة الخلافة العثمانية، وضياع أملاك المسلمين في أوروبا وآسيا للأبد.

المصدر:

موقع مفكرة الإسلام على الرابط التالي: <http://www.islammemo.cc/2003/11/01/1311.html>

الصّراع الطائفيّ النصرانيّ وأثره على الصّراع الدّوليّ.. الحرب العالميّة الأولى أنموذجاً



فيصل بن علي الكاملي

باحث متخصص في مقارنة الأديان بمركز بحوث ودراسات مجلة البيان

ملخص الدراسة

تتناول هذه الدراسة حقيقة الصراع الطائفي النصراني، ومدى مصداقية التفسير العقدي لأحداث التاريخ الأوروبي الكبرى، لا سيما الحرب العالمية الأولى.

وقد قسّمت الدراسة أنواع الصراع الطائفي إلى قسمين رئيسين: الكاثوليكي-الأرثوذكسي، والكاثوليكي-البروتستانت، وأعرضت عن الصنف الأخير (الأرثوذكسي-البروتستانت)؛ لعدم أهميته في هذه الدراسة.

تستعرض الدراسة تاريخ هذه الصراعات، والدور الذي لعبته في تكوين العقيدة السياسية الغربية، مع ذكر أمثلة للحروب التي ظهرت فيها هذه الطائفية جلياً كحرب القرم والحرب النمساوية-البروسية؛ وكيف أن هذه الحروب مهّدت للحرب العالمية الأولى التي كانت حرباً طائفية بامتياز.

ينتقل الحديث بعد ذلك إلى التفصيل في الدوافع الطائفية التي تسببت في اشتعال الحرب العالمية الأولى التي كانت الدولة العثمانية طرفاً فيها. مع محاولة بيان أن هذه الحرب لم تكن في المقام الأول حرباً لمصالح دنيوية -كما يُشاع- بل كان الهدف منها دينياً، يتلخص في: إضعاف دولة الإسلام، وطائفة الأرثوذكس من النصارى.

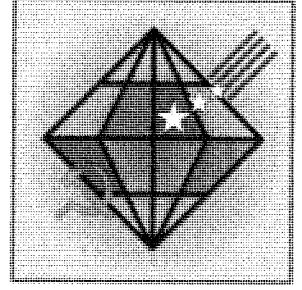
كما تم الحديث بإيجاز عن مستقبل الصراع الطائفي النصراني، وكيفية استثماره لصالح المسلمين.

وينتهي البحث إلى أهمية دراسة الصراع الطائفي بين أصناف النصارى، وضرورة توجيه الجهود المؤسسية للبدل في هذه الحقل؛ لما يعود به من نفع على صانعي القرار والعلماء والمفكرين.

مع ملاحظة أن جُلّ ما حدث في التاريخ الأوروبي لا يزال يؤثر في العقيدة الأوروبية، وأن دراسة هذا التاريخ تهئ الباحثين ومؤسساتهم لاستشراف المستقبل بصورة أكثر اتزاناً.

وقد آثرت أن أنهج بالدراسة المنهج التاريخي لغياب كثير من حقائق التاريخ الأوروبي عن القارئ العربي؛ فكان لا بد من استعراض المهم في ذلك التاريخ حتى يمكن الحكم عليه.

الصراع الطائفي النصراني وأثره على الصراع الدولي.. الحرب العالمية الأولى أنموذجاً



فيصل بن علي الكاملي

باحث متخصص في مقارنة الأديان بمركز بحوث ودراسات مجلة البيان

مقدمة:

كان الصراع النصراني النصراني حاضراً في كل المشاهد السياسية العالمية، فعلى سبيل المثال عمت الفرحة الكنيسة الكاثوليكية بانتصار البلاشفة في روسيا؛ لأن ذلك سيكون خصماً من نفوذ الكنيسة الأرثوذكسية، وفي أعقاب اندلاع الحرب العالمية الأولى سُري عن الفاتيكان بانتصار أتاتورك في «إزمير»، فتبددت بذلك أحلام اليونان في امتلاك العاصمة الأرثوذكسية القديمة. وهكذا يمكننا القول: إن الصراع النصراني- النصراني كانت له آثاره على المشهد السياسي العالمي، وكانت الحرب العالمية الأولى إحدى تجليات ذلك الصراع.

أولاً: الصراع الطائفي النصراني.. أصنافه وآثاره:

يمكن تعريف الصراع الطائفي بأنه صدام ناتج عن حالة من الاحتقان واللاتسامح بين الطوائف داخل المجتمع الواحد، أو بين المجتمعات المختلفة؛ هذه الحالة تتبع في أساسها من دائرة الاعتقاد الديني.⁽¹⁾ وقد تظل هذه الصراعات فكرية لاهوتية، وقد تتطور إلى مصادمات بل حروب.

في الحالة النصرانية يمكن تقسيم الصراعات الطائفية باعتبار الطوائف الثلاث الكبرى (الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية) التي تمثل جلّ النصارى؛ فهناك الصراع الكاثوليكي-الأرثوذكسي، والصراع الكاثوليكي-البروتستانتية، وهذان القسمان يفسران جانباً كبيراً من حروب أوروبا الشهيرة كما سنرى؛ أما النوع الثالث، أعني الصراع الأرثوذكسي-البروتستانتية، فلا يعدو أن يكون خلافاً في المسائل اللاهوتية، ولا يستحق أن يُسمّى صراعاً؛ لذا أعرضت عنه؛ أما بعض مظاهره كالصراع بين بريطانيا وروسيا في «حرب القرم» فله اعتباراته الخاصة؛ من هذه الاعتبارات أن الكنيسة الإنجليزية بعد أن تأثرت بحركة أكسفورد الأنجلو-كاثوليكية في منتصف القرن التاسع عشر أصبحت هجيناً بين الكاثوليكية والبروتستانتية.

١- الصراع الكاثوليكي - الأرثوذكسي:

يُعد الصراع الكاثوليكي-الأرثوذكسي أقدم الصراعات الطائفية عند النصارى. فلا شك أن الكنيستين الشرقية والغربية كانتا ولا تزالان خصمين لدودين منذ اختلافهما في القرن الخامس الميلادي حول قضايا «لاهوتية» عُقدت لها المجامع وألّفت فيها الرسائل من الطرفين، ولَعنت كلتا الأُمّتين أختها. وفي مستهل القرن الحادي

(1) هاني نسيرة، «الطائفية قبل وبعد الثورة المصرية»، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٣/٧/٢٠١١م.

السبل الأخلاقية وغير الأخلاقية في محاولة للقضاء على هذا الخصم العنيد. ولعل ما حصل خلال الحرب العالمية الأولى يبرهن على ذلك.

ففي أعقاب اندلاع الحرب العالمية الأولى وقّع رئيس وزراء بريطانيا «لويد جورج» مع «بازل زاهاروف» ورئيس وزراء اليونان «فينيزيلوس» اتفاقية تتص على منح اليونان -عاصمة الأرثوذكسية القديمة- القسطنطينية. وقد أثارت هذه الاتفاقية زوبعة من الاحتجاجات التي لم تصدر من الدول الغربية، بل من الفاتيكان خصم الكنيسة الأرثوذكسية. وأصبحت بريطانيا حقيقةً بالسخط البابوي؛ لما تفاقت عن طلب البابوية بعدم الإقدام على مثل تلك الاتفاقية. فما كان من الفاتيكان إلا أن شرعت تُقلّب عملاءها الماسون فوجدت في «كمال أتاتورك» خير معين. لقد سُريّ عن الفاتيكان بانتصار أتاتورك في «إزمير» فتبددت بذلك أحلام اليونان في امتلاك العاصمة الأرثوذكسية القديمة.

أدرك «أتاتورك» أن التحالف مع الفاتيكان سيكون ذا نفع للطرفين، فعقد تحالفًا غير معلن منح صلاحيات خاصة للكنيسة الكاثوليكية في تركيا. لكن أعظم ما جنته الكنيسة من هذا التحالف هو الحيلولة دون عودة الكنيسة الأرثوذكسية إلى القسطنطينية. لقد وصفت صحيفة «أوسيرفاتوري رومانو» Osservatore Romano التابعة للكنيسة الكاثوليكية انتصار أتاتورك في إزمير بقولها: «نصرٌ للبابا عظيمٌ»⁽¹⁾.

ليس ذلك فحسب، بل قرر أتاتورك تحويل مسجد أياصوفيا الذي كان يصدح بالأذان -بعد أن كان قبلها كنيسة أرثوذكسية- إلى متحف رومي بيزنطي بعد أن استشار الفاتيكان؛ تحسبًا لأي ممانعة. لكن الفاتيكان التي تُرعد وتُزبد عادةً إذا ما هُددت مؤسسة كاثوليكية

عشر الميلادي تفاقم الحال بعد أن رفض بطريك القسطنطينية الأرثوذكسي «ميخائيل كيرولاريوس» Michael Cerularius الخضوع للسلطة البابوية وأغلقت كنائس الروم اللاتين في المشرق، وظل نفوذ الأرثوذكسية في اليونان وبلغاريا ويوغسلافيا ورومانيا وفلسطين والإسكندرية وروسيا.

في أثناء الحرب الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م هاجم الروم الصليبيون آسيا الصغرى، ودمّروا القسطنطينية عاصمة الأرثوذكسية حينئذ. واستمر الصراع بين الكنيستين إلى يومنا هذا؛ أي ما يقارب ألف سنة. كان هدف الكنيسة الكاثوليكية من هذه المواجهة تدمير أو إخضاع الكنيسة الأرثوذكسية، أو دمجها طوعًا أو كرهًا في الكنيسة الكاثوليكية.

بين عامي ١٤٥٣م (فتح القسطنطينية وسقوط الإمبراطورية البيزنطية) إلى سقوط الإمبراطورية القيصريّة الروسية عام ١٩١٧م كانت علاقة الفاتيكان بالكنيسة الأرثوذكسية تمر بمرحلة ركود دبلوماسي؛ من أهم أسبابه انتقال مركز الأرثوذكسية من الشرق إلى الغرب (روسيا المقدسة)؛ حيث ضربت بأطنابها. فكما كانت روما اللاتينية هي «روما الأولى» أصبحت القسطنطينية «روما الثانية». فلما سقطت الدولة البيزنطية على أيدي المسلمين صارت روسيا المعقل الأقوى للكنيسة الأرثوذكسية، وموسكو هي «روما الثالثة».

وجدت الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا أرضًا خصبة لاستعادة قوتها وهيبتها، لكنها أخطأت ثانية عندما ارتبطت بالإمبراطورية القيصريّة كما ارتبطت من قبل بالإمبراطورية البيزنطية، فكان ضعفها متلازمًا مع سقوط روسيا القيصريّة عام ١٩١٧م. حينها استؤنفت مكائد الدبلوماسية الكاثوليكية حيثما وجدت الأرثوذكسية في البلقان وروسيا وأوروبا الشرقية، بل وفي الشرق الأوسط. ولم تتورع الفاتيكان عن سلوك

(1) Avro Manhattan. Vatican Imperialism in the 20th Century (Zondervan, 1965), p. 241.

الرومية⁽¹⁾ بل لما نهضت المقاومة الأرثوذكسية لم تبدِ الفاتيكان أي تعاطف معها، بل كانت ترجو أن تضرب روسيا الملحدة ضربتها القاضية فتنتهي الأرثوذكسية إلى الأبد. وهذا ما صرح به «مونتني» صديق البابا بندكت الخامس عشر قائلاً: إن قداسته [يعني البابا] يرى أن هذه الجرائم وهذه الدماء ستكون ذات فضل يوماً ما، إن أمكن -بعد انصراف موجة الإلحاد هذه- أن يبشّر بالكاثوليكية في روسيا. إن بقاء الأرثوذكسية لن يدوم طويلاً، ونهايتها كدين رسمي يتيح فُرصاً لم تكن لتوجد في ظل حكم القياصرة حراس الكنيسة [الأرثوذكسية].⁽²⁾

٢- الصراع الكاثوليكي - البروتستانتية:

ظهرت في أوروبا في عام ١٥١٧م حركة دينية «إصلاحية» على يد لاهوتي ألماني يدعى «مارتن لوثر»، كانت هذه الحركة «احتجاجاً» على بعض ممارسات الكنيسة الكاثوليكية كإصدار صكوك الغفران، وبعض المظاهر الوثنية، فعُرفت باسم «البروتستانتية» (Protestantism)

اشتقاقاً من الفعل (protest) بمعنى «يحتج» أو «يعارض». انتشرت الحركة البروتستانتية في أوروبا ودعمتها دعوات مماثلة تُعد امتداداً لحركة لوثر من أشهرها ما قام به السويسري «زوينغلي» والفرنسي «كالفن».

كان نفوذ الدولة العثمانية في هذه الحقبة قد بلغ دول البلقان، وبدأت المواجهة بين هذه الدولة الإسلامية وبين إمبراطورية هابسبورغ الكاثوليكية في النمسا. فجاءت الحركة البروتستانتية لتفتح على الكنيسة الكاثوليكية جبهة داخلية قوية مواتية

بالعلمنة كانت هذه المرة أصمّت من فئران الكنائس، بل شجعت عميلها الماسوني سرّاً على تدنيس المقدسات غير الكاثوليكية.

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى قد حققت للفاتيكان نصراً على الكنيسة الأرثوذكسية؛ فإنها كذلك فتحت لها آفاقاً في التعامل الدبلوماسي الذي سعت من خلاله دائبة لإسقاط الدولتين العثمانية الإسلامية والقيصرية الروسية الأرثوذكسية، حتى حدث ذلك بالفعل.

كان من أسباب اضطراب الكنيسة الأرثوذكسية مقارنةً بالرومية الكاثوليكية ارتباطها -كما أسلفت- بالإمبراطوريات، وهو ما عنى سقوطها بسقوط

دولتها. فلما قامت الثورة البلشفية سُفّت هذه الكنيسة كما سُفّت دولتها القيصريّة، وتبع ذلك تأميم ثروتها الهائلة وتهميش الدور السياسي لقساوستها، وأصبح الفصل بين الدين والدولة حقيقة قائمة.

فهل حزنت الفاتيكان على سقوط كنيسة نصرانية على أيدي الملاحدة؟ كلا! بل عم الفرح والبهجة أروقة

كنيسة القديس بطرس في روما؛ فالبلاشفة وإن كانوا ملحدين إلا أنهم خدموا الكنيسة الرومية بالقضاء على خصمها اللدود؛ الكنيسة الأرثوذكسية، فلا ريب أن منهج الفاتيكان مكيافيلي صرف تبرر فيه الغاية الوسيلة. لقد أنجز البلاشفة ما لم تتجزه الكنيسة الكاثوليكية لأكثر من ألف عام ومهدوا لسياسة الهيمنة الغربية على كنائس الشرق التي تمثلت في تحويل الكثير من أتباع الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية، بالإضافة إلى «الدمج الروحي» لبلغاريا ورومانيا والصرب وأوكرانيا الأرثوذكسية وغيرها داخل الكنيسة

(1) مرجع سابق.

(2) Count Sforza. Contemporary Italy (F. Mulker, 1940).

ولكن بالرغم من اغتيال الملك بقيت الكنيسة الكاثوليكية في صراع مرير مع «مرسوم نانت» الذي أجبرهم على كَفِّ أيديهم عن بروتستانت فرنسا حتى تمكنوا من إلغائه عام ١٦٨٥م في أثناء حكم الملك «لويس الرابع عشر».

وبدأت السياسة القمعية ضد البروتستانت في فرنسا حتى إن الملك «لويس الرابع عشر» كان يتبجح

بأنه خلال عام واحد لم يُبق في

فرنسا سوى ١٠٠٠-١٥٠٠ من

الهيجونوت البروتستانت.^(٤) كما

يذكر الأب الفرنسي الكاثوليكي

الأصل «تشارلز تشينيكي» في

كتابه «خمسون عاماً في كنيسة

روما» بأن الملك الفرنسي «تسبب

في قتل نصف مليون من الرجال

والنساء والأطفال الذين هلكوا في طرقات فرنسا،

كما تسبب في هلاك ضِعف ذلك العدد في أرض

بعض الصراعات الطائفية التي حدثت في أوروبا كان سببها دينياً صرفاً، ولم تنزل طوائف النصارى تشكّل عاملاً مهمّاً جدّاً في توجيه الصراعات الدولية وهذا ما نراه جليّاً في الحرب العالمية الأولى.

المهجر...»^(٥)

وهكذا لم يتبق من البروتستانت في فرنسا سوى

الفقراء والمستضعفين، وهاجرت الطاقات والعقول

البروتستانتية إلى بقية دول أوروبا وأمريكا الشمالية.^(٦)

أما في هولندا فكان تأثير الكالفنية البروتستانتية

في تزايد. فأرسل «فيليب الثاني» عشرة آلاف جندي

إسباني يقودهم «دوق ألبا»، وبإشراف جمعية يسوع

أقيمت محاكمة «مَجْمَع الدم» أو «مجمع الفتن» كما

يسمى. وبناء على توصيات هذا المجمع وفي «أقل

من عقد أُبيد بأمره [أي فيليب الثاني] في حجرات

للمسلمين بالرغم من قلق زعماء البروتستانتية من الزحف الإسلامي كما يتضح من كتاب لوثر «في الحرب ضد الأتراك» Vom Kriege wider die Türken.

في عام ١٥٤٥م عقدت الكنيسة الكاثوليكية مجمع

«ترنت»؛ كان الداعي إلى هذا المجمع هو اتساع الحركة

البروتستانتية في أوروبا بشكل أُنذر بفقدان الكنيسة

نفوذها على ممالك أوروبا. اعتُبر المجمعُ الحركةُ

البروتستانتية بدعة وهرطقة، ولعن

أتباعها، وشرعت الكنيسة الرومية

تستعد لمواجهة هؤلاء الخوارج على

سلطانها.

بدأت في فرنسا «حروب

الدين الفرنسية» بين الكاثوليك

والبروتستانت بعد أن أصبح

«الهيجونوت» البروتستانت يشكّلون

قوة سياسية فيها. وحدثت «مذبحة القديس بارثولوميو»

St. Bartholomew's Massacre عام ١٥٧٢م التي قُتل فيها

خمسة وسبعون ألفاً من الهيجونوت البروتستانت.^(١)

وفي عام ١٥٨٩ طُعِن الملك الفرنسي «هنري

الثالث»؛ لأنه «لم يتورع عن مقاومة النفوذ المتزايد

للنبالة الكاثوليكية بتحالفه مع حزب «الهيجونوت»

[بروتستانت فرنسا].»^(٢)

وفي عام ١٦١٠م اغتِيل خَلْفُه «هنري الرابع» عندما

أصدر «مرسوم نانت» Edict of Nantes الذي ضمن

للهيجونوت حرية العبادة والمساواة في الحقوق، خلافاً

لما نصت عليه عقيدة مجمع ترنت.^(٣)

(4) Wikipedia, "Dragonnade" <http://en.wikipedia.org/wiki/Dragonnades>.

(5) Charles Chiniquy. Fifty years in the Church of Rome (Toronto: S. R. Briggs, 1886), p. 686.

(6) The Huguenots in France (New York: Harper & Brothers Publishers, 1874), pp. v-vii.

(1) Eric J. Phelps. Vatican Assassins 2nd Ed. (Newmans-town, PA: Eric John Phelps, 2004), p. 175.

(2) Rene Fulop-Miller. The Power and Secret of the Jesuits (New York: The Viking Press, 1930), p. 316.

(3) Edwin Sherman. The Engineer Corps of Hell; Or Rome's Sappers and Miners (San Francisco, California: Private subscription, 1883), p. 86.

وفي عام ١٦٠١م دبّر اليسوعيون ما يعرف بـ«مكيدة البارود» برعاية من الملك «فيليب الثالث» الذي كان عميلاً لاتباع لويولا. قرر اليسوعيون «أن يبيدوا الملك وكل عائلته، بالإضافة إلى كل زعماء البروتستانتية في إنجلترا بضربة واحدة»^(٣) عن طريق تفجير البرلمان أثناء اجتماعه بستة وثلاثين برميلاً من البارود. ولكن شاء الله أن يدخل «العمدة» قَبُو البرلمان ليجد «جاي فوكس Guy Fawkes» يتأهب للقيام بالعملية فتم القبض عليه.

وفي عام ١٦٦٨م ثار البرلمان البروتستانتية على الملك «تشارلز الأول» فيما يعرف بالثورة البيوريتانية (التطهّرية) بقيادة «أوليفر كرومويل» الذي عرف جيشه باسم «الحديديين» Ironsides. انتصر كرومويل في معاركه ضد الكاثوليك في إنجلترا، بل تقدم إلى إيرلندا لنصرة البروتستانت، فدمّر أسوار مدينة «دروغيدا» الكاثوليكية، وقتل فيها ألفين تقريباً؛ كما أجبر فرنسا على إصدار عفو عام يقضي بضمّان حقوق الهيجونوت. أما مصير الملك «تشارلز الأول» فكان الإعدام بأمر من البرلمان الإنجليزي بتهمة الخيانة العظمى.

بعد وفاة القائد الإنجليزي «أوليفر كرومويل» عادت أسرة «ستيوارت» الكاثوليكية لتحكم إنجلترا. وأصدر الملك «تشارلز الثاني» حكم الإعدام على كل أعضاء البرلمان البروتستانتية الذين وقّعوا وثيقة إعدام أبيه «تشارلز الأول»، وقتل الكثير من الشعب.

بعد وفاة «تشارلز الثاني» عام ١٦٨٥م خلفه أخوه الكاثوليكي «جيمس الثاني». لكن البروتستانت طردوه من مملكته ففر إلى فرنسا تحت كنف «لويس الرابع عشر». وطلب الإنجليز من الهولندي البروتستانتية

التعذيب وتحت المقاصل وعلى المحرقات مائتان وخمسون ألفاً من الرجال والنساء الهولنديين»^(١).

ومن أهم الحروب الطائفية النصرانية: «حرب الثلاثين عاماً» عام ١٦١٨م، كان سبب قيام هذه الحرب هو انتشار الحركة البروتستانتية في أوروبا، خصوصاً ألمانيا. ففي مستهل القرن السابع عشر كانت ألمانيا بروتستانتية تقريباً بعد أن انتشرت فيها تعاليم «لوثر» و«كالفن». فاستعد التنظيم اليسوعي بتحالف بين «بافاريا» و«النمسا» لمذبحة جديدة تجتث الدين البروتستانتية. كان حصاد هذه الحرب ومحاكم التفتيش عشرة ملايين من البروتستانت. بالرغم من المجزرة التي حدثت على أيدي هؤلاء اليسوعيين إلا أن النتائج كانت مخيبة لآمالهم. لقد انتهت الحرب بـ«صلح وستفاليا» Peace of Westphalia عام ١٦٤٨م الذي ضمن الحرية الدينية مما وسّع انتشار حركة الإصلاح البروتستانتية. في الوقت ذاته تحررت «جمهورية هولندا» من ريقه إسبانيا الكاثوليكية.^(٢)

توسعت أطماع الكنيسة الكاثوليكية لتصل إلى الحركة البروتستانتية في إنجلترا. وكان هدف الكنيسة أن تستبدل بالملكة البروتستانتية «إليزابيث» الكاثوليكية «ميري ملكة اسكتلندا». لكن هذا لم يتحقق، بل حوكت «ميري ملكة اسكتلندا» بتهمة التآمر مع عملاء البابوية وضربت عنقها عام ١٥٨٧م بأمر من البرلمان الإنجليزي. هنا أمر «فيليب الثاني» بتعبئة الآلاف من الجنود الإسبانين يحملهم أسطول «أرمادا» الشهير الذي مؤلته الكنيسة، وكان ذلك عام ١٥٨٨م. لكن ريحاً عاتية عصفت بهم فأهلكت منهم عشرين ألفاً، وأغرقت السفن ليُلْقَى اليَمُّ حطام بعضها على سواحل إيرلندا واسكتلندا.

(3) Griesinger, Theodor. The Jesuits: A Complete History of their Open and Secret Proceedings (London: W. H. Allen & Co, 1903), 528.

(1) Paassen, Pierre van. Days of our Years (Garden City Pub., 1942), 389.

(2) Wikipedia "Peace of Westphalia" <http://en.wikipedia.org/wiki/Peace_of_Westphalia>.

البابوية، وفرار زعيمها إلى مدينة «غَيْطَة» Gaeta الإيطالية، وترتب على ذلك قيام «الجمهورية الرومية» في التاسع من فبراير من عام ١٨٤٩م بزعامة أرمليني ومازيني وسافي.

لكن الجمهورية الفرنسية (١٨٤٨-١٨٥٢م) برئاسة الكاثوليكي لويس نابليون -وبالتعاون مع النمسا الحليف البابوي- سرعان ما تدخلت لنصرة البابا «فقامت كتيبةً فرنسيةً بمحاصرة روما، واستولت عليها في الثاني من يونيو من عام ١٨٤٩م، وأعدت السلطة البابوية التي ظلت قائمة بفضل الدعم الذي تلقته من فرقة احتلالٍ فرنسية لم تغادر روما إلا بعد النكبات الأولى في أثناء الحرب الفرنكو-ألمانية^(٢) عام ١٨٧٠م»^(٣).

كان هذا التدخل الفرنسي في روما لإنقاذ البابا من المآثر التي حُفظت للويس نابليون من قبل الكرسي البابوي. زد على ذلك مصادقة نابليون عام ١٨٥١م على «قوانين فالو Falloux Laws» التي أعادت الهيمنة الكهنوتية الكاثوليكية على مناهج التعليم والتربية. ولذا لما أعلن نابليون إمبراطورًا عام ١٨٥٢م نادى الأسقف «سان فلور» من على منبره قائلاً: «لقد اصطفى الرب لويس نابليون؛ لقد اختاره سلفاً ليكون إمبراطورًا. نعم إخوتي الأعزاء، لقد كرّسه الرب سلفاً ببركة بابواته وكهنته؛ لقد نادى به ملكاً بنفسه؛ ألا نعترف بمن اصطفاه الرب؟»^(٤)

أما التنظيمات التابعة للكنيسة الكاثوليكية فازدهرت في ظل حكم نابليون الثالث لا سيما التنظيم اليسوعي؛

«ويليام الثالث» أن يحل محله فكان ذلك عام ١٦٨٩م، وصدر قانون يُحرّم على أيّ كاثوليكي الجلوس على عرش إنجلترا ثانية.

في إيرلندا وفي أثناء حرب الثلاثين عامًا عزم الكاثوليك على القضاء على الوجود البروتستانتي، وحُدّد يوم عيد القديس لويولا (٢٣ أكتوبر ١٦٤١م) فحرضوا الإيرلنديين الكاثوليك ضد البروتستانت في مجزرة قال عنها «كونر أو ماهوني» مبتهجًا: «أعزائي الإيرلنديين [الكاثوليك]! ... هاأنتم قتلتم في غضون أربعة أو خمسة أعوام -أي بين عامي ١٦٤١ و ١٦٤٥م حيث أكتب هذه الأسطر- ١٥٠,٠٠٠ من الهراطقة [البروتستانت] كما يقر بذلك أعداؤكم؛ وهو ما لا يمكنني إنكاره»^(١).

هذه بعض الصراعات الطائفية التي حدثت في أوروبا وكان سببها دينيًا صرفًا، ولم تنزل طوائف النصراني تشكّل عاملاً مهمًا جدًا في توجيه الصراعات الدولية كما سنراه جليًا في الحرب العظيمة؛ الحرب العالمية الأولى.

ثانيًا: الصراع الطائفي النصراني والحرب العالمية الأولى:

١- حروب طائفية نصرانية مهّدت للحرب العالمية الأولى:

في عام ١٨٤٨م عصفت بأوروبا موجة من الثورات التي غيرت الخريطة السياسية في عدد من الدول. كان من تلك الثورات «ثورة فبراير» الفرنسية التي أنهت حكم «لويس فيليب» والملكية الدستورية، ومهّدت لقيام الجمهورية الفرنسية الثانية. وكان منها ثورة الروم الإيطاليين ضد البابا بيوس التاسع الزعيم الزمني والروحي لما كان يُعرف بالدولة البابوية (Papal States). نتج عن هذه الثورة سقوط الدولة

(٢) تعرف أيضًا باسم الحرب الفرنكو-بروسية.

(3) Larousse, VII, p.371; as quoted in The Secret History of the Jesuits (California: Chick Publications, no date), p. 78.

(4) Adolphe Michel. Le Jesuites (Paris: Sandoz et Fischbacher, 1879), p. 71; as quoted in The Secret History of the Jesuits, p. 112.

(1) Walsh, Walter. England's Fight with the Papacy (London: James Nisbet & Co., Limited, 1912), p. 339.

الروسي نيقولا الأول⁽³⁾.

تحركت جحافل الروس قاصدة القسطنطينية (إسطنبول) -عاصمة الروم البيزنطيين الأولى قبل انتقالها إلى موسكو- والتقت بجيوش العثمانيين. فلما رجحت كفتهم على كفة العثمانيين تدخلت فرنسا وبريطانيا إلى جانب الدولة العثمانية. هل كان ذلك حباً في نصرة الحق وأهله؟ كلا، ولكن لئلا تتهش دببة الروس جسد الدولة العثمانية فلا تُبقي للكنيسة الرومية الغربية شيئاً؛ لقد كان الخلاف الكاثوليكي الأرثوذكسي من العِظم بحيث تدخلت الدول الصليبية لنصرة المسلمين؛ خوفاً من عودة النفوذ الأرثوذكسي ثانية إلى المنطقة!!

ب- الحرب النمساوية- البروسية والصراع الكاثوليكي- البروتستانت:

كان الوقت قد أزف كي تدفع فرنسا ثمن دعمها للبابا وعودته إلى عرش البابوية. فبينما كانت فرنسا تجوب أركان العالم تدافع عن مصالح ليست لها، كانت بروسيا منشغلة بتوسيع قدراتها العسكرية في سبيل توحيد الدول الألمانية تحت كتلة واحدة يقودها في ذلك «أوتو فون بسمارك» الذي أصبح فيما بعد «المستشار الحديدي». كانت النمسا أول هدف بعد هذا التوسع؛ إذ تلقت ضربة قوية من خصمها الألماني البروتستانت.

كان هذا النصر البروتستانتية ضربة عنيفة للنمسا الكاثوليكية، بل للفايكان التي كانت تعد النمسا معقلها الحصين في قلب الأراضي الألمانية. أما الآن

«فقد كانت جمعية يسوع بمعنى الكلمة سيدها فرنسا لمدة ثمانية عشر عاماً.. لقد اكتسبت ثراء، وضاعفت مؤسساتها ووسعت نفوذها. كان دورها ملموساً في كل الأحداث المهمة في تلك الحقبة»⁽¹⁾.

أ- «حرب القرم» والصراع الكاثوليكي - الأرثوذكسي:

كانت حرب القرم (1853م) أولى الحروب التي خاضها الإمبراطور الفرنسي الجديد نابليون الثالث. كان منشأ هذه الحرب - كما يخبرنا «بول ليون»- طائفيًا صرفاً. يقول «ليون» في كتابه «الحرب من أجل السلام»: «خلاف بين الكهنة

يُحيي مسألة الشرق: تولد [هذا الخلاف] من التنافس بين الكنيستين اللاتينية والأرثوذكسية بشأن حماية البقاع المقدسة (في فلسطين)؛ أيهما يشرف على كنائس بيت لحم، ويملك مفاتيحها، ويدير أعمالها».

ثم يتساءل «ليون»: كيف يمكن لمسائل صغيرة كهذه أن تجر إلى مواجهة بين هاتين الإمبراطوريتين [الشرقية والغربية]؟، ويجب عن تساؤله قائلًا: «وراء الرهبان اللاتين يقف حزب فرنسا الكاثوليكي ذو الامتيازات القديمة ومناصر النظام الجديد؛ ووراء مطالب الأرثوذكس المتزايدة وأعدادهم المتنامية يقف النفوذ الروسي»⁽²⁾.

لقد كانت روسيا تتافع عن أتباعها من النصراني الأرثوذكس، بينما تولت فرنسا الكاثوليكية الدفاع عن حقوق الكاثوليك؛ أما الدولة العثمانية فكانت حينها «رجلاً مريضاً جُدُّ مريض» كما وصفها الإمبراطور

(1) Le Jesuites, p. 72.

(2) Paul Leon. Ed. Fayard, La Guerre pour la Paix (Paris: 1950), pp.321-323. as quoted in The Secret History of the Jesuits, p. 113.

(3) Christopher de Bellaigue. "Turkey's Hidden Past", New York Review of Books, 48:4.

فقد شرعت الدول الألمانية تصطف تحت هيمنة بروسية بروتستانتية. هنا دُقت نواقيس الخطر في أروقة الفاتيكان!

الحرب الفرنكو-بروسية:

أضحت الكنيسة الرومية تفتش عن ذراع لا دينية توقف الزحف البروتستانتي الذي تتزعمه بروسيا (ألمانيا) «المهرطقة»، وأتى للفاتيكان أن تجد نصيراً خيراً من الإمبراطورية الفرنسية، ونابليون الثالث «الرجل الذي أرسلته العناية الإلهية»؛ لكن الجيش الفرنسي لا يبدو قادراً على خوض معركة ضد بروسيا، فأسلحته عتيقة، وبروسيا تدرك تماماً تفوقها في هذا الجانب. على الرغم من هذا العجز الظاهر كانت فرنسا هي من أعلن الحرب عام 1870م!!

«كان الوزراء الجدد كلهم تقريباً من الكاثوليك المخلصين، أو من رجال الكهنوت»⁽¹⁾، هذه التشكيلة لحكومة نابليون الثالث تفسر سر استعجال فرنسا في دخول حرب غير متكافئة، فقد كان المحرك لها أبعد ما يكون عن الوطنية والحدب على الشعب الفرنسي. يقول «جاستون بالي»: «لقد أثبت التاريخ أن حرب 1870م هذه كانت من صنع اليسوعيين»⁽²⁾؛ هي إذن حرب بالوكالة أرادت من خلالها الفاتيكان أن توقف المد البروتستانتي الذي أعقب هزيمة النمسا.

لكن الأمور لم تسر كما خططت لها الحكومة الفرنسية الكاثوليكية، فقد تداعى الصرح البابوي

ولكن على أنقاض فرنسا.

نتج عن هزيمة «نابليون الثالث» أن سحب جنوده من روما بعد أن كانت فرنسا تحمي روما منذ 1849م. فلما انسحبت الجيوش استولى الايطاليون على روما وأسسوا مملكة إيطاليا المستقلة. ولما تحررت روما من ربقة البابوية أصبح «فكتور عمانوئيل الثاني» ملكاً لإيطاليا، وفر البابا «بيوس التاسع» من روما وأعلن نفسه سجيناً في قلعة «سانت أنجلو»، ثم أعلن الحرمان الكنسي لـ«فكتور عمانوئيل الثاني»

بقوله: «... نَحْرَمُه كَنَسِيًّا ونَلْعَنُه، وعن أعتاب كنيسة الرب المقدسة نَعزَلُه ... ملعون فمه وصدره وقلبه وكل ما انطوى عليه جسده. من رأسه إلى أخمص قدميه لا سَلِمَ من داء! ... عليه اللعنة! آمين»⁽³⁾.

أما في فرنسا، فلما حصلت هذه النكبة ولَّى الكهنة إلى جحورهم -كما عبر جاستون بالي- وظلوا يراقبون الجمهورية الفرنسية لتخلص نفسها من حالة الاضطراب السائدة. فلما استعادت فرنسا بعض عافيتها خرج الكهنة من جحورهم.

أخيراً في عام 1901م صدر قانون يقضي بمنع تكوين جمعيات دينية ما لم يصرح لها بذلك. ثم أعقب هذا القانون قانون آخر عام 1904م يلغي التنظيمات الكنسية؛ حينها بدا الخلاف بين الحكومة الفرنسية والكرسي البابوي جلياً ومضطرباً.

في هذه المرحلة الحرجة من العلاقة البابوية الفرنسية هلك البابا «ليو الثالث عشر». يقول «أدريان دانسييت» في سفره الشهير «التاريخ الديني لفرنسا

لقد قلبت البابوية للفرنسيين ظهر المِجَن، عقوبة لهم على تمسكهم بالجمهورية ومبادئ الثورة الفرنسية وسوء أدبهم مع الملهمين من روح القدس. لقد جلس على كرسي البابوية رجل يعتزم التدخل في سياسات الدول باعتبارها واجباً دينياً ويرى ضرورة أن يترك بصمة للبابوية على كل حدث ذي شأن!!

(1) Adrien Dansette. Religious History of Modern France (New York: Herder and Herder, 1961), vol. I, 316.

(2) فيصل الكامي. اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد (مجلة البيان، 1431 هـ)، ص 204.

(3) Lansing, Isaac J. Romanism and the Republic (Boston: Arnold Publishing Company, 1890), pp. 116-118.

الفرنكو-بروسية تجري دون تدخل مباشر من البابا، ولكن بعد أن جلس بيوس العاشر على كرسي البابوية رفض أغلب تعيينات الأساقفة إلا بموافقة من روما. أما مبعوثه البابوي في باريس «لورنزي» فكان كما وصفه دانسيت «لاهوتياً ضل طريق الدبلوماسية، مسعورَ العداة تجاه فرنسا».⁽³⁾

تجلى هذا العداة بين البابوية وفرنسا عام ١٩٠٤م عندما قام رئيس الجمهورية الفرنسية «إميل لوبيه» بزيارة لروما ردًا لزيارة إلى باريس كان قد قام بها ملك إيطاليا فكتور عمانوئيل الثالث. لكن البلاط البابوي رفض مقابلة «لوبيه» معتبرًا زيارته اعترافًا بالمملكة الإيطالية التي اغتصبت روما من البابوية على حد تعبير الكنيسة كما سبق؛ مع أن الحقيقة هي أن البلاط البابوي استقبل قبله إمبراطور ألمانيا وملك إنجلترا بعد زيارتهما ملك إيطاليا دون غضاضة؛ لكن البابا كان يعلم أن الأمر كان أكبر بكثير من مجرد ردّ زيارة ملك إيطاليا للعاصمة الفرنسية.⁽⁴⁾

لقد كان البابا محققًا، ففرنسا كانت ترغب في إخراج إيطاليا من «التحالف الثلاثي» الذي عقد في ١٨٨٢م وكان يضم ألمانيا والنمسا/المجر وإيطاليا. وبالنسبة للفاشيكان فإن فصل إيطاليا عن القوى الجرمانية التي تعد أذرعها اللادينية هو فصل للقلب عن الجوارح. زاد الطين بلة ما كان من تضيق على صلاحيات الأساقفة الكاثوليك في فرنسا. أما الجانب الفرنسي فكان قد ضاق ذرعًا بتجاوزات الجانب الكاثوليكي للاتفاقية البابوية الفرنسية التي وقّعها نابليون الأول عام ١٨٠١م فقام بإلغائها وقطع علاقاته مع الفاتيكان، وانتهى ذلك إلى إصدار قانون فصل الكنائس عن

المعاصرة: «مات ليو الثالث عشر في العشرين من شهر يونيو عام ١٩٠٣م. وبعد عدة اقتراعات منح مَجْمَع الكرادلة ٢٩ صوتًا للكاردينال رامبولا - وكان المطلوب ٤٢ صوتًا لانتخابه- وإذا بالكاردينال النمساوي «بوزينا» يقف ويعلن أن جلالة إمبراطور النمسا الرسولي، ملك المجر، قد ألهم رسميًا استبعاد وزير خارجية [البابا] ليو الثالث عشر. إننا نعلم أن الكاردينال رامبولا موالٍ لفرنسا».⁽¹⁾

هكذا بكل بساطة تدخلت النمسا لإزاحة الكاردينال «رامبولا» وتعيين الكاردينال «سارتو» (الذي أصبح البابا بيوس العاشر) بإلهام من الروح القدس! لقد كان مناورة سياسية لا انتخابًا دينيًا؛ يعلم هذا من خطاب البابا الجديد أمام مجمع الكرادلة الذي قال فيه: «لا نود أن نخفي عنكم أننا سنصدم بعض الناس عندما نعلن أننا سننخرط بالضرورة في السياسة. بيد أن المنصف يرى أنه ليس من حق البابا الملك الذي خلع عليه الرب سلطة عليا أن يفصل السياسة عن ميدان الإيمان والأخلاق».⁽²⁾

لقد قلبت البابوية للفرنسيين ظهر المِجَن؛ عقوبة لهم على تمسكهم بالجمهورية ومبادئ الثورة الفرنسية وسوء أدبهم مع الملهمين من روح القدس. لقد جلس على كرسي البابوية رجل يعتزم التدخل في سياسات الدول باعتبارها واجبًا دينيًا ويرى ضرورة أن يترك بصمة للبابوية على كل حدث ذي شأن!! واختار لمنصب وزير الخارجية أسقفًا إسبانيًا يشاطره الهوى هو المونسنيور «ميري دل فال Merry del Val». كان العامل المشترك الأهم بينهما نزوعهما إلى الألمان وعداؤهما للفرنسيين.

كانت رسامة الأساقفة في فرنسا قبل الحرب

(3) Adrien Dansette. Religious History of Modern France, vol. II, p. 212.

(4) Edmond Paris. The Secret History of the Jesuits, p. 158.

(1) Adrien Dansette. Religious History of Modern France, vol. II, p. 207.

(2) Adrien Dansette. Religious History of Modern France, vol. II, p. 209.

البابوية عام ١٨٧٠م؛ إضافة إلى عقدها «وفاقاً ودياً» (Etente Cordiale) مع بريطانيا عام ١٩٠٤م لتكتسب عمقاً استراتيجياً في مواجهة ألمانيا التي أصبحت نصيراً للبابوية.^(٤)

كانت الكنيسة الأرثوذكسية قد ضربت أطنابها في منطقة البلقان، لا سيما صربيا. وبعد معاهدة بوخارست التي وقّعت عام ١٩١٣م، وانتهت بها حقبة من الصراع في دول البلقان اتسعت رقعة صربيا وأصبحت عمقاً مهماً لأولئك الأرثوذكس الذين كانوا خاضعين للنمسا الكاثوليكية. هنا اتفقت الفاتيكان وآل هابسبورغ في النمسا على أن صربيا هو العدو الذي ينبغي إسقاطه.

يقول جان برّوات: «كانت النمسا/المجر القوة الكاثوليكية العظمى بلا منازع.. لقد وجد فرنسيس جوزيف، الذي اعتلى السلطة في أثناء ثورة ١٨٤٨م، في الفاتيكان صديقاً متفهماً وحليفاً فاعلاً. لقد كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومية مصدراً جلياً للنظام والسياسة والحكومة في ملكية هابسبورغ. وكما يجزم موريس بيرنو (كان ثمة توافق مدهش بين سياسة فيينا وسياسة روما).»^(٥)

ليس هذا التعليل لاستهداف صربيا الأرثوذكسية مبالغة في التحليل العقدي لأحداث الحرب العالمية الأولى، فهو موثّق في الأرشيف النمساوي. فقد جاء في تقرير حول خطابات الأمير شونبيرغ التي ألقاها في الفاتيكان بين أكتوبر ونوفمبر ١٩١٣م ما نصه:

«من بين المواضيع التي نُوقشت أولاً مع الكاردينال وزير الخارجية (ميري دل فال) في الأسبوع الماضي، برزت مسألة صربيا كما كان متوقعاً. في البدء عبّر

الدولة في التاسع من سبتمبر عام ١٩٠٥م.^(١)

لم يسكت البابا بيوس العاشر عن قانون فصل الدين عن الدولة، وأصدر منشورين بابويين عام ١٩٠٦م يدينان هذا القانون.

لم تجد الفاتيكان بُدّاً من ملاطفة المستشار البروتستانتي بسمارك صاحب السياسة المناهضة للبابوية والتي عرفت باسم «النضال الثقافي» Kul-turkampf. ولسنا بصدد الوسيلة التي اتخذتها الفاتيكان لتغيير هذه السياسة المعادية، لكن الحقيقة هي أن العدو انقلب إلى صديق، حتى إن الكاتب الكاثوليكي «جوزيف روفان» علق بقوله: «سيكون بسمارك أول بروتستانتي يُمنح وسام «تنظيم المسيح» المرصع بالجواهر، وهو واحد من أسمى الأوسمة الكنسية. أما الحكومة الألمانية فتسمح للصحف الموالية أن تنشر عن استعداد المستشار الحقيقي لدعم مطامح البابا في استعادة جزئية لسلطته الزمنية.»^(٢) وهناك عامل مهم ذكره «دانسييت» هو أنه بالرغم من أن البروتستانت كانوا أكثرية في ألمانيا، إلا أنه كان بها «أقلية كاثوليكية محكمة التنظيم»^(٣) تجلت في «حزب الوسط» الكاثوليكي الذي دعم «هتلر»؛ وليس هذا مجال بحثنا.

٢- الحرب العالمية الأولى.. حرب طائفية بامتياز:

كانت فرنسا قد قطعت علاقاتها مع البابوية، فحان أن تُؤخذ من قبلها بالقديم والحديث. ففي عام ١٨٩٢م وقّعت فرنسا تحالفاً مع الوصي على الأرثوذكسية وعضو البابوية اللدود: روسيا؛ كما أنها تقاربت مع إيطاليا التي نزعّت عن روما ريقه

(1) <http://en.wikipedia.org> <1905_French_law_on_the_Separation_of_the_Churches_and_the_State>.

(2) Edmond Paris. The Secret History of the Jesuits, p. 161.

(3) Adrien Dansette. Religious History of Modern France, vol. II, p. 327.

(4) Min Lee. Larousse Dictionary of Twentieth Century History (New York: Larousse plc, 1994), 225.

(5) Edmond Paris. The Vatican against Europe (London: The Wickliffe Press, 1961), p. 33.

لدى الفاتيكان بقوله: «من المستحيل أن يأنس المرء روح المجاملة والمصالحة في كلمات قداسته [البابا]. صحيح أنه وَصَفَ تهديد [النمسا] لصربيا بالعنيف، لكنه مع ذلك استحسنه تماماً، وفي الوقت ذاته وبشكل غير مباشر أعرب عن رغبته في أن تتجزأ الملكية [النمساوية] المهمة. وأضاف الكاردينال: من المؤسف حقاً أنه لم يتم إذلال صربيا من قبل، فقد كان بالإمكان صنع ذلك دون المخاطر العظيمة المترتبة عليه، فهذا الإعلان كان صدئاً لرغبات البابا الذي طالما عبّر على مدى الأعوام السابقة عن حسرته على إهمال النمسا-المجر «معاقبة» جارها الخطير الواقع على نهر الدانوب».⁽⁴⁾

كانت النمسا/المجر الدولة الكاثوليكية بلا منازع، وسند الدين الأقوى الذي تَبَقَّى للكنيسة الكاثوليكية. وكان سقوط هذا السند يعني خسارة أقوى دعائمها .. في ظل هذه الحقيقة، ليس من الصعب إيجاد علاقة بين المشاعر الرسولية وروح الحرب.

الكاردينال عن سعادته الغامرة تجاه موقفنا الحازم والمواتي الذي اتخذناه في الأشهر الأخيرة. في أثناء لقائنا ذلك اليوم بقداسته ... أبدى ملاحظات نوعية قائلاً: «كان من الأفضل لو أن النمسا-المجر عاقبت الصرب على كل ما ارتكبوا من أخطاء».⁽¹⁾

يلقى «بيير دومينيك» على الوضع قائلاً: «ماذا كان على آل هابسبورغ أن يصنعوا؟ كان عليهم أن يعاقبوا صربيا، الدولة الأرثوذكسية. لقد كان هذا سيزيد من هيبة النمسا-المجر، وهيبة آل هابسبورغ الذين كانوا -إلى جانب آل بوربون في إسبانيا- آخر أنصارٍ ليسوعيين، كما كان سيزيد على وجه الخصوص هيبة وريثهم وبطلهم «فرنسوا فرديناند». أما

بالنسبة لروما، فقد أصبحت القضية ذات أهمية دينية؛ فانتصار الملكية الرسولية على القيصرية يمكن أن يُعد انتصاراً لروما على الكنيسة الشرقية المنشقة».⁽²⁾

في الثامن والعشرين من يونيو عام 1914م قُتل الأرشودوق النمساوي فرنسوا فرديناند في سراييفو. لم يكن القاتل «جاثريلو برنسيب» ذا علاقة بالحكومة الصربية،⁽³⁾ لكن مقتل الأرشودوق على الأراضي الصربية كان الذريعة المناسبة لأخذ موقف عدائي من صربيا الأرثوذكسية.

وبينما كانت دولة الصرب تتنازل للجانب النمساوي محاولة الحفاظ على السلام أرسلت الحكومة النمساوية تهديداً إلى بلغراد. علق ممثل النمسا

(1) The Secret History of the Jesuits, p. 165.

(2) Pierre Dominique. La Politique des Jesuites (Paris: Grasset, 1955), pp. 245-250.

(3) كان «برنسيب» عضواً في جمعية سرية معارضة تدعى «الوحدة أو الموت» أو «اليد السوداء».

(4) The Secret History of the Jesuits, p. 166.

(5) Pierre Dominique. La Politique des Jesuites, p. 247.

الكاردينال وزير الخارجية لا يرى متى سيكون الوقت مناسباً للنمسا لتشن حرباً إذا لم تقرر شنّها الآن»⁽¹⁾.

لقد كانت الفاتيكان تدرك تماماً حجم المغامرة التي تخوضها، وما قد يترتب عليها من «مخاطر عظيمة»، لكنها مع ذلك بذلت كل ما في وسعها لإضرام نارها؛ إذ إنها فرصة لاستعمال الذراع الألمانية ضد روسيا الأرثوذكسية، وفرنسا التي كانت بحاجة إلى «استنزاف تام»، ولا مانع من تأديب إنجلترا «المهرطقة»؛ كل شيء كان يتجه لصالح الكنيسة الكاثوليكية.

ومع كل هذه الأدلة الدامغة على أن الكنيسة الكاثوليكية هي من

حرّض على قيام الحرب العالمية الأولى إلا أن البعض ينكر على الأقل سعيها في توسيع دائرة الصراع، وأنها لم تكن تريد أن يتجاوز هذا الصراع حدود النمسا وصربيا. لكن «رينيه بازان» الأديب الفرنسي الشهير يخبرنا بحقيقة الأمر فيقول:

«لقد حكم بيوس العاشر الكنيسة من ٤ أغسطس ١٩٠٣م إلى ٢٠ أغسطس ١٩١٤م. في الثاني من يونيو في ذلك العام، بلغ الثمانين من عمره. كانت الحرب قد أزفت.

لقد استشرف هذا الاضطراب في العالم؛ لقد قال أكثر من مرة للكاردينال «ميري دل فال» -الذي كان يأتيه بالرسائل الدبلوماسية وغيرها من أوراق اليوم السابق- بينما كان يوضح خطورة قضية ما: وما عساها أن تكون مقارنة بما سيأتي؟ إن الحرب العظيمة قادمة، ولن ينقضي عام ١٩١٤م

قبل أن تندلع.

أما للوزير البرازيلي الذي كان يغادر مجلسه فقال بيوس العاشر: «أنت محظوظ! لن ترى الحرب العظيمة عن كثب». صُدِّمَ الدبلوماسي من هذه العبارة، وكتب عنها إلى العديد من أصدقائه. وبعد أقل من ثلاثة أشهر، كانت خمس دول قد عبأت جيوشها، وألمانيا تغزو بلجيكا»⁽²⁾.

لكن البابا بيوس العاشر لم يعيش ليرى ثمرة ما سعى فيه. لقد هلك في بداية الصراع في العشرين من أغسطس عام ١٩١٤م.

وقد طوّبه فيما بعد البابا بيوس الثاني، وأبّنه «تاريخ الكنيسة الوجيز»

بقوله: «صنع بيوس العاشر كل ما في وسعه ليمنع اندلاع حرب ١٩١٤م، ومات كمدأ لما استشرف المعاناة التي ستطلقها»؛ فانظر كيف يكتب المنتصر تاريخه!!

هذا قليل مما كُتِبَ حول الحرب العالمية الأولى وعن دوافعها الطائفية. لقد كان الهدف منها القضاء على القوة الأرثوذكسية في البلقان، ونشر الكاثوليكية، لكن الأمر لم يتم كما حُطِّطَ له. لكن الحرب العالمية الأولى حققت للفاتيكان نصراً على الكنيسة الأرثوذكسية كما يرى «آفرو منهاتن»، فقد فتحت لها آفاقاً في التعامل الدبلوماسي الذي سعت من خلاله دائبة لإسقاط الدولتين العثمانية الإسلامية والقيصرية الروسية الأرثوذكسية.

مثل هذه الدوافع الدينية الطائفية كانت أيضاً وقوداً للحرب العالمية الثانية التي هي امتداد لما شُرع فيه في الحرب العالمية الأولى، لكن تفاصيل ذلك خارجة عن نطاق هذا البحث.

لقد كانت الفاتيكان تدرك تماماً حجم المغامرة التي تخوضها وما قد يترتب عليها من «مخاطر عظيمة»، لكنها مع ذلك بذلت كل ما في وسعها لإضرام نارها؛ إذ إنها فرصة لاستعمال الذراع الألمانية ضد روسيا الأرثوذكسية، وفرنسا التي كانت بحاجة إلى «استنزاف تام»، ولا مانع من تأديب إنجلترا «المهرطقة». كل شيء كان يتجه لصالح الكنيسة الكاثوليكية.

(2) The Vatican against Europe, p. 46.

(1) The Vatican against Europe, p. 14.

الأهم من هذا تنازل العرش البريطاني صراحةً عن شرط «الأنجليكانية» لمن يجلس عليه بعد قرار ملكي أيدته دول الكومنولث بإجراء تعديلات على «قانون الاستخلاف»؛ وقد تم هذا بشكل مراوغ لا يتنبه له إلا من تابع هذا الشأن^(٣).

فنصّ التعديل -بحجة حرية التدين- على منح الملك أو الملكة حرية الزواج من كاثوليكي أو كاثوليكية بعد أن كان ذلك محظوراً. أي: أن الملكة التي تتبع الكنيسة الأنجليكانية يمكنها الزواج من كاثوليكي؛ وهذا يعني -إذا ما تجاوزنا «اللف والدوران» في صيغة القرار الملكي لقانون الاستخلاف الجديد- أن ملك أو ملكة بريطانيا يمكن أن يكون من الكاثوليك وهو بلا شك انتصار كبير للكاتوليكية الرومية على «الثورة الإنجليزية المجيدة» عام ١٦٨٨م التي طرد بها الإنجليز البروتستانت الملك الكاثوليكي «جيمس الثاني»، ونصّبوا الهولندي البروتستانت «ويليام الثالث» مكانه، وصدر حينها قانونٌ يُحرّم على أي كاثوليكي الجلوس على العرش الإنجليزي.

هذا التوحيد بين الكنيستين الكاثوليكيتين والأنجليكانية (الإنجليزية) إن تمّ سيشكل دعمًا قويًا للكنيسة الرومية لا سيما وأن بريطانيا دولة استعمارية توسعية كما هو معلوم. ومثل هذا الاتفاق محتمل جدًا؛ لأن العقيدة الأنجليكانية كما أسلفت لم تتخلص تمامًا من الإرث الكاثوليكي.

هذا فيما يتعلق بالكنيسة الإنجليزية، أما الكنيسة الأرثوذكسية فإن مساعي التقريب معها من قبل الكنيسة الرومية قد اتخذت صبغة رسمية منذ قيام المجمع الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٢م.

وإبان بابوية يوحنا بولس الثاني كثفت جهود التلاقي بين الطرفين وعبر البابا الكاثوليكي وبطربرك

ثالثًا: مستقبل الصراع الطائفي النصراني وكيفية استثماره:

مستقبل الصراع الطائفي النصراني:

برغم التاريخ الدامي للصراع الطائفي النصراني إلا أن ثمة سعيًا حثيثًا من قبل الجانب الكاثوليكي على الأقل لرأب الصدع في محاولة لاستيعاب طوائف النصراني الأخرى داخل البيت الكاثوليكي الذي يعد نفسه الكنيسة الأم. كما أن ثمة دعوات من قيادات بعض الكنائس للدخول تحت مظلة الكنيسة الرومية الكاثوليكية.

ففي مقال نُشر في ١٩ فبراير ٢٠٠٧م بعنوان «الكنائس تدعم خطة للتوحيد تحت البابا»^(١) أفصحت «التايمز» عن عزم الكنيسة الإنجليزية (الأنجليكانية) على العودة تحت كنف البابوية، بعد كل الدماء التي سفكتها الكنيسة الرومية عبر خمسة قرون تقريبًا في سبيل جعلها مملكة كاثوليكية.

وكان الكثير يستبعد مثل هذه التحول التاريخي، لكن الواقع أثبت خلاف ذلك. ففي خبر بعنوان «البابا يؤسس بناء للأنجليكان الذين يتحدثون بروما» نشرته وكالة الأنباء الكاثوليكية CNS في ٢٢ من أكتوبر الماضي ٢٠٠٩م، قام البابا بتأسيس نظام لاهوتي خاص يمكنه استيعاب القساوسة الأنجليكان الذين أبدوا رغبتهم في العودة إلى الكنيسة الكاثوليكية.

هذا التحالف أعلن عنه الكاردينال الأمريكي «ويليام ليفادا» في مؤتمر صحفي عقد في الفاتيكان في العشرين من أكتوبر ٢٠٠٩م، وعبر عن سعادته بقوله: «لقد كان الهدف الرئيس دائمًا أن نحقق وحدة تامة وواظرة»^(٢).

(1) <http://www.timesonline.co.uk/tol/comment/faith/article1403702.ece>

(2) <http://www.catholicnews.com/data/stories/cns/0904673.htm>

(3) <http://www.bbc.co.uk/news/mobile/uk-15492607>

إقامة هيئات ومؤسسات تعنى بدراسة التاريخ الديني الأوروبي

سبل الإفادة
من الصراع
النصراني:

النظر إلى زعماء القرب باعتبارهم أصحاب عقيدة

الاستفادة من التراث النصراني

إعداد موقع على شبكة الإنترنت مخصص
لرصد الحراك الديني في السياسات الغربية

تتبع الخلافات الطائفية في هذا التاريخ
وإبرازها

رصد حالات التمييز الطائفي في بعض السياسات الغربية وإبرازها إعلامياً
باعتبارها تجاوزات لها خلفياتها الدينية

روسيا مع الكنيسة الكاثوليكية في روما هو ممكن
الخطر: إذ به قد تعود الإمبراطورية الرومية قوة كبيرة
بعد أن مزقتها قبائل القوط والوندال الأوروبية.

القسطنطينية المسكوني الأرثوذكسي برثولوميو الأول
عن «الرغبة في نسيان ما مضى من الحرمانات
الكنسية، والسعي في إعادة بناء مشاركة تامة»⁽¹⁾.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث
المستورد القرشي: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»⁽²⁾.
فليس ببعيد أن تتحد هاتان الأمتان الروميتان.

كما أن البابا يوحنا بولس الثاني والبابا بندكت
السادس عشر شاركا البطريركين ديميتريوس
وبرثولوميو طقوس قراءة «العقيدة النيقاوية» بالأصل
اليوناني باستثناء فقرة «البنوّة» filioque.

أما الكنيسة البروتستانتية فقد أضاعت كيانها
المستقل بعد أن شارك كثير من رموزها في حوارات
الأديان، وغابت عند كثير منهم روح العداء للكنيسة
الرومية التي اضطهدتها حقبة من الزمن.

وهناك هيئة خاصة انبثقت عن المجمع الفاتيكاني
الثاني تعرف بالهيئة الدولية المشتركة للحوار اللاهوتي
بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية».

خاتمة:

وقد كان أول اجتماعاتها عام ١٩٨٠م. وهناك
عشرات الجهود التي تحاول التقريب بين وجهات
النظر؛ من أبرزها الزيارة الأخيرة التي قام بها البابا
الأرثوذكسي القبطي تواضروس للفاتيكان بدعوة من
البابا فرنسيس الأول في مايو ٢٠١٣م بعد أربعين
عاماً من الجفاء.

في الختام: أود أن أجيب عن سؤال ملح هو: كيف
يمكن استثمار هذه الصراعات الطائفية بين النصراني
لصالح المسلمين؟

والجواب عن ذلك يتطلب إدراك أمرين مهمين هما:

أ- لا تزال الصراعات الطائفية التي فتكت
بأوروبا النصرانية منذ القديم تؤثر في حاضرها
وتشكل سياساتها، وهو ما يجله أو يغفل عنه

كل هذه المؤشرات تدل على أن هناك جهوداً حثيثة
لجمع ما تفرّق من طوائف النصراني. ولكن يبقى
احتمال تحالف الكنيسة الرومية الأرثوذكسية في

(٢) صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراف الساعة، حديث رقم: ٢٨٩٨.

(1) <http://www.ewtn.com/library/PAPALDOC/BARTH-DEC.HTM>

كثير من المسلمين.

وان من أهم السبل للإفادة من الصراع النصراني ما يلي:

١- إقامة هيئات ومؤسسات تُعنى بدراسة التاريخ

الديني الأوروبي، وتأثيره في سياسات الدول، ثم تقريب ذلك للجيل المسلم الناشئ.

٢- تتبع الخلافات الطائفية في هذا التاريخ، وإبرازها بحيث تصبح ملمحاً حاضراً في كتابات العلماء والمفكرين.

٣- رصد حالات التمييز الطائفي

في بعض السياسات الغربية، وإبرازها إعلامياً؛ باعتبارها تجاوزات لها خلفياتها الدينية، وليست مجرد نزعات سياسية. مثال ذلك حظر الحجاب في فرنسا على المسلمات والسماح به للراهبات الكاثوليكيات.

٤- النظر إلى زعماء الغرب باعتبارهم أصحاب عقيدة، والتخلص من التعميمات الخاطئة التي تروج أنهم مجرد نفعيين، أو أنهم علمانيون لا دينيون ونحو ذلك؛ وهو مما غيَّب البعد العقدي في دراسة هؤلاء.

٥- الاستفادة من التراث النصراني -لا سيما المعاصر- الذي يتناول ردود بعض النصارى على بعض.

٦- إعداد موقع على شبكة الإنترنت مخصص لرصد الحراك الديني في السياسات الغربية بحيث يكون مرجعاً علمياً لطلاب العلم والعلماء والمفكرين.

أسأل الله أن يجمع شمل أهل الإسلام، وأن يوحد كلمتهم، وأن ينصرهم على عدوهم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

أذكر على سبيل المثال لا الحصر الحالة الفرنسية.

ففرنسا دولة ضاربة في الكتلثة كما سبق بيانه، وإن لبس زعماؤها لبوس العلمانية.

من مظاهر هذه الكتلثة أن زعماءها المتأخرين فرنسوا ميتران، وجاك شيراك، ونيقولا سركوزي، وآخرهم فرنسوا أولاند كلهم من أتباع الكنيسة الرومية الكاثوليكية. بل إنهم

يُمنحون لقباً تشريفياً كنيسياً هو «الكاهن الفخري لكاتدرائية القديس يوحنا لاتيран»؛ وهي الكنيسة الأولى من بين كنائس روما. فهل يُعقل أن يمنح هذا اللقب التشريفي لمن يحمل أفكاراً علمانية معادية للفكر الكنسي؟⁽¹⁾

ب- لا يزال المسلمون متأخرين جداً في دراسة طوائف النصارى بمختلف أطيافهم، ومعرفة تأثير هذه الطوائف على الحياة الاجتماعية والسياسية في بلاد الغرب، ومن ثم دراسة الخلفيات العقدية التي شكَّلت الفكر الديني للدول الأوروبية ومدى قرب هذه الدول أو بُعدها من ذلك الإرث.

إذا عُلِم هذا أدركنا أن استثمار الصراعات الطائفية بين النصارى لصالح المسلمين ليس بالأمر اليسير، وأنه بحاجة إلى جهود كبيرة متواصلة تدعمها مؤسسات وهيئات وعلماء ومفكرون.

(1) <http://www.zenit.org/en/articles/sarkozy-to-visit-benedict-xvi>

معلومات إضافية

صور من الحروب الدينية النصرانية المريرة في أوروبا:

١- حرب الثلاثين عامًا (١٦١٨ - ١٦٤٨م):

هي من أكبر الحروب الدينية النصرانية المريرة في أوروبا. وقد كان هذا الصراع في الواقع سلسلة من الحروب، بدأت كحرب أهلية بين البروتستانت والرومان الكاثوليك في الولايات الألمانية. ولكن قبل انتهاء الصراع، كانت معظم الدول الأوروبية قد تورطت فيه، وأصبحت الحرب نزاعًا عامًا من أجل الأرض والسلطة السياسية.

أسباب الحرب:

كان السبب الأساس للحرب يتمثل في العداء المتأصل بين الألمان البروتستانت والألمان الكاثوليك، فالمجموعتان اختلفتا في تفسيرهما لسلام أوجسبرج (١٥٥٥م) الذي كان الغرض منه تسوية المسألة الدينية في ألمانيا. وقد خرقت المجموعتان الصلح. بالإضافة إلى ذلك، فقد اعترف سلام أوجسبرج بالكاثوليكين واللوثريين فقط، وكان هناك الكثير من الكالفنيين في جنوب ألمانيا الذين طالبوا أيضًا بالاعتراف بهم.

الفترة البوهيمية:

خلال الفترة البوهيمية (١٦١٨ - ١٦٢٠م) أقام البروتستانت، في عام ١٦٠٨م الاتحاد الإنجليزي، وفي عام ١٦٠٩م أسس الكاثوليك العصبة المقدسة.

وقد انطلقت الشرارة التي أشعلت الحرب عندما أمر رئيس أساقفة براغ بتحطيم كنيسة بروتستانتية. ولجأ الناس وهم غاضبون إلى الإمبراطور ماتياس الذي تجاهل احتجاجهم. فانتفض البروتستانت ثأرين. وتُعرف تلك الحادثة التي حددت البداية الفعلية لحرب الثلاثين عامًا في التاريخ بالقذف من النافذة في براغ. وكانت هي عادة قديمة لدى الناس في بوهيميا لمعاقة الموظفين المذنبين بقذفهم من النافذة. وقد عاقب البروتستانت الثائرون اثنين من وزراء حكومتهم بهذه الطريقة.

وقد بدأت الحرب الأهلية في بوهيميا وانتشرت في جميع أنحاء غربي أوروبا.

خلع البروتستانت في بوهيميا الملك الكاثوليكي، فيرديناند من العرش، واختاروا فريدريك البروتستانت، حاكم ولاية البلاتين بدلاً عنه. لجعل الأمور أكثر سوءًا بالنسبة للبوهيميين، اختير فرديناند إمبراطورًا رومانيًا مقدسًا. وقد كان لفرديناند، الذي اتخذ لقب فرديناند الثاني، نفوذ كبير في هذا الموقع. وفي عام ١٦٢٠م هزم لواءه، يوهان تسييركلایس، كونت تيلي، البوهيميين هزيمة نكراء في معركة الجبل الأبيض.

وقد كلفت هذه الهزيمة البوهيميين استقلالهم. فأخمدت ثورة البروتستانت، وأصبحت الكاثوليكية الديانة الرسمية للدولة مرة أخرى.

الفترة الدنماركية (١٦٢٥ - ١٦٢٩م):

بعد هزيمة بوهيميا بدأت الأقطار البروتستانتية تدرك خطر الكاثوليك. اعترض ملك الدنمارك البروتستانتية، كريستيان الرابع قوات فريدريك في سكسونيا، وذلك بمساعدة عدة دول أخرى. ولكن الإمبراطور كان قد تلقى مساعدة غير متوقعة من اللواء ألبرخت، فنزل أويزيبيوس فالنشتين الشهير الذي كان يملك جيشاً عظيماً من الجنود والمغامرين المرتزقة.

وهزم جيش فالنشتين، تساعده قوات الحلف المقدس بقيادة الجنرال تيلي، الملك الدنماركي عدة مرات. وفي النهاية وقّع كريستيان الرابع معاهدة لوبيك (١٦٢٩م)، وانسحب من سكسونيا. وفي تلك الأثناء كان الإمبراطور قد أصدر مرسوماً بإعادة الأملاك؛ وقد نصت هذه الوثيقة على أن تُعاد كل ممتلكات الكنيسة التي استولى عليها البروتستانت إلى الكاثوليك. وبذلك أضاف المرسوم مصدراً جديداً للخلاف في ألمانيا.

الفترة السويدية (١٦٣٠ - ١٦٣٥م):

بعد ذلك دخل الملك السويدي جستافس أدولفس الذي كان يعرف بأسد الشمال الحرب. وقد كان لديه سببان لدخول الصراع. فقد كان مخلصاً للغاية للقضية البروتستانتية، وكانت لديه طموحات لأجل السويد، وهي طموحات ستكون في خطر إذا أصبح فرديناند أقوى مما ينبغي. وهكذا لأول مرة تُقحم مسألة سياسية في الحرب.

وفي عام ١٦٣٠م، أبحر جستافس أدولفس من السويد بـ ١٣,٠٠٠ رجل ليحرر مدينة ماغديبورغ التي كان يحاصرها تيلي. وقد كان جيش ملك السويد من أفضل الجيوش تدريباً وانضباطاً في أوروبا، ولكنه وصل متأخراً جداً، ولم يتمكن من احتلال ماغديبورغ ونهبها وتدميرها. وفي عام ١٦٣١م هزم الجيش السويدي تيلي في معركة بريتنفلد وفي عام ١٦٣٢م انتصرت القوات السويدية في معركة مهمة أخرى وقُتل تيلي أثناء القتال. في ظل هذه الظروف، استدعى الإمبراطور فرديناند: فالنشتين الذي كان قد أبعدته قبل ذلك. ثم حشد جيشاً آخر من المجندين الجدد من عدة جهات من أوروبا، ووُضعوا تحت قيادة فالنشتين، وعقد فرديناند تحالفاً أيضاً مع فيليب الرابع ملك إسبانيا.

التقى جيش فالنشتين بالقوات السويدية في معركة لوتزن الشهيرة (١٦٣٢م)، وانتصر السويديون، ولكن جستافس أدولفس قُتل في المعركة. استمر السويديون في القتال حتى عام ١٦٣٤م، حيث دُمّر جيشهم في معركة نوردلينغن. شك الإمبراطور في أن فالنشتين كان يتفاوض مع البروتستانت وأمر باعتقاله. حاول فالنشتين أن يهرب، إلا أنه اغتيل.

الفترة السويدية الفرنسية (١٦٣٥ - ١٦٤٨م):

في هذه المرحلة، قرر الكاردينال ريشيليو -الذي كان هو الحاكم الفعلي لفرنسا- أن يعوق تزايد نفوذ الهابسبيرج بالتدخل إلى جانب البروتستانت. فأصبحت الحرب صراعاً بين البوريون الفرنسيين والهاسبيرج النمساويين، وفي عام ١٦٣٥م أرسل ريشيليو جيشاً فرنسياً إلى ألمانيا، فانضم إليه جيش سويدي جديد.

وقد كان للبروتستانت وحلفائهم الفرنسيين قادة ممتازون، منهم الفيكونت دوتورين الفرنسي، ولويس الثاني، أمير كوندا.

وقد حقق الجيشان الفرنسي والسويدي سلسلة طويلة من الانتصارات، أعطت البروتستانت الذين يعيشون في ألمانيا أملاً جديداً.

نتائج الحرب:

كانت ألمانيا في حالة يرثى لها عندما انتهت الحرب أخيراً. فقد قُتل الكثير من الألمان. ولم ير أولئك الذين بقوا على قيد الحياة سوى الخراب في كل مكان؛ فقد اختفت مدن وقرى ومزارع كاملة، ودُمّرت معظم الممتلكات. وتدهورت الفنون والعلوم والتجارة والصناعة، مما تطلب من ألمانيا نحو مائتي عام لتستعيد نشاطها من آثار حرب الثلاثين عاماً. فغادر آلاف الناس أوروبا، وبخاصة ألمانيا، وذهبوا إلى أمريكا ليبنوا حياة جديدة.

٢- الحرب الأهلية الإنجليزية:

هي حرب نشبت بين قوات الملك تشارلز الأول والقوات الخاصة بالبرلمان الإنجليزي، ووقعت الحرب على مرحلتين. امتدت الأولى من عام ١٦٤٢م حتى عام ١٦٤٦م، والثانية من أبريل إلى نوفمبر عام ١٦٤٨م. وأدت إلى إعدام الملك تشارلز الأول عام ١٦٤٩م، وإلى هزيمة ونفي ابنه، الذي سُمّي فيما بعد الملك تشارلز الثاني، عام ١٦٥١م.

أسباب الحرب الأهلية:

قبل الحرب الأهلية كان الملك يدير الحكومة القومية بمساعدة الوزراء، بينما كان دور البرلمان في شئون الدولة أقل مما هو عليه الآن. حكم جيمس الأول (أول ملك من عائلة ستيوارت) في الفترة ما بين عام ١٦٠٣م إلى ١٦٢٥م. وقصد أن يكون حاكماً مطلقاً، لكن البرلمان لم يشاركه الرأي. وجاء ابنه تشارلز الأول بثلاثة برلمانات بين عامي ١٦٢٥م و ١٦٢٨م، وكان له مع كل منها مشكلة. ثم حلّ البرلمان الثالث عام ١٦٢٩م، وحكم دون وجود برلمان حتى عام ١٦٤٠م.

الأسباب الدينية:

كانت هناك جماعة متطرفة داخل النصارى البروتستانت الإنجليز، عرفت بالبيوريتان (التطهيريين)؛ ظلت لسنوات عديدة تعمل للتخلص من الأساقفة، وتطالب بمراجعة كتاب الصلاة. وقد قاومهم جيمس الأول بينما شن الملك تشارلز الحرب عليهم متضامناً مع مجموعة من رجال الكنيسة بقيادة وليم لود.

وفي عام ١٦٢٣م عُين الملك تشارلز لود رئيساً لأساقفة كانتربري. واتهم البيوريتان تشارلز ولود معاً بميلهما إلى الكاثوليكية الرومانية. وكانت هنريتا ماريا زوجة تشارلز شخصية غير مرغوبة؛ لأنها كانت كاثوليكية، ولأنها كانت أخت لويس الثالث عشر ملك فرنسا. وكان لود غير محبوب أيضاً لأنه شجّع تشارلز على التمسك بإيمانه بالحق المقدس للملوك (فكرة تزعم أن ولاية الملوك من عند الله سبحانه، وأنهم إنما يحكمون باسمه).

نتائج الحرب:

بدأت إعادة الملكية وكأنها إرجاع لعقارب الساعة إلى ١٦٤١م. فقد استعاد البرلمان السيادة للكنيسة الإنجليزية وفرض توحيداً مذهبياً دينياً كاملاً عن طريق التشريع. وصار تشارلز الثاني المسيطر على الجيش وهو الذي يعين الوزراء دون أيّ استشارة للبرلمان. وتم تعزيز الحق المقدس للملوك.

وعلى الرغم من إعادة الملكية، فإن البرلمان - وليس الملك - كان هو المسيطر على الكنيسة؛ وقد أجاز شرعية الخروج على الكنيسة عام ١٦٨٩م.

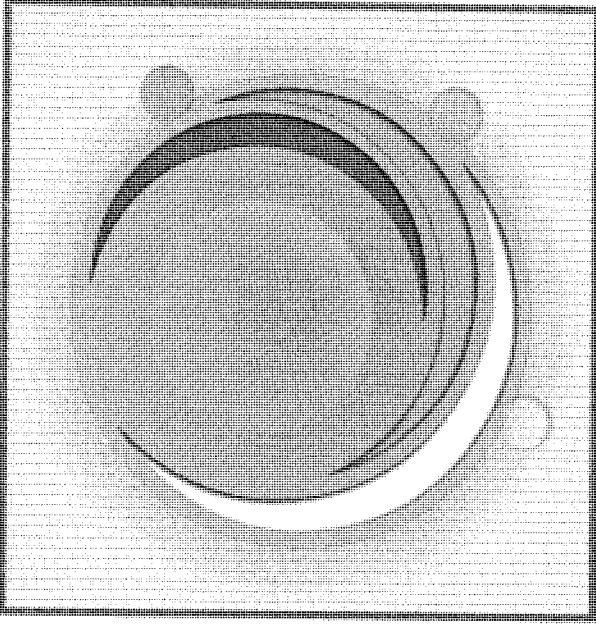
واحتفظ البرلمان أيضاً بحقه في السيطرة على الضرائب، الذي كان قد حصل عليه من قبل في عام ١٦٤١م. وقد اضمحلت سلطة التاج وهيبته إلى درجة أن البرلمان في عام ١٦٨٨م استطاع أن يُنحّي ملكاً، وهو جيمس الثاني، وأن يستبدل به ملكاً آخر، هو جيمس الثالث.

وتم الحد من سلطة التاج إلى حد أبعد بصدور قانون التسوية في عام ١٧٠١م القاضي بحرمان أيّ كاثوليكي من رقي العرش، وبذا مهّد لسلالة الهانوفرية سبيل المجيء لتحكم بريطانيا. كما أنه ساعد في نشأة الدستور الحالي.

المصدر:

www.intaaj.net

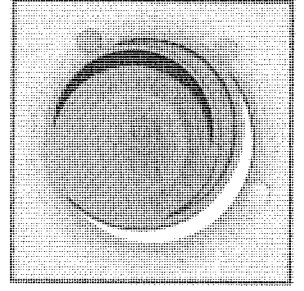
الموسوعة العربية العالمية:



رابعاً: التحولات في مجال العمل الإسلامي

- أ.علي عبد العال
محمود طرشوبي
- هشام عليوان
- الحركات الإسلامية والحفاظ على هوية الأمة
- الحركة الإسلامية في القارة الهندية .. نشأتها وتطورها

الحركات الإسلامية والحفاظ على هوية الأمة



علي عبد العال - محمود طرشوبي

باحثان في الحركات الإسلامية

ملخص الدراسة

ارتبط بروز خطاب الهوية في الفكر الإسلامي بالتهديدات الخارجية والداخلية.. كالغزو الاستعماري، وتبعاته الثقافية والأخلاقية والاجتماعية؛ حيث إن الاستعمار الغربي لم يقف عند السيطرة على الأرض ونهب الثروات، بل إنه سعى إلى طمس الهوية الدينية والثقافية والحضارية واللغوية للشعوب الإسلامية، كما عمل على إزاحة أو إضعاف المؤسسات الإسلامية التقليدية، وإحلال مؤسسات حديثة خادمة له محلها، فضلاً عن تغيير المنظومة القانونية، ومحاولة تفكيك المنظومة الاجتماعية ومظاهرها المختلفة.

بسقوط الدولة العثمانية سقطت آخر دولة خلافة موحدة للمسلمين في العالم، ولم يتبق للأمة منذ ذلك التاريخ دولة حقيقية تمثلهم، ولم يعودوا يحيون في جماعة إسلامية يقودها خليفة مباح شرعاً على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

من هنا ظهرت جماعات الصحوة الإسلامية كردة فعل على المؤامرة التي انتهت بسقوط الدولة الموحدة للمسلمين.

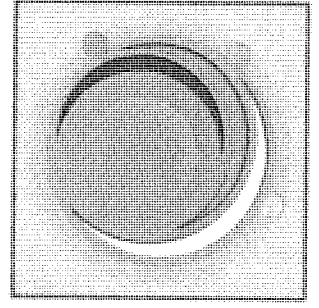
قامت جماعات الصحوة الإسلامية بحركة نشطة لتأكيد هوية الأمة في نفوس أبنائها، فعملت على إعادة طبع كتب التراث، وحرصت على تذكير المسلمين بأهمية العودة إلى كتاب الله تلاوةً وحفظاً وتدبراً وعملاً، وأنشأت مدارس وكتاتيب، وأنتجت مواد ثقافية مختلفة، واستنهضت النشء المسلم لقراءة التاريخ، وتلمس خطى السلف الصالح؛ بعدما رغبوا في طلب العلم الشرعي، والتفقه في الدين والاجتهاد في مسألة الالتزام بأدابه.

كان أحد أهم أولويات الحركة الإسلامية الناشئة حديثاً إيجاد الحلول للأسباب التي أدت إلى تخلف المسلمين في حين يتقدم غيرهم.

لا يكاد يُذكر صراع في التاريخ الحديث أطول ولا أكثر تعقيداً من صراع الحركة الإسلامية مع خصومها، سواء مع أنظمة الحكم الديكتاتورية، أو القوى التغريبية العلمانية، أو الأجنبي صاحب المطامع، سواء كانت مطامع استعمارية، أو نهباً للثروات، أو بحثاً عن نفوذ داخلي.

وهو صراع دار على صُعد واتجاهات عدة (ثقافية، سياسية، عسكرية)، كما هو حاصل بين الإسلاميين وخصومهم الفكريين؛ حيث دارت معارك في ميادين الفكر والأدب والثقافة، لكنها لم تكن إلا تمويهاً لمواجهات سياسية تتعلق بمصير الأمة، وبهويتها الحضارية، وانتمائها السياسي الحضاري. وهو صراع قديم متجدد.

الحركات الإسلامية والحفاظ على هوية الأمة



علي عبد العال - محمود طرشوبي

باحثان في الحركات الإسلامية

مقدمة:

يمكن القول: إن الحرب العالمية الأولى كانت محورية في حياة العالمين العربي والإسلامي؛ نظرًا للتأثيرات المباشرة عليهما والتي جاءت في أعقابها.. فقد احتلت الأراضي العربية كاملة تقريبًا، وجرى تقسيمها وفق اتفاقية سايكس - بيكو، كما صدر إعلان الانتداب على فلسطين، ثم تلاه وعد «بلفور». ثم كانت الطامة الكبرى بسقوط الخلافة العثمانية (دولة الإسلام)؛ حيث بدأ الغرب وعملاؤه سلسلة من المؤامرات بهدف طمس معالم وهوية الأمة الإسلامية، وإخراج المسلمين عن كل ما يمت لدينهم بصلة.

ومن هنا كانت الشرارة التي تحرك على أثرها مخلصون من أبناء هذه الأمة، فقامت حركات وجماعات وجمعيات جعلت من عودة المسلمين لدينهم، واستعادة هويتهم الأصيلة هدفًا أصيلاً ل عملها وشاغلها الأوحد.

فقد قامت هذه الحركات مقام الدولة الغائبة (دولة الخلافة) في محاولات جادة لإعادة الدور واستعادة الهوية، وانتشال ما تبقى في أيدي المسلمين من تراثهم.. فرأينا مطابع ودور نشر تقوم بإمكانيات محدودة بهدف إعادة طبع كتب التراث ك «المطبوعة السلفية» التي أنشأها الشيخ محب الدين الخطيب، رحمه الله. كما رأينا نشرات ومجلات ومطويات وصحفًا. وفي المجال التعليمي أنشئت مدارس ودور لتحفيظ القرآن، وقامت معاهد شرعية أساسها علوم الإسلام، وفي مراحل متقدمة رأينا تسجيلات ومطويات ومؤسسات خيرية وإغاثية.

يصعب القول: إن هذه الجهود نجحت - حتى الآن- أو وصلت إلى ما كانت تصبو إليه.. لكنها حركت راکدًا، وأشعلت شرارة كان لها دور قوي في أن يظل الدين حيًا في قلوب وعقول وسلوكيات كتلة لا يمكن الاستهانة بها من جسد الأمة الإسلامية.

مصطلح الهوية.. حدود المفهوم:

تستعمل كلمة (هوية) في الأدبيات المعاصرة لأداء معنى كلمة Identity التي تعبر عن خاصية المطابقة: مطابقة الشيء لنفسه، أو مطابقته لمثله، وفي المعاجم الحديثة فإنها لا تخرج عن هذا المضمون، فالهوية هي: حقيقة الشيء أو الشخص المطلقة، المشتمة على صفاته الجوهرية، والتي تميزه عن غيره، وتسمى أيضًا وحدة الذات.

ولذلك فإذا اعتمدنا المفهوم اللغوي لكلمة هوية، أو استندنا إلى المفهوم الفلسفي الحديث؛ فإن المعنى العام للكلمة لا يتغير، وهو يشمل الامتياز عن الغير، والمطابقة للنفس، أي خصوصية الذات، وما يميز الفرد أو المجتمع عن الأعيان من خصائص ومميزات ومن قيم ومقومات.

تلامذتها بأنهم لا يصلون ولا يصومون ويتحدثون فيما بينهم باللغة الفرنسية، بل إنهم -في رأيه- لا يكادون يؤمنون بالله وبالיום الآخر!!

وجاء الاحتلال الأجنبي لمعظم الديار الإسلامية ليعمق الشعور بالتخلف، ولينسب كل ذلك ظلمًا للإسلام.

يقول الشيخ محمود شاكر -رحمه الله-: جاء نابليون إلى مصر، وأراد أن يأخذ عددًا من الأشراف وشيوخ القبائل ورؤساء الناس ليعيشوا في فرنسا فترة من الزمن، فيتشبعوا بالحضارة الفرنسية، حتى إذا عادوا إلى بلادهم كانوا أعوانًا لفرنسا. ولما لم يتم ذلك تفتقت عبقرية مستشاري محمد علي باشا عن فكرة إرسال عدد من أبناء مصر النابهين للدراسة في فرنسا، وهناك يعيشون بين ظهرائي الفرنسيين فيتأثرون بهم. وقد وردت في المراسلات الخاصة بالمتبعين المغاربة أن المشرف على البعثة لما أكمل الطلاب مدة ابتعاثهم طلب أن يبقوا في فرنسا بعض الوقت ليتشبعوا بالحياة الفرنسية والحضارة الفرنسية.

في صراع الدفاع عن الهوية، يمكن القول: إن الحركة الإسلامية نشأت لتسد ثغرة كبيرة في جدار الأمة ظهرت بعد غياب الدولة الإسلامية (دولة الخلافة) في محاولات جادة لإعادتها وهويتها الأصيلة.

لذلك كان النضال ضد الاستعمار ليس عسكريًا فقط، بل من أجل افتكاك الهوية من عمليات الطمس والتشويه والتغيير والإزاحة.

قامت جماعات الصحوة الإسلامية بحركة نشطة لتأكيد هوية الأمة في نفوس أبنائها، فعملت على إعادة طبع كتب التراث، وحرصت على تذكير المسلمين بأهمية العودة إلى كتاب الله تلاوةً وحفظًا وتدبرًا وعملاً، وأنشأت مدارس وكتاتيب، وأنتجت مواد ثقافية مختلفة، واستنهضت النشء المسلم لقراءة التاريخ، وتلمس خطى السلف الصالح؛ بعدما رغبوا في طلب العلم الشرعي، والتفقه في الدين والاجتهاد

وخلاصة الأقوال: إن الهوية الثقافية والحضارية لأمة من الأمم، هي القدر الثابت، والجوهري والمشارك من السمات والقسمات العامة، التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، والتي تجعل للشخصية طابعًا تتميز به عن الشخصيات الأخرى.^(١)

وفي صراع الدفاع عن الهوية، يمكن القول: إن الحركة الإسلامية نشأت لتسد ثغرة كبيرة في جدار الأمة ظهرت بعد غياب الدولة الإسلامية (دولة الخلافة) في محاولات جادة لإعادة دور الأمة، واستعادة نهضتها وهويتها الأصيلة.

فكان لها دور كبير في الإبقاء على هذا الهم مشتعلًا في النفوس، وقامت بأدوار الدعوة والتوجيه في الوقت الذي تقاعست فيه مؤسسات تاريخية مثل الأزهر والزيتونة، وغيرهم.

لقد ارتبط بروز خطاب الهوية في الفكر الإسلامي بالتهديدات الخارجية والداخلية.. كالغزو الاستعماري، وتبعاته الثقافية والأخلاقية والاجتماعية؛ حيث إن الاستعمار الغربي لم يقف عند

السيطرة على الأرض ونهب الثروات، بل إنه سعى إلى طمس الهوية الدينية والثقافية والحضارية واللغوية للشعوب الإسلامية، كما عمل على إزاحة أو إضعاف المؤسسات الإسلامية التقليدية، وإحلال مؤسسات حديثة خادمة له محلها، فضلاً عن تغيير المنظومة القانونية، ومحاولة تفكيك المنظومة الاجتماعية ومظاهرها المختلفة.

ففي الجزائر - مثلاً - أنشأت فرنسا عددًا من المدارس سُميت زورًا بـ(المدارس العربية)، وصف الشيخ محمد السعيد الزاهري - أحد علماء الجزائر-

(١) أزمة الهوية الإسلامية: خالد الروشة، موقع المسلم، ١٨-١٢-١٤٢٩هـ

٢- اتفاقية سايكس بيكو:

كانت عبارة عن تفاهم سرّي بين فرنسا وبريطانيا بمصادقة من الإمبراطورية الروسية على اقتسام الهلال الخصيب، ولتحديد مناطق النفوذ في غرب آسيا بعد تهاولي الإمبراطورية العثمانية. وقد تم الكشف عن الاتفاق بوصول الشيوعيين إلى سدة الحكم في روسيا عام ١٩١٧م، مما أثار الشعوب التي تمسّها الاتفاقية.^(٢)

٣- احتلال العالم الإسلامي:

بانتهاج الحرب العالمية الأولى، أصبح العالم العربي كله، تقريباً، باستثناء المملكة العربية السعودية، تحت الاحتلال الأجنبي. طبعاً كان جزء كبير من العالم العربي محتلاً فعلاً، قبل تلك الحرب، كما في: الجزائر، وتونس، والمغرب، وموريتانيا، وليبيا، ومصر، والسودان، واليمن.

٤- ظهور فكرة الوطنية في البلاد العربية:

يرى الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله، في كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» أن أول ما وردت لفظة «الوطن» إنما جاءت من خلال الأزهرى المتفرنس رفاعة الطهطاوي الذي أشرب حب فرنسا والحضارة الفرنسية حينما أقام فيها من ١٨٢٦م إلى ١٨٢٢م، فلما عاد إلى مصر، عاد يصدح بالحضارة الفرنسية وجمالها، وصار يدندن حول الوطنية.^(٣)

(والوطنية يعرضها أصحابها رابطة تجمع الناس في وطن معين. أما ما هو هذا الوطن؟ فواقع الذين يدعون إلى الوطنية أنهم يعدون الوطن هو ذلك الكيان السياسي الذي تقوم فوقه دولة ذات حدود مرسومة على الخريطة بغض النظر عن رسم تلك الحدود؛ فيتكلمون عن الوطنية السورية، والوطنية العراقية،

(٢) انظر موسوعة ويكبيديا على الشبكة العنكبوتية تحت نفس العنوان.

(٣) الإسلام والحضارة الغربية: محمد محمد حسين، دار الشعب (الفصل الأول، ص ١٥).

في مسألة الالتزام بأدابه. فرأينا انتشاراً غير مسبوق للحجاب بين الفتيات والنساء، جنباً إلى جنب مع اللحية والسمت الإسلامي لدى الشباب والرجال.

وفي ذلك رأى الدكتور عبد الوهاب المسيري في الحجاب إنما هو تعبير عن التمسك بالهوية، وهو كذلك تعبير عن مقاومة الاستعمار الأجنبي. وتمثل المظاهر العقائدية عصب الهوية الإسلامية، فهي التي تقف سداً منيعاً بين الأمة وبين المذاهب المقتحمة، أو العقائد الوافدة والمظاهر الفاسدة.

الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م):

وقعت الحرب العالمية الأولى، وكانت لها آثار كبيرة على العالم الإسلامي، وأدت لوقوع أحداث مهمة في تلك الفترة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- الثورة العربية الكبرى (١٩١٦م):^(١)

بدأت الثورة العربية الكبرى في ١٠ يونيو ١٩١٦م بإعلان الشريف حسين الثورة على العثمانيين بمساعدة ضابط الاستخبارات البريطانية الشهير بلورنس العرب.

وتمكن أبناؤه من السيطرة على الحجاز بمساعدة الإنجليز، ثم تقدم ابنه فيصل نحو الشام حتى وصل إلى دمشق؛ حيث أخرج العثمانيين منها، وأعلن فيها قيام الحكومة العربية الموالية لوالده الذي أعلن نفسه ملكاً على العرب، غير أن الحلفاء لم يعترفوا به إلا ملكاً على الحجاز وشرق الأردن.

وعلى الرغم من تعهدات بريطانيا بقيام دولة عربية كبرى، فقد أجرت هذه الدولة مفاوضات واتفاقيات سرية مع فرنسا وروسيا تناولت اقتسام الأملاك العثمانية بما فيها البلاد العربية، ثم انفردت بها بريطانيا وفرنسا فيما بعد.

(١) موسوعة المعرفة على الشبكة العنكبوتية تحت باب (الحرب العالمية الأولى).

من هنا ظهرت جماعات الصحوة الإسلامية كردة فعل على المؤامرة التي انتهت بسقوط الدولة الموحدة للمسلمين.

وعلى الرغم من مظاهر الحداثة لدى بعض الحركات والتيارات الإسلامية المعاصرة، إلا أنها تنتسب بصلة كبيرة إلى الحركة السلفية أو الإحيائية في القرن التاسع عشر؛ حيث رأى العلماء أن الحل يكمن في الرجوع إلى الأصول الصافية للإسلام كما هي في الكتاب والسنة.

كان أحد أهم أولويات الحركة الإسلامية الناشئة حديثاً إيجاد الحلول للأسباب التي أدت إلى تخلف المسلمين في حين يتقدم غيرهم.

ولذلك رأى باحثون أن الحركة الإسلامية في بدايتها استلهمت التاريخ الإحيائي والتجديد الإصلاحي، لكنها اقتسبت أيضاً بعض أساليب الأحزاب الوطنية والشيوعية والقومية، وبالذات التنظيمية منها.

يقول المستشار طارق البشري: (لقد أرسى الأفغاني فكرة الإسلام المجاهد، وأضاف محمد عبده فكرة التجديد في الفقه والتفسير، وأضاف محمد رشيد رضا الربط بين التجديد والسلفية مع السياسات الوطنية، وأضاف حسن البنا شمولية الإسلام والترابط الوثيق بين العقيدة والشريعة، بين الفكر والتنظيم الحركي).^(٢)

لذلك تجد الحركة الإسلامية تضم في داخلها كل ذلك التنوع والاختلاف.

ولا تخلو الكتابات عن الظاهرة الإسلامية من تصنيفات كبيرة تتضمن عناصر عديدة متباينة مثل الانبعاث أو الإحياء الديني أو الإصلاح. فهذه كلها روافد ساهمت في تكوين الظاهرة الإسلامية الحالية،

والوطنية المصرية.. وهكذا).^(١)

كان الهدف من هذه الفكرة تكريس الكيانات التي أقامها المستعمر الأجنبي في البلاد الإسلامية بعد أن قسمها إلى دويلات هزيلة.

وقد تجلت هذه الفكرة بشكل خطير في الشعارات التي تراها في كل زاوية: «الأردن أولاً»، «مصر للمصريين»، «القضية الفلسطينية شأن فلسطيني»، و«الوطن السوري».. وهكذا كرّست الوطنية تفتيت الأمة الإسلامية، وجعلت أهل كل بلد غير معنيين بما يجري في البلد المسلم المجاور لهم، لأنها ليست «وطنه»!

كما أنها كرّست تفتيت الأمة إلى دويلات، ثم إن الوطنية كرّست الاعتراف بالاستقلال، أي: استقلال البلاد الإسلامية بعضها عن بعض وتجزئتها.

٥- سقوط دولة الخلافة الإسلامية:

في السابع والعشرين من شهر رجب لسنة ١٣٤٢هـ، الموافق للثالث من مارس لسنة ١٩٢٤م، وقعت أكبر جريمة في حق المسلمين؛ حيث تمكنت الدول الأوروبية بقيادة بريطانيا وبواسطة «مصطفى كمال أتاتورك» من إلغاء الخلافة الإسلامية التي كانت تقودها الدولة العثمانية، ولم تخرج الجيوش البريطانية المحتلة لمضيق البوسفور واستانبول العاصمة إلا بعد أن اطمأنت من إسقاط دولة الخلافة، وإقامة الجمهورية العلمانية على أنقاضها، وإخراج الخليفة من البلاد.

بسقوط الدولة العثمانية سقطت آخر دولة خلافة موحدة للمسلمين في العالم، ولم يتبق للأمة منذ ذلك التاريخ دولة حقيقية تمثلهم، ولم يعودوا يحيون في جماعة إسلامية يقودها خليفة مباح شرعاً على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

(٢) الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر، في عهد عبدالناصر (محرر)، الحركة رؤية مستقبلية: أوراق في النقد الذاتي (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٩م)، ص ١٦٨.

(١) الثوابت الوطنية ليست من الإسلام في شيء، هشام البابا (مجلة الوعي- ع ٣١٢ - ص ٢٧، صفر ١٤٣٤هـ- كانون الثاني ٢٠١٢).

صدر قانون ينظّم تأسيس وإدارة الجمعيات.

وهي من أكبر الجمعيات التي تقوم بالعمل الخيري في مصر والعالم الإسلامي، ولها مجلة دورية إسلامية باسم «التبيان».

عملت الجمعية جاهدة على ترسيخ مفهوم الدعوة إلى الله ليس بالقول فحسب، ولكن بالعمل أيضًا، وأن الأمة لن تقوم لها قائمة إلا بعمل دعوى لإقامة فروض الكفاية، وقضاء حاجات أهل الحاجة.

اتخذت الدعوة في الجمعية أربعة مسارات:

أ- المسار الأول: الدعوة القولية: مثل الدروس والخطب والندوات، ومعاهد إعداد الدعاة، ويقوم بها هيئة علماء الجمعية التي تتكون من ٤٠٠ عالم من هيئة تدريس جامعة الأزهر، بالإضافة إلى ٢٠٠٠ واعظ، و٢٠٠ واعظة على مستوى الجمهورية.

ب- المسار الثاني: الدعوة العملية: وهي العمل الصالح الذي ينقسم بدوره إلى قسمين:

- المشروعات الاجتماعية: مثل كفالة اليتيم وتحفيظ القرآن الكريم.. وهي تعمل في هذا الباب من أجل تخليص الأمة من الفقر والجهل.

- المشروعات الطبية: وذلك من خلال إقامة مراكز طبية عملاقة تهدف إلى علاج الأمراض المستعصية مجاناً لغير القادرين، دونما تقيد بالنطاق الجغرافي، وهي بذلك تعمق وترسخ المفهوم الصحيح لإقامة فروض الكفاية.

ج - المسار الثالث: الدعوة من خلال الإغاثة الخارجية والداخلية:

وتعتبر الإغاثة الخارجية ترجمة عملية لقول الله: (إنما المؤمنون إخوة)، وترسيخاً لمفهوم الأمة الواحدة

التي كثيراً ما تحاول تجذير نفسها في تاريخ البعث والإصلاح الإسلاميين، باعتبار أن فكرة التجديد أو الإصلاح المستمرة في الدين الإسلامي تكاد تكون قانوناً تاريخياً أو على الأقل قاعدة دورية تتكرر في فترات من عمّر الأمة.

وللحديث عن ظاهرة الحركات الإسلامية كان لا بد من التأكيد على أن ظهورها في العالم الإسلامي لم يكن عفويًا، بل كان لأحداث كثيرة سبقتها ساعدت على الوصول بالحركة الإسلامية إلى ما نشاهده اليوم من بروز وتواجد في كل بلد إسلامي أو حتى غير إسلامي مثل أوروبا وأمريكا.

استعراض لبعض الحركات الإسلامية ونبذة مختصرة عن ظهورها في عدد من الدول:

أبرزت الحرب العالمية الأولى مجموعة من الأحداث الجوهرية في تاريخ المنطقة العربية كان تأثيرها الأكبر على الشعوب المسلمة، تصل بنا في النهاية إلى حقيقة ثابتة وهي وجود أزمة أو تحديات عاشتها الأمة الإسلامية في هذه الفترة التاريخية، مما كان له التأثير القوي في نشأة أشهر جماعات الصحوة في بلدان العالمين العربي والإسلامي.

أ- مصر:

ومن أوائل الجماعات نشأة:

أ- الجمعية الشرعية لتعاون العاملين بالكتاب والسنة:

وهي جمعية دعوية إصلاحية، أسسها العالم الأزهرى الشيخ محمود خطاب السبكي، وهي أول جمعية إسلامية منظمة في البلاد. وكانت بدايات التأسيس ونشاط «الجمعية الشرعية» في نهايات القرن الـ ١٩ الميلادي، لكنها لم تسجل قانوناً إلا بعد ذلك بنحو عشرين عامًا (أي: في ١٩١٣م) عندما

والاعتقاد والاتباع، وفي مناهج السلوك والسير إلى الله، دعت إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع والخرافات، وإحياء دعوة الإسلام بالقرآن والسنة واتباع سلف الأمة.

انطلقت دعوة أنصار السنة المحمدية من مسجد الهدارة بالقاهرة عام ١٩٢٦م، من خلال مؤسسها العالم الأزهرى الشيخ محمد حامد الفقى.

ومن جملة أهداف الجماعة وما تدعو إليه:

- الدعوة إلى التوحيد الخالص من جميع الشوائب، وإلى حب الله حباً صحيحاً صادقاً يتمثل في طاعته وتقواه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً صادقاً يتمثل في الاقتداء به واتخاذ أسوة حسنة.

- الدعوة إلى ربط الدنيا بالدين بأوثق رباط: عقيدة وعملاً وخلقاً.

- الدعوة إلى إقامة المجتمع المسلم، والحكم بما أنزل الله في جميع شئون الحياة.

بعد أن استوى عود الجماعة وبلغ أشده، أسس الشيخ محمد حامد الفقى مجلة «الهدى النبوي» لتكون

لسان حال الجماعة، والمعبرة عن عقيدتها ودعوتها، والناطقة بمبادئها. وتولى هو رئاسة تحريرها، وشارك في تحريرها مجموعة من العلماء المعروفين أمثال المحدث الشيخ أحمد شاكر، والأستاذ محب الدين الخطيب، والشيخ محيي الدين عبد الحميد، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر، وغيرهم.

- مع تطور أعمال الجماعة الدعوية أنشأ الشيخ الفقى «مطبعة السنة المحمدية» لنشر كتب السلف، وبوجه خاص كتب ابن تيمية وابن القيم، فجمعت محبته لهما بينه وبين شىخي الأزهر الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبد المجيد سليم، اللذين أيدا دعوة الشيخ الفقى.

(كمثل الجسد الواحد). وتقدم الجمعية من خلال لجنة الإغاثة العون المناسب للمسلمين المضارين جراء أي كارثة في أي بقعة في العالم، وقد اكتسب نشاطها الإغاثي قوة وحيوية بعد حصولها على عضوية المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة.

وتقوم لجنة إدارة الأزمات بتقديم الإغاثة العاجلة داخل حدود الوطن كمسار مواز للإغاثة الخارجية.

ويجمع المسار الثاني والثالث كونهما دعوة إلى الله من خلال العمل، وبذلك تتكامل أساليب الدعوة في الجمعية من خلال القول والعمل والقُدوة الحسنة.

د- المسار الرابع: التنمية: الهدف من هذا المسار هو تحويل الأيدي العاطلة إلى طاقات منتجة، وتحويل

الأسرة المسلمة الفقيرة التي تتلقى

المساعدات إلى أسر ذات دخل يفيها عن السؤال، وهذا المسار باب من أبواب معالجة مشكلة البطالة المستعصية في المجتمع.

أنشأت الجمعية أيضاً خلال العام الهجري ١٤٢٨هـ إدارة للوافدين لرعاية الطلبة الوافدين من البلاد الإسلامية الدارسين في

الأزهر رعاية مادية وعلمية ومعنوية لمساعدتهم على أداء أدوارهم الدعوية في بلادهم، ويجمع هذا العمل بين الدعوة والعمل الاجتماعي الخيري، فمن حيث إن الطالب الوافد سيكون عالماً شرعياً عند عودته إلى بلاده فهذه دعوة، ومن حيث الرعاية المادية والمعنوية التي تُقدم له طوال فترة الدراسة، فهذا مشروع اجتماعي خيري.^(١)

٢- جماعة أنصار السنة المحمدية:

وهي جماعة سنية سلفية إصلاحية على منهج وعقيدة أهل السنة والجماعة في التلقي والاستدلال،

(١) الموقع الرسمي للجمعية الشرعية على الشبكة العنكبوتية.

النَّيل منه بمساعدة بعض أبنائه الذين باعوا أنفسهم بدعوى الانفتاح ومواكبة التطورات.

لم تقم الجماعة معتبرة نفسها جماعة المسلمين التي تحتكر الإسلام وتعاليمه، لكنها اعتبرت نفسها جماعة من المسلمين تعمل لإعادة هذا الدين وفق تعاليمه الصحيحة والوسطية، وتمد يدها لكل من يعمل لهذا الدين ولنصرته حتى لو اختلفت بينهم الوسائل ما دامت الغاية والهدف واحداً، وما دامت الوسائل وفق كتاب الله وسنة نبيه، ولهذا نسجت الجماعة علاقات قوية بشعوب العالم والهيئات الدينية.

تأسست الحركة في مارس ١٩٢٨م كهيئة أقرب للتطبيقات الخيرية والأهلية، ومرت بمراحل وتطورات كما واجهت تحديات كبيرة مع الدولة وسلطات الحكم. مع السنوات الأولى لنشأتها أسست الجماعة أكثر من مائة شعبة في أنحاء القطر المصري، وصار لها نشاط اقتصادي ومطابع خاصة كما أصدرت عددًا من الصحف والمجلات مثل جريدة «الإخوان المسلمون» و«النذير».

تفاعلت مع الحكم سريعاً فاغتال النظام الملكي مؤسسها الشيخ حسن البنا، ثم شاركت الحركة بعد ذلك في حركة الجيش ضد النظام الملكي ٢٣ يوليو ١٩٥٢م، لكن اختلفت قياداتها مع نهج جمال عبد الناصر عام ١٩٥٤، ١٩٥٦م فزجَّ بكوادرها وقياداتها في السجون وأعدم أعداداً منهم كان من بينهم المفكر الإسلامي الشهير سيد قطب.

خرج قيادات الجماعة في عهد محمد أنور السادات، ثم كان ما عُرف بإعادة التأسيس، ومشروع عمر التلمساني المرشد الثالث بالدخول إلى النقابات والمؤسسات، ونوادي أعضاء هيئات التدريس في الجامعات.

واستمر الشد والجذب بين الجماعة والحكم، فعادهم حسني مبارك أشد العدا، وزجَّ بالآلاف منهم

شارك الشيخ حامد الفقي المجاهدين جهادهم ضد الاحتلال البريطاني لمصر إبان الحرب العالمية الثانية، كما ساهم في طباعة المنشورات ضد الاحتلال البريطاني لمصر.

اشتد الصراع بين الجماعة وبين أصحاب دعوات التغريب والعلمنة، فعلا صوت الشيخ في الإنكار عليهم وعلى واضعي القوانين الوضعية. حيث يقول: «من اتخذ من كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء، والفروج، والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو بلا شك كافر مرتد، إذا أصر عليها، ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها»، حيث كان من أهم صفاته تسمية الأشياء بأسمائها بدون مدهانة في القول أو مجاملة في الحق، إذ كان يسمي المجاملة في الحق نفاقاً ومدهانة، وكان يسمي السكوت عن قول الحق جبناً وذلك، مما زاد في اضطهاده وتعرضه للنقل من وظيفته أكثر من مرة^(١).

٣- جماعة الإخوان المسلمون:

أولاً في مصر: كان من الطبيعي أن تكون مصر هي مهد أول حركة إسلامية سياسية في القرن العشرين، جماعة الإخوان المسلمين (١٩٢٨م)، وظهورها بشكل كبير في معظم بلدان العالم الإسلامي. فالمجتمع المصري كان الأكثر تعرضاً لتأثيرات التحديث، والتحول الاجتماعي والاقتصادي، والثقافة الغربية مقارنة بمجتمعات إسلامية أخرى، مما هيأ ظروفًا ناضجة لظهور جماعة دينية سياسية تخاطب الجماهير وتستنهضهم في ظل تحديات جسام.

فقد نشأت الجماعة في ظل ظروف غُيبت فيها تعاليم الإسلام الصحيح، وحاولت قوى الغرب والشرق

(١) جماعة أنصار السنة المحمدية.. نشأتها- أهدافها- رجالها، فتحي أمين عثمان.

- في تلك الأيام كان البريطانيون يمسكون بزمام السلطة حينما أطلق المودودي فتواه الجريئة بتحريم العمل في خدمة قوات الاحتلال؛ مما عرض الجماعة الإسلامية للهجوم من قِبَل القوى الاستعمارية منذ أول ظهورها.

- في ٢٨ أغسطس ١٩٤٧م ظهرت الباكستان بشطريها دولة مستقلة عن الهند الوثنية، وتبع ذلك ظهور قيادة جديدة للجماعة في الهند مستقلة بذاتها لتسهيل النواحي الإدارية لا أكثر، ووقفت الجماعة حينها على قدم وساق؛ تقيم المعسكرات لإيواء المسلمين المهاجرين، وتقدم لهم العون ريثما تستقر بهم الأحوال.

- اعتُقل المودودي في حياته عدة مرات بسبب جرأته ووقوفه ضد معارضي تطبيق الشريعة الإسلامية في الباكستان.

- ساعدت الجماعة الإسلامية المجاهدين الكشميريين في جهادهم ضد الهند، وقدمت لهم المؤن والمراكز الطبية والمخيمات.

- عقيدة الجماعة هي عقيدة أهل السنة والجماعة من حيث الدعوة، ولا يخرج فكرها في مجمله عن هذه العقيدة، من الدعوة إلى التمسك بكتاب الله وسُنّة نبيه، والعمل الحثيث من أجل تطبيق الشريعة الإسلامية في واقع الحياة البشرية.

وكان رأي المودودي الدائم: أن الإسلام ليس نظاماً فلسفياً محضاً للحياة، بل هو نظام كامل تام للحياة، وما لم نر نموذجاً له ممثلاً أمامنا فلن نتمكن أبداً من تقديم أية خدمة للإسلام عن طريق الكلام والحديث.

أما أهداف الجماعة فتتلخص في:

- الإسلام نظام شامل للبشرية كافة وللمسلمين خاصة.

- الدعوة لكل من أظهر الإسلام أن يخلصوا دينهم لله، ويزكوا أنفسهم لتتخلص من التناقض والنفاق.

في المعتقلات إلى أن قامت ثورة الـ٢٥ من يناير لتصل الجماعة إلى الحكم عبر صناديق الانتخاب، وتحصل على أغلبية البرلمان، ويكون منها رئيس للدولة للمرة الأولى في تاريخها، ثم ينقلب عليها الجيش في أكبر صراع دموي عرفه الإسلاميون في مصر.^(١)

ثانياً في الهند: بالتزامن مع قيام «الإخوان المسلمين» في مصر ظهرت «الجماعة الإسلامية» في شبه القارة الهندية.. أسسها أبو الأعلى المودودي في ٢٦ أغسطس ١٩٤١م، وهي جماعة سُنّية تتبنى المنهج السلمي، وتنتهج نهجاً قريباً من الإخوان المسلمين، كرّست جهودها في شبه القارة الهندية في سبيل إقرار الشريعة الإسلامية وتطبيقها في حياة الناس، والوقوف بحزم ضد جميع أشكال الاتجاهات العلمانية التي تحاول السيطرة على المنطقة.

فقد كانت باكستان محتلة من قِبَل الإمبراطورية البريطانية حتى استقلت عنها في ١٤ أغسطس من عام ١٩٤٧م الموافق ٢٧ من رمضان ١٣٦٦هـ، على يد السيد محمد علي جناح الذي عمل منذ البداية على تطبيق تعاليم الإسلام في بلده.

- في عام ١٩٣٧ - ١٩٣٨م قدم إلى لاهور العلامة أبو الأعلى المودودي تلبيةً لدعوة محمد إقبال ١٨٧٣ - ١٩٣٨م، وأسس في باثانكوت داراً للإسلام يربي فيها الرجال، ويؤلف الكتب، لكن إقبالاً ما لبث أن انتقل إلى ربه بعد أشهر قليلة من وصول المودودي.

- عن طريق مجلة ترجمان القرآن وجّه المودودي دعوة لعلماء المسلمين وقادتهم لحضور المؤتمر الذي عُقد فعلاً في ٢٦ أغسطس ١٩٤١م / ١٣٦٠هـ - بلاهور بحضور ٧٥ شخصاً يمثلون مختلف بلاد الهند، وتأسست في هذا المؤتمر الجماعة الإسلامية، وانتُخب المودودي أميراً لها.

(١) دليل الحركات الإسلامية (مصدر سابق) ص ٦٦.

بلد إسلامي منه، ولقد سوّد الإسلاميون صفحات من تاريخ هذه الأمة بدمائهم، ولا تكاد تخلو سجون مصر وتونس، والجزائر وسوريا، وليبيا والسودان، والعراق، وغيرهم من مجازر وقعت بحق كوادر الحركة الإسلامية (ومن في الأمة لا يذكر الصدام التاريخي بين عبد الناصر والإخوان، وسوريا - أحداث حماة عام ١٩٨٢م، وتونس أحداث باب سويقة عام ١٩٩٠م)، وحرقت سجن أبي سليم في ليبيا، وغير ذلك الكثير والكثير.

من أهم روافد الحركة الإسلامية:

أسباب وظروف نشأة الحركة الإسلامية:

اختلف الباحثون حول أسباب ظهور الحركة الإسلامية في العصر الحديث، وقد اعتبرها كثيرون ظاهرة جديدة صاحبت انتقال العالم الإسلامي إلى العصر الحديث، وأرجعوها إلى ما اعتبروه حالة اغتراب تعرّض لها الكثير من شباب المسلمين بسبب تسارع عجلة التحولات الاجتماعية والثقافية، تلك التحولات اعتبرها البعض صدامًا مع عقيدة الإسلام التي هي جزء من الثقافة العربية.

كما اعتبر باحثون آخرون أن ظهور الحركة الإسلامية صاحب هزيمة العرب أمام إسرائيل في ٥ يونيو ١٩٦٧م كرد فعل لفشل القومية العربية في مواجهة إسرائيل وكبديل لهذه القومية.

وهناك فريق ثالث رأى أن ظهور الحركة الإسلامية هو رد فعل لسقوط نظام الخلافة الإسلامية، والذي تمثل في إلغاء كمال أتاتورك للخلافة العثمانية، وإقامة جمهورية علمانية على أنقاضها في تركيا.^(١)

(١) دليل الحركات الإسلامية في مصر: عبد المنعم منيب، مكتبة مدبولي: ص ٣.

ولقد ركّز المودودي جهاده ضد أربع جهات:

- ضد النظرية القومية الواحدة داخل الهند، وهي دعوة رفعها حزب المؤتمر الذي يدعو إلى قومية مشتركة بين الهنّادكة والمسلمين، وقد أُلّف في هذا الصدد كتابيه: المسلمون والصراع الحالي، ومسألة القومية.

- ضد سيطرة وتحكم الحضارة الغربية.

- ضد القيادات التي تحمل أفكارًا تتعارض والفكر الإسلامي.

- ضد الأفكار التي يراها تحمل طابع الجمود الديني.

جوانب من الصراع الذي خاضته الحركة

الإسلامية ضد خصومها:

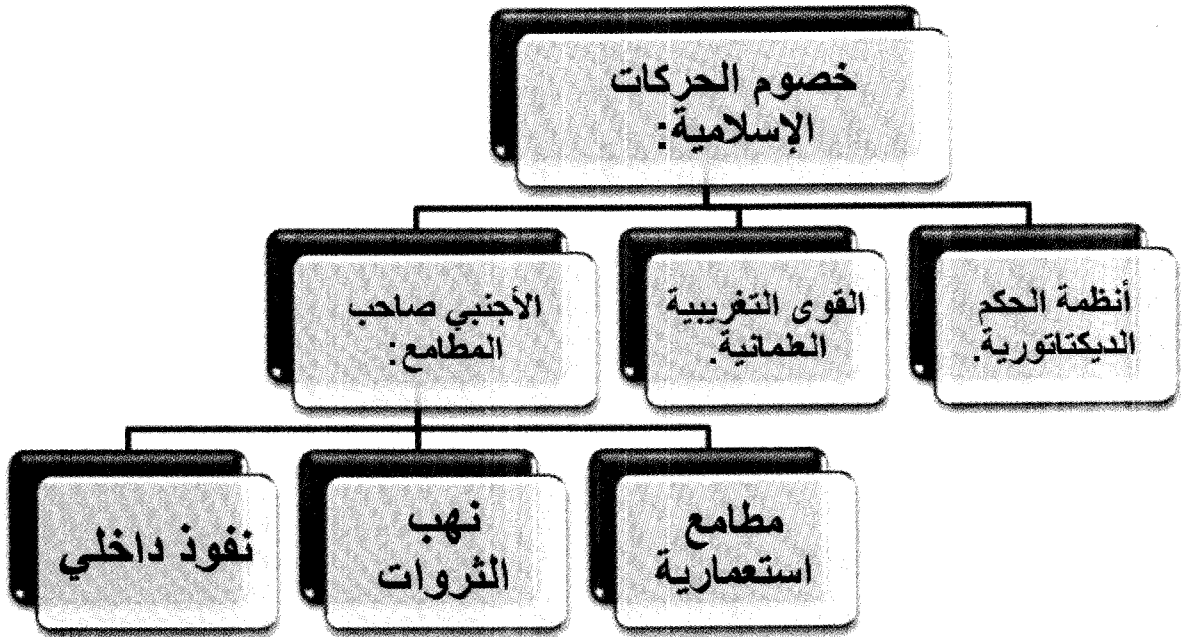
لا يكاد يُذكر صراع في التاريخ الحديث أطول ولا أكثر تعقيدًا من صراع الحركة الإسلامية مع

خصومها، سواء مع أنظمة الحكم الديكتاتورية، أو القوى التغريبية العلمانية، أو الأجنبي صاحب المطامع، سواء كانت مطامع استعمارية، أو نهبًا للثروات، أو بحثًا عن نفوذ داخلي.

وهو صراع دار على صُعد واتجاهات عدة (ثقافية، سياسية، عسكرية)، كما هو حاصل بين

الإسلاميين وخصومهم الفكريين؛ حيث دارت معارك في ميادين الفكر والأدب والثقافة، لكنها لم تكن إلا تمويهًا لمواجهات سياسية تتعلق بمصير الأمة، وبهويتها الحضارية، وانتمائهما السياسي الحضاري. وهو صراع قديم متجدد.

مجال آخر من مجالات الصراع يتمثل في صراع الإسلاميين مع الأنظمة الحاكمة في بلدانهم، وهو الصراع الدامي في تاريخ العالم الإسلامي، ولن تخلو



الإسلامي لتجزئته والسيطرة عليه. في الوقت نفسه شجع الاستعمار الغربي على تكوين الدولة القطرية الحديثة، ودعمها، وشجع التيارات القومية والعلمانية المتأثرة بالنموذج الأوروبي، والتي تسعى إلى فصل الدين عن شؤون المجتمع وتغيير هوية الشعوب الإسلامية، وردًا على هذه التحديات أخذ المفكرون الإسلاميون ينادون بالعودة إلى التمسك بالإسلام ومبادئه الأصيلة، ومواجهة تطورات العصر بروح إسلامية جديدة.

فالإسلام هو الهوية الأساسية، والانتماء الحقيقي والرمز ومحور حياة المجتمع، من خلاله يتفاعل أفراد المجتمع، وحينما يضعف التمسك بالدين والالتزام به في نفوس الأفراد يظل هو الهوية المفقودة التي نبحت عنها.

ولذلك نشأت دعوات وجمعيات إسلامية شكّلت بمجملها تيارًا إسلاميًا جاء ليؤكد على شمولية الإسلام وتفاعله مع احتياجات الفرد والمجتمع وفي شؤون الحياة كافة.

وفي إطار الحديث عن سبب نشأة الحركة الإسلامية، هناك نقطتان جديرتان بالتوضيح:

الأولى: لم يقتصر وجود الحركات الإسلامية على بقعة من العالم الإسلامي دون أخرى.

الثانية: لم تتأثر الحركات الإسلامية بعامل واحد معين ظهرت بسببه، فهي لم تتأثر بظروف المجتمعات وما تعيشه من خصوصية. وهناك من فسّر نشوء الحركات الإسلامية منطلقًا من أسباب اقتصادية، وآخرون من أسباب اجتماعية، وآخرون ردّوها لمسائل نفسية.^(١)

ولكن الثابت أنه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أقدمت الدولة التركية التي شكّلت على أنقاض الدولة العثمانية على إلغاء الخلافة الإسلامية، واتخذت إجراءات بالغة الحدة لتصفية كل أثر للإسلام كنظام للحياة.

رافق ذلك تصاعد الهجمة الاستعمارية على العالم

(١) دراسات حول الحركات الإسلامية في المجتمع العربي (دراسة) غازي العتباتي، منشورة على موقع سويسر للصحافة والنشر، صحيفة الصفقتان.

توصيات الدراسة:

هذه بعض متطلبات المرحلة القادمة، التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة:

١- العمل على بناء الإنسان البناء المتكامل ليكون في حجم التحدي، وتربيته على أخلاقيات عقائدية تمنحه المناعة الحضارية المطلوبة.

٢- تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي أصابت ثقافتنا، مما أدى إلى انحراف الفرد والمجتمع، كما يجب أن نوضح ونبرز المقاييس الثقافية الإسلامية الصحيحة، وتفعيلها في الإنتاج الثقافي الذي يحمل مفاهيمها الحقيقية.

٣- يجب على الأمة الإسلامية أن تسارع في الاستفادة من مكتسبات التكنولوجيا ووسائلها الإعلامية، خاصة الأقمار الصناعية والقنوات التلفزيونية، واستعمالها في توعية وتثقيف الأطفال والشباب، وحمايتهم من الوقوع في فلك الانحراف والضلال، وتحصين الأمة من مخاطر الغزو العلمي والتكنولوجي الجديد.

٤- تجديد الخطاب الثقافي الإسلامي وتطويره؛ بحيث يلائم روح العصر مع ضرورة الحفاظ على أصالة الثقافة الإسلامية ومضمونها من أجل خدمة هويتنا.

٥- ينبغي إنشاء مراكز ثقافية إسلامية موحدة تهتم بدراسة قضايا العصر، سواء كانت ثقافية أم اجتماعية أم حضارية فور ظهورها، ومن ثم متابعة تطورها ووضع التصور السليم للموقف الإسلامي إزاءها.

٦- الانفتاح على الثقافة الغربية، والاستفادة من تطورها العلمي والتكنولوجي، ينبغي أن يكون من خلال استراتيجية تضمن إيجابية هذا الانفتاح؛ لأن الانفتاح المذموم هو الذي أدى إلى ذوبان الشخصية الثقافية بسبب الانهيار والاغتراب عبر منافذ الاختراق والتغريب.

٧- المشروع الحضاري الإسلامي لا يمكن أن يحقق تميزه الإسلامي، ومن ثم أداء دوره العالمي وفق منهج الله إلا إذا ركن إلى العلم الشرعي بمعناه الواسع وتم تأهيل العالم المسلم بحيث تكون دراسته لعلم الشريعة دراسة تأصيلية مرتبطة بالوقائع الحية التي تعيشها الأمة والعالم في هذا العصر.

٨- من المهم توجيه جهود الأمة وطاقاتها إلى ما يوصف بـ«المأسسة» بمعنى أن يتعود العاملون على العمل ضمن مؤسسة تنظم العمل الجماعي.

معلومات إضافية

أبرز المجددين المعاصرين:

١- جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ، ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م).

محمد بن صفدر (صفدر أو صفتر كلمة فارسية معناها: مخترق الصفوف) الحسيني، مفكر إسلامي، وُلد في أسعد آباد بأفغانستان، ونشأ بكابل. وتلقى العلوم الدينية والعربية وبرع في الرياضيات. وكان يُجيد اللغات العربية والأفغانية والفارسية والسنسكريتية والتركية. وله إلمام باللغات الإنجليزية والفرنسية والروسية.

كان كثير الرحلة؛ فقد سافر إلى الهند، وحج سنة ١٢٧٣ هـ، ١٨٥٦ م وعاد إلى أفغانستان وأقام بكابل، وشارك في حكومة محمد خان. ثم رحل إلى الآستانة (إسطنبول) سنة ١٢٨٥ هـ، ١٨٦٨ م وانضم إلى أعضاء مجلس المعارف.

ونُفي من تركيا إلى مصر سنة ١٢٨٨ هـ، ١٨٧١ م؛ فاستقر هناك وعمل على نشر الإصلاح الديني والسياسي، وتتلذذ له كثيرون منهم الشيخ محمد عبده. ولما نفته الحكومة المصرية سنة ١٢٩٦ هـ، ١٨٧٩ م رحل إلى حيدر آباد ثم إلى باريس التي أنشأ فيها مع تلميذه الشيخ محمد عبده جريدة العروة الوثقى.

كما أقام نحو أربع سنوات في روسيا، ومكث قليلاً في ألمانيا، فالتقى بشاه إيران ناصر الدين الذي دعاه إلى بلاده، فسافر إليها ثم رحل عنها إلى لندن بعد أن ضيق عليه الشاه. وسافر من لندن إلى الآستانة بدعوة من السلطان عبد الحميد الذي طلب منه الكف عن التعرض لشاه إيران، فترك التحريض على خلعه والكتابة عنه في الصحف.

كان يكتب بتوقيع مستعار في بعض الصحف مثل صحيفة مصر التي كان يصدرها أديب إسحاق وهو أحد مريدي الأفغاني..

من مصنفاته:

تاريخ الأفغان، وهو مطبوع؛ رسالة الرد على الدهريين، مطبوعة بترجمة تلميذه الشيخ محمد عبده. وجمع محمد باشا المخزومي بعض آرائه في كتاب خاطرات جمال الدين الأفغاني. ولحمد سلام مذكور كتاب جمال الدين الأفغاني باعث النهضة الفكرية في الشرق.

مرض أخيراً بالسرطان في فكّه، ويقال: دُسَّ له السُّمُّ. وتوفي بالآستانة ونقل رفاته - فيما بعد - إلى أفغانستان سنة ١٣٦٣ هـ، ١٩٤٣ م.

٢- محمد عبده:

زعيم المدرسة الإصلاحية، والرائد الأول لفكر العصريين، الشيخ المفتي محمد عبده، تلميذ جمال الدين الأفغاني النجيب، وحامل فكره من بعده، ولد الشيخ محمد عبده سنة ١٢٦٥ هـ - ١٨٤٩ م، لأب تركماني وأم مصرية بقرية محلة نصر بمحافظة البحيرة بمصر، والتحق كعادة الأطفال في هذا الوقت بكتاب القرية لحفظ القرآن ومبادئ القراءة والكتابة، فأظهر حافظة عجيبة؛ إذ أتم الحفظ وهو دون السابعة، فحمله والده إلى

الجامع الأحمدى بطنطا لمواصلة الدراسة، ولكن حفظ المتون والشروح أرهقه ولم يرق له ففر من الدراسة لإصرار والده عليها، فر هارباً إلى بيت خاله الشيخ «درويش خضر»، وكان شيخاً صالحاً من أتباع الطريقة السنوسية المتأثرة بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، فهده الله على يديه والتحق بالأزهر وظل يدرس به ١٢ سنة حتى تخرج فيه سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥م، عالماً من علمائه على عقيدة السلفية، وظل على ذلك وعمل بالتدريس بالأزهر ودار العلوم، وعمل صحفياً في جريدة الوقائع وغيرها، وظهر اتجاهه المحافظ الإصلاحى.

كان التقاؤه مع الشيخ جمال الدين الأفغانى نقطة تحول كاملة فى حياته؛ إذ أثر فيه الأفغانى بشدة وغير تفكيره بالكلية، ونحا بتوجهاته الإصلاحية إلى الاتجاه المعاكس، فبعدما كان يرى محمد عبده وجوب الإصلاح بالطريقة الإسلامية المحضة، اتجه ناحية الإصلاح على الطريقة الغربية وعلى منهج الأفغانى تلك الشخصية المحيرة المتقلبة، ودعوة الأفغانى من الدعوات التى يصح أن يطلق عليها دعوة باطنية، أى لها ظاهر وباطن.

اشترك محمد عبده فى الثورة العرابية ونُفي بسببها إلى بيروت سنة ١٣٠٠هـ فمكث بها عاماً ثم لحق بشيخه الأفغانى بباريس، ومن هناك أصدر صحيفة العروة الوثقى التى تهاجم الاحتلال، وأيضاً تهاجم الخلافة الإسلامية، وتنتقد الأوضاع بشكل عام وبصورة تعتمد على التهيج والثورة، فما لبثت أن توقفت، ورحل الأفغانى إلى الهند ومنها إلى تركيا وبها مات، فعاد محمد عبده إلى بيروت حزياً منكسراً، وبعد وفاة الأفغانى آلت زعامة المدرسة الإصلاحية للشيخ محمد عبده، وتميزت هذه الفترة من حياة محمد عبده بالوافق التام والغريب مع الإنجليزية خاصة اللورد كرومر سفاح الإنجليز بمصر والمستر بينت، وعندما عاد محمد عبده من منفاه فى بيروت إلى القاهرة، وضع تقريراً شاملاً لإصلاح النظام التعليمى بمصر، وسلمه لكرومر الذى سُرَّ به ووافق عليه.

وبعد العودة من المنفى استقر محمد عبده بالقاهرة والتف حوله مجموعة من المثقفين المصريين الذين كانوا تحت عين الاحتلال وبرعايته أمثال سعد زغلول وأخوه فتحي زغلول وأحمد لطفي السيد، وحافظ إبراهيم وقاسم أمين صاحب كتاب تحرير المرأة، وبهذا الكتاب بعض الفصول التى قيل إن الذى كتبها هو محمد عبده نفسه أو على الأقل وضع عناصرها وأوحى بأفكارها ومصادرهما، وهؤلاء التلاميذ النجباء هم الذين كونوا حزب الأمة بعد وفاة الشيخ محمد عبده بعامين، وحزب الأمة هو حزب موالٍ للإنجليز وتابع له بالكلية، تم تكوينه للوقوف أمام الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل.

وبعد أن تولى الخديوي «عباس حلمي» الزعامة فى مصر، خفت الأضواء عن محمد عبده، بسبب مواقف عباس حلمي المؤيدة للخلافة وكرهه للإنجليز وتشجيعه للحركة الوطنية ومصطفى كامل، بل منع الخديوي «عباس حلمي» محمد عبده من دخول القصر، فاكتأب محمد عبده وانعزل ببيته بالإسكندرية ثم أصابه مرض السرطان فمات فى ٩ جمادى الأولى ١٣٢٣هـ - ١١ يوليو ١٩٠٥م، الجدير بالذكر أن الشيخ محمد عبده كان أول من تولى منصب الإفتاء فى مصر، وهو منصب استحدثه الإنجليز للسيطرة على التوجيه الدينى بالبلاد.

٣- محمد رشيد رضا:

ولد محمد رشيد رضا فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢هـ فى قرية (القلمون) التى تبعد عن مدينة طرابلس الشام بنحو ثلاثة أميال، ودخل المدرسة الرشيدية فى طرابلس ثم تركها بعد سنة ودخل المدرسة الوطنية الإسلامية، وتلمذ على الشيخ حسين الجسر مدير المدرسة الذى كان له إلمام واسع بالعلوم العصرية، وكان فى أول نشأته يميل إلى التصوف كما كان شديد الإعجاب بكتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالي .. ثم ظفر-

على حد قوله- بنسخة من جريدة العروة الوثقى في أوراق والده فأعجبته، وكتب إلى جمال الدين الأفغاني الذي كان يقيم في الأستانة لكنه لم يجتمع به، ثم اجتمع بالشيخ محمد عبده أثناء زيارته لطرابلس الشام، ثم رحل إلى مصر في رجب سنة ١٣١٥هـ، الموافق سنة ١٨٩٨م، وفي العام نفسه أصدر مجلة المنار التي استمرت حتى سنة ١٣٥٤ هـ، الموافق عام ١٩٣٥م.

وكان عضوًا في الحكومة السورية الأولى التي أقامها فيصل بن الحسين بعد الحرب العالمية الأولى، فلما استولى الفرنسيون على سورية وسقطت هذه الحكومة عاد إلى مصر، وأعاد إصدار مجلة المنار بعد توقفها .

مات أستاذه محمد عبده سنة ١٣٢٢هـ، الموافق سنة ١٩٠٥م، وهذا يعني أنه عاش في صحبته حوالي سبع سنين، واستمرت المنار ثلاثين عامًا بعد موت محمد عبده، واستمر عطاء رشيد رضا الذي يكاد لا ينضب، وخلال هذه المرحلة صلح حاله وأقبل على كتب السنة ينهل منها، ويعترف في مقدمة المنار بأنه خالف منهج محمد عبده بعد وفاته : (هذا وإنني لما استقلت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة، سواء كان تفسيرًا لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوي حججهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة ..) .

كانت مجلة المنار سجلًا تاريخيًا لأحداث العالم الإسلامي طيلة أكثر من ثلث قرن، وكان رشيد رضا هو المنار بتحليلاتها السياسية، ودراساتها الشرعية .. ولهذا فلقد كان يواصل الليل مع النهار من أجل أن تخرج المنار في مطلع كل شهر.. والعجيب أنها كانت تخرج كثيفة المحتوى، كثيرة الفائدة، وكان بعيد النظر في تعليقاته ومواقفه، غزير المادة، كما كان أسلوبه قويًا متماسكًا .

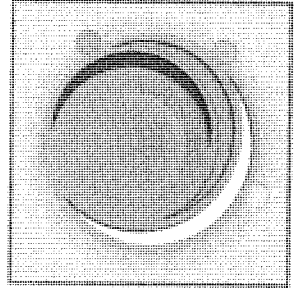
المصادر:

١- مجددون معاصرون مجلة البيان العدد ١١ ص ٨.

٢- مقال وفاة الشيخ محمد عبده بموقع مفكرة الإسلام، على الرابط التالي:

<http://www.islammemo.cc/zakera/methl-haza-elyawm/2009/05/03/81443.html>

الحركة الإسلامية في شبه القارة الهندية.. نشأتها وتطورها



هشام عليوان

مدير تحرير مجلة الرشد اللبنانية

ملخص الدراسة

نشأت الحركات الإسلامية في الهند في مواجهة التحديّات المختلفة التي واجهت المسلمين بعد تهاوي دولة الإسلام، ورغم أنها في مضمونها كانت إصلاحية الطابع، وتكافح البدع الشائعة لدى الطرق الصوفية، كما الاختلاط العقدي مع الهندوكية لدى بعض حديثي الإسلام، لكنها استتدت إلى تجارب الجماعات الصوفية المنتشرة بكثرة من حيث العلاقة بين الشيخ والمريدين أو الانضباط والطاعة والتراتبية.

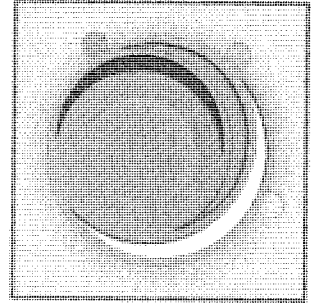
وكان الإسلام قد انتشر في جنوبي الهند عبر التجار الدعاة والزهاد المتصوّفة قبل أن يبدأ الفتح العسكري من الشمال الغربي مطلع القرن الثامن الميلادي على يد محمد بن القاسم الثقفي (٢٧-٥٩هـ/١٩٦-٣١٧م). ووفدت الطرُق الصوفية من أفغانستان والعراق وآسيا الوسطى إثر فتوحات محمود الغزنوي ابتداء من عام ١٠٠١م ومحمد الغوري ما بين ٢٧١١ و٦٠٢١م انطلاقاً من الحدود المتاخمة لأفغانستان وإيران.

وإذا كانت الحركات الإسلامية قد أدّت دوراً حيويّاً في نشر الوعي الديني، والشعور بالانتماء إلى الأمة، وفي تنظيم الصفوف وجمع الطاقات والكفاءات في لحظة مفصلية من تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية؛ حيث الاحتلال البريطاني والصعود الهندوكي، إلا أنها تراجعت عقب الاستقلال إلى الصفوف الخلفية مع هيمنة الأحزاب القومية والعلمانية على مقاليد السلطة في تلك البلدان؛ لذا تبرز أهمية إضافية في دراسة هذه الظاهرة، من حيث النشأة والتطورات اللاحقة عليها، وأسباب انعطافاتها وانتكاساتها.

ويرى الباحث أنه لا يمكن إغفال العلاقة غير السويّة غالباً بين الدعوة والسلطة عبر القرون، ولا طبيعة الدعوة نفسها، والتي غلبت عليها النزعة الصوفية إلى القرن السابع عشر الميلادي عندما نشأت اتجاهات إصلاحية من داخل تلك الجماعات؛ لاستدراك الاعوجاج الذي وصل إلى ذروته في زمن الملك أكبر، إضافة إلى ما اتصفت به رحلات الحج إلى مكة المكرمة من أهمية بالغة في تنشيط العقل الإسلامي الهندي، وتزويده بمعارف وتجارب وحوافز كانت المنطلق الأساس للحركات الإصلاحية والثورية على حدّ سواء.

ويفترض الباحث أن العلاقة عكسية بين تهاوي الدولة المغولية وصعود الحركات الدينيّة والسياسية بقيادة العلماء والدعاة، وأن قيام الدول الحديثة بعد تقسيم شبه القارة الهندية إلى ثلاث دول هي الهند وباكستان وبنغلادش قد ضيقّ الهوامش أمام تلك الحركات رغم انخراطها في العمل السياسي المباشر وسط الجماهير لا سيما في باكستان دولة المسلمين.

الحركة الإسلامية في شبه القارة الهندية.. نشأتها وتطورها



هشام عليوان

مدير تحرير مجلة الرشد اللبنانية

مقدمة:

تُصنّف الحركة الإسلامية الحديثة في شبه القارة الهندية على أنها المرحلة الأخيرة من سلسلة حركات تجديدية وإصلاحية تعاقبت على الظهور خلال أربعة قرون تقريباً؛ حيث تأثرت بالأفكار والتجارب، وبالإخفاقات كما بالنجاحات. وقبيل الحرب العالمية الأولى، ومع توالي الإشارات على قرب انهيار دولة الخلافة في إسطنبول، تصاعدت مشاعر التضامن لدى مسلمي الهند إزاء آخر رمز للسيادة الإسلامية في ذلك الوقت. فلما انضمت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا في الحرب ضد بريطانيا وفرنسا، كان ذلك إيذاناً بالنهاية الوشيكة وتقاسم ممتلكاتها، ولا سيما في المنطقة العربية وفق اتفاقية سايكس بيكو لعام ١٩١٦م.

وفي هذه المرحلة الحرجة، وإثر الهزيمة العسكرية أمام الحلفاء، ومع وقوع عاصمة الخلافة تحت سيطرة القوى الغربية، تأسست حركة الخلافة في الهند عام ١٩١٩م، بهدف الضغط على بريطانيا لحماية دولة الخلافة ومقامها؛ حسبما وعدت به لدى إعلانها الحرب. ورغم أن الحركة لم تتجح في مسعاها، بعد قيام مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨م) بإلغاء الخلافة عام ١٩٢٤م، فإن التجربة القصيرة لحركة الخلافة ألهبت حماس الجماهير المسلمة، وألهمت النخبة السياسية والدينية باعتبارها الحركة السياسية الشعبية الأوسع نطاقاً، والأولى من نوعها في العصر الحديث، وستكون إرهاباً لما سينشأ من بنى تنظيمية إسلامية المضمون والهدف، وأبرزها الجماعة الإسلامية بقيادة أبي الأعلى المودودي (١٩٠٣-١٩٧٩م)، والتي سيكون لها دور محوري في سياسات باكستان في مرحلة ما بعد تأسيسها كدولة مستقلة لمسلمي الهند.

لكن مسيرة الحراك الإسلامي العام خلال مائة عام لم تكن على مستوى الأهداف المرسومة والنتائج المأمولة، بسبب التعقيدات السياسية والاجتماعية والثقافية والعرقية في دول ما بعد انقسام الهند عام ١٩٤٧م، ولهذا أسبابه الداخلية أيضاً من داخل المنظومة الفكرية والتنظيمية للحركة الإسلامية عموماً؛ حيث يحاول هذا البحث رصد عوامل النشأة، ومراحل التطور، واستشراف أفق المستقبل، مع الإشارة إلى العلاقة غير السوية غالباً بين الدعوة والسلطة في شبه القارة الهندية، وغلبة النزعة الصوفية على مسار الدعوة إلى القرن السابع عشر الميلادي عندما نشأت اتجاهات إصلاحية من داخل الطرق الصوفية، لاستدراك الاعوجاج الذي وصل إلى ذروته في زمن الملك أكبر (حكم ما بين ٩٤٨-١٠١٣هـ/١٥٤٢-١٦٠٥م)، إضافة إلى ما انصفت به رحلات الحج إلى مكة المكرمة من أهمية بالغة في تنشيط العقل الإسلامي الهندي، وتزويده بمعارف وتجارب وحوافز كانت المنطلق الأساس للحركات الإصلاحية والثورية على حدّ سواء.

ويفترض البحث أن العلاقة عكسية بين السلطة السياسية والحركات الإسلامية، فقد برزت تلك الحركات

المطلب الأول: المرحلة الفكرية التأسيسية:

شهد القرنان السابع عشر والثامن عشر الميلاديان حركة إصلاحية نشطة استهدفت النخبة السياسية والاجتماعية والدينية في تلك الفترة؛ كي يسري الانقلاب الإسلامي في المجتمع، لا سيما وأن رمزها الأساسيين وهما أحمد بن عبد الأحد الفاروقي السرهندي (٩٧١-١٠٣٤هـ/١٥٦٣-١٦٢٤م)، الذي قيل عنه: إنه مجدد الألف الثاني للهجرة، وأحمد ابن عبد الرحيم المعروف بشاه ولي الله الدهلوي (١١١٤-١١٧٦هـ/١٧٠٣-١٧٦٢م)، كانا من رجال العلم والعمل، فالاثان انطلقا من بيئة صوفية راسخة فأحدثا تغييرًا معتبرًا فيها بمكافحة الخرافات والبدع الشائعة فيها، فضلاً عن تصحيح العقائد الفاسدة والرائجة لدى مشايخ الطرق والأتباع، كما كان لهما أثر جلي في الأجيال اللاحقة من الدعاة والمفكرين، وفي تأسيس الحركات الإسلامية الحديثة.

أما السرهندي فكان معاصرًا للملك المغولي جلال الدين محمد الملقب بأكبر، الذي بدأ عهده مسلمًا صوفيًا وانتهى منقلبًا على الإسلام وأهله داعيًا إلى دين جديد هجين هو (الدين الإلهي) الذي فيه طرف من كل أديان الهند في ذلك الوقت. وكان للسرهندي دور نشط في تصفية مخلفات هذا الفكر المنحرف لدى الطبقة الحاكمة، حتى قيل: إنه أعاد الإسلام إلى شبه القارة الهندية.

درس السرهندي علوم النقل والعقل، وأخذ عن العلماء في أماكن مختلفة، ولما اشتهر أمره في أكره تعرّف عليه أبو الفضل (١٥٥١-١٦٠٢م) وهو المنظر الرئيس لانحرافات أكبر، وأخوه الأكبر أبو الفيض فيضي (١٥٤٧-١٥٩٥م)، وحاولا استمالة السرهندي إلى جانبهما، لكنه رفض الانجرار إلى ما يرومان إليه،

وزاد نفوذها مع تهاوي الدولة المغولية وانحلالها، في حين أن قيام الدول القومية بعد تقسيم شبه القارة الهندية إلى ثلاث دول هي الهند وباكستان وبنغلادش قد ضيق الهوامش أمام تلك الحركات رغم انخراطها في العمل السياسي المباشر وسط الجماهير لا سيما في باكستان وبنغلادش.

ورغم أداء الحركات الإسلامية دورًا حيويًا في نشر الوعي الديني، والشعور بالانتماء إلى الأمة، وفي تنظيم الصفوف، وجمع الكفاءات في لحظة مفصلية من تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية؛ حيث الاحتلال البريطاني والصعود الهندوكي، إلا أنها تراجعت عقب الاستقلال إلى الصفوف الخلفية مع هيمنة الأحزاب القومية والعلمانية على مقاليد السلطة في تلك البلدان، وتعرّضت للضغوط السياسية والملاحقات القضائية، وكانت مساراتها متذبذبة صعودًا وهبوطًا.

ويتناول البحث مسار الحركات الإسلامية في شبه القارة الهندية من حيث نشأتها، والظروف التي لابتستها، والأطوار التي مرّت

بها تبعًا للظروف التي أحاطت بها، والتحديات التي لاقتها، والآراء العقيدية والمنهجية التي راودتها، والأدوار التي قامت بها في سبيل الحفاظ على نسق الإسلام في المجتمع ونشر الدعوة، والمستقبل المنظور لهذه الحركات.

وينقسم البحث إلى مقدمة وخمسة مطالب: الأول عن المرحلة الفكرية التأسيسية، والثاني عن الحركات الثورية، والثالث عن الحركات التربوية، والرابع عن الحركات السياسية، والخامس عن الاتجاهات العقيدية والفكرية، إضافة إلى الخاتمة، وفيها الاستنتاجات.

رغم أداء الحركات الإسلامية دورًا حيويًا في نشر الوعي الديني في شبه القارة الهندية؛ أثناء الاحتلال البريطاني والصعود الهندوكي، إلا أنها تراجعت عقب الاستقلال إلى الصفوف الخلفية مع هيمنة الأحزاب القومية على السلطة.

واتخذ موقفاً مضاداً من هذا الفكر.

وكان بايع السرهندي على اجتناب المحظورات خلال ولاية العهد، فحصل المسلمون في زمانه على حريات إضافية، وانحسرت المظاهر الهندوكية في يوميات المسلمين، لكن لم يتمكن من التخلص نهائياً من إرث جده، فوقع ذلك على عاتق أورنكزيب عالم كير (حكم ما بين ١٠٦٨-١١١٨هـ/١٦٥٧-١٧٠٧م) بعدما أزاح أخاه الأكبر دار شكوه الذي كان يريد العودة إلى تعاليم أكبر^(٥)، متخذاً نهجاً مختلفاً تماماً في سلوكه الشخصي أو في التعامل مع الهنادكة.

ومع تضعف الحكم المغولي، وتعاقب ملوك ضعاف في دلهي، واستقلال أمراء ووزراء بمقاليد الأمور لا سيما في المقاطعات، بل سيطرة «المراتها» الهنادكة على الجنوب، وامتداد نفوذ السيخ في البنجاب، والقضم الأوروبي التدريجي لأطراف الهند وشواطئها الغربية والشرقية باتجاه العمق البري، ثم تمكّن شركة الهند الشرقية (البريطانية) من التغلغل في البنغال شرقاً، وهي من أغنى المقاطعات الهندية وأكثرها سكاناً، وإزاحة الإنكليز لمنافسيهم الهولنديين بعد البرتغاليين.

أصبحت حاضرة الإسلام في دلهي ذاتها مهددة بالأخطار من كل جانب، وفي تلك الفترة الحرجة، برز شاه ولي الله الدهلوي كأهم شخصية إسلامية فكرية ودعوية في شبه القارة الهندية في العصر الحديث، ومن أكثرهم تأثيراً في معاصريه والأجيال اللاحقة في الهند وخارجها، حتى إنه ألهم مختلف المفكرين من كافة الاتجاهات فضلاً عن شتى الحركات الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، وذلك بحسب الوجهة التي قرئت بها آراؤه غير التقليدية في مجالات إصلاح الفرد والمجتمع وفهم السياق التاريخي ومتطلباته.

ظهر نبوغه العلمي في سن مبكرة، فكان يدرّس مختلف العلوم الإسلامية وهو في الخامسة عشرة من عمره. وفي عام ١٧٣١م قام برحلة طويلة إلى الحجاز

(٥) مسعود الندوي، تاريخ الدعوة الإسلامية في الهند، دار العربية، بيروت، ص ١١٩.

استلم السرهندي خلافة الطريقتين الجشتية والسهروردية بإشراف والده عقب إنهاء دراسته العلمية.. وفي سن الثامنة والعشرين من عمره رحل إلى دلهي، وانضم إلى الطريقة النقشبندية، واستلم الخلافة من الخواجه الباقي بالله (٩٧٢-١٠١٢هـ/١٥٦٤-١٦٠٣م)^(١)؛ حيث عمل على تطهير التصوّف من الدخائل الغربية عن الإسلام، والتمييز بين معجزات النبوة وكرامات الولاية، ونقض مبدأ وحدة الوجود^(٢) الذي انتشر بين الطرق الصوفية الهندية، وحث العلماء على دراسة علوم القرآن والحديث، وعدم الاكتفاء بكتب الفقهاء^(٣).

جّهز السرهندي عدداً من أتباعه وأرسلهم إلى أنحاء البلاد ليكونوا دعاة إلى اتباع السنّة، فلم يقتصر الأثر على الهند، بل تجاوزها إلى البلدان المجاورة، واتصل كذلك بخلفاء أكبر والأمراء والنبلاء داعياً إياهم إلى التمسك بأحكام الشريعة ومبايعته على ذلك^(٤).

فكان من آثار عمله الدعوب أن غير الملك جهانكير (حكم ما بين ١٠١٤-١٠٣٧هـ/١٦٠٥-١٦٢٧م) في أواخر سنّي حكمه بعض سياسات سلفه، مُعفيًا المسلمين من القيود التي فرضها والده على أداء العبادات والجهر بالإسلام. ثم خلفه من بعده نجله شاه جهان (حكم ما بين ١٠٣٧-١٠٦٨هـ/١٦٢٧-١٦٦٦م).

(1) Burhan Ahmad Faruqi, Mujaddid's conception of Tawhid, Kashmiri Bazar, Lahor, 1940, p.9-10.

(2) أي أن الوجود يشتمل على حقيقة واحدة، وهي أن الله هو العالم والعالم هو الله. ومنشأ هذه العقيدة هو الفلسفة الإغريقية وأديان الهند الأولى، ثم انتقلت إلى غلاة الصوفية الذين حملوها معهم إلى الهند، انظر: محمد كبير شودري، فرق الهند المنتسبة للإسلام في القرن العاشر الهجري، وآثارها في العقيدة دراسةً ونقدًا، أطروحة دكتوراه في العقيدة، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤٢٠هـ، ص ٤٢١.

(3) Faruqi, Mujaddid's conception of Tawhid, op. cit., p.28-30.

(4) Ibid., p.23-24.

الاستعانة بالحلفاء المحتملين في أي صراع⁽⁵⁾.

المطلب الثاني: الحركات الثورية:

هزمت شركة الهند الشرقية حاكم البنغال نواب سراج الدولة عام ١٧٥٧م في معركة بلاسي، ثم انتصرت على خلفه مير قاسم المتحالف مع حاكم بهار والملك المغولي نفسه في معركة باكسر عام ١٧٦٤م، فأصبحت الشركة البريطانية هي الحاكم بلا منازع في شرقي الهند^(٦). وسقطت تدريجياً المناطق التي كانت مراكز السلطة الإسلامية أو ذات كثافة سكانية إسلامية، أي البنغال وبهار والمقاطعات المتحدة لأكره وأوده، وتعرّضت لتحوّلات اجتماعية واقتصادية عميقة كان المسلمون الأكثر تضرراً منها.

ثم إن التفكك البطيء للسلطة المغولية المركزية، والتي سيطرت لقرون عدة على معظم الشمال أتاح الفرصة للحكام المحليين لترسيخ نفوذهم مع القبول الشكلي بسلطة ملوك دلهي، كما شجّع الأفغان على غزو الشمال، وكذلك دفع بطائفة السيخ وأعراقاً متمردة في الداخل إلى الإطباق على مراكز السلطة الإسلامية ونهبها، وتهديد حياة السكان فيها.

وخلال هذه الفترة المضطربة نشأت أربع حركات إسلامية، وحظيت اثنتان منهما بالقوة والنفوذ وكثير من الأتباع هما حركة الفرائضيين وحركة المجاهدين، فيما كانت حركة تيتو مير جزءاً من حركة المجاهدين ولم تعمّر طويلاً، أما حركة كرامت علي فكانت معادية للطابع الراديكالي، والمناهض للاحتلال البريطاني الذي اتسمت به الحركات الثلاثة^(٧).

ومع أن هذه الحركات كانت دينية إصلاحية في

استمرّت أربعة عشر شهراً فأدّى فريضة الحجّ وجلس إلى كبار العلماء يدرس الحديث والفقه، وتعرّف إلى أحوال المسلمين في مختلف البلدان. عاد إلى دلهي حيث قضى عمره يصنّف المؤلفات ومن أشهرها (الحجّة البالغة) وفيه عرّض الدهلوي تعاليم الإسلام بطريقة علمية مختلفة عن سبقه، وبمنهج شامل لشتى المعارف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفلسفية والدينية^(١).

ورغم أنه دعا إلى تجديد مفاهيم الإسلام وتطهير المجتمع من كل البدع، إلا أنه حاول التوفيق بين محيي الدين ابن عربي (٥٥٨-٦٣٨هـ/١١٦٤-١٢٤٠م) والسيد أحمد السرهندي، فالأول طرح مبدأ وحدة الوجود والثاني نقضه بشدة^(٢).

اعتبر الدهلوي البيعة الروحية أساساً للنظام السياسي في الإسلام، حتى إن من يبايع الشيخ فكانه يقبل بالنظام السياسي للطريقة الصوفية التي ينتمي إليها، وهنا يظهر متأثراً بالمرورث الصوفي في الهند، أو أن هذا الإرث استولد لديه نظراً واقعياً في أمور السياسة^(٣)، حتى كان له دور مركزي في التحالف الذي جمع أحمد شاه الأفغاني الأبدالي (١٧٢٣-١٧٧٣م) الذي نشر الدمار في شمالي الهند مع أمراء المقاطعات لصدّ خطر «المراتها» على الوجود الإسلامي، فكانت موقعة بانيبات الحاسمة عام ١٧٦١م، والتي انهزم فيها جيش المراتها^(٤)، كما وافق رأي بعض النبلاء في زمن الانحلال المغولي لإقامة قاعدة سياسية وعسكرية إسلامية في الشمال الغربي؛ لأنها قريبة من الدول الإسلامية المجاورة بحيث تمكن

(5) Syed Nesar Ahmad, Origins of Muslim Consciousness in India: A World-System Perspective, Greenwood Press, New York, 1991, p.30.

(6) Barbara D. Metcalf and Thomas R. Metcalf, A Concise History of Modern India, Second edition, Cambridge University, 2006, p.52-53.

(7) Ahmad, Origins of Muslim Consciousness in India: A World-System Perspective, op. cit., p.22-23.

(1) A History of Muslim Philosophy, Edited and Introduced by M. M. Sharif, Volume Two, Otto Harrassowitz, Wiesbaden, 1966, p.1558.

(2) Ibid., p.1560.

(3) Shafiq Ali Khan, Evolution of the Two Nation Theory with reference to India and Pakistan, Political Science Department, University of Sind, Hyderabad (west Pakistan), 1967, p.262.

(4) Hafeez Malik, Moslem nationalism in India and Pakistan, Public Affairs Press, Washington, 1963, p.120.

حركة تيتو مير لم تحظر صلوات الجمعة والعيد⁽²⁾. أما دادو ميان فأعلن أن الأرض هي أرض الله، وليس لأحد الحق في ملكيتها، أو فرض ضرائب عليها. وفي المناطق التي انتشر نفوذها فيها قام بفضّ المنازعات، وعاقب كل من يلجأ إلى المحاكم الرسمية لرفع قضية أو استرداد دين دون الرجوع إليه أولاً، سواء أكان المدعي مسلماً أم لا. وبسبب دعمه لحقوق الفلاحين المسلمين نشأت معارضة قوية ضده بين ملاك الأراضي، ولاحقته السلطات البريطانية حتى اعتقلته عام ١٨٥٧م. ضعفت الحركة بعد وفاته عام ١٨٦٠م حين لم يتمكن أبناؤه من سدّ الفراغ⁽³⁾.

٢- حركة المجاهدين:

تعتبر هذه الحركة الأقرب نظرياً من أفكار شاه ولي الله الدهلوي، ليس فقط لأن نجله شاه عبد العزيز (١١٥٩-١٢٣٩هـ/١٧٤٦-١٨٢٣م) أشرف عليها بمعاونة أخويه شاه رفيع الدين (ت ١٨١٨م) وشاه عبد القدير (ت ١٨١٥م)؛ بل لأنها سارت وفق نهجه. لذلك، وفي عام ١٨٠٣م

نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي حركتان رئيسيتان للإصلاح التربوي متناقضتان فكرياً ومنهجياً، تتمسك الأولى بالتراث الإسلامي ويقودها العلماء، وتدعو الثانية إلى اللحاق بالحضارة الغربية، ويرأسها المثقفون المتغربون.

-أي: بعد أربع سنوات على سقوط إمارة ميسور أمام الجيش البريطاني- أصدر شاه عبد العزيز فتواه الشهيرة والتي اعتبر فيها شبه القارة الهندية دار حرب، وأنه على المسلمين إنشاء حكومتهم الإسلامية الخاصة أو الهجرة إلى دار الإسلام. وورد في نصّ الفتوى أنّ إمام المسلمين أي السلطان المغولي في دهلي لم يعد يملك أيّ سلطة، وأنّ السلطة الحقيقية باتت مع الضباط المسيحيين الذين يتحكّمون بكل الأمور من الإدارة والقضاء والقانون والنظام والتجارة والمال

جوهرها، وتحاول تنقية عقائد المسلمين وسلوكياتهم من الآثار الهندوكية؛ نتيجة الاختلاط الطويل بين المسلمين والهنداكة، وظهور تيارات فكرية تهجينية تحاول التقريب بين الديانتين، إلا أنها كانت أيضاً ذات أهداف اقتصادية واجتماعية عميقة تتعلق بالسياق المتغير في ظلّ الزحف البريطاني المتواصل.

وفيما يلي نبذة عن الحركتين الأبرز:

١- حركة الفرائضيين:

سُمّيت الحركة بذلك؛ لأنها كانت تعمل على تطبيق الفرائض الإسلامية، وبخاصة الأركان الخمسة للإسلام، كما كانت تدعو إلى تنزيه عقيدة

التوحيد عن المعتقدات والطقوس والممارسات الدخيلة على الإسلام، لكنها تختلف مع ذلك عن حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٤-١٢٠٥هـ/١٧٠٣-١٧٩١م) في الجزيرة العربية من حيث التزامها بمذهب أبي حنيفة النعمان (٨٠-١٥٠هـ/٦٩٩-٧٦٧م). أسّسها مولانا حجي شريعة الله البنغالي (١٧٨١-١٨٤٠م) عام ١٨٢٠م، بعد

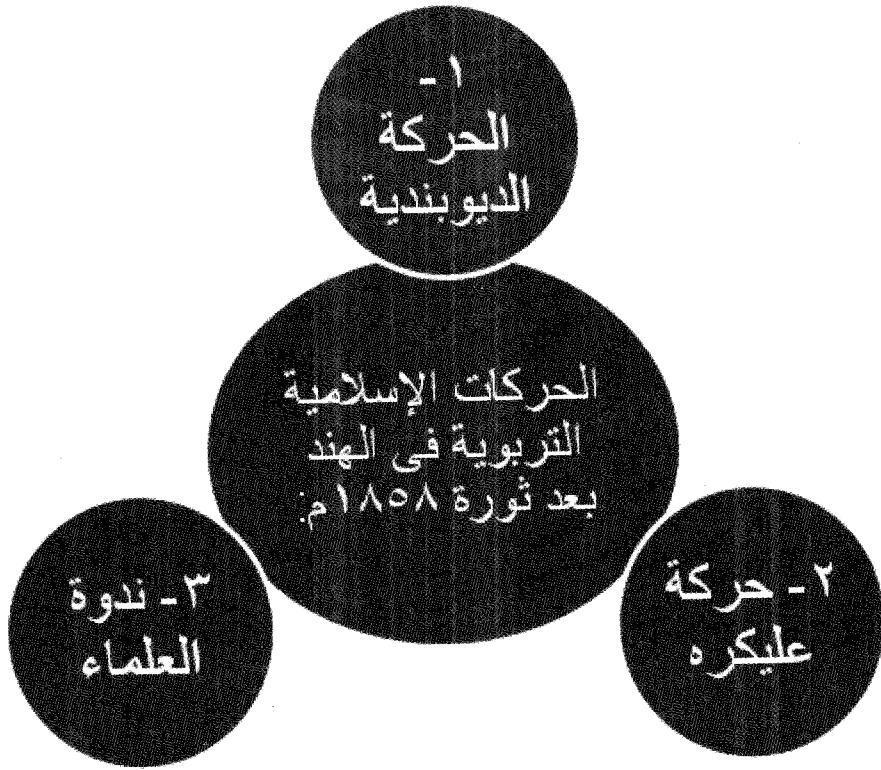
رحلة طويلة في طلب العلم، وقادها من بعده ابنه محمد محسن المعروف باسم دادو ميان (١٨١٩-١٨٦٢م)⁽¹⁾. اعتبر مؤسس الحركة أن الهند أضحت دار حرب، فمنع إقامة صلوات الجمعة والعيد، كما رفض انحياز السلطات البريطانية إلى جانب ملاك الأراضي (الزاميندار)، ومعظمهم من الهنداكة في فرضهم الضرائب المجحفة على الفلاحين المسلمين، فكان للحركة وجهان؛ ديني، واجتماعي اقتصادي.

وتختلف حركة الفرائضيين عن حركة تيتو مير في أنها لم تعتمد إلى المواجهة المسلحة في حين أن

(2) Ibid., p.26-27.

(3) خليل عبد الحميد عبد العال، جوانب من التراث الهندي الإسلامي الحديث، مكتبة المعارف الحديثة، ١٩٧٩م، ص١٢٥-١٢٦.

(1) Ibid., p.25.



اختار القتال انطلاقاً من قاعدة في شمالي الهند في وادي سوات؛ حيث جند قبائل الباتان ما بين عامي ١٨٢٤ و ١٨٣١م، ضد رانجيت سنيغ (١٧٨٠-١٨٣٩م) الذي أسس دولة السيخ في البنجاب مضطهداً المسلمين. انتزع المجاهدون بيشاور من أيدي السيخ سنة ١٨٣٠م، لكنهم في العام التالي هُزموا في مواجهة جيش سيخي منظم ومجهز أوروبياً في بالاكوت عام ١٨٣١م، فقُتلت القيادة بأكملها بمن فيها أحمد بريلوي. وانتقلت القيادة إلى الشقيقين ولايت وعنايت علي (ت ١٨٥٨م)، وكانا من الطبقة الحاكمة السابقة في بهار^(٣).

المطلب الثالث: الحركات التربوية:

في عام ١٨٥٧م تمرد جنود مسلمون وهنادكة منضوون في جيش الشركة البريطانية بسبب استخفاف الإنكليز بعقائد الهنود، واستمرارهم بقضم الإمارات الهندية الواحدة تلو الأخرى، فانتشرت الاضطرابات من البنغال إلى عدد من

والضرائب^(١). وقد مثلت هذه الفتوى منعطفاً مفصلياً من حيث الإعلان عن نهاية الحكم الإسلامي، وإطلاق الجهاد لإقامة دولة الإسلام مجددًا، رغم أن علماء بارزين رفضوا الفتوى، واعتبروا أن الهند تحتفظ بصفتها كدار إسلام، ولو تحت الاحتلال البريطاني.

أما القائد الميداني لحركة المجاهدين السيد أحمد بريلوي (١٧٨٦-١٨٣٠م)، فقد جمع في شخصيته بين الخبرة العسكرية السابقة، والالتزام بالمنهج التجديدي، والارتباط بالطرق الصوفية النقشبندية والقادرية والجشئية في وقت واحد.

جال في أنحاء الهند لتحريض المسلمين على الجهاد، وحجَّ إلى مكة عام ١٨٢١م وعاد بعد عامين، حيث تبدو أفكاره قريبة جداً من آراء الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لذلك أشاع الإنكليز أن الحركة وهابية. لكنه يظل الصوفي الذي قاد الجهاد في تلك الفترة، وربما كان أول صوفي يمارس الجهاد في شبه القارة الهندية^(٢).

(1) Ali Khan, Evolution of the Two Nation Theory with reference to India and Pakistan, op. cit., p.265-266.

(2) Ibid., p.266-268.

(3) Ibid., p.269.

وأما الاتجاه التربوي فأسسه مولانا محمد قاسم نانوتوي (١٨٣٢-١٨٨٠م)، مع أنه كان إلى جانب العلماء الذين رأوا وجوب الجهاد رغم اختلال موازين القوى مع القوات البريطانية، حين رأى آخرون أن قتال البريطانيين في هذا الوضع سيكون عملاً انتحاريًا^(٣).

اهتمّ بالإصلاح الاجتماعي أيضًا، فدعا إلى إنصاف المرأة، والسماح بزواج الأرمال، مبتدئًا بتزويج أخته الأرملة؛ ليكون قدوة في هذا المجال. واعتبر أن إنصاف المرأة اجتماعيًا مرتبط بتحقق استقلالها اقتصاديًا حسبما قرّره الشريعة الإسلامية، فدافع عن حق البنات في الميراث^(٤).

وعُرفت الحركة الديوبندية نسبةً إلى بلدة ديوبند شمال شرقيّ دلهي، والتي احتضنت أول مؤسسة تعليمية باسم دار العلوم عام ١٨٦٧م. وحدّد نانوتوي أهداف الحركة بتعزيز الثقافة الإسلامية في الهند؛ عبر إنشاء مدارس جديدة، مع إصلاح بعض المناهج الدراسية التقليدية، لكن هذه المدارس كانت أكثر أهمية كمراكز مؤسسية سهّلت تنظيم العلماء ليكونوا في خدمة المجتمع المسلم^(٥).

ورأى نانوتوي وزملاؤه أنّ الحاجة ملحةً لمؤسسة ثورية، لا تتصدى فقط لمسألة التعليم، بل تهتم أيضًا بالدولة والمجتمع، وتكافح جهل المسلمين وهجمة التبشير المسيحي^(٦).

ولم يقتصر أثر الديوبندية على جماعة معينة؛ إذ إن مولانا محمد إلياس الكندهلوي (١٨٨٥-١٩٤٤م)، مؤسس جماعة التبليغ والتي يقتصر عملها على

الإمارات حتى سيطر الثوار على دلهي، ونصّبوا آخر ملك مغولي قائدًا لهم.

لكن الضباط الإنكليز تمكنوا من قمع الثورة الأضعف منذ بدء السيطرة البريطانية، وحملوا المسؤولية الأكبر للمسلمين الذين عانوا من حملة منهجية لإقصائهم وتهميشهم، ما دفع العلماء والمفكرين المسلمين إلى حصر الجهود في المجال التربوي، بعدما بانت الهوة الحضارية بين الهنود عامة والمستعمر البريطاني، وبين الهنادكة وسائر المسلمين مع بعض الاستثناءات في البنغال خاصة.

لذا، نشأت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي حركتان رئيسيتان للإصلاح التربوي متناقضتان فكريًا ومنهجيًا، تتمسك الأولى بالتراث الإسلامي ويقودها العلماء، وتدعو الثانية إلى اللحاق بالحضارة الغربية، ويرأسها المثقفون المتغربون، فيما ظهرت حركة توفيقية بين الاتجاهين السابقين هي ندوة العلماء. لكن لن ينحس الحراك العام في المجال التربوي، فزيادة الوعي لدى المسلمين أنتجت آثارًا بعيدة المدى -كما يقول غايل مينو- عندما تقاطعت تلك الخطوط الإصلاحية في المجال السياسي^(١).

وفيما يلي تعريف موجز بالحركات المشار إليها:

١- الحركة الديوبندية:

بعد هزيمة حركة المجاهدين أمام الشيخ عام ١٨٣٢م، انقسمت حركة المجاهدين إلى مجموعتين، الأولى رأت أنّ الوقت لم يحن بعد لإعلان الجهاد؛ حيث الظروف غير ناضجة، واتجهت إلى التعليم الديني والأخلاقي والإصلاح الاجتماعي، وظلّت المجموعة الثانية على منهج الجهاد بقيادة الأخوين ولايت وعنايت علي اللذين استمرا بقتال الشيخ حتى عام ١٨٥٣م^(٢).

(3) Minault, The Khilafat Movement Religious Symbolism and Political Mobilization in India, op. cit., p.16-20.

(4) Farhat Tabassum, Deoband Ulama's Movement for the freedom of India, Jamiat Ulama-I-Hind & Manak publications, New Delhi, 2006, p.15-16.

(5) Minault, The Khilafat Movement Religious Symbolism and Political Mobilization in India, op. cit, p.12.

(6) Tabassum, Deoband Ulama's Movement for the freedom of India, op. cit., p.36, 37, 38, 42.

(1) Gail Minault, The Khilafat Movement Religious Symbolism and Political Mobilization in India, Colombia University Press, New York, 1982. p.12.

(2) Ali Khan, Evolution of the Two Nation Theory with reference to India and Pakistan, op. cit., p.279.

إلا أنه بنظر شبلي نعماني (١٨٦٧-١٩١٣م) - أحد المقربين منه لسنوات طويلة- هو من حرّر اللغة الأردية من سجنها بالتعبير فقط عن العشق والعاشقين، موسّعاً من أفق الكتابة بهذه اللغة، ومسبغاً عليها صفات الوضوح والبساطة والطلاوة^(٣).

وعُرف عن سيّد أحمد خان نزعتة العقلية في تفسير القرآن، فهوّجّم من قِبَل العلماء، ولا سيما محمد قاسم نانوتوي، كما ذكره جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م) في رسالته (الردّ على الدهريين)^(٤).

٢- ندوة العلماء:

تأسست على يد مولانا محمد علي المونكيري (١٨٤٥-١٩٢٧م) عام ١٨٩٣م، ثم تأسست دار العلوم التابعة لها عام ١٨٩٨م. وكانت تهدف إلى إحداث قنطرة بين الثقافتين الإسلامية والغربية، وبين طبقتي علماء الدين والمثقفين العصريين، وإيجاد فكر جديد يجمع بين محاسن القديم والحديث، بين القديم الصالح والجديد النافع، أو بين التصلّب في الأصول والغايات والتوسع والمرونة في الفروع والآلات، بحسب تعبير أبي الحسن الندوي.

كما كان أتباع هذه الحركة ينظرون إلى مناهج التعليم وبرامجه كأداة قابلة للنمو والتطور، وخاضعة لحاجة كلّ عصر ومقتضاه، وطالبوا بإصلاح المناهج وتطويرها^(٥).

أما الشيخ شبلي نعماني الذي تولى مركزاً قيادياً في ندوة العلماء، فقد درّس في كلية عليكره بين عامي ١٨٨٣ و ١٨٩٨م، وكان مقرّباً من سيّد أحمد خان، لكنه أنكر بعض اتجاهاته الفكرية. غادر كلية عليكره بعد وفاة مؤسسها، وأقام في حيدر آباد خمس سنين

الدعوة الشعبية بين عموم الناس، التحق بدار العلوم في ديوبند بعد إكماله مراتب السلوك وفق الطريقة الصوفية النقشبندية، فتأثر بمنهجها. وفي تلك الفترة، شهدت الهند صراعاً شديداً بين الديوبندية من جهة والبريلوية التي أسّسها أحمد رضا خان بريلوي (١٨٥٦-١٩٢١م). ومع أنّ هاتين المدرستين تتبعان المذهب الحنفي، إلا أنّ الديوبندية كانت أقرب إلى أهل الحديث فيما كانت البريلوية مغالية في اتجاهها الصوفي وتعظيم الأولياء، كما كانت موالية للاحتلال البريطاني بخلاف المدرسة الديوبندية^(١).

٢- حركة عليكره:

انطلقت حركة عليكره مع السير سيّد أحمد خان (١٨١٧-١٨٩٨م) في عليكره، وكان يمثّل الاتجاه الإصلاحية الثقافي المتغزّب بين المسلمين الهنود، إلا أنه يُعتبر من أهم الشخصيات المثيرة للجدل التي أثّرت في عصره وما تلاه. اهتمّ بالدفاع عن الإسلام ضد مثيري الشبهات حوله من الكُتّاب الغربيين، وفي الوقت نفسه، دعا إلى التمثّل بالحضارة الغربية، وللحاق بها؛ كي يتمكن المسلمون في الهند من تعديل الميزان بينهم وبين الهنادكة.

وأتى تحرّكه التربوي كردّ على ما أصاب المسلمين من إجحاف السلطات البريطانية عقب ثورة عام ١٨٥٧م.

أسّس سيّد أحمد خان معهد عليكره عام ١٨٧٥م، وكان المعهد طيلة حياته مركزاً تربوياً يستند إلى الفرضية القائلة بأنّ التقدّم الإسلامي لا يمكن له أن يتحقّق بشكل أفضل إلا بالتعليم الغربي، وسياسة الولاء للحكومة البريطانية^(٢).

ورغم دعوته المسلمين لتلقي العلوم باللغة الإنكليزية،

(٣) خليل عبد الحميد عبد العال، جوانب من التراث الهندي الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص ١٥٨-١٥٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٦٦.

(٥) أبو الحسن الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، دار الندوة للتوزيع، لبنان، ط ٢، ١٩٦٨، ص ٧٧-٨٠.

(1) Jan A. Ali, Tabligh Jama'at: A transnational movement of Islamic faith regeneration, European Journal of Economic and Political Studies, 3 (SI), 2010, p.104.

(2) See: Minault, The Khilafat Movement Religious Symbolism and Political Mobilization in India, op. cit., p.12, 14-15.

حركة سياسية قريبة من آراء المؤتمر الوطني الهندي وحركة خوكسار (١٩٣٢-١٩٤٢م)، وهي أشبه ما تكون بميليشيا عسكرية في البنجاب^(١)، بينما ظهرت في فترات متفاوتة جماعات وجمعيات دينية خاضت في السياسة بطريقة غير مباشرة أو على مستوى النخبة أو لأهداف جزئية، كجماعة التبليغ (١٩٢٦م) وجمعية علماء الهند (١٩١٩م) وجمعية خدام الكعبة.

ومن هذه التجارب السابقة والمعاصرة، سينطلق أبو الأعلى المودودي في تأسيس أول حركة إسلامية حديثة في النصف الأول من القرن العشرين تحت اسم الجماعة الإسلامية.

وستتناول فيما يلي حركة الخلافة والجماعة الإسلامية باعتبارهما الحركتين الأوسع انتشارًا والأكثر تأثيرًا في الحياة السياسية لمسلمي شبه القارة

الهندية خلال القرن العشرين:

١- حركة الخلافة:

عندما أعلنت بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية أثناء الحرب العالمية الأولى انفجر الغضب في الهند رغم تعهدا بعدم المساس بالخلافة العثمانية لو انهزمت تركيا في الحرب^(٢).

فبعد فقدان المسلمين ملكهم إثر ثورة ١٨٥٧م اتجهت أنظارهم إلى الخلافة العثمانية كتعويض رمزي عما فقدوه من سلطة ونفوذ. ثم إن التوسع البريطاني في حوض المحيط الهندي ما بين عامي ١٨٦٥ و ١٩٢٦م،

مديرًا لنظارة العلوم والفنون. ثم تفرغ في حركة ندوة العلماء، وكان عضوًا نشيطًا فيها، والمشرف التعليمي فيها لثمانية أعوام، ثم استقال وأسس المجمع العلمي المعروف بدار المصنّفين في أعظم كره^(١).

المطلب الرابع: الحركات السياسية:

بدأ المسلمون الهنود العمل السياسي رسميًا مطلع القرن العشرين بتأسيس الرابطة الإسلامية على يد أنصار حركة عليكره عام ١٩٠٦م؛ ردًا على تأسيس الهنادكة للمؤتمر الوطني الهندي عام ١٨٨٥م، وبهدف تمثيل مصالح المسلمين إزاء الأكثرية الهندوكية لدى بريطانيا. لكن الرابطة تحولت إلى حركة جماهيرية عارمة بقيادة محمد علي جناح (١٨٧٦-١٩٤٨م) بعدما تبنى طرح الدولة المستقلة عام ١٩٤٠م. ورغم أن شودري

رحمت علي (١٨٩٥-١٩٥١م) هو الذي أسس حركة باكستان عام ١٩٣٣م مستتبًا اسم باكستان من حروف المقاطعات ذات الأغلبية المسلمة، لكن جناح سيحتكر الأضواء ويقود الحراك الشعبي نحو تأسيس باكستان خلال سبع سنوات.

أما أولى محاولات الانتظام سياسيًا تحت عناوين إسلامية فكرية فتُعزى إلى أبي الكلام آزاد (١٨٨٨-١٩٥٨م) الذي دعا عام ١٩١٣م إلى تأسيس حركة حزب الله؛ بهدف نشر الوعي بين المسلمين، وحماية مصالحهم، فيما ستكون حركة الخلافة التي انطلقت عام ١٩١٩م الأولى من نوعها في قدرتها على تحريك الجماهير، ولو لهدف يتخطى الهند نفسها ولفترة قصيرة.

وعلى أنقاض حركة الخلافة ستبرز أحزاب وحركات سياسية أقل انتشارًا وذات أنماط فكرية وتنظيمية مختلفة، مثل أحرار الإسلام (١٩٢٩م) وهي

(١) المرجع نفسه، ص ٧٧، هامش رقم ٢.

(2) See: Muhammad Arshad, Muslim Politics and Political Movements in the Punjab, 1932-1942, Thesis presented to Islamic University Bahawalpur for the Degree of PHD in History, 2001, p.74-131, 220-316.

(٣) عبد المنعم النمر، مولانا أبو الكلام آزاد حياته وجهاده الوطني في سبيل تحرير الهند، أطروحة دكتوراه في جامعة الأزهر، قسم التاريخ، عام ١٩٧٢، ص ١٦٨.

وسعى غاندي لاستغلال الغضب الإسلامي من أجل إعلان العصيان المدني في الهند. وكان هذا ما اقترحه آزاد من قبل في مقالات (الهلال)^(٢)، وعندما ألغى مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨م) الخلافة عام ١٩٢٤م رفض أنصار حركة الخلافة هذا القرار، لكن ما لبثت الحركة أن تهاوت^(٤).

٢- الجماعة الإسلامية:

تقلّب أبو الأعلى المودودي بين الاتجاهات الفكرية السائدة في عصره، فكان في بداياته مؤيداً للمؤتمر الوطني وجمعية علماء الهند وحركة الخلافة، وانضمّ لفترة قصيرة إلى حركة الهجرة المنبثقة من حركة الخلافة عام ١٩٢٠م، والتي كانت ترى أن الهند دار حرب ويجب الخروج منها، لكنه لم يجد في الرابطة الإسلامية الإطار الصحيح لإقامة دولة إسلامية مستقلة، ولا رأى في جماعة التبليغ ما يؤهلها للنهوض بمسلمي الهند^(٥).

تأثر بالاتجاه التحديثي العام لسيد أحمد خان، دون أن يتقبل ميله للحضارة الغربية أو مولاته لبريطانيا^(٦).

وكان أبو الكلام آزاد رمزاً كبيراً في مرحلة مبكرة، لكنه انتقد انقلابه الفكري وتسويقه للقومية المركبة بين المسلمين والهنداكة. وسعى لتحصيل الدراسة الدينية وفق المنهج الديوبندي المحافظ لكنه رفض بعض المواقف الفكرية والسياسية لعلماء هذه المدرسة^(٧).

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧١-١٧٤.

(4) Minault, The Khilafat Movement Religious Symbolism and Political Mobilization in India, op. cit., p.203.

(5) See: Seyyed Vali Reza Nasr, Mawdudi and the Making of Islamic Revivalism, Oxford University Press, New York, 1996, p.39.

(6) Roy Jackson, Mawlana Mawdudi and Political Islam, Authority and the Islamic state, Routledge, London and New York, 2011, p.15.

(7) Nasr, Mawdudi and the Making of Islamic Revivalism, op. cit., p.17-18.

مع انتشار الملاحة بالسفن البخارية، وافتتاح قناة السويس، وهيمنة بريطانيا على مداخل الجزيرة العربية هو ما جعل الحجّ إلى مكة تحت رعاية الإنكليز ونقطة تجاذب بينهم وبين العثمانيين^(١)؛ لذا حين دعا السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (حكم ما بين عامي ١٨٧٦ و١٩٠٩م)، إلى الجامعة الإسلامية أصبح مسلمو الهند هم الأقرب مع التوجهات الإسلامية الجديدة للدولة العثمانية في سعيها لمدّ نفوذها المعنوي خارج حدودها، فتجلّى التضامن معها لدى غزو إيطاليا عام ١٩١١م وحروب البلقان (١٩١٢-١٩١٣م).

فلما تعرّضت للخطر إبان الحرب العالمية الأولى تأسست حركة الخلافة على يد مولانا محمد علي جوهر وأخيه شوكت، وذلك بعد خروجهما من السجن في آخر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩١٩م^(٢). وبلغ الذروة خلال الحرب العالمية الأولى عبر حركة الخلافة التي ستكون النشاط السياسي الأبرز لمسلمي الهند في القرن العشرين.

إنّ حركة الخلافة هي اللحظة النادرة التي التقى فيها المسلمون والهنداكة في جبهة واحدة ضد الإنكليز، كما كانت بداية التحالف الوثيق بين محيي الدين أحمد المعروف بأبي الكلام آزاد والمهاتما غاندي (١٨٦٩-١٩٤٨م)؛ حيث كان لأزاد موقفه المناهض للاحتلال البريطاني في مجلته (الهلال) منذ صدورها عام ١٩١٢م، مع حملته الشديدة على حركة عليكره بسبب ولائها لبريطانيا.

(1) See: Michael Christopher Low, Empire of The Hajj: Pilgrims, Plagues, and Pan-Islamic, A Thesis Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Arts in the College of Arts and Sciences Georgia State University, 2007.

(٢) النمر، مولانا أبو الكلام آزاد حياته وجهاده الوطني في سبيل تحرير الهند، مرجع سابق، ص ١٧٠.

غربي الهند، فيما كان المودودي يهدف لتكوين التنظيم الإسلامي البديل عن الرابطة الإسلامية بالدرجة الأولى.

ومع وفاة إقبال عام ١٩٣٨م دبّ الخلاف بين المودودي ونياز علي، فاستقال من إدارة الوقف، وانتقل إلى لاهور مستكماً مشروع التنظيمي ومؤسساً الجماعة الإسلامية عام ١٩٤١م^(٤).

المطلب الخامس: الاتجاهات العقديّة والفكرية والتنظيمية:

تميّز أبو الأعلى المودودي عن سبقيه أو عاصره من أصحاب الفكر الإصلاحية أو التجديدي بإطلاقه مفهوم الحاكمية الإلهية متضمناً لكل ما سبق من دعوات إلى نفي الشرك في الألوهية مع السرهندي والدهلوي وسائر العلماء العاملين في شبه القارة الهندية، مع إضافة نوعية، وهي اعتبار السلطة من الشروط الضرورية لتحقيق الحاكمية في الأرض، ولا بد من القبض عليها لإنفاذ شريعة الله في كل مناحي الحياة، من خلال تكوين نخبة سياسية إسلامية جاهزة لتحمل هذا العبء على أحسن وجه ممكن.

فكان تأسيس الجماعة الإسلامية عام ١٩٤١م تعويضاً عن فشل جمعية علماء الهند في تكوين رؤية إسلامية صافية بعيداً عن المؤتمر الوطني الهندي ذي التمثيل الهندوكي، كما كانت الجماعة هي الضدّ النوعي للرابطة الإسلامية بقيادة محمد علي جناح الذي أيّد بتحريض من محمد إقبال إقامة باكستان كدولة منفصلة لمسلمي شبه القارة الهندية، لكن على أساس رؤيته الخاصة عن القومية الإسلامية.

وذهب المودودي إلى أن الشعار الإسلامي لا يكفي لتكون الدولة إسلامية، بل لا يكفي ترديد الشهادتين ليكون المسلم صحيح العقيدة؛ إذ عليه أن يكون مؤمناً بحاكمية الله في كل شيء، وأن لا يشرك مع الله

وأعجب بالفيلسوف والشاعر محمد إقبال لكنه لم يكن ليوافق على توسّعه في الاجتهاد أو التأويل، ورأى في محمد علي جناح زعيم الرابطة الإسلامية مواصفات السياسي الناجح، لكنه فنّد رؤيته عن القومية الإسلامية^(١).

وكان إلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م محطة مفصلية في مسيرة المودودي الذي حمّل القوميين الأتراك مسئولية القضاء على الدولة الإسلامية متأثراً بالأفكار الغربية، كما أخذ على القوميين العرب خيانتهم وقد ثاروا ضد الخلافة العثمانية بالتحالف مع بريطانيا، معتبراً أنّ القومية لا تضمن مصالح الإسلام بسبب طابعها العلماني^(٢).

بدأ المودودي حياته العملية صحافياً، واشتهر عندما تصدّى لمقولة غاندي: إن الإسلام دين العنف، فنشر كتابه الفكري الأول تحت عنوان (الجهاد في الإسلام) على حلقات في جريدة (جمعية) التابعة لجمعية علماء الهند عام ١٩٢٧م، فلقى الكتاب قبولاً واسعاً من السياسيين والعلماء المسلمين.

وابتداءً من عام ١٩٢٨م انخرط المودودي في البحث التاريخي، متخلياً عن مهنة الصحافة^(٣). وما بين عامي ١٩٣٢ و١٩٣٧م عمل على مسألة التجديد الديني نظرياً، لكنه في عام ١٩٣٩م أصبح مديراً للوقف باسم (دار الإسلام) في قرية باثكوت بالبنجاب بدعوة من شودري نياز علي (١٨٨٠-١٩٧٦م) ورعاية محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨م)، إلا أن المشروع السياسي الذي عمل عليه المودودي يختلف عن المشروع التربوي الذي كان إقبال يخطّط له عبر تأسيس ما يشابه دار العلوم بهدف تكوين جيل جديد من المثقفين أو الطليعة اللازمة لدى تأسيس وطن قومي للمسلمين في شمال

(1) Ibid., p.40.

Jackson, Mawlana Mawdudi and Political Islam, Authority and the Islamic state, op. cit., p.159.

(2) Nasr, Mawdudi and the Making of Islamic Revivalism, op. cit., p.20-21.

(3) Ibid., p.23.

(4) Ibid., 34-37, 39.

وهي أكبر وأنجح وسيلة إلى نيل رضا الرب تعالى^(٥).

ويعتبر المودودي أن الناس جميعاً غافلون عن هذه الغاية، أما المسلمون فيعدّونها غاية سياسية بحتة، ولا يكادون يفتنون لمكانته وأهميته في الدين، وأما غير المسلمين فيما نشئوا عليه من التعصّب على الإسلام ولجهلهم وقلة معرفتهم بتعاليمه لا يعلمون أصلاً أنّ قيادة الفُجّار والفُسّاق إنما هي منشأ جميع الكوارث والنكبات التي مُني بها الجنس البشري، بل إنّ سعادة البشر إنما تتوقف على أن يكون زمام أمور الدنيا بأيدي الصالحين العادلين^(٦).

ويرى أنه قد استبدّ بزمام الأمر فيها رجال انحرفوا عن الله تبارك وتعالى، وانغمسوا بأجمعهم في عبودية المادة، وتكالبوا على شهوات هذه الدنيا الدنيئة، فإن أراد أحد اليوم أن يطهّر الأرض، ويستبدل فيها الصلاح بالفساد، والأمن بالاضطراب، والأخلاق الزكية بالإباحية، والحسنات بالسيئات، فلا يكفيه أبداً أن يدعوهم إلى الخير ويعظهم بتقوى الله وخشيته ويرغبهم في الأخلاق الحسنة، بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الإنسانية الصالحة ما يتمكّن من جمعه، ويجعل منها كتلة متضامنة وقوى جماعية تمكّنه من انتزاع زمام الأمور من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا وإحداث الانقلاب المنشود في إمامة الأرض^(٧).

أما تنظيمياً، فمرّت الجماعة الإسلامية بأطوار مختلفة ما بين التأسيس إلى الوقت الراهن، مع الاضطرابات السياسية العميقة التي لم تسلم منها باكستان منذ قيامها، ما بين انقلابات عسكرية يتخلّلها حكم مدني يتناوب عليه حزبا الأغلبية أي الرابطة الإسلامية وحزب الشعب، دون أن تتمكن الجماعة من الفوز بقدر كافٍ من المقاعد في البرلمان حتى وهي

أحدًا في منح صلاحية التشريع لأي مخلوق مهما علا شأنه، معتبراً أنّ مسلمي العصر لا يدركون حقيقة التوحيد، ولا يفهمون دلالات لا إله إلا الله كما كان يفهمها العرب الأوائل^(١).

ورأى المودودي أنّ أصل الألوهية وجوهرها هو السلطة؛ من حيث إنّ حكمها على هذا العالم حكم مهيم على قوانين الطبيعة، أو من حيث إنّ الإنسان في حياته الدنيا مطيع لأمرها وتابع لإرشادها، وأنّ أمرها في حدّ ذاته واجب الطاعة والإذعان^(٢).

وعلى هذا، فمن يعتقد أنّ أمر كائنٍ ما من دون الله مما يجب إطاعته والإذعان له بغير سلطان من الله، فإنه يأتي من الشرك بمثل ما يأتي به الذي يدعو غير الله ويسأله، وكذلك الذي يدّعي أنه مالك الملك والمسيطر القاهر والحاكم المطلق بالمعاني السياسية، فإن دعواه هذه كدعوى الألوهية^(٣).

ولما كان هذا هو المقصود من مفهوم الحاكمية الإلهية، فإنّ الأساس الذي ارتكزت عليه دعامة النظرية السياسية في الإسلام بحسب المودودي أن تُنزع جميع سلطات الأمر والتشريع من أيدي البشر منفردين ومجتمعين، ولا يؤدّن لأحد منهم أن ينفذ أمره في بشر مثله فيطيعوه، أو ليسنّ لهم قانوناً فينقادوا له ويتبعوه، فإن ذلك أمر مختص بالله وحده لا يشاركه فيه أحد غيره^(٤).

ومن الناحية الفكرية، فإنّ الغاية النهائية من وراء الكفاح بحسب المودودي إحداث الانقلاب في القيادة، وتطهير الأرض من أدناس قيادة الفسقة الفجّرة وسيادتهم، وإقامة نظام الإمامة الصالحة الراشدة،

(١) المودودي، المصطلحات الأربعة في القرآن، تعريب محمد كاظم سباق، دار القلم، الكويت، ط ٥، ١٩٧١، ص ٧-٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣١-٣٢.

(٤) المودودي، نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون والدستور، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٦٩، ص ٣١.

(٥) المودودي، الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية، تعريب محمد

عاصم الحداد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠، ص ٦.

(٦) المصدر نفسه، ص ٦-٧.

(٧) المصدر نفسه، ص ٧-٨.

متحالفة مع سواها من أحزاب إسلامية.

واضطرت إلى الانقسام إلى أربعة جماعات مستقلة بعد انقسام الهند، ثم باكستان بخروج بنجلادش، وتحوّل كشمير إلى منطقة متنازع عليها بين الهند وباكستان، فيما اختار المودودي باكستان لتكون مركز عمله في سبيل أن تقوم فيها دولة إسلامية حقيقية.

إن الغاية النهائية من وراء الكفاح - بحسب المودودي - هي إحداث الانقلاب في القيادة، وتطهير الأرض من أدناس قيادة الفسقة الفجرة وسيادتهم، وإقامة نظام الإمامة الصالحة الراشدة، وهي أكبر وأنجح وسيلة إلى نيل رضا الرب تعالى.

سنوات الحكم المدني بما يؤهلها لقيادة باكستان وتنفيذ مشروعها الإسلامي. وسنحت لها فرصة وحيدة في عهد الجنرال ضياء الحق (١٩٢٤-١٩٨٨م) الذي أطاح بزعيمة علي بوتو (١٩٢٨-١٩٧٩م) زعيم حزب الشعب، ودعا إلى أسلمة باكستان، حين أُتيحت للجماعة مناصب وزارية وقضائية وتربوية مهمة، لكن هذه الفرصة لم تطل حين بدأ ضياء الحق بالحد من نفوذ الجماعة التي انضمت إلى التحالف الداعي لاستعادة الديمقراطية في البلاد^(١).

خاتمة:

انتشر الإسلام في جنوبي الهند عبر التجار الدعاة والزهاد المتصوّفة قبل أن يبدأ الفتح العسكري من الشمال الغربي مطلع القرن الثامن الميلادي على يد محمد بن القاسم الثقفي (٧٢-٩٥هـ/٦٩١-٧١٣م).

ووفدت الطُرُق الصوفية من أفغانستان والعراق وآسيا الوسطى إثر فتوحات محمود الغزنوي ابتداء من عام ١٠٠١م ومحمد الغوري ما بين ١١٧٢ و١٢٠٦م انطلاقاً من الحدود المتاخمة لأفغانستان وإيران، حيث أسست لها مراكز في الشمال قبل أن تنتشر في أنحاء الهند، فكانت الجماعات الصوفية هي التنظيم الاجتماعي الرديف لمؤسسات الدولة أو البديل منها لا سيما عند انحسارها أو انهيارها، وكانت هي المنطلق الأساس لمختلف الحركات الإسلامية الحديثة في مواجهة التحديات المختلفة التي واجهت المسلمين بعد تهوي دولة الإسلام؛ حيث استلهمت منها معاني الانضباط والطاعة والانقياد لشيخ الطريقة والتنظيم التراتبي، في حين خرج أبرز إصلاحيي الهند ومجددي الإسلام

أما الجماعة الإسلامية في بنجلادش فعانت من أوضاع غير مستقرة، بسبب موقفها المنحاز إلى إسلام آباد أثناء حرب الانفصال عام ١٩٧١م، وقتالها إلى جانب الجيش الباكستاني؛ حيث تعرّض قادتها للنفي في البداية، ثم كان منهم وزراء برئاسة بيغام خالدة ضياء، وحُوكم أخيراً قادتها وحُكم عليهم بالإعدام، بتهمة ارتكاب جرائم حرب، بعدما سيطرت رابطة عوامي القومية على السلطة منذ عام ٢٠١٠م.

وفي الهند، ابتعدت الجماعة الإسلامية عن العمل السياسي المباشر، وحافظت على الاتجاه التجديدي الأساسي الذي دعا إليه المودودي كحركة تغيير اجتماعي ثوري، فيما قام في كشمير فرع مستقل للجماعة.

أما في باكستان نفسها، فتحوّلت الجماعة الإسلامية من جماعة ضغط ما بين عامي ١٩٤٨ و١٩٥٤م - حيث دفعت المجلس التأسيسي آنذاك لاعتماد حاكمية الشرع في الدستور الباكستاني- إلى حزب سياسي نخيوي عام ١٩٥٤م بتشجيع من المودودي نفسه، رغم معارضة بعض قيادات الجماعة، وإلى حزب جماهيري عام ١٩٩٢م بقيادة أمير الجماعة قاضي حسين أحمد (١٩٢٨-٢٠١٣م)، حين أسس الجبهة الإسلامية الباكستانية لتوسيع القاعدة الشعبية للجماعة.

لكن الجماعة لم تفرز في أي انتخابات نيابية طيلة

(1) Abdul Rashid Moten, Mawdudi and the Transformation of Jamaat-e-Islami in Pakistan, The Muslim World, Volume: 93, Issue: ¾, 2003.

بالإعدام بسبب انتقاده الطائفة القاديانية وموقعها في باكستان عام ١٩٥٣م، وما حصده من فشل متتابع في الانتخابات النيابية، أُضيف إليه بعد وفاته بروز حركات إسلامية تنتهج العنف لتحقيق الحاكمية التي نظّر لها المودودي في بداية مسيرته الحركية، بعدما سرى الاتجاه نفسه في مصر خاصة بتأثير من أفكار المودودي في كتابات سيّد قطب أحد أبرز منظري جماعة الإخوان المسلمين.

أما الجماعة الإسلامية فالتزمت بالنهج الإصلاحية من داخل النظام السياسي كما هو دأب التيار الرئيسي في جماعة الإخوان، فكان الخطاب النظري غير متلائم مع التنازلات العملية التي قدّمتها الجماعة الإسلامية لدى اندراجها في النظام القائم الذي تعتبره غير إسلامي، كما لدى تعويلها على رأي الناس في الانتخابات الديمقراطية بهدف الوصول إلى السلطة وتحكيم شرع الله.

ثم إن سِمَة النخبوية لدى الجماعة التي ترى من أولوية عملها التأثير على النخبة السياسية لإحداث الانقلاب المطلوب في المجتمع، قد أضعفت قدرتها على مخاطبة الجمهور الواسع لاستمالاته إليها، وتأييد أهدافها المعلنة، فظلت الجماعة لاعبًا ثانويًا في المعادلة السياسية بباكستان حتى في عهد الجنرال ضياء الحق الذي بدأ مسار الأسلمة، فيما احتلّ فرع الجماعة في الهند وفي بنجلادش موقعًا أكثر هامشية في الحياة السياسية بسبب انفصال باكستان ثم بنجلادش، وما أثارته تلك الأحداث من مشكلات بنيوية عميقة.

خلاصات:

١- بعد التجربة الطويلة للحركة الإسلامية في شبه القارة الهندية، والتي تقلّبت على مختلف الأساليب

من صفوف المتصوّفة، وأمامهم تحديّان صعبان: نقض الانحرافات المتراكمة في عقائد المتصوفة وسلوكياتهم، والتصدي لانحرافات بعض الحُكّام وافتئاتهم على الإسلام وشعائره.

ومن الحواضن الاجتماعية السائدة، انطلقت الحركات الإسلامية المختلفة الأنماط والأساليب والأفكار، وصولاً إلى الجماعة الإسلامية التي يمكن اعتبارها الممثل الرئيس للإسلام السياسي في شبه القارة الهندية، وخاصة في باكستان، بعد انفصال فرعها في الهند ثم في بنجلادش، كما أنها إلى حدّ كبير خلاصة الآراء والتجارب السابقة فكريًا وتنظيميًا مع إضافات نوعية على هذين المستويين؛ بحيث لا يمكن إدراك أبعاد التجربة المعاصرة دون استرجاع المسار الإصلاحية والتجديدي على مدى أربعة قرون، من أجل تتبّع محطات التطور والاستدراك من تجربة إلى أخرى.

فسلسلة المجدّدين تبدأ من السيّد أحمد السرهندي، ثم شاه ولي الله الدهلوي، في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين على التوالي، لتتطوّر في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين حركات إصلاحية ذات توجّهات ومناهج مميزة، وليبرز عدد من المفكرين الأفاضل الذين دخلوا في تنافس حادّ فيما بينهم لتسويق آرائهم وخياراتهم الدينية والسياسية، قبيل البتّ بمصير الهند استقلالاً عن بريطانيا وتشقّقًا بين مكوناتها الدينية والقومية في النصف الأول للقرن العشرين.

لكن اندراج الجماعة الإسلامية في المسار السياسي لدولة باكستان لم يحقق الآمال المعلقة على هذا التنظيم الحدائي شكلاً والتجديدي مضموناً، فما لقبه المودودي من اضطهاد في دولة المسلمين، اعتقالاتاً له في مناسبات عدة منذ الانفصال، وحكمًا عليه

والهيمنة على قراراتها المصيرية، وإمساك الجنرالات باتجاهات الحياة السياسية، ما جعل رهان الحركة الإسلامية عامة على الانتخابات النيابية من أجل التغيير من باب الأمان، كما ثبت في مرات عدة بما يشبه القاعدة المطردة.

علمًا أن خيار تحويل الجماعة الإسلامية إلى حزب سياسي وهي الأكثر التصاقًا بقاعدة فكرية شمولية -، تسبّب بانشقاقات متتالية عنها من شخصيات تعارض التخلي عن الخطاب الأصلي الذي تعبّر عنه الكتابات السابقة للمودودي، وهو ما أدى إلى تحويل طبيعة الجماعة نفسها، والانحراف التدريجي عن مهمتها.

٣- إن الحركة الإسلامية في شبه القارة الهندية بحاجة إلى قراءة عميقة لمجمل تجربتها العريضة، من أجل فهم أفضل للبيئة المتبدّلة التي تعمل فيها، وفي وجه التعقيدات الاجتماعية والثقافية والمصاعب السياسية والدعوية، لا سيما مع صعود الجماعات الجهادية بقوة في شبه القارة الهندية وفي باكستان خاصة منذ أيام الجهاد الأفغاني في ثمانينات القرن العشرين، والتي باتت عاملاً أساسياً في صنع السياسات المحلية منذ أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، وسبباً مباشراً للغزو الأمريكي لأفغانستان، وما أفرزه ذلك من تيارات تحبذ استخدام العنف وسيلة أساسية في التغيير الاجتماعي وتحقيق الأهداف السياسية، وهو معطى يزداد أثره في تهميش الجماعات الإسلامية المنغمسة في مجال الدعوة أو المنخرطة في العمل السياسي المباشر، ويؤثر سلباً في مستقبل دورها في السلطة والمجتمع.

فانتهاج سبيل العنف وجعله الوسيلة المعتمدة لدى بعض الحركات الإسلامية لإحداث التغيير، يبدّل البيئة العامة التي يعمل عليها التيار الإسلامي الرئيس، ويجعلها أكثر تعقيداً وصعوبة، ما يستدعي الخروج من حال الجمود الفكري والتعبوي لدى التيار الإسلامي السياسي، وإفراز قيادات شعبية واعدة، وصياغة أفكار تلامس مشكلات الواقع ولا تجافي المبادئ.

ومناهج العمل، يبدو جلياً أن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية المضطربة لم توفر احتمالات النجاح بما يتوازى مع الجهود التي بذلها الحركيون الإسلاميون بهدف إحداث التغيير المطلوب، استرداداً لموقع الإسلام في الهند، ثم في الدول القومية الجديدة في أفضل الحالات، أو تحسين الوضع الإسلامي العام على أقل تقدير، في كافة المجالات التربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ويعود السبب الرئيس قبل انفصال الهند إلى الخلاف الحاد بين كبار العلماء والمثقفين العلمانيين حول مشروع باكستان، ما أدى إلى هدر الجهود والطاقات.

أما بعد تأسيس باكستان، وتبعثر الكفاءات العلمية والدعوية، وانشطار الجماعات الإسلامية جغرافياً، وتفاقم الخلاف بين الإسلاميين والعلمانيين، فقد واجهت الحركة الإسلامية تحديات جديدة مع قيام أنظمة عسكرية في باكستان وبنجلادش على فترات طويلة، مع تحمّل أعباء إضافية بسبب تداعيات تقسيم الهند ثم باكستان، وما ولّده ذلك الحدث المتكرر من أحقاد وضغائن.

ثم إن الحركات الإسلامية تأرجحت بين النخبوية والشعبوية، وبين طلب التغيير لدى النخبة أو تغيير الجماهير، وهو ما استغلته الأحزاب السياسية التقليدية ذات القدرة على تجييش الجماهير لحصد النتائج والوصول إلى السلطة.

٢- إن تحكّم الجيش بمفاصل السلطة في باكستان منذ الاستقلال عن الهند، يعود إلى ما يتميز به إقليم البنجاب من موقع محوري في قيام باكستان، ولكون هذا الإقليم هو خزّان الجيش الباكستاني تاريخياً ومنذ زمن الاحتلال البريطاني.

وإن هذا الوضع الموروث طبع دولة المسلمين في باكستان بطابعه الخاص، وكان السبب الرئيس وراء انفصال بنجلادش عام ١٩٧١م، وفي عسكرة الدولة

معلومات إضافية

قصة الإسلام في الهند:

شملت الهند قديماً: الهند، وباكستان، وبنجلاديش، وسريلانكا، والمالديف، وانتشرت فيها الهندوسية والبوذية، وقليل منهم اعتنق النصرانية أو اليهودية. وكان للعرب صلات تجارية معها، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملك «ماليبار» يدعو إلى الإسلام. ويروى أن ملك «كدنغلور» زار النبي صلى الله عليه وسلم، كما وصل الدعوة إليها.

وفي عهد الراشدين وصلت قوات إلى شمال بومباي، وفي خلافة معاوية أرسل جيشاً إلى السند، وفي خلافة عبد الملك بن مروان أرسل محمد بن قاسم لغزوها، فبدأ في فتحها، وكان ذلك بداية انتشار الإسلام فيها. وكاتب عمر بن عبد العزيز ملوك السند فأسلم بعضهم، وفي عهد هشام بن عبد الملك تم القضاء على الفتن.

وفي الخلافة العباسية ظهرت الاضطرابات؛ ففي خلافة هارون الرشيد ولّى العديد من الولاة على السند حتى وصل عمر الهبّاري إلى حكمها فأطاعه الناس، ولما ضعفت الخلافة خضعت للسامانيين، ثم جاء محمود الغزنوي ونشر الإسلام حتى أسلم ملك كشمير على يديه، وبعده تناحر الغزنويون فتمكّن منهم السلاجقة، ثم التركمان، ثم الغوريون، ثم المماليك، فحفظوا الهند من هجمات المغول، ثم بدأ حُكم الخَلجيين، وجاء في أواخره الدعوة لإعادة الهندوسية.

ثم تفكّكت الهند إلى ستّ دُول؛ حتى جاءت أسرة اللوديين فاستعادت سلطنة دِهَلِي مكانتها، ثم ضعف اللوديون، فبدأ حكم المغول وهو يُعتَبَر الحكم الأخير للمسلمين في الهند، فقرب جلال الدين أقوى ملوك المغول إلى جانبه زعماء الهنادكة، فأصبحت مملكته تشمل الهند كلّها، عدا الطرف الجنوبي فكانت تحكمه ممالك بيجابور وكولكنده الإسلاميتين، وفيجايانكر الهندوسية، فأراد إنشاء عقيدة تجمع كل الأديان فوقف في وجهه العلماء.

وبدأت أطماع البرتغاليين فتمركزوا على ساحل الهند الغربي، ونشط الهولنديون، وتحرك الفرنسيون، ولحق بهم الإنجليز، فأصدروا مرسوماً ملكياً بتكوين شركة تجارية إنجليزية في الهند، فبدأت بأكشاك صغيرة، ثم جعلوا لها حرساً من الإنجليز، فتكون الجيش، وبدأ القضاء على الدولة المغولية، فتم الاعتراف بحكم الشركة على البنغال وأوريسة وبهار، وتم بناء مستعمرة تجارية في كلكتا، فوقف حاكم (ميسور) في وجههم، فتحالفوا مع المرهتا، إلا أنه استطاع هزيمتهم، فعاهد الفرنسيين، وأتفق معهم على الدفاع المشترك، فتوفي فجمع الحاكم العام للشركة جيوش الشركة والحلفاء، فانتقل الحكم إلى التاج البريطاني.

فبدأت حركات الجهاد الإسلامية، وعمل الإنجليز على إثارة النزعات الطائفية، فأُنشئ حزب المؤتمر الهندي فأخذ يُبَادِي بتخليص الهند من الغريباء، على أن المسلمين هم الغريباء، فظهر «حزب الرابطة الإسلامية»، وأنشئت الصحف المدافعة عن الإسلام، وفي الحرب العالمية الأولى وُعدوا بالاستقلال، فنكث الوعد، فقامت المذابح للتجمعات (السلمية)، وبدأت الاضطرابات، فظهرت الدعوة إلى الديانة «الهندوكية».

وطالب حزب الرابطة باستقلال المسلمين في دولة مستقلة في باكستان، بينما رأى آخرون ضرورة المحافظة على الوحدة الوطنية من خلال حزب المؤتمر، فظهرت الجماعة الإسلامية وجماعة التبليغ.

وفي الحرب العالمية الثانية وُعدوا بالاستقلال بشروط فرفضها الهنود، ثم أصدر البرلمان البريطاني قانون استقلال الهند، فتكوّنت الهند وباكستان، وأجبرت الهند حيدر آباد، وجوناغاد، وكشمير- التي قرّر حكامها المسلمون أن ينضمّوا إلى باكستان أو الاستقلال- على الانضمام إليها، في حين استقلّت سيلان ونيبال وبوتان، وكوَّنت دُولاً مستقلةً.

أما كشمير فبدأ النزاع بين الهند وباكستان عليها، وقد استمر الحكم الإسلامي بها قرابة خمسة قرون حكمها السلاطين المستقلون، ثم المغول، ثم الأفغان، ثم حكمها الشيخ حيث انتشر الظلم، ثم باع البريطانيون ولاية جامو وكشمير إلى عائلة الدوغرا.

ومن ثمّ نشأت ثلاثة حروب بين الهند وباكستان، فظهرت جماعات الجهاد الكشميري، وبسبب التقسيم قامت المذابح، ورغم ذلك ظلّ في الهند ما يقرب من ١٥٠ مليون مسلم يتحمّلون الاعتداءات، ويعانون من مشاكل الفقر والتخلف التعليمي، وما تزال هناك طائفة تعمل على عودة هذا النور إلى هذه المنطقة من جديد، رغم ما تعانيه من مشاكل.

الهند قبل الإسلام:

وعند استعراضنا لأحوال الهند قبل الإسلام نجد أن الانحطاط الخُلقي والاجتماعي والعقديّ كان السّمة الظاهرة، وقد ظهر هذا الانحطاط جلياً من مستهلّ القرن السادس من الميلاد.

ومن مظاهر هذا الانحطاط كثرة المعبودات والآلهة كثرةً فاحشة، والشهوة الجنسية الجامحة، والتفاوت الطبقي المجحف، والامتياز الاجتماعي الجائر.

فقد وُجِدَتْ في الهند قبل الإسلام مجموعة من الديانات، منها الهندوسية أقدم هذه الديانات في الهند، تليها البوذية التي انتشرت قبل الإسلام بنحو خمسمائة سنة، وأعداد قليلة ممن يعتنقون المسيحية واليهودية.

ولا يمكننا التحديد الدقيق للاحتكاك الأوّل بين الهند والعرب، إلاّ أنّ الثابت تاريخياً أن العرب كانوا على صلة تجاريّة بالهند قبل الإسلام؛ حيث وصلت سفنهم إلى أغلب المدن الهندية؛ بل وذهبوا إلى خليج البنغال، وبلاد الملايو، وجزر إندونيسيا، حتى كوّنوا لهم جالياتٍ عربية في بعض هذه البلاد.

المصدر:

انظر موقع قصة الإسلام على الرابط التالي: <http://islamstory.com/ar/>



خامسًا: التحوّلات الاقتصادية

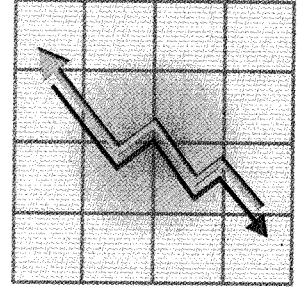
■ حنفي عوض

■ العرب .. ومائة عام من التبعية (قراءة في معدلات التنمية في العالم العربي)

■ عبد الحافظ الصاوي

■ التحوّلات الاقتصادية عقب الحرب العالمية الأولى وأثرها على العالم الإسلامي

العرب.. ومائة عام من التبعية.. قراءة في معدلات التنمية في العالم العربي



حنفي عوض

خبير اقتصادي

ملخص الدراسة

عرف العالم تجارب لتجمعات إقليمية مختلفة، شهدت هذه التجارب إخفاقات ونجاحات، ولكن في النهاية عملت هذه التجمعات الإقليمية على إيجاد مصالح مشتركة، سواء كانت تلك المصالح قاصرة على الجوانب الاقتصادية، أو تتعداها لتشمل جوانب سياسية وثقافية وحضارية. إلا أن التجربة العربية اختلفت عن هذه التجارب من حيث إنها كانت الأكثر تراجعاً عن تحقيق حالة من النجاح لكيان إقليمي، تجمعها العديد من عوامل الوحدة.

ويعد أن نالت معظم الدول العربية استقلالها السياسي مع نهاية النصف الأول من القرن العشرين، نشطت الدعوة لوجود مشروع للتكامل الاقتصادي العربي، بل كانت الآمال أكبر من هذا بأن تتحقق الوحدة العربية الكاملة، ولكن الواقع كان مخالفاً لتلك الآمال.

إن التكامل الاقتصادي العربي في حد ذاته، كان المقصود منه الخروج من حالة التبعية بصورها المختلفة للغرب المستعمر، والوصول لحالة الاستقلال التام، والذي كانت أولى خطواته الاستقلال السياسي.

تتعدد مظاهر التبعية الاقتصادية، ولكن في ضوء تجربة العالم العربي نجد أن مظاهر هذه التبعية يمكن الإشارة إليها من خلال عدة محاور، وهي: التبعية التجارية، والتبعية المالية، والتبعية الغذائية، والتبعية التكنولوجية.

يمثل العالم العربي حالة مثيرة للاستغراب، فبعض دوله تمتلك فوائض مالية نتيجة الثروات البترولية منذ عقود، في الوقت الذي تعاني فيه بعض دوله من مشكلات تمويلية حادة، سواء لتمويل استثماراتها، أو لسداد مديونياتها الخارجية المتفاقمة، أو حتى تلك الدول المصنفة ضمن مجموعة الدول الأشد فقراً، والتي تعاني من عبء المديونية الخارجية، مثل السودان واليمن وموريتانيا وجيبوتي. وفي ظل هذه الازدواجية بين الغنى والفقر لدول العالم العربي، تُظل حالة التبعية المالية على الجميع.

ومن الضروري أن نشير إلى أن معالجة قضية التبعية على الصعيد الإقليمي، كما هو الحال في وضع العالم العربي، تقتضي السعي الحقيقي لتفعيل مشروع التكامل الاقتصادي العربي الذي تمت الدعوة له منذ أكثر من ستة عقود، إبان حصول العديد من الأقطار العربية على استقلالها السياسي.

ويستلزم ذلك إزالة العديد من التشوهات السياسية والاقتصادية والثقافية أولاً؛ حتى تكون هناك قابلية لتحقيق نوع من الاستقلال للقرار الاقتصادي العربي، أو ما يطرحة البعض من وجود تنمية عربية مستقلة.

لا يخفى على أحد تردي حالة العملية السياسية على الصعيد القطري للدول العربية؛ إذ تغيب الممارسة الديمقراطية عن غالبية هذه الدول، ولا يوجد تداول سلمي للسلطة عبر الانتخابات الحرة والنزيهة، ومن هنا يفتقد المواطن العربي لأهم الدوافع الشخصية والذاتية للطموح نحو تحقيق الاستقلال والخروج من التبعية؛ ولذلك فإن توفير حياة سياسية قوامها التداول السلمي للسلطة، واعتماد الانتخابات الحرة والنزيهة كآلية لتحقيق الاستقرار السياسي، يُعد من أهم لوازم استراتيجية الخروج من التبعية الاقتصادية.

العرب.. ومائة عام من التبعية.. قراءة في معدلات التنمية في العالم العربي



حنفي عوض

خبير اقتصادي

مقدمة:

عرف العالم تجارب لتجمعات إقليمية مختلفة، شهدت هذه التجارب إخفاقات ونجاحات، ولكن في النهاية عملت هذه التجمعات الإقليمية على إيجاد مصالح مشتركة، سواء كانت تلك المصالح قاصرة على الجوانب الاقتصادية، أو تتعداها لتشمل جوانب سياسية وثقافية وحضارية.

إلا أن التجربة العربية اختلفت عن هذه التجارب من حيث إنها كانت الأكثر تراجعاً عن تحقيق حالة من النجاح لكيان إقليمي، تجمعته العديد من عوامل الوحدة، ولديه تجارب سابقة على نيل استقلاله من الاحتلال الغربي، تمثلت في تجربة الوحدة الإسلامية؛ حيث استفادت منها الشعوب العربية في تحقيق الحريات الأربع (العمل، التملك، الإقامة، الانتقال) بصورة كبيرة.

وبعد أن نالت معظم الدول العربية استقلالها السياسي مع نهاية النصف الأول من القرن العشرين^(١)، نشطت الدعوة لوجود مشروع للتكامل الاقتصادي العربي، بل كانت الآمال أكبر من هذا بأن تتحقق الوحدة العربية الكاملة. ولكن الواقع كان مخالفاً لتلك الآمال، فمعظم الدراسات التي قوّمت تجربة التكامل الاقتصادي العربي، انتهت إلى نتيجة مفادها أن عوامل كثيرة ساعدت على عدم تحقيقه، إلا أن غياب الإرادة السياسية كان العامل الأبرز في فشل تجربة التكامل الاقتصادي العربي، ومن ثم عدم تحقيق الوحدة العربية الكاملة.

والتكامل الاقتصادي العربي في حدّ ذاته، كان المقصود منه الخروج من حالة التبعية بصورها المختلفة للغرب المستعمر، والوصول لحالة الاستقلال التام، والذي كانت أولى خطواته الاستقلال السياسي.

وقد أدى الواقع الاقتصادي للعالم العربي إلى نتيجة مهمة مفادها أنه من الصعب الحديث عن اقتصاد عربي، ولكن يمكن الحديث عن اقتصاديات لأقطار عربية^(٢).

ويؤيد هذه النتيجة ما نلاحظه من ذلك التفاوت في الأداء الاقتصادي والتموي بين الدول العربية، وكذلك اختلاف السياسات الاقتصادية (مالية، ونقدية، وتجارية، واستثمارية، وتشغيلية، وأجارية.. إلخ) من دولة عربية إلى أخرى، وأن أقصى ما يمكن عمله، وتؤدى في إطاره التقارير الإقليمية والدولية المعنية بالعالم العربي، هو مجرد تجميع بيانات ووضعها وفق مؤشرات جامعة، تعبّر عن واقع إحصائي، لا عن واقع عملي حقيقي.

(١) نالت بعض الدول العربية استقلالها في الخمسينيات، وبعضها في الستينيات، وتأخر بعض منها لأوائل عقد السبعينيات من القرن العشرين.

(٢) د. رمزي زكي، الاقتصاد العربي تحت الحصار، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، ص ٢٨.

الاقتصادية للخارج؛ بمعنى أن الدول المتقدمة -ولا سيما الدول الاستعمارية منها- تتحكم في اقتصاديات الدول النامية. وقد تولدت هذه التبعية من الناحية التاريخية؛ من خلال النمط الاستعماري للاستثمارات الأجنبية، والتي سادت في الدول النامية خلال القرن التاسع عشر بصفة خاصة^(١).

ويُفهم من هذا التعريف للتبعية الاقتصادية، بأنها فقدان الدول النامية للسيطرة على مواردها واقتصادياتها، وأن صاحب القرار في هذا الشأن هي الدول الاستعمارية، وأن أهم الأدوات التي استُخدمت في مجال التبعية الاقتصادية هي الاستثمارات الأجنبية بالدول النامية؛ حيث كانت هذه الاستثمارات توظف في مجالات تخدم اقتصاديات الدول الاستعمارية، دون النظر لمدى جدوى هذه الاستثمارات لاقتصاديات الدول النامية.

- ويذهب تعريف آخر للتبعية الاقتصادية في ضوء اعتبار التبعية كظاهرة وثيقة الصلة بالتخلف في الإطار الرأسمالي، وبناء على ذلك يتم تعريفها بأنها «تلك الحالة التي نشأت عن عملية تاريخية تم بمقتضاها إلحاق الدول المعروفة حالياً بدول العالم الثالث بالنظام الرأسمالي العالمي من منطلق عدم المساواة، وعدم تكافؤ الفرص»^(٢).

ويذهب صاحب هذا التعريف إلى أن ظاهرة التبعية الاقتصادية تتضمن عدة عناصر مهمة، منها: تقييد الإرادة الوطنية أو تعطيلها، من خلال شل قدرة الدول التابعة في اتخاذ القرارات، ورسم السياسات من منطلق المصلحة الوطنية وحدها، وأن اتخاذ القرارات

وهذا الأداء بطبيعته كان سبباً ونتيجة لاستمرار حالة التبعية الاقتصادية العربية للغرب وأمريكا، فلم تتجح دولة عربية على مدار المائة عام الماضية من المضي قدماً في تبني مشروع حقيقي للخروج من حالة التبعية إلى الاستقلال الاقتصادي، ومن هنا وجدنا أن الأداء الاقتصادي العربي، يكرس لاستمرار حالة التبعية، ولا يعمل من أجل تحقيق الاستقلال الاقتصادي، سواء على المستوى القطري أو الإقليمي.

وسوف تحاول هذه الدراسة قراءة الملامح العامة لظاهرة التبعية الاقتصادية العربية، من خلال الدراسات السابقة في هذا المجال، وكذلك من خلال الواقع المعيش لأداء الاقتصاد العربي.

مفهوم التبعية في اللغة:

عرّف (المعجم الوسيط) التبعية بكون الشيء تابعاً لغيره. وهو معنى يتسق مع المفهوم الشائع في الكتابات الاقتصادية الخاصة بالتنمية، وتفسير العلاقة التاريخية بين الدول المتقدمة التي كانت تستعمر الكثير من الدول النامية لفترات طويلة.

وجاء في معجم (المنجد) أن العرب يطلقون صفة التابع وهي اسم فاعل من (تبع) على «العبد أو الخادم الذي يتبع سيده كظله، يأتمر بأمره، يقوم على خدمته، يسهر على راحته، ويراعي مصالحه».

مفهوم التبعية الاقتصادية في الاصطلاح:

حظي مفهوم التبعية الاقتصادية بالعديد من التعريفات والشروح في الكتابات الاقتصادية الخاصة بالتنمية، وفيما يلي نشير إلى أبرز هذه التعريفات:

- تتميز اقتصاديات الدول النامية بالتبعية

(١) د. علي لطفي، التنمية الاقتصادية، مكتبة عين شمس، القاهرة ١٩٩٧، ص ٨٣.

(٢) د. إبراهيم العيسوي، قياس التبعية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، ص ١٣ و ١٧ و ١٨.

أ- التبعية التجارية:

تعد التبعية التجارية من أبرز الصور أو المظاهر للتبعية الاقتصادية، وهي الأسبق من حيث الممارسة من قبل الدول الاستعمارية تجاه الدول العربية وغيرها من الدول النامية، التي خضعت لاستعمار الدول الغربية^(١).

ب- التبعية المالية:

تتعدد صور التبعية المالية، فالدول الرأسمالية الغربية، كانت دومًا صاحبة التدفقات الرأسمالية للدول النامية، سواء في شكل الاستثمارات الأجنبية المباشرة أو غير المباشرة، أو في شكل المنح والقروض. بغض النظر عن مصدر التمويل الذي تدفع به الدول الرأسمالية لأسواق التمويل. فلدول الرأسمالية أكبر المؤسسات المالية وأسواق المال، فضلاً عن سيطرة الدول الرأسمالية على مقدّرات المؤسسات الدولية وإدارتها في ضوء منظومة التبعية الاقتصادية^(٢).

ج- التبعية الغذائية:

إنتاج الغذاء من أهم الأدوار المنوطة باعتبارها الأمن القومي لأية دولة، إلا أن أزمات الغذاء التي شهدتها العالم خلال الفترات الماضية، والتي كان آخرها عام ٢٠٠٧م، قد برهنت على تبعية الدول النامية للدول المتقدمة في مجال الغذاء، ففي الوقت الذي كانت الدول النامية تتكبد الكثيرة من المعاناة لتوفير القوت الضروري لمواطنيها، كانت الدول المتقدمة لا تألوا جهداً في إنتاج الوقود الحيوي من خلال المواد الغذائية. وقد شهدت الموازنات العامة للعديد من الدول النامية حالة من الارتباك نتيجة ارتفاع أسعار الغذاء، كما شهدت اقتصاديات هذه الدول حالة من التضخم المستورد، لنفس الأسباب^(٣).

ذات الطابع الاستراتيجي عادة ما تتخذ من قبل دول القلب الرأسمالي، وقد يكون ذلك بصورة غير مباشرة من خلال آليات تقسيم العمل الدولي التي تسيطر عليها الدول الرأسمالية.

وفي ضوء سيطرة الدول الرأسمالية على القرارات الاستراتيجية، فإنها لا تحرص على وجود تراكمات رأسمالية تساعد على قيام تنمية في الدول التابعة، وهو ما يُعد أحد صور الاستغلال للدول التابعة.

ونظرًا للأضرار الكبيرة التي تضر بمصالح الدول النامية، فإن ذلك يؤدي إلى خلق قوى محلية تعمل على وقف هذا النزيف، ومحاولة الوصول لحالة من الاستقرار الاقتصادي.

تعريف إجرائي للتبعية الاقتصادية:

يرى الباحث أن التبعية الاقتصادية تعني وجود حالة من العلاقة غير المتكافئة، والتي تميز مصالح أحد طرفي العلاقة على الطرف الآخر؛ لاعتبارات تتعلق بالقوة، أو سيطرة الطرف الأقوى على طبيعة العلاقات الاقتصادية، وبالتالي يتم توجيه آليات العلاقة بين الطرفين لصالحه، وإن كان ظاهر العلاقة أنها تتم وفق إرادة الطرفين ودون إكراه.

أولاً: مظاهر التبعية الاقتصادية:

تتعدد مظاهر التبعية الاقتصادية، ولكن في ضوء تجربة العالم العربي نجد أن مظاهر هذه التبعية يمكن الإشارة إليها من خلال عدة محاور، وهي: التبعية التجارية، والتبعية المالية، والتبعية الغذائية، والتبعية التكنولوجية.

وبطبيعة الحال ينطوي كل محور من هذه المحاور على العديد من المؤشرات الفرعية التي تعكس تكريس التبعية الاقتصادية، ولكن سنكتفي في هذه الدراسة بتناول المحاور الرئيسية، لاعتبارات المساحة المسموح بها للدراسة في إطار التقرير.

(١) د. عمر بن فيحان المرزوقي، التبعية الاقتصادية في الدول العربية وعلاجها في الاقتصاد الإسلامي، مكتبة الرشد، الرياض ٢٠٠٥م، ص ١٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٤.

د- التبعية التكنولوجية:

التقدم التكنولوجي للعديد من المنتجات، وبخاصة في مجال العدد والآلات يجعل الدول النامية في وضع تنافسي أقل بكثير من الدول الرأسمالية الغربية، فليست القضية مجرد قدرة هذه الآلات على الإنتاج بقدر كفاءتها الإنتاجية واستغنائها عن اليد العاملة.

ونظرًا لدخول التطور التكنولوجي في كافة مناحي الحياة فقد أصبحت الدول النامية في وضع لا يسمح لها سوى القيام بدور المتلقي والمستهلك للتكنولوجيا الرأسمالية الغربية.

آليات التبعية الاقتصادية:

اختلفت آليات التبعية الاقتصادية في الدول العربية بعد نيلها الاستقلال السياسي في منتصف القرن العشرين؛ حيث شهد الواقع الاقتصادي العالمي أدوات جديدة لسيطرة الاقتصاد الرأسمالي على مقدرات الاقتصاد العالمي، وبالتالي أصبحت اقتصاديات الدول العربية جزءًا من منظومة الاقتصاد العالمي، ولكن ليس بالضرورة أن تكون هذه المشاركة الاقتصادية العربية في منظومة الاقتصاد العالمي إيجابية. فلم تخرج هذه المشاركة عن طبيعة مشاركة باقي الدول النامية، من حيث كونها مجرد أسواق مفتوحة لمنتجات الدول الغربية الرأسمالية، أو حتى في مجال الاستثمارات، فأصبحت اقتصاديات الدول العربية مجرد مكان آخر للصناعات التقليدية والملوثة للبيئة، فضلاً عن وجود العمالة الرخيصة.

وترصد إحدى الدراسات⁽¹⁾ الآليات التي اتبعتها الدول الرأسمالية لاستمرار دوران الدول النامية في طوق التبعية، ومما يزيد من سيطرت الدول الرأسمالية على مقدرات الاقتصاد العالمي، وتتمثل هذه الآليات وفق

ما ذهبت إليه الدراسة، فيما يلي:

أ- خلق نماذج جديدة للاستهلاك في الدول النامية؛ استطاعت الاقتصاديات الرأسمالية عبر وسائل الإعلام والتسويق الحديثة أن تخلق طلباً غير حقيقي على منتجاتها في الدول النامية، وترتب على ذلك انخفاض معدلات الادخار بالدول النامية، وبالتالي ضعف قدرة الدول النامية على القيام بالاستثمارات اللازمة لمتطلبات التنمية بها، كما أن طبيعة المنتجات الرأسمالية لا تتناسب مع إمكانيات الدول النامية، إذا ما حاولت تصنيع تلك السلع بدلها، فهي سلع كثيفة استخدام رأس المال، بينما معظم الدول النامية، يناسبها فنون الإنتاجية عالية استخدام العمل.

ب- الاستثمارات الأجنبية المباشرة: الشركات متعددة الجنسية كانت صاحبة اليد الطولى في تدفقات الاستثمارات الأجنبية المباشرة في الدول النامية، وقد غلب على هذه الاستثمارات التوجه نحو الاستثمار في الصناعات الاستخراجية، أو تصدير المواد الأولية، بما يخدم الصناعات الرأسمالية الغربية. وقد نجحت هذه الشركات في تقديم نفسها للدول النامية من خلال شركاء محليين بالدول النامية، سواء من القطاع العام أو الخاص. إلا أن النتيجة النهائية لهذه الاستثمارات الأجنبية المباشرة، أنها لم تؤد إلى تغيير الوضع التنموي في الدول النامية، بل حافظت على علاقة تبعية الدول النامية للدول الرأسمالية الغربية؛ نظراً لحاجة الدول النامية الدائمة للتمويل.

ج- القروض والمنح: كانت أزمة المديونية أهم سمات عقد الثمانينيات من القرن العشرين؛ إذ كادت هذه الأزمة أن تعصف باقتصاديات العديد من الدول النامية، ومن بينها بعض الدول العربية، ولم تختلف المنح والمساعدات عن آلية القروض الغربية للدول النامية كثيراً.

إذ كانت شروط هذه المنح والقروض عادة في صالح الدول المانحة والمقرضة؛ من خلال اشتراطها توريد

(1) د. إبراهيم سعد الدين، النظام الدولي وآليات التبعية: آليات التبعية في إطار الرأسمالية متعددة الجنسيات، ورقة بحثية ضمن أعمال ندوة التنمية المستقلة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى 1987م، ص 101 - 130.



ميزة تنافسية لنفسها على صعيد الاقتصاد العالمي، ولقد مكّنها من ذلك الدور الذي تلعبه الشركات متعددة الجنسية في هذا المجال، وأصبحت الدول النامية أسيرة هذه التكنولوجيا التي لا تستطيع أن تنتجها لاعتبارات مالية لا قبل لها بها.

و- المساعدات الفنية والتدريب المشترك: هذا الباب كان الأوسع من حيث صرف إمكانات الدول النامية فنياً وعلمياً عن اهتماماتها المحلية، والاندماج في اهتمامات الدول الرأسمالية؛ نتيجة لما تقدمه الدول الرأسمالية من تمويل، وبالتالي فهي التي تحدد أجندة البحوث والتدريب، كما كان هذا الباب أحد وسائل هجرة العقول من الدول النامية، ومن بينها الدول العربية إلى الدول الرأسمالية.

ي- التسليح والمساعدات العسكرية: الإنفاق على تطوير الأسلحة لا تطبيقه اقتصاديات الدول النامية، وقد تخصصت الدول الرأسمالية في الإنفاق على تطوير وتحديث الأسلحة بشكل ملحوظ، ومن هنا وجدت الدول النامية، ومن بينها الدول العربية، أنها مضطرة

السلع والخبراء ووسائل النقل الخاصة بموضوعات القروض والمنح وبأسعار مبالغ فيها. مما جعل التساؤل المطروح على مائدة البحث، هو: من يساعد من؟

د- توظيف المنظمات الدولية: الصورة البارزة في هذا المضمار، هي الدور الذي لعبه كل من الصندوق والبنك الدوليين؛ حيث سيطرت الدول الرأسمالية على إدارة هذه المؤسسات، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، التي وُصفت من قبل بعض الباحثين بأنها البوابة الحقيقية للاستفادة من مساعدات كل من الصندوق والبنك الدوليين. كما تبنت تلك المؤسسات سياسات اقتصادية ترمي إلى تنفيذ سياسات اقتصادية واجتماعية لا تتناسب مع الأوضاع التنموية للدول النامية، ولعل تجربة بعض الدول العربية في الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين مع هذه المؤسسات خير دليل على زيادة تبعية الاقتصاديات العربية للدول الغربية.

هـ- السيطرة على المعلومات: استطاعت الدول الرأسمالية عبر ثورة المعلومات والاتصالات أن تخلق

الزراعة ما نسبته ٦, ٥٪ من إجمالي الناتج^(١).

ومن هنا نجد أن أداء الصناعات التحويلية للدول العربية يضعها في عدد الدول التابعة وفق المؤشر الخاص بمساهمة الصناعات التحويلية في الناتج، والذي يشترط أن تبلغ هذه النسبة في حدها الأدنى ١٠٪.

وقد انعكس هذا الأداء السلبي الذي يكرّس للتبعية، أن بلغت الواردات العربية الصناعية نسبة ٦٤٪ من إجمالي الواردات لعام ٢٠١١م، منها ٢٨٪ لواردات الآلات والمعدات، و١٩, ٣٪ للمصنوعات الأساسية، ونسبة ٦, ٦٪ للمصنوعات الأخرى.

ب- مؤشر التركيز السلبي للصادرات^(٢)، الاعتماد على

سلعة أولية للتصدير من أهم سمات الصادرات العربية؛ حيث تُظهر بيانات عام ٢٠١١م أن الوقود والمعادن يشكلان نسبة ٧٣, ٦٪ من قيمة الصادرات العربية للعالم^(٣)، وقد بلغت قيمة الصادرات العربية الإجمالية في نفس العام ١, ١ تريليون دولار، منها نحو ٨٨٠ مليار دولار صادرات الوقود والمعادن، وهو ما يعني أن باقي الصادرات العربية لم تتجاوز ٣٦٠ مليار دولار فقط. ولذلك تُعتبر أسعار النفط العالمية من أهم المؤشرات الحاسمة في أداء الاقتصاد العربي.

ويُعد هذا المؤشر من السمات اللازمة لأداء الاقتصاد العربي منذ سبعينيات القرن العشرين؛ حيث يعتمد

للحصول على ما هو أحدث في مجال التسليح، ولما كانت عملية التحديث رهناً على الدول الرأسمالية، فلم يكن بوسع الدول العربية إلا أن تكون مجرد أسواق للتسليح الغربي.

وقد نجحت الدول الرأسمالية في فتح باب التدريب المشترك لكسب ولاء المتدربين من الدول النامية لشراء أسلحتها.

ثانياً: التبعية الاقتصادية.. الآثار والنتائج:

قد يكون من الصعوبة بمكان السيطرة على البيانات الخاصة بفترة تمتد لمائة عام لرصد الآثار والنتائج التي أدت إليها ظاهرة التبعية الاقتصادية للدول العربية، وبخاصة أنه في النصف الأول من القرن العشرين

كانت معظم الدول العربية تحت وطأة الاحتلال، وبالتالي عاشت الدول العربية تبعية كاملة خلال هذه الفترة رغم إرادتها، وإن كانت هناك بعض المحاولات في إطار ما عُرف بالاستقلال الوطني.

ولكن يمكننا تناول بعض المؤشرات التي تظهر تجذر تبعية الدول العربية اقتصادياً للخارج، ولعل بيانات الأعوام القريبة تعكس

ما ترتب من آثار اقتصادية وديمومية سلبية على صعيد تكريس التبعية الاقتصادية في العالم العربي.

وفيما يلي الإشارة إلى بعض هذه المؤشرات:

١- تواضع الصناعات التحويلية، بيانات الناتج المحلي الإجمالي للعالم العربي في عام ٢٠١١م تشير إلى أن مساهمة قطاع الصناعات التحويلية لم يتجاوز نسبة ٩٪ من إجمالي قيمة الناتج المحلي للعالم العربي في نفس العام، بينما كانت مساهمة الصناعات الاستخراجية بحدود ٤٠, ٧٪، وكانت مساهمة قطاع

(١) التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠١٢م، ص ٢٦.

(٢) لمزيد من التفصيل حول طبيعة هذا المؤشر انظر، د. إبراهيم العيسوي، قياس التبعية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص ١٢٨. حيث يشير إلى أن الدولة تدخل إلى منطقة التبعية إذا كانت نسبة صادراتها من السلع الأولية ٧٠٪ أو أكثر، وتدخل منطقة الاستقلال إذا كانت هذه النسبة أقل من ٥٠٪.

(٣) التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠١٢م، ص ١٧٠.

كما تبين البيانات عمق أزمة الغذاء في العالم العربي، فالإكتفاء الذاتي من الحبوب والدقيق في عام ٢٠٠٧م بلغ ٩,٤٨٪، ومن القمح ٧,٤٧٪، ومن الزيوت النباتية ٢,٣٧٪، ومن السكر الخام ٢,٢٩٪.

ويبرهن الوضع الغذائي في العالم العربي على فشل التكامل الاقتصادي العربي، فمنذ الستينيات ويقال: إن حل هذه المشكلة يكمن في التعاون بين وفرة الأراضي الزراعية بالسودان، والأيدي العاملة بمصر، ورأس المال الخليجي، ولكن شيئاً من هذا لم يتحقق.

التبعية المالية:

يمثل العالم العربي حالة مثيرة للاستغراب، فبعض دوله تمتلك فوائض مالية نتيجة الثروات البترولية منذ عقود، في الوقت الذي تعاني فيه بعض دوله من مشكلات تمويلية حادة، سواء لتمويل استثماراتها، أو لسداد مديونياتها الخارجية المتفاقمة، أو حتى تلك الدول المصنفة ضمن مجموعة الدول الأشد فقراً، والتي تعاني من عبء المديونية الخارجية، مثل السودان واليمن وموريتانيا وجيبوتي.

وفي ظل هذه الازدواجية بين الغنى والفقير لدول العالم العربي، تظل حالة التبعية المالية على الجميع، فدول الفائض لديها هاجس استثمار فوائضها في الدول الغربية، وبخاصة أمريكا وأوروبا، ومؤخراً في الصين وبعض الدول الآسيوية الأخرى، وقد استطاعت الدول الغربية أن تعمل على إعادة الجزء الأكبر من الفوائض النفطية التي تراكمت لدى دول النفطية العربية في السبعينيات لتُستثمر في الغرب وأمريكا، وقد تعرضت هذه الفوائض غير مرة لأزمات تخفيض قيمة العملات الغربية^(٤)، أو تعرض الاستثمارات العربية لخسائر بسبب مرور الدول الغربية وأمريكا بأزمات اقتصادية، وقد قدرت خسائر الاستثمارات

الاقتصاد العربي على النفط كسلعة تصديرية، ولقد رأينا أثر خفض أسعار النفط على اقتصاديات الدول النفطية في عقد الثمانينيات، وكذلك في الألفية الثالثة قبل الفورة النفطية الثالثة في عام ٢٠٠٣م. ويزداد الأمر وضوحاً إذا علمنا أن الدول العربية المصدرة للنفط هي ثمان دول فقط من بين ٢٢ دولة، وحتى هذه الدول المصدرة للنفط تتفاوت فيما بينها في حصص التصدير.

ج- تزايد الفجوة الغذائية، على الرغم من توافر الموارد الطبيعية؛ من أرض ومياه، وكذلك الموارد البشرية اللازمة بالعالم العربي، إلا أنه يستورد أكثر من نصف احتياجاته من الغذاء^(١)، وهو الأمر الذي يجعل من مشكلة الأمن الغذائي في العالم العربي على قمة التحديات الرئيسية.

وقد تجلت مشكلة الأمن الغذائي بوضوح إبان أزمة الغذاء العالمية في عام ٢٠٠٧م؛ حيث لجأت العديد من الدول العربية إلى زيادة مقدار الدعم المخصص للغذاء، ووضع بعض الضوابط على صادرات السلع الغذائية، كما أعفت بعض واردات السلع الغذائية الأساسية من الضرائب الجمركية^(٢).

وتظهر نتائج التبعية الغذائية للعالم العربي من خلال البيانات المتاحة عن الفترة من ٢٠٠٠ - ٢٠٠٧م؛ حيث بلغت قيمة الفجوة الغذائية ٩,١٣ مليار دولار في عام ٢٠٠٠م، ووصلت إلى ٨,٢٣ مليار دولار في عام ٢٠٠٧م، و١٠,٢٧ مليار دولار في ٢٠١٠م، ويتوقع أن تصل إلى ٤٤ مليار دولار. وفق توقعات المنظمة العربية للتنمية الزراعية في عام ٢٠٢٠م.^(٣)

(١) د. إبراهيم العيسوي، قياس التبعية في الوطن العربي، مرجع سابق، ص ٢٠٠، حيث يشير مؤشر التبعية الغذائية إلى أن الدولة التي تعتمد في الحصول على نسبة أكثر من ٣٠٪ من الخارج، تدخل في نطاق التبعية.

(٢) التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠١٢م، ص ١٧١.

(٣) المقصود بالفجوة الغذائية: الفرق بين الكميات المنتجة محلياً ومجمل الكميات اللازمة للاستهلاك المحلي.

(٤) الأستاذ يوسف كمال محمد، الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص ٥١ و٥٢.

مليار دولار.

ولا يتوقف تاريخ الدول العربية مع المساعدات الخارجية عند الفترة التي تناولناها، ولكن منذ أن نالت الدول العربية استقلالها السياسي وهي تتلقى المساعدات الخارجية، وإن كانت تتفاوت نسب تلقي المساعدات من دولة لأخرى.

وترصد الدراسات المعنية بالتنمية أن المساعدات الخارجية كانت أحد وسائل تبعية الدول النامية، ومن بينها الدول العربية للدول الغربية الرأسمالية، سواء كانت هذه المساعدات في شكل ثنائي أو متعدد الأطراف؛ لأنها تجعل الدول النامية دائمة الاعتماد عليها، فضلاً عن أنها قد تمد الدول النامية بأنشطة اقتصادية وتنموية لا تتناسب مع متطلبات التنمية في الدول النامية^(٣).

الديون الخارجية:

بلغ الدين الخارجي للدول العربية المقترضة - ١٤ دولة - ١٧٦ مليار دولار في عام ٢٠١١م، وقدرت خدمة هذا الدين في نفس العام بنحو ٩, ١٥ مليار دولار، كما أن نسبة إجمالي خدمة الدين الخارجي للنتائج المحلي الإجمالي لهذه الدول قُدرت بنحو ٢٠٪. إلا أن بعض الدول بلغت فيها هذه النسبة ٥٠٪ فأكثر مثل: تونس ٣, ٥٠٪، جيبوتي ٤, ٥٢٪، السودان ٧, ٥٥٪، لبنان ٥, ٥١٪، موريتانيا ٦, ٨٥٪^(٤). أي: أن خضوع هذه الدول للتبعية الاقتصادية واضح بشكل كبير وفق معايير مؤشر خدمة الدين للنتائج المحلي. كما يعني ذلك أن كافة الدول العربية باستثناء الدول النفطية، تعاني من أزمة في مديونياتها الخارجية.

العربية في الأزمة المالية العالمية في عام ٢٠٠٨م، بنحو ٥٠٠ مليار دولار، وبنسبة تبلغ ٤٠٪ من قيمة هذه الاستثمارات^(١).

وتشير تقديرات صندوق النقد الدولي إلى أن الثروات السيادية للدول النفطية العربية بلغت في عام ٢٠٠٨م نحو ٢, ١ تريليون دولار، وإذا ما أضفنا إليها تراكمات الأعوام التالية لعام ٢٠٠٨م^(٢)، وفي ظل ارتفاع أسعار النفط، فإننا نجد أن تقويم تلك الثروات بنحو ٢ تريليون دولار يقترب كثيرًا من الصحة.

والنتيجة هنا أن الاستثمارات العربية - في ظل غياب مشروع للتكامل الاقتصادي العربي - أصبحت تمثل عبئًا على أصحابها؛ من خلال البحث عن مصادر آمنة للاستثمار، وليس أمامها سوى السوق الأوروبية والأمريكية، ومؤخرًا الأسواق الآسيوية، وبذلك أصبحت الدول العربية النفطية في حالة تبعية مالية لتلك الدول الغربية أو الآسيوية.

أما الدول العربية ذات العجز المالي، فليس أمامها إلا الرضوخ لشروط المؤسسات الدولية والاستجابة لأجندتها فيما يسمى ببرامج الإصلاح الاقتصادي، على الرغم من آثارها السلبية اجتماعيًا واقتصاديًا.

المعونات الخارجية:

بحسب بيانات منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية فإن إجمالي المساعدات الإنمائية للدول النامية خلال الفترة من ١٩٩٠ - ٢٠١٠م بلغت نحو ١, ٥ تريليون دولار، كان نصيب الدول العربية منها خلال الفترة نحو ٩, ٢٢٥ مليار دولار، وبنسبة بلغت ١٤, ٢٪. وكانت أبرز الدول العربية المتلقية لهذه المساعدات خلال هذه الفترة هي العراق ٥, ٦٤ مليار دولار، ثم مصر بـ ٥, ٤١ مليار دولار، ثم فلسطين ٧, ٢٠ مليار دولار، ثم السودان ٤, ١٩ مليار دولار، والمغرب ٤, ١٦

(٣) د. جلال أمين، تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية، مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٦ - ٢٣.

(٤) التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠١١، ص ٤٣٤.

(١) د. علي سليمان، العرب وتحديات ما بعد الأزمة المالية العالمية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٠م، ص ١٣٦.

(٢) التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠١١م، ص ٢٠٦.

استراتيجية الخروج من التبعية الاقتصادية. ولعل التجربة الوليدة في العالم العربي، والتي أطلق عليها ثورات الربيع العربي (تونس، مصر، ليبيا، اليمن، سورية)، تُعد بداية يمكن الاعتماد عليها، على الرغم مما يُحاك لها عالمياً وإقليمياً وقُطرياً لإفشالها، وتمكين النظم العسكرية والديكتاتورية من العودة مرة أخرى لسدة الحكم في دول الربيع العربي.

أما على الصعيد الإقليمي؛ فإنه يجب إعادة النظر في الدور المنوط بجامعة الدول العربية، باعتبارها الآلية الإقليمية المعبرة عن الشأن العربي، إذ الأمر يتطلب إعادة النظر في طريقة عملها؛ من حيث تحويل فعاليتها إلى العمل وفق القرارات الملزمة وليس فقط مجرد إصدار التوصيات المتعددة بشأن القضايا المطروحة والتي تخص مصير المنطقة.

وينبغي على الشرط السابق أن تُحل كافة النزاعات العربية البينية في إطار جامعة الدول العربية، وبخاصة تلك القضايا المتعلقة بالحدود، وغيرها من النزاعات التي تطال عدداً لا بأس به من الدول العربية، كما أن وقوع بعض الأقطار العربية تحت وطأة الاحتلال حتى الآن، هو واحد من أهم ملامح عدم الاستقلال العربي، فالكيان الصهيوني يحتل فلسطين منذ عام ١٩٤٨م، كما قامت أمريكا والغرب باحتلال العراق في عام ٢٠٠٣م، وتنتشر القواعد العسكرية في ربوع المنطقة العربية، وبخاصة في منطقة الخليج.

٢- المتطلبات الاقتصادية:

يحظى الجانب الاقتصادي للخروج من حالة التبعية بوضع إيجابي على الصعيد المؤسسي؛ إذ تم إنشاء العديد من مؤسسات العمل العربي المشترك، منذ خمسينيات وستينيات القرن العشرين، وهي مؤسسات تمتلك من اللوائح والنظم والكوادر ما يمكنها من

ثالثاً: نحو استراتيجية للخروج من التبعية الاقتصادية:

من الضروري أن نشير إلى أن معالجة قضية التبعية على الصعيد الإقليمي، كما هو الحال في وضع العالم العربي، تقتضي السعي الحقيقي لتفعيل مشروع التكامل الاقتصادي العربي الذي تمت الدعوة له منذ أكثر من ستة عقود، إبان حصول العديد من الأقطار العربية على استقلالها السياسي.

ويستلزم ذلك إزالة العديد من التشوهات السياسية والاقتصادية والثقافية أولاً؛ حتى تكون هناك قابلية لتحقيق نوع من الاستقلال للقرار الاقتصادي العربي، أو ما يطرحه البعض من وجود تنمية عربية مستقلة.

وفيما يلي نتناول التصور الخاص بملامح الاستراتيجية الملائمة لخروج العرب من حالة التبعية الاقتصادية، وملامح هذه الاستراتيجية منها ما يتعلق بسعي كل قُطر على حدة، أو ما يجب أن يسعى العالم العربي لتحقيقه على المستوى الإقليمي.

١- المتطلبات السياسية:

لا يخفى على أحد تردي حالة العملية السياسية على الصعيد القُطري للدول العربية؛ إذ تغيب الممارسة الديمقراطية عن غالبية هذه الدول، ولا يوجد تداول سلمي للسلطة عبر الانتخابات الحرة والنزيهة، ومن هنا يفتقد المواطن العربي لأهم الدوافع الشخصية والذاتية للطموح نحو تحقيق الاستقلال والخروج من التبعية.

ولذلك فإن توفير حياة سياسية قوامها التداول السلمي للسلطة، واعتماد الانتخابات الحرة والنزيهة كآلية لتحقيق الاستقرار السياسي، يُعد من أهم لوازم

تحقيق حالة الاستقلال الاقتصادي العربي.

التوازن في العلاقات الاقتصادية والتجارية مع العالم الغربي وأمريكا وغيرها.

ولكن هذه الإيجابية تم تجميدها على صعيد الممارسة الفعلية، فمشروع التكامل الاقتصادي العربي لم يبرح دائرة منطقة التجارة العربية الحرة، بعد مرور أكثر من ستة عقود من الدعوة لإقامة سوق عربية مشتركة. وحتى منطقة التجارة العربية الحرة لم تسلم من الكثير من المعوقات التي تحول دون زيادة نسبة التجارة العربية البينية عن ٨٪.

وأما العوائد النفطية فإن العالم الغربي نجح منذ عقد السبعينيات في أن يُعيد تدوير العوائد النفطية في محيطه الاقتصادي، وبالتالي فقد العرب ميزة امتلاكهم لهذه الثروات المالية الطائلة، وحين الوقت لأن يُعاد استخدام هذه العوائد لصالح مشروع التنمية العربية المستقلة، وبالتالي تساهم هذه الأموال في الخروج من طوق التبعية، والعمل على تحرير الاقتصادات العربية نحو الاستقلال المنشود.

وفي ظل الكيانات الكبرى التي يعيشها العالم منذ عدة عقود مثل الاتحاد الأوروبي أو تجمع الآسيان، أو مؤخرًا تجمع البريكس، فإن العالم العربي مدعو لتفعيل كيانه الإقليمي في وحدة اقتصادية، يتم من خلالها تحرير الموارد الاقتصادية العربية، سواء كانت تلك الموارد طبيعية أو مالية أو بشرية.

نجح العالم الغربي منذ عقد السبعينيات في أن يُعيد تدوير العوائد النفطية في محيطه الاقتصادي، وبالتالي فقد العرب ميزة امتلاكهم لهذه الثروات المالية الطائلة، وحين الوقت لأن يُعاد استخدام هذه العوائد لصالح مشروع التنمية العربية المستقلة.

وثمة مخرج مهم لا بد من العمل اقتصاديًا على ردمه لتحقيق التنمية العربية المستقلة، وهو إعادة توزيع الثروات العربية، وليس المقصود هنا أن يتم التوزيع القسري للثروات العربية، ولثروات دول الفائض المالي على

ولا يعني ذلك أن تُستخدم الموارد العربية في مواجهة الآخرين، بقدر ما هو مطلوب أن تتجح الدول العربية في إيجاد شروط للتبادل الدولي مع الآخرين تعكس المصالح العربية، وتحقق مطلب التجارة العادلة. فثمة موردين عربيين مهمين يلعبان دورًا مهمًا في الحياة الاقتصادية العالمية اليوم، ولكن في إطار من التبعية المطلقة؛ وهما: البترول، وعوائده المالية.

الدول الفقيرة، أو ذات الدخل المنخفضة. ولكن المقصود أن يتم استثمار هذه الفوائض العربية في الدول العربية الأقل نموًا ومتوسطة الدخل بالصورة التي تحقق المصلحة المشتركة، من خلال عائد على الاستثمار لدول الفائض، وكذلك إقامة مشروعات حقيقية بالدول الأقل نموًا ومتوسطة الدخل تمكّنها من الخروج من وطأة التبعية الاقتصادية.

٢- المتطلبات الثقافية:

المقصود هنا تلك المتطلبات الثقافية التي تخدم تحقيق الاستقلال الاقتصادي والخروج من حالة التبعية، ومن أهم هذه الأدوات الثقافية تلك المتعلقة بالخروج من حالة اليأس في تحقيق التكامل الاقتصادي العربي، والانبهار بالتجارب الأخرى كالاتحاد الأوروبي.

فالبترول لا بد أن يُحرَّر من عقبة سوق المشترين، وأن يعود كعلاقة طبيعية، تعكس مصالح مشتركة للبائعين والمشتريين، كما أن الدور الذي تلعبه الدول العربية المصدرة للبترول لا بد أن يتغير وفق الآليات الاقتصادية، فلم تعد تكنولوجيا تكرير البترول معقدة أو لا تمتلك فيها الدول العربية الكوادر اللازمة لتصدير البترول في صورة مشتقات، وليس كمادة خام، وهو ما يعظم العوائد النفطية، ويُحدث نوعًا من

فمعدلات البطالة في العالم العربي تبلغ في المتوسط نحو ١٨٪، وهي من أعلى المعدلات بين أقاليم العالم المختلفة، ويرجع ذلك بشكل رئيس إلى نُظم التعليم، كما أن أسواق العمل تحتاج أيضاً إلى العديد من التشريعات التي تحافظ على حقوق العمال، وتوفر لهم حياة كريمة؛ حتى تعمل على تخفيف حدة البطالة من جهة، والعمل على وقف الهجرة العربية من جهة أخرى، سواء كانت تلك الهجرة تتخذ صورة شرعية أو غير شرعية، وقد دفع العالم العربي ثمناً باهظاً نتيجة هجرة عقول أبنائه للغرب وأمريكا وغيرهما، حينما عجزت الدول العربية عن توفير المناخ المناسب لهذه العقول لتعمل وتبني ولتساعد على الخروج من طوق التبعية.

خاتمة:

الخروج من حالة التبعية إلى الاستقلال الاقتصادي العربي، هو بلا شك مشروع أمة، تتكاتف فيه الجهود المشتركة، لكل من الحكومات، ومجتمع الأعمال، والمجتمع الأهلي، وهو الأمر الذي يحتاج في حد ذاته إلى أن تستوعبه الحكومات العربية. فقد دأبت هذه الحكومات على أن مجتمع الأعمال والمجتمع الأهلي جزء منها، ويأتمرا بأمرها، لا على أنهما شركاء معها في تحمل المسؤولية والتبعات.

ومن هنا فلا بد من تهيئة مناخ مناسب لعمل الشركاء الثلاث في تحقيق الاستقلال والخروج من التبعية، وإن كان ذلك سوف يستغرق فترة انتقالية، ولا بد من الإيمان بأن الزمن له اعتباره في علاج ظاهرة وقضية كبيرة مترامية الأطراف مثل قضية الخروج من التبعية الاقتصادية إلى الاستقلال.

وإذا لم تسمح الظروف بأن تتشارك هذه الأطراف الثلاثة في تحمل تبعات مشروع إنهاء التبعية الاقتصادية، فإن واجب مجتمع الأعمال والمجتمع الأهلي أن يعملوا لتحقيق ذلك الهدف، ولكن لا بد أن نأخذ في الاعتبار أن مستجدات الوضع في العالم

وغيرهما، وتتساقى ما واجه هذه التجارب من صعاب، وما استغرقت من وقت، وما بُذل من قبل الدول القادرة وذات الفوائض المتعددة لمساعدة الدول الضعيفة في تلك التجمعات الإقليمية. وليست تجربة ألمانيا منا ببعيد من خلال دورها في إنقاذ الاتحاد الأوروبي من الانهيار، وخطواتها الجادة لنجاح تجربة صندوق الإنقاذ الأوروبي بعد الأزمة الأوروبية، وزيادة حجم رأس مال هذا الصندوق إلى ما يزيد عن تريليون يورو، بعد أن كانت الدعوة الأولى لإنشائه لا تطمح لأكثر من ٤٠٠ مليار يورو.

أيضاً لا بد من الخروج من تلك الأدبيات الثقافية التي ترسخ لوصف بعض الشعوب العربية بالكسل، أو أخرى بالتلاعب، أو ثالثة بالجهل وعدم الفهم.

ويجب أن تركز الأدبيات الثقافية على ما تحقق من تجارب ناجحة للتعاون الاقتصادي العربي كما حدث في عام ١٩٧٣م، واستخدام النفط في معترك الصراع العربي الإسرائيلي، وكذلك ما ساعد على تحقيق وحدة اقتصادية حقيقية امتدت لأكثر من أربعة عشر قرناً من الزمن، تحت راية الأمة الإسلامية.

وثمة أمر مهم يتعلق بقدرة الإنسان العربي نفسه على تحقيق الاستقلال والخروج من حالة التبعية، فمن غير المقبول أن تركز الأدوات الثقافية لحالة الانبهار بالإنسان في المشروعات الحضارية الأخرى، بينما الإنسان العربي تصوره على أنه مجرد آلة استهلاكية.

ليس المطلوب التهوين أو التهويل من قدرات الإنسان العربي في صنع الاستقلال والخروج من التبعية، ولكن المطلوب بثّ الأمل لدى الأفراد في تحقيق ذلك عبر الأدوات الصحيحة لبناء الإنسان؛ من خلال القضاء على الأمية بكافة أشكالها، وفي مقدمتها أمية القراءة والكتابة، فمن غير المقبول أن يظل نحو نصف السكان العرب في تعداد الأميين. مع التركيز على الارتقاء بالتعليم في كافة مراحلها، وربطه بمخططات التنمية القطرية والإقليمية.

فإذا توفر هذا الإنسان من خلال مؤسسات بناء وصناعة الإدراك، فإن باقي التبعات ستكون من السهولة بمكان، بحيث يتم تقليص الفترة الزمنية من جانب، ومن جانب آخر نضمن من يحرس التجربة، وتكون مكوناً رئيساً من حالته النفسية والعقلية، فنضمن أنه سيتم توظيف باقي الموارد أيًا كان نوعها أو قيمتها أو مقدارها، بحيث تكون في خدمة مشروع التحرر من التبعية الاقتصادية.

العربي، بظهور ثورات الربيع العربي، سوف يؤدي بلا شك إلى تبني موقف إيجابي من قبل حكومات هذه الدول تجاه التحرر من التبعية الاقتصادية.

وكذا لا بد أن نذكر أن الأمر سوف يستغرق بعض الوقت، وبخاصة أن هذه الثورات تُحارب في مهدها، لأن أعداءها يعلمون أن التحرر من التبعية بكل أشكالها يمثل أحد الأهداف المهمة للثورات العربية، وعليه فإن كانت دول الربيع العربي ستحرص في المراحل الأولى على ترتيب أوضاعها الداخلية، وإعادة الهدوء والاستقرار إلى أوطانها، فإن عليها أن تدرك أن التحرر من التبعية بلا شك يمثل محوراً مهماً على أجندة تلك الثورات.

إلا أن الأمر المهم الذي ينبغي أن تركز عليه جهود التحرر من التبعية في الوطن العربي، هو صناعة الإنسان المؤمن بهذه القضية وجدواها، وأنها قضيته التي يعمل من أجلها، وأنه صانع التحرر والمستهدف به والمستفيد منه.^(١)

(١) الأستاذ مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، دار الفكر دمشق، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢، ص ٥٨ و٧١ و٧٧.

معلومات إضافية

الأنظمة الاقتصادية الوضعية:

١- النظام الاقتصادي الرأسمالي:

أ- تعريفه:

يعرف النظام الاقتصادي الرأسمالي بتعريفات كثيرة؛ وذلك لتعدد خصائصه ومؤسساته. ولكن أفضلها وأدقها، هو أنه: «النظام الاقتصادي الذي يمتلك فيه الأفراد آحادًا أو جماعات الموارد الإنتاجية ملكية خاصة، كما أن لهم الحق في استخدام مواردهم بأية طريقة يرونها مناسبة».

ب- نشأته:

يكشف التطور التاريخي للنظام الرأسمالي بأنه من أقدم النظم الاقتصادية الوضعية ظهورًا، وقد مر بمراحل متعددة، يمكننا أن نبرزها في النقاط التالية:

- مرحلة الرأسمالية التجارية:

يمثل المذهب التجاري أو الرأسمالية التجارية البداية المبكرة للرأسمالية في المجتمع الأوروبي، وقد ظهرت الرأسمالية التجارية من بداية القرن السادس عشر، وامتدت حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي. وقد ساعد على ظهورها عدة عوامل داخلية وخارجية، منها:

- انهيار النظام الإقطاعي؛ بسبب هروب رقيق الأرض من الريف الزراعي إلى المدن؛ لأنهم لم يستطيعوا تحمل الطلبات المتزايدة من قبل أسياذ الإقطاع، والتي كانت تستنفذ كل منتجاتهم ومجهوداتهم.

- الاكتشافات الجغرافية الكبرى والمتمثلة في: اكتشاف القارة الأمريكية سنة (١٤٩٣م)، وما أسفر عنه ذلك من اكتشاف في الثروات. واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند والشرق الأقصى (١٤٩٨م)، وما أسفر عنه ذلك من فتح الطريق بحرًا نحو تلك الدول.

- الاحتكاك بالحضارة الإسلامية أثناء الحملات الصليبية؛ حيث يكاد يجمع المؤرخون على أن الحروب الصليبية كان لها أكبر الأثر في التطور الأوروبي.

مرحلة الرأسمالية الصناعية:

تطور الاقتصاد الأوروبي من مرحلة الاقتصاد الإقطاعي إلى مرحلة الرأسمالية التجارية، ولكن الرأسمالية لم تقف عند هذا الحد بل تطورت ونمت، حتى وصلت في القرن الثامن عشر إلى الرأسمالية الصناعية، نتيجة الثورة الصناعية، التي ظهرت في منتصف هذا القرن، والتي أدت إلى التعجيل بنهاية الرأسمالية التجارية من جهة، وإلى تغيير وتطور الفن الإنتاجي من جهة أخرى؛ حتى أصبح هناك زيادة هائلة في ميادين الإنتاج المختلفة، نتيجة إحلال الآلات الصناعية محل العدد اليدوية والأدوات البسيطة التي كانت مستخدمة من قبل في الإنتاج.

ج- أسس وخصائص النظام الاقتصادي الرأسمالي:

تعتبر الحرية الاقتصادية، والملكية الفردية، وحافز الربح، من أبرز أسس وخصائص النظام الرأسمالي.

د- مساوئ النظام الاقتصادي الرأسمالي:

أهمها:

- إهمال الجوانب الأخلاقية والدينية والإنسانية في النظام الرأسمالي، إلى درجة أنه يؤثر الكسب الاقتصادي ولو على حساب الأخلاق ومقتضيات الإيمان وحياء الإنسان.

- يؤدي إلى التفاوت الكبير في الدخل والثروة وتركزها في يد فئة قليلة.

- يؤدي إلى فرض السيطرة الاحتكارية في السوق، إلى درجة أن الإنتاج في المجتمعات الرأسمالية يسيطر عليه عدد محدود من الشركات الاحتكارية الكبرى، مما يعطيها القدرة على فرض الأسعار والهيمنة على الاقتصاد.

من الانتقادات الرئيسة لهذا النظام أنه دائم التعرض للتقلبات الاقتصادية الحادة، وظهور مشكلات البطالة والتضخم والديونية، الأمر الذي يؤثر بشكل مباشر على العديد من أفراد المجتمع، خاصة أولئك الذين لا يملكون إلا خدمة العمل.

٢- النظام الاقتصادي الاشتراكي:

أ- تعريفه:

بشكل عام يمكن تعريف النظام الاقتصادي الاشتراكي بأنه: النظام الذي يتميز بتملك الدولة لعوامل الإنتاج (أي: الملكية الجماعية) كالأراضي والآلات والمصانع، وتتخذ جميع القرارات الاقتصادية فيه من خلال جهاز التخطيط، ومن هنا جاءت تسمية هذا النظام بنظام التخطيط المركزي.

ب- نشأته:

توصل عدد من المفكرين في القرن التاسع عشر إلى أن الملكية الخاصة وسوء توزيع الثروة هما السبب في البؤس والشقاء الذي تعيشه بعض فئات المجتمع الأوروبي. ومن أبرز هؤلاء كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م).

ج- أسس وخصائص النظام الاقتصادي الاشتراكي:

يقوم النظام الاشتراكي على عدة أسس وخصائص كثيرة، لعل أهمها ما يلي:

١- الملكية العامة لوسائل الإنتاج: تعتبر الملكية العامة لوسائل الإنتاج الأساس الاقتصادي للنظام الاشتراكي، وهذا يعني أن جميع أفراد المجتمع متساوون فيما بينهم حيال ملكية وسائل الإنتاج، بحيث تصبح معظم الموارد الاقتصادية ملكاً للمجتمع، بما في ذلك الأرض والصناعات والمصارف وقطاع المال والتجارة.

مع ملاحظة أن وجود الملكية العامة في النظام الاشتراكي لا ينفي وجود الملكية الفردية المحدودة، حيث يسمح للأفراد بامتلاك سلع الاستعمال والاستهلاك الشخصي.

٢- إشباع الحاجات الجماعية: يقوم النظام الاشتراكي بوضع أولويات لاحتياجات المجتمع من السلع والخدمات المختلفة؛ بحيث تعطى السلع التي تشبع الحاجات الضرورية للغالبية العظمى من أفراد المجتمع الأولوية في الإنتاج.

٣- التخطيط المركزي: يعتمد النظام الاشتراكي على جهاز التخطيط المركزي، والتخطيط المركزي في الدول الاشتراكية يعني تنظيم النشاط المتعلق بعملية الإنتاج والتبادل والتوزيع والاستهلاك، فمثلاً يتم تنظيم الإنتاج في النظام الاشتراكي من حيث كمية السلع المراد إنتاجها، وأنواعها، والموارد التي تُستخدم في ذلك؛ عن طريق جهاز التخطيط المركزي، الذي يعد الجهة الوحيدة لتحديد العرض والطلب في ظل ذلك النظام.

د- مساوئ النظام الاقتصادي الاشتراكي:

إذا كان النظام الاشتراكي يزعم أنه يهدف إلى إشباع الحاجات العامة، ورعاية مصلحة الأغلبية، ومعالجة سوء توزيع الثروة إلا أن له مساوئ عديدة، أهمها ما يلي:

(١) تقييد حريات الأفراد الاقتصادية، وقتل الحافز الفردي، الذي له دور أساس في إثارة ضروب النشاط الاقتصادي.

(٢) إلغاء الملكية الفردية لوسائل الإنتاج، الأمر الذي جعله يصطدم مع الفطرة البشرية التي جُبلت على حب التملك.

(٣) محاربته للأديان السماوية، باعتبارها في نظره أفيون الشعوب، ومن ثم سعيه الحثيث نحو محو مشاعر الإخاء في النفوس البشرية، وإثارة فكرة الصراع الطبقي بين الفقراء والأغنياء.

(٤) فتور بواعث العمل فيه عند معتقيه لسد باب الطموحات أمامهم، الأمر الذي يصيب الإنتاج بالنقص الشديد، ويحول بين الموارد الاقتصادية وبين بلوغ أقصى أهدافها، ولهذه الأسباب وغيرها لم تستطع الاشتراكية الماركسية تحقيق أهدافها ومبادئها، بل فشلت في عقر دارها بعد تمجيدها وتطبيقها ردحاً من الزمن.

٣- النظام الاقتصادي المختلط:

الواقع أن النظام الاقتصادي المختلط ليس له هوية ذاتية قائمة بذاتها عن هوية النظم الوضعية الأخرى التي تولد عنها، بل هو نظام يجمع بين بعض سمات النظام الرأسمالي وبعض سمات النظام الاشتراكي، مع احتفاظه بالخصائص الأساسية المميزة للنظام الاقتصادي الذي انتقل منه أو تحول عنه.

فمثلاً الدول الرأسمالية التي تحولت إلى نظام رأسمالي مختلط ما زالت تحتفظ بنظام السوق وبالملكية الخاصة، والدول الاشتراكية التي تحولت إلى نظام اشتراكي مختلط احتفظت بملكية الدولة لوسائل الإنتاج إلا في حدود ضيقة للغاية.

والهدف من هذا التحول إلى النظام المختلط هو في الواقع محافظة على النظام الاقتصادي القائم، فمثلاً حينما شعرت بعض الدول الأوروبية التي تطبق النظام الرأسمالي بالكساد العظيم الذي ساد العالم في الثلاثينيات وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م رأت أنها لا بد لها من التدخل في الاقتصاد من أجل

إنقاذه دون أن تحد من حرية الأفراد باتخاذ القرارات الاقتصادية؛ لأنها رأت أن القطاع الخاص ونظام السوق التلقائي غير قادر وحده وبالسّعة المطلوبة على تحسين مستوى المعيشة للطبقات الفقيرة وإعادة بناء المنشآت والمؤسسات التي دُمرت أثناء الحرب، ولهذا تدخلت من خلال التخطيط الاقتصادي والسياسات المالية والنقدية والضمان الاجتماعي، حتى أصبح ذلك من خصائص النظام الاقتصادي الرأسمالي المختلط.

المصادر:

دراسة بعنوان النظام الاقتصادي في الإسلام، اشترك في إعدادها كل من (د/عبد الله إبراهيم الناصر
د/عمر بن فيحان المرزوقي، د/ محمد بن سعد المقرن، د/أحمد بن سعد الحربي ، د/عبد الله بن محمد
السعيد، متاحة على الرابط التالي: <http://faculty.ksu.edu.sa/12386/Pages/s6.aspx>

التحولات الاقتصادية عقب الحرب العالمية الأولى.. وأثرها على العالم الإسلامي



عبد الحافظ الصاوي

خبير اقتصادي

ملخص الدراسة

تقف الأمم والشعوب أمام الأحداث التاريخية، لتحدد مسارها، فتعرف أخطاءها فتعمل على تلافيها، وتعرف مواردها وحقيقة قيمتها فتعمل على حسن استغلالها، وتعظيم العائد منها، ولعل الحروب هي من أكبر الأحداث التي تقف أمامها الأمم كثيرًا.

فقرارات الحرب عادة ما تكون مكلفة للأمم والشعوب، فهي قرارات ليست سهلة، وتدفع ثمنها أجيال قادمة، وبخاصة إذا ما كانت حروبًا عالمية.

وبعد مرور نحو مائة عام على الحرب العالمية الأولى، تتناول هذه الدراسة أبرز مسارات التحولات الاقتصادية الكبرى في العالم، وتأثيرها على العالم الإسلامي، وبخاصة أن هذه الحرب كانت البداية الحقيقية لتقويض دولة الخلافة الإسلامية، التي عانت ضعفًا شديدًا على مدار نحو قرن من الزمن قبل الحرب العالمية الأولى.

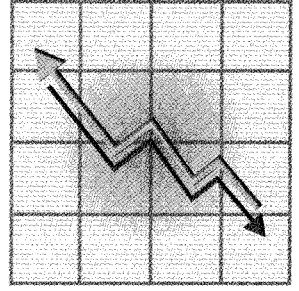
تتناول الدراسة محاور رئيسة في هذه التحولات، ممهدة بالإشارة إلى حالة النظام الاقتصادي العالمي قبل الحرب العالمية الأولى، وكذلك مجموعة القواعد الاقتصادية الحاكمة لذلك النظام، ثم التداعيات الاقتصادية التي ترتبت على وقوع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٧م)، والتي كان أبرزها مراجعة العديد من الأفكار الاقتصادية السائدة قبل الحرب، وبزوغ نجم أمريكا والاتحاد السوفييتي.

أيضًا تناولت الدراسة موضوعين مهمين هما اتفاقية سيكس بيكو، وسقوط دولة الخلافة الإسلامية، وهما الحادثتان المؤثرتان على الكثير من المقدرات الخاصة بدول العالم الإسلامية، ومنها الجوانب الاقتصادية.

كما تناولت الدراسة تطورات النظام الاقتصادي العالمي بعد الحرب العالمية الثانية، وطبيعة الصراع الاشتراكي الرأسمالي، وميلاد النظام العالمي ثنائي القطبية، ثم ما لحق بهذا النظام من تدهور بسقوط الاتحاد السوفييتي في نهاية ثمانينيات القرن العشرين، وميلاد نظام عالمي بقيادة أمريكا، وما عُرف بالنظام العالمي أحادي القطبية، ثم سيادة العولمة الاقتصادية، وانكسارها في عام ٢٠٠٨م، وظهور إرهاصات ميلاد نظام عالمي جديد، تكون الدول الصاعدة فيه محورًا مهمًا.

وتم قراءة مستقبل اقتصاديات دول الربيع العربي في ضوء ما آلت إليه تطورات النظام الاقتصادي العالمي منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن، وأن المخرج الرئيس لاقتصاديات هذه الدول هو النظام الإسلامي، وعليها أن تحسن ترتيب أولوياتها وتستفيد من تجارب الآخرين.

التحولات الاقتصادية عقب الحرب العالمية الأولى.. وأثرها على العالم الإسلامي



عبد الحافظ الصاوي
خبير اقتصادي

مقدمة:

لم تكن الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) مجرد أحداث تاريخية مجردة، ولكن ترتب عليها العديد من الأمور التي رسمت ملامح النظام العالمي الجديد الذي انعكست ملامحه على مفردات عدة؛ من بينها الجانب الاقتصادي.

وكان لفترة ما بعد الحرب، وما ترتب عليها، آثار عديدة تجلت في بروز المعسكر الشيوعي بقيادة روسيا، ولتكون للشيوعية دولة وتطبيق عملي يناهض المذهب الرأسمالي، وي طرح نفسه كبديل ومنافس داخل أوروبا، ثم بعد ذلك على مستوى العالم.

كما تعرضت بلدان العالم الإسلامي لتطورات سياسية؛ نتيجة لما آلت إليه أحداث الحرب العالمية الأولى، وبروز دولة الخلافة العثمانية في شكل ما عُرف بالرجل المريض، مما سهّل سقوط هذه الدولة في عام ١٩٢٤م، وبالتالي ترتب على ذلك الخروج من اقتصاديات الأمة إلى الاقتصاديات القطرية، ولم تعد هناك حريات لانتقال الأفراد، ورأس المال والتجارة، وحرية التملك كما كانت من قبل بين أبناء وأقطار الأمة الإسلامية.

ليس هذا فحسب بل سبق سقوط دولة الخلافة ما عُرف باتفاقية سيكس بيكو، والتي تم بمقتضاها تقسيم الدول العربية إلى دول محتلة بين إنجلترا وفرنسا، مما سهّل وقوع غالبية الدول الإسلامية تحت وطأة الاستعمار، لتكون الدولة الإسلامية فيما بعد سلة المواد الأولية التي تمد الاقتصاد الأوروبي بالكثير من احتياجات دوله الصناعية، ولتصبح الدول الإسلامية مجرد أسواق للصناعات الأوروبية.

وفي نهاية عشرينيات القرن العشرين شهد الاقتصاد العالمي ما عُرف بأزمة الكساد الكبير، ليعيش العالم واحدة من أسوأ أزماته الاقتصادية، وكان المخرج منها الفكر الكيزي الذي ساهم في تعديل العديد من الأفكار والممارسات الاقتصادية الخاطئة التي كانت سائدة فيما قبل ظهور كينز.

ولم تكن الأوضاع الاقتصادية فيما بعد الحرب العالمية الأولى وما قبل الحرب العالمية الثانية، إلا بمثابة فترة انتقالية للتأسيس لنظام اقتصادي عالمي جديد بعد الحرب العالمية الثانية، مع وجود ما عرف بالحرب الباردة بين المعسكرين الشرقي والغربي، بكل ما تحمله الكلمة من معان، وفي مختلف الجوانب، وإن كان الصراع الاقتصادي من حيث الأيديولوجية والممارسة أبرز سمات هذه الحرب.

وقد كان من نتائج هذا الصراع أن دول العالم الإسلامي بعد استقلالها فيما بعد لم تجد سوى أن تختار

أربعة عشر قرناً من الزمن.

نطاق الدراسة:

فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، مع التركيز على أثر تلك الأحداث على اقتصاديات دول العالم الإسلامي.

المنهج البحثي:

يتم استخدام المنهج الوصفي التحليلي خلال الدراسة؛ نظراً لما تتسم به الدراسة من سرد وتطور تاريخي، وتحليل تلك الأحداث، وقراءة ما أدت إليه من نتائج اقتصادية على المسارين الدولي والإسلامي.

١- سمات النظام الاقتصادي العالمي فيما قبل الحرب العالمية الأولى:

على مدار نحو قرن من الزمن قبل بداية الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م، شهد العالم نظاماً اقتصادياً مستقرًا، من حيث المبادئ الاقتصادية الحاكمة، والمنظمة للنشاط الاقتصادي العالمي؛ حيث سادت الرأسمالية الصناعية، مع الإيمان بحرية التجارة وارتباطها بقاعدة الذهب، وكذلك استقر سعر الصرف معتمداً على قاعدة الذهب، وكان الجنيه الإسترليني هو العملة الدولية ذات القبول في التسويات التجارية؛ على اعتبار أن لندن هي عاصمة التعاملات التجارية عالمياً، وفي ظل كون بريطانيا إمبراطورية عظيمة.

وعلى الرغم من الوضع السائد قبل الحرب العالمية، والذي قد يوصف فيه الدور الاقتصادي للدولة بالمحدودية، إلا أنها كانت تقوم بأدوار بارزة على

بين النظامين الاشتراكي والرأسمالي، دون أدنى تفكير في استعادة الخصوصية الإسلامية في بناء الدولة الحديثة، فتم بناء اقتصاديات الدول الإسلامية وفق تلك النماذج، بين استغلال للربا، ونظم للتشغيل والملكية، أو أدوات ونظم لتوزيع الثروة اصطدمت في كثير من الأحوال بقواعد الإسلام الراسخة.

وكان لهذه الجذور آثارها في توجهات دول الربيع العربي بعد نجاح ثوراتها، فالبعض لا يرى سوى أن تختار هذه الدول بين الرأسمالية أو الاشتراكية، أو في أحسن الأحوال الرأسمالية الاجتماعية.

وفي ذكرى مرور مائة عام على بداية أحداث الحرب العالمية الأولى نجد أنه من المفيد التركيز على المناخ الاقتصادي السائد بعد الحرب العالمية الأولى، وما ترتب عليها من أحداث ونتائج أثرت بدورها كما ذكرنا على اقتصاديات العالم الإسلامي.

أهمية الدراسة:

الإسلام جاء ليعش المسلمون أمة واحدة، يتضامنون فيما بينهم، ولا يعني ذلك انعزال المسلمين عن العالم، ولكن لكي يكونوا كياناً واحداً تتكامل فيه موارده وإمكانياته، لتوفير احتياجاته، ولتساعد الأمة على أداء أفضل في التعامل مع باقي أعضاء المجتمع الدولي في إطار من التعارف والتعاون وتبادل المصالح.

وقديماً وحديثاً عرف العالم الكيانات الكبرى، التي تقوم على أساس جغرافي أو قومي، بل إن بابا روما علق على عدم دخول تركيا للاتحاد الأوروبي بأن هذا الاتحاد تجمّع مسيحي، ولن يسمح لغير المسيحيين بالدخول فيه. وبالتالي فلا غرابة أن يعود العالم الإسلامي كما كان أمة واحدة، كما ظل على مدار

٢- رأس المال المالي، تطور النظام البنكي بشكل كبير خلال هذه الفترة لينتقل من مجرد الإقراض الذاتي لأمواله إلى المستفيدين الصغار، إلى قبول الودائع من صغار المدخرين نظير سعر فائدة، وكذلك ظهرت شركات التأمين، مما شجّع هذه المؤسسات على تمويل الشركات الصناعية الكبرى، ثم بعد ذلك التوسع نحو امتلاك أسهم بعض هذه الشركات.

وضمن هذا التوسع المالي لنفسه الهيمنة على نشاط الرأسمالية، والتوسع للاستثمار في المستعمرات؛ بحثاً عن المعادن ومصادر الطاقة، أو الزراعة الرأسمالية الكبيرة في سلتي القطن والبن، وغيرهما.

٣- الإمبراطوريات الاستعمارية، سيطر مفهوم غريب على الرأسمالية الأوروبية، وهو أن كافة الأراضي خارج أوروبا ليست ملكاً لأحد، وبالتالي توسعوا في بناء إمبراطورياتهم الاستعمارية في الأمريكتين وإفريقيا وشبه الجزيرة الهندية، وفي آسيا الوسطى والقوقاز^(٢).

وبناء على هذا المفهوم أصبحت دولة الخلافة الإسلامية مطمئناً للمستعمرات الغربية؛ إذ كانت جلّ دول العالم الإسلامي المنضوية تحت لواء دولة الخلافة الإسلامية في قارتي آسيا وإفريقيا.

٢- نتائج الحرب العالمية الأولى على النظام الاقتصادي العالمي:

أدت النتائج التي انتهت إليها الحرب العالمية الأولى إلى تغير ملموس في خريطة القوى الاقتصادية الدولية، فأوروبا خرجت مدينة من هذه الحرب لأمريكا، كما أن أمريكا أصبحت في مركز متميز على الصعيد الإنتاجي مقارنة بدول أوروبية أخرى مثل ألمانيا.

وقد استفادت أمريكا بشكل كبير على مدار السنوات

(٢) د. إسماعيل صبري عبدالله، الكوكبية الأساس الاقتصادي الاجتماعي للظاهرة، القاهرة سبتمبر ١٩٩٨م، ص ٩ - ١٢.

صعيد البنية الأساسية^(١)، وكذلك سن التشريعات والقوانين، وفي بعض الأحيان كانت تتدخل عسكرياً من أجل حماية المصالح الاقتصادية.

ويذهب البعض إلى وصف الفترة من ١٨٧٠ - ١٩١٣م بأنها تضمنت مجموعة من العمليات المشابهة لما تم خلال فترة ما بعد تسعينيات القرن العشرين، على الصعيد الاقتصادي، وأطلق عليها العولمة الاقتصادية.

فوجهة النظر هذه ترى أن الفترة ١٨٧٠ - ١٩١٣م، شهدت نشاطاً وتوسعة للنشاط الاقتصادي والمعاملات التجارية، بصورة كبيرة، جعلتها عابرة للحدود السياسية لما يعرف بالدولة القومية، سواء على مستوى البشر أو رموس الأموال، كما اتسم النشاط الإنتاجي بتكنولوجيا عالية إبان هذه الفترة، وبخاصة في مجال النقل والاتصالات، كما عُرف على نطاق واسع نظام الإنتاج الكبير^(٢).

وقد رصدت الدراسات عدة سمات للاقتصاد العالمي من حيث سيطرة الدول الاستعمارية على مقدرات الاقتصاد العالمي، مثل أوروبا وأمريكا واليابان.

ومن أهم هذه السمات ما يلي:

١- ظهور الشركات الاحتكارية: سواء تمت ممارسة الاحتكار للأسواق من قِبَل شركة واحدة ناجحة في الهيمنة على السوق، أو تكوين «كارتل» بين مجموعة من الشركات للاتفاق على تقاسم الأسواق فيما بينهم، أو الاتجاه لاندماج أكثر من شركة في كيان واحد، وتكوين ما يُعرف بـ «الترست»، أو قيام أحد الشركات بشراء الشركات المغذية لها لتضمن السيطرة على سوق السلع التي تنتجها.

(١) حازم الببلاوي، النظام الاقتصادي الدولي المعاصر، من نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٥٧، الكويت عام ٢٠٠٠م، ص ٧ و٨.

(٢) د. إبراهيم العيسوي، العولمة الاقتصادية بين حماية الاستثمار واحتمالات التراجع، ورقة عمل مقدمة لورشة عمل بالجمعية العربية للبحوث الاقتصادية، القاهرة سبتمبر ١٩٩٩م، ص ٥ و٦.

الكبير التي بدأت في عام ١٩٢٩م، وحتى منتصف الثلاثينيات.

وقد كان لأزمة الكساد الكبير ما بعدها في إدارة منظومة الاقتصاد العالمي، وإرساء قواعد النظام العالمي الجديد، فمع الأزمات الخانقة التي واجهتها الأسواق واقتصاديات الدول؛ نتيجة لليبرالية المفرطة من جانب، واتباع مجموعة من القواعد الاقتصادية غير الصحية من جانب آخر، مثل قانون «ساي» الذي يفترض أن العرض يخلق الطلب، وأن المنافسة الكاملة هي التي تحكم السوق؛ كل ذلك كان سبباً في تفاقم الأزمة الاقتصادية، من ازدياد معدلات البطالة، واستمرار الركود بالأسواق لفترة ظلت نحو ٤ سنوات^(٢).

ولم يكن من مخرج لهذه الأزمة إلا بمراجعة تلك القواعد الاقتصادية، واتباع ما طرحه كنز من نظريته الاقتصادية الخاصة بالإنفاق العام، والنقود. فاتجهت الدول لتراجع نفسها مرة أخرى في شأن دور الدولة، ولم يعد دور الدولة قاصراً على الحراسة (الدفاع، والأمن الداخلي، والقضاء، والتمثيل الخارجي)، ولكن امتد هذا الدور لتزيد الدولة من إنفاقها العام في مجال البنية الأساسية، وعلى جوانب اجتماعية أخرى، مثل التعليم والصحة؛ مما ساعد على خلق فرص عمل جديدة، ولدت دخولاً لأصحابها، مما ساعدهم على شراء السلع الراكدة ونقص المخزون، وهكذا عادت عجلة الإنتاج مرة ثانية للدوران.

٣- اتفاقية سيكس بيكو ومردودها الاقتصادي على الدول الإسلامية:

في عام ١٩١٦م وقّعت اتفاقية بطرسبرج بين كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية على تقسيم الإمبراطورية العثمانية، وفي إطار هذه الاتفاقية، أتت اتفاقية سيكس بيكو؛ لتكون بمثابة البرنامج التنفيذي

الأربع التي دارت فيها أحداث الحرب العالمية الأولى، فكانت أمريكا بمثابة دولة الإمداد لكل من بريطانيا وفرنسا، سواء فيما يتعلق بإنتاج السلاح أو الغذاء.

وليس هذا فحسب، فمع نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت فرنسا وبريطانيا مدينتين لأمريكا بنحو ٩,٦ مليار دولار من قروض الحرب، وتحولت أمريكا من دولة مدينة بنحو ٢,٧ مليار دولار قبل الحرب العالمية الأولى إلى دولة دائنة بعد الحرب بنحو ١٢,٦ مليار دولار^(١).

وكانت من أهم النتائج على الصعيد المالي: تخلي العالم عن قاعدة الذهب، وإسراف العديد من الدول في طباعة النقود؛ لمواجهة احتياجاتها في فترة ما بعد الحرب، وفشلت محاولات بريطانيا في عودة العمل بقاعدة الذهب، وإعادة الإسترليني على عرش التسويات التجارية الدولية، ورأى بعض الاقتصاديين -ومنهم كنز- أن هذه الخطوة ليست في صالح بريطانيا؛ لأنها كانت تحتاج في ذلك الوقت إلى خفض قيمة عملتها لا تقويتها؛ من أجل تنشيط صادراتها التي انخفضت بشكل كبير.

كما ظهرت روسيا عقب الحرب العالمية الأولى كقوة اقتصادية وأيديولوجية في وجه الغرب بعد نجاح الثورة البلشفية في عام ١٩١٧م، وما حملته تلك الثورة من تفعيل للاقتصاد الماركسي، وانتشار المذهب الشيوعي على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.

وكانت هذه الخطوة هي البداية الحقيقية للحرب الباردة بين الرأسمالية والشيوعية، التي اشتعلت جذوتها بعد الحرب العالمية الثانية، ومما ساعد على نجاح روسيا في تقوية شوكة دولتها الشيوعية الوليدة، انشغال الغرب بما نزل به من مشكلات اقتصادية واجتماعية حقيقية، زاد من حدتها أزمة الكساد

(١) محمد مجد الدين باكير (مترجم)، جون ستيل جوردون، إمبراطورية الثروة، التاريخ الملحمي للقوة الاقتصادية الأمريكية «الجزء الثاني»، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٥٨، الكويت ديسمبر ٢٠٠٨م، ص ١١٢ - ١٢١.

(٢) د حازم الببلاوي، مرجع سابق، ص ١٠.

وكذلك أماكن لخلق وظائف لأبنائها وخبرائها في الدول العربية.

وحتى هذه الدول النامية المحتلة تكون لبريطانيا وفرنسا الأولوية في الحصول على المشروعات والقروض المحلية، وذلك على حساب الشركات الوطنية، ولعل النص على إعطاء أولوية لكل من بريطانيا وفرنسا الحق في الحصول على القروض المحلية، ما يعكس الوضع الاقتصادي السيئ لهما بعد الحرب العالمية الأولى؛ إذ خرجتا مدينتين بعد الحرب لأمريكا بمبالغ كبيرة.

ليس هذا فحسب، بل كانت هذه الاتفاقية مقدمة لتفجير المنطقة العربية فيما بعد، وغيرها من الدول الإسلامية، فالمادة الثالثة من اتفاقية سيكس بيكو جعلت فلسطين تحت الإشراف الدولي، ثم آلت للإشراف البريطاني فيما بعد، وهو ما أدى لوعود بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، والتأصيل لتأجيج منطقة الشرق الأوسط حتى الآن، بزرع الكيان الصهيوني وسط الدول العربية والإسلامية.

فالمشكلات التي خلفها زرع إسرائيل في المنطقة لا تُعد ولا تُحصى، ولكن على الصعيد الاقتصادي كان لوجود دولة الكيان الصهيوني أكبر الأثر في إعاقة حركة التجارة البرية بين الدول العربية، فضلاً عن تشريد نحو ٦ ملايين من أبناء فلسطين، وتبديد العديد من الموارد الاقتصادية والبشرية والطبيعية لدول المنطقة، وبخاصة دول الطوق (مصر، سورية، لبنان، الأردن) في الصراع العربي الإسرائيلي.

وليس هذا فحسب بل أعطت اتفاقية سيكس بيكو كلاً من فرنسا وبريطانيا الحق في إنشاء موانئ وخطوط سكك حديدية في كل من سورية والعراق،

لاتفاقية بطرسبرج^(١).

وكان ما خلصت إليه الاتفاقيتان هو خضوع كافة الدول الإسلامية للاحتلال البريطاني الفرنسي الروسي، وهو ما عانت منه الدول الإسلامية فيما بعد لعقود عدة، ولا زالت تعاني بسبب ما نصت عليه بنود هذه الاتفاقيات من إعطاء الحق للدول المحتلة في تحديد حدود الدول العربية والإسلامية فيما بعد، وهي القضية التي بسببها قامت العديد من الحروب بين الدول الإسلامية.

فالحرب بين إيران والعراق في عام ١٩٧٩م كانت بسبب الحدود، وكذلك الخلاف الدائر الآن بين إيران ودولة الإمارات على الجزر بسبب الحدود، وغير

ذلك كثير، وليست قضية صحراء البوليساريو بين مالي والمغرب والجزائر ببعيدة عنا.

واتفاقية سيكس بيكو من وجهة نظر الباحث هي اتفاقية يغلب عليها طابع المطامع الاقتصادية في الدول العربية، فمما ورد في مادتها الأولى: إعطاء حق الأولوية في المشروعات والقروض المحلية لكل من بريطانيا وفرنسا، وكذلك

يكون لهما الحق في تقديم المستشارين والموظفين الأجانب للدول العربية محل الاتفاقية، بناء على طلب الحكومة العربية.

ومن هنا فكل من بريطانيا وفرنسا جعلت لنفسها الحق في تسخير اقتصاديات الدول التي تحتلتها لتحقيق مصالحها الاقتصادية، أو بمعنى أدق أرادت كل من بريطانيا وفرنسا أن تعوض تكلفتها في الحرب على حساب الدول العربية بجعلها أسواق لبضائعها،

(١) د. ناصر الدين الأسد، د. إحسان عباس (مترجمان)، جورج أنطونيوس، يقظة العرب.. تاريخ حركة العرب القومية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٢، ص ٥٧٨ - ٥٨٢.

كانت عليه من الرسوم التي كانت سائدة إبان القيادة التركية.

وما لا شك فيه أن الموارد الجمركية في الدول النامية تمثل عصب الموارد العامة لموازنة الدولة، وكون هذه الرسوم لا تتحرك لفترة عشرين سنة قادمة، يُعدّ ظلماً بيئياً، لتظل موازنة هذه الدول فقيرة الموارد، وبخاصة إذا كانت هذه الدول ستظل سوقاً واسعاً للمنتجات البريطانية والفرنسية.

٤ - الآثار الاقتصادية لسقوط دولة الخلافة:

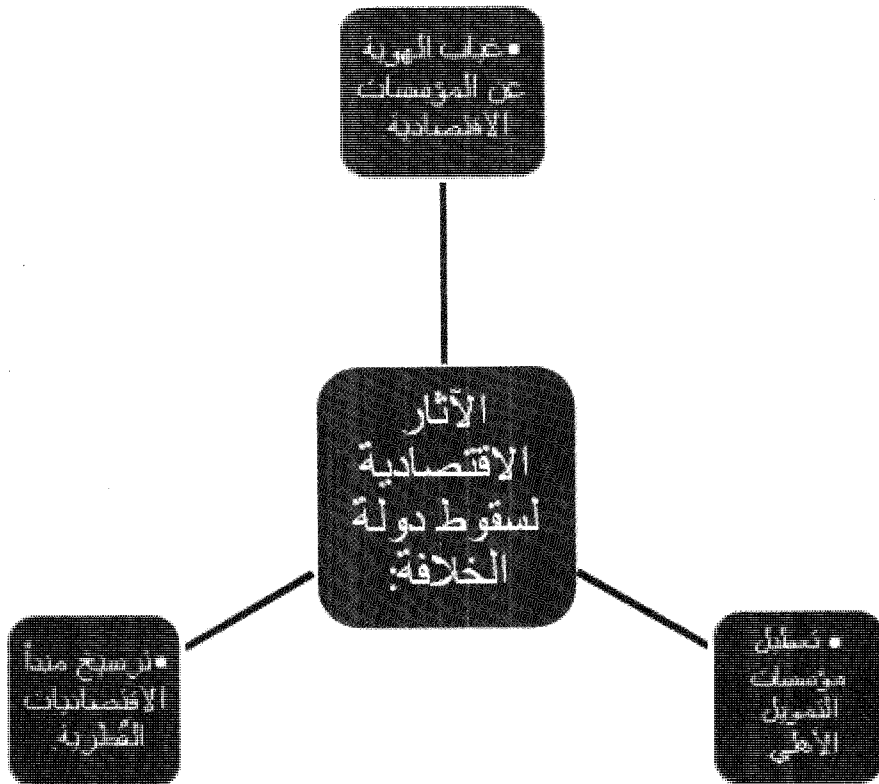
لم تكن نهاية الحرب العالمية الأولى أو حتى بدايتها هي السبب في سقوط دولة الخلافة الإسلامية، ولكن كانت هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى ضعف هذه الدولة، وسقوطها فيما بعد في عام ١٩٢٤م.

لقد ساعدت نتائج الحرب العالمية الأولى على انهيار دولة الخلافة الإسلامية؛ حيث خرجت مع ألمانيا بهزيمة كبيرة، ثم توالى الأحداث لتقع العديد من الدول الإسلامية التابعة لدولة الخلافة تحت وطأة

وأن تكون هذه الموائئ تعمل لصالحهما، وأن تتولى الدول المحتلة إدارة هذه الموائئ، وأن تكون هذه الموائئ حرة لتجارة كل من الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية، والدول التابعة لهما.

وكانت اتفاقية بطرسبرج وما تبعها من اتفاقية سيكس بيكو ووعدهم بلفور بمثابة الإعلان الحقيقي لسقوط دولة الخلافة الإسلامية، فلم تعد لدولة الخلافة من سلطان على دولها التي وقعت تحت الاحتلال، وبالتالي لم تعد هذه الدول بمقدورها التحكم في مواردها الاقتصادية.

فتم توزيع الدول الإسلامية ومواردها في ضوء ثقافة الإمبراطوريات الاستعمارية الرأسمالية، ولم يكن من اهتمام الدول المستعمرة تنمية الدول العربية والإسلامية، فانتشرت الأمية والفقر. وفي إطار الترويج لبضائع الدول المستعمرة في الدول العربية على سبيل المثال، نصت المادة الثامنة من اتفاقية سيكس بيكو على بقاء التعريفات الجمركية بين كل من سورية والعراق ثابتة لمدة عشرين عاماً، على ما



فيها الحكومات، وتغيب عنها الشعوب. فالشعوب أشد إيماناً بضرورة وحدة الأمة إسلامياً، بينما الحكومات تتبنى هويات أخرى.

ولا تمتلك هذه المؤسسات أية صفة إلزامية في قراراتها فيما يتعلق بالمجالات التي تعمل فيها، فكل دولة لها حرية الأخذ بهذه القرارات أو التوصيات، دون أدنى مسئولية، لذلك تفتقد هذه المؤسسات إلى وجود دور مؤثر.

ب- غياب الهوية عن المؤسسات الاقتصادية:

ويعتبر هذا الأثر من أهم النتائج السلبية التي ترتبت على سقوط دولة الخلافة؛ إذ عمدت الدول القطرية التي قامت في إطار الدولة الحديثة إلى استيراد كافة نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فأنت المؤسسات المالية القائمة على الربا، سواء في البنوك أو شركات التأمين، أو البورصات، وغيرها.

حتى إن بعض العقود التي تخص الملكية والميراث تم استيرادها من الدول الغربية أو الشيوعية، دون الاعتبار بقواعد الشريعة التي تعتبر القواعد المنظمة لهذه الأمور من الأصول الشرعية، والتي لا تخضع للاجتهاد أو حرية الأخذ أو الترك.

إلا أن هناك محاولات بُذلت في الربع الأخير من القرن العشرين لإحياء الهوية الإسلامية في المؤسسات المالية، فكلت هذه الجهود بالنجاح، إلا أن أثرها لا يزال محدوداً مقارنة بالدور المطلوب منها على مستوى الأمة أو على مستوى العالم.

ج- تعطيل مؤسسات التمويل الأهلي:

وعلى رأس هذه المؤسسات، مؤسستا الوقف والزكاة، فسيطرت الحكومات على الوقف فأهدرت أمواله، وعطلت إنشاء الأوقاف الجديدة، كما تركت الزكاة للأفراد، وتخلت الدولة عن دورها الأساس في مجال الزكاة جمعاً وإنفاقاً. فنتج عن ذلك شيوع العديد من الآفات الاجتماعية في الدول الإسلامية مثل انتشار الأمية والمرض والبطالة والفقر.

الاحتلال البريطاني أو الفرنسي أو الروسي.

ولا شك أن سقوط دولة الخلافة الإسلامية هو أحد الأحداث المهمة التي وقعت بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بنحو ست سنوات، إلا أن هذا الحدث تركزت بعده مجموعة من الآثار الاقتصادية السلبية على مستوى الأمة الإسلامية.

ويمكن أن نتناول هذه الآثار فيما يلي:

أ- ترسيخ مبدأ الاقتصاديات القطرية:

لم يعد هناك ما يسمى اقتصاد الأمة، حيث تتوحد موارد الأمة، وكذلك المشكلات والتحديات التي تواجهها، فأصبحت كل دولة قطرية تتفرد بمواردها الاقتصادية المختلفة (البشرية، الطبيعية، المالية)، فوجدنا فيما بعد هذا الاختلاف بين دول العالم الإسلامي، دولاً مرتفعة الدخل، ودولاً متوسطة الدخل، ودولاً منخفضة الدخل، ودولاً شديدة انخفاض الدخل، حتى إن تصنيف الأمم المتحدة للدول الأشد فقراً على مستوى العالم يضم نحو ٥٢ دولة على مستوى العالم، من بينها نحو ٢٢ دولة تنتمي للعالم الإسلامي.

وقد أدى وجود الاقتصاديات القطرية لدول العالم الإسلامي إلى مشكلات كثيرة، منها: وضع العوائق أمام انتقال الأفراد، ورعوس الأموال، والسلع والخدمات، فنتج عن ذلك انخفاض معدلات التجارة والنشاط الاقتصادي فيما بين الدول الإسلامية، وزيادتها مع غيرها؛ نظراً لدخول الدول القطرية الإسلامية في اتفاقيات اقتصادية في إطار جغرافي أو قومي، استبعدت منها بعض الدول الإسلامية، للاعتبارات الجغرافية أو القومية.

لقد بُذلت جهوداً منذ الربع الأخير من القرن العشرين لإنشاء مؤسسات إسلامية على مستوى الأمة، على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، والثقافي والتعليمي، إلا أنها كانت محدودة الأثر؛ لأنها تمثل

ه- سمات الصراع الأيديولوجي الاشتراكي- الرأسمالي:

بوادر السجال أو الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية كانت بادية منذ منتصف القرن التاسع عشر على الصعيد النظري، ولكن الواقع العملي لهذا الصراع، بدأ مع نهاية الحرب العالمية الأولى؛ حيث نجحت الثورة البلشفية في روسيا وإزاحة حكم القيصر هناك في عام ١٩١٧م.

وبدأ التأسيس لأول دولة شيوعية تنقل أفكار ماركس إلى أرض الواقع، ورأت أوروبا أن في قيام هذه الدولة تهديداً لحضارتها القائمة على الرأسمالية، إلا أن انشغال كل من بريطانيا وفرنسا بانتصارهما السوري بعد الحرب العالمية الأولى، وسعيهما لمعاينة ألمانيا وفرض أكبر قدر من العقوبات عليها، مكّن روسيا من إحكام قبضتها على الدولة الشيوعية الوليدة.

وكذلك كان لانشغال أوروبا بخسائرها الاقتصادية بعد الحرب العالمية الأولى، ومحاولة بريطانيا إعادة النظام الاقتصادي إلى ما كان عليه قبل الحرب، أثر في استقرار الدولة الشيوعية في روسيا. وظل الحال هكذا إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية مطلع الأربعينيات من القرن العشرين، ووجد العالم نفسه أمام نظام عالمي ثنائي القطبية، تقوده أمريكا ممثلة للغرب والرأسمالية من جهة، وروسيا التي ضمت إليها العديد من دول أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، لتكون ما عُرف بالاتحاد السوفييتي من جهة أخرى.

وثمة مجموعة من الاختلافات الجوهرية بين النظامين الاقتصاديين الاشتراكي والرأسمالي، يمكن تناولها فيما يلي:

أ- العمل:

في الوقت الذي ترى فيه الرأسمالية أن العمل هو أحد عوامل الإنتاج، وأن له عائداً متمثلاً في الأجر، وأن علاقة العمل حرة بين العامل ورب العمل؛ لأن العملية الاقتصادية برمتها تحكمها قواعد العرض

والطلب. نجد أن الاشتراكية تقوم على قاعدة أن العمل أساس القيمة، وأن أية سلعة في الحقيقة ما هي إلا العمل المبذول، ولذلك أعلت الاشتراكية من قيمة العمل والعمال، واعتبرت الملاك الحقيقيين لأدوات الإنتاج، وأن علاقات العمل يجب ألا تخضع لأصحاب رءوس الأموال.

ب- رأس المال:

اعتبرت الاشتراكية رأس المال هو العدو الأول للعمال، فرأس المال من وجهة نظر الاشتراكية ما هو إلا مجرد عمل قديم، ولكن نظراً لسوء توزيع عوائد العمل تراكمت هذه الأموال لدى أصحاب رءوس الأموال.

بينما تعلي الرأسمالية من قيمة رأس المال، وتعتبره المحرك الرئيس للنشاط الاقتصادي، فبدون وجود رأس المال والحافز على امتلاكه، لا تتولد الرغبة في ممارسة النشاط الاقتصادي.

ولعلنا نلمس هذه الحركة الدعوية لرءوس الأموال منذ سيطرة الرأسمالية على مقدرات الاقتصاد العالمي، بعد سقوط الاتحاد السوفييتي في نهاية الثمانينيات، فزادت حركة التجارة الدولية بمعدلات كبيرة، كما نشطت حركة رءوس الأموال الأجنبية لتتجاوز نحو تريليون دولار سنوياً على مستوى العالم. بل اعتبرت أن أحد أهم المقومات الاقتصادية للدول يتمثل في قدرتها على جذب الاستثمارات الأجنبية.

ج- الملكية:

يذهب النظام الاشتراكي إلى تبني الملكية العامة، وإن سمح بالملكيات الخاصة فتكون في أضيق الحدود، وعلى النقيض يذهب النظام الرأسمالي، فالأصل في الملكية هي الملكية الخاصة، ولا تكون هناك ملكيات عامة، أو ملكيات للدولة إلا في أضيق نطاق.

د- المبادرة الاقتصادية:

سياسية كبرى وعريقة. ولكنها في نفس الوقت تحافظ على بنية النظام الرأسمالي.

والمقصود بالمبادرة الاقتصادية، هو من المعنى بالقيام بالنشاط الاقتصادي؛ فالاشتراكية تعتمد على أن

الدولة هي التي تقوم بكافة أنواع النشاط الاقتصادي؛ لذلك تمتلك الدولة ما يسمى بجهاز التخطيط المركزي، الذي يسيطر على كافة الموارد، ويحدد كافة الاحتياجات، ويطرح قرارات الإنتاج التي توفق بين الموارد والاحتياجات. ولذلك نجد دور الدولة في النظام الاشتراكي هو الأصل فهو يشكل كل شيء من إنتاج وتقديم السلع والخدمات.

أما النظام الرأسمالي فهو يعتمد على المبادرة الاقتصادية للأفراد بشكل أصيل، وأن الدولة دورها محدود في إطار الدولة الحارسة، ويترك النظام الرأسمالي المبادرة الاقتصادية لقوى العرض والطلب، ولم تتدخل الدولة في النشاط الاقتصادي إلا بعد أزمة الكساد الكبير، وتتدخل بحساب، مع مراعاة أن يكون الجانب الاقتصادي الأكبر متروكاً للقطاع الخاص.

ولا يعني ذلك أن الاقتصاديات الرأسمالية لا تعرف التخطيط، فليها ما يعرف بالتخطيط التأشير، أي: تقديم المزايا الضريبية والجمركية والتأمينية وغيرها للمستثمرين؛ لكي يتوجهوا للأنشطة والقطاعات الاقتصادية التي ترغب فيها الدولة^(١).

على الصعيد العملي اكتسب العمال الكثير من الحقوق في المجتمعات الرأسمالية، لكن بعد تضحيات كبيرة، وأصبحت الحركات العمالية تمتلك نقابات قوية تحافظ على حقوقها ومكتسباتها، ولديها أحزاب

كما تحولت كبرى الدول الاشتراكية إلى العمل

بقواعد السوق والنظام الرأسمالي

بعد سقوط الاتحاد السوفيتي

نهاية الثمانينيات من القرن

العشرين، وأوضح مثال على ذلك

التوجه الصيني والروسي؛ حيث

تلعب حركة رؤوس الأموال الغربية

دورًا واضحًا في الصين وروسيا

وغيرهما من خلال الاستثمارات

الأجنبية المباشرة. كما سعت كل

من الصين وروسيا للانضمام

لمنظمة التجارة العالمية، ولم تقبل عضويتها إلا بعد

نحو عشر سنوات من الانتظار، وتطبيق العديد من

الشروط الخاصة بحرية التجارة التي تتطلبها عضوية

المنظمة.

بل إن لغة المصالح تجعل الصين تعارض السياسات

الحمائية التي تتبناها أمريكا ودول الاتحاد الأوروبي

تجاه منتجاتها، وتطلب بحرية التجارة، فالصين صاحبة

حصص لا يُستهان بها في الصادرات العالمية، وبخاصة

إلى أسواق أمريكا وأوروبا، وتعتبر الصين أمريكا ودول

الاتحاد الأوروبي جزءًا أصيلاً من أسواقها الرئيسية.

٦- تطورات النظام الاقتصادي العالمي بعد

الحرب العالمية الثانية:

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كانت خريطة القوى

الاقتصادية الدولية قد تغيرت تمامًا، لصالح محورين

أساسيين، هما أمريكا كراعية للنظام الرأسمالي،

ومعها دول أوروبا الغربية، والاتحاد السوفيتي ومعها

بلدان أوروبا الشرقية.

إلا أن النظام الاقتصادي العالمي اتجه لترسيخ

مجموعة من قواعده المتمثلة في إنشاء مؤسسات دولية

(١) أحمد رضوان (مترجم)، جورج هالم النظم الاقتصادية

تحليل مقارن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١م، ص

٢٧ - ٢٩ و ٨١ - ٨٥.

منذ ذلك التاريخ العديد من الاقصاديات الاشتراكية أو المختلطة إلى النظام الرأسمالي، وهول الجميع للاندماج في العولة الاقتصادية مخافة العزلة الاقتصادية.

ومع نهاية عام ١٩٩٤م أعلن عن انتهاء جولة أورجواي في محادثات الدار البيضاء، والتي كان من أهم نتائجها: إنشاء منظمة التجارة العالمية، والتي دخلت حيز التنفيذ وممارسة عملها في يناير ١٩٩٥م، والتي كان من أهم مبادئها: تحرير التجارة العالمية^(٢).

مع نهاية عقد التسعينيات، وبداية الألفية الثالثة، تبذت للعالم مساوئ نظام العولة الاقتصادي، وما وصف بالعولة المتوحشة؛ حيث زادت معدلات الفقر والبطالة، ولم يعبأ بالآثار الاجتماعية السلبية الناتجة عن تطبيق برامج الإصلاح الاقتصادي الرأسمالية.

وبقي الملمح المميز للعولة في المقولة الشهيرة «ازداد الأغنياء غنى، وازداد الفقراء فقراً».

وفي النصف الثاني من العقد الأول للألفية الثالثة شهد الاقتصاد العالمي مجموعة من الأزمات الاقتصادية العالمية، منها أزمة الغذاء والتي تضرر منها العديد من الفقراء وزيادة نسب الجوع في العالم، وكذلك أزمة الطاقة التي نتج عنها ارتفاع معدلات التضخم في العديد من دول العالم، وبخاصة الدول النامية.

إلا أن الأزمة المالية العالمية التي وقعت في شهر أغسطس عام ٢٠٠٨م، كانت قاصمة الظهر لنظام العولة؛ حيث انهارت أسواق المال والعديد من المؤسسات المالية العالمية، وبخاصة في أمريكا والغرب، ونتج عنها ارتفاع في معدلات البطالة، وتأثر حركة

معنية بالجوانب المالية والتموية المتمثلة في الصندوق والبنك الدوليين، واعتماد الدولار كعملة دولية لتسوية المعاملات الدولية، وكان الدولار عقب الحرب العالمية الثانية مقومًا بالذهب، ولم يُستقر في ذلك الحين على وجود مؤسسة دولية لشئون التجارة الدولية.

إلا أنها في بداية عقد السبعينيات من القرن العشرين تخلت أمريكا عن قاعدة الذهب، وأصبحت تضمن ما يصدر من عملتها بضمان خزانتها العامة، وهو ما أوجد مشكلة لدى البعض حتى اليوم وتوجيه اتهام لأمريكا بأنها تستنزف ثروات العالم نظير إصدار البنكنوت الأمريكي^(١).

وتبنت الدول النامية في غالبتها النهج الاشتراكي في إطار العداء التاريخي للغرب الذي كان يحتل هذه الدول، واتجه عدد قليل من الدول إلى تبني نفس السياسات الرأسمالية، وكانت

الدول الإسلامية بين هذين النهجين، الاشتراكي والرأسمالي، دون وجود أي توجه لوجود كيان إسلامي حقيقي يستهدف تحقيق تعاون أو تكامل اقتصادي بين دول العالم الإسلامي.

ظلت المواجهة بصور مختلفة بين محوري النظام العالمي خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وحتى نهاية الثمانينيات؛ حيث انهار ما كان يُعرف بالاتحاد السوفييتي، وانهارت معه العديد من اقتصاديات الدول الاشتراكية.

وفي بداية التسعينيات من القرن العشرين كان ميلاد نظام اقتصادي عالمي، أحادي القطبية بزعامة أمريكا، وسيادة النظام الرأسمالي اقتصاديًا، وتحولت

(١) يوسف كمال محمد، الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٦م، ص ٥٠.

(٢) د. حازم الببلاوي، مرجع سابق، ص ٢٣٢ - ٢٤٠.

هذه المرحلة، وتعد في تصنيف الدول الصاعدة وهي ماليزيا واندونيسيا وتركيا. وإن كانت هذه الدول تمثل حالات نجاح إلا أنها لا تزال تعمل في إطار النظام الاقتصادي الغربي، ولم تبدأ بعد خطوات نحو وحدة اقتصادية إسلامية، وإن كانت بعض هذه الدول، وهي ماليزيا تشهد حراكاً قوياً في مجال الاقتصاد والتمويل الإسلامي، سواء على الصعيد النظري أو العملي من خلال المؤسسات المالية الإسلامية.

٧- دول الربيع العربي والوجهة الاقتصادية الصحيحة:

دروس التاريخ هي أهم ما يجب أن تُبنى عليها الخطط والرؤى الاقتصادية المستقبلية، ولقد مرت اقتصاديات دول الربيع العربي بمجموعة من التجارب الاقتصادية، التي لم تحصل مع أي منها على نتائج ملموسة تغيّر من وضعها التثموي.

فإذا نظرنا إلى التصنيف التثموي لاقتصاديات دول الربيع العربي (تونس، مصر، ليبيا، اليمن، سورية) نجدها تقع تحت تصنيف الدول النامية، باستثناء اليمن فإنه يُصنّف على أنه اقتصاد أقل نمواً. وذلك على الرغم من مرور أكثر من نحو ستة عقود على استقلال هذه الدول من وطأة الاستعمار العسكري.

ولقد عانت هذه الدول منذ استقلالها من وجود الحكومات العسكرية، وتبنيها جميعاً في بداية استقلالها للنظم الاشتراكية.

ثم تحولت هذه الدول مع بداية تسعينيات القرن العشرين لتبني اقتصاديات السوق، وسارت في طريق تطبيق برامج للإصلاح الاقتصادي من خلال المؤسسات الدولية، ولم تتخلف دولة من دول الربيع العربي عن السير في ركاب ما عُرف بالعولة الاقتصادية.

وننتج عن هذا التحول غير المدروس - والذي لم يراع التدرج المطلوب لبناء قطاع خاص قوي يصلح لتحمل تبعات التنمية- العديد من المشكلات التي أدت لضعف

النمو الاقتصادي في أمريكا وأوروبا مما أضرّ بعصب الاقتصاد العالمي^(١).

ولا يزال الاقتصاد العالمي يعاني من الآثار السلبية للأزمة المالية العالمية، ومنذ سنتين وأوروبا تعيش موجة جديدة من توابع الأزمة المالية العالمية، وتبذل جهوداً كبيرة لإخراج أوروبا من هذه الأزمة.

إلا أن من أهم نتائج الأزمة المالية العالمية في عام ٢٠٠٨م، ليس فقط تراجع معدلات تقدم العولة المتوحشة، ولكن ظهور بوادر لنظام اقتصادي عالمي متعدد الأقطاب، أصبح لما يُعرف بالدول الصاعدة (الصين، الهند، روسيا، البرازيل، جنوب إفريقيا) فيه دور قوي ومؤثر، سوف ينعكس على دور المؤسسات الدولية، وتغيير خريطة القوى الاقتصادية الدولية، لتكون الدول الصاعدة صاحبة مساحة معتبرة في تكوين هذه الخريطة.

ولعل التكوين الخاص بمجموعة العشرين يبرز هذا الدور الجديد للدول الصاعدة، ويؤكد المعنى الخاص ببروز نظام اقتصادي عالمي جديد، يعكس تكوين خريطة القوى الاقتصادية، فلم يعد أمر الاقتصاد العالمي مرهوناً بقرارات الدول الرأسمالية الغربية.

فمقرب الأزمة المالية العالمية تناولت اجتماعات مجموعة العشرين ضرورة مراجعة الأدوار المنوطة بالمؤسسات الدولية لفشلها في إدارة النظام المالي العالمي، كما طالبت الصين وغيرها بضرورة وجود عملة دولية أخرى غير الدولار للتسويات التجارية الدولية، وهو ما عارضته أمريكا بقوة.

وفيما يتعلق بوضع دول العالم الإسلامي في ظل معطيات نظام العولة وما بعده من فترة مخاض نظام اقتصادي عالمي جديد، نجد جميع الدول الإسلامية تحت مظلة الدول النامية بما فيها الدول ذات الدخل المرتفعة (الدول النفطية)، باستثناء ثلاث دول تخطت

(١) تقرير الاتجاهات الاقتصادية الاستراتيجية ٢٠١٠م، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ص ٢٥ - ٣٠، بتصرف يسير.

على الصعيد العالمي، بعد الأزمة المالية العالمية في عام ٢٠٠٨م.

كما أن أهم ما يميز النظام الإسلامي وتحتاجه دول الربيع العربي هو أن هذا النظام أول ما يعتني به هو بناء الإنسان روحياً ومادياً، ثم الدافعية الذاتية لتعمير الأرض، والمضي قدماً لتحقيق التنمية في إطار من الذاتية، وأيضاً ما يتضمنه هذا النظام من قواعد التعاون على البر والتقوى سواء في تعامله مع الآخر على الصعيد الدولي، أو تلك الروح التكافلية على الصعيد الداخلي، من خلال تفعيل منظومتي الوقف والزكاة، وسائر الأعمال التطوعية الاجتماعية، التي تخفف عن كاهل الدولة الكثير من الأعباء في مجال الإنفاق الاجتماعي.

والمعلوم أن المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها دول الربيع العربي كثيرة ومعقدة، ولكن وجود الرؤية الإسلامية الواضحة، والتي تقوم على المصارحة والشفافية في معالجة هذه المشكلات، وكذلك بعض الإسلام للدكتاتورية والفساد، يؤدي إلى تطبيق أفضل لصالح اقتصاديات دول الربيع العربي، مع الأخذ في الاعتبار أن الرؤية الإسلامية على الصعيد الاقتصادي تحترم الأخذ بالأسباب، وأنها لا تمتلك عصاً سحرية، وأن الزمن جزء من العلاج، وإن كانت تكنولوجيا العصر، التي هي واحدة من الأسباب من شأنها أن تختصر عنصر الزمن.

خاتمة:

أمام الأمة الإسلامية العديد من التجارب للنهوض والوحدة، أبرزها تجربة الاتحاد الأوروبي، والتي استغرقت نحو نصف قرن من الزمان لتصل إلى مرحلة الاتحاد الاقتصادي والسياسي والأمني، وإن كان الاقتصاد هو المدخل الرئيس لهذه التجربة في بداية خمسينيات القرن العشرين.

أيضاً أمامها تجربة شرقية بحثة تمثل في تجربة

البنى الاقتصادية لهذه الدول، وكذلك وجود العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، مثل البطالة والفقر، أو الهجرة غير الشرعية إلى الدول الأوروبية، وغيرها.

ومما لوحظ بعد نجاح ثورات الربيع العربي على الصعيد الاقتصادي، أن ثمة رغبة من قِبَل البعض بتبني النظام الرأسمالي، والسير في نفس الاتجاه الذي كانت تتبعه الحكومات الديكتاتورية، مع بعض الإصلاحات على الصعيد الاجتماعي. إلا أن فريقتاً آخر -لا تزال تداعبه أحلام العودة إلى العصور الاشتراكية- يطالب بعودة قوية للدولة في النشاط الاقتصادي من خلال القطاع العام، وتبني الحكومة لبرامج تشغيل عام، وهكذا.

إلا أن التوجه الإسلامي كان واضحاً بين تلك المطالبات؛ حيث كان الإسلاميون عماد العديد من هذه الثورات، ونالوا ثقة مجتمعاتهم في الاستحقاقات الانتخابية التي تلت ثورات الربيع العربي. لذلك تم طرح النظام الإسلامي، ليكون حاكماً للنشاط التنموي والاقتصادي في تلك الدول، وهو ما هُوجِم بشكل كبير من القوى السياسية الأخرى، وكذلك من قِبَل التيارات الفكرية التي لا تقبل الإسلام من حيث الأصل، وتراه عدواً لها^(١).

إن ما يصلح لدول الربيع العربي الآن على الصعيد الاقتصادي، هو النظام الإسلامي؛ وذلك لمجموعة من الأسباب:

من أهمها: وجود الخلفيات العقائدية الممهدة لهذا النظام، بل والمرحبة به على أرض الواقع، من خلال امتداد شبكات المصارف الإسلامية، وشركات التأمين التكافلي، وأسواق المال الإسلامية، وكذلك ما وُجد من ترحيب بقواعد المنهجية الاقتصادية الإسلامية

(١) عبدالحافظ الصاوي، التوجه الاقتصادي لمصر وصراع الأيديولوجيات، الجزيرة نت، مارس ٢٠١٣م.

<http://www.aljazeera.net/Home/GetPage/f138ebfe-da19-4e0b-ade7-9c3d3ee6ff34/8963c2e5-562e-47f1-931f-a316cbe25fb2>

وهوية الشعوب الإسلامية، ولعل التجربة الوليدة لدول الربيع العربي بداية لمعاودة بناء اقتصاديات هذه الدول بشكل صحيح وفق المنهج الإسلامي، لتكون نواة نحو اقتصاديات الأمة الإسلامية.

ومن الضروري لدول الربيع العربي أن ترتب أولوياتها الاقتصادية والاجتماعية، وأن تؤكد على أهمية مشاركة المجتمع فيما تتبناه الحكومات من مقترحات

وحلول لمشكلاتها، فشركاء التنمية ليسوا فقط الحكومات ومجتمع الأعمال، ولكن المجتمع الأهلي له دور كبير، فهو صاحب المدخرات، وهو صاحب المبادرات الأهلية التي تمول كثيراً من المشروعات خارج الموازنة العامة للدولة، كما أنه القطاع الأصيل المستهدف بالتنمية والمنوط به القيام بتبعتها.

سوف تواجه التجربة الكثير من العقبات، وهذا أمر طبيعي، ولكن الهدف يستحق تحمل مشاق هذه العقبات، وبخاصة أن كل التجارب واجهت هذه العقبات، واستطاعت مع الوقت والإصرار على النجاح أن تتخطى هذه العقبات.

الآسيان، والتي كانت أهم دروسها الاستفادة تجنيب المنطقة الدخول في صراع الحروب وسباق التسلح، وتسخير مواردها للتنمية الاقتصادية، ولقد أفادت تجربة مجموعة الآسيان كذلك بدرس مهم يناسب الدول العربية والإسلامية، وهو نجاح نموذج التنمية الذاتية؛ حيث تم الاعتماد على المدخرات المحلية في بناء التجربة التنموية، وكذلك التركيز على التنمية البشرية

في مجالي التعليم والصحة، من أجل إحراز التقدم الذي يلمسه العالم، ولقد كانت دول الآسيان من خلال البناء التتموي القوي أقل عرضة للأزمات الاقتصادية الدولية، أو حتى تلك الأزمات الإقليمية التي ضربت بعض دولها في عام ١٩٩٧م.

وبعد مرور مائة عام على الحرب العالمية الأولى، بإمكان دول العالم

الإسلامي، أن تستفيد من هذه التجارب لتتجه نحو وحدتها الحتمية، التي لن تجد فيما سواها أي نوع من الحماية الاجتماعية أو التنمية الاقتصادية.

لقد خرجت دول العالم الإسلامي من وطأة الاستعمار منذ نحو ستة عقود، وتخطت بما فيه الكفاية بين نظم اقتصادية واجتماعية لا تتفق وفطرة

بعد مرور مائة عام على الحرب العالمية الأولى، بإمكان دول العالم الإسلامي، أن تستفيد من هذه التجارب لتتجه نحو وحدتها الحتمية، التي لن تجد فيما سواها أي نوع من الحماية الاجتماعية أو التنمية الاقتصادية.

معلومات إضافية

نظرية كينز:

وُلد الاقتصادي المعروف جون مينارد كينز (John Maynard Keynes) في مدينة كامبريدج في المملكة المتحدة عام ١٨٨٣م. درس كينز الاقتصاد والحساب في كلية الملوك وتأثر كثيرًا بالاقتصادي الكبير الفريد مارشال، وبعد تخرجه عمل كينز مدرسًا للاقتصاد في نفس الكلية. وإضافة لعمله كأستاذ جامعي، قام كينز بتقديم خدمات كثيرة للحكومة البريطانية، نذكر منها على سبيل المثال حضور مؤتمر فرساي للسلام.

قام كينز باقتراح عدة مبادئ عن الاقتصاد الكلي لاقت رواجًا كبيرًا لدى الدوائر الحكومية وفي أوساط المؤسسات الأكاديمية كالجوامع والكليات، وقد تم نشر هذه المبادئ الاقتصادية في كتابه «النظرية العامة للعمالة والفائدة والنقد».

دافع عن سياسات التدخل الحكومية في الاقتصاد؛ حيث تتدخل الحكومات عن طريق إجراءات مالية ونقدية لتخفيف الآثار العكسية للركود الاقتصادي والكساد والفورة الاقتصادية.

وتعتبر أفكاره الأساس لمدرسة في الاقتصاد تعرف باسم الاقتصاد الكينزي، كما كانت المحرك للسياسات الاقتصادية الحالية للرئيس الأمريكي باراك أوباما وزعماء آخرين لإنقاذ الاقتصاد من الركود.

هو مؤسس النظرية الكينزية، وعارض النظرية الكلاسيكية التي كانت من المسلّمات في ذلك الوقت. وقد حوّل كينز أنظار الاقتصاديين إلى علم الاقتصاد الكلي.

دور الدولة:

ومن أهم ما تقوم عليه نظريته أن الدولة تستطيع عبر سياسة الضرائب والسياسة المالية والنقدية أن تتحكم بما تسمى الدورات الاقتصادية. وله كتب أخرى في نظرية النقود ونظرية الاحتمالات الرياضية.

ظهرت النظرية الكينزية في الاقتصاد عبر فترة حرجية من تاريخ العالم، وهي تلك التي امتدت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية؛ حيث خيّمَت أصعب فترات الأزمة الاقتصادية الكبرى. وقد جاءت النظرية الكينزية لتتناهض -إلى حد بعيد- النظرية الكلاسيكية في الاقتصاد التي جاء بها آدم سميث.

وكانت لنجاح النظرية الكينزية أصداء كبيرة في العالم في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، حتى إن جميع الحكومات الرأسمالية في العالم طبقتها.

رأت النظرية الكينزية أن التشغيل قد يكون أقل في حالة توازن الاقتصاد، وأنه يتعين على الحكومة تشجيع الإنفاق عبر تمويل العجز لضمان العمل للجميع.

وقد كان لهذه النظرية كبير الأثر؛ حيث نزعَت الحكومات إلى الالتزام بمسئولية ضمان العمل للجميع، على الرغم من أنها لم توفّق دائمًا في القيام بذلك.

أزمة ١٩٢٩م: انهيار اقتصادي لا سابق له «والكساد الكبير»:

بدأت الأزمة الاقتصادية عام ١٩٢٩م، التي تذكر بها الاضطرابات المالية التي تشهدها الأسواق حالياً، بانهايار في البورصة لا سابق له في الولايات المتحدة أدى إلى عمليات إفلاس وبطالة معمة عبر الدول الصناعية.

وانطلقت الأزمة الخميس في ٢٤ أكتوبر ١٩٢٩م في بورصة نيويورك بعدما طُرح ١٣ مليون سهم في السوق، لكن الأسعار انهارت بسبب غياب مشترين.

وانتشر الذعر وهرع المستثمرون والفضوليون إلى البورصة في حين بدأ الوسطاء البيع بكثافة. وقرابة ظهر ذلك اليوم خسر مؤشر داو جونز ٢٢,٦ في المائة من قيمته. وبعد ساعات قليلة وجد آلاف المساهمين أنفسهم مفلسين. وتقيد الروايات بأن ١١ مضارباً انتحروا في نهاية النهار بإلقاء أنفسهم من ناطحات سحاب في مناهتن.

وقد تبخر ما مجموعه سبعة إلى تسعة مليارات دولار في يوم واحد. وانهارت البورصة، خاسرة ٣٠ في المائة من قيمتها في أكتوبر ٥٠ في المائة في نوفمبر (تشرين الثاني). وبلغت الخسائر الإجمالية ٣٠ مليار دولار، أي عشر مرات أكثر من الميزانية الفيدرالية وأكثر من النفقات الأمريكية خلال الحرب العالمية الأولى.

وبقي «الخميس الأسود» راسخاً في الذاكرة الجماعية، ويحضرها جسد العام ١٩٢٩م إلى النفوس كلما حصلت اضطرابات في الأسواق المالية.

وكانت هذه النكسة المالية الكبيرة مقدمة للأزمة الكبرى التي ضربت الولايات المتحدة وأوروبا. وأتى ذلك رغم أن الولايات المتحدة كانت تتمتع منذ مطلع عشرينيات القرن الماضي بازدهار اقتصادي مدعوم بارتفاع في أرباح الشركات وفي أسعار أسهمها. وكان نحو ٢ في المائة من الشعب الأمريكي يملك أسهماً وسندات في البورصة؛ اقتناعاً منهم بإمكانية تحقيق مكاسب سريعة.

وبلغت بورصة وول ستريت أعلى مستوى لها في الثالث من سبتمبر ١٩٢٩م، والمضاربون الذين لم تكن تتوافر لهم الوسائل كانوا يجرون تعاملاتهم معتمدين على قروض أو من خلال إيداع سندات أخرى تشكل ضمانات. ولم يكن أحد يدرك أن أسعار الأسهم في البورصة كانت تفوق قيمتها الفعلية مما جعل وول ستريت تفقد أي اتصال مع الواقع الاقتصادي.

و«الخميس الأسود» الذي شكّل نهاية لمرحلة المضاربة هذه انعكس على كل الأسواق المالية العالمية بدءاً بلندن.

وفي ربيع العام ١٩٣٠م دخلت الولايات المتحدة مرحلة انكماش، ما أدى إلى تراجع الإنتاج وإلى عمليات إفلاس كانت تداعياتها الأخطر بطالة واسعة. وتحول حادث في البورصة سريعاً إلى أزمة عالمية حادة للغاية هي الأخطر التي شهدتها النظام الرأسمالي. وبسبب ثقل الاقتصاد الأمريكي (٤٥ في المائة من الإنتاج الصناعي العالمي) انتقلت عدوى الأزمة الاقتصادية الكبرى في الثلاثينيات إلى الدول الغربية.

وبدأ الانتعاش في الولايات المتحدة عام ١٩٣٣م مع سياسة «العهد الجديد» (نيو ديل) التي وضعها فرانكلين روزفلت. وفي ألمانيا تسببت الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في انهيار جمهورية فيمار، واستغلها النازيون للوصول إلى السلطة وعمدوا إلى تنشيط الاقتصاد عبر مشاريع ضخمة، وإعادة تسليح عسكرية كثيفة.

تبيّن أن أزمة الكساد العظيم ترجع بصفة رئيسة إلى سعر الفائدة من خلال الاقتراض قصير الأجل بفائدة

كما ذكر الاقتصادي الأمريكي (سيمونز) إضافة إلى حدوث انحرافات وممارسات غير أخلاقية في أسواق المال؛ في مقدمتها المقامرة التي كان لها الدور الأكبر في انهيار السوق من خلال المضاربة اعتماداً على البيع الصوري، واتفاقيات التلاعب في أسعار الأوراق المالية، والشراء بغرض الاحتكار.

وقد أفلست العديد من الشركات، وانتشرت البطالة، فانخفض الطلب على السلع والخدمات، وانخفضت معها أسعارها، كذلك فشل المدينون في الوفاء بما عليهم من التزامات، فأحجم المقرضون عن تقديم الائتمان، وانخفض بالتالي حجم الاستثمار، وواجهت البنوك صعوبة في تحصيل مستحقاتها، فشلت في تلبية مسحوبات العملاء، وأعلن إفلاس الكثير منها؛ ففي الولايات المتحدة وحدها أعلن إفلاس ٥٠٠٠ بنك، وخسر المودعون ما يعادل ٣ بلايين دولار، حتى اضطر الرئيس الأمريكي (روزفلت) إلى إعلان إغلاق جميع البنوك، وذلك اعتباراً من ٦ مارس ١٩٣٣م، ثم سمح للبنوك التي لديها قدرًا من السيولة أن تفتح أبوابها بعد أسبوع من ذلك التاريخ.

المصادر:

١- موقع الحوار المتمدن

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=140310>

٢- الجزيرة نت

<http://www.aljazeera.net/ebusiness/pages/7288a0c2-169c-4319-9fb1-4d85784b9ded>

٣- صحيفة الشرق الأوسط اللندنية

http://www.aawsat.com/details.asp?issueno=10626&article=487323#UkIndtLia_Y

٤- المركز الوطني لدعم القرار ليبيا:

http://www.npdc.gov.ly/index.php?option=com_content&view=article&id=34:2012-08-15-08-12-36&catid=4:2012-08-02-22-28-43&Itemid=7

